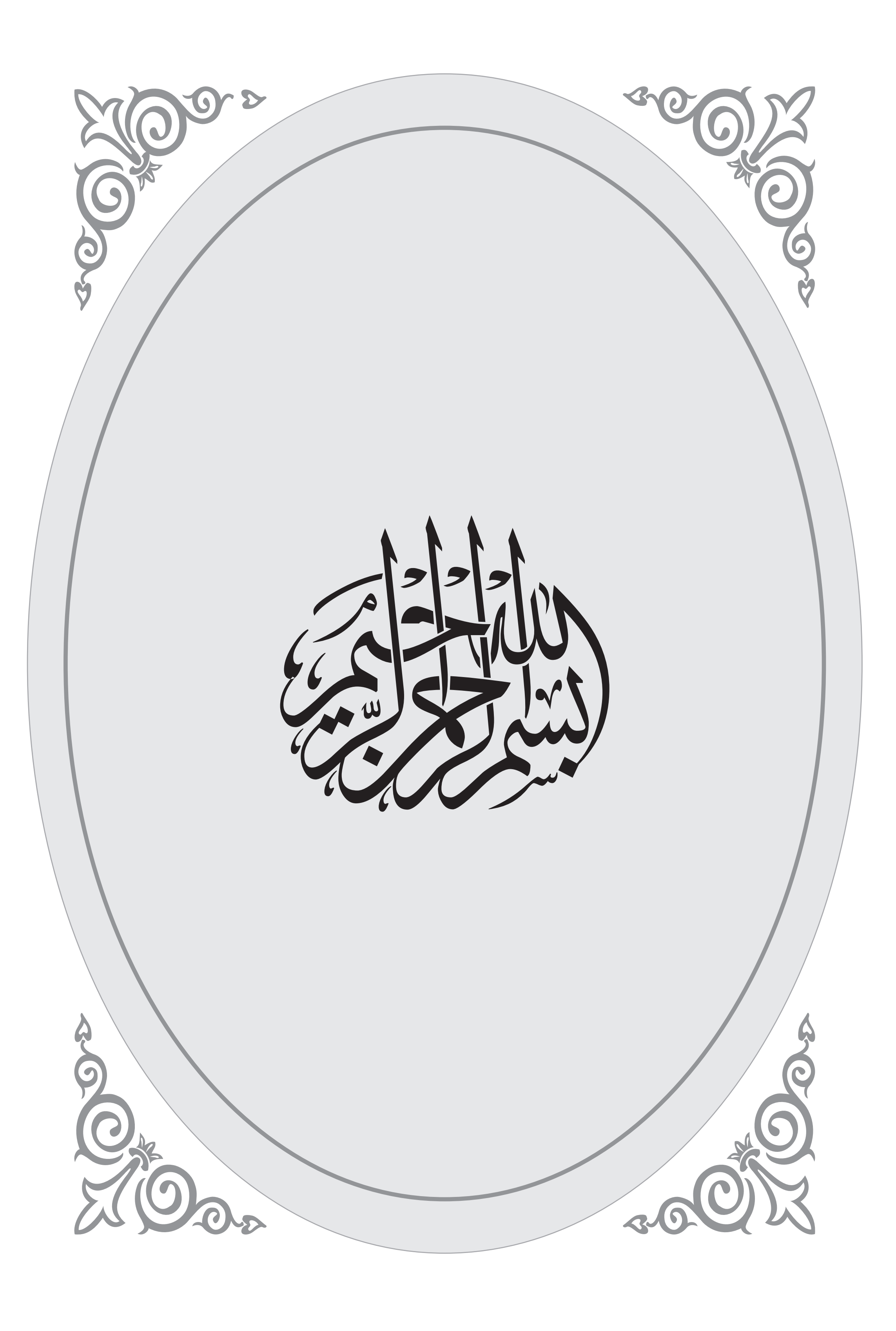
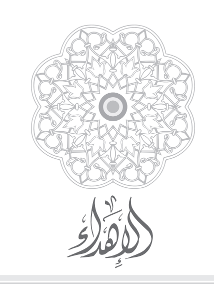
إبراهيم عليه السلام خليل الله

داعية التوحيد ودين الإسلام
والأسوة الحسنة

تأليف
د. علي محمد محمد الصلابي

دار ابن كثير


بسم الله الرحمن الرحيم



إلى إخوتي وأخواتي، الباحثين عن قدوة لهم في حياتهم العَقديّة والرُّوحيّة والأخلاقيّة والسلوكيّة والفِكريّة. . .

إلى الباحثين عن أجوبة شافية للأسئلة الوجوديّة الكبرى، عن وحدانيّة الله تعالى، وخَلْق الكون، والجنّة والنار، والقضاء والقدر، والرسالات والنُّبوات، وسُنن الله في خلقه، والصراع بين الحقِّ والباطل، والخير والشرّ، والهدى والضلال، والكفر والإيمان.

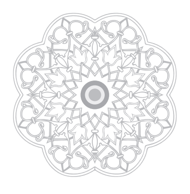
إلى العقول النيِّرة، وأصحاب الفطرة السليمة، والأفئدة النقيّة، الذين هم في أمسّ الحاجة إلى معرفة سِير الأنبياء والمرسلين عامّة، وأولي العزم من الرسل خاصة، ومنهم سيّدنا إبراهيم الخليل عليه السَّلام (أبو الأنبياءِ والمرسلين من بعده)، من خلال كتاب الله الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

إلى أبناء الأمة الرائعين؛ رجالاً ونساء، شيبًا وشبابًا، الذين يُعانون ويصبرون، ويدافعون عن القيم الرفيعة والمبادئ السامية، ويُعلُون كلمة الحقّ، وينشرون الحقيقة في مشارق الأرض ومغاربها.

إلى كل هؤلاء أهدي هذا العمل، سائلاً المولى عزَّ وجلَّ أن يجعله نبراسًا يهتدي به التائهون، ومصدرًا للباحثين عن الحقيقة التاريخية، وعلمًا نافعًا للإنسانية جمعاء.

وإنَّه لكتابٌ فيه كثير من المعاني والدروس والفوائد والعِبر والسنن والنواميس، فما كان فيه من نقص فهو من نفسي، وما كان فيه من صواب وخير فهو بتوفيق الله الذي منه نستمد السَّداد والهداية والقَبول، ومنه نرجو العفوَ والرِّضا والرحمة، إنه سميع مجيب.

❊ ❊ ❊



تقديم

بقلم أ.د. علي محيي الدين القره داغي

الأمين العام للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين، وعلى آله الطَّيبين، وصحبه أجمعين، ومن تبع هداه إلى يوم الدين.

وبعد:

فقد خصّ اللهُ تعالى سيدنا إبراهيمَ عليه السلام بميزات عظيمة، من أهمها أنه أمر الرسول الخاتم محمداً ﷺ بأن يقتدي هو وأمته به في آيتين عظيمتين، فقال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤]، ثم أكَّد على أن هذه القدوة شاملة فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأٓخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الممتحنة: ٦].

إن مما لا شكَّ فيه أن هذا التخصص لسيدنا إبراهيم عليه السلام بهذه الأسوة والقدوة ليحملُ دلالات كبرى، وإشارات وإضاءات عظمى، من أهمها:

أولًا: إن منهاجَ سيدنا إبراهيم عليه السلام في إثبات العقيدة والتوحيد منهاج خالد منسجم مع الفطرة السليمة، والبراهين القوية، والحجج القويمة، وهو نفسه منهاج الحبيب المصطفى، وأن دينه قائمٌ على الفطرة والحجج والبراهين.

ثانياً: وإن منهاج سيدنا إبراهيم عليه السلام كان يقومُ على الرحمة بأمته، بل بالناس أجمعين، وعلى اليسر والتبشير، فقال تعالى حكاية عنه: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

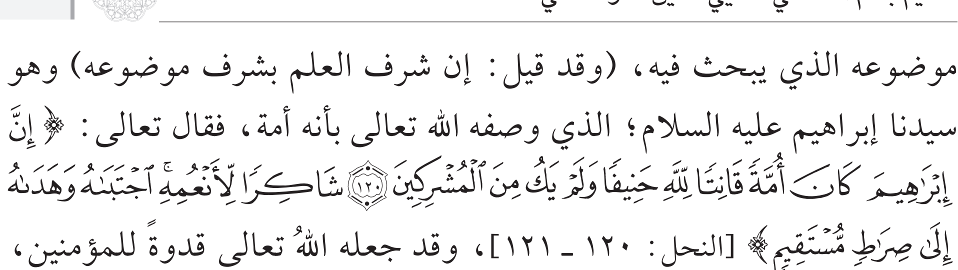
وهو أيضاً المنهج الذي اتبعه الحبيبُ المصطفى ﷺ، ففي غزوة بدر، وحول ما هو مطلوبٌ من التصرف مع أسرى قريش، استشار صحابته رضي الله عنهم، فأشار عليه عمر رضي الله عنه بقتلهم جميعاً، وأشار عليه أبو بكر رضي الله عنه بالعفو عنهم مع الفداء، فاختار الحبيبُ المصطفى ﷺ منهجَ سيدنا إبراهيم عليه السلام، وهو العفو والفداء، والرحمة والبناء، ثم شَبَّه أبا بكر بسيدنا إبراهيم عليه السلام فقال: «**إنَّ مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم عليه السلام**»[١].

وكذلك فإن رسول الله ﷺ قد حصر اللهُ رسالتَه في الرحمة بالعالمين، وجعل شريعته قائمةً على اليسر ورفع الحرج، فقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وكذلك كانت شريعةُ إبراهيم عليه السلام بصورة عامة.

الكتاب سيرة ومسيرة:

إن هذا الكتابَ الذي نقدِّمه للباحثين والقراء الكرام يكمنُ شرفه وأهميته في

(١) رواه مسلم في صحيحه، الحديث ١٧٦٢، ويراجع شرحه للنووي (١٢/ ٨٦ ـ ٨٧).



موضوعه الذي يبحث فيه، (وقد قيل: إن شرف العلم بشرف موضوعه) وهو سيدنا إبراهيم عليه السلام؛ الذي وصفه الله تعالى بأنه أمة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢٠ ـ ١٢١]، وقد جعله اللهُ تعالى قدوةً للمؤمنين، وإماماً للناس أجمعين، فقال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، كما أنه خليل الله تعالى الذي آتاه حجته، فقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣].

فقد استطاع مؤلفُه فضيلةُ أخي الدكتور علي الصلابي بعلمه، وخبرته، ودقته أن يكشفَ الستارَ عن خلاصة تأريخ الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، من خلال بحثه عن أبي الأنبياء، حيث أفاض وأفاد، وأطال النفسَ في استخراج العِبَر والقدوة والدروس، مؤكِّداً على سيرة سيدنا إبراهيم عليه السلام في موكب الأنبياء والمرسلين، وما ذكره القرآنُ الكريم حوله في عدة سور وآيات، وحواراته مع والده، وولده، وقومه، ومع الملائكة، والملوك، وغير ذلك.

ومما امتاز به الكتابُ الجانبَ التربوي، حيث إنه قد استخرج واستنبط مجموعةً من العبر، والحكم، والأحكام، وسنن الله تعالى في الهداية والضلالة، والنجاة والنصر والهلاك والابتلاء، وفي تربية الأولاد، حيث إن إبراهيم عليه السلام كان ناجحاً في تربية ولديه نجاحاً عظيماً، حتى جعلهما الله تعالى من الأنبياء، وفي تربية أحفاده، ووصيته لهم، حتى جُعِل عددٌ كبيرٌ منهم أنبياء، ومرسلين، بل أصبح حقًّا أبا الأنبياء والمرسلين.

وكذلك ما استخرجه المؤلفُ من صحف إبراهيم من بيان الدين الحنيفي (الإسلام)، والحلم، والتَّأوّه، والإنابة، والشكر، والدعاء، والقنوت، وسلامة القلب، وعمارة بيت الحرام، وإكرام الضيف، وغير ذلك.

فالكتابُ يُعَدُّ بحقّ موسوعةً علميةً تربوية تأريخية، لا يستغني عنه باحث عن الحقائق الخاصة بأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام.

ومما يزيده أهمية، ويزدان به هو أنه نَهَلَ معظمَ معلوماته عن كتاب الله الكريم الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، ومن سُنَّة نبيه الكريم الذي ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ ـ ٤].

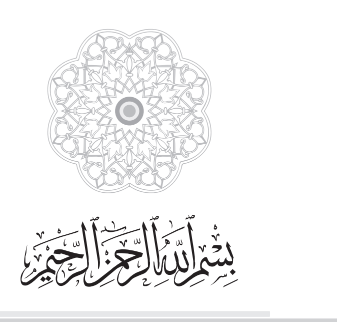
ولا يسعنا إلا أن نتضرَّع إلى الله تعالى بأن يتقبلَ من أخينا الباحث المفسر المؤرخ الدكتور علي الصلابي هذا السِّفْر العظيم حول أعظم الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه السلام، وأن ينفعَ به الإسلامَ والمسلمين، وأن يوفِّقه لمزيدٍ من الخيرات و البركات، آمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى اللهُ وسلّم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه الفقيرُ إلى ربه

أ. د. علي محيي الدين القره داغي

٢٧ شوال ١٤٤٢هـ



مُقَدِّمَة

إنَّ الحمد لله، نحمده، ونستعين به ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهدُ أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١].

اللَّهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك، ولك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا.

أما بعد:

فهذا الكتاب هو امتداد لمشروع علميٍّ جديد، يتعلَّق بالدراسة المستفيضة لقصص الأنبياء والمرسلين في القرآن الكريم، ولاسيما أولو العزم منهم.

وهو جزء من موسوعة: «أولو العزم من الرسل»، التي أحلُم بإكمالها، وأرجو من الله تعالى العونَ والتوفيقَ والقَبول، والنفع العامّ لعباده.

إنَّ معرفة سير الأنبياء والمرسلين، من خلال كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن خلال أحاديث الرسول ﷺ الصحيحة، وأقوال العلماء الراسخين في العلم بأسلوب عصري، تُلائم المرحلة التي تمرُّ بها الإنسانية الباحثة عن إجابات شافية للأسئلة الوجودية الكبرى عن الله والكون، والحياة والجنة والنار، والقضاء والقدر، والرسالات والنُّبوات، والحضارات القديمة، متى نشأت، وما مصيرها، وسنن الله في خلقه، وأصول الاختلاف والقيم الروحية، والصراع بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والخير والشرّ، والكفر والإيمان، كل ذلك يُعدُّ من الضرورات التي يحتاجها الناس أشدَّ الحاجة.

إنّني أحمدُ الله العزيز الوهاب أن وفقني للاهتمام بهذا المجال المعرفي الزاخر، وأن أنهلَ من المصادر والدراسات النافعة، وأحمدُه وأشكرُه على نعمه التي لا تُعدُّ ولا تُحصى. وأسأله أن يمدّني بتوفيقه وتسديده وتأييده في الكتابة المنهجية النافعة، وأن يطرحَ فيها القبول بين الناس، ويجعلَها سببًا في هداية الباحثين عن الحقائق المصيرية في الوجود والمحطات المفصلية في تاريخ الحضارات وتعاقُبها للوصول إلى الصراط المستقيم، صراط الله الذي أنعمَ على عباده بالهداية إليه، وأن تُسهم هذه الكتاباتُ في تليين القلوب بالإيمان، وتطهير النفوس، وتزكية الأرواح، وتبصرة الألباب، لاستشرافِ الحق والتمسُّك به، والذّود عنه.

هذا وقد صدر من سلسلة (أولو العزم من الرسل) مجموعةٌ من الكتب، وهي:

١ ـ السيرة النبوية... عرض حقائق وتحليل أحداث.

٢ ـ عيسى عليه السَّلام (الحقيقة الكاملة).

٣ ـ نوح عليه السَّلام والطوفان العظيم؛ ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية.

وفي هذه المقدمة تقديم للكتاب الرابع في سلسلة (أولو العزم من الرسل)، والموسوم بعنوان: **إبراهيمُ عليه السَّلام خَلِيْلُ اللهِ «دَاعِيةُ التَّوحِيدِ وَدينِ الإِسْلاَمِ وَالأُسْوَةُ الحَسَنَةُ»**.

وقد قسمت الكتاب إلى أربعة فصول، بحثت في **الفصل الأول** نشأة إبراهيم عليه السَّلام: اسمه، ونسبه، ومولده، وعصره، وهجراته، ومكانته، ويحتوي على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: في اسم إبراهيم عليه السَّلام، ونسبه، ولقبه، وكنيته.

المبحث الثاني: تناولت فيه عصر إبراهيم عليه السَّلام. وتحدثت فيه عن المرحلة التاريخية التي سبقت إبراهيم عليه السَّلام، والحياة الدينية والاعتقادات القديمة في عصره، كعبادة الكواكب والنجوم والأصنام، وعبادة الملوك، وتقديم القرابين والنذور، وبناء المعابد، كالمعبد الأرضي، والمعبد العالي، ووجود الصابئة، وتحدثت فيه أيضًا عن الحياة الاجتماعية والسياسية، وطبقات المجتمع، كطبقة الأحرار والطبقة الوسطى والعبيد، وأشرت إلى طقوس الزواج والأسرة وعادات ذلك المجتمع، وإقامة الأعياد، والناحية التعليمية والسياسية، وتحدثت في هذا المبحث عن هجراته عليه السَّلام.

أما **المبحث الثالث**: فقد تناولت فيه سيرة إبراهيم عليه السَّلام في موكب الأنبياء والمرسلين، وكان الحديث فيه عن النبي والرسول والفرق بينهما، والنبوة والرسالات، وعن أولي العزم، وحقيقة النبوة، والحِكمة من بَعثِ الرسل، وحاجة الخلق إليهم، وإقامة الحُجة على البشر بهم، ووحي الله عزَّ وجل للأنبياء الذي جعله الله الطريق لمعرفة العقائد الغيبية، وحاجة الخلق للقدوة الحسنة، وإصلاح النفوس وتزكيتها، وتحقيق غايات عظمى ووظائف كبرى، كدعوة

الناس إلى عبادة الله، وتبليغهم الشريعة الربانية، وتبيين ما أُنزل من الدين، وإصلاح بني الإنسان، وإقامة شرع الله بين العباد وتطبيقه، وشهادة الرسل على الأمم يوم القيامة، والاعتبار بسنن الله في الأفراد والأمم والشعوب والدول، وتوجيه القلوب والأرواح إلى السّير في موكب الأنبياء والمرسلين المبارك.

وقد ذكرتُ في هذا الكتاب خصائص الأنبياء والمرسلين، واصطفاءَهم بالوحي والرسالة؛ فهم تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم، وتخييرهم عند الموت، وكون أيّ نبيٍّ يُقبَر حيث يموت، وأنهم أحياءٌ في قبورهم، ولا تأكل الأرض أجسادهم، ولا يُورَثُون بعد موتهم، وإعداد الله لهم، وتهييئهم لرسالاته.

كما بَيَّنت أنَّ دين الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام هو واحد، منبعُه الإقرار بالوحدانية لله تعالى، كما أنّ دعوتهم واحدة، تتفق في أركان الإيمان وأصوله، وأن دينهم هو الإسلام، وأن أول عقيدة في الأرض هي التوحيد، وأن الأنبياء والمرسلين يتفقون في الأصول، ويختلفون في الفروع. وسلَّطتُ الأضواء على أهمية قصة إبراهيم عليه السَّلام في القرآن الكريم، وأنه مثال أعلى للبشرية، وأنّ دعوته هي التوحيد الخالص، ومن هذه الدعوة تنبثق العلاقة العميقة بين إبراهيم عليه السَّلام والمسلمين.

وبيَّنتُ الحِكمة من توزيع مشاهد قصة إبراهيم عليه السَّلام في أكثر من سورة، وأن كل مشهد من مشاهد قصة إبراهيم يَصلح أن يكونَ قصةً وحده، ويُعطي العِبرة المناسبة له، ولهذا جاءت تلك المشاهد مُوزَّعة في ثنايا القرآن الكريم وسوره بهذا الشكل، بينما نجد مشاهد قصة يوسف عليه السَّلام مجموعة في سورة واحدة؛ لأنَّها مشاهد مترابطة، لا يمكن الفصل بينها حفاظًا على الوحدة الموضوعية للسورة، وكل مشهد من مشاهد قصة إبراهيم عليه السَّلام جاء بمكانه في السورة التي ذكرته، منسجمًا مع موضوع السورة وزمان نزولها، كما سنرى في هذا الكتاب بإذن الله تعالى.

إنَّ مشاهد قصة إبراهيم عليه السَّلام تبرز رمزًا من رموز دعوة التوحيد، وإفراد الله بالعبادة، ومَعلمًا عظيمًا من معالم الطريق الحقِّ، فينبغي أن يبقى هذا الرمز الداعي إلى التوحيد، وإلى عبادة الله ومحاربة الشرك والكفر، حاضرًا في الذهن لا ينساه المسلم أبدًا؛ لأنه قدوته ومثَله الأعلى، وهذا المعنى قصده القرآن الكريم حين قال: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١]، فهذا يُشير إلى أن المعلومات الصحيحة المؤكدة عن إبراهيم الواردة في القرآن الكريم، وفيما صحَّ عن نبينا محمد ﷺ من أحاديث صحيحة، بيَّنت جوانب مثيرة من قصة إبراهيم عليه السَّلام.

إنَّ قصة إبراهيم عليه السَّلام في القرآن الكريم أصيلة، ولا وجود لها في التوراة، أو في الكتابات الإنجيلية، من حيث الدِّقة والصواب، والحقيقة الكاملة البعيدة عن التحريف والتزييف والأباطيل. وهذا زادها صفاءً ورسوخًا في نسيج الخطاب القرآني المميز الذي ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصلت: ٤٢].

لقد تبوَّأ إبراهيمُ عليه السَّلام في الخطاب القرآني مكانة متميزة، فهو الذي:

قال الله عز وجل فيه: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

وقال تعالى: ﴿۞وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١].

وقال تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقال تعالى: ﴿۞وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

وقال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥].

إنَّ إبراهيم عليه السَّلام هو خليل الرحمن، وهو أبو الأنبياء، وباني الكعبة الشريفة، وقد تميز بصفات عظيمة من: علمٍ وإخلاصٍ وشجاعةٍ وتضحية وتجرُّد وصبر وحلم وأناة وإنابة وتأوُّه، وغير ذلك، وسيأتي بَيانها في مواضعه إن شاء الله تعالى.

أما **الفصل الثاني** فقد اشتمل على قصة إبراهيم عليه السَّلام في سور الأنعام ومريم والأنبياء والشعراء والعنكبوت والصافات. وفيه ستة مباحث:

احتوى **المبحث الأول** من هذا الفصل على قصة إبراهيم عليه السَّلام في سورة الأنعام وحواره مع والده وقومه حول عبادة الكواكب والنجوم والشمس. وقد عِشت مع إبراهيم عليه السَّلام من خلال الآيات الكريمة في سورة الأنعام، ورأيت ما فتح الله له من البصيرة في ملكوت السماوات والأرض حتى وصل إلى درجة اليقين، وما أعطاه الله من عقل ومنطق وقوة وحجة وثبات أمام عَبَدةِ الكواكب والنجوم، فتى هزهم في أعماقهم وبيَّن لهم بطلان ما هم عليه من الشرك والابتعاد عن توحيد الله وإفراده بالعبادة، وكيف دعاهم إلى عبادة الله الواحد القهار بعد تشكيكهم في معتقداتهم وبيان زيفها وانحرافها عن الصراط المستقيم، قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٨ ـ ٧٩].

ووقفتُ مع منهجية التدرُّج في الحجة التي مارسها إبراهيم عليه السَّلام من خلال الحوار ومجاراة الخصم، والاستدلال المنطقي، وإعلان الوصول إلى النتيجة.

وذكرتُ شيئًا من الإعجاز الإنبائي والتاريخي من قصة إبراهيم عليه السَّلام

في سورة الأنعام، وتعمَّقت في شرح الآيات الكريمة مستدلاً بأقوال العلماء والمفسرين، القدامى والمعاصرين، كقوله تعالى ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣].

وفي **المبحث الثاني** تحدثت عن قصة إبراهيم عليه السَّلام في سورة مريم، وحواره مع والده.

وفي **المبحث الثالث** تحدثت عن قصة إبراهيم عليه السَّلام في سورة الأنبياء وحواره مع والده وقومه وعَبَدة الأوثان، وابتلائه برميه في النار ونجاته منها بأمر الله عز وجل، وهجرته، وإكرام الله له بالذرية الصالحة الداعية إلى التوحيد وإفراد الله بالعبادة.

وفي **المبحث الرابع** تحدثت عن قصة إبراهيم عليه السَّلام في سورة الشعراء، التي من آياتها قوله تعالى ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٧٧ ـ ٨٩]، وشرحت الآيات المتعلقة بقصة إبراهيم عليه السَّلام على أُسس علم التفسير وقواعده وأصوله، واستخرجت منها الدّرر والفوائد والعِبَر والدروس؛ لكي يستفيد منها الناس في حياتهم.

وفي **المبحث الخامس** تحدثت عن قصة إبراهيم عليه السَّلام في سورة العنكبوت، التي جاء فيها دعوته لقومه إلى عبادة الله وترك الأوثان، وتوجيههم إلى الإيمان بأنَّ الأرزاق بيد الله، فعليهم أن يطلبوها منه وحده، وأن يتوجَّهوا إليه بالعبادة والشكر، وأن يتهيَّؤوا للقائه، فإليه الرجوع والمصير. وأشارت

الآيات إلى سنة الله في دعوات الأنبياء، وأهمية الإيمان باليوم الآخر والأدلة على ذلك، وأنه سبحانه وتعالى ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ﴾ [العنكبوت: ٢١]، وكيف كان ردُّ قومه ومكرُهم به، ثم نجاته من النار، فكان في هذه القصة آيات كثيرة ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٢٤]:

ـ **الآية الأولى**: النجاة من النار.

ـ **الآية الثانية**: عجز الطغيان عن إيذاء رجل واحد يُريد الله له النجاة.

ـ **الآية الثالثة**: أن المعجزة الخارقة لا تَهدي القلوب الجاحدة، ومَن يتدبَّر تاريخ الدعوات، وعوامل الهدى والضلال يجد مصداق ذلك.

وواصلتُ شرح الآيات من قصة إبراهيم في سورة العنكبوت إلى قوله تعالى: ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٦ ـ ٢٧].

وفي **المبحث السادس** تحدثت عن قصة إبراهيم عليه السَّلام في سورة الصافات، حيث بيَّنتِ الآياتُ أن إبراهيم من شيعة نوح عليه السَّلام، وهو صاحب قلب سليم، أقام الحجة على أبيه وقومِهِ ببطلان الإفك الذي كانوا يؤمنون به، من عبادة غير الله، وأنه كما جاء في الذكر الحكيم: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ ﴾ [الصافات: ٩١ ـ ٩٣]، وجادلهم وحاورهم، ثم رمَوْه في النار، ثم نجا منها، ﴿ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴾ [الصافات: ٩٨]، ثم تحدثتُ عن هجرته ودعائه بالولد واستجابة الله له، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴾ [الصافات: ٩٩].

وذكرتُ قصة زواج هاجر أم إسماعيل من إبراهيم عليه السلام، والذمة والعهد والرحم لأهل مصر، ومولد إسماعيل في بلاد الشام، ثم هجرة إبراهيم بزوجته هاجر وابنه الرضيع إلى الحجاز وبحثها عن مغيث، بعد رحيل إبراهيم

عليه السَّلام بأمر ربه، وما حدث من كرامات ومعجزات من نبع ماء زمزم، ومجيء قبيلة جُرهم، وتكرار زيارة إبراهيم لهاجر وإسماعيل، ورؤيا ذبح إسماعيل، قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠١ ـ ١١١].

وبيّنتُ في هذا الباب من هو الذبيح، والآيات التي ذكرت إسماعيل عليه السَّلام، وأهم صفاته من صدق ووفاء بالوعود وحرصٍ على الدعوة والإصلاح، ووصفٍ بالخيرية والنبوة والرسالة والحلم والقوة، وأنه مُفضَّل، وأنه هبة من الله.

وذكرتُ ما ذَكَرَته كتبُ السُّنة عن إسماعيل عليه السَّلام في مهارته بالرماية، وأنه أول من نطق بالعربية الفصيحة، وتعويذ إبراهيم عليه السَّلام لولديه إسماعيل وإسحاق عليهما السلام، وكون كنانة من ولد إسماعيل، ونفي الاستقسام بالأزلام عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وقد نقلتُ ما ذكرته كتب التاريخ عن إسماعيل عليه السَّلام.

وفي **الفصل الثالث** كان الحديث عن حوار إبراهيم مع الملك الظالم، وسؤاله لربه كيف يحيي الموتى، وآيات الولاء والبراء، وضيف إبراهيم عليه السَّلام.

في **المبحث الأول** من الفصل الثالث بحثت في حوار إبراهيم عليه السَّلام مع المَلِك الظالم، وسؤال إبراهيم لربه كيف تُحيي الموتى؟ وقسمته إلى فقرتين:

أولًا: حوار إبراهيم عليه السَّلام مع الملك الظالم وشرح الآيات المتعلقة بالقصة، وهي قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وثانيًا: سؤال إبراهيم عليه السَّلام لربه كيف يُحيي الموتى؟ في قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

أما في **المبحث الثاني** من الفصل الثالث فقد بحثت في قصة إبراهيم عليه السَّلام في سور التوبة والزخرف والممتحنة، وشرحتُ الآيات المتعلقة بالولاء والبراء، وقسمت هذا المبحث إلى ثلاث فقرات:

أولًا: قصة إبراهيم عليه السلام في سورة التوبة، وهي قوله تعالى ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٣ ـ ١١٤]، حيث شرحتُ هذه الآيات الكريمة، مع بيان ما فيها من أحكام ودروس.

ثانيًا: قصة إبراهيم عليه السَّلام في سورة الزخرف وهي قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦ ـ ٢٨].

ثالثًا: قصة إبراهيم عليه السَّلام في سورة الممتحنة وهي قوله تعالى ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن

دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الممتحنة: ٤ ـ ٦]، حيث شرحت الآيات، وبيَّنت ما فيها من أحكام ودعاء وعقائد، ووقفات مع أسماء الله الحسنى التي ذُكرت فيها.

وفي **المبحث الثالث** كان الحديث عن حوار إبراهيم عليه السَّلام مع الملائكة في مرحلة شيخوخته، والعيش الرغيد، والبشرى بإسحاق ويعقوب، وإعلامه بهلاك قوم لوط في سورة هود والحجر والعنكبوت والذاريات، وقد شرحتُ تلك الآيات، واستخرجتُ الفوائد والدروس والأحكام على التوالي، فكانت الآيات المشروحة والمفسرة على النحو الآتي:

أولًا: قصة إبراهيم عليه السَّلام وحواره مع الملائكة في سورة هود، وذلك في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٦٩ ـ ٧٦].

ثانيًا: جدال إبراهيم عليه السَّلام في قوم لوط في سورة العنكبوت، في قوله تعالى ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١ ـ ٣٢].

ثالثًا: قصة ضيف إبراهيم عليه السَّلام، وهلاك قوم لوط في سورة الذاريات، قال تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴿٢٨﴾ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [الذاريات: ٢٤ ـ ٣٧].

وفي الفصل الرابع تحدثت عن نجاح إبراهيم الخليل في الابتلاء، وإمامته للناس، وبنائه للكعبة، ودعواته الخاشعة، ووصيته لبنيه بالتمسُّك بالدين الإسلامي في سورة البقرة، ودعائه المنيب في سورة إبراهيم، ودعوته الناس للحج، وذكرت صُحُفَه، وفضائله، وصفاته، وتقاربه الكبير مع نبينا محمد ﷺ، ومكانته يوم القيامة، ووفاته، وقبره.

في **المبحث الأول** من هذا الفصل تحدثت عن ابتلائه، وإمامته للناس، وبنائه الكعبة، ودعائه، ووصيته لبنيه في سورة البقرة، قال تعالى: ﴿۞وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ

ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٢٤ ـ ١٣٢].

وفي **المبحث الثاني** تحدثت عن دعاء إبراهيم عليه السَّلام، وتضرُّعه وثنائه على الله في سورة إبراهيم، في قوله تعالى ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٣٥ ـ ٤١].

وقد فَسَّرتُ الآيات الكريمة السابقة معتمدًا على المصادر والمراجع المعتمدة في علم التفسير، وبيّنتُ مقاصدَ الآيات الكريمة الدالة على دعوة إبراهيم عليه السَّلام للناس بالحج في سورة الحج، في قوله تعالى ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴿٢٧﴾ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٧ ـ ٢٩].

وتحدثتُ عن تنازع الطوائف في إبراهيم عليه السَّلام، وحديث القرآن الكريم ومجادلته لهم، وبيانه بأن إبراهيم عليه السَّلام هو على الصفة التي وصفه الله تعالى بها في قوله ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا

مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]. كما تحدثت عن صحف إبراهيم عليه السَّلام، وخصائصه وفضائله وأهم صفاته، من الإسلام والحنيفية، والحلم، والتأوّه، والإنابة، والصدّيقية، والشكر، والدعاء، والقنوت، وسلامة القلب، وعمارة البيت الحرام، وإكرام الضيف، والخُلّة، وكونه خير البريّة، والإمامة والاجتباء والاصطفاء، وإيتائه رشده، وجعل النبوة والكتاب في ذريته، واتخاذ مقامه مصلى، وكونه وليَّ النبي ﷺ، وكونه أمّةً من دون الناس، ووفائه وإخلاصه وفطانته، وغير ذلك من الخصائص والفضائل والصفات. وتحدثتُ عن تقاربه الكبير مع نبينا محمد ﷺ، فكم يشدُّك هذا القرب وهذه القربى بين إبراهيم الخليل وابنه محمد ﷺ!؟

إنّه قربٌ لصيقٌ رغم آماد الزمان، وأبعاد المكان، حتى لكأنها الأبوة المباشرة القريبة، ولذا يتلقى إبراهيم ابنه محمدًا في منازل الملأ الأعلى ليلة الإسراء والمعراج، بترحاب الآباء بالأبناء: قائلاً له: مرحبًا بالابن الصالح والنبيِّ الصالح.

وقد اطَّلعت على مقالة نافعة ونادرة وبهيجة فائقة الجمال، بيَّنتِ التشابه والتوافق في مشاهد عديدة للدكتور الشيخ عبد الوهاب بن ناصر الطريري، فاعتمدتها في هذا الكتاب في آخره. حيث ذكر الدكتور عبد الوهاب أوجه التوافق في أمور كثيرة، منها:

* النشأة.
* التفكّر في ملكوت الله.
* عداوة الأقارب.
* استغفار إبراهيم لأبيه.
* إبراهيم عليه السَّلام والقرابة المؤمنة.
* إبراهيم عليه السَّلام وبناء الكعبة.

❊ قيادة البشرية .

❊ الهجرة .

❊ الرّحمة العامة .

❊ الصلاة الإبراهيمية .

❊ حرمُ إبراهيم وحرمُ محمد عليهما الصلاة والسلام .

❊ الدعاء بالبركة .

❊ حِفظُ الله لهما .

❊ النَّسب المصريّ .

❊ فتح آفاق التساؤل .

❊ حسبنا الله ونعم الوكيل .

❊ الهيئة والشبه .

❊ الملة الإبراهيمية .

وكذلك الحديث عن إبراهيم عليه السَّلام يوم القيامة، فإنه :

❊ أول من يُكسى يوم الحشر .

❊ ومكانة النبي إبراهيم عليه السَّلام في الشفاعة يوم القيامة .

❊ حال إبراهيم عليه السَّلام يوم القيامة .

❊ التفاف أولاد المشركين حول إبراهيم في رؤيا للرسول ﷺ .

وفي نهاية الكتاب كان الحديث عن وفاة إبراهيم الخليل عليه السَّلام وقبره، ومن بعدها النتائج التي وصلتْ إليها الدراسة .

❊ ❊ ❊

إنَّ هذا الكتاب يجعلك، بإذن الله، تعيش مع إبراهيم عليه السَّلام في فترة

شبابه في العراق، وما قام به من جهود عظيمة في نصرة الحق، ودعوة الناس للتوحيد، وإفراد الله بالعبادة، وتحمُّله العظيم، وصبره النادر، وتضحيته بالأهل والعشيرة والوطن، وهجرته مع زوجته سارة وابن أخيه لوط عليهما السلام.

كما تعيش معه في رحلته إلى بلاد الشام، وتيسير الرزق الكريم له، ومحبة الناس، والذرية الطيبة المباركة التي بَشَّرته بها الملائكة، وأثناء إقامته بالشام كانت رحلته إلى مصر مليئة بالعِبر والدُّروس، وقضاء الله وقدره في أمور كثيرة، ونعمةُ الله على هاجر وولده إسماعيل عليهما السلام وهجرته إلى الحجاز، وبناء بيت الله الحرام، وما حدث من حوادث وابتلاءات، وخروج أمم عظيمة من صلب إبراهيم عليه السَّلام ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣].

❋ ❋ ❋

وقد انتهيت من هذا الكتاب يوم الأحد، في تمام الساعة العاشرة واثنتين وعشرين دقيقة ليلاً، بتاريخ ٢ رجب ١٤٤٢هـ/ ١٤ شباط/ فبراير ٢٠٢١م، وكانت ليلة باردة مثلجة تحوَّلَت فيها إستانبول إلى قطعة بيضاء من الثلوج، فسبحان الخلاق العليم.

وما الفضل إلا لله من قبل ومن بعد، فأسأله سبحانه وتعالى أن يتقبَّل هذا العمل قبولاً حسنًا، وأن يكرمنا برفقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

ولا يسعُني في مرحلة الانتهاء من هذا الكتاب إلا أن أقف بقلبٍ خاشع منيب أمام خالقي العظيم وإلهي الكريم، معترفًا بفضله وكرمه، ومتبرِّئًا من حولي وقوتي، ملتجئًا إليه في كل حركاتي وسكناتي، وحياتي ومماتي، فالله خالقي هو المتفضل، وربي الكريم هو المعين، وإلهي العظيم هو الموفّق، فلو

تخلّى عني ووكلني إلى عقلي ونفسي لتبلّد مني العقل، وغابت الذاكرة، ويَبست الأصابع، وجفَّت العواطف، وتحجَّرت المشاعر، وعجز القلم عن البيان.

اللهم بَصِّرني بما يُرضيك، واشرح صدري، وجَنِّبني اللَّهمَّ ما لا يُرضيك، واصرفه عن قلبي وتفكيري. وأسألك يا الله بأسمائك الحُسنى وصفاتك العلا أن تُثبِّتني وإخواني الذين أعانوني على إتمام هذا العمل.

اللهم اجعله لوجهك خالصًا، ولعبادك نافعًا، واطرح فيه البركة والقبول والنفع العظيم. كما أرجو من كل من يَطَّلع على هذا الكتاب ألا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من الدعاء، قال تعالى:

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

والحمد لله رب العالمين

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه

د. عَلي محمَّد محمَّد الصَّلابيّ

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين



الفَصْلُ الأَوَّلُ

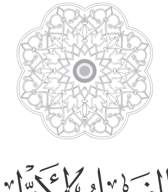
إبراهيم عليه السَّلام

(اسمه، ونسبه، ومولده، وعصره، وهجراته، ومكانته بين الأنبياء والمرسلين)

- المبحث الأول: اسمه ونسبه وكنيته ومولده.
- المبحث الثاني: إبراهيم الخليل.. عصره وهجرته.
- المبحث الثالث: إبراهيم عليه السَّلام ومكانته بين الأنبياء والمرسلين.

* * *





الفصل الأوّل

إبراهيم عليه السَّلام (اسمه، ونسبه، ومولده، وعصره، وهجراته، ومكانته بين الأنبياء والمرسلين)

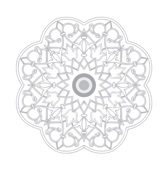
قبل الحديث عن دعوة نبي الله ورسوله إبراهيم الخليل عليه السَّلام، وتجربته في الدعوة إلى توحيد الله ربِّ العالمين، وحَملِهِ المسؤولية العظيمة في قومه، والتعرُّف على مكانته بين الأنبياء والرسل، لا بدّ من الإشارة إلى أنه كان أحد الرسل الذين واجهوا المعاناة والعذاب والرفض من قومه، وهو من أولي العزم من الرسل عليهم السلام، ولذا لا بدَّ من أن نتحدثَ عن مولده ونسبه وأصوله وظروف عصره.

تظهر مكانة إبراهيم عليه السَّلام، وفَضله، من خلال ما وصفه الله تعالى به، وما ورد في السنّة من ذلك؛ فهو العبد الذي أحسن ووفّى، فكرَّمه الله تعالى تكريمًا يليق بمكانته، فجعل التوحيد الخالص ملّته، وأثنى على من اتَّبع دينَه بوصفهم بالعقلاء، وهو إمام الناس وقدوتهم، كما أنّ الله اختصَّ ذُرّيتَه بالنبوّة؛ فالأنبياء جميعًا كانوا من نَسله، وآخرهم سيّد الخَلْق محمد ﷺ، الذي يُمثّل استجابةَ الله لدعاء إبراهيم في أن يبعث في أمة العرب رسولاً من أنفسهم.

فإبراهيم عليه السَّلام الأب الثّالث، أبو الأنبياء، فإن أبانا الأول آدم، والأب الثاني نوح، وأهل الأرض كلهم من ذُريَّته، ، أما إبراهيم فهو إمام

الحنفاء الَّذِي اتَّخذه الله سُبحانه وتَعالى خليلاً، وجعل النُّبوَّة والكتاب في ذُريَّته: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧]، ذاك خَلِيل الرَّحمَن وأبو الأنبياء من بعده جميعًا.

❊ ❊ ❊



المبحث الأول

اسمه ونسبه وكنيته ومولده

أولاً: اسمه ونسبه:

١ ـ اسمه:

«إبراهيم» كلمة سريانية تعني «أب رحيم»، وفي العبرانية اسم مركب من كلمتين هما: أب أي أب، وراهام أي جماعة أو جمهور أو عدد كثير كرهام بالعربية[١]. وقيل: إنّ اسم «إبراهيم» أعجمي غير مُعرَّب، وقيل هو مشتق من البرهمة، وهي شدّة النظر وإدامته[٢].

ويُقال أيضًا أن اسم «إبراهيم» من الأسماء التي تُنبئ عن نشأة دينية؛ لأنه يُفيد معنى «حبيب الله»؛ فـ «رام» تعني المحبة باللغة السريانية، ولعل التغيير الذي حصل على اسم «إبرام»، إنما استُحدث ليفيد معنى «حبيب الله»، بدلاً من «حبيب الإله» الذي كان يَعبده والدُه في معابد الوثنية[٣]. قال ابن حجر: وقيل إنّ المعنى بالسريانية أنه راحم[٤].

---

(١) الرهم والرهام: جماعة الرجل، وسميت المرأة رهماً. يُنظر: معجم لسان العرب، ابن منظور (ت ٧١١هـ)، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤١٤هـ، مادة (رهم)، ج١٢، ص٢٥٧.

(٢) معجم لسان العرب، ابن منظور، المرجع السابق، مادة (برهم)، ج١٢/ ٤٨.

(٣) إبراهيم أبو الأنبياء، عباس محمود العقاد، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠١٢م، ص٢٩٤.

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٠هـ، (٦/ ٣٨٩).

وقد جعل الله تعالى إبراهيم عليه السَّلام الأب الثالث للعالم، فقال: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الحج: ٧٨]، فإن أبانا الأول آدم، والأب الثاني نوح، والأب الثالث خليل الرحمن وشيخ الأنبياء[١]، كما سمّاه النبي ﷺ[٢].

وقد سُمِّي إبراهيم عليه السَّلام بشيخ الأنبياء وأبي الأنبياء؛ لأنه كان رائد الدعوة النبوية في العالم الإنساني بأسره[٣]، ومنه تناسل الأنبياء وتتابعوا، فجميع أنبياء بني إسرائيل من نسله؛ لأنهم من أولاد يعقوب بن إسحاق، وإسحاق هو ابن إبراهيم، فمِن إبراهيم عليه السَّلام تتفرَّع شجرة النبوة، حتى خاتم الرسل صلوات الله عليهم؛ لأنه من ولد إسماعيل، قال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ [العنكبوت: ٢٧] [٤].

٢ ـ نسبه:

هو إبراهيم بن آزر، ولم يذكر القرآن الكريم أبعد من هذا النسب، غير أن المؤرخين المسلمين وغيرهم اعتمدوا على التوراة لمعرفة نسب خليل الله عليه السَّلام. وقد وقع اختلاف في أسماء أجداده عليه السَّلام، ربما كان مردّه إلى الاختلاف في الترجمة عن اللغات القديمة، وإلى التصحيف الذي كانت تحفل به الطبعات القديمة للتوراة وسواها من كتب التاريخ[٥].

لقد ورد في القرآن الكريم اسم والد إبراهيم عليه السَّلام وفي السُّنَّة المطهَّرة أن إبراهيم الخليل عليه السَّلام هو ابن آزر. وروى بعض المؤرخين المسلمين أنه ابن تارح أو تارخ، كما ورد في التوراة، ولجأ من قال من العلماء

(١) صحيح البخاري، دار ابن كثير، دمشق وبيروت، ط٤، ٢٠٠٢م، كتاب الأنبياء، باب ٨.
(٢) إبراهيم عليه السلام ودعوته في القرآن الكريم، أحمد البراء الأميري، دار المنار، جدة، السعودية، ١٤٠٦هـ، ص٢٨.
(٣) إبراهيم أبو الأنبياء، عباس محمود العقاد، ص٢٨.
(٤) إبراهيم عليه السلام ودعوته في القرآن الكريم، أحمد البراء الأميري، ص٢٩.
(٥) المرجع نفسه، ص٢٩.

بأن والد الخليل إبراهيم عليه السَّلام هو تارح إلى تأويل الآية القرآنية تأويلات شتى، مما دعا بعض أعداء الإسلام إلى إثارة الشبهة حول اسم والد إبراهيم عليه السَّلام واتهام القرآن الكريم بالخطأ، وإلى هذا أشار الرازي بقوله: «ومِن المُلحدة مَن جعل هذا طعنًا في القرآن الكريم، وقال: هذا النسب خطأ، وليس بصواب»[١].

وجاءت (دائرة المعارف الإسلامية) في العصر الحديث لتحيي هذه الشبهة بقولها: «آزر» اسم أبي إبراهيم في القرآن الكريم، ويظهر في هذا تخليط؛ لأن اسم «آزر» لم يرد مطلقًا على أنه أبو إبراهيم في غير هذا الموضع، كما أن تارح أو تارخ قد ورد في روايات بعض المؤرخين والمفسرين من المسلمين على أنه أبو إبراهيم أيضًا، ولذلك لجؤوا إلى التحايل للتوفيق بين هاتين الروايتين، ولكن هذا التحايل لا قيمة له[٢].

وقبل سرد أقوال العلماء المسلمين في اسم أبي إبراهيم عليه السَّلام وترجيح ما أراه صوابًا، أبادر فألاحظ على كاتب هذه المادة في (دائرة المعارف الإسلامية) أنه هو الذي لجأ إلى التحايل لغرض في نفسه، وأبرز من الحقيقة الجزءَ الذي يوافق هواه، وهوى جُلّ المستشرقين فيما يتصل بالإسلام، فكاتب المادة يبدأ فيطعن في القرآن الكريم، ويقول: إنَّ فيه بعض الخلط، ثم يصف علماء المسلمين بأنهم لجؤوا إلى التحايل، مع أن كثيرًا منهم ردّ رواية التوراة، وأخذ بظاهر ما ورد في القرآن على أنه الحق، وكان إلى جانب هؤلاء علماء آخرون حاولوا التوفيق بين الروايتين على أسس علمية، لا رجمًا بالغيب أو متابعة لهوى، أو إخفاء للحقيقة عن قصدٍ، واستعمال

---

(١) التفسير الكبير مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م (١٣/ ٣٧).

(٢) إبراهيم عليه السلام ودعوته في القرآن الكريم، أحمد البراء الأميري، ص٨٦.

الألفاظ الدنيئة في غير موضعها، وهذا ليس من صفات العلماء المنصفين الراسخين قولاً وعملاً.

اختلف علماء الإسلام في اسم أبي إبراهيم عليه السَّلام تبعًا لاختلافهم في تأويل قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ [الأنعام: ٧٤]، وذكر ابن الجوزي في آزر أربعة أقوال: أحدها: أنه اسم أبيه، والثاني: أنه اسم صنم. والثالث: أنه ليس باسم، إنما هو سبّ بعيب. وفي معناه قولان: أحدهما: أنه المعوجّ، كأنه عابه بزيغه وتعويجه عن الحقّ، والثاني: أنه المخطئ، فكأنه قال: يا مخطئ، أتتخذ أصنامًا؟[(١)].

والرابع: أنه لقب لأبيه وليس باسمه، وقد يغلب على اسم الرجل لقبه حتى يكون به أشهر منه باسمه[(٢)].

وقال السيد محمد مرتضى الزبيدي: وقيل: هو اسم عَمٍّ إبراهيم عليه وعلى محمد أفضل الصلاة والسلام: وإنما سُمي العمُّ أبًا، وجرى عليه القرآن العظيم على عادة العرب في ذلك؛ لأنهم كثيرًا ما يطلقون الأب على العم، وأما أبوه تارخ، بالخاء المعجمة، وقيل بالمهملة، على وزن هاجر[(٣)].

وبالنظر في هذه الأقوال، يتبين أنَّ القول الذي نُسب إلى مجاهد من أن آزر اسم صنم غير ثابت من حيث الإسناد، وليس صحيحًا من جهة العربية[(٤)].

قال الحافظ ابن حجر: وحكى الطبري من طريق ضعيفة عن مجاهد أن آزر اسم الصنم، وهو شاذّ، هذا من جهة الإسناد، أما من حيث اللغة، فقد قال

---

(١) تاج العروس في جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، (٣/ ١٣).

(٢) إبراهيم عليه السلام ودعوته في القرآن الكريم، أحمد البراء الأميري، ص١٨٧.

(٣) قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، الحسين بن محمد الدامغاني، تحقيق: عبد العزيز سيّد الأهل، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٨٣م، ص١٣.

(٤) إبراهيم عليه السلام ودعوته في القرآن الكريم، أحمد البراء الأميري، ص١٨٧.

الطبري في تفسيره: هو قول من الصواب من جهة العربية بعيد، وذلك أن العرب لا تنصب اسمًا بفعل بعد حرف الاستفهام، لا تقول: أخاك أكلّمتَ؟ وهي تريد: أكلّمتَ أخاك؟ وأما قولهم: إنما هو سبّ لأبيه وعيب فبعيد أيضًا؛ لأن ذلك لا يصدر من نبي نحو أبيه، ولاسيما من إبراهيم عليه السَّلام الذي يردّ على أبيه بعد أن هدّده بقوله ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦]، فيقول له إبراهيم عليه السَّلام: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧].

فهل يُعقل ممن يتأدَّب مع أبيه هذا الأدب، في حدة الجدل والمناظرة، أن يبدأ دعوة أبيه إلى دينه قبل الجدال بالشتم والسّب؟[١].

وممّا يردّ هذا القول أيضًا ما قاله أبو حيّان في (البحر المحيط): «أن لفظ آزر إذا كان صفة أشكل منع صرفه، وأشكل وصف المعرفة به وهو نكرة، وإن حاول المحاول بعد ذلك توجيهه بتكلّف»[٢].

وأما القول بأن آزر لقب لأبي إبراهيم، أو أن له اسمين، كإسرائيل ويعقوب[٣]، فقول مقبول لو قام عليه دليل، ولا دليل سوى محاولة التوفيق بين الروايتين، وأما تأويل الأب بالعمّ، فصرفٌ للفظ عن ظاهره، وعدولٌ عن الحقيقة إلى المجاز، من غير قرينة تدل على إرادة المجاز، ولو ذهبنا نتأوَّل النصوص الصريحة بمثل هذا لبطلت دلالة الألفاظ على المعاني، بل إنَّ القرائن كلَّها تشير إلى أن المراد من اللفظ حقيقته لا مجازه، ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤].

---

(١) المعرّب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، أبو منصور الجواليقي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٦١هـ، ص٣٦١.

(٢) إبراهيم عليه السلام ودعوته في القرآن الكريم، أحمد البراء الأميري، ص١٨٨.

(٣) تاج العروس في جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، (٣/ ١٣).

وكذلك ما ورد من آيات في سورة مريم والأنبياء والصافات والزخرف والممتحنة، ففي هذه المواطن كلها كان التصريح بأن دعوة إبراهيم عليه السَّلام كانت لأبيه، فلماذا نحمل الحقيقة على المجاز، ونصرف اللفظ عن ظاهره، والدواعي كلها تقضي بعدم صرفه؟! (١).

وأما ما سُمِّي قراءات في لفظ آزر، فإنها «روايات لا سند لها، وليست ثابتة عند علماء القراءات، بل هي أضعف من أن تُوصف بأنها قراءات شاذة، والقراءات الصحيحة المعروفة لم يُنقل فيها إلا قراءةُ «آزر» بفتح الراء وبضمها» (٢)، وقراءة الضّم حجة واضحة في أنه عَلَم؛ لأنه منادى.

وبعد، فإن هذا الاختلاف الشديد في اسم أبي إبراهيم عليه السَّلام يرجع إلى أمرين: الأول: قول النسّابين، والثاني: ما ورد في كتب أهل الكتاب.

أما قول النسّابين، فينبغي ألاّ يُعوَّل عليه؛ لأن الأنساب القديمة لا سبيل إلى التثبُّت فيها، ويكثر فيها الاختلاف والاضطراب، وقد روى ابن سعد في (الطبقات) بإسناد عن ابن عباس: أنَّ النبي ﷺ كان إذا انتسب لم يتجاوز في نسبه معدّ بن عدنان بن أُدَد ثم يُمسك ويقول: «**كذب النسّابون**»، قال الله عز وجل: ﴿ وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا ﴾ [الفرقان: ٣٨]، وأما كتب أهل الكتاب فلا يَصحُّ الاعتمادُ عليها، والقطع بما جاء فيها، فكيف إذا خالفت نصًّا صريحًا من القرآن أو السنة؟

وقد وصف الله تبارك وتعالى القرآن الكريم بأنه مهيمن ورقيب على غيره من الكتب، فقال: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾ [المائدة: ٤٨] (٣).

(١) المعرّب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، أبو منصور الجواليقي، ص٣٦٢.
(٢) النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، تحقيق: علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى (تصوير دار الكتب العلمية)، (د.ت)، (٢/ ٣٥٠).
(٣) إبراهيم عليه السلام ودعوته في القرآن الكريم، أحمد البراء الأميري، ص١٨٩.

ولعلَّ حديث رسول الله ﷺ الذي رواه الإمام البخاري في صحيحه، والذي يُصرِّح فيه باسم والد إبراهيم عليه السَّلام يقوّي ويرجّح ويصحّح القول بأن اسمه آزر، وليس تارح، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**يَلقى إبراهيمُ أباه آزرَ يومَ القيامةِ، وعلى وَجهِ آزرَ قترةٌ وغَبَرةٌ، فيقول له إبراهيم: أَلَم أَقُلْ لكَ لا تَعصِني؟ فيقولُ أبوه: فاليومَ لا أعصيكَ. فيقولُ إبراهيمُ: يا ربِّ! إنك وعدتَني ألّا تَخزِيَني يومَ يُبعثون، فأيُّ خِزيٍ أخزَى مِن أبي الأبعدِ، فيقولُ الله تعالى: إني حرَّمتُ الجنةَ على الكافرين، ثم يُقال لإبراهيم: ما تحتَ رِجلَيكَ؟ فينظر فإذا هو بِذِيخٍ مُتلطِّخٍ، فيُؤخَذُ بِقَوائِمِه فيُلقى في النّارِ**»[١].

ويزيد هذا القول قوةً أنَّ المؤرخ المسيحي اليوناني يوسيفوس ذكر أن أبا إبراهيم الخليل يُدعى «آثر»، ولا يخفى التَّقارُب بين آزر وآثر، والبعد بينه وبين تارح[٢].

* * *

ثانيًا: مولده ولقبه وكنيته ولغته:

١ ـ مولده:

اختلف المؤرخون وأهل السير من العلماء حول مكان ولادة إبراهيم عليه السَّلام، فقيل وُلد بالسوس من أرض الأهواز، وقيل وُلد ببابل في العراق[٣]، وقيل في كوش أو كوشا[٤]، وقيل في حرّان، وقال عامّةُ أهل العلم: كان

(١) صحيح البخاري، رقم (٣٣٥٠).

(٢) إبراهيم عليه السلام ودعوته في القرآن الكريم، أحمد البراء الأميري، ص١٩٠.

(٣) منهج إبراهيم عليه السلام في تقرير العقيدة، سعد القحطاني، رسالة ماجستير، جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، أم درمان، السودان، ٢٠١٨م، ص١٣.

(٤) المرجع نفسه، ص١٣.

مولدُه في عهد نمرود أو نمرود بن كوش[١]، وقيل: إن مولده عليه السَّلام كان بغوطة دمشق في قرية برزة في سفح جبل قاسيون، وقال ابن عساكر مُصحِّحًا ومُعلِّقًا: والصحيح أنه وُلد ببابل في مدينة أُور، وهذا هو الصحيح المشهور عند أهل السِّير والتاريخ والأخبار[٢]، وكان إبراهيم يعيش في المدة حوالي (١٩٤٠ ـ ١٧٦٥) قبل الميلاد[٣].

وأما روايات الكتاب المقدس، فتُشير إلى مولد إبراهيم عليه السَّلام في أور[٤]، سواء أكانت في منطقة الفرات الأدنى، أو في منطقة الفرات الأعلى في منطقة الجزيرة بين دجلة والفرات[٥].

وكان إبراهيم عليه السَّلام الابن الوسط لأخوين له هما: هاران وناحور، وهاران والد لوط عليه السَّلام، ومات هاران في حياة أبيه في أرض بابل، والصحيح أنه الابن الأكبر لأبيه[٦].

ولم يَذكر القرآن الكريم مكانًا لمولد إبراهيم عليه السَّلام، ولا تاريخ ولادته، ولا يوجد نصٌّ شرعيٌّ يُحدِّد لنا على وجه الجزم والتعيين كلَّ هذا، ولذا اختلف المؤرخون حول مكان ولادته، واضطربت الروايات في تعيين تَوقيتِ الميلاد ومكانه على وجه التحديد، وأكثر المؤرخين جعلوه ما بين

---

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م، (١/ ٥٣).

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير، مكتبة المعرفة، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٧٤م (١/ ١٦١).

(٣) دراسات في تاريخ العرب القديم، محمد بيومي مهران، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط٢، ١٩٩٨م، ص١٨٩.

(٤) الكتاب المقدس، سفر التكوين الإصحاح، ١١.

(٥) منهج إبراهيم عليه السلام في تقرير العقيدة، سعد القحطاني، ص١٣.

(٦) النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، المكتبة العصرية، بيروت. صيدا، لبنان، ٢٠٠٣م، ص١٤٨.

القرن التاسع عشر والقرن العشرين قبل الميلاد، دون تحديد لسنة الميلاد، في حين ذهب بعضهم إلى تحديد ميلاده عليه السَّلام على وجه التقريب.

وأما قصة مولد إبراهيم عليه السَّلام التي ذكرها المؤرخون في أنّها حدثت أيام النمرود، الذي كثرت في زمانه معرفة النجوم التي أدت إلى اكتشاف مسألة مولود سيُولد، ويقوم بتسفيه أحلام قومه، وإزالة عبادتهم، فيأمر النمرود ـ وهو الحاكم ـ بقتل كل طفل يُولد في مملكته، ولما وُلد إبراهيم عليه السَّلام أُخفي في مغارة لم يزل فيها إلى أن شبَّ في السِّنِّ، وخرج من المغارة بعد مكثه فيها أعوامًا؛ نما فيها وترعرع حتى بلغ سِنَّ الشباب، ثم جاء إلى أبيه فَسُرَّ به، ثم أخذ ينظر متأمِّلاً في آفاق الأرض والعوالم، وما فيها من الدلائل حتى وصل إلى الهداية، وجاءه جبريل عليه السَّلام حيث بلَّغه رسالة الله تعالى، ثم بدأ بالدعوة في قومه.

فهذه القصة التي ذكرها المؤرخون بروايات متعددة لم يتعرَّض لها القرآن الكريم، والكتاب المقدس، ولا السنة المطهرة، وفيها من المتناقضات ما يُغني عن ذكرها لعدم التثبُّت منها[١].

٢ ـ لقبه وكنيته:

كان إبراهيم عليه السَّلام يُلقَّب بـ «الخليل»، قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، وجاء في السنة النبوية المطهرة عن جندب رضي الله عنه قوله: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله اتَّخذني خَليلاً كما اتَّخذَ إبراهيمَ خليلاً**»[٢].

---

(١) منهج إبراهيم عليه السلام في تقرير العقيدة، سعد القحطاني، ص١٤.

(٢) المستدرك على الصحيحين، الإمام أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م، رقم (٤٠١٨).

وأما كنيته عليه السَّلام، فكان يُكنى بـ «أبي الضيفان» [(١)]، وذلك لما اشتهر عنه عليه السَّلام من الكرم وعظيم السخاء في إكرام الضيف، كما أخبر الله عزَّ وجل عن إبراهيم عليه السَّلام في آيات عديدة، منها: قوله تعالى ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٤ ـ ٢٧].

٣ ـ هل كان إبراهيم عليه السَّلام يتكلَّم العربية القديمة؟

يرى الشيخ محمد رشيد رضا أنّ إبراهيم عليه السَّلام كان يتكلم العربية القديمة، التي هي قريبة من عربية جُرهم، ويقول: ومن المعروف في كتب الحديث والتاريخ العربي القديم بأن إبراهيم أسكَنَ ابنَه إسماعيلَ مع أمه هاجر المصرية في الوادي الذي بُنيت فيه مكة بعد ذلك، وأن الله تعالى سَخَّر لهما جماعة من جُرهم، سكنوا معهما هنالك، وبأن إبراهيم عليه السَّلام كان يزورهما، وأنه هو وولده إسماعيل بنيا بيت الله المحرم، ونشرا دين الإسلام في البلاد العربية[(٢)].

ويظهر من ذلك أن العربية القديمة هي لغة سيدنا إبراهيم وهاجر، ولغة حمورابي وقومه، ولغة قدماء المصريين، أو اللغة الغالبة على ذينك القطرين، وأنها على ما كان فيها من الدخيل اللساني، الكلداني والمصري، فقد كانت قريبة جدًّا من العربية الجُرهمية، ولذلك كان الذين جاوروا هاجر من جُرهم يفهمون منها وتفهم منهم. وقد ثبت في صحيح البخاري[(٣)] أن إبراهيم زار

---

(١) تهذيب تاريخ دمشق، ابن عساكر، تهذيب: عبد القادر بدران، عمان ـ الأردن، دار المسيرة للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٧٩م (٢/ ١٣٧).

(٢) إبراهيم عليه السلام ودعوته في القرآن الكريم، أحمد البراء الأميري، ص٣٢.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، رقم (٩)، وفتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، (٦/ ١٣٩٨).

إسماعيل مرّة، فلم يجده، وتكلم مع امرأته الجُرهمية ولم تعجبه، ثم زاره مرة أخرى فلم يجده، وكانت عنده امرأة أخرى، فتكلَّم معها فأعجبته[١].

ومع أن الأدلة التي أوردتُها آنفًا لها أهمية علمية، فهي ـ حسب ما أرى ـ لا تبلغ درجة اليقين والقطع، ولا تعدو كونها نظرياتٍ واستنتاجات عقلية في أمور تاريخية تتعلَّق بحقبة «ما قبل التاريخ». ووصف إبراهيم عليه السَّلام بالعروبة يعتمد على تعريفنا لها، ومفهومها في تلك الأيام يختلف عن فهمنا لها اليوم، وعلى أي حال، فإن الخوض في هذه المسائل ليس له جدوى، وقد يؤدي إلى بعض الحساسيات القومية والعنصرية، ويثير نوعًا من النعرات بين العرب وغير العرب من المسلمين، نحن في غنى عنه، ولاسيما أن المسلمين يعيشون اليوم حالة من التشتُّت والفرقة، ونحن بحاجة إلى لمِّ الشمل، وليس إلى المزيد من الافتراق[٢].

ويرى الأستاذ العقاد: أنَّ أصحَّ نسبة يُنسب إليها إبراهيم عليه السَّلام عروبته، ولكنها تبدو لمن يسمعها كأنها غريبة، يُقال لمن يزعمها: من أين جئت بهذه الأحدوثة التي لما نسمعها قبل الآن[٣]؟ فلا يُقال عن إبراهيم إنه إسرائيلي؛ لأنَّ يعقوب هو أول من تسمى بإسرائيل، ويعقوب حفيد إبراهيم، ولا يُقال عن إبراهيم إنه يهودي؛ لأنَّ اليهودي يُنسب إلى يهودا، رابع أبناء يعقوب، ولم يُنسب إليه إلا بعد أن أصبح اسمه علمًا على الإقليم الذي قسم له عند تقسيم الأرض بين أبناء يعقوب، ولا يقال عنه: إنَّه عبري إذا كان المقصود بالعبرية لغة مميزة بين اللغات السامية، تتفاهم بها طائفة من الساميين دون سائر الطوائف، فإنَّ إبراهيم كان يتكلم بلغة يفهمها جميع السكان في بقاع النهرين

---

(١) تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم)، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠م، (٧/ ٥٣٥).

(٢) إبراهيم عليه السلام ودعوته في القرآن الكريم، أحمد البراء الأميري، ص٣٣.

(٣) إبراهيم أبو الأنبياء، عباس محمود العقاد، ص٢٨٩ ـ ٢٩١.

وكنعان، ولم تكن العبرية قد انفصلت عن سائر اللغات السامية في تلك الأيام[١].

وقد يُقال عنه: إنَّه ساميّ ينتمي إلى سام بن نوح، ولكنها نسبة إلى جدّ، وليست نسبة إلى قوم، وقد تكلم باللغة السامية أناس أحباش، وهم ليسوا من السريان ولا من الآراميين ولا الحِمْيريين، فإذا فتَّشنا عن نسب لإبراهيم عليه السَّلام لم نجد أصدق من نسبه العربي، كما أنَّ العربية كانت حينذاك في جزيرة العرب ومناطق الهلال الخصيب.

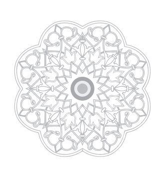
وأصحُّ التقديرات أنه نشأ في أسرةٍ حديثةِ عهدٍ بالهجرة من شمال اليمن إلى جنوب العراق، وكانت هذه الأسرة مع الذين جاؤوا من «أرض البحر» ـ كما كان البابليون يُسمُّون العرب المقيمين على مقربةٍ من خليج فارس ـ وقد وردت أسماء العرب، التي لا شكَّ فيها، بين الأسر المالكة في جنوب بابل، خلال عهد طويل يحيط بفترة الخليل إبراهيم على أقدم تقديراته[٢].

ويؤيّد محمد بيومي مهران ما قيل عن عروبة إبراهيم عليه السَّلام، فيذكر أن قوم إبراهيم خرجوا من قلب الجزيرة العربية التي نشأ فيها جماعة من جماعات الساميَّة المختلفة، وأنه عليه السَّلام كان عربيًّا خالصًا من سلالة العرب العاربة، التي يرتفع نسبُها إلى سام بن نوح عليهما السلام، وأنَّه أبو العرب العدنانيّة، الذين هم أبناء ولده إسماعيل، وهو بهذا جدّ العرب قبل أن يكون جدّ الإسرائيليّين[٣].

❋ ❋ ❋

---

(١) إبراهيم عليه السلام ودعوته في القرآن الكريم، أحمد البراء الأميري، ص٣١.
(٢) المرجع نفسه، ص٣١.
(٣) المرجع نفسه، ص٣٢.



المبحث الثاني

إبراهيم الخليل.. عصره وهجرته

أولاً: المرحلة التاريخية التي سبقت رسالة إبراهيم عليه السَّلام:

سبقت رسالةَ إبراهيم عليه السَّلام عدّةُ رسالات سماوية، كرسالة نوح وهود وصالح، وقبلهم آدم، وقد كتبتُ كتابين عن المراحل السابقة لعهد إبراهيم الخليل عليه السَّلام، وهما: كتاب «**نوح عليه السَّلام والطوفان العظيم**»، وكتاب «**قصة بدء الخلق وخلق آدم عليه السلام**»، وإنَّ النّية معقودة على الكتابة في سيرة هود وصالح عليهما السلام بإذن الله، وهذا لا يمنع أن نتحدث عمّن سبق إبراهيم عليه السَّلام، من قادة الإنسانية من أنبياء ورسل الرسالات السماوية، مثل نوح وهود وصالح باختصار؛ لأنّ دراسة سير الأنبياء والمرسلين تبيّن للباحث والقارئ مسار الحضارة القديمة وتطوُّرَها، التي تدين لها البشرية في كثير من مجالات التطوُّر والتمدُّن في حياتها حتى وقتنا الحاضر[١].

وإنَّ تلك المواطن تقع فيما يُسمّى بالمشرق العربي أو الشرق الأوسط، وفي الجزء الطيّب في مناخه وفي أرضه خاصَّة، الذي تتخلَّله أنهار النيل ودجلة والفرات.

---

(١) سنن الله في الحضارة الإنسانية، أحمد سريرات، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ٢٠١٣م، ص٤٣.

وقد ازدهرت في تلك المواطن، ابتداء من الألف الخامس قبل الميلاد، حضارات عظيمة ورائدة، ومنها الحضارة السومرية والمصرية والبابلية والآشورية وغيرها[١].

ولا يخفى أنه قامت حضارات في مناطق أخرى بعيدة، منها الحضارة الصينية مثلاً، التي نشأت على ضفاف الأنهار[٢]، ولكن نظرًا لعزلتها، وبُعدها عن موطن بعثة الأنبياء، لم تكن لها الأسبقية في الظهور[٣].

إنَّ منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط، الممتدة إلى الجزيرة العربية، تُعرف بأنها أرضُ الحضارات ومهدُ الديانات السماوية، فهي منبع الدورة الحضارية في الأرض، والشعوب التي أقامت الحضارات تنتمي لأبناء نوح عليه السَّلام، ومعظمهم من المؤمنين من أقوام العرب البائدة عاد وثمود (الهالكين)، حيث نزحت من أرض الجزيرة العربية، بسبب ما ابتلى الله تعالى به آباءهم من الكوارث المهلكة، كعقاب مباشر على إنكارهم دعوة الرسل، وإفسادهم وبطرهم وسوء تدبيرهم وشرورهم.

وإنَّ تحرُّك الجماعات الإنسانية القديمة من مواطنها، باحثة عن بيئات جديدة، ظاهرةٌ معروفة، وهي من طبيعة الإنسان الذي يستقرُّ حيث يتوفَّر الماء وموارد العيش الكريم. وقد وجدت تلك الجموع المهاجرةُ مبتغاها على ضفاف أنهار دجلة والفرات والنيل، وبدأت عملية التنقيب والاستلهام عن أحسن ما في إنجازات آبائهم المادية والتنظيمية، فطوّروا تقنيات عصرهم

---

(١) سنن الله في الحضارة الإنسانية، أحمد سريرات، ص٤٢.

(٢) من أراد الاطلاع على بعض أوجه الاختلاف بين الحضارات القديمة المعربة والسومرية والصينية وغيرها، فليراجع كتاب «الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها»، حسين مؤنس، طبعة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عالم المعرفة، ١، كانون الثاني/ يناير ١٩٧٠م.

(٣) سنن الله في الحضارة الإنسانية، أحمد سريرات، ص٤٣.

ونظمهم الإدارية ووسائل عيشهم، وبدأت تتشكل التجمعات البشرية، ونمت إلى كيان الدولة المترامية الأطراف، ونُظُمِ الحكم الملكي والإمبراطوري.

وفي خضمِّ ذلك التحوُّلِ إلى مرحلة الدولة المسؤولة، بعد أن نجح الإنسان القديم في إقامة حضارات حول الأنهار الكبرى في الشرق الأوسط، وفي إرساء نظام حكم على أساس ملك يتوارثونه كأنه منحة مقدسة يسوس به مجتمعاته بقواعد المنظومات التي اقتنع بها في مجال العقيدة والأخلاق والاقتصاد والحياة الاجتماعية والعسكرية، ظهر إبراهيم عليه السَّلام بين قومه في أور البابلية جنوبي العراق[١]، بعد أن انحرف الناس عن التوحيد وإفراد الله ـ عزَّ وجل ـ بالعبودية، ووقعوا في حبائل إبليس ووسائله، وعبدوا الأوثان والأصنام والنجوم والكواكب والبشر من دون الله، ونسوا دعوة نوح وهود وصالح عليهم السلام، وانحرفوا عنها انحرافًا كبيرًا.

❋ ❋ ❋

ثانيًا: الحياة الدينية في عصر إبراهيم عليه السَّلام:

وُلدَ إبراهيم عليه السَّلام في بلاد الرافدين «العراق حاليًا»، ونشأ في مجتمع تسود فيه عبادة الكواكب والأصنام، بل في مجتمع يسجد الناس فيه للملوك والحكام من دون الله ـ عزّ وجل ـ كما نشأ في وسط أسرةٍ كافرة تنحت الأصنام للناس وتُتاجر بها، حسب الروايات[٢]. ومع أن إبراهيم الخليل عليه السَّلام نشأ في هذه البيئة الوثنية إلا أنَّه ظلَّ على فطرته النقية الصافية وجِبلَّتِهِ النبيلة، ولم تُدنِّس عقيدتَه شوائبُ الشرك، ولم يختلط بفكره السليم شيء من الباطل

(١) سنن الله في الحضارة الإنسانية، أحمد سريرات، ص٤٥.

(٢) إبراهيم عليه السلام في أسفار اليهود «عرض ونقد»، فاطمة بنت خالد ردمان، رسالة ماجستير، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، السعودية، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م، ص٥.

الذي شبَّ عليه قومُه، فهو نشأ عليه السَّلام مُبغِضًا ما كان عليه قومه من معتقدات باطلة[١].

إنَّ الله أكرم الخليل عليه السَّلام حيث تفضَّلَ عليه بعصمته من الشرك منذ صغره، وذلك بأن آتاه الله رُشدَه وهداهُ إلى الحق، قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١].

ومِن ثَمَّ أدرك ـ بما وهبه اللهُ من العقل والهداية ـ أن للكون ربًّا واحدًا هو المهيمن المسيطر على كل ما فيه من مخلوقات، وأن البشر لا بدَّ أن يتوجَّهوا بالعبادة لخالق هذا الكون، ولذلك استحقَّ إبراهيم عليه السَّلام بصفاء فطرته وخلوصها للحق أن يكشف الله بصيرته فيُريه الأسرار الكامنة في الكون والدلائل الموحية بالهدى في الوجود، كما قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥].

أرى الله عزّ وجل خليلَه عليه السَّلام مُلكَ السماوات والأرض، وما خلق فيهما من الشمس والقمر والنجوم والشجر والدواب، وغير ذلك من عظيم خلقه، وجلّى له بواطنَ الأمور وظهورها، وذلك ليكون عليه السَّلام ممن يوقن بتوحيد الله، ويُبصر ما عليه قومه من الضلالة في عبادتهم للأصنام واتخاذهم إياها آلهة من دون الله.

وبهذه الفطرة السليمة، وهذه البصيرة المتفتحة، على هذا النحو من الإخلاص للحق، وإنكار الباطل، أراه الله ـ عزّ وجل ـ من خلالها حقيقة هذا الملك، ملك السماوات والأرض، وأطلعه على الأسرار المكنونة في أرجاء الكون، وكشف له عن الآيات المبثوثة في صحائف الوجود، ليصل بقلبه وفطرته إلى موجبات الإيمان ودلائل الهدى في هذا الكون العجيب؛ فينتقل من

---

(١) إبراهيم عليه السلام في أسفار اليهود «عرض ونقد»، فاطمة بنت خالد ردمان، ص٥.

درجة الإنكار على قومه عبادةَ الآلهة الزائفة إلى درجة اليقين الواعي بالإله الحق[١].

لقد كانت حياة إبراهيم عليه السَّلام تُمثِّل دعوته لتوحيد الله عزّ وجل وإفراده بالعبادة في مجتمع بلاد ما بين النهرين في بداية دعوته، ثم في بلاد الشام ومصر والحجاز.

وكانت بلاد ما بين النهرين «بلاد الرافدين» موطنًا لكثير من القبائل العربية المهاجرة من الجزيرة العربية وغيرها، وذلك لخصوبة أرضها، ويُسر الحياة فيها، لكن تعدَّدت فيها العبادات وتنوعت المعتقدات؛ لأن النازحين إليها كانوا ينقلون معهم معبوداتهم وعقائدهم الباطلة، مثل عبادة الأصنام وعبادة الكواكب وتقديس الملوك وعبادة الظواهر الكونية[٢].

ويُشير العقاد إلى تعدُّد العقائد والعبادات في عصر إبراهيم عليه السَّلام فيقول: من الألف الثالثة إلى الألف الثانية قبل الميلاد، أقام في البلاد العربية أناس من أتباع كل عقيدة دينية عُرفت في تلك العصور، وكان مركزها الأكبر في بلاد ما بين النهرين، حيث تتابعت الدول، فتتابعت معها الديانات والشعائر ومراسم العبادة، عُبدت فيها الكواكب، وعُبدت فيها الملوك، وعُبدت فيها الأرباب المحلية التي يدين بها أبناء كل إقليم على حدة، ولا تشترك الأقاليم جميعًا في عبادتها، وقامت الشعائر على اختلافها مع كل دين من هذه الأديان، فعرفوا الضحايا البشرية كما عرفوا القرابين من غلات الزراعة في مواسمها، وعرفوا الصلوات في الهياكل بقيادة الكهان، كما عرفوا الصلوات في البيوت أو المدافن الملحقة بها[٣].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق للطباعة، القاهرة، ط ٣٢، ٢٠٠٣م، ٧/ ١١٣٩.

(٢) إبراهيم عليه السلام في أسفار اليهود «عرض ونقد»، فاطمة بنت خالد ردمان، ص٥٥.

(٣) إبراهيم أبو الأنبياء، عباس محمود العقاد، ص١٥٦.

ويمكن القول: إنَّ العقائد والعبادات التي كانت سائدة في زمن إبراهيم الخليل عليه السَّلام كانت على النحو الآتي:

١ ـ عبادة الكواكب والنجوم:

كان قوم إبراهيم الخليل عليه السَّلام يعبدون النجوم والكواكب والأجرام السماوية، إذ كان لفرقة الصابئة اعتقادٌ خاصٌّ بتقديس الكواكب والنجوم، والتوجُّه لها بالعبادة، حيث كانوا يضعون الأصنام في المعابد كرموز في الأرض لتلك الكواكب السماوية، ثم يقومون بتأدية الطقوس الدينية أمامها، مثل الأدعية والصلوات وتقديم القرابين والنذور وغيرها من الطقوس[١].

يقول ابن كثير عن معتقدات قوم إبراهيم عليه السَّلام: «وكانوا يعبدون الكواكب السبعة، والذين عمروا مدينة دمشق كانوا على هذا الدين، يستقبلون القطب الشمالي ويعبدون الكواكب السبعة بأنواع من الفعال والمقال، ولهذا كان على كل باب من أبواب دمشق السبعة القديمة هيكل لكوكب منها، ويعملون لها أعيادًا وقرابين، وهكذا كان أهل حرَّان يعبدون الكواكب والأصنام، وكلُّ من كان على وجه الأرض كانوا كفارًا، سوى إبراهيم الخليل وامرأته وابن أخيه لوط عليه السَّلام»[٢].

هذا، ولم تكن عبادتهم للكواكب عبادة للإله العظيم، بل كانوا يعتقدون أن الكواكب لها إله خلقها وقدَّر لها منازلها في السماء، حيث يقول العقّاد عن قوم إبراهيم عليه السَّلام: إنهم كانوا يُؤمنون بإله عظيم، وهو من خلق الآلهة الصغيرة، وقدَّر لها منازلها في السماء، وهذه الآلهة الصغيرة هي الأجرام العلوية وأشهرها القمر، وقد عمَّت عبادتُه بلاد الساميين «خاصة العرب

---

(١) إبراهيم عليه السلام في أسفار اليهود «عرض ونقد»، فاطمة بنت خالد ردمان، ص٥٦.

(٢) قصص الأنبياء في رحاب الكون، د. عبد الحليم محمود، دار الرشاد للنشر، القاهرة، ط١، ٢٠١٠م، ص١١٧، ١١٨.

الأوائل» من وادي ما بين النهرين إلى سيناء ويُسمُّونه سين، وكان له اسم علم في وادي ما بين النهرين هو «نانار»، وهو الذي يتوجَّهون إليه بالعبادة، وكان له مركز في مدينة أُور ـ بلد الخليل إبراهيم ـ، ومركز في شمال العراق، ومعه هناك إله آخر يُسمُّونه مردوخ أو المريخ، وكانوا يرفعون الصروح لرصد الكواكب، ومن أشهر الكواكب المعبودة بعد القمر كوكب الزُّهرة «عشتار»، وكوكب المريخ «مردوخ»، وينسبون إلى الزُّهرة أنّها ربّة الحُبِّ؛ لتألُّقها وزهوِّها وتقلُّب أحوالها، وينسبون إلى المريخ أنه ربُّ الحرب لاحمرار لونه كلون الدماء، على أنهم عبدوا الشمس قديمًا باسم «شمش» وإن لم تكن عبادتها عامة بينهم كعموم عبادة القمر(١).

وكان يمثل القمر الإله «سين»، ويمثل الشمس الإله «شمش»، وكذلك الزُّهرة والتي تُعرف باسم «عشتار»، ويُمثِّل كوكب المريخ الإله «مردوك» أو «مردوخ» (٢).

٢ ـ عبادة الأصنام:

كان الناس في زمن نبي الله إبراهيم الخليل عليه السَّلام يعبدون الأصنام والأوثان من دون الله عزّ وجل، حيث كانوا يقومون بالعبادة والتقديس لها، وذلك بأداء الصلوات وتقديم الأضاحي والقرابين وطقوس العبادة المختلفة؛ لاعتقادهم بأن هذه الأوثان آلهة للناس تتصرَّف في أمورهم، وأنها مصدر الخصب والرزق والحياة، غير أنهم يرون أن هذه الآلهة صغيرة تابعة لربٍّ واحد أكبر يمتد سلطانه إلى الكون بأسره، وكانوا يُخصِّصون لتلك الأصنام المعابدَ أو البيوت الخاصة لتقديم مراسيم الطاعة والعبادة أو التقديس لها بشكل فردي وبشكل جماعي، كما كان لكل فرد من أفراد الأسرة صنمٌ خاصٌّ به(٣).

---

(١) إبراهيم عليه السلام في أسفار اليهود «عرض ونقد»، فاطمة بنت خالد ردمان، ص٥٨.
(٢) المرجع نفسه، ص٥٨.
(٣) المرجع نفسه، ص٥٩.

وقد ذكر العقاد نقلاً عن «وولي» في كتابه عن إبراهيم عليه السَّلام: أنَّ الآلهة عند السومريين على ما يظهر ثلاث طبقات: الآلهة العظيمة التي تُخصَّص لها هياكلُ الدولة، والآلهة التي دونها وهي التي تُقام لها المعابد في مسالك الطرق، ودون ذلك آلهة الأسرة، والأغلب على الآلهة العظيمة أنّها كانت تُشخِّص قوى الطبيعة كالشمس والقمر والماء والأرض والنضال والخصب والموت. وقد كانت لها أقاليم تغلب العبادة لكلٍّ منها على إقليم، ومن ثم لا يُفرَض الولاء الكامل له من غير الإقليم(١).

وكان قوم إبراهيم عليه السَّلام ينسبون إلى معبوداتهم صفات البشر، التي لا تختلف عنها إلا في أنّها أكثر تجريدًا وكمالاً، كما كانت ثياب الآلهة كثياب البشر، ولكن ثياب الآلهة أبهى من ثياب الأمراء، ويصدر عنها بريق يخطف الأبصار. وللآلهة أُسر وأسلحة، وصراعها كصراع الناس، ولكنه بالطبع على نطاق أعظم وأهول، كما كانوا يُميِّزون آلهتهم عن البشر بالخلود، وبأنهم كانوا خَيِّرين دائمًا، ولم يكن الشرُّ من عملهم، بل من أرواح خبيثة تفوق البشر؛ ولكنها دون الآلهة.

ومن أشهر المعبودات التي كان يعبدها قوم إبراهيم عليه السَّلام ما يعرف بالثالوث الأعظم الذي يتكون من: أنو، وإنليل، وإيا(٢).

٣ ـ عبادة الملوك:

من العبادات التي كانت سائدة في قوم إبراهيم عليه السَّلام عبادة الملوك وتقديسهم، حيث كانوا يعتقدون فيهم القدرة على الخلق والإماتة، وأن بيدهم النفعَ والضرَّ والسعادة والشقاوة، أما عن سبب نشأة هذه العبادة فيهم، فهو

---

(١) إبراهيم أبو الأنبياء، عباس محمود العقاد، ص١٦١.

(٢) دراسات تاريخية من القرآن الكريم، محمد بيومي مهران، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٠٨هـ ـ١٩٨٨م، (٤/ ١٠٥، ١٠٦).

نتيجة لاعتقادهم بأن الملوك الأوائل، الذين حكموا بعد الطوفان، قد هبطوا من السماء إلى الأرض، ومن الملوك الذين ادَّعَوُا الألوهية، ومنهم: الملك الطاغية الذي جادل إبراهيم عليه السَّلام(١).

وقد بلغ من مظاهر تقديسهم وتعظيمهم لملوكهم، أن الملك إذا مات كانوا يدفنون معه حاشيته ووزراءه، كما دلَّت على ذلك الأحافير، ولهذا يعتقد «وولي» في كتابه «أور الكلدانيين» أنهم كانوا يتجرَّعون باختيارهم عقارًا سامًّا يُخدِّرهم ويُميتُهم؛ لإيمانهم بالانتقال مع الملوك الأرباب إلى حالة في السماء، كحالتهم في الحياة الأرضية(٢).

٤ ـ تقديم القرابين والنذور:

من الطقوس الدينية الشائعة في عصر إبراهيم عليه السَّلام: تقديم القرابين والنذور للأصنام؛ لأغراض مختلفة، مثل التكفير عن الذنوب والخطايا، واستعطاف الآلهة واسترضائها، وكانت القرابين التي يُقدِّمها الناسُ للآلهة، إما قرابين زراعية؛ مثل القمح والذرة والشعير والسمسم وغيرها، وإما قرابين حيوانية؛ مثل الضأن والماعز، حيث كانوا يضعونها على مذبح أمام تمثال الآلهة، ثم يبدؤون حفلهم الدينيّ بالأدعية والصلوات مع بعض الطقوس الأخرى. أما القرابين الزراعية التي يضعونها أمام تمثال الآلهة، فكانت تُوزَّع بين كهنة المعبد ورجال الدين والملوك.

وكان من الطقوس المنتشرة في عصر سيدنا إبراهيم عليه السَّلام: تقديم النذور من الذهب والفضة والحبوب والأقمشة والملابس أمام تمثال الآلهة، فيأخذها كهنة المعبد الذين يقومون بوزنها وتدوينها في سجلٍ قبل نقلها إلى مخزن المعبد، ثم يكتبون إيصالاً باستلامها على لوحة طينية، تُحفَظ منه نسخة

---

(١) إبراهيم عليه السلام في أسفار اليهود «عرض ونقد»، فاطمة بنت خالد ردمان، ص٦٠.
(٢) إبراهيم أبو الأنبياء، عباس محمود العقاد، ص١٦٣.

أخرى لمن قام بأداء النذر، كما كانوا يقربون أبناءهم قربانًا لآلهتهم، حيث كانوا ينذرون ذبح أبنائهم أمام تمثال الآلهة(١).

ويقول ول ديورانت في بيان البابليين: وكان إذا حزبهم أمر جلل يُضحُّون بأطفالهم قربانًا له، كما كان الفينيقيون يفعلون، فكان الآباء يأتون إلى الحفل وقد أخذوا زينتهم كأنهم في يوم عيد، وكانت دقات الطبول وأصوات المزامير تُغطِّي على صراخ أطفالهم، وهم يحترقون في حجر الإله(٢). ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل كانوا يعتبرون أن الفتاة التي تهبُ بكارتها لكاهن المعبد، فإن ذلك من أعظم القرابين(٣).

وكانت من أسمى التضحيات أن تُقدِّم النساءُ أجسادَهن قربانًا للآلهة في ذلك الوقت. يقول عبد الحميد السحار: إنَّ من تهب نفسها للمعبد إنما تضحي بجسدها قربانًا للآلهة، فتضحيتها أسمى من تضحية من ينحر كبشًا أو جديًا أو ثورًا، إن غايتها أسمى من إشباع شهوة جنسية، إنَّ المرأة عندما تُقدِّم جسدَها إلى رجل غريب إنما تُقدِّمه على مذبح الآلهة(٤).

٥ ـ بناء المعابد:

كان للمعابد مكانةٌ مهمة عند سكان بلاد الرافدين، كغيرهم من الأقوام الكنعانية والمصرية، إذ يُمثِّل المعبدُ مركز الحياة الدينية والمدنية من الناحية الدينية؛ لأنَّ المعبد في نظر سكان بلاد ما بين النهرين وغيرهم من الشعوب

---

(١) إبراهيم عليه السلام في أسفار اليهود «عرض ونقد»، فاطمة بنت خالد ردمان، ص٦١.

(٢) قصة الحضارة، ول ديورانت، تقديم محيي الدين صابر، ترجمة زكي نجيب محمود، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، بيروت، (د.ت)، (٢/٣١٨ـ٣١٩).

(٣) إبراهيم عليه السلام في أسفار اليهود «عرض ونقد»، فاطمة بنت خالد ردمان، ص٦٢.

(٤) إبراهيم أبو الأنبياء، عبد الحميد جودة السحار، من سلسلة السيرة النبوية «محمد رسول الله والذين معه»، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٦٥م، ص٢١.

القديمة يُعدُّ أقدس مكان؛ وذلك لاعتقادهم أنَّ المعبد مقرٌّ للإله، يعيش فيه ويسكن مع زوجته وأولاده وحاشيته وخدمه.

أما من الناحية المدنية، فكان المعبد مركزًا للقضاء والقضاة، كما تودَع فيه الأمانات، وتُحفَظ سجلات العلوم والآداب والكتب الملكية؛ لذا حرص سكان بلاد ما بين النهرين على بناء المعابد في وسط المدينة، وكان لهم طقوس عند إرساء أساس المعبد، وذلك بوضع ودائع تحوي صورًا واقية وطلاسم تدفع أرواح الشر عن المعبد، على حسب اعتقادهم. وكانت المعابد نوعين:

أ ـ المعبد الأرضي:

كان الهدف من بنائه أن يسكن فيه الإله، حيث كانوا يعتقدون أن الإله يعيش بين الناس، يستمع إلى شكاواهم، ويُنصت إلى صلواتهم، ويتقبَّل قرابينهم[(١)].

يقول ول ديورانت: «وكان خَدَمُ الآلهة يسكنون المعابد، حيث يُقرِّب لها المؤمنون القرابين من مال وأزواج وطعام، مثل البلح والتين والخيار والزبد والزيت والكعك، وكذلك المَعزُ والضأن واليمام والدجاج والبطُّ»[(٢)].

ب ـ المعبد العالي:

يتكون من ثلاث أو أربع طبقات، ويُحيط بها من الخارج طريق صاعدة ترتفع تدريجيًّا في كل دورة حتى تصل إلى المذبح الذي يُقام في أعلاها، وكان الهدف من بناء المعابد المرتفعة اعتقادهم أن الإله يهبط من السماء إليها، ويستريح عند نزوله من السماء إلى الأرض.

---

(١) مصر والشرق الأدنى القديم «سورية الفينيقيون والكنعانيون الإسرائيليون والفلسطينيون الآراميون»، نجيب ميخائيل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط٢، ١٩٦٤م، (٦/ ١٦٤).

(٢) قصة الحضارة، ول ديورانت، (٢/ ٢٩).

وكان لكل مدينة معبدٌ فضلاً عن المدن الكبرى، إذ كان في المدينة أكثر من معبد بالإضافة إلى الأبراج العالية، ومن المعابد التي شُيِّدت معبد الإله «إنليل»، ومعبد «الزُّهرة»، ومعبد «سين» إله القمر، ومعبد «شماش» إله الشمس، وغيرها من المعابد الأخرى.

هذه بعض من جوانب الحياة الدينية في بلاد ما بين النهرين في عصر إبراهيم عليه السَّلام، وهي تُشابه إلى حد كبير ما كانت عليه الحياة الدينية في أرض الشام ومصر وسائر أنحاء الجزيرة العربية، إذ إن القمر والشمس والزهرة وسائر مظاهر الطبيعة كانت معبودات في العراق وفي الشام ومصر وسائر أنحاء الجزيرة العربية[١].

وقد عبدَ الكنعانيون الطبيعة ومظاهرها، فكان عندهم آلهة للسماء والشمس والقمر والعواصف والمطر، كما كان عندهم آلهة البحر والخصب... إلخ.

ومن أشهر آلهة الكنعانيين:

ج - إيل:

هو أكبر آلهة الكنعانيين، وأعلاها مقامًا في نظرهم، ويُطلِقون عليه لقب «الإله العلي» أو «الإله العظيم»[٢]، ويُقابله «آنو» في ديانات سكان بلاد ما بين النهرين. ويعتقد الكنعانيون بأن الإله «إيل» أبو الآلهة وخالق السماوات والأرض ومانح الخصب للبشر، وأنه الذي يُحيي الأرض بمياه الأمطار والأنهار. وكان للإله «إيل» في اعتقاد الكنعانيين زوجة، وهي الإلهة «عاشيرة» أو «أشيرة» إلهة البحر، ومن أولادها الإله «بعل» و«عانات».

---

(١) إبراهيم عليه السلام في أسفار اليهود «عرض ونقد»، فاطمة بنت خالد ردمان، ص٦٣.

(٢) المفصل في تاريخ العرب واليهود في التاريخ، أحمد سوسة، دار الوراق، بيروت، ط١، ٢٠١٤م، ص١٢٠.

د ـ بعل :

وتعني لفظة بعل : «الربّ»، ويُسمَّى عند الإغريق «أدونيس»، ويعتقد الكنعانيون أنَّ الإله «بعل» إله الخصب والأمطار، وأنه مُنظِّم الكون، وأن له القدرة على جلب الويلات والخيرات في آنٍ واحد[١].

هـ ـ عشتار :

هي تُمثِّل إلهة الخصب، كما يعتقد الكنعانيون، وكانوا يعبدونها، وهي تقابل الإلهة «عشتار» في الديانة البابلية[٢].

وقد كان المصريون يؤلّهون مظاهر الطبيعة[٣]، وكانوا يرمزون لها بأجسام بشرية ورؤوس حيوانية مثل: العجول والكباش والقطط والثعابين؛ وذلك لاعتقادهم أن أرواح الآلهة تحلُّ في أجسام تلك الحيوانات المقدسة عندهم[٤].

وقد أثبت علم المقارنة بين الأديان أنَّ عبادة القمر سابقة لعبادة الشمس، وأنَّ ربَّ الأرباب عند اليونان هو كوكب المشتري، وليس الشمس أو القمر، ولهذا يطلقون عليه اسم «جوبيتر»، ويَستمدُّون هذا الاسم من كلمتين بمعنى أبي الآلهة، وكذلك أثبتوا عبادة الملوك[٥].

هذا وقد سبق القرآنُ الكريم علمَ مقارنة الأديان فبيَّن أنّ عبادة الكواكب والأصنام والملوك ـ كانت في السابق ـ حقيقة واقعية، كما بيّن القرآنُ الكريم

---

(١) الديانات الوضعية المنقرضة، محمد العريبي، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٥م، ص١٨٢، ١٨٣.

(٢) المفصل في تاريخ العرب واليهود في التاريخ، أحمد سوسة، ص١٣٣.

(٣) قصة الحضارة، ول ديورانت، (٢/ ١٥٦).

(٤) هاجر المصرية أم العرب، عبد الحميد جودة السحار، من سلسلة السيرة النبوية «محمد رسول الله والذين معه»، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٦٥م، ص٣٣.

(٥) إبراهيم عليه السلام في أسفار اليهود «عرض ونقد»، فاطمة بنت خالد ردمان، ص٦٥.

ذلك في دعوة إبراهيم عليه السَّلام لأصحاب هذه المعبودات إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فقد ذكر لنا الله عزّ وجل مناظرة الخليل عليه السَّلام لقومه من عبدة الكواكب والنجوم مبيناً لهم بطلان عبادتهم لها، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ٧٥ ـ ٧٨].

كما ذكر لنا القرآن الكريم إنكار سيدنا إبراهيم عليه السَّلام على أبيه وقومه عبادتهم الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٢].

كما أخبرنا عن مناظرة إبراهيم عليه السَّلام للملك المتألّه في عصره، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وهو ما سنتحدث عنه ـ إن شاء الله ـ عند الحديث عن دعوة إبراهيم عليه السَّلام كما جاءت في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة[(١)].

ممّا تقدم نستخلص أنَّ الناحية الدينيّة في عصر إبراهيم عليه السَّلام كانت على النحو الآتي:

* كان المجتمع في عصر إبراهيم عليه السَّلام مجتمعًا يسوده الفساد العقدي، كما كان مجتمعًا غارقًا في الوثنية، إذ كان الناس يؤلّهون الكواكب

---

(١) إبراهيم عليه السلام في أسفار اليهود «عرض ونقد»، فاطمة بنت خالد ردمان، ص٦٦.

ويعبدون الأصنام والملوك، فضلاً عن إقامة الطقوس الدينية من الأدعية والصلوات وتقديم القرابين والنذور لمعبوداتهم الباطلة.

* ضخامة الانحراف في الجوانب الدينية في عصر إبراهيم عليه السَّلام، إذ لم يكن من السهل أن يُوجد هذا الخليط من العقائد والعبادات الباطلة في عصر واحد، وهذا يدلّ على ثقل الدعوة التي قام بها إبراهيم عليه السَّلام لهداية أهل عصره، ومواجهة العقائد الوثنية والصابئة أو الملوك الذين كانوا ينتحلون صفة الألوهية.

* تشابه العقائد والديانات في عصر إبراهيم عليه السَّلام سواء في أرض العراق أو في أرض كنعان أو في أرض مصر، حيث كان الناس في ذلك الوقت يعبدون الأصنام والظواهر الكونية مثل الشمس والقمر والنجوم، كما كانت عبادة الملوك منتشرة، وهذا يدل على العلاقة القوية بين الديانات في ذلك العصر[١].

٦ ـ الصّابئة:

اختلف العلماء اختلافًا كبيرًا في الصّابئة، وتاريخهم، وطقوسهم، وعقيدتهم، واكتشفوا أنّهم فِرق مُتعدِّدة ومذاهب مُتشعِّبة يُخالف بعضها بعضًا في الأصول[٢] والفروع، ولم تسلم من التغيّر والتبدّل على مرّ الزمان، وأشار القرآن الكريم إلى الصابئين في ثلاثة مواضع، فذكرهم مرة بعد اليهود والنصارى، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]، وذكرهم وسطًا بين اليهود والنصارى، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ

(١) إبراهيم عليه السلام في أسفار اليهود «عرض ونقد»، فاطمة بنت خالد ردمان، ص٦٧.
(٢) المرجع نفسه، ص٦٧.

صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة: ٦٩]، وذكرهم في موطن آخر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧].

لقد ربط أهل الأخبار بين الصابئة المذكورين في القرآن الكريم وبين صابئة حرّان وصابئة العراق، وجعلوهم طائفتين: صابئة حنفاء، وهم أصحاب إبراهيم عليه السَّلام ممن كان على دعوته، وصابئة مشركين وهم من فسدوا من الصابئة واعتقدوا بالكواكب(١). وإلى إيمان الصابئة المذكورين في القرآن الكريم ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية(٢) من القدماء، ومحمد عزّة دروزة(٣) من المحدَثين(٤).

وتُعدُّ دراسة عقيدة الصابئة مهمّة بالنسبة إلى بحثنا من عدة نواحٍ: فهي مهمة من جهة المكان؛ لأنّها قديمة العلاقة بكل مكان تعلَّقت به سيرة الخليل عليه السَّلام من جنوب العراق إلى شماله إلى بلاد السريان، إلى بلاد النبطية من الحجاز(٥)، وهي مهمّة من جهة زمانها؛ لأن لغتها المقدسة تشير إلى زمان متوسط بين اللغات القديمة المهجورة واللغة السريانية الحديثة، ولم تكن لغة إبراهيم عليه السَّلام سريانية حديثة كالتي بقيت إلى الزمن الآخر، ولم تكن

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، دار الساقي، بيروت، ط٤، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م، (١/ ٧٠١).

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ابن تيمية، تحقيق: علي بن حسن بن ناصر وعبد العزيز بن إبراهيم العسكر وحمدان بن محمد الحمدان، دار العاصمة للنشر، الرياض، السعودية، ط٢، ١٩٩٩م، (٢/ ٦٢ ـ ٦٣).

(٣) عصر النبي عليه السلام وبيئته قبل البعثة، محمد عزّة دروزة، مطبعة دار اليقظة العربية، دمشق، ١٩٤٦م، ص٦٩٦، ٧١٩.

(٤) إبراهيم عليه السلام ودعوته في القرآن الكريم، أحمد البراء الأميري، ص٤٢.

(٥) المرجع نفسه، ص٤٢.

إحدى اللغات المهجورة، فإن تلك اللغات المهجورة قد انقطعت صلتها بمن بعدها على خلاف لغة الخليل عليه السَّلام، فإذا أشارت لغة الصابئة إلى زمن متوسط بين اللغات المهجورة واللغات السامية المتأخرة، فهي إحدى القرائن التي يُستعان بها على تعيين زمن الخليل[١].

وهي أيضًا مهمّة من جهة موضوعها؛ لأنّها تُرينا ملتقى التوحيد القديم والوثنية القديمة، وفيها بقايا الاصطدام بين العقيدتين، وقد يكون مدار الاختلاف بين عقيدة الخليل ومخالفيه حول هذا المعتقد، فإن بقايا التنازع بين المعتقدات ظاهر في عقيدة الصابئة، يكاد بعضها أن يكون ردًّا على بعضها الآخر، فلا وثنية ولا إيمان بالكواكب من جهة، ولا خلاص في الوقت نفسه من الوثنية والإيمان بالكوكب على صورة من الصور، ولعلَّ عقيدة الصابئة ـ كما بقيت ـ خليطُ مُجتمعٍ من الجانبين بعد هجرة إبراهيم وشيعته من وطنهم القديم[٢].

ومن هنا كانت عقيدة الصابئة مهمة في دراسة الأديان على العموم، ودراسة دين إبراهيم على الخصوص، وكان لها من ذلك شأن لا يناسب عددها القليل[٣]، وعزلتها التي فرضتها على نفسها، وفرضتها عليها أحداث الأيام[٤].

ومن أهم مذاهب الصابئة :

أ ـ مذهب أصحاب الروحانيات :

ترجع فكرة أصحاب هذا المذهب إلى أن للعالم صانعًا حكيمًا منزَّهًا عن

(١) إبراهيم عليه السلام ودعوته في القرآن الكريم، أحمد البراء الأميري، ص٤٣ .
(٢) المرجع نفسه، ص٤٣ .
(٣) إبراهيم أبو الأنبياء، عباس محمود العقاد، ص١٣٩ .
(٤) المرجع نفسه، ص١٤٧ ـ ١٤٨ .

صفات الحدوث، وعلينا أن ندرك عجزنا عن الوصول إلى معرفة جلاله، وإنما يُتقرَّب إليه بما يتوسّطُ بينه وبين عباده، وهم الروحانيون المطهَّرون المُقدَّسون؛ جوهرًا وفعلاً وحالة[١].

ب ـ مذهب أصحاب الهياكل:

لما عرف أصحاب الروحانيات أنه لا بُدَّ للإنسان من وسيط، ولا بُدَّ للوسيط من أن يُرى، فيُتوجَّه إليه، ويُتقرَّب به ويُستفاد منه، فزعوا إلى الهياكل التي هي الكواكبُ السيارات السبعة، فتعرفوا **أولًا**: بيوتها ومنازلها، و**ثانيًا**: مطالعها ومغاربها، و**ثالثًا**: اتصالاتها على أشكال الموافقة والمخالفة مرتبة على طبائعها، و**رابعًا**: تقسيم الأيام والليالي والساعات عليها، و**خامسًا**: تقدير الصور والأشخاص والأقاليم والأمصار عليها، فعملوا الخواتيم[٢]، وتعلموا العزائم والدعوات، وعينوا لها الأيام، ووضعوا لها الأبخرة، وسمّوها أربابًا آلهة، وكانوا يتقرَّبون إلى الهياكل تقرُّبًا للروحانيات، ويتقرَّبون إلى الروحانيات تقرّبًا إلى الباري جلّ وعلا[٣].

ج ـ مذهب أصحاب الأشخاص:

قال أصحاب هذا المذهب: بما أن الهياكل (الكواكب) تطلع وتأفل، وتَظهر وتَختفي، فلا بُدَّ من نصب أصنام تمثِّلُها، وتكون ماثلة أمام الأعين دائمًا، يُتقرَّب بها إلى الهياكل، وبالهياكل إلى الروحانيات، وبالروحانيات إلى الله ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، فأصحاب الهياكل هم عبدة الكواكب، وأصحاب الأشخاص هم عبدة الأوثان، إذ سمّوها آلهة في مُقابل الآلهة السماوية، وقالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨]، وقد دعا

---

(١) الملل والنحل، الشهرستاني، مؤسسة الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٨م، (٢/ ٦٤) وما بعدها.

(٢) إبراهيم عليه السلام ودعوته في القرآن الكريم، أحمد البراء الأميري، ص٤٤.

(٣) الملل والنحل، الشهرستاني، (٢/ ١٠٧).

إبراهيم عليه السَّلام هؤلاء وهؤلاء، وناظرهم، وأقام الحجة عليهم، وكسّر أصنامهم حجارة وعقولاً[(١)].

ويُعلِّق «ول ديورانت» على عقائد أهل بابل، وهم من الصابئة أصحاب الهياكل، فيقول: لم يدرس البابليون النجوم؛ ليرسموا الخرائط لتُعينهم على مسير القوافل والسفن، بل درسوها ـ أكثر ما درسوها ـ لتُعينهم على التنبُّؤ بمستقبل الناس وأحوالهم ومصائرهم، وبذلك كانوا مُنجّمين أكثر منهم فلكيّين، وأضحت الجهود التي تُبذل، لاستخلاص العلم بالمستقبل من حركات النجوم، شهوةً من شهوات البابليّين[(٢)].

❋ ❋ ❋

ثالثًا: الحياة الاجتماعية والسياسة:

بعد أن تحدثنا عن الجوانب الدينية التي كانت سائدة في مجتمع إبراهيم عليه السَّلام ننتقل إلى بيان الجوانب الاجتماعية التي كانت سائدة آنذاك، ولاسيّما في أرض الرافدين، الأرض التي كانت مسقط رأسِ الخليل إبراهيم عليه السَّلام، وتلك الجوانب تتمثَّل في:

١ ـ الطبقات الاجتماعية:

يتألف المجتمع في بلاد ما بين النهرين من ثلاث طبقات:

أ ـ الطبقة الأولى: طبقة الأحرار:

تتكون طبقة الأحرار من الفئة الحاكمة، وفي مقدمتهم الأسرة المالكة التي تحتلُّ مكانة مقدَّسة واحترامًا من نوع خاصٍّ؛ وذلك للمكانة التي كان يتمتَّع بها الملك وأسرته لدى الناس عامّةً، حيث يَعدُّون الملك مُمثِّل الآلهة على الأرض

---

(١) إبراهيم عليه السلام ودعوته في القرآن الكريم، أحمد البراء الأميري، ص٤٥.
(٢) المرجع نفسه، ص٤٥.

ونائبًا عنها، كما تشمل هذه الطبقة أبناء الوجهاء والسفراء والمشرفين على المعابد، وقادة الجيش، وموظفي الضرائب والكهنة.

ب ـ الطبقة الثانية: الطبقة الوسطى وتُسمَّى «المسكينوم»:

تتكون من أبناء الطبقة المتوسطة الذين يؤلّفون الكتائب العسكرية، ويكونون مزوَّدين بالأسلحة، وذلك للعمل في المعسكرات، ويُعاملون معاملة واحدة أمام القانون، ويتمتّعون بالحقوق والواجبات إلا إذا نصّ القانون على خلاف ذلك، وكانوا جميعًا أحرارًا من الوجهة النظرية، ولكن في الواقع كانت نسبة كبيرة منهم حريتهم مقيّدة؛ نظرًا لظروفهم الاقتصادية الصعبة.

ج ـ الطبقة الثالثة: طبقة الأرقّاء أو العبيد:

تتكون هذه الطبقة من أسرى الحروب والسَّبي ومَن يُباعُون بأسواق العبيد، هذا وقد يعدُّ الفرد الذي من الطبقة الوسطى من طبقة الأرقاء في حالات وظروف معينة مثل اقترافه جرائم معينة نصّ عليها القانون، أو في حالة عجزه عن سداد دينه، أو إذا أنكر المتبنّي مَن يتبناه، كذلك تصبح الزوجة من طبقة الرقيقات إذا تنكّرت لزوجها أو أنكرته.

وهذه الطبقة لم يكن لها تأثير في المجتمع، ولم يُنظر إلى أفرادها على أنهم بشرٌ، بل عُومِلوا معاملة المتاع، فكانوا يُعرفون بأسماء أصحابهم، وإن وقع عليهم ضررٌ يُدفَع التعويض لمالكهم، ويُميَّزون عن بقية أفراد المجتمع، إما بقصّ شعورهم، أو بوضع علامات العبودية على أجسادهم[١].

٢ ـ الزواج والأسرة في بلاد ما بين النهرين:

ومما لا شكَّ فيه أنَّ الأسرة هي اللبنة الأساسية في تكوين المجتمع،

---

(١) مصر والشرق الأدنى القديم، نجيب ميخائيل إبراهيم، ص٣٠، ويُنظر: العراق في التاريخ، مجموعة من الباحثين، دار الحرية للطباعة والنشر، بغداد، العراق، ط١، ١٩٨٣م، ص١٨٨.

وتتكوَّن الأسرة من الأب «الزوج»، والأم «الزوجة»، و«الأولاد»، وهؤلاء هم ثمرة من ثمرات الزواج.

ويقوم الزواج في بلاد ما بين النهرين على مجموعة من الأسس، منها أن يكون بموجب عقد صريح مُدوَّن ومُصدَّق عليه بالشهود، ولا يُعترف بالزواج إذا لم يتمَّ بموجب هذا العقد الذي يُشترط فيه موافقة والديّ الخاطب «الرجل»، ووالديّ المخطوبة «الفتاة»، كما كان للوالدين دور كبير في اختيار الفتاة المناسبة لابنهما، وحين يتمُّ الاتفاق بين العائلتين على الزواج يرسل الخاطب مقدمة المهر «الترخانو» إلى والد العروس، ثم يدفع بقية المهر بعد ذلك، وإذا عدل الخاطب عن الزواج لا يحقّ له استرجاع المهر، أما إذا كان الرفض من جانب عائلة الزوجة فيجب عليها أن تُعيد جميع ما دفعه الزوج.

وكان المجتمعُ البابليُّ يسمح قبل الزواج بإقامة علاقات جنسية، وهو ما يُعرف في بابل بـ «الدعارة المقدّسة»، يقول «ول ديورانت»: وكان يُسمَح للبابليين ـ عادة ـ بقسط كبير من العلاقات الجنسية قبل الزواج، ولم يكن غريبًا على الرجال والنساء أن يتَّصلوا اتصالاً غير مرخّص به «زيجات تجريبية»، وتنتهي متى شاء أحد الطرفين أن يُنهيها[١].

وقد كانت القوانين والتقاليد تُقرّ منح الزوجة جاريتها لزوجها من أجل الحصول على الأولاد، وتنال الأَمَة حريّتَها بعد إنجابها، وقد كان يُسمح للفرد أن يتبنَّى الأطفالَ الذكور أو الإناث وفق عقد مدوّن بين طالب التبني ومَن قاموا بتربية الطفل، وذلك وفق عدة شروط:

* أن يقوم المتبني بالتزاماته تجاه الابن المتبنَّى، فكان على المتبنِّي أن يُعامل الابنَ المتبنَّى كأحد أبنائه الطبيعيين.

* أن يقوم المتبنِّي بتعليم الابن المتبنَّى وتثقيفه كما لو كان ابنه الحقيقي.

---

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت (١/ ٢٣١).

* أن يوصي الشخص المتبنِّي بتوريث الابن المتبنَّى مثل توريثه لأبنائه الحقيقيين.

وبالمقابل كان على الابن المتبنَّى أن يطيع والديه اللذين تبنياه، ويعدّهما كوالديه الحقيقيين، وإذا تطاول عليهما أو أنكرهما فلهما ضربه وتقريعه أو استبعاده(١).

٣ ـ إقامة الأعياد:

من المظاهر الاجتماعية التي كانت حاضرة في عصر إبراهيم عليه السَّلام: إقامة الأعياد والاحتفالات الاجتماعية والدينية الطقسية، ومن أهم تلك الأعياد أعياد الآلهة حيث كان لكل إله من آلهتهم أعياده الدينية الخاصة به، كما كانوا يحتفلون عند كل سنة جديدة بعيد يعدُّ من أكبر أعيادهم، وذلك بدعوة من جميع الآلهة ـ على حدِّ زعمهم ـ ويخرج إلى هذا العيد جميع أهل المدن من الرجال والنساء والأولاد، وذلك للمشاركة في الاحتفالات يتقدَّمُهم الملكُ، حيث يقومون بأداء الطقوس الدينية من الأدعية والصلوات والابتهالات، وتقديم القرابين، وغيرها من الطقوس، أمام أكبر آلهتهم «مردوخ»، ويستمرُّون في تأدية طقوسهم الدينية لعدة أيام(٢)، ولعله العيد الذي خرج قوم إبراهيم عليه السَّلام إليه وطلبوا من إبراهيم عليه السَّلام الخروج معهم للمشاركة في احتفالاتهم، ولكنه عليه السَّلام لم يُجبهم إلى طلبهم، وانتهز فرصة خروجهم إلى عيدهم بالذهاب إلى معبدهم وتحطيم أصنامهم، كما قال تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩١ ـ ٩٣].

(١) تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية، العراق القديم، د. صالح أحمد العلي، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ط١، ٢٠٠٠ م، ص١٩٢.

(٢) الديانات الوضعية المنقرضة، محمد العريبي، ص٨٨ ـ ٨٩.

٤ ـ الناحية التعليمية :

كان التعليم في أيام إبراهيم عليه السَّلام متاحًا، وكانت المدارس الخاصة بالمعابد منتشرة في كل مكان؛ لتعليم الناس العلوم المختلفة، كالقراءة والكتابة، حيث كانوا يكتبون بأقلام من القصب على ألواح من الطين الرطب. وكذلك اهتمَّ الناس في عصره بعِلم الفلك، من خلال بناء الصروح العالية لمراقبة الأجرام السماوية، التي تُعينهم على التنبُّؤ بمستقبل الناس، والتكهُّن بمصائرهم[١].

ومن العلوم التي كانت منتشرة في عصر إبراهيم عليه السَّلام: علم الحساب، فكان الناس يهتمون بهذا العلم اهتمامًا عظيمًا؛ وذلك من أجل معرفة حسابات دخل المعابد والقرابين، ولتيسير أعمالهم التجارية التي تُحتِّم معرفة الأعداد، إلى غير ذلك من الأمور الحسابية. وكانوا يحفظون الكتب في المعابد والقصور الملكية إلى جانب وثائقهم الرسمية، وهذا يشير إلى اهتمام الناس في عصر إبراهيم عليه السَّلام بالناحية التعليمية، إذ كانوا بعد تخرُّجهم من المدارس يلتحقون بخدمة المعابد والقصور الملكية[٢].

مما سبق عرضه، نستطيع القول بأنَّ البيئة الاجتماعية في عصر إبراهيم عليه السَّلام كانت تتلخَّص ملامحها بالنقاط الآتية:

* كانت البيئة الاجتماعية في عصر إبراهيم عليه السَّلام بيئة ذات حضارة عميقة ومبدعة؛ لها تشريعات وقوانين، يُنظِّم فيها الناس شؤونهم الاجتماعية.

* إنَّ البيئة الاجتماعية التي كان عليها المجتمع في عصر إبراهيم عليه السَّلام بيئة ذات حضارة مادية، حيث برعوا في علم الفلك، وشيّدوا الصروح

---

(١) إبراهيم عليه السلام في أسفار اليهود «عرض ونقد»، فاطمة بنت خالد ردمان، ص٧٢.

(٢) المرجع نفسه، ص٧٣.

العالية لرصد الكواكب، كما اهتمُّوا بدراسة الحساب والقراءة والكتابة وغيرها من العلوم، وهذا يدلُّ دلالة واضحة على ما كانوا يتمتَّعون به من الغنى ورغد المعيشة.

* كانت البيئة الاجتماعية في عصر إبراهيم عليه السَّلام يسودها الفساد الأخلاقي بكل صوره، حيث كانوا يتردَّوْن في مستنقعات الرذيلة والعهر الاجتماعي، والانحطاط الأخلاقي[١].

كان الدين منفصلاً عن الأخلاق، والقيم بعيدةً عن الحياة والتطبيق، وكان إتيان الفواحش جهارًا نهارًا أمرًا لا يُستحيا منه، بل ربط بعض أولئك الناس العهر بالدين، وجعلوه وسيلة يَتقرَّب بها المرء من الآلهة[٢]، وعن هذا يقول «ولْ ديورانت»: ينبغي لكل امرأة بابلية أن تجلس في هيكل الزهرة مرة في حياتها، وأن تضاجع رجلاً غريبًا، وظلّت «الدعارة المقدّسة» عادةً متّبعة في بلاد بابل حتى ألغاها قسطنطين حوالي عام (٣٢٥ ق.م)، وكان إلى جانبها «عهر مدني» منتشر في حانات الشراب التي تُديرها النساء، وكان يُسمح للبابليين ـ عادة ـ بقسط كبير من العلاقات الجنسية قبل الزواج[٣].

هذه صورة موجزة عن الحال في زمن إبراهيم عليه السَّلام، حيث نرى فيها البون الشاسع بين ما دعا إليه من رفعة الإيمان والتوحيد، وما كان الناس فيه من وهدة الجاهلية والخطايا[٤].

٥ ـ الناحية السياسية:

كانت مصر وبابل دولتين مزدهرتين، قامت فيهما أرقى حضارات العصور

---

(١) إبراهيم عليه السلام في أسفار اليهود «عرض ونقد»، فاطمة بنت خالد ردمان، ص٧٤.
(٢) إبراهيم عليه السلام ودعوته في القرآن الكريم، أحمد البراء الأميري، ص٤٦.
(٣) قصة الحضارة، ول ديورانت، (٢/ ٢٢٩ ـ ٢٣٤).
(٤) إبراهيم عليه السلام ودعوته في القرآن الكريم، أحمد البراء الأميري، ص٤٦.

القديمة، وقد تأثرت أرض كنعان بنتائج الحروب والمنافسات بين الدولتين، وكانت السيطرة على أرض كنعان وسكانها للغالب منهما، وتدلُّ عليه الآثار البابلية أنّ بابل كانت تسيطر على أرض كنعان في الألف الثالثة قبل الميلاد؛ لذا فقد تأثرت حضارة الكنعانيين بحضارة بابل[١].

وتذكر بعض المصادر التاريخية أن إبراهيم عليه السَّلام وُلد في عهد نمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح، الذي كان حاكمًا مُستبدًّا جبارًا، استخفّ قومَه فنصَّب نفسه إلهًا لهم، فأطاعوه، إضافة إلى عبادة الأصنام والتماثيل[٢].

ومن الطبيعي أن يكون حاكم هذه الدولة أو ملكها الجبّار المتألّه طاغيةً من طواغيت عصره، كيف لا وقد كان من السهل عليه جدًّا أن يُصدر أمرًا بإحراق إبراهيم: ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، كيف لا وقد ادّعى الربوبية والإحياء والإماتة ﴿ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

* * *

رابعًا: هجرات إبراهيم الخليل عليه السَّلام:

بدأ إبراهيم عليه السَّلام دعوته في العراق مع أبيه أولاً، ثم مع قومه، ثم مع الملك الظالم الكافر الذي أمر بإحراقه في النار، ولكنّ الله أنجاه منها، وبعد ذلك أمره الله بالخروج والهجرة من العراق، فغادرها إلى الأرض المباركة المقدّسة، وكان معه لوط عليه السَّلام.

أقام إبراهيم عليه السَّلام في الأرض المباركة فلسطين، وكان معه زوجه

---

(١) مقارنة الأديان «اليهودية»، د. أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٩، ١٩٩٠م، ص٤٤.

(٢) تاريخ الطبري تاريخ الرسل والملوك، الطبري، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م، (١/ ١٤٢).

المؤمنة سارة، وارتحل مع سارة إلى مصر، وهناك جرت لهما قصة مع ملك مصر، فأهداهما «هاجر» ـ سيأتي ذكر القصة بالتفصيل في مكانها بإذن الله تعالى ـ وقدَّمت سارةُ هاجرَ إلى إبراهيم، وتسرّى بها فأنجبت له أوَّلَ أولاده إسماعيل عليه السَّلام، وأمره الله بأخذ هاجر وإسماعيل إلى بلاد الحجاز، فنفّذ أمر الله، ووهبه الله بعد ذلك إسحاق عليه السَّلام من زوجه سارة، بعد أن صار شيخًا، وكانت زوجه عاقرًا، وشبّ إسحاق في حياة إبراهيم، كما شبّ إسماعيل قبله[١]، وسيأتي الحديث عنهما بالتفصيل.

وقد تحدّث العلماء والمؤرّخون عن هجرات الخليل إبراهيم عليه السَّلام ورحلاته، وكانت على الشكل الآتي:

* خرج من بابل ـ في أرض الكلدانيين ـ إلى مدينة حرّان، وهي أيضًا واقعة في أرض الكلدانيين.

* خرج من حرّان مهاجرًا إلى الشام، أرض الكلدانيين، شرق بيت المقدس.

* هاجر من الشام إلى مصر، فلبث فيها مدةً، ثم عاد بعدها إلى الشام.

* خرج من الشام قاصدًا مكة، ومعه هاجر وإسماعيل، ليتركهما بِوادٍ غير ذي زرع؛ طاعة لأمر الله، ورجع بعد ذلك إلى حيث كان بالشام.

* قصد مكة المكرمة بعد تلقّي أمر الله بذبح ولده إسماعيل، ثم عاد إلى الشام.

* خرج من الشام قاصدًا مكة للمرة الثالثة ليزور ولده إسماعيل، فلم يلقه، وفي هذه المرة أمر ابنه بفراق زوجته الأولى، ثم رجع إلى الشام.

---

(١) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، دار القلم، دمشق ـ الدار الشامية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م، (١/ ٣١٣).

* زار مكة مرةً رابعة، فلم يلقَ ابنه أيضًا فرجع إلى الشام، بعد أن أوصى ابنه بإمساك زوجته الثانية.

* زار مكة مرةً خامسة لبناء بيت الله مع إسماعيل[١].

وهكذا يمكن إجمال رحلات إبراهيم عليه السَّلام في ثلاث هجرات رئيسة هي:

ـ **أولًا**: خروجه من بابل إلى الشام ومروره بحرّان.

ـ **ثانيًا**: رحلته من الشام إلى مصر، ثم رجوعه إلى الشام.

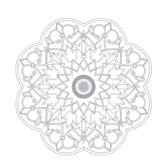
ـ **ثالثًا**: زيارته لمكة المكرمة[٢].

وسنتناول هذه الهجرات بشيء من التفصيل ـ بإذن الله ـ في هذا الكتاب.

وكانت حياة إبراهيم عليه السَّلام كلُّها لله وفي الله وبالله، دعوةً للناس لتوحيد الله، وإفراده بالعبادة، ولزوم منهجه سبحانه وتعالى مع تجرُّد وإخلاص واستسلام وطمأنينة ويقين في تسديد الله له ونصره وإعزازه.

* * *

(١) إبراهيم عليه السلام ودعوته في القرآن الكريم، أحمد البراء الأميري، ص٤٩.
(٢) المرجع نفسه، ص٥٠.



المبحث الثالث

إبراهيم عليه السَّلام ومكانته بين الأنبياء والمرسلين

عرضَ القرآن الكريم موكبَ الإيمان الجليل يقوده ذلك الرهط من الرسل، من نوح إلى إبراهيم إلى خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ويعرض السياق هذا الموكبَ ممتدًّا موصولاً، ولا يُراعي التسلسل التاريخي في العرض، لأن المقصود هنا هو الموكب بجملته، لا تسلسله التاريخي.

قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٣ ـ ٩٠].

وكانت التعقيبات على هذا الموكب المبارك في الذكر الحكيم في قوله تعالى:

* ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

* ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

* ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

كلُّها تعقيبات تُقرِّر إحسان هذا الموكب الكريم واصطفاءَ الله له، وهدايته إلى الطريق المستقيم، وذكر هذا الرهط على هذا النحو، واستعراض صورة هذا الموكب العظيم، كلُّها تمهيد للتقريرات التي تليه: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، وهذا تقرير لينابيع الهدى في الأرض، فهدي الله للبشر يتمثَّل فيما جاءت به الرسل، ولا واهب سواه، لأن الله تعالى هو الذي قرَّره، وهدى إليه عبادَه.

ولو أن هؤلاء العباد المهديِّين حادوا عن توحيد الله، وانحرفوا عن المصدر الذي يَستمدُّون منه الهدى، وأشركوا في الاعتقاد أو العبادة أو التلقِّي، فإن مصيرهم أن يَحبط عملُهم: أي أن يذهب ضياعًا، ويهلك كما تهلك الدابّة التي ترعى نبتًا مسمومًا، فتنتفخ ثم تموت، وهذا هو الأصل اللغوي للحبوط.

وفي قوله تعالى ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾، وهذا التقرير الثاني، فقرَّر في الأول مصدر الهداية وقصره على هدى الله الذي جاءت به الرسل، وقرّر في الثاني أن الرّسل الذين ذكرهم والذين أشار إليهم هم الذين آتاهم الله الكتاب والحكمة والسلطان والنبوة.

إنَّ لفظ ﴿ٱلْحُكْم﴾ يجيء بمعنى الحكمة، كما يجيء بمعنى السلطان كذلك، وكلا المعنيين محتمَل في الآية، فهؤلاء الرسل أنزل الله على بعضهم الكتاب، كالتوراة مع موسى عليه السَّلام، والزبور مع داود عليه السَّلام، والإنجيل مع عيسى عليه السَّلام، وبعضهم آتاه الله الحكمة كداود وسليمان عليهما السلام، وكلُّهم أُوتي السلطان على معنى أن ما معهم من الدين هو حكم الله، وأن الدين الذي جاؤوا به يحمل سلطان الله على النفوس وعلى

الأمور، فما أرسل الله الرسل إلا لِيُطاعوا بإذنه، وما أنزل الكتاب إلا ليحكم بين الناس بالقسط، كما جاء في الآيات الأخرى، وكلُّهم أُوتي الحكمة وأُوتي النبوّة، وحمل دين الله إلى الناس، وقام عليه، وآمَن به، وتمسَّك به، وحافظ عليه. فإذا كفر بالكتاب والحكمة والنبوّة مشركو العرب ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ فإن دين الله غنيّ عنهم، وهؤلاء الرهط الكرام، والمؤمنون بهم، هم حسبُ هذا الدين[(١)].

إنَّها حقيقة قديمة امتدَّت جذورها وتفرَّعت أغصانها، وموكب موصول تماسكت حلقاته، ودعوة واحدة حملها رسول بعد رسول وآمن بها، وهو تقرير يسكب الطمأنينة في قلب المؤمن، وفي قلوب العصبة المسلمة أيًّا كان عددها، إن هذه العصبة ليست وحدها، ليست مقطوعة من شجرة، إنّها فرع منبثق من شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وحلقة في موكب جليل موصولة أسبابه بالله وهداه.

يبقى الإنسان المؤمن في أيّ أرض وفي أيّ جيل قويًّا وكبيرًا، وكأنه الشجرة المتينة السّامقة الضاربة الجذور في أعماق الفطرة البشرية، وفي أعماق التاريخ الإنساني، فهو عضوٌ في الموكب الكريم الموصول بالله وهداه منذ أقدم العصور[(٢)].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾، وهو التقرير الثالث، فهؤلاء الرهط الكرام الذين يقودون موكب الإيمان هم الذين هَداهم الله، وهُداهم جاءهم من عند الله، فيه القدوة لرسول الله ومن آمن معه، فهذا الهدي وحده هو الذي يسير عليه، وهذا الهدي وحده هو الذي يحتكم إليه، وهذا الهدي هو الذي يدعو إليه ويبشر به، قائلاً لمن يدعوهم ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾، لا يختصُّ به

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٢/ ١١٤٤).
(٢) المرجع نفسه، (٢/ ١١٤٤).

قوم ولا جنس ولا قريب ولا بعيد، إنه هدى الله لتذكير البشر كافّة، ومن ثمَّ فلا أجر عليه يتقاضاه، وإنما أجره على الله(١).

❁ ❁ ❁

أولاً: النبيّ والرسول والنبوة والرسالة:

١ ـ النبيّ لغة واصطلاحًا:

أ ـ النبي لغةً:

النبأ: الخبر، والجمع أنباء، وإنّ لفلان نبأً، أي خبرًا. والنبيُّ: المخبِر عن الله عزّ وجل، لأنه أنبأ عنه. والنبيُّ: المشتق من النباوة وهي الشيء المرتفع، أي: إنّه أشرف على سائر الخلق(٢). ويقول الفيروز آبادي في تعريف النبوّة: سفارة بين الله وبين ذوي العقول، لإزاحة عللهم في أمر معادهم ومعاشهم(٣). ويقول الرّاغب الأصفهانيُّ في سبب التَّسمية: ويُسمَّى نبيًّا لرفعة محلّه على سائر الناس المدلول عليه بقوله تعالى ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧].

ب ـ النبيُّ في الاصطلاح:

النبيُّ: هو مَن بُعث لتقرير شرع مَن قَبْلَه(٤).

٢ ـ الرّسول في اللغة والاصطلاح:

أ ـ الرّسول في اللغة:

أصل الرَّسْل: الانبعاث، ومنه الرّسول: المنبعث، ويُراد به تارة: الرفق،

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٢/ ١١٤٥).

(٢) تنوّع خطاب القرآن الكريم في العهد المكّي، رجاء بنت صالح محمد البحر، مكتبة المتنبي، القاهرة، ط١، ٢٠١٦م، ص٢٤٤.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داودي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط٤، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م، ص٧٩٠.

(٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الآلوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ، (١٧/ ١٧٣).

فقِيل: على رِسْلِك، إذا أمرته بالرفق، وتارةً: الانبعاث، فاشتُق منه الرّسول، والرّسول يُقال تارةً للمتحمِّل الرسالة، وتارةً للمتحمِّل القول والرسالة(١).

والرسول يُقال للواحد، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وللجمع: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]، وجمع الرّسول: رُسُل، ورُسُل الله تارةً يُراد بهم الملائكة، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير: ١٩]، وتارة يُراد بهم الأنبياء، قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧].

ومعنى الرّسول في اللّغة: الذي يتابع أخبار الذي بعثه؛ أخذًا من قولهم جاءت الإبل رُسُلاً أي: مُتتابعة. وقال أبو إسحاق النَّحويّ في قوله تعالى حكاية عن موسى وأخيه ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]: معناه إنّا رسالة رب العالمين، أي: ذوا رسالة رب العالمين، وسُمِّي الرّسول رسولاً؛ لأنه ذو رسالة، والرسول: اسمُ مَن أرسلتَ، وكذلك الرسالة(٢).

ب ـ الرّسول في الاصطلاح:

الرّسول: هو من بُعث بشرع جديد(٣). ويقول الإمام الشوكاني في تعريف النبيّ والرّسول، الذي بَيَّن فيه الفرق بينهما، فالرّسول: مَن بُعث بشرع وأُمِر بتبليغه، والنّبيُّ: من أُمر أن يدعو إلى شريعة مَن قَبْلَه، ولم يُنزَّل عليه كتاب، ولا بُدَّ لهما جميعًا من المعجزة الظاهرة(٤).

إذن هناك فرق بين النبي والرّسول كما تبيّن في تعريفهما الاصطلاحي،

---

(١) تنوّع خطاب القرآن الكريم في العهد المكّي، رجاء بنت صالح محمد البحر، ص٢٤٤.
(٢) معجم لسان العرب، ابن منظور، مادة (رسل).
(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الآلوسي، (١٧/ ١٧٣).
(٤) فتح القدير، الشوكاني، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٤١٤هـ، (٣/ ٤٦١).

فالنبي جاء لتقرير شريعة مَن قَبْلَه، أما الرّسول فهو من اختص بشريعة جديدة، وكل رسولٍ نبيّ[١]، وليس كلُّ نبيّ رسولاً.

وإبراهيم عليه السَّلام هو نبيٌّ رسول، قد نبّأه الله تبارك وتعالى بخبر السماء، وأنزل عليه الوحي، كما أمره أن يدعو الناس، ويبلّغ رسالة ربّه[٢].

وقد استدل بعضهم على عدد الرسل والأنبياء بالحديث المرويِّ عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه في ذكر عدد الأنبياء والرّسل ونصّه: عن أبي ذرّ قال: قلت: يا رسولَ الله، كَمِ الأنبياءُ؟ قال: «**مائةُ ألفٍ وعِشرونَ ألفًا**»، قلتُ: يا رسولَ اللهِ، كَمِ الرُّسُلُ مِن ذلك؟ قال: «**ثلاثُمائةٍ وثلاثةَ عشرَ جمًّا غَفيرًا**»[٣]، ولكن هذا الحديث ضعيف في إسناده[٤].

والصحيح أن عدد الرّسل والأنبياء لا يعلمه إلا الله لقول الله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

٣ ـ تعاليم إبراهيم عليه السَّلام من عند الله تعالى:

تشملُ هذه التعاليم رسالةَ إبراهيم عليه السَّلام التي تلقّاها من ربِّه عزَّ وجلَّ عن طريق الوحي، وقد ذكر الله إبراهيم عليه السَّلام في القرآن في جملة من يُوحى إليهم من النبيّين[٥].

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ

---

(١) تنوع خطاب القرآن الكريم في العهد المكّي، رجاء بنت صالح محمد البحر، ص٢٤٥.

(٢) إبراهيم عليه الصلاة والسلام في القرآن الكريم دراسة موضوعية، محمد الأمين إسماعيل، رسالة ماجستير، كلية أصول الدين، جامعة أم درمان الإسلامية، السودان، ٢٠٠٠م، ص٢.

(٣) صحيح ابن حبّان، ابن حبّان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٩٣م، كتاب السِّير، رقم (٣٦١).

(٤) في سنده إبراهيم بن هشام بن يحيى الغسّاني: كذّاب.

(٥) الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والرّسل، محمد وصفي، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ص٣١٥.

إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣ ـ ١٦٥].

وهذا السياق القرآني يتحدث عن موكب واحد، وهو يتراءى عن طريق التاريخ البشري الموصول، ورسالة واحدة لهدي واحد للإنذار والتبشير، وموكب واحد يضمُّ هذه الصفوة المختارة من البشر: نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وموسى وهارون وسليمان وداود وغيرهم ممن قصّهم الله على نبيّه المصطفى ﷺ في القرآن الكريم، ومن لم يقصّ عليه، موكب من شتّى الأقوام والأجناس، وشتّى البقاع والأرضين، في شتّى الآونة والأزمان، لا يفرّقهم نسب ولا جنس ولا أرض ولا وطن، ولا زمن ولا بيئة، كلُّهم يؤدِّي الإنذار والتبشير، وكلُّهم يحاول أن يأخذ بزمام القافلة إلى ذلك النور، سواءٌ منهم مَن بُعِث لهداية قومه، ومَن جاء للناس أجمعين كمحمَّد رسول الله ﷺ خاتم النبيّين.

كلّهم تلقّوا الوحي من الله تعالى، وما جاؤوا بشيء من عندهم، أولئك الرّسل منهم من قصّ الله على رسوله ومنهم من لم يقصَّ، اقتضت عدالة الله ورحمته أن يبعثهم إلى عباده يبشرونهم بما أعدّه الله للمؤمنين الطائعين من نعيم ورضوان، وينذرونهم بما أعدّه الله للكافرين العصاة من جحيم وغضب، كل ذلك: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ﴾، ولله الحجة البالغة في الأنفس والآفاق، وقد أعطى الله البشر من العقل ما يتدبَّرون به دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق، ولكنه سبحانه وتعالى رحمةً منه بعباده، وتقديرًا لغلبة الشهوات على تلك الأداة العظيمة التي أعطاها لهم (العقل)، اقتضت رحمته وحكمته أن يرسل إليهم الرسل مبشّرين ومنذرين يذكِّرونهم ويبصِّرونهم، ويحاولون استنقاذ فطرتهم وتحرير عقولهم من ركام الشهوات التي تحجب

عنها، أو تحجبها عن دلائل الهدى وموجبات الإيمان في الأنفس والآفاق ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾، وعزيزًا: أي قادرًا على أخذ العباد بما كسبوا، حكيمًا: يُدبِّر الأمر كلَّه بالحكمة، ويضع كل أمر في نصابه[١].

إننا نقف أمام عظمة العدل، والذي يرتّب للناس حجة على الله سبحانه لو لم يُرسل مبشرين ومنذرين، هذا ما احتشد له كتاب الكون المفتوح وكتاب النفس المكنون بالآيات والشواهد على الخالق ووحدانيّته وتدبيره وتقديره وقدرته وعلمه، ومع امتلاء الفطرة بالأشواق والهواتف إلى الاتصال بباريها والإذعان له والتناسق والتجاوب والتجاذب بينها، وبين دلائل وجود الخالق في الكون والنفس، ومع هبة العقل الذي يملك أن يُحصيَ الشواهد ويستنبط النتائج، ولكن الله سبحانه بما يعلم من عوامل الضعف التي تطرأ على هذه القوى كلِّها فتعطّلها أو تفسدها أو تطمسها أو تدخل في حكمها الخطأ والشطط، قد أعفى الناس من حجِّيَّة الكون، وحجِّيَّة الفطرة، وحجِّيَّة العقل، ما لم يرسل إليهم الرسل؛ ليستنقذوا هذه الأجهزة كلَّها مما قد يَرين عليها، وليضبطوا بموازين الحق الإلهي الممثَّل في الرسالة هذه الأجهزةَ، فتصحَّ أحكامها حين تستقيم على ضوابط المنهج الإلهي، وعندئذ فقط يلزمها الإقرار والطاعة والاتباع؛ أو تسقط حجَّتُها وتستحق العقاب[٢].

وخطأ وضلال إن لم يكن هو الخداع والتضليل كل زعم يقول: إنَّ العقول الكبيرة كانت حَرِيَّةً أن تبلغ من دون الرسالة ما بلغته بالرسالة، فالعقل ينضبط مع الرسالة بمنهج النظر الصحيح، وأنّ ما يتمّ بالرسالة ـ عن طريق العقل نفسه ـ لا يمكن أن يتمّ بغيرها، فلا يُغني العقل البشري عنها.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٢/ ٨٠٥ ـ ٨٠٦).
(٢) المرجع نفسه، (٢/ ٨١١).

إنَّ تاريخ البشرية لم يُسجِّل أنَّ عقلاً واحدًا من العقول الكبيرة النادرة اهتدى إلى مثل ما اهتدت إليه العقول العادية والمتوسطة بالرسالة:

* لا في تصوُّر اعتقادي.
* ولا في خُلق نفسي.
* ولا في نظام حياة.
* ولا في تشريع واحد لهذا النظام.

إنَّ عقول أفلاطون وأرسطو من العقول الكبيرة قطعًا، بل إنهم ليقولون: إن عقل أرسطو هو أكبر عقلٍ عرفته البشرية ـ بعيدًا عن رسالة الله وهداه ـ فإذا نحن رجعنا إلى تصوّره لإلهه ـ كما وصفه ـ رأينا المسافة التي تفصله عن تصور المسلم العادي لإلهه مهتديًا بهدي الرسالة[1]، فسبحان الله الذي قال في كتابه الكريم: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

٤ ـ إبراهيم عليه السَّلام من أولي العزم:

قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، أولو العزم من الرسل هم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم جميعًا، وقد كانت وصية الله تعالى لعيسى وأولي العزم من الرسل عليهم السلام ما ذكره الله تعالى في سورة الشورى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

إنَّ إبراهيم عليه السَّلام من أولي العزم، الذين أقاموا الدين الذي أمر الله به

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٢/ ٨١١).

الأنبياء والمرسلين، وهذا خطاب من الله سبحانه وتعالى لأمة محمد ﷺ، يقول لهم فيه:

* ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ ﴾ ارتضى لكم الحقائق التي تدينونَ بها ونهجَ وأوضحَ.

* ﴿ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ﴾ الذي ارتضاه لنوح ووصّاه.

* ﴿ وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ﴾ فهذا الدين هو نفسه الذي ارتضاه لك، وأوحاه إليك، يا محمد، وارتضاه لعباده.

* ﴿ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ﴾ ارتضى هذا الدين ـ أي الإسلام ـ لإبراهيم خليل الله وموسى كليم الله وعيسى روح الله، بعد أن ارتضاه لنوح أبي البشر بعد آدم، ومحمد آخر رسول وخاتم النبيين، وهؤلاء هم أولو العزم من الرسل.

* ﴿ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾ أوصاهم جميعًا بإقامة هذا الدين والتمسُّك به، ونهاهم عن الانحراف عن التوحيد والإسلام.

* ﴿ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ﴾ شقَّ على المشركين دعوتهم إلى الإسلام وإلى توحيد الله، ونبذ الوثنية، وعبادة الله وحده لا شريك له، والانقياد والطاعة له سبحانه وتعالى.

* ﴿ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴾ يعلم الله الصالح من عباده فيَهديه إلى طريق الرشاد، ويَجتبيه من بين الناس جميعًا. أي أمرتهم رسلهم بتوحيد الله والإيمان بملائكته واليوم الآخر وبالبعث والنشور، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والصيام والحج والتقرّب إلى الله بصالح الأعمال من الصدق والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وصلة الرحم وتحريم القتل والكفر والزنى والأذِيَّة للخلق والاعتداء على الحيوان واقتحام الدناءات، هذا كله مشروعُ دينٍ

واحد ومِلّةٍ متَّحدةٍ، لم تختلف على ألسنة الأنبياء، وإن اختلفت أعدادهم، وأما تفصيل العبادات فهذا يختلف باختلاف الشرائع(١).

إنَّ ما شرعه الله تعالى لأولي العزم صادر عن كمال العلم والحكمة، كما أن بيان نسبته إلى المذكورين عليهم السلام تنبيه على كونه دينًا قَيِّمًا أجمع عليه الرسل جميعًا، والخطاب لأمته عليه السَّلام أي: شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحًا ومَن بعده من أرباب الشرائع وأولي العزم من مشاهير الأنبياء عليهم السلام، وأمرهم به أمرًا مؤكَّدًا. وتخصيص المذكورين بالذكر يشير إلى علوِّ شأنهم وعظيم شهرتهم، ولاستمالة قلوب الكفرة إلى الاتباع لاتفاق كل منهم على نبوة بعضهم، واختصاص اليهود بموسى عليه السَّلام، والنصارى بعيسى عليه السَّلام(٢).

كما أخبر الله سبحانه وتعالى أنه أخذ على النبيين جميعهم الميثاق، وخصّ بالذكر أولي العزم من الرسل، وقد أخذ الله ميثاق النبيين نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم عليهم الصلاة والسلام أجمعين في حمل أمانة هذا المنهج والاستقامة عليه وتبليغه للناس والقيام عليه في الأمم التي أُرسلوا إليها، وذلك حتى يكون الناس مسؤولين عن هداهم وضلالهم وإيمانهم وكفرهم بعد انقطاع الحجة بتبليغ الرسل عليهم صلوات الله وسلامه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ۝٧ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧ ـ ٨].

---

(١) حقيقة المسيح والتثليث، منصور تميم نتشة، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ٢٠٠٨م، ص١٤٤.

(٢) قصص أولي العزم من الرسل، ليلى بلخير، دار طيبة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ٢٠١٤م، ص٤٢.

إنَّه ميثاق واحد مطَّرد من لدن آدم عليه السَّلام وصولاً إلى خاتم النبيين محمد ﷺ، هو ميثاق واحد ومنهج واحد، وأمانة واحدة يتسلَّمها كل واحد منهم حتى يُسلِّمَها، وقد عمَّم النص أولاً:

* ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ﴾؛ خصَّ من بين الأنبياء والمرسلينَ صاحبَ القرآن الكريم، والدعوة العامة إلى العالمين.

* ثم عاد إلى أولي العزم من الرسل، وهم أصحاب أكبر الرسالات: ﴿وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾، وبعد بيان أصحاب الميثاق عاد إلى وصف الميثاق نفسه.

* ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾؛ فقد وصف الميثاق بأنه غليظ منظور فيه إلى الأصل اللغوي للفظ ميثاق ـ وهو الحبل المفتول ـ الذي استُعير للعهد والرابطة، وفيه من جانب آخر تجسيم للمعنوي يزيد إيحاءه للمشاعر، وإنَّه لميثاق غليظ متين، ذلك الميثاق بين الله والمختارين من عباده، ليتلقَّوْا وحيَه ويُبلِّغوا عنه ويقوموا على منهجه في أمانة واستقامة.

* ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾؛ الصادقون هم المؤمنون، فهم الذين قالوا كلمة الصدق واعتنقوا عقيدة الصدق ومَن سواهم كاذب؛ لأنه يعتقد بالباطل ويقول كلمة الباطل.

وسؤالهم عن صدقهم يوم القيامة هو كسؤال المعلم التلميذ المجتهد الناجح عن إجابته التي استحق بها النجاح والتفوق أمام المدعوّين في حفل النتائج، وهو سؤال للتكريم وللإعلان والإعلام على رؤوس الأشهاد وبيان الاستحقاق، والثناء على المستحقّين للتكريم في يوم الحشر الأعظم، فأما غير الصادقين الذين دانوا بعقيدة الباطل، وقالوا كلمة الكذب، في أكبر قضية يُقال فيها الصدق أو يُقال فيها الكذب، قضية العقيدة، فأما هؤلاء فلهم جزاء آخر

حاضر مهيّأ، يقف لهم في الانتظار، وأعدّ للكافرين عذابًا أليمًا[١].

وقد خُصَّ هؤلاء الخمسة بالذكر من بين النبيّين؛ لأنهم أصحاب الكتب والشرائع، وأولو العزم من الرّسل[٢].

ومهما يكن من أمر فإن لهؤلاء الخمسة مزيدًا من فضل على غيرهم من الأنبياء والمرسلين، سواء قلنا إنَّ الأنبياء والمرسلين كلُّهم أولو عزم، أو قلنا إنَّ أولي العزم من الرّسل هم هؤلاء الخمسة فقط؛ لأن الأنبياء يتفاضلون فيما بينهم لقوله تعالى ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وكون أولي العزم هم هؤلاء الخمسة هو الذي عليه أكثر أهل العلم من المفسرين وغيرهم، فقد قال الشيخ السعدي في تفسير الآية التي ذكرت أولي العزم في سورة الأحزاب ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧] يخبر تعالى أنه أخذ من النبيّين عمومًا ومن أولي العزم، وهم هؤلاء الخمسة المذكورون ـ خاصة ـ ميثاقَهم الغليظ، وعهدهم الثقيل المؤكّد على القيام بدين الله والجهاد في سبيله، وأمر الناس بالاقتداء بهم[٣].

٥ ـ حقيقة النبوّة:

إنَّ النبوّة اتصال بين الخالق والمخلوق في تبليغ شرعه، وسفارة بين الملك المالك الواحد الأحد وعبيده، ودعوة من الرحمن الرحيم ـ تبارك وتعالى ـ لخلقه؛ ليُخرجهم من الظلمات إلى النور، وينقلهم من ضيق الدنيا إلى سعة

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٢٨٣٠)

(٢) تفسير البغوي «معالم التنزيل»، البغوي، تح: محمد عبد الله النمر، دار طيبة، الرياض، ط٣، ١٤١٦هـ، (٦/ ٣٢٠).

(٣) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، دار ابن الجوزي، الدمام، المملكة العربية السعودية، ط٤، ١٤٣٥هـ (١/ ٦٥٩).

الدنيا والآخرة، فهي نعمة مهداة من الله تبارك وتعالى إلى عبيده، وفضل إلهي يتفضّل به عليهم، وهذا في حقّ المرسَل إليهم.

وأما في حقِّ المُرسَل نفسه، فهي امتنان من الله يمنُّ بها عليه، واصطفاء من الربّ له من بين سائر الناس، وهبة ربانية يختصه الله بها من بين الخلق كلهم، ولا تُنال النبوة بعلم ولا رياضة، ولا تُدرَك بكثرة طاعة أو عبادة، ولا تأتي بتجويع النفس أو إظمائها، كما يَظنُّ مَن في عقله بَلادة، وإنما هي محض فضل إلهي واصطفاء ربّاني، فهو جلّ وعلا كما أخبر عن نفسه: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

إنَّ النبوّة لا تأتي باختيار النبيّ، ولا تُنال بطلبه، ولذلك لما قال المشركون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، فأجابهم الربّ تبارك وتعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢]، فالله تعالى هو الذي يَقسم ذلك، ويتفضّل به على من يشاء من الناس، ويصطفي من يشاء من عباده، ويختار من يشاء من خلقه، ما كانت الخيرة لأحد غيره، وما كان الاجتباء لأحد سواه(١).

وإنَّ الإيمان بالنبوّة هو الطريق المؤدي إلى معرفة الله عزَّ وجل ومحبته، والمسلك المفضي إلى رضوان الله وجنته، والسبيل المؤدّي إلى النجاة من عذاب الله، والفوز بمغفرته(٢).

يقول ابن تيمية: «والإيمان بالنبوّة أصل النجاة والسعادة، فمن لم يُحقِّقْ

(١) كتاب النبوّات، ابن تيمية، تح: عبد العزيز بن صالح الطويان، أضواء السلف، الرياض، السعودية، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، مقدمة المحقق، (١/ ٢٠).
(٢) المرجع نفسه، (١/ ٢٠).

هذا الباب اضطرب عليه باب الهدى والضلال والإيمان والكفر، ولم يُميِّز بين الخطأ والصواب»[(١)].

وإنَّ حاجة العباد إلى الإقرار بالنبوّة أشدّ من حاجتهم إلى الهواء الذي يتنسّمونه، وإلى الطعام الذي يأكلونه، وإلى الشراب الذي يشربونه، إذ مَن فقد أحدها خسر الدّنيا، أما مَن عَدم الإقرار بالنبوّة فخسارته أشدّ وأنكى، إذ خسر الدنيا والآخرة عياذًا بالله تعالى، ومن حكمة الله تعالى أنه كلّما كان الناس إلى معرفة شيء أحوج، فإنه جلّ وعلا يجعله سهلاً مُيسَّرًا غير ذي عوج[(٢)].

وإن حاجة النّاس إلى معرفة النبوّة والإقرار بالرّسول، وضّحها المولى جلّ وعلا في كتابه توضيحًا أعظم مِن أن يُشرح في هذا المقام، إذ الشرح يطول. يقول ابن تيمية: «فتقرير النُّبوَّات من القرآن الكريم أعظم من أن يُشرح في هذا المقام، إذ ذلك هو عماد الدين، وأصل الدعوة النبويّة، وينبوع كل خير، وجماع كل هدى»[(٣)].

وإن لابن تيمية كلامًا رائعًا نفيسًا يُجمِل فيه ما قُدّم بيانه، يقول فيه: إن الله سبحانه جعل الرُّسل وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرّهم، وتكميل ما يُصلحهم في معاشهم ومعادهم، وبُعثوا جميعًا بالدعوة إلى الله، وتعريف الطريق الموصل إليه، وبيان حالهم بعد الوصول إليه.

* **فالأصل الأول**: يتضمَّن إثبات الصفات والتوحيد والقدر، وذكر أيام الله في أوليائه وأعدائه، وهي القصص التي قصّها على عباده، والأمثال التي ضربها لهم.

---

(١) نوح عليه السلام والطوفان العظيم، د. علي محمد محمد الصّلاّبي، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ٢٠٢٠م، ص٧٩.
(٢) المرجع نفسه، ص٧٩.
(٣) كتاب النبوّات، ابن تيمية، مقدمة المحقق، (١/ ٢١).

* **والأصل الثاني**: يتضمّن تفصيل الشرائع، والأمر والنهي والإباحة، وبيان ما يُحبُّه الله وما يكرهه.

* **والأصل الثالث**: يتضمّن الإيمان باليوم الآخر، والجنة والنار، والثواب والعقاب.

وعلى هذه الأصول الثلاثة مدار الخلق والأمر، والسعادة والفلاح موقوفة عليها، ولا سبيل إلى معرفتها إلا من جهة الرّسل، فإن العقل لا يهتدي إلى تفاصيلها ومعرفة حقائقها، وإن كان يُدرك وجه الضرورة إليها من حيث الجملة، كالمريض الذي يدرك وجه الحاجة إلى الطب ومَن يداويه، ولا يهتدي إلى تفاصيل المرض ووصف الدواء له، وحاجة العبد إلى الرسالة أعظم بكثير من حاجة المريض إلى الطبّ، فإن آخر ما يُقدَّر بعلم الطبيب موت الأبدان، وأما إذا لم يحصل للعبد نور الرسالة وحياتها مات قلبه موتًا لا تُرجى الحياة معه أبدًا، أو شقي شقاوة لا سعادة معها أبدًا، فلا فلاح إلا باتّباع الرسول[١].

* * *

ثانيًا: الحكمة من بعث الرّسل:

١ ـ حاجة الخلق إليهم:

إنَّ الأنبياء والرّسل هم صفوة الخلق، والخلق بحاجة إليهم؛ ليبلّغوهم ما يُحبه الله ويرضاه، وما يغضب منه ويأباه، وكثير من العُصاة والمنحرفين ضلّوا في متاهات الشقاوة، هذا مع وجود الأنبياء عليهم السلام، فكيف تكون الحال لو لم يُرسل الله تعالى رسلاً مبشّرين ومنذرين؟!

فقد بُعث الرّسل يُهذبون العباد ويخرجونهم من عبادة العباد إلى عبادة ربّ

---

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، طبعة دار عالم الكتب، الرياض، ١٤١٢هـ، (١٩/ ٩٦ ـ ٩٧).

العباد، ويحرّرونهم من رِقّ عبودية المخلوق إلى حرية عبادة رب الأرباب، الذي أوجدهم من العدم، وسيُفنيهم بعد الوجود، ويبعثهم بعد الفناء؛ ليكونوا إمّا أشقياء، وإمّا سُعداء. ولو ترك الناس هملاً دون إنذار وتخويف لعاشوا عيشة ضنكًا في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء، وعادات منحرفة، وأخلاق فاسدة، وأصبحت الحياة مجتمع غاب، القوي فيهم يأكل الضعيف، والشريف فيهم يُذلّ الوضيع. وهكذا اقتضت حكمته جلّ وعلا ألا يخلق عباده سُدى ولا يتركهم هملاً، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

إن من رحمة الله جلّ وعلا أن مَنَّ عليهم، فبعث فيهم رسلاً مبشرين ومنذرين، يتلون عليهم آيات ربهم، ويعلمونهم ما يُصلحهم، ويُرشدونهم إلى مصدر سعادتهم في الدنيا والآخرة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين.

٢ ـ دعوة الناس إلى عبادة الله:

إنَّ الغاية العظمى التي أوجد الله الخلق لأجلها هي عبادته وتوحيده، وفعل الخيرات واجتناب المعاصي، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فلا يستطيع الإنسان أن يعرف العبادة من فعل ما يحبّه الله ويرضاه، وترك ما يكرهه ويأباه، إلا عن طريق الرّسل الذين اصطفاهم الله من خلقه وفضّلهم على العالمين، وجعلهم مُبَرّئين من كل عيب مشين، ومن كل خُلُق معيب، وأيّدهم بالمعجزات والحجج والبراهين، وأنزل عليهم البيّنات والهدى، وعرّفهم به، وأمرهم أن يدعوا الناس إلى عبادته وحده حقّ العبادة[1].

٣ ـ إقامة الحُجّة على البشر بإرسال الرسل:

* قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

---

(١) كتاب النبوّات، ابن تيمية، (١/ ٢٣).

* وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

* وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤].

فقد أرسل الله سبحانه وتعالى الرّسل ليقطع دابر الكافرين، فلا يعتذروا عن كفرهم بعدم مجيء النذير، وليعلم الله تعالى ذلك علم ظهور، وإلا فهو تعالى يعلم ـ بالعلم الأزلي ـ من يطيعه ومن يعصيه، ولكن ليقيم على عباده الحجة الدامغة؛ فيحيا من حيَّ عن بينة، ويَهلِكَ من هلك عن بيان وبرهان.

٤ ـ الأنبياء هم الطريق لمعرفة العقائد الغيبية:

لا يدرك البشر بعقولهم كثيرًا من الغيب، فهم بحاجة لمن يُعلّمهم ذلك، مثل معرفة أسماء الله جلَّ وعلا وصفاته، ومعرفة الملائكة والجن والشياطين، ومعرفة ما أعدّ الله للطائعين في دار رضوانه وكرامته، وما أعدّ للعاصين في دار سخطه وإهانته، ولذلك فإن حاجتهم ماسَّةٌ إلى من يعلمهم هذه الحقائق، ويُطلعهم على هذه الغيبيات.

ولقد امتدح الله تعالى عباده الذين يؤمنون بالغيب؛ فقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ١ ـ ٣]، فلو لم يبعث الله الرّسل لما عرف الناس هذه الأمور الغيبية، ولما آمنوا إلا بما يدركونه بحواسهم، فسبحان الخلّاق العليم الذي مَنّ على عباده ببعثة الأنبياء والمرسلين.

٥ ـ حاجة الخلق للقدوة الحسنة:

كمّل الله الأنبياء بالأخلاق الفاضلة، وعصمهم من الشبهات والشهوات النازلة، فهم نبراس الهدى، ومصابيح الدّجى، يَقتدي بهم الخلق، ويتَّخذون من سيرتهم وحياتهم قدوة يسيرون عليها حتى يصلوا إلى دار السلام، ويَحطُّوا رحالهم في ساحة ربّ الأنام.

وهم قدوة الأتباع والأسوة الحسنة لمن أطاع في العبادات والأخلاق والمعاملات، والاستقامة على دين الله. ومن الآيات التي ورد فيها الاقتداء بهدي الأنبياء: قوله تعالى ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

ومن الآيات الواردة في الأمر بالاهتداء بهدي الأنبياء: ما شرعه الله عزّ وجل في سورة الفاتحة في كل صلاة، أن ندعوه سبحانه بأن يهدينا صراطهم المستقيم، وذلك في قوله تعالى ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦ ـ ٧]، وأول من يدخل في صفّ المُنعَم عليهم هم أنبياء الله تعالى وأتباعهم، وذلك لقوله تعالى بعد أن ذكر جملة من الأنبياء الكرام في سورة مريم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾ [مريم: ٥٨].

إنَّ حياة الأنبياء عليهم السلام هي الحياة المعصومة، خاصة فيما يتعلق بالعقيدة وما أمروا بتبليغه؛ وذلك لأن الله تعالى اجتباهم واصطفاهم عن علمٍ وحكمة، قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ..﴾ [مريم: ٥٨]، وقال سبحانه عن إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ۝٤٦ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٦ ـ ٤٧]، وقال عن نبيّه موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩]، وقال سبحانه عن علمه بمن يختار من رسله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

وإن الآيات في ذلك كثيرة، والحاصل منها أن من اصطفاهم الله عزّ وجل

واجتباهم لرسالته هم أولى بالاتبّاع والاقتداء؛ وذلك لحفظ الله عزّ وجل لهم وعصمته لهم من الزلل والانحراف، ولو وقع منهم الخطأ لم يُقَرّوا على ذلك، فحَريٌّ بمن هذه صفاتهم أن يُقتدى بهم وتُدرس حياتهم ويُتعرف على هديهم، وذلك لضمان الاهتداء وعدم الانحراف، لهداية الله عزّ وجل وعصمته لهم؛ فيتمُّ الاقتداء من المقتدين وهم في غاية الاطمئنان على صحة ما يأخذونه ويقتدون به وسلامته من الانحراف[(١)].

٦ ـ إصلاح النفوس وتزكيتها:

جاء الرّسل عليهم السلام لإصلاح النفوس وتزكيتها وتطهيرها وتحذيرها من المعصية، فهم بُعثوا لدلالة الخلق على الطريق المستقيم وإرشادهم إلى المنهج القويم، وتوجيههم نحو الأخلاق الحميدة، وتنفيرهم من المساوئ الذَّميمة، فقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

وقد أوضح ابن تيمية حاجة العباد إلى بعثة المرسلين في مواضع شتّى من كتبه، فمن ذلك: قوله «والرسالة ضرورية للعباد، ولابدّ لهم منها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء، والرسالة روح العالم ونوره وحياته، فأي إصلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور، والدّنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة، وكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة ويناله من حياتها وروحها فهو في ظلمة، وهو من الأموات»، وقد قال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فهذا وصف المؤمن، كان ميتًا في

(١) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز ناصر الجليل، دار طيبة، الرياض، السعودية، ط٢، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م، (١٨/٣).

ظلمة الجهل، فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان، وجعل له نورًا يمشي به في الناس، وأما الكافر فميّت القلب في الظلمات[(١)].

وإنَّ الرسالة ضرورية في إصلاح العبد في معاشه ومعاده، فكما أنه لا صلاح في آخرته إلا باتباع الرسالة، فكذلك لا صلاح له في معاشه ودنياه إلا باتباع الرسالة، فإن الإنسان مضطر إلى الشرع، فإنه بين حركتين: حركة يجلب بها ما ينفعه؛ وحركة يدفع بها ما يضرّه، والشرع هو النور الذي يُبيّن ما ينفعه وما يضرّه، والشرع نور الله في أرضه، وعدله بين عباده، وحصنه الذي من دخله كان آمنًا. وليس المراد بالشرع التمييز بين الضّار والنافع بالحسّ، فإن ذلك يحصل للحيوانات العُجم، فإن الحمار والجمل يميز بين الشعير والتراب، بل التمييز بين الأفعال التي تضرّ فاعلها في معاشه ومعاده كنفع الإيمان، والتوحيد، والعدل، والبر، والتصديق، والإحسان، والأمانة، والعفة، والشجاعة، والحلم، والصبر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصلة الأرحام، وبرّ الوالدين، والإحسان إلى المماليك والجار، وأداء الحقوق، وإخلاص العمل لله، والتوكل عليه، والاستعانة به، والرّضا بمواقع القدر منه والتسليم لحكمه، والانقياد لأمره، وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه، وخشيته في الغيب والشهادة، والتقرّب إليه بأداء فرائضه واجتناب محارمه، واحتساب الثواب عنده، وتصديقه وتصديق رسله في كل ما أخبروا به، وطاعته في كل ما أمروا به مما هو نفع وصلاح للعبد في دنياه وآخرته، وفي ضد ذلك شقاوته ومضرته في دنياه وآخرته.

ولولا الرسالة لم يهتدِ العقل إلى تفاصيل النافع والضّار في المعاش والمعاد، فمن أعظم نعم الله على عباده وأكثرها فضلاً عليهم أن أرسل إليهم رُسله، وأنزل عليهم كتبه، وبيّن لهم الصّراط المستقيم، ولولا ذلك لكانوا بمنزلة الأنعام والبهائم، بل أسوأ حالاً منها. فمن قَبل رسالة الله واستقام عليها

---

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (١٩/ ١٩٩ ـ ٢٠٠).

فهو من خير البرية، ومن ردّها وخرج عنها فهو من شرّ البرية، وأسوأ حالاً من الكلب والخنزير والحيوان البهيم[١].

وإنّ حاجة الناس إلى الرّسل لا تُماثلها حاجة، واضطرارهم إلى بعثتهم لا تفوقها ضرورة، فهم في أشد حاجة وأعظم ضرورة[٢]. وهذا ما وضّحه ابن تيمية بقوله: وليست حاجة أهل الأرض إلى الرّسول كحاجتهم إلى الشمس والقمر والرياح والمطر وكحاجة الإنسان إلى حياته، ولا كحاجة العين إلى ضوئها والجسم إلى الطعام والشراب، بل أعظم من ذلك، وأشدّ حاجة من كل ما يُقدّر ويخطر بالبال، فالرّسل وسائط بين الله وبين خلقه في أمره ونهيه، وهم السفراء بينه وبين عباده[٣].

فاضطرار العباد إلى المرسلين لا يُعادله اضطرار وحاجتهم إلى المُبشرين والمنذرين لا تماثلها حاجة[٤].

وقال ابن قيّم الجوزيّة: فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرّسل، ولا سبيل إلى معرفة الطّيِّب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم، ولا يُنال رضا الله البتة إلا على أيديهم، وبمتابعتهم يتميّز أهل الهدى من أهل الضّلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها. وما ظنّك بمن إذا غاب عنك هَديُه وما جاء به طرفة عين، فسَد قلبُك، وصار كالحوت إذا فارق الماء ووُضع في المقلاة، فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرّسل كهذه الحال، بل أعظم، ولكن لا يحسّ بهذا إلا قلبٌ حيٌّ «وما لجرح بميّت إيلام» [٥].

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (١٩/ ١٠٠).
(٢) كتاب النبوّات، ابن تيمية، (١/ ٢٧).
(٣) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (١٩/ ١٠١).
(٤) كتاب النبوّات، ابن تيمية، (١/ ٢٧).
(٥) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط ٢٨، ١٤١٥هـ، (١/ ٦٩).

والرّسل هم قادة للبشر يسيرون بهم إلى طريق الخير، ويهدونهم إلى سبيل الرشاد، ويُجنّبونهم سُبل الغواية والضّلال، وهم قدوة للناس في أخلاقهم وعبادتهم وطريق حياتهم، وقد أمر الله سبحانه باتِّباعهم والسّير على طريقهم، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: ٩٠] (١).

٧ ـ تحقيق غايات عظمى ووظائف كبرى:

كلّفَ الله عزّ وجل الأنبياء والمرسلين بتحقيق غايات عظمى ووظائف كبرى وأهداف سامية، وإنني أُجمل بعضها في الأمور الآتية:

أ ـ دعوة الناس إلى عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ب ـ تبليغ الشريعة الربانية إلى الناس:

قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

ج ـ تبيين ما أُنزل من الدين:

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

---

(١) رسالة الأنبياء من شعيب إلى عيسى، عمر أحمد عمر، دار الحكمة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٩٩٧م، (١/٧).

د ـ تبشير وتحذير العباد:

يكون ذلك بدلالة الأمة على الخير وتبشيرهم بالثواب المُعَدّ إن فعلوه، وتحذيرهم من الشر وإنذارهم بالعقاب المعدّ إن اقترفوه، فقد قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

هـ ـ إصلاح الناس:

يكون الإصلاح بالقدوة الطيبة والأسوة الحسنة في الأقوال والأعمال، قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

و ـ إقامة شرع الله بين العباد وتطبيقه:

قال تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩].

ز ـ شهادة الرسل على الأمم يوم القيامة:

شهادة الرّسل على أممهم يوم القيامة بأنهم قد بلّغوهم البلاغ المبين ورسالة رب العالمين، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]. وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ﴾ [البقرة: ١٤٣].

فهذه بعض وظائف المرسلين، التي تزيدهم شرفًا إلى شرفهم، وفضلاً إلى فضلهم، ويكفيهم فخرًا أنهم يُبلّغون عن رب العالمين، فسبحان من خصّهم

بهذه الرُّتبة العليّة، ومنحهم هذه الوظيفة السنيّة، واصطفاهم، واختارهم من بين سائر عباده ليقوموا بهذه الخدمة المرضيَّة[١].

٨ ـ الاستفادة من سنن الله في الأفراد والشعوب والأمم والدول:

إنَّ دراسة حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تُعرّف البشر بسنن الله عزّ وجل في التغيير، وتُعرِّفهم بسننه سبحانه في الدفع والمدافعة، كما أنّها تكشف للدعاة إلى الله عزّ وجل ذلك الصراع الطويل المرّ بين الحق والباطل، وأن الدولة والعاقبة في نهاية الأمر للحق وأهله، وهذا كلّه لا يبرُز بوضوح كما يبرز في حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وصراعهم مع أقوامهم: بالحجة والبيان، والهجرة، والجهاد، حتى يأتيَهم الله تعالى بنصره وتمكينه[٢].

ومن هذا الباب صارت قصص المتقدّمين عبرةً لنا، ولولا القياس واطّراد فعله وسننه، لم يصحَّ الاعتبار بها؛ لأنَّ الاعتبار إنما يكون إذا كان حكم الشيء حكم نظيره، كالأمثال المضروبة في القرآن[٣].

ومن السنن التي يمكن التعرّف عليها من خلال دراسة حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ما يأتي:

* سوء عاقبة المكذبين للرسل وإهلاكهم.
* نصره سبحانه لعباده المؤمنين.
* مداولة الأيام بين الناس من الشدة إلى الرخاء.
* زوال الأمم بسبب الترف والفساد وفشوُّ الظلم والتجبُّر على الناس.
* أنّ البشر يتحمّلون مسؤوليتهم في الخير والشر.

---

(١) كتاب النبوّات، ابن تيمية، (١/ ٢٨ ـ ٢٩).
(٢) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز ناصر الجليل، (٣/ ٢٢).
(٣) جامع الرسائل، ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، دار المدني للطباعة والنشر، جدة، السعودية، ط٢، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٤م، ص٥٥.

* أنّ انهيار الأمم وهلاكها يكون بأجل.

* أنّ الابتلاء للمؤمنين سنة جارية.

* تقرير سنة التدافع والصراع بين الحق والباطل[١].

وسنأتي على دراستها مفصلةً للاستفادة من العِبَر والمقاصد في قصة إبراهيم عليه السَّلام في هذا الكتاب بإذن الله تعالى.

٩ ـ تعليق القلوب والأرواح بالانتظام في سِلكهم، والسير في موكب الأنبياء والمرسلين المبارك:

لعلَّ في دراسة حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ـ بصدق ورغبة في اتباع هديهم ـ سبيلاً إلى الانتظام في سِلكهم، والسير في قافلتهم المباركة، ويُريد الله عزّ وجل أن يُلحق من اتَّبعهم بركبهم الميمون، وأن يحشرهم في زمرتهم، فيصدق قول الله تعالى ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٩ ـ ٧٠].

نسأله سبحانه أن يُفيض علينا رضاه ورحمته، وأن يُنعم علينا باللحاق بهذه الصفوة المباركة، وإن قَصُرت أعمالنا وأحوالنا عنهم كثيرًا، فعن أنس رضي الله عنه: أن رجلاً سأل الرسول ﷺ عن الساعة، فقال: متى الساعة؟ قال: «**وما أعددتَ لها؟**» قال: لا شيء إلا أني أُحبُّ الله ورسولَه، فقال: «**أنت مع من أحببتَ**»، قال أنس: فأنا أحبُّ النبيَّ ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بِحُبِّي إياهم، وإن لم أعمل أعمالهم[٢].

ويعلّق الشيخ السعدي رحمه الله تعالى على صفات عباد الرحمن الواردة

(١) صحيح البخاري، رقم (٦١٦٧).
(٢) المرجع نفسه، رقم (٦١٦٧).

في آخر سورة الفرقان، ورسل الله عليهم الصلاة والسلام أَولى من تصدُق عليهم هذه الصفات، فيقول: ما أعلى هذه الصفات، وأرفع هذه الهمم، وأجلّ هذه المطالب، وأزكى تلك النفوس، وأطهر تلك القلوب، وأصفى هؤلاء الصفوة، وأنقى هؤلاء السادة!. ولله منّة على عباده أن بيّن لهم أوصافهم ونعتَ لهم هيئاتهم، وبيّن لهم هممهم، وأوضح لهم أجورهم، ليشتاقوا إلى الاتصاف بهم، ويبذلوا جهدهم في ذلك، ويسألوا الذي منّ عليهم وأكرمهم ـ الذي فضلُه في كل مكان وزمان وفي كل وقت وأوان ـ أن يهديَهم كما هداهم، ويتولاهم بتربيته الخاصة كما تولّاهم، فاللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بك، لا نملك لأنفسنا نفعًا ولا ضرًّا، ولا نقدر على مثقال ذرة من الخير إن لم تيسّر ذلك لنا، فإنّا ضعفاء عاجزون من كل وجه، نشهد أنك إن وكلتنا إلى أنفسنا طرفة عين فقد وكلتنا إلى ضعف وعجز وخطيئة، فلا نثق يا ربنا إلا برحمتك التي بها خلقتنا ورزقتنا وأنعمت علينا بما أنعمت من النعم الظاهرة والباطنة، فارحمنا رحمة تُغنينا بها عن رحمة مَن سواك، فلا خاب من سألك ورجاك[١].

* * *

ثالثًا: خصائص الأنبياء والمرسلين:

إنَّ الأنبياءَ عليهم الصلاة والسلام صفوةُ البشر وسادتهم، وهم من بني آدم، لهم خصائص البشر وصفاتهم لا يخرجون عن صفتهم البشرية، ولكنَّ الله عزّ وجل اصطفاهم وأنعم عليهم باختيارهم رسلاً إلى الناس، وخصّهم كذلك ببعض الخصائص والصفات التي لا يشترك معهم بقيةُ البشر فيها، وهذه الخصائص لا تُخرجهم عن بشريتهم وعبوديتهم لله عزّ وجل، قال تعالى على لسان بعض رسله في مجادلتهم لأقوامهم: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ

(١) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، (٣/ ٤٥٥).

مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [إبراهيم: ١١]، ولله عزّ وجل الحكمة البالغة في كون الأنبياء من البشر، فلو لم يكونوا كذلك لم يكن هناك مجال للاقتداء بهم والتأسّي بأحوالهم، وما خفي علينا من الحِكَم أكثر.

وقد تحدث بعض العلماء عن خصائص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لنعرف لهم حقَّهم ونُقدِّر لهم قدرَهم، فنبذل لهم من الأدب والحب والولاء ما يستحقونه، وما يلزم ذلك من الاتّباع والتأسي بحياتهم وهديهم. وقبل ذكر هذه الخصائص فإنه يحسن بنا أن نُلمَّ ببعض لوازم بشرية الرّسل التي استنكرها كلُّ قوم على نبيهم، وذلك كما في قوله تعالى ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٤].

وعجبًا للقوم الكافرين كيف لم ينتبهوا لنعمة الله عزّ وجل بأن جعل الرسل بشرًا من جنسهم، فجحدوا هذه النعمة واستغربوها مع ما فيها من اللطف والرفق بالعباد؛ حيث أرسل الله إليهم رسلاً من جنسهم؛ ليفقهوا عنهم ما يبلغونهم عن الله تعالى، ويتمكّنوا من القيام بما يُدعون إليه، ولو بُعث إلى الناس رسل من الملائكة أو من غير جنسهم لما استطاع الناس الفقه والأخذ عنهم، ولقالوا: هم من جنس غير جنسنا فلا نقبل ولا نفقه عنهم، فرجع الإعراض في الأول والآخر إلى الهوى نعوذ بالله.

ومن لوازم بشرية الرسل عليهم الصلاة والسلام:

* الاتّصاف بما تتصف به الطبيعة البشرية من كونهم جسدًا يحتاجون إلى الطعام والشراب والنكاح، كما أن لهم أزواجًا وذرية وآباء وأمهات وأقارب.

* يُصيبهم ما يُصيب البشرَ من الأمراض والمكاره والسهو والنسيان والنوم.

* يرضون ويغضبون، ويفرحون ويحزنون.

* يتعرضون للابتلاء كما يتعرض البشر؛ بل إنَّ الأنبياء أشدّ الناس بلاءً.

* لا يعلمون الغيب إلا ما علَّمهم الله عزّ وجل.

* يقومون بأعمال البشر والأشغال التي يمارسها البشر، كالرّعي والتجارة وصناعة السيوف والدروع وغيرها من المهن البشرية.

* ليس فيهم شيء من خصائص الألوهية ولا الربوبية، بل هم عبيد لله تعالى، حقَّقوا العبودية على أكمل وجه، وتبرؤوا مِن حولِهم وقوتهم، واعتصموا بالله وحده، وفوَّضوا أمورهم إليه.

ومع اشتراكهم مع البشر في صفة البشرية، فلقد حقَّقوا الكمال البشري في أرقى صوره؛ لأن الله عزّ وجل اصطفاهم واجتباهم وربّاهم على عينه، فجاءت قلوبهم أطهر البشر قلوبًا، وعقولهم أزكى البشر عقولاً وقريحة، وأخلاقهم أكمل البشر وأزكاهم أخلاقًا، ومعرفتهم بربهم وعبادتهم له سبحانه أكمل البشر معرفة وعبودية وإيمانًا، بل حتى في الصورة الظاهرة الخَلقية كانوا أكمل البشر أجسامًا وأجملهم صورة، وصدق الله العظيم: ﴿. . . ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وهذه الصفات ـ السابق ذكرها ـ هي من مقتضيات البشرية التي يشتركون فيها مع البشر، ولكن الله عزّ وجل بعلمه الشامل وحكمته البالغة خصّ هؤلاء الصفوة من البشر بنعمة النبوة والرسالة، وخصّهم لأجلها بصفات وخصائص تفرّدوا بها عن سائر البشر، وفُضّلوا بها عليهم، واستحقُّوا من أجلها إجلال الناس لهم، ومحبتهم إياهم، وطاعتهم لهم، واتباعهم لمنهجهم وهديهم العام، ووجب على كل قوم طاعة نبيّهم في شريعته الخاصة بهم[1].

---

(١) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز ناصر الجليل، (٣/ ٣٠).

ويمكن إجمال هذه الخصائص التي تفرّدوا بها عن سائر البشر فيما يأتي:

١ ـ اصطفاؤهم بالوحي والرسالة:

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ [الكهف: ١١٠]، ويترتَّب على هذا الوحي أمور يتميزون بها عن الناس، مثل تكليم اللهِ بعضَهم، ونزول الملائكة عليهم، وتعريف الله سبحانه لهم ببعض الغيوب الماضية أو المستقبلية، أو إطلاعه سبحانه بعضهم على شيء من عالم الغيب، كما حصل ذلك للرسول ﷺ في الإسراء والمعراج، وهذه أكبر وأعظم صفات الأنبياء التي تفرَّدوا بها وأنعم الله سبحانه بها عليهم. وهذه الخاصية هي التي تُوجب على العباد طاعة أنبيائهم وقبول ما يأتون به ويأمرون وينهَوْن؛ لأنه وحي من عند الله عزّ وجل، أمرَ الأنبياءَ بإبلاغه للناس، وهذا يُوجب على الناس توقير أنبيائهم، والعمل بأقوالهم وتوجيهاتهم، ويمنع من التقدُّم عليهم بقول أو فعل(١).

٢ ـ العِصمة:

هذه خاصّيّة ثانية، انفرد بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن البشر، وهي من لوازم الوحي والرسالة التي أكرم الله سبحانه بها أنبياءه، فجعلهم معصومين فيما يبلغونه للناس من العقائد والأحكام، ولو وقع أحدهم في خطأ قولي أو عملي، فمن لوازم العصمة أن الله عزّ وجل لا يُقِرّه على هذا الخطأ في وقته، ويفيء النبي عن ذلك بأسرع وقت؛ ويكون حاله بعد التوبة أكمل من حاله قبل وقوعه في الخطأ.

يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى: واعلم أنَّ المنحرفين في مسألة العصمة

---

(١) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز ناصر الجليل، (٣/ ٣٠).

على طرفي نقيض، كلاهما مخالف لكتاب الله من بعض الوجوه: قوم أفرطوا في دعوى امتناع الذنوب، حتى حرَّفوا نصوص القرآن المخبرة بما وقع منهم من التوبة من الذنوب، ومغفرة الله لهم ورفع درجاتهم بذلك، وقوم أفرطوا في أن ذكروا عنهم ما دلَّ القرآن على براءتهم منه، وأضافوا إليهم ذنوبًا وعيوبًا نزَّههم الله عنها، هؤلاء مخالفون للقرآن وهؤلاء مخالفون للقرآن، ومن اتبع القرآن على ما هو عليه من غير تحريف كان من الأمة الوسط مهتديًا إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين[1].

والذي يعنينا هنا هو عصمة منهجهم وهديهم؛ لأنه وحي من الله عزّ وجل، وهذا يكفل لسالكه السلامة من الخلل والانحراف، ويضمن له النجاة والفوز والتمكين؛ لأنه منهج معصوم لا يعتريه ما يعتري المناهج البشرية من خلل وقصور وانحراف.

وينبغي قبل أن نُنهي الحديث عن هذه المسألة التنبيه على مسألتين مهمّتين:

الأولى: وجوب التأدُّب مع أنبياء الله عزّ وجل، ومعرفة حقِّهم، وبالأخص مع مَن بدر منه بعض الأخطاء التي لم يُقِرَّهم الله عزّ وجل عليها، بل وفَّقهم لتركها والتوبة منها، لأنّ هذا لا يُنافي عصمتهم، ولا يُنقص من قدرهم وكمالهم، لأن الله عزّ وجل تاب عليهم واجتباهم وهداهم. ومن ذلك قوله ﷺ عن نبي الله يونس عليه الصلاة والسلام: «**لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى**»[2]. فالحذر الحذر من تنقُّصهم، وإساءة الظنِّ بهم.

الثانية: الحذر من الروايات الإسرائيلية التي يرويها كثير من المفسرين في

---

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (١٥/ ١٥٠).

(٢) صحيح البخاري، رقم (٣٣٩٥). ويُنظر: صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٧٢م، رقم (٢٣٧٧).

قصص الأنبياء في القرآن، وما في بعضها من إساءة الظن والأدب بأنبياء الله ورسله ومنافاةٍ لعصمتهم، مع أنه لا أصل لها، فهي مردودة سندًا ومتنًا، فجميع الأخبار الماضية لا نقبل منها في تفسير القرآن إلا ما جاء في القرآن الكريم أو السنة الصحيحة، وما سواهما فمردود ومرفوض لأنه رجم بالغيب[(١)].

ويقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى: «وقد تقدَّم أنه لا يجوز تفسير كتاب الله بالأخبار الإسرائيلية، ولو على تجويز الرواية عنهم بالأمور التي لا يجزم بكذبها، فإن معاني كتاب الله عزَّ وجلَّ يقينيّة، وتلك أمور لا تصدّق ولا تكذب فلا يمكن اتفاقهما»[(٢)].

٣ ـ تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم:

عن أنس رضي الله عنه في حديث الإسراء: «والنبيُّ نائمةٌ عيناهُ ولا يَنامُ قلبُه، وكذلك الأنبياءُ تَنامُ أعينُهم ولا تَنامُ قلوبُهم»[(٣)].

وقد صحّ عنه ﷺ أنه قال: «**إنّا معاشرَ الأنبياء تنامُ أعينُنا، ولا تنامُ قلوبُنا**»[(٤)]، ويَنبَني على هذه الخاصّيّة أن رؤيا الأنبياء حقّ ووحي يُتّبع[(٥)].

٤ ـ تخييرهم عند الموت:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما مِن**

---

(١) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز ناصر الجليل، (٣/ ٣٢).

(٢) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، (٢/ ١٣٠).

(٣) صحيح البخاري، كتاب المناقب، رقم (٣٥٧٠).

(٤) الطبقات، محمد بن سعد بن منيع الزهري، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي للطباعة، القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م، (١/ ١٧١)؛ ويُنظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م، رقم (١٧٠٥).

(٥) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز ناصر الجليل، (٣/ ٣٣).

نَبيٍّ يَمرَضُ إلا خُيِّرَ بينَ الدُّنيا والآخِرةِ» (١)، وسُمع النبي ﷺ في شكواه التي قُبض فيها يقول: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (٢).

٥ ـ يُقبر النبي حيث يموت:

صحّ عنه ﷺ قوله: «**لم يُقبرْ نبيٌّ إلا حيثُ يَموتُ**» (٣)، ولهذا فإن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ دفنوا الرّسول ﷺ في حجرة عائشة رضي الله عنها حيث قُبض (٤).

٦ ـ لا تأكل الأرض أجسادهم:

أكرم الله عزّ وجل أنبياءه ورسله عليهم الصلاة والسلام، فمهما طال الزّمان وتقادم العهد تبقى أجسادهم محفوظة من البَلى، وهذا قد ثبت عنه ﷺ في قوله: «**إنَّ اللهَ حرَّمَ على الأرضِ أن تأكُلَ أجسادَ الأنبياءِ**» (٥).

٧ ـ أحياء في قبورهم:

صحّ عنه ﷺ أنه قال: «**الأنبياءُ أحياءٌ في قبورِهِم يُصَلُّون**» (٦)، كما ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**مررتُ على مُوسى ليلةَ أُسرِيَ بي عندَ الكثيبِ الأحمرِ، وهو قائمٌ يُصلِّي في قَبرِهِ**» (٧).

وأمّا عن كيفية هذه الحياة، فهذا أمر غيبيّ لا مجال للعقل فيه، فما دام أنه

---

(١) صحيح البخاري، رقم (٤٥٨٦).
(٢) المرجع نفسه، رقم (٤٥٨٦).
(٣) صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير، الألباني، رقم (٥٢٠١).
(٤) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز ناصر الجليل، (٣/ ٣٤).
(٥) صحيح سنن أبي داود، الألباني، دار المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م، رقم (٩٢٥).
(٦) سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني، رقم (٦٢١).
(٧) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، رقم (٢٣٧٥).

صح عن رسول الله ﷺ فيجب الإيمان به من غير تكييف، ولكن مع إيماننا بأنها حياة برزخية ليست كحياتهم التي عاشوها في الدنيا، فلا يجوز سؤالهم في قبورهم، ولا طلب المدد منهم فإنهم لا ينفعون ولا يضرّون، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ [يونس: ١٠٦].

٨ ـ لا يورثون بعد موتهم:

قال رسول الله ﷺ: «**إنّا معشرَ الأنبياءِ لا نُورث، ما تركت بعدَ مؤنة عاملي ونفقة نسائي صدقة**»[١].

والروايات التي عند الإمامين البخاري ومسلم ليس فيها: «إنّا معشر الأنبياء»[٢]، وإنما هي بلفظ: «**لا نورث، ما تركنا صدقة**»، وقال الإمام ابن حجر رحمه الله بعد شرحه لهذا الحديث: وأما ما اشتهر في كتب أهل الأصول وغيرهم بلفظ: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورث**»، فقد أنكره جماعة من الأئمة، وهو كذلك بالنسبة لخصوص لفظ «نحن»، لكن أخرجه النسائي من طريق ابن عُيينة عن أبي الزناد بلفظ: «**إنّا معاشر الأنبياء لا نورث**»[٣]، أُخرج الحديث عن محمد بن منصور عن ابن عُيينة، وهو كذلك في مسند الحميدي عن ابن عيينة، وهو من أتقن أصحاب ابن عيينة فيه، وأورده الهيثم بن كُليب في مسنده من حديث أبي بكر الصديق باللفظ المذكور، وأخرجه الطبراني في الأوسط بنحو اللفظ المذكور، وأخرجه الدارقطني في (العلل) من رواية أُم هانئ عن فاطمة عن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما بلفظ: «إنَّ الأنبياء لا يورثون».

(١) مسند أحمد، الإمام أحمد بن حنبل، تح: شعيب أرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ٢٠٠٨م، رقم (٩٩٧٣).

(٢) صحيح البخاري، رقم (١٧٥٧).

(٣) مسند أحمد، إسناده صحيح، رقم (٩٩٧٣).

قال ابن بطّال وغيره: ووجه ذلك ـ والله أعلم ـ أنَّ الله بعثهم مُبلِّغين رسالته، وأمرهم ألا يأخذوا على ذلك أجرًا كما قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الشورى: ٢٣]، وقال نوح وهود وغيرهما نحو ذلك، فكانت الحكمة في ألا يورثوا لئلا يظن أنهم جمعوا المال لورثتهم، قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٦] حمله أهل العلم بالتأويل على العلم والحكمة، وكذا قول زكريا ﴿... فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِى﴾ [مريم: ٥ ـ ٦]، وقد حكى ابن عبد البرّ أن للعلماء في ذلك قولين: وأن الأكثر على أن الأنبياء لا يورّثون[١].

وقال الساعاتي رحمه الله تعالى في (الفتح الربّاني): قال العلماء: والحكمة في أنهم عليهم الصلاة والسلام لا يورّثون أنهم لو ورّثوا لظُنّ أن لهم رغبة في الدنيا لوارثهم، فيهلك الظانّ، أو لئلا يتمنَّى ورثتُهم موتَهم فيهلكون، أو لأن النبي ﷺ كالأب لأمته، فيكون ميراثه للجميع، وهو معنى الصدقة العامة[٢].

٩ ـ إعداد الله لهم وتهيئتهم لرسالاته:

لقد أكرم الله عزّ وجل أنبياءه ورسله، وخصّهم بمزيد عناية وتوفيق وأخلاق عالية، لم تكتمل لغيرهم من البشر، وذلك لتهيئتهم لقيادة الأمم وسياسة الشعوب، فخصّهم الله بأخلاق سامية وآداب عالية وحكمة بالغة وعزائم وعقيدة صحيحة[٣]، وقد ظهرت عناية الله عزّ وجل بنبيّه إبراهيم عليه الصلاة والسلام وتهيئته للرسالة وتأييده له، كما سنبيّن ذلك بإذن الله تعالى في هذا الكتاب.

* * *

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، (١٢/ ٨).

(٢) الفتح الربّاني والفيض الرحماني، عبد القادر الجيلاني، تحقيق: الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح والمستشار توفيق علي وهبة، المكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠١٤م، (١٥/ ١٩٢).

(٣) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز ناصر الجليل، (٣/ ٣٦).

رابعًا: دين الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام واحد، ودعوتهم واحدة:

١ ـ الإيمان بالأنبياء والمرسلين أحد أركان الإيمان:

يُعدُّ الإيمان بأنبياء الله ورسله ركنًا من أركان الإيمان، فلا يتحقّق إيمان العبد حتى يؤمن بجميع الأنبياء، ويصدّق بأن الله تعالى أرسلهم لهداية البشر وإرشادهم، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وأنّهم بلّغوا ما أُنزل إليهم من ربهم البلاغ المبين، فبلّغوا الرسالة، وأدَّوْا الأمانة، ونصحوا الأمّة، وجاهدوا في الله حقّ جهاده.

قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، ومن السنة قول النبي ﷺ: **«الإيمانُ أن تُؤمنَ بالله وملائكتِه وكُتبِه وبلقائِه ورُسلِه وتُؤمِنَ بالبَعثِ»**[١]، فلا بدَّ في الإيمان إذن من التصديق بكل رسول أرسله اللهُ تعالى، وكل كتاب أنزله[٢].

ولا يتمُّ الإيمان بأنبياء الله عزَّ وجل حتى يؤمن العبد بجميعهم من غير حصر، مَن قصّهم الله علينا ومن لم يقصُصهم، فقد أخبرنا الله جلّ وعلا أن هناك أنبياء لم يقصُصهم علينا ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ [غافر: ٧٨]، قال ابن تيمية:

---

(١) صحيح البخاري، رقم ٤٨.

(٢) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ابن تيمية، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة دار البيان، دمشق، مكتبة المؤيد، الرياض، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م، ص١١٧.

فنُؤمن بما سمَّى الله في كتابه من رُسُله، ونؤمن بأن لله رسلاً وأنبياء سِواهم ولا يعلم أسماءهم إلا الذي أرسلهم، ونؤمن بمحمد ﷺ. وإيمانك به غير إيمانك بسائر الرسل، وإيمانك بسائر الرسل: إقرارك بهم، وإيمانك بمحمد إقرارك به وتصديقك إياه دائبًا على ما جاء به، فإذا اتبعت ما جاء به أدّيت الفرائض، وأحللت الحلال وحرّمت الحرام، ووقفت عند الشُّبهات، وسارعت في الخيرات[١].

وقال أيضًا: من أطاع رسولاً واحدًا فقط فقد أطاع جميع الرّسل، ومن آمن بواحد منهم فقد آمن بالجميع، ومن عصى واحدًا منهم فقد عصى الجميع، ومن كذّب واحدًا منهم فقد كذَب الجميع؛ لأنَّ كلَّ رسول يُصدِّق الآخر، ويقول: إنّه رسول صادق، ويأمر بطاعته، فمن كذّب رسولاً فقد كذّب الذي صدّقه، ومن عصاه فقد عصى من أمر بطاعته[٢].

٢ ـ الإسلام دين الأنبياء جميعًا:

قال الله عزّ وجل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

إنَّ الإسلام هو دين الأنبياء جميعًا، فمنذ أن أُهبط آدمُ عليه الصلاة والسلام ودينه الإسلام ودعوته إلى الإسلام، الذي هو الاستسلام لله عزّ وجل وتوحيده وعبادته وحده لا شريك له، ثم استمر الإسلام في ذريته عشرة قرون، حتى ظهر الشرك أول ما ظهر في قوم نوح، فبعث الله نبيّه نوحًا عليه السَّلام بالإسلام، ثم بعث الله عزّ وجل رسله تَتْرى مُبلِّغة دين الإسلام إلى أقوامهم، كلّما ظهر الشرك، وانطفأت أنوار الإسلام[٣].

---

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (٧/ ٣١٣).
(٢) المرجع نفسه، (١٩/ ١٨٠).
(٣) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز ناصر الجليل، (٣/ ٤١).

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩].

إذن، فإن دين الإسلام وتاريخ الإسلام معناه العام وُجد مع وجود الإنسان على هذه الأرض، وهو دين الأنبياء جميعًا. أما الإسلام بمعناه الخاص فهو الذي بُعث به محمد ﷺ جامعًا فيه بين الإسلام العام ـ الذي هو التوحيد ونبذ الشرك ـ وبين الأحكام الشرعية لهذه الأمة، حيث أحلّ لها الحلال وحرّم عليها الحرام، ووضع عنها الإصر والأغلال التي كانت على مَن قبلها، فجاءت شريعة كاملة مُيسَّرة شاملة خاتمة للشرائع، صالحة لكل زمان ومكان، وهذا معنى قوله ﷺ: «**أنا أوْلى النّاسِ بعيسى ابن مريمَ في الدُّنيا والآخرة، والأنبياء إخوةٌ لعَلاّت، أمهاتُهم شتّى ودينُهم واحدٌ**»(١).

حيث يوضح هذا الحديث أن الأنبياء كالأبناء لأمهات شتّى وأب واحد، وذلك لاتّفاقهم في التوحيد والإسلام وأصول الإيمان والأخلاق، واختلافهم في الشرائع(٢).

يقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: وهذا الدين الإسلام الذي لا يقبل الله دينًا غيره، لا من الأولين ولا من الآخِرين، فإن جميع الأنبياء على دين الإسلام، قال تعالى عن نوح: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ﴾ [يونس: ٧١] إلى قوله: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٧٢]، وقال عن إبراهيم: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ ﴾ [البقرة: ١٣٠] إلى قوله: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ١٣١] إلى قوله: ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا

(١) صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، رقم ٣٤٤٣.
(٢) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز ناصر الجليل، (٣/ ٤٢).

وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وقال عن موسى: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، وقال في حَواريِّي المسيح: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١]، وقال فيمن تقدَّم من الأنبياء: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال عن بلقيس أنّها قالت: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

فالإسلام يتضمَّن الاستسلام لله وحده، فمن استسلم له ولغيره كان مشركًا، ومن لم يستسلم له كان مستكبرًا عن عبادته، والمشرك به والمستكبر عن عبادته كافر، والاستسلام له وحده يتضمَّن عبادته وحده وطاعته وحده، فهذا دين الإسلام الذي لا يقبل الله غيره، وذلك إنما يكون بأن يُطاع في كل وقت بفعل ما أمر به في ذلك الوقت، فإذا أمر في أول الأمر باستقبال الصخرة، ثم أمرنا ثانيًا باستقبال الكعبة، كان في كلٍّ من الفعلين حين الأمر به داخلاً في الإسلام، فالدين هو الطاعة والعبادة له في الفعلين. وإنما تنوَّع بعضُ صور الفعل ـ وهو وجهة المصلي ـ فكذلك الرسل، وإن تنوعت الشرعة والمنهاج والوجهة والمنسك، فإن ذلك لا يمنع أن يكون الدين واحدًا، كما لم يمنع ذلك في شريعة الرسول الواحد[1].

ويقول الشيخ عمر الأشقر رحمه الله: إنَّ الرسالات التي جاء بها الأنبياء جميعًا مُنزَلة من عند الله العليم الحكيم الخبير، ولذلك فإنها تُمثِّل صراطًا واحدًا يسلكه السابق واللاحق، ومن خلال استعراضنا لدعوة الرسل التي أشار إليها القرآن، نجد أنَّ الدين الذي دعت إليه الرّسل جميعًا هو الإسلام: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، والإسلام في لغة القرآن ليس اسمًا

(١) التحفة المهدية شرح العقيدة التدمرية، المؤلف: فالح بن مهدي آل مهدي الدوسري، مطابع الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، السعودية، ط٣، ١٤١٣هـ، ص٣٢٢.

لدين خاص، وإنما هو اسم للدّين المشترك الذي هتف به كلّ الأنبياء، فنوح يقول لقومه: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢].

والإسلام هو الدّين الذي أمر الله به أبا الأنبياء إبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، ويوصي كلٌّ من إبراهيم ويعقوب أبناءه قائلاً: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وأبناء يعقوب يُجيبون أباهم: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣]، وموسى يقول لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، والحواريّون يقولون لعيسى: ﴿... ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢]، وحين سمع فريق من أهل الكتاب القرآن: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٣]. فالإسلام شعارٌ عامٌّ كان يدور على ألسنة الأنبياء وأتباعهم منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصر النبوة المحمّدية[١].

٣ ـ أول عقيدة في الأرض هي التوحيد:

هذه الحقيقة، حقيقة أن أول عقيدة عُرفت في الأرض هي الإسلام القائم على توحيد الربوبية والقوامة لله وحده، وقد بيّنتُ ذلك في كتابي «**قصة بدء الخلق وخَلق آدم عليه السَّلام**»، وكتاب «**نوح عليه السَّلام والطوفان العظيم**»، وإنَّ الحجج الدامغة والبراهين الساطعة والأدلة الثابتة ترفض كل ما يتخبَّط فيه مَن يُسمَّون «علماء الأديان المقارنة»، فهؤلاء وغيرهم من التطوُّريِّين الذين يتحدثون عن التوحيد بوصفه طورًا متأخِّرًا من أطوار العقيدة، سبقته أطوار شتّى من التعدّد والتثنية للآلهة، ومن تأليه القوى الطبيعية وتأليه الأرواح، وتأليه الشموس والكواكب.. إلى آخر ما تأتي به هذه الدراسات المغرضة، والتي

---

(١) الرّسل والرّسالات، عمر سليمان الأشقر، مكتبة الفلاح، لبنان ـ دار النفائس، الكويت، ط٤، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م، ص٢٤٣.

تقوم ابتداءً على منهج موجّه بعوامل تاريخية ونفسيّة وسياسية معينة، حيث يهدف إلى تحطيم قاعدة الأديان السماوية والوحي الإلهي والرسالات من عند الله، وإثبات أنَّ الأديان من صنع البشر، وأنَّها مِن ثَمَّ تطوَّرت بتطوُّر الفكر البشري على مدار الزمان[١].

وإنّه حينما يتقرَّر أن دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هي دعوة واحدة، وهي الدعوة إلى عبادة الله عزّ وجل وتوحيده ـ فإننا نقصد ذلك المفهوم الشامل للتوحيد والعبادة ـ ألا وهو إخراج الناس من العبودية والدَّينونة لغير الله إلى الدَّينونة لله وحده بكل شمولها، وليس مجرد أن يُوحِّد الناس بألسنتهم، أو أن يتوجَّهوا إلى الله سبحانه بشعائر التعبُّد الظاهرة فقط، ثم تبقى قلوبهم ومصادر تلقّيهم وتشريعاتهم إلى غير الله عزّ وجل.

إنَّ مهمة الرّسل في رسالتهم ودعوتهم أشمل من هذا المفهوم القاصر للتوحيد والإيمان، ولو كانت الدعوة إلى التوحيد بهذا المفهوم القاصر لما استحقَّت كلَّ هذه الجهود المضنية والتضحيات الباهظة من أنبياء الله عزّ وجل ورسله عليهم الصلاة والسلام[٢].

٤ ـ دعوة الأنبياء والمرسلين واحدة خالصة:

نقف أمام الدعوة الواحدة الخالدة على لسان كل رسول، وفي كل رسالة دعوة توحيد العبادة والعبودية لله المتمثّلة فيما يحكيه القرآن الكريم عن كل رسول: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾، ولقد كنا دائمًا نفسّر «العبادة» لله وحده بأنها «الدينونة الشاملة لله وحده في كل شأن من شؤون الدنيا والآخرة». ذلك أن هذا هو المدلول الذي تعطيه اللفظة في أصلها اللغوي، فإن «عَبَدَ» معناها: دان وخضع وذَلَّ، وطريق مُعبَّد: طريق مُذلَّل مُمهَّد، وعَبَّده:

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٣/ ١٨٨٢).

(٢) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز ناصر الجليل، (٣/ ٤٥).

جعله عبدًا أي خاضعًا مُذلَّلاً. ولم يكن العربيّ الذي خُوطب بهذا القرآن أول مرة يحصر مدلول هذا اللفظ وهو يؤمر به في مجرد أداء الشعائر التعبُّديّة، بل إنَّه يوم خُوطب به أول مرة في مكة، لم تكن قد فُرضت بَعدُ شعائرُ تعبُّديّة، إنما كان يَفهم منه عندما يخاطَب به أن المطلوب منه هو الدينونة لله وحده في أمره كلِّه، وخلع الدَّينونة لغير الله من عنقه في كل أمره.

إنَّ توحيدَ الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الحاكمية، وتوحيد مصدر الشريعة، وتوحيد منهج الحياة، وتوحيد الجهة التي يدين لها الناس، والدينونة الشاملة، هو التوحيد الذي يستحقُّ أن يُرسَل من أجله كلُّ هؤلاء الرسل، وأن تُبذَل في سبيله كلُّ هذه الجهود، وأن تُحتمَل لتحقيقه كلُّ هذه العذابات والآلام على مرِّ الأزمان؛ ذلك ليس لأنَّ الله سبحانه في حاجة إليه، فهو سبحانه غنيّ عن العالمين، ولكن لأن حياة البشر لا تصلح ولا تستقيم ولا ترتفع ولا تصبح حياة لائقة «بالإنسان»، إلا بهذا التوحيد الذي لا حدَّ لتأثيره في الحياة البشرية في كل جانب من جوانبها[١].

من كلِّ ما سبق يظهر لنا أنَّ دين الأنبياء عليهم السلام واحد، وأنَّ دعوتهم واحدة، وهي دعوة الإسلام، وإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة ربّ العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، كما أن هناك أمورًا أخرى اتَّفقت عليها جميع الرّسالات ودعت إليها، ألا وهي الأخلاق والقيم التي فطر اللهُ الناسَ عليها، حيث نجد الدعوة إليها والمحافظة عليها ونبذ ما يُخالفها موجود في كل رسالة، وقد تضمَّنتها دعوةُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولا يمكن أن تتغيَّر ولا يَعتريها تبديل ولا نسخ، مَثَلُها مَثَلُ التوحيد وأصول الإيمان، وكذلك برّ الوالدين، وتحريم الفواحش والظلم، وقتل النفس بغير حق، والإحسان إلى اليتيم، والقسط بين الناس، وتحريم

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، باختصار، (٣/ ١٩٠٢ ـ ١٩٠٣).

الكبر والفخر، والحثّ على الكرم والوفاء، وتحريم الغدر والخيانة[١].

٥ ـ الاتفاق في الأصول والخلاف في الفروع:

وفيما عدا أصول الإيمان والقيم الثابتة، جعل الله عزّ وجل لكل رسول شريعة خاصّة لقومه، شاملة وكاملة في وقتها لأهلها، وقد تختلف هذه الشرائع من نبيّ لآخر، وقد يتفق بعضها، حتى ختم الله سبحانه جميع الشرائع بما أنزل على محمد ﷺ من الشريعة الكاملة الشاملة التي كتب الله عزّ وجل لها الخلود والقيام بمصالح العباد في كل زمان ومكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهذا هو المعنى المأخوذ من قوله تعالى ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ﴾ [المائدة: ٤٨]، ومعناه: لكلِّ أهل مِلّةٍ منكم أيها الأمم جعلنا شرعةً ومنهاجًا[٢].

ويرى الشيخ عبد الرازق عفيفي رحمه الله تعالى، بخصوص اختلاف الشرائع، واكتمالها في شرعة نبينا محمد ﷺ: أنَّ من تمام رحمة الله بعباده ونعمته عليهم، وكمال حكمته في إقامة الحجة والأعذار على من سبق عليه القول منهم، أن جعل شريعة كل رسول من رسله شاملة لكل ما تحتاجه أمته، وجامعة لكل ما يُصلح شأنها، وينهض بها في إقامة دولتها وبناء مجدها وتقويم أَوَدها وحفظ كيانها، ويجعلها مثلاً أعلى في جميع شؤونها، سعيدة في الدنيا والآخرة، قال ﷺ: «**إنَّه لم يكنْ نَبيٌّ قَبلي إلا كانَ حقًّا عليه أن يَدُلَّ أمّتَه على خيرِ ما يَعلَمُه لَهم، ويُنذِرَهُم عَن شَرِّ ما يَعلَمُهُ لَهم**»[٣].

وكذلك، فقد تضمنت فوق ذلك ما يُكمل الضروريات والحاجات

---

(١) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز ناصر الجليل، (٣/ ٤٧).

(٢) تفسير الطبري «جامع البيان في تأويل القرآن»، الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م، (١٠/ ٣٨٥).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، رقم (١٨٤٨).

والتحسينات على خير حال وأقوم طريق... والأمم الماضية لمّا كانت تَسوسُهم الأنبياء كلما مات نبيٌّ خلفَه نبيٌّ، وكان الوحي مستمرًّا، جرت فيهم سنة التطوُّر في التشريع والتدرُّج في الأحكام، وكان كثير من التفاصيل وفروع الشريعة مؤقتًا، فنسَخت الشريعة اللاحقة من أحكام الشريعة السابقة ما اقتضت المصلحة نسخه؛ تنشئةً للأمة وتربيةً لها وسدًّا لحاجتها، أو عقوبةً لها على ظلمها للأمة وتمرُّدها على شرائع ربِّها، قال تعالى في رسالة عيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

وقال الله تعالى في محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦ ـ ١٥٧].

وقال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٠ ـ ١٦١].

وأما هذه الأمة المحمّدية، فشريعتها خاتمة الشرائع، ورسولها خاتم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لا نبيَّ بعده، فاقتضت حكمة الله أن تكون شريعته فيهم عامة دائمة إلى يوم القيامة، كفيلة بجميع مصالحهم الدينية والدنيوية، مُنظِّمةً لنواحي حياتهم المختلفة، مُغنيةً لهم عمّا سواها في جميع أمورهم وشؤونهم، ولو طال بهم الأمد، واختلفت أحوالهم على مرّ الأيام

والعصور حضارةً وثقافةً، وتباينت أفكارهم ذكاءً وغباوةً، وتبدَّلت أحوالهم قوةً وضعفًا، وغنىً وفقرًا[١].

* * *

خامسًا: أهمية قصة إبراهيم عليه السَّلام في القرآن الكريم:

إنّ قصةَ إبراهيم عليه السَّلام هي أطول قصة قرآنية بعد قصة سيدنا موسى عليه السَّلام، ومساحتها تزيد على الجزء، وإن آياتها نزلت مُبكِّرة في المرحلة المكيّة، واستمرَّ نزولها حتى أواخر المرحلة المدنيّة، وهذا يعني أن قصة إبراهيم التي أخذت هذه المساحة الكبيرة في القرآن الكريم، وأخذت هذه الفترة الزمنية في نزول الوحي، لها أثرٌ كبير في تحقيق أهداف القرآن الكريم ومقاصده[٢]، والتي نذكر منها:

١ ـ إبراهيم عليه السَّلام مَثَلٌ أعلى للبشر:

كشفت قصة إبراهيم عليه السَّلام عن ملامح الشخصية السويّة القدوة، التي تمثِّل المثَل الأعلى في الالتزام بالإسلام، قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧].

أصبح إبراهيم عليه السَّلام رمزًا من رموز التوحيد في عصره، وفي كل العصور، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٨]. وقد أوصى إبراهيم بَنيه وذُريّتَه بتلك الكلمة، فاستجابوا له، وقاموا بإبلاغها إلى الأجيال من بعده، وظلَّت كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» متصلة في أعقابه،

---

(١) الحكمة من إرسال الرّسل، عبد الرازق عفيفي، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط٢، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م، ص٣٠ ـ ٣٢.

(٢) قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٢م، ص١٥.

وقام عليها من بعده رسل مُتَّصلون لا ينقطعون، حتى كان ابنُه الأخير من نسل إسماعيل عليه السَّلام وأشبَه أبنائه به محمد ﷺ، خاتم الرسل، الذي دعا إلى التوحيد وإفراد الله عزّ وجل بالعبادة، وحارب الكفر والشرك بكل أنواعه وأشكاله[١].

٢ ـ التوحيد الخالص:

أظهرت قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ بأن دين الأنبياء جميعًا هو التوحيد الخالص، من لدن إبراهيم عليه السَّلام حتى محمد ﷺ، وهذا يُعمِّق ثقة المسلمين بدينهم أنه أحسن دين، قال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [يوسف: ٤٠].

وبيّنت القصة أيضًا أنَّ أي انحراف عن التوحيد الخالص يُفقد الإنسان صلتَه بالأنبياء، حتى لو كان من صلبهم حقيقة، فهذا إبراهيم عليه السَّلام يتبرّأ من أبيه عندما انحرف عن دين التوحيد: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤]، فكيف بالمنحرفين عن دين إبراهيم عليه السَّلام في الأجيال اللاحقة؟[٢].

وهكذا تكون قصة إبراهيم عليه السَّلام ردًّا على كل مُنحرفٍ عن دين التوحيد كالعرب المشركين واليهود والنصارى، الذين انحرفوا عن رسالة موسى وعيسى عليهما السلام، واستغلُّوا الدين في إضفاء شيء من القدسية عليهم لقيادة البشرية.

(١) قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، ص١٦.

(٢) المرجع نفسه، ص١٦.

ولقد أثبتت قصة إبراهيم عليه السَّلام أن هؤلاء ليسوا على دين إبراهيم، وليس لهم أي صلة به عليه السَّلام؛ لأن الوراثة الحقيقية لإبراهيم هي الوراثة الإيمانية فقط، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨].

٣ ـ عمق العلاقة بين إبراهيم عليه السَّلام والمسلمين:

عمّقت القصة الصّلة بين إبراهيم أبي الأنبياء عليه السَّلام وبين المسلمين أتباع خاتم الأنبياء سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، فذِكرُ إبراهيم في القرآن الكريم تكرَّر تسعًا وستين مرة في خمس وعشرين سورة مكيّة ومدنيّة. ومشاهد قصته موزعة في ثنايا القرآن الكريم على مدى سبعة عشر جزءًا، وهذا يعني أنَّ ذِكر إبراهيم عليه السَّلام حاضرٌ في الذهن لا يغيب عن ذاكرة المسلم أبدًا؛ لأنه رمز من رموز التوحيد، ورمز من رموز الإسلام، وقدوة للمسلمين جميعًا. ويُؤكِّد هذا التَّعقيبُ على قصة إبراهيم عليه السَّلام في سورة الأنعام مخاطبًا محمدًا ﷺ فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وهذا المعنى هو ما قصده القرآن الكريم: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١].

ولقد جاءت الصلاة المكتوبة والنافلة لتُعمِّق هذا المعنى في نفوس المؤمنين، في بدايتها نتوجه للقبلة جهة الكعبة المشرّفة التي بناها إبراهيم عليه السَّلام، وفي خاتمتها في الجلوس الأخير نختم بالدعاء المأثور (الصلاة الإبراهيمية)، وجاءت مناسك الحج لتُعمِّق هذا المعنى أيضًا، ففي بداية المناسك يجب الإحرام الذي من مظاهره التلبية: لبيك اللهم لبيك.. إلخ[1]؛ استجابةً للأذان الذي رفعه إبراهيم عليه السَّلام، مناديًا بالحج كما أمره الله عزّ

---

(١) نص التلبية: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.

وجل: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ [الحج: ٢٧]، وفي ختام المناسك يجب طواف الوداع حول الكعبة المشرّفة التي بناها إبراهيم عليه السَّلام.

هذا بالإضافة إلى المناسك الأخرى في الحج، التي تُذكّرنا بإبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام وزوجه هاجر، كالسعي بين الصفا والمروة، وبئر زمزم، ومقام إبراهيم، والأضحية، وهي قصة الفداء العظيم، وغيرها من المناسك.

كما جاءت الأذكار تذكّرنا بإبراهيم الخليل عليه السَّلام، فعن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**لقيتُ إبراهيمَ ليلةَ أُسري بي، فقال: يا محمَّدُ أقرِئْ أمَّتَكَ منِّي السَّلام، وأخبِرْهُم أنَّ الجنَّةَ طيِّبةُ التُّربةِ، عَذبةُ الماءِ، وأنها قِيعانٌ، وأن غِراسَها سُبحانَ اللهِ، والحمدُ لله، ولا إله إلا الله، والله أكبَرُ**»[1].

٤ ـ صفات الملائكة ووظائفهم:

كشفت لنا قصة الخليل إبراهيم عليه السَّلام عن بعض صفات الملائكة ووظائفهم، و«الإيمان بالملائكة» ركنٌ من أركان العقيدة الإسلامية، وهذه الصفات ظهرت في مشهد ضيوف إبراهيم عندما أتى رسل الله يبشّرون إبراهيم بالغلام العليم «إسحاق» عليه السَّلام ومن ورائه «يعقوب» عليه السَّلام، فالقصة أثبتت أن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون، وعندهم القدرة على التشكّل على صورة إنسان، وهم عباد مُكرَمون، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يُؤمَرون، وغير ذلك من الصفات.

٥ ـ أهمية الحوار والهجرة في الدعوة إلى الله:

استطاعت قصة إبراهيم عليه السَّلام أن تُزوِّدَنا بتجارب قيّمة لإبراهيم في مجال الحوار والدعوة إلى الله، والالتزام بأوامره، فهو القدوة منذ صغره وحتى

---

(١) قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، ص١٧.

الكبر، وأيضًا زودتنا بتجارب قيّمة لآخرين تربَّوْا على يد إبراهيم عليه السَّلام كزوجه وأبنائه، فالقصة أثبتت أن هذه العائلة مباركة، وأنها مدرسة للتربية الإسلامية، لا نستغني عن مناهجها أبدًا في أي تربية إسلامية، وميّزة هذه التجارب أنّها خالصة لوجه الله الكريم، ونابعة من عقيدة ثابتة، وميّزة أخرى: أنّها تجارب متنوعة جرت على أراضٍ مختلفة وفي بيئات مختلفة لشخصية سويّة قدوة للمسلمين، وهكذا تُعمِّق قصة إبراهيم الوعي عند المسلمين، وتزيدهم خبرة في أكثر من مجال.

٦ ـ صلة المسلمين ببيت المقدس:

تُعمّق قصة إبراهيم عليه السَّلام صِلَة المسلمين ببيت المقدس، وتجعله جزءًا من عقيدة المسلمين التي لا يُمكن التنازُل عنها بأي حال من الأحوال، فقد هاجر إبراهيم من العراق إلى بيت المقدس وما حولها واستقرّ فيها، وعاش في ربوعها، ومات ودُفن فيها، ومكان قبره ثابت في مدينة الخليل، ومن فلسطين انطلقت رحلات إبراهيم عليه السَّلام إلى مصر وإلى الحجاز وإلى غيرها من البلدان، وأكثر الرحلات تكرارًا هي رحلاته من فلسطين إلى مكة المكرّمة؛ ليتفقّد ابنَه وزوجَه هناك، وليؤدِّيَ فريضة الحج التي أمره الله بها وأراه مناسكها، فهذه الرحلات المتكرِّرة لإبراهيم عليه السَّلام عمّقت الصلة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى المبارك، بحيث أصبحت جزءًا من عقيدة المسلمين، لا يجوز التنازُل عنها أو التفريط بها أبدًا.

وجاءت حادثة الإسراء والمعراج لسيدنا محمد ﷺ تأكيدًا لهذه الصِّلة مرة ثانية، وتعمَّق هذا المعنى في توجُّه المسلمين في صلاتهم إلى المسجد الأقصى عدة أشهر، فازدادت صلة المسلمين بالمسجد الأقصى، وجاء الفتح العمري لبيت المقدس، وحضرَ عُمرُ رضي الله عنه شخصيًّا لاستلام مفاتيحها؛ وهذا كلُّه أكَّد أهميّةَ بيت المقدس في نفوس المؤمنين، وهكذا تأتي قصة إبراهيم

لتُثبت أن صلة المسلمين ببيت المقدس قديمة جدًّا، وعميقة الجذور في التاريخ الإنساني منذ إبراهيم عليه السَّلام[١].

٧ ـ إثبات أن القرآن الكريم من عند الله :

أثبتت قصة إبراهيم أن القرآن الكريم من عند الله العليم الخبير، ونسجّل بعض الإثباتات ـ على سبيل المثال ـ كما يأتي :

أ ـ عدم تناقض مشاهد قصة إبراهيم رغم اختلاف مواضيع السور التي ذكرتها، ورغم اختلاف الفترة الزمنية التي نزلت فيها، وهذا يدلُّ دلالة واضحة أن القرآن الكريم من عند الله كما قال سبحانه وتعالى : ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء : ٨٢].

ب ـ هذا التناسق العجيب بين كل مشهد من مشاهد قصة إبراهيم وبين السورة التي ذكرته من حيث الموضوع والسّبك في السياق، يؤكد أن القرآن الكريم من عند الله ؛ لأن هذا التناسق ضربٌ من الإعجاز.

ج ـ من خواتيم قصة إبراهيم عليه السَّلام ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج : ٢٧]، وهذه من أواخر المشاهد في حياة إبراهيم عليه السَّلام، وهو مشهد يصلح أن يكون خاتمة فنية للقصة؛ لأنه مشهد قوي ومؤثر، ونهايته مفتوحة تجعل الخيال منشغلاً بشكل مستمر ومتواصل بعد إغلاق الستارة، وهذا ضرب من الإعجاز يؤكد أن القرآن من عند الله، وأيضًا تحقيق ما في الخاتمة من معانٍ، بعد ذلك يُؤكِّد أن القرآن من عند الله : مَن الذي أوصل صوت إبراهيم للناس أجمعين، فجاؤوا ملبّين لهذا النداء في الحج والعمرة من كل فج عميق؟ طبعًا هو الله سبحانه وتعالى، وهذا يؤكِّد أن القرآن من عند الله[٢].

---

(١) قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، ص١٩.

(٢) المرجع نفسه، ص١٩.

٨ ـ الاستفادة من سنن الله وحسن التعامل معها:

أظهرت قصة إبراهيم بعض السنن والقوانين، وعلى سبيل المثال:

* أنَّ تكذيب الأنبياء وتعرُّضهم للابتلاء سنة وقانون.

* أيُّ تضحية في سبيل الله تعوَّض في الدنيا وفي الآخرة.

* أنَّ التمكين في الأرض والنصر لا يأتي إلا بعد الابتلاء والجهد والمعاناة.

وأخيرًا، فإن هذه النقاط الثمانية، لأهمية قصة إبراهيم في القرآن الكريم، ذُكرت على سبيل المثال لا الحصر؛ لأن كل مشهد من مشاهد القصة القرآنية جاء في مكانه ليعالج حالة معينة في واقع الحياة، ويُحقِّق أكثر من هدف وأكثر من مقصد[١].

* * *

سادسًا: الحكمة من توزيع مشاهد قصة إبراهيم عليه السَّلام في أكثر من سورة:

جاءت مشاهد قصة إبراهيم عليه السَّلام مُوزَّعة على عدد كبير من السور المكية والمدنية، وهذا التوزيع لم يأتِ عبثًا، وإنما جاء عن حكمة وعن قصد، نذكر منها ثلاث حكم:

١ ـ كل مشهد من مشاهد قصة إبراهيم يصلح أن يكون قصة وحده، ويُعطي العبرة المناسبة له، ولهذا جاءت مشاهد قصة إبراهيم مُوزَّعة في ثنايا القرآن الكريم بهذه الصورة، على حين نجد مشاهد قصة يوسف عليه السَّلام مجموعة في سورة واحدة؛ لأن هذه المشاهد مترابطة، ولا يمكن فصلُ بعضها عن بعضٍ حفاظًا على الوحدة الموضوعية للسورة.

---

(١) قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، ص١٩.

٢ ـ كل مشهد من مشاهد قصة إبراهيم عليه السَّلام جاء متناسبًا مع السياق الذي وردَ فيه من حيث الموضوع والجوّ العام، فمثلاً في السور المكيّة نجد المشاهد لها علاقة قوية بواقع الحركة الإسلامية، مثل حوار إبراهيم مع أبيه وقومه لإثبات بطلان عبادة الأصنام، وإثبات بطلان عبادة الكواكب والنجوم، وإثبات أن التوحيد هو دين الأنبياء جميعًا، وهذا يعني أن دين محمد ﷺ هو نفسه دين إبراهيم عليه السَّلام، وهذا ردٌّ على العرب في مكة الذين كانوا يزعمون أنهم على دين إبراهيم، وهم يعبدون آلهة أخرى من دون الله كالأصنام والكواكب والنجوم، وفي الوقت نفسه هم يحاربون دين محمد ﷺ.

ونجد أيضًا في السور المدنيّة أن المشاهد لها علاقة بالواقع الجديد مثل تنازع أصحاب الديانات على ورثة إبراهيم، وبناء البيت، والأذان بالحج لإثبات أنّ الوراثة لإبراهيم وراثة إيمانية، وليست وراثة قرابة ودم، فإبراهيم تبرّأ من أقرب الناس إليه، تبرّأ من والده آزر عندما تيقّن من كفره ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]، وعلى هذا فإن إبراهيم عليه السَّلام بريء من كل الأدعياء المنتسبين له كاليهود والنصارى والمشركين ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

٣ ـ تناثر مشاهد قصة إبراهيم في ثنايا القرآن الكريم يشير إلى أن إبراهيم عليه السَّلام رمزٌ من رموز دعوة التوحيد وإفراد الله بالعبادة، ومعلَمٌ من معالم الطريق الحقّ، فينبغي أن يبقى هذا الرمز الداعي إلى التوحيد وإلى عبادة الله ومحاربة الشرك والكفر حاضرًا في الذهن لا ينساه المسلم أبدًا؛ لأنه قدوته ومثله الأعلى، وهذا المعنى قصده القرآن الكريم حين قال سبحانه: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١]، فهذا يشير إلى أن المعلومات

الصحيحة المؤكدة عن إبراهيم هي الواردة في القرآن الكريم(١).

ولا شكّ كذلك فيما صحّ عن نبينا محمد ﷺ من أحاديث صحيحة بيّنت جوانب مشرقة من قصة إبراهيم عليه السَّلام.

إنَّ لإبراهيم عليه السَّلام مكانةً مميزة عند أهل الكتاب، سواءٌ كانوا نصارى أم يهودًا، والذين كان لهم وجود في الجزيرة العربية، سواء عبر وجودهم وإمكاناتهم المادية التجارية المختلفة كاليهود، أم عبر وجود كيانات ودول كبرى تدين بالنصرانية وتجاور الجزيرة «الروم ـ الحبشة»، فاختيار إبراهيم كان يمنح صلة وصل عميقة الجذور لا بالنسب العربي فحسب، بل بالعلاقات بين الأمم، وبالتحديد أمم أهل الكتاب، التي كانت تعدّ نفسَها أرقى من بقية الشعوب الأمِّيَّة التي كان العرب من ضمنها(٢).

ولا ننسى أنَّ العرب ينسبون أنفسهم إلى إبراهيم عليه السَّلام عبر ابنه إسماعيل عليه السَّلام الذي شارك أباه في بناء الكعبة، مَحجّ العرب عبر التاريخ، والنسب عند العرب بالغ الأهمية، حتى إنهم كانوا يعدُّون من لا نسب له ليس عربيًّا. لذلك كان الخطاب القرآني مُهتمًّا بسيرة جدّهم الأكبر إبراهيم عليه السَّلام لترسيخ مفهوم التوحيد، وإفراد الله عزّ وجل بالعبادة والدعوة إلى الإسلام العظيم.

إنَّ قصة إبراهيم عليه السَّلام في القرآن الكريم أصيلة، ولا وجود لها في التوراة أو في الكتابات الإنجيلية، من حيث الدقة والصواب والحقيقة الكاملة البعيدة عن التحريف والتزييف، وهذا زادَها صفاءً ورسوخًا وعمقًا ضمن نسيج

---

(١) قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، ص٢١.

(٢) البوصلة القرآنية، أحمد خيري العمري، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق، ٢٠٠٥م، ص٥٦ ـ ٥٧.

الخطاب القرآني المتميز، فهو كتاب الله العزيز الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وبذلك، حاز إبراهيم الخليل عليه السَّلام في الخطاب القرآني مكانة مميزة، فهو الذي قال فيه الله عزّ وجل:

* ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

* ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١].

* ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

* ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ﴾ [البقرة: ١٢٤].

* ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ﴾ [البقرة: ١٣٠].

* ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥] (١).

إنَّ إبراهيم عليه السَّلام هو خليل الله، وأبو الأنبياء، وباني الكعبة الشريفة، وتميَّز بصفات عظيمة، سيأتي بيانها لاحقًا بإذن الله تعالى.

* * *

سابعًا: مواضع ذكر إبراهيم عليه السَّلام في القرآن الكريم:

تحدثت آيات القرآن الكريم عن سيرة إبراهيم الخليل عليه السَّلام وحياته في أكثر من موضع وسورة، فهو إمام الناس ورسول الله ونبيُّه، فكان في سيرته كثير من الدروس والمعاني الإيمانية التي تدلّنا على الطريق القويم المستقيم، وما هو الدين الحق عند ربّ العالمين.

---

(١) قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، ص٥٧.

١ ـ قصة إبراهيم عليه السَّلام في سورة البقرة:

ذُكرت قصته في ثلاثة مواضع من سورة البقرة:

ـ الموضع الأول:

وردت القصة في الآيات (١٢٤ ـ ١٤١)، وتحدثت عن جعل إبراهيم إمامًا للناس، هو وذُريّتَه الصالحين، وعن جعل مقام إبراهيم الذي عند الكعبة مصلًّى، وعن دعاء إبراهيم وإسماعيل وهما يبنيان بيتَ الله الحرام، وعن دِين إبراهيم وهو يتوجّه بالإسلام لله، وعن وصيته لأولاده بأن يكونوا مسلمين، وألا يموتوا إلا وهم مسلمون.

كما ناقشت الآياتُ اليهودَ والنصارى في زعمهم اتِّباع إبراهيم، وبيّنت أن إبراهيم الخليل عليه السَّلام وكلًّ من جاء بعده من رسل الله هم أصحاب رسالة التوحيد، وأنكرت الآيات على اليهود والنصارى جدالهم وحججهم في إبراهيم، ونفت الآيات عن إبراهيم ومَن أتى بعده من الرسل كونهم يهودًا أو نصارى، وسجَّلت أنهم كانوا مسلمين، وجرّدت اليهود والنصارى من الانتساب لإبراهيم عليه السَّلام.

ـ الموضع الثاني:

وردت القصة في الآية (٢٥٨) من السورة، وتحدثت عن المواجهة بين إبراهيم عليه السَّلام وبين الملك الظالم الذي ادّعى الألوهية، حيث أخبره إبراهيم أن الله هو الذي يحيي ويميت، فادّعى الملك قُدرتَه على الإحياء والإماتة، فتحدّاه إبراهيم بتغيير مسار الشمس، والإتيان بها من المغرب، فبُهت ذلك الملك الكافر.

ـ الموضع الثالث:

وردت القصة في الآية (٢٦٠) من السورة، وتحدثت عن طلب سيدنا إبراهيم عليه السَّلام من ربِّه، بأن يُريه كيف يُحيي الموتى، وليس هذا شكًّا منه

في قدرة الله، ولكن ليطمئن قلبه، فأخذ أربعة طيور، وجعل على كل جبل جزءًا منهنَّ، ثم دعاهنَّ إليه، فأتَيَنَهُ سعيًا(١).

٢ ـ ذكرُ إبراهيمَ عليه السَّلام في سورة آل عمران:

لم تذكر سورة آل عمران مشاهد أو محطات من قصة إبراهيم عليه السَّلام، وإنما تحدَّثت عن حقيقة الانتساب إليه، وحقيقة الدين الذي كان عليه.

ولقد نزلت سورة آل عمران في جدال اليهود والنصارى والعرب المشركين، وبيَّنت بأن لا صلة لهم تربطهم بإبراهيم عليه السَّلام:

* تشير آيات سورة آل عمران إلى اصطفاء الله لآل إبراهيم وآل عمران على العالمين (الآية رقم ٣٣).

* وترفض الآيات انتساب اليهود والنصارى لإبراهيم (الآية رقم ٦٥).

* وتبيّن أنه كان حنيفًا مسلمًا ولم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا ولا مشركًا (الآية: ٦٧).

* وتقرَّر أن أولى الناس بإبراهيم هم الذين آمنوا به من قومه، ثم محمد ﷺ وأمته (الآية: ٦٨).

* تأمر الآيات اليهود والنصارى باتِّباع مِلَّة إبراهيم، والدخول في الإسلام، وتُشير إلى بناء إبراهيم عليه السَّلام الكعبة، لتكون أول بيت وُضع لعبادة الله في الأرض، وتذكر مقام إبراهيم عند البيت الحرام، وتأمر المسلمين بالحجِّ إلى البيت الحرام، واتّخاذ المقامِ مُصلّى، وهذا في الآيات (٩٥ ـ ٩٧) (٢).

---

(١) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٣٠٥).
(٢) المرجع نفسه، (١/ ٣٠٦).

٣ ـ ذكرُ إبراهيمَ عليه السَّلام في سورة الأنعام:

تحدّثت سورة الأنعام عن قصة إبراهيم عليه السَّلام في آياتها من الآية (٧٤) وحتى الآية (٨٦).

وعرضت الآيات في سورة الأنعام جانبًا من الحوار بين إبراهيم عليه السَّلام وبين أبيه، وهو يُنكر على أبيه عبادة غير الله، ثم تحدثت الآيات عن مشهد الحِجاج والجدال بين إبراهيم وبين قومه، عندما أبطل لهم ـ بالمنطق الجدلي البرهاني ـ كون الكواكب آلهة، وأعلن لهم إيمانه بالله وبراءته مما يعبدون، ثم أشارت الآيات إلى الأنبياء من ذُريّته، وتشير السورة في آياتها الأخيرة إلى حقيقة مِلَّة إبراهيم وهي الحنيفية في الآية (١١٦).

٤ ـ ذكرُ إبراهيمَ عليه السَّلام في سورة هود:

تحدّثت سورة هود عن قصة إبراهيم عليه السَّلام في آياتها (٦٩ ـ ٧٦)، وأشارت هذه الآيات إلى قدوم الملائكة إلى إبراهيم عليه السَّلام في صورة بشر، وهو لا يعرفهم، وعدم أكلهم من طعامه الذي قدَّمَه لهم، لأنهم ملائكة، وبشارتهم لإبراهيم وزوجه سارة بإسحاق، ورَدِّهم على تعجُّب سارة واستغرابها، ثم إخبارهم إبراهيم بمهمتهم في تدمير قوم لوط الظالمين، وأخبرتنا الآيات عن مفتاح شخصية إبراهيم الذي ينطبق على كل مشهد أو لقطة من قصته: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥].

٥ ـ ذكرُ إبراهيمَ عليه السَّلام في سورة إبراهيم:

تحدّثت سورة إبراهيم ـ التي تحمل اسمه عليه الصلاة والسلام ـ عن مشهد من قصته، وذلك في آياتها (٣٥ ـ ٤١)، وبيَّنت هذه الآيات كيف ترك إبراهيم عليه السَّلام ابنَه إسماعيلَ وأمَّهُ في وادٍ غير ذي زرع في الحجاز، ودُعاءَه ربّه أن يجمع الناس حولهما، وأن يرزقهما من الطيبات، وأن يحفظه هو وبنيه من

عبادة الأصنام، وعن شكره لله على ما أنعم عليه من النعم، ومنها إنجابه إسماعيل وإسحاق عليهما السلام[١].

٦ ـ ذكرُ إبراهيمَ عليه السَّلام في سورة الحجر:

تحدثت سورة الحجر عن قصة إبراهيم عليه السَّلام، وذلك في آياتها (٥١ ـ ٦٠)، وأشارت هذه الآيات إلى قدوم الملائكة إليه في صورة بشر، وما بشَّروه به من الولد، وما أخبروه من توجُّههم إلى تدمير قوم لوط.

٧ ـ ذكرُ إبراهيمَ عليه السَّلام في سورة مريم:

تحدثت سورة مريم عن قصة إبراهيم عليه السَّلام، وذلك في آياتها (٤١ ـ ٥٠)، وأشارت هذه الآيات إلى دعوته لأبيه، كي يتخلّى عن الكفر بالله ويدخل في دين الله، وتحدَّثت أيضًا عن رفض أبيه لهذه الدعوة، واعتزال إبراهيم عليه السَّلام لقومه، وإنعام اللهِ عليه بأن وهبه إسحاق ثم يعقوب عليهما السلام.

٨ ـ ذكرُ إبراهيمَ عليه السَّلام في سورة الأنبياء:

تحدثت سورة الأنبياء عن قصة إبراهيم عليه السَّلام وذلك في آياتها (٥١ ـ ٧٣)، وأشارت هذه الآيات إلى إنكار إبراهيم عليه السَّلام على أبيه وقومه عبادةَ غير الله، ودعوتهم إلى الإيمان بالله، وتحطيمه أصنامهم، ومحاكمته على أعين الناس، ونجاح إبراهيم في إفحامهم، وإقامة الحجة عليهم أثناء المحاكمة، ولجوئهم إلى إحراقه بالنار بعد هزيمتهم أمام حجته، وإنجاء الله له من النار، وخروجه مع لوط إلى الأرض المباركة فلسطين، وتفضُّل الله عليه بأن وهبه إسحاق ثم يعقوب عليهما السلام.

٩ ـ ذكرُ إبراهيمَ عليه السَّلام في سورة الحج:

تحدثت سورة الحج عن قصة إبراهيم عليه السَّلام في الآيات (٢٦ ـ ٢٩)،

---

(١) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٣٠٧).

حيث عرضت هذه الآيات لقطة من قصته، تُناسب موضوع السورة وهو الحجّ والمناسك والهدي والبيت الحرام والنَّحر.

وأشارت الآيات في سورة الحجِّ إلى تشييد إبراهيم عليه السَّلام بيت الله الحرام وتجهيزه وتطهيره للعبادة، وأذان إبراهيم بالحج، ودعوته الناس ليحجّوا ويؤدُّوا المناسك، ويُعظِّموا شعائرَ الله.

وفي الآية الأخيرة من السورة (الآية: ٧٨) تذكير للمسلمين بالواجب الذي أوجبه الله عليهم، وبيان ارتباطهم بأبيهم إبراهيم عليه السَّلام، وأنه هو الذي أطلق عليهم اسم «المسلمين».

١٠ ـ ذكرُ إبراهيمَ عليه السَّلام في سورة الشعراء:

تحدثت سورة الشعراء عن قصة إبراهيم عليه السَّلام وذلك في آياتها (٦٩ ـ ٨٩)، وأشارت الآيات إلى رفض إبراهيم لكفر أبيه وقومه، ودعوته لهم إلى الدخول في دين الله، وبراءته مما يعبدون من دون الله، وتوجُّهه إلى الله، ونظرِه لليوم الآخر ودعائِـهِ؛ ليكون من الناجين الفائزين في ذلك اليوم.

١١ ـ ذكرُ إبراهيمَ عليه السَّلام في سورة العنكبوت:

تحدثت سورة العنكبوت عن قصة إبراهيم عليه السَّلام وذلك في آياتها (١٦ ـ ٢٧)، وأشارت هذه الآيات إلى دعوة إبراهيم قومَه لعبادة الله وحده، وإنكاره عليهم عبادةَ غيره، ثم تعريفهم ببعض صفات الله تعالى وأفعاله، كما بيّنت الآياتُ ردَّ قومه على حسن دعوته بتهديدهم إيّاه بالقتل أو الحرق، ونجاته من كيدهم، ثم هجرته مع نوح إلى فلسطين، وإنعام الله عليه بأن رزقه بإسحاق ثم يعقوب عليهما السلام.

١٢ ـ ذكرُ إبراهيمَ عليه السَّلام في سورة الصافات:

تحدثت سورة الصافات عن قصة إبراهيم عليه السَّلام وذلك في آياتها (٨٣ ـ ١١٣)، وأشارت هذه الآيات إلى تمتُّع إبراهيم بقلب سليم، وإلى إنكاره

على قومه عبادة الأصنام، وتحطيمه أصنامهم، ومحاولتهم إحراقه وإنجاء الله له من النار، وولادة إسماعيل له، ورؤياه يذبح ابنه، واستسلامه مع ابنه لله، وتبشيره بابنه الأخير إسحاق نبيًّا، ومباركة الله للمحسنين الصالحين من أبناء إسحاق دون الظالمين منهم[١].

١٣ ـ ذكرُ قصةِ إبراهيمَ عليه السَّلام في سورة الذاريات:

تحدثت سورة الذاريات عن قصة إبراهيم عليه السَّلام وذلك في آياتها (٢٤ ـ ٣٤)، حيث أشارت هذه الآيات إلى قدوم الملائكة ضيوفًا عنده، وبشارتهم له ولزوجه بولادة إسحاق، وردّ الملائكة على استغراب زوجه وتعجُّبها، وإخبارهم لإبراهيم عن توجُّههم لتدمير قوم لوط.

١٤ ـ ذكرُ إبراهيمَ عليه السَّلام في سورة الممتحنة:

تحدثت سورة الممتحنة عن قصة إبراهيم عليه السَّلام في آياتها (٤ ـ ٦)، وتحدثت الآيات عن موقف إيماني عظيم لإبراهيم وأتباعه المؤمنين، ألا وهو براءتهم من قومهم الكفار، وإعلان العداوة والبغضاء لهم، حتى يؤمنوا بالله وحده، ودعت المؤمنين إلى الاقتداء بإبراهيم واتباعه في هذا الموقف، وبيّنت حقيقة موقف إبراهيم عليه السَّلام من أبيه.

ويمكننا القول: إنَّ قصة إبراهيم عليه السَّلام ذُكرت متعاقبة في القرآن الكريم في مواضع عدة؛ لتكون أحداثها ومشاهدها عبرة وعظة لكل مؤمن، بدءًا من سورة البقرة، ومن ثم آل عمران، والأنعام، وهود، وإبراهيم، والحجر، ومريم، والأنبياء، والحج، والشعراء، والعنكبوت، والصافات، والذاريات، وفي سورة الممتحنة وغيرها[٢].

---

(١) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٣٠٩).
(٢) المرجع نفسه، (١/ ٣١٠).

١٥ ـ ذكرُ إبراهيمَ عليه السَّلام في سور أخرى في القرآن الكريم:

يوجد سور أخرى فيها إشارات وومضات من قصة إبراهيم عليه السَّلام، ومنها:

سورة النساء: الآية (١٢٥) فيها الثناء على مَن اتَّبع مِلَّةَ إبراهيم حنيفًا، والإشارة إلى اتخاذ الله إبراهيم خليلاً.

سورة التوبة: الآية (١١٤) فيها بيان حقيقة استغفار إبراهيم عليه السَّلام لأبيه، وبراءة إبراهيم من أبيه لمّا تبيّن له أنه عدو لله.

سورة النحل: الآية (١٢٠) فيها الإخبار بأن إبراهيم كان أُمةً قانتًا لله حنيفًا، وما كان من المشركين، والآية (١٢٣) فيها الأمر باتِّباع مِلَّة إبراهيم عليه السَّلام.

سورة الزخرف: الآية (٢٦) فيها الإخبار ببراءة إبراهيم عليه السَّلام من قومه الكافرين.

سورة الحديد: الآية (٢٦) فيها الإشارة إلى نبوّة نوح وإبراهيم عليهما السلام، وجعل النبوّة والرسالة في ذُريّتهما.

وهناك سور اكتفت بذكر إبراهيم عليه السَّلام في سياق ذكر أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام، أو في سياق الثناء على بعض مواقفهم، ومنها سورة يوسف، والأحزاب، وص، والشورى، والنجم، والأعلى(١).

وقد ذُكر إبراهيم الخليل عليه السَّلام في القرآن الكريم تسعًا وتسعين مرة في خمس وعشرين سورة، وثلاث وستين آية(٢).

ولم يذكر القرآن الكريم مكان أو زمان ولادة خليل الرحمن عليه السَّلام،

---

(١) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٣١١).

(٢) رسالة الأنبياء من شعيب إلى عيسى، عمر أحمد عمر، (١/ ١٨١).

ولا وصفًا لطفولته ونشأته، وقد اختُلف في الموضع الذي وُلد فيه، وقد بيَّنتُ خلاف المؤرِّخين في ذلك[١].

وذكر النسفيّ أنه كان بين نوح وإبراهيم (٢٦٤٠) سنة، وذكر الثعلبي أن ولادة إبراهيم بعد الطوفان بـ (١٢٦٣) سنة، وبعد خلق آدم بـ (٣٣٣٧) سنة.

ويبدو أن التواريخ المذكورة في التوراة، والتي نقلها الأقدمون عنها ليست دقيقة، ولا يتفق بعضها مع بعض.

وقد رجَّح الأستاذ عباس محمود العقاد[٢] ـ رحمه الله ـ أن إبراهيم عليه السَّلام عاش بين القرن العشرين والقرن السابع عشر قبل الميلاد، كما ذكرنا سابقًا، وهو ما دلّت عليه الحفريّات، وما تضمَّنته كتبُ التاريخ والعهد القديم[٣].

* * *

(١) رسالة الأنبياء من شعيب إلى عيسى، عمر أحمد عمر، (١/ ١٨٣).

(٢) إبراهيم أبو الأنبياء، عباس محمود العقاد، ص٢٣، ٦٨، ٩٩، ١٦٦، ٢٠٧، ٢٣٤.

(٣) العقيدة الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم للطباعة والنشر، بيروت ـ دمشق، ط٢، ١٩٧٩م، ص٥١٩.

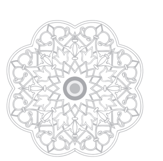


الفصل الثاني

قصة إبراهيم عليه السَّلام في سور الأنعام، ومريم، والأنبياء، والشعراء، والعنكبوت، والصافات

- المبحث الأول: قصة إبراهيم عليه السَّلام في سورة الأنعام، وحواره مع والده وقومه عن عبادة الكواكب والنجوم.
- المبحث الثاني: قصة إبراهيم عليه السَّلام في سورة مريم عليها السلام وحواره مع والده.
- المبحث الثالث: قصة إبراهيم عليه السَّلام في سورة الأنبياء، وحواره مع والده وقومه من عبدة الأوثان.
- المبحث الرابع: قصة إبراهيم عليه السَّلام في سورة الشعراء.
- المبحث الخامس: قصة إبراهيم عليه السَّلام في سورة العنكبوت.
- المبحث السادس: قصة إبراهيم عليه السَّلام في سورة الصافات.

* * *

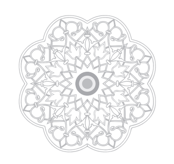


تَمْهِيد

نحاول في هذا الفصل تسليط الضوء على مرحلة الدعوة إلى الله عزّ وجل، والإيمان به، وحوار إبراهيم مع أبيه وقومه، ومناظراته، وقوّة حجّته، وما تعرّض له من ابتلاء وهجرة ومِحَن.

وفي هذه المرحلة كان إبراهيم قد آتاه الله رشده، ووصل إلى مرتبة اليقين، وتوجَّه اهتمامُه إلى هداية أبيه وقومه بأرض العراق.

❊ ❊ ❊



المبحث الأول

قصة إبراهيم عليه السَّلام في سورة الأنعام
وحواره مع والده وقومه عن عبادة الكواكب والنجوم

قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى

بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧٤ ـ ٩٠].

حازت شخصية إبراهيم الخليل عليه السَّلام مكانًا بارزًا في الخطاب القرآني؛ فهي شخصية مركزية بين جميع الرسل الذين ذُكروا في القرآن الكريم، ولعلَّ هذا الاهتمام بشخصيته يرجع إلى مكانته لدى مختلف الطوائف والنِّحَل، فالمشركون وأهل الكتاب من اليهود والنصارى يعترفون بفضله، ويتشرّفون بالانتساب إليه(١).

فهو واحد من أهم الشخصيات في التاريخ الديني، حتى إن علم الأحافير لم يحرص في البحث عن تاريخ أحد، كما حرص على البحث عن تاريخ إبراهيم عليه السَّلام(٢).

وجاءت في سورة الأنعام مشاهد من قصة إبراهيم عليه السَّلام في مناظراته لعبدة الكواكب والقمر والشمس، وهي القصة الوحيدة في سورة الأنعام التي اهتمّت بردِّ الشبهات وإقامة الحجج لإلزام المشركين، بل لإلزام أولئك الذين يجحدون الحق في شأن الألوهية والرسالة في كل زمان ومكان. ومن هنا فليس عجيبًا ألا يُذكر في سورة الأنعام أيُّ قصة من قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولكن الخبر الوحيد الذي ذُكر في هذه السورة هو خبر إبراهيم عليه السَّلام، وقد ذُكرت هذه القصة من الجهة التي يعالجها موضوع السورة، وهو إقامة البراهين على وحدانية الله تبارك وتعالى، وإبطال كل ما يُعبد من دونه،

(١) رسالات الأنبياء «دين واحد وشرائع عدة»، عبد الرحمن حللي، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، ط١، ٢٠١٥م، ص٧٣.
(٢) المرجع نفسه، ص٧٣.

هكذا جاءت قصة إبراهيم عليه السَّلام في سورة الأنعام، وغرضها إقامة الحجة على أولئك الذين يدّعون أنهم على دين إبراهيم عليه السَّلام، ومع ذلك يعبدون الأصنام ويستهجنون أمر التوحيد، وهكذا بدأت قصة إبراهيم عليه السَّلام فهو يُنكِر على أبيه آزر أن يتخذ أصنامًا آلهة، كما يُنكر على قومه عبادةَ غير الله تعالى[١].

مثَّلت قصة إبراهيم الخليل عليه السَّلام في سورة الأنعام أحداثًا متّسقة مع موضوع السورة الكريمة؛ وذلك لأن سورة الأنعام هي سورة الحجج والأدلة على العقيدة الصحيحة، وكما قلت من قبل، فإن قصة إبراهيم هي القصة الوحيدة من قصص الأنبياء التي ذُكرت في هذه السورة، وفيها الحجّة الدّامغة على أولئك الذين انحرفوا عن مِلَّة إبراهيم عليه السَّلام، فجلبوا الأصنام للبيت الذي بناه.

إنَّ هذه الآيات الكريمة ـ كما حدثتنا عنها سورة الأنعام ـ نجد في آخرها بعد ذكر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بيانًا شافيًا كافيًا تامًّا كاملاً، بأن أولئك هم الذين آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة، وهناك من أبى من أقوامهم إلا الكفر، ولكن هناك مَن أكرمهم الله بالإيمان، وهم الذين هداهم الله تبارك وتعالى، فبهداهم يُقتدَى ويُهتدَى.

ولا بُدَّ من أن ننبّه هنا إلى أنه قد وردت أقوال كثيرة في تفسير هذه الآيات يُفهم منها أن إبراهيم عليه السَّلام كان جادًّا حينما قال عن كلٍّ واحد من هذه الكواكب: هذا ربّي، وإننا نُجِلُّ شيخ الحنفاء وأبا الأنبياء (عليه الصلاة والسلام) عن مثل هذه الأقوال، وهي مما حُشيَت بها الكتب ـ للأسف ـ فينبغي أن نبتعد بها عن الآيات الكريمة تفسيرًا وشرحًا، فهو حين قال عن الكوكب

(١) قصص القرآن الكريم، فضل حسن عباس، دار النفائس للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط٣، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠١٠م، ص٢٨٩.

والقمر والشمس: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾، إنما قال ذلك منكِرًا على قومه ساخرًا منهم، وليس صادرًا عن اعتقاد وإيمانٍ(١).

ونحن نرى الخليل عليه السَّلام يستدرجهم إلى التفكير فيما يعبدون، ويترقّى معهم من معبود إلى آخر أعظم منه وأروع، فمال من معه من القوم إليه وأنصتوا لقوله ثلاث مرات: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ ﴿هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ﴾، وهو يُشير مرة إلى الكوكب، ومرة إلى القمر، ومرة ثالثة إلى الشمس، ولكننا نراه عليه السَّلام في كل مرة يكشف لهم عيبًا في هذه الأرباب التي تغيب، فهي لا تصلح أن تُعبد، وعن طريق خفيّ ينقض عليه السَّلام في كل مرة ما قاله عن كل كوكب، ويُقرِّر أخيرًا أنَّ الكوكب والقمر والشمس لا يمكن أن تكون أربابًا، ولا تصلح أن تُعبد مع الله عزّ وجل.

وفي ختام المناظرة يُعلن الخليل عليه السَّلام أنه بريء مما يشركون، ويُقرِّر أنه لن يتوجَّه بالعبادة إلا إلى الله وحده الذي فطر السماوات والأرض، فهو الدائم الباقي بلا زوال، لا إله إلا هو ولا ربّ سواه ولا شريك له.

فحذار حذار ـ أيّها القرّاء الأكارم ـ أن يظنَّ ظانٌّ أن سيدنا إبراهيم عليه السَّلام كان في حِيرة من أمره أو في شكّ من ربّه، وكيف تقع منه حيرة، وقد آتاه الله رشده من قبل، كما قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١]!؟

وكيف يحدث عنده شكٌّ، وقد أراه الله ملكوت السماوات والأرض، فزاد عنده اليقين رسوخًا، وهو ما جاء في مطلع الآيات: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]!؟

وقد جاء في تفسير البحر المحيط قول مجاهد رحمه الله: «فُرِجت لإبراهيم السماوات والأرض، فرأى ببصره الملكوت الأسفل، أي: أظهر الله سبحانه

(١) قصص القرآن الكريم، فضل حسن عباس، ص١٩١.

وتعالى للخليل عليه السَّلام بعض أسرار ملكوته الدالة على ربوبيته ووحدانيته، وليكون من أهل اليقين الراسخين في الإيمان» [١].

إذ لا يُعقَل أيها الإخوة العقلاء أن يحار الخليل إبراهيم عليه السَّلام في شأن العقيدة، فيقول حقيقة لكوكب أو قمر أو شمس: ﴿هَٰذَا رَبِّيۖ﴾، ولكن قوله هذا إنما هو طريقة عقلية في الاحتجاج، وبراعة منطقية في المناظرة، يفترض صحة ما يقوله خصمه؛ ليستنتج من ذلك الدليل على بطلانه، وإنّ من أبلغ الحجج وأقوى البراهين أن توافق الخصم في العبارة على طريق الإلزام.

وحسبنا دليلاً على براءة إبراهيم عليه السَّلام من الحِيرة والشكِّ، وعلى اتخاذ قوله الأول حُجة على خصومه، ما قاله الله تعالى في ختام هذه الآيات من سورة الأنعام: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣]، وقد قال ابن كثير رحمه الله: فالمقام هنا مقام المناظرة لا مقام النظر، وحاشا للخليل عليه السَّلام أن يشكَّ في الربِّ الجليل تبارك وتعالى، وهو أبو الأنبياء وإمام الحنفاء.

وهذا الرأي في مقصد إبراهيم الخليل عليه السَّلام، وقوله: ﴿هَٰذَا رَبِّيۖ﴾؛ هو الذي أثبته جمهور المفسرين قديمًا وحديثًا جزاهم الله خير الجزاء[٢]، ومن هؤلاء المفسرين: البغوي، والزمخشري، والرازي، وابن كثير، وأبو السعود، والطاهر بن عاشور، والسعدي، والقاسمي، ومحمد رشيد رضا، والشنقيطي وغيرهم[٣].

❊ ❊ ❊

---

(١) البحر المحيط في التفسير، أبو حيّان الأندلسي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ، (٤/ ١٦٥).

(٢) من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين (آدم ونوح وإبراهيم)، محمد فؤاد سندي، مكتبة الملك فهد الوطنية، السعودية، ط١، ٢٠٠٢م، ص١٦٥.

(٣) صناعة الحوار «مقاربة تداولية جمالية لحوارات سيدنا إبراهيم عليه السلام في القرآن=

أولاً: قوله تعالى ﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤]:

١ ـ **قال أبو حيان**: كان تذكير أهل مكة بقصة إبراهيم مع أبيه وقومه أنسَبَ لرجوع العرب إليه، إذ هو جدّهم الأعلى، فذُكِّروا بأن إنكار النبي محمد ﷺ عليكم عبادة الأصنام هو مثل إنكار جدِّكم إبراهيم على أبيه وقومه عبادتها، وعلى ذلك التنبيهُ في اقتفاء من سلفَ من صالحي الآباء والأجداد، وكذلك سائر الطوائف معظمون لإبراهيم الخليل عليه السَّلام[(١)].

٢ ـ **قال الطبري**: يقول سبحانه وتعالى لنبيه محمد ﷺ: واذكر يا محمد لحِجاجك الذي تُحاجِجُ به قومَك، وخصومتك إياهم في آلهتهم وما تراجعهم فيها، مما نلقيه إليك من البرهان والدلالة على باطل ما عليه قومك، وصحة ما أنت مقيمٌ عليه من الدين، وحقيقة ما أنت مستمدٌّ له من حِجاج إبراهيم لقومه، ومراجعته إياهم في باطل ما كانوا عليه مقيمين من عبادة الأوثان، وانقطاعه إلى الله، والرضا به وليًا وناصرًا دون الأصنام، فاتَّخِذْه إمامًا واقْتدِ به، واجعل سيرته في قومك لنفسك مثالاً، وذلك في قوله تعالى ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، وهذا خبر من الله تعالى عن قول إبراهيم لأبيه آزر ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾؛ أي هل تعبدُها وتتَّخِذُها ربًّا من دون الله الذي خلقك فسوّاك ورزقك.

= الكريم»، حمد عبد الله السيف، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١٥م، ص٥٠.

(١) البحر المحيط في التفسير، أبو حيّان الأندلسي، (٤/١٦٨). وهنا الأصنام معناها: جمع صنم، وهو الجثة المتخذة من خشب أو حجر أو نحاس، فتعبد متقربًا بها إلى الله تعالى. قال ابن عرفة: كل ما اتُّخذ له صورة فهو صنم، وإن لم يكن له صورة فهو وثن، يُنظر: التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، مكتبة المشكاة الإسلامية، لبنان، ١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م، (١٠/٢٩١).



وأردف قائلاً: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، أي إني أراك يا أبي وقومك الذين يعبدون معك الأصنام، ويتخذونها آلهة في ضلال وغواية، وعدول عن سبيل الصواب، ﴿مُّبِينٍ﴾: يتبين لمن أبصره أنه جور عن قصد السبيل، وزوال عن الطريق القويم(١).

٣ ـ **قال ابن كثير**: والمقصود أنَّ إبراهيم عليه السَّلام وعظ أباه في عبادة الأصنام، وزجره عنها، ونهاه فلم ينتهِ، كما قال: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ أي: أتتألَّهُ لصنَمٍ تعبده من دون الله؟ ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ﴾ أي: السالكين مسلكك ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: تائهين لا يهتدون أين يسلكون، بل في حيرة وجهل، وأمرُكم في الجهالة والضلال بيّن واضح لكل ذي عقل صحيح(٢).

٤ ـ **قال عبد الحميد طهماز** في قول الله تعالى ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾: هو استفهام تعجُّب واستنكار، وكلمة ﴿أَتَتَّخِذُ﴾ تدل على أن أباه كان يصنع الأصنام بيده، وقد جاء في الأخبار أنه كان صانع أصنام، ويبدو أنَّ إبراهيم عليه السَّلام أغلظ الخطاب لوالده بعدما رأى إصراره على الكفر وشدة العناد. وقد تلطَّف إبراهيمُ عليه السَّلام كثيرًا في دعوته لأبيه، مع أنه لقي منه جفوة وغلظة وعنادًا، وقد ظهر ذلك مفصّلاً في سورة مريم، وسيأتي الحديث عن قصته هناك بإذن الله تعالى بالتفصيل.

وفي قوله تعالى ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في حيرة وجهل ظاهر، وتعكس لنا كلمة الخليل إبراهيم عليه السَّلام هذه قوةً مُستمَدّةً من إيمانه بالله عزَّ وجل، واعتزازه بعقيدته، وحُسن توكله على ربّه، مع أنه انفرد بهذه

---

(١) تفسير الطبري «جامع البيان في تأويل القرآن»، (٧/ ٢٤٢ ـ ٢٤٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، ابن كثير، تحقيق: يوسف علي بديوي، حسن سويدان، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط١، ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م، (٣/ ٢٨٣).

العقيدة دون أهله وقومه، فهو يرى أن أباه وقومه في ضلال ظاهر واضح(١).

* * *

ثانيًا: قوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]:

تشير الآية الكريمة إلى أن تدبُّر الإنسان في الكون، أي في خلق السماوات والأرض، إنما هو وسيلة من وسائل التعرُّف على خالقهما وخالقه، وهو تعالى خالق كل شيء، وكل شيء مخلوق بأمره. وتكفي هذه الإشارة إلى أن كبار علماء الفلك المعاصرين، يُقرِّرون بأن كوننا الشاسع الاتساع، الدقيق البناء، والمنضبط الحركات، المحكم الجزئيات والكليات، لا بُدّ له من مرجعية في خارجه يسمّونها نقطة مرجعية، وهذه المرجعية العليا لا بُدّ أن تكون مغايرة للكون بكل ما فيه ومَن فيه مُغايَرةً كلِّية، فلا يحدّها أيٌّ من أبعاد المكان أو الزمان، ولا يشكّلها أيٌّ من صور المادة أو الطاقة، وكأنهم ينطقون بالحق الذي أنزله ربنا ـ تبارك وتعالى ـ عن ذاته العليّة بقوله العزيز ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] (٢).

١ ـ ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ :

أي: نُبيِّن لإبراهيم ونُريه بعض أسرار الوجود، التي تنطق عن عظمة اللهِ ووحدانيته، وهذه الأسرار يتَّخذها إبراهيم عليه السلام حجةً لإثبات الحقّ، ودحض الباطل.

﴿مَلَكُوتَ﴾: بمعنى: الملك، وزيدت الواو والتاء للمبالغة، فزيادة المبنى

---

(١) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، نخبة من كبار علماء القرآن وتفسيره بإشراف الأستاذ الدكتور مصطفى مسلم، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي، جامعة الشارقة، الإمارات العربية، ٢٠١٠م، (٢/ ٤٦٢).

(٢) من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي، د. زغلول النجار، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١٣م، (١/ ٣٠٣).

تدل على زيادة في المعنى، فكأن الله هدى إبراهيم عليه السَّلام إلى مشاهدة النواميس الدقيقة المبثوثة في الكون، التي تدلّ على وحدة خالقها ومبدعها جلّ جلاله. فهي رؤية بالبصر والبصيرة، يستطيع كل إنسان أن يُحصِّل شيئًا منها إذا أحسن استعمال عقله وسمعه وبصره. ولهذا أمرنا الله تعالى بها في عدة آيات كريمة منها قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، فرؤية الملكوت للاستدلال بما فيه من حكم ونواميس وبصائر على وحدانية الله الخالق سبحانه، ليست خاصة بإبراهيم عليه السَّلام[١].

ونستطيع أن نؤكد أن رؤية إبراهيم عليه السَّلام لملكوت السماوات والأرض أكمل من رؤية غيره؛ بسبب المواهب الفكرية الكبيرة التي أكرمه الله تعالى بها. فالأنبياء عليهم السلام أكمل الناس عقولاً وأصحّهم أجسامًا، فما بالك بإبراهيم عليه السَّلام خليل ربّ العالمين، وإمام الموحّدين؟! وقد أخبرنا سبحانه وتعالى أنه أكمل عقله وآتاه رشده منذ نعومة أظفاره: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١] [٢].

وقال العلاّمة الشيخ محمد متولي الشعراوي في معنى «ملكوت»، بأنّها صيغة المبالغة في الملك، مثلها مثل «رَحَمُوت»، وهي صيغة مبالغة من الرّحمة، فكلمة الملكوت حسب تفسيره، تعطينا فهم الحقائق غير المشهودة، فالذي يمشي وراء الأسباب المشهودة له يأخذ الملك، لأن ما يشهده ويحسّه هو أمامه، والملكوت هو ما يغيب عنه، وهو فيه «مُلك»، وفيه «مَلَكُوت».

فالملك هو ما تُشاهده أمامك، والملكوت هو ما وراء هذا الملك[٣].

---

(١) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٢/ ٤٦٣).
(٢) المرجع نفسه، (٢/ ٤٦٣).
(٣) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم، القاهرة، ٢٠١٣م، (٦/ ٣٧٣٩).

وكل من يخلص في الارتباط بخالقه يعطيه ربنا عطاءاتٍ من أسرار كونه[١].

إنَّ إبراهيم عليه السَّلام بما أعطاه الله تعالى من الهدى ونور الإيمان والفطرة السليمة والبصيرة المفتوحة، والإخلاص لله عزّ وجل، وتصدّيه للباطل، فتح الله له الأسرار المكنونة في صميم الكون، وكشف له عن الآيات المبثوثة في صحائف الوجود، وفي المقابل حقَّق التوحيد، وأفرد الله تعالى بالعبودية.

وقال الطبري رحمه الله: عنى الله تعالى بقوله ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾، أنه أراه مُلك السماوات والأرض، وما خلق فيهما من الشمس والقمر والنجوم والشجر والدواب وغير ذلك، وجلّى له بواطن الأمور وظواهرها[٢].

وذكر الأستاذ البهي الخولي: أن هناك مفهومين في ملكوت السماوات والأرض، وهما:

المفهوم الأول:

وهو الملكوت بمعناه الحسّي، وهو ما يشهده الحسّ في السماوات والأرض من خلق الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب، وما إلى ذلك من خلائق كثيرة ندركها هنا وهناك بالحسّ المجرّد، أو بالوسائل العلمية.

والملكوت بهذا المفهوم الحسّي يُطلق على كل ما يشمل ملك الله من تلك الخلائق الحسّية العجيبة على كثرتها وتعدُّد أجناسها، وأنواعها وصنوفها، وقوانين حركتها وتركيبها ونموها، وتسخيرها ومنافعها، وامتداد آفاقها في الفضاء الكوني إلى ما لم يبلغه علم العلماء إلى الآن[٣].

---

(١) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (٦/ ٣٧٤٢).

(٢) قصص الأنبياء، مصطفى العدوي، مكتبة مكة، طنطا، مصر، ط١، ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م، (٢/ ٧٩).

(٣) بنو إسرائيل في ميزان القرآن، البهي الخولي، دار القلم، دمشق، ط١، ٢٠٠٣م، ص: ٤٦ ـ ٤٩.

المفهوم الثاني:

هو دلالة ذلك الملك الحسّي على المالك تعالى، وما تفتحه تلك الدلالة من آفاق معرفته، فإنّ هذا الملك الحسّي حين يبدو للفكر لا للحسّ لا يشهد فيها جرمًا ولا صوتًا، ولا طعمًا ولا خاصة من خواص المادة، وإنما ينظر أمرًا معيَّنًا محضًا هو الرابطة الحتمية بين السبب والمسبّب، أي لا ينظر سوى الدلالة على الخالق، فإذا كان لا يشهد في صنعة ما إلا مادة المصنوع، فإنَّ الفكر لا يشهد إلا الدليل على الصانع، وما له في الموجودات من أثر الإتقان والإجادة، وعلى هذا، ولله المثل الأعلى، تبدو الكائنات كلها للفكر فيّاضة بدلائل الربوبية والإلهية.

وبما أنَّ الكائنات لا يُحصيها البشر عدًّا ولا خبرًا، إلا أنَّ كلَّ كائن على حِدة يتضمن من الحكم، وعِبر الإبداع، وآيات الإتقان، ما يُعدُّ به عالمًا مفردًا من الدلالات، فإنّ الكون كله يبدو للفكر ملكًا عظيمًا أو «ملكوتًا» من آيات وجود الخالق ووحدانيته وقدرته وحكمته، إلى ما له من نعوت الجمال والجلال، فإذا قرأنا قوله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: ٧٥]، فمعناه أنه قد أراه هذا الملكوت بكلا المعنيين الحسّي والمعنوي[١].

إنَّ صلة إبراهيم عليه السَّلام بالكون الذي يعيش فيه تتجلى في قوله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾.

ونستطيع أن نتبيَّن من ظاهر الآية أن تلك الصلة لم تلتزم حدًّا مُعيَّنًا في الإدراك، بل كانت بمنزلة «رحلة عقلية» بدأها منذ وعى نفسه، وتنقَّل خلالها في ملكوت السماوات والأرض، مُتدرِّجًا في الاستدلال والمعرفة في منازل

(١) بنو إسرائيل في ميزان القرآن، البهي الخولي، ص٤٩.

يعلو بعضها بعضًا حتى بلغ اليقين، فالنصّ جعل اليقين غاية «الإراءة»، ومعنى التدرُّج واستمرار الرحلة إلى غاية اليقين واضح في قوله تعالى ﴿نُرِيَ إِبْرَاهِيمَ﴾؛ بصيغة المضارع الدّالة على الاستمرار والتجدُّد، كما يقول النُّحاة. وقد قال الفخر الرازي: واليقين عبارة عن علم يحصل بعد زوال الشبهة بسبب التأمل، فإذا كثرت الدلائل وتوافقت وتطابقت، صارت سببًا لحصول اليقين؛ لأنه يحصل لكل واحد من تلك الدلائل نوعُ تأثُّرٍ وقوّة، فلا تزال القوة تتزايد حتى تنتهي إلى الجزم.

ومن البديهيّ أن عملية التفكُّر ليست مجرَّد استدلال، وإنما هي استدلال وتعلُّم معًا، وقد قدمنا أنّ قانون الفكر هو: مفتاح العلم القدسي في ملكوت السماوات والأرض، وأنّ الكون يبدو للفكر ملكًا عظيمًا أو ملكوتًا من آيات صفات الخالق ووحدانيته وقدرته وحكمته إلى ما له من نعوت الجمال والجلال والكمال، وتلك الآيات هي معدن المعرفة الصادقة وسبيل العلم الحق، ولذا قلنا: إنّ صلته بالكون بدأت صلة تعلّم واستدلال على الحق[١].

وأما بناء شخصيته عليه السَّلام، فيظهر ذلك واضحًا في القوة الفكرية والنفسية التي أمدَّ اللهُ تعالى بها إبراهيم عليه السلام، تلك القوة التي ظهر شأنها في تفكيره منذ وعى نفسه. فمنذ ذلك الوقت بدأت شخصيته تتميَّز بحصيلة اللمحات الأولى، وهي حصيلة من الحقِّ والخير لا محالة، فلا جَرم أنها كانت تقبضه أو تصرفه عن سفاسف الطفولة وعبثها.

وعلى ما جاءت به الأيام والسّنون من وضوح نظرته إلى الكون وعمقها، كانت معالم شخصيته تتَّضح وتتميَّز بضوابط ومقاييس، تحدّد له علاقته بمن حوله من الناس والأوضاع والقيم والكائنات، وهي ضوابطُ قوامها صدق التمييز وشرف الوجدان؛ صدق التمييز بين ما هو حق وما هو باطل، وشرف

---

(١) بنو إسرائيل في ميزان القرآن، البهي الخولي، ص٥١.

الوجدان الذي يجعله يحبُّ الحقَّ ويغار عليه، ويكره الباطل ويبرأ منه ويثور عليه، فإنَّ عِبَر الحقِّ وقِيمه المستخلصة من معانٍ يدركها العقل لا تكون منفصلةً عن النفس، فنحن حين نُدرك أن هذا جبل، وتلك شجرة، فإن هذا الإدراك يقترن بوجدان عميق من الإعجاب والتعظيم والفرح، يكون له دوره في تحديد العلاقة مع ما يوافقه أو يضادّه في الخارج. وسنرى أثر ذلك في رسالته حين أخذ يواجه المجتمع في نشأته بتلك الضوابط الصادقة، فلم ينظر إلى ما لهم من عبادة على أنّها وجهة نظر تُخالف وجهة نظره، بل كان ينظر إليها من خلال ذلك الوجدان المعارِض لانتشار الباطل، وهو المتبرئ منه والثائر ضده(١).

٢ ـ ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾

أ ـ اليقين:

هو استقرار العلم الذي لا ينقلب ولا يحول ولا يتغير في القلب(٢). وهو من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد، وبه تفاضَلَ العارفون، وفيه تنافس المتنافسون، وإليه شمَّر العاملون، وعند تزاوج الصبر باليقين يتولّد بينهما حصول الإمامة في الدين، كما في قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] (٣).

ب ـ أنواع اليقين:

يقين خبر: وهو سكون القلب إلى الخبر وثقته به.

يقين دلالة: وهو أن يُقيم للخبر، مع وثوقه بصدقه، الأدلة والبراهين عليه، وهذا كعامة أخبار الإيمان والتوحيد والقرآن.

---

(١) بنو إسرائيل في ميزان القرآن، البهي الخولي، ص٥٢.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١٢هـ، (٢/ ٣٩٨).

(٣) المرجع نفسه، (٢/ ٣٩٧).

يقين مشاهدة: بحيث يصير المُخبَر لقلوبهم كالمرئي لعيونهم، فنسبة الإيمان بالغيب حينئذ إلى القلب كنسبة المرئي إلى العين[١].

وقال الشيخ محمد متولي الشعراوي: وسيدنا إبراهيم عليه السَّلام كان حقًّا من الموقنين في كل أدوار حياته؛ لأن الله أعلمه ما وراء مظاهر الملك، وما وراء مظاهر الأشياء وعواقبها، فمثلاً عندما أُخذ لِيُطرح في النار جاءه جبريل ليقول: ألك حاجة؟ قال سيدنا إبراهيم: أمّا إليك فلا.

يقول ذلك، وهو يعرف أن النار تحرق، ولكن هذا ظاهر المُلك، وظواهر الأشياء، فسيدنا إبراهيم يعلم أن الذي خلقها وجعلها محرقة، يستطيع أن يجعلها غير محرقة، وهو متيقّن منه، ولذلك لم يطفئ الله النار بظاهر الأسباب، ولكن جعلها الله ليًّا لأعناق خصومه فأوضح الحق: يا نار أنا خلقت فيك قوة للإحراق وأنا أقول لك الآن: لا تحرقي ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

إذن يعرف إبراهيم عليه السَّلام هذه الحقائق الخفية وراء الملك الظاهر، وهذا من الابتلاءات الأولى في حياته، ويملك أن يرد على سيدنا جبريل لحظة سأله قبل أن يلقوا به في النار: ألك حاجة؟ فيقول إبراهيم: أمّا إليك فلا، ثم يأتي له الابتلاء في آخر حياته؛ بذبح ولده، ونعلم أنَّ الإنسان تمرُّ عليه أطوار تكوين ذاته، وأحيانًا تكون الذات هي المسيطرة، وفي طور آخر يحب أولاده أكثر من نفسه، فيتمنَّى أن يُحقِّق لأولاده كلَّ ما فاته شخصيًّا، فلما كبر إبراهيم ووهبه الله الولد يأتيه الابتلاء بأن يذبح ابنه، إنه ابتلاء شديد قاسٍ، وهو ابتلاء لا يأتي بواسطة وحي، بل بواسطة رؤيا، ولكن نعلم أن رؤيا الأنبياء حق، لكن إبراهيم يعلم أنَّ الحقَّ سبحانه وتعالى لا يطلب من خلقه إلا أن يستسلموا لقضائه.

---

(١) منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني، منى عبد الله بن داود، دار ابن حزم، بيروت، ١٩٩٨م، ص٤٤.

لذلك إذا رأيت إنسانًا طال عليه قضاء ربه في أي شيء؛ في مرض، في مصيبة، في مال، أو غير ذلك، فاعلم أنه لم يرضَ بما وقع له، ولو أنه رضي لانتهى القضاء، فالقضاء لا يُرفع حتى يُرضى به، فالناس هم الذين يُطيلون على أنفسهم أمد القضاء، وقد عرف سيدنا إبراهيم هذه القضية: قضية فهمه لعالم الملكوت، فلما قيل له: «اذبح ابنك» لم يرد أن يمرَّ ابنُه بفترة سخط على تصرُّف أبيه؛ لأنه إن أخذه من يده وفي اليد الأخرى السكين فلا بد من أن تكون هذه اللحظة مشحونة بالسخط، فيُحرم من الجزاء، فيبين له المسألة، ويقول القرآن حكاية عن إبراهيم: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾.

وهذا القول يريد به إبراهيم عليه السَّلام أن ينال ابنه ثواب الاستسلام وهو دليل محبة إبراهيم لولده، وقال إسماعيل: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، قال إسماعيل عليه السَّلام ذلك؛ ليأخذ عبودية الطاعة، وخيَّم عليهما جَوٌّ من التسليم والرضا بالقضاء، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣].

وهذا القبول بالقضاء هو ما يرفعُه، لذلك يقول القرآن بعدها: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٤ ـ ١٠٥]، ويفدي الله إسماعيل بذبح عظيم. ولا يقتصر الأمر على ذلك بل يرزق الله إبراهيم ولدًا آخر؛ لأنه فهم ملكوت السماوات والأرض، وعرف نهاية الأشياء فإذا ما أُصيب الإنسان بمصيبة، فما عليه إلا أن يرضى ويقول: ما دامت هذه المصيبة لا دخل لحركتي فيها، وأجراها عليّ خالقي، فهي اختيار منه ـ سبحانه وتعالى ـ ولا يوجد خالق يفسد ما خلق ولا صانع يُفسد ما صنع، ولا بدّ أن لذلك حكمةً عنده لا أفهمها أنا، لكنّي واثق في حكمته[1].

(١) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (٦/ ٣٧٤٨).

إنَّ الابتلاء لإبراهيم عليه السَّلام في ذبح هذا الابن خاصة، كان عظيمًا، ولكن إيمان إبراهيم عليه السَّلام ويقينه بربّه كان أعظم من ذلك، فقد سكن قلبه إلى أمر ربه وسلّم به في طاعة وامتثال، فلم يتردَّد ولم ينزعج ولم يضطرب، بل كان مستسلمًا لأمر الله راضيًا به. وكذلك كان إسماعيل عليه السَّلام حين أعلمه أبوه بأمر الله، فأسلما وخضعا لأمر الله، فكان اليقين في أمر الله مُتحقِّقًا لكليهما، وصرف الله البلاء عن إبراهيم، وأنزل كبشًا فذبحه إبراهيم عليه السَّلام بمبادرته لامتثال أمر الله دون تردُّد أو تأخير(١).

* * *

ثالثًا: قوله تعالى ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦ ـ ٧٩]:

بيّنت الآيات الكريمة كيف ناظر إبراهيم قومه وجادلهم؛ ليُبيّن لهم بطلان ما كانوا عليه من تقديس للنجوم وعبادة لها، بسبب اعتقادهم أنّها آلهة تؤثر في الحوادث الحاصلة في الأرض. وعُرف عن إبراهيم عليه السَّلام أنه كان في مناظرته لخصومه ومجادلته معهم، يلجأ إلى الأسلوب الواقعي العملي؛ ليشدَّ أنظارهم إلى الحقيقة ويجعلها قريبة محسوسة منهم، وها هو عليه السَّلام عندما أراد أن يبيّن لقومه عجز النجوم وضعفها، وأنها مخلوقة كسائر المخلوقات لا تستحق أن تُعظَّم وتُعبد، انتظر حتى أقبل الليل وظهرت النجوم تلمع في ظلامه(٢).

(١) منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني، منى عبد الله بن داود، ص٤٨.

(٢) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٢/ ٤٦٥).

وافترض إبراهيم عليه السَّلام افتراضًا لا يؤمن به ولا يتماشى مع الحقيقة؛ افترضه ليقودَ الخصم إلى الصدق الصادق والحق الواضح، فجلس مع هؤلاء الذين يعبدون الكواكب، وربما كانت الجلسة في معبدهم الذي يجتمعون فيه، إذا أمسى المساء يتطلعون إلى الكواكب في صورة شاعرية، وفي نوع من التأمل في هذه الكائنات الظاهرة الخفية، الواضحة المجهولة، التي يرونها مضيئة لامعة، ولكنها مقنَّعة لا تُبدي أسرارها ولا تعلن عن خفاياها، وأمسى المساء وبدأت النجوم والكواكب تظهر في السماء، وشرع إبراهيم عليه السَّلام في مناظرتهم بعقلٍ وذكاءٍ وحرصٍ على هداية قومه لتوحيد الله عزّ وجل(١).

١ ـ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦]:

* ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ أي: ستره بظلامه.

* ﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾: نجمًا.

* ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ أي: قال لقومه: هذا ربي، وهو قول من يُنصف خصمه مع علمه أنه مبطل، فيَحكي قوله كما هو، غير متعصّب لمذهبه؛ لأنّه أدعى إلى الحق وأنجى من الشغب، ثم يكرّ عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة(٢). إذ علّمنا عليه السَّلام الطريقة المثلى التي ينبغي اتِّباعها في مناظرة الخصوم ومجادلتهم، ولا شكّ في أنه بهذا استحوذ على انتباه قومه، وتمكّن من جلب أفكارهم وأنظارهم إلى ما سيقوله بعد ذلك ويُقرِّره، وانتظر عليه السَّلام حتى غاب النجم متّبعًا الأسلوب العلمي كما سبق بيانه.

* ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أي: غاب واحتجب عن الأنظار المشدودة إليه. فُوجئ القوم بصوت إبراهيم عليه السَّلام يدوّي في قلوبهم، ويملأ أسماعهم.

---

(١) قصص الأنبياء في رحاب الكون، د. عبد الحليم محمود، ص١١٤.

(٢) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٢/ ٤٦٥).

* ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَٰفِلِينَ﴾ ولم يشأ عليه السَّلام أن يصدمهم بالحقيقة دفعة واحدة، بل تدرّج معهم تألُّفًا لهم فقال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَٰفِلِينَ﴾، ولم يقل لهم: لا أعبد الآفلين، فكلمة ﴿لَآ أُحِبُّ﴾ تتضمَّن معنى: لا أعبد، وتزيد عليه في المعنى(١).

فعلى من يجادل المخالفين له في شأن العقيدة أن يُحسن اختيار الألفاظ ذات المعنى الدقيق المناسب، والتي يُتوصَّل بها إلى إفحام الخصم وإلزامه بما يريد(٢)، وفي قوله تعالى ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَٰفِلِينَ﴾ إيحاءات ودلالات دقيقة، فإذا كنت لا أحبُّها فإني لا أعبدها؛ لأنَّ العبادة محبةٌ، وإذا فُقدت المحبة فلا عبادة(٣).

وكلمة ﴿ٱلْأَٰفِلِينَ﴾ لها دلالتها الكبيرة في موضوع المناظرة، فالأُفول حركة، وهي من لوازم الحدوث، والأُفول تغيُّر، والإله لا يتغيَّر، والأُفول غياب وضعف، والإله حاضر أبدًا لا يغيب، قوي لا يعتريه ضعف، والأُفول في وقت معين، ومكان معين، يدل على أنَّ النجم محكوم بنظام ثابت لا يستطيع الانفكاك منه، والمحكوم لا يكون حاكمًا ولا إلهًا(٤).

ورأى بعضهم أنّ إبراهيم عليه السَّلام كان في موقفه هذا في مجال النظر لنفسه لا المناظرة، وقولهم هذا لا يتَّفق مع عصمة الأنبياء عليهم السلام وتنزُّهِهم عن الكفر والشرك منذ بداية حياتهم، وكذلك لا يتَّفق مع قوله تعالى ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١].

---

(١) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٢/ ٤٦٥).
(٢) المرجع نفسه، (٢/ ٤٦٥).
(٣) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ٢٠٠٨م، (٥/ ٢٥٦١).
(٤) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٢/ ٤٦٦).

وقد احتجَّ أصحاب هذا القول، فقالوا: كيف انتظر قومُه معه، حتى غاب النجم؟ ويسقط احتجاجهم هذا، إذا علمنا أنّ القوم كانوا يُعظِّمون النجوم والكواكب ويَعبدونها، والمعروف أن عبّاد النجوم ينتظرون ظهورها؛ ليقوموا بمراسم عبادتها، ويمارسوا طقوس تعظيمها، فالقوم كانوا مستغرقين في عبادة النجم مشدودين إليه(١).

كان لكلام إبراهيم عليه السَّلام وقعٌ في نفوسهم، فبدؤوا يفكِّرون ويتشكَّكُون ويَضيقون ذرعًا بآلهتهم وبإبراهيم، وخانهم المنطق في الردِّ عليه، وأبت عبادتهم ومألوفاتهم أن تستجيب للعقل والمنطق، فكان الضيق باديًا عليهم.

ولكن إبراهيم عليه السَّلام فاجأهم بما خفَّف عن عقولهم ونفوسهم، بافتراضه ـ حينما رأى القمر بازغًا ـ أنَّه الربّ، وسرت في القوم همسات الارتياح وأصوات الاستحسان، وتطلَّعوا إلى القمر مفتونين بشعاعه الفِضِّيِّ وبجماله المتألِّق، ولكنهم رأوه هو الآخر ينحدر، فأخذت قلوبُهم تخفق مع انحداره، وتوقّعوا الخاتمة، وتوقّعوا ما سيقوله إبراهيم عليه السَّلام(٢).

٢ ـ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧]:

* ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾: يشقّ بنوره الظُّلمةَ في أول طلوعه.

* ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾: كرّر الأسلوب نفسه مع المناظرة في الكوكب، وانتظر أيضًا حتى غاب.

* ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

---

(١) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٢/ ٤٦٦).
(٢) قصص الأنبياء في رحاب الكون، د. عبد الحليم محمود، ص١١٥.

وبدأ الخليل عليه السَّلام في هذه المرّة يُصارحُهم بالحقيقة ويُواجِهُهم بها، فأظهر لهم عجزه عن إدراك الحقيقة منفردًا دون معونة من ربه سبحانه وتوفيقه، فالإنسان محتاج إلى هداية ربِّه بالبيان أولاً، وهي مهمة المرسلين عليهم السلام، وبالمعونة والتوفيق ثانيًا، وهي هداية الله لمن يشاء من عباده، وتبقى الإنسانية تائهة ضالة دون معونة ربِّ العالمين وبيان المرسلين[١].

وفي قوله تعالى ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾: بيّن إبراهيم عليه السَّلام أن هدى الله ليس في عبادة الكواكب، ولا في عبادة القمر، وعلا وجوهَ القوم سهومٌ، ولزموا الصمت، واستمرُّوا في التأمُّل حتى الصباح، وإذا بالشمس تشرق ساطعة جميلة[٢]. وكرر إبراهيم عليه السَّلام الأسلوب نفسه للمرّة الثالثة، كما قال في الكوكب والقمر[٣].

٣ ـ قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَءَا الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ٧٨]:

* ﴿ فَلَمَّا رَءَا الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي ﴾ أي: هذا الطالع ربي، أو هذا الجرم ربي، واستعمل الإشارة بالمذكر صيانة للربِّ عن شبهة التأنيث، ولهذا قالوا في صفاته تعالى: علاّم، ولم يقولوا: علاّمة؛ تفاديًا من علامات التأنيث[٤].

* ﴿ هَٰذَآ أَكْبَرُ ﴾ من الكوكب والقمر، كما يظهر في النظر، قال ذلك كما مرّ معنا إنصافًا لخصومه.

---

(١) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٢/ ٤٦٧).

(٢) قصص الأنبياء في رحاب الكون، د. عبد الحليم محمود، ص١١٥.

(٣) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٢/ ٤٦٧).

(٤) مدارك التنزيل وحقائق التأويل (تفسير النسفي)، عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، تحقيق يوسف علي بديوي ورفاقه، دار الكلم الطيب، دمشق، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م، (٢/ ٤٣٥).

* ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ﴾: واجههم بالحقيقة الكاملة.

* ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

* وقوله ﴿يَٰقَوْمِ﴾: فيه تأكيد على أنه عليه السلام كان مناظرًا لقومه لا ناظرًا لنفسه.

ولم يكتفِ عليه السَّلام بإعلان براءته من كلّ مظاهر الكفر والشرك التي كان قومه عليها، بل أخذ يعرّفهم بالإله الحق، الذي يجب أن يتوجَّهوا إليه وحده بالعبادة والطاعة(١).

لقد تدرّج إبراهيم عليه السَّلام بدعوة قومه، وأثبت لهم أن كلَّ كوكب ـ حتى الشمس ـ مصيره إلى أُفول، فكأنه وصل بهم بالمنطق إلى أن عبادة الكواكب لا تصلح، واستعمل المنطق الذي يُحقِّق نيّتَه في أن ينكر هذه الربوبية، وتستأنس به آذان من يسمعه.

ولنا أن نتساءل: كيف يجوز لنبيّ الله إبراهيم عليه السلام أن يصف الكوكب والقمر والشمس بصفات الربوبية؟ والجواب أن الله تعالى أباح لمن خاف على حياته أن يتلفَّظ بألفاظ الكفر، فقال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنُّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦].

فإذا كان الله قد أباح إجراء كلمة الكفر على لسان المؤمن المطمئن، لينجوَ بحياته وهو فرد، أفلا يصحّ لإبراهيم أن يقولَ: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ بما تحتمل من أساليب حتى ينجِّيَ أمة بأسرها من أن تعبد الكواكب والنجوم(٢)؟!

وقد جاء الأمر صريحًا بالبراءة من الشرك والكفر؛ لأنه سبق المسألة بالترقِّيات الجدلية التي قالها، وحين يسمعها أي عاقل فلا بُدّ من أن يُعلن موافقته في هذا الأمر، ولذلك قال: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾؛ ولأنه كإنسان

---

(١) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٢/ ٤٦٧).

(٢) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (٦/ ٣٧٥١).

مؤمن لن يغشَّ نفسَه، ومن ثم لن يغشَّ قومَه، ولذلك صدحَ بالحقّ وأعلن براءته من الشرك، وإنَّ البراءة من الشرك تخلية عن أعظم المفاسد، والتخلية تعني أن تنفكَّ أو تنقطع عن العمل الفاسد (الشرك)، وبعد ذلك تدخل في العمل الإيجابي، وأعظم الأعمال الصالحة توحيد الله وإفراده بالعبادة(١).

وقد استعمل إبراهيم عليه السَّلام أسلوب الإخبار عن نفسه؛ ليكون لهم قدوة ومثلاً فقال بصيغة الخبر المؤكد:

٤ ـ **قال تعالى**: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]:

* ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ أي: وجَّهت عبادتي وطاعتي(٢)، وقصدت بعبادتي توحيد الله تعالى؛ لأن من كان منقادًا إليه، فإنه يتوجه بوجهه إليه، فتوجيه الوجه كناية عن الطاعة والعبادة والتوحيد، وحقيقة الإخلاص لله هي التوجُّه إليه بالكلية عبر الوجه؛ لأنه أشرف عضو في الإنسان، وأراده كلَّه بأن تكون نفسه وقلبه وحركته وسكونه في ذات الله تعالى ولأجل مرضاته، وهذه حقيقة التوحيد والإخلاص، التي حاجَّ بها إبراهيمُ قومَه(٣).

* ﴿لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: أبدع خلق السماوات والأرض وخلقهنَّ على غير مثال سابق(٤)، وهذا الوصف يقتضي توحيده سبحانه وتعالى وإفرادَه بالملك، فهذه السماوات والأرض محدثات مخلوقات دالّة على أنه عزّ وجل مُنشئها(٥).

---

(١) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (٦/ ٣٧٥٣).
(٢) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٢/ ٤٦٧).
(٣) الإخلاص في القرآن الكريم، حمد الوهيبي، رسالة ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٤٣٣هـ، ص١٣٠.
(٤) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٢/ ٤٦٨).
(٥) من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين، محمد فؤاد سندي، ص١٧٠.

إنَّ مثل هذه الآيات لا تحتاج إلى شرح كبير، ذلك أن المعبود الذي يدعو إبراهيم عليه السَّلام إلى عبادته يستحق وحده أن يُعبد بحق، لأنه هو الذي فطر مخلوقات تكبر في عين الإنسان، وهي السماوات والأرض، أي أنه أبدع الكون كلّه من عدم ودون سابق مثال، وهو بذلك القادر على تصريف ما في هذا الكون، يعلم فيه ما ظهر للناس وما بطن، وكلمة ملكوت تُشير إلى ما وراء هذا الكون من عالم الغيب، هذا العالم الذي يُطلع الله المصطفين من عباده على بعض ما فيه من الأسرار، إنَّه ـ سبحانه وتعالى ـ ربُّ كل شيء، ووسع كلَّ شيء علمًا[(١)].

* ﴿حَنِيفًاۖ﴾: مائلاً عن كل الملل والعقائد المخالفة للتوحيد[(٢)]، أي مائلاً عن الأديان الفاسدة إلى دين الإسلام، وهو الدين الحق[(٣)].

وحين يأتي الرسول مائلاً عن الفساد فهو يسير معتدلاً، لأن الميل عن الفساد اعتدال واستقامة[(٤)].

* ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾: فأنا لست في العبادة ممَّن يشرك بالله شيئًا من خلقه[(٥)]. كان إبراهيم عليه السَّلام واضحًا مع نفسه ومع أبيه وقومه، فلم يجاملهم في ديانته، ولم يُظهر لهم خلاف ما يختلج في قلبه، وحدّد بوضوح موقفه من معبودات قومه، فصاح فيهم: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨]، هكذا بكل جرأة وقوة يعلن المفاصلة، وبكل دقة ووضوح وتأكيد يتبرّأ منهم ومن آلهتهم التي يقدِّسونها، فالمخاطَبون ـ بسهولة وبساطة ـ

---

(١) وإبراهيم الذي وفّى، د. فرحات بن علي الجّعبيري، المكتبة السعيدية للنشر، مسقط، سلطنة عُمان، ط٢، ٢٠١٤م، ص٧٨.
(٢) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٢/ ٤٦٨).
(٣) من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين، محمد فؤاد سندي، ص١٧٠.
(٤) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (٦/ ٣٧٥٤).
(٥) من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين، محمد فؤاد سندي، ص١٧٠.

فهموا مقصده وحقيقة موقفه الذي لا غموض فيه ولا لبس، وحتى يتحقق الهدف من الحوار بصورة جليّة، نجده يزيد في إيضاحه ويُجدِّد لهم وجهته ومعتقده: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]. فهذا الإلحاح على أسلوب التوضيح والتأكيد والتجديد؛ كل ذلك من أجل أن يَضمن وضوح غايته وسلامة رسالته، ونفاذها في نفوس الآخرين[١].

٥ ـ منهجية التدرُّج:

نستخلص من الآيات السابقة المنهج الدعوي المتدرّج الذي اتّبعه إبراهيم عليه السَّلام مع قومه عبدة الكواكب، فقد تدرَّج بهم من الكوكب إلى القمر، ثم إلى الشمس التي هي أكبرهم. ويؤكد الرازي: أنَّ الأخذ من الأدوَن فالأدوَن مترقّيًا إلى الأعلى فالأعلى له نوع تأثير في التقرير والبيان، والتأكيد لا يحصل من غيره، فكان هذا الوجه أولى[٢].

وقد مرّت منهجية إبراهيم عليه السَّلام بمراحل وتدرُّج مع قومه، ومن ذلك:

أ ـ مجاراة الخصم:

استمال إبراهيمُ قومَه، وأخذ بقلوبهم، وأشعرهم أنه غير متحامل عليهم. ويُسمَّى هذا الأسلوب «مجاراة الخصم»، وقد استطاع أن يصل بقومه إلى إثبات زيف عبادة الكواكب والقمر والشمس، لكون جميعها يتَّصف بالأُفول، فالآلهة التي مصيرها الأفول متغيِّرة من حال إلى حال، متنقِّلة من مكان إلى مكان، فلا تستحقُّ أن تُعبَد[٣].

---

(١) صناعة الحوار، حمد عبد الله السيف، ص٢٨٨.
(٢) منهجية التدرج في دعوة إبراهيم عليه السلام، د. أمينة محمد، ص٢٧٤.
(٣) المرجع نفسه، ص٢٧٣.

ب ـ تشكيكه قومه في معتقداتهم:

استطاع إبراهيم عليه السَّلام أن يُشكِّك قومَه في معتقداتهم المتعلّقة بعبادة النجوم والكواكب، من خلال تلك الأسئلة المثيرة للعقل، وهيّأ قومَه لما عزم عليه من التصريح بأن له ربًّا غير الكواكب، ثم عرّض بقومه أنهم ضالّون، وهيّأهم قبل المصارحة للعلم بأنهم ضالّون، وأدخل في نفوسهم الشكَّ مرة أخرى في معتقدهم أنهم على ضلال، وبعد أفول الشمس قال لهم: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾، وهذا إقناع لهم بألا يحاولوا إقناعه بموافقتهم على ضلالهم؛ لأنه لما انتفى استحقاق الربوبية عن أعظم الكواكب التي عبدوها انتفى عمّا دونها[(١)].

ج ـ الاستدلال المنطقي:

استدلّ إبراهيم عليه السَّلام بأفول الكوكب والقمر والشمس على أنه لا يمكن أن تكون أربابًا مستحقة أن يشتغل المرء بعبادتها وشكرها، ويدلّ أفول الكوكب والقمر والشمس على كونها عاجزة عن الخلق والإيجاد، وعدم استحقاقها الربوبية؛ لأنَّ شأن الرب أن يكون دائم المراقبة، لتدبير شؤون عباده، وقد بدأ معهم في المناظرة بالسهل، ثم تدرّج من الكوكب إلى القمر إلى الشمس، والنتيجة واحدة، فإن الموافقة في العبارة، على طريقة الإلزام على الخصم من أبلغ الحجج، وأوضح المناهج[(٢)].

د ـ إعلان الوصول إلى النتيجة:

وصل إبراهيم عليه السَّلام بقومه، من خلال الحجة المستنبطة من أحوال هذه الموجودات جميعًا، إلى أن أُفولها دلّ على وجود خالق لها، وهذه هي

---

(١) منهجية التدرج في دعوة إبراهيم عليه السلام، د. أمينة محمد، ص٢٧٣.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٧٤.

النتيجة الحتمية[1]، التي تستلزم البراءة من الشرك، والتوجُّه بالعبادة إلى خالق السماوات والأرض، فقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

٦ ـ شيء من الإعجاز الإنبائي والتاريخي والعلمي:

من أوجه الإعجاز الإنبائي والتاريخي والعلمي في الآيات السابقة:

أ ـ التمييز الدقيق بين طبيعة كلٍّ من الكوكب والقمر والشمس، في زمن لم يكن لأحد من المخلوقين القدرة على هذا التمييز خاصة في الجزيرة العربية، وكانت غالبية أهلها من الأميين.

ب ـ التأكيد على أن أُفول (أي: غياب) أي جرمٍ سماوي هو دليل على أنه حادث، وكل حادث من هذه الجمادات هو مخلوق مُسخَّر، ومن ثم فهو لا يمكن أن يكون مؤلّهًا، كما فعل الضّالون من قوم إبراهيم ومن قبل زمانه ومن بعده، وهذا استنتاج إنبائي وعلمي رصين؛ وذلك لأن حدوث الكون يحتّم فناءه، كما يؤكد حدوث جميع المخلوقات وحتمية فنائها، والحادث الفاني محتاج إلى خالق أزليّ باقٍ منزّه عن كل صفات خلقه، وعن حدود كلٍّ من المكان والزمان والمادة والطاقة التي تحدِّد المخلوقين من الجمادات والأحياء كافة: من النبات، والحيوان، والإنسان، والملائكة، والجن، حتى يكون الخالق مغايرًا لخلقه مغايرة كاملة.

ج ـ الإشارة إلى أنّ الله تعالى هو خالق الخلق، ومبدع الوجود على غير مثال سابق؛ لأنه هو الذي «فطر السماوات والأرض». والعلوم المكتسبة تُحتِّم وجود مرجعيّة عليا للكون الذي نعيش فيه، وتعترف بضرورة مغايرة صفات الخالق عن صفات المخلوقين فرادى ومجتمعين.

(١) منهجية التدرج في دعوة إبراهيم عليه السلام، د. أمينة محمد، ص٢٧٥.

د ـ إعطاء النموذج العلمي للتعرّف على الخالق سبحانه وتعالى من خلال التأمل في بديع خلقه، من مثل ملكوت السماوات والأرض؛ وذلك لأن الإبداع في الخلق هو من أوضح الأدلة على الخالق سبحانه وتعالى، والكون بكلّ ما فيه من موجودات وظواهر، وحركات منضبطة انضباطًا شديدًا، يشهد بضرورة وجود خالق عظيم له من صفات الألوهية والربوبية والوحدانية والخالقيّة، ما مكّنه من إبداع كل ذلك.

هـ ـ الإشارة إلى أنّ الإيمان بالله تعالى مزروع في الجِبِلّة الإنسانية، وأن الإنسان محتاج إلى إيقاظ هذا الإيمان الفطري بالتأمل العاقل في خلق الله تعالى، وبالاستماع إلى وحي السماء، ما دامت فطرة الإنسان سليمة استطاعت أن تستَشِف دلائل الإيمان بالإله الواحد الأحد الفرد الصمد، المنزّه في أسمائه وصفاته وأفعاله عن جميع خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله، وذلك من خلال تأمل الإنسان في إتقان خلقه هو، وفي إحكام خلق الكون الفسيح من حوله.

و ـ إنَّ الشرك بالله تعالى هو من نقائض الإيمان به، وهو من القصور في فهم مدلول الألوهية، لاسيما أنّ المتأمل في الكون يرى وحدة البناء التي تشمله، وهذه الوحدة هي التي تشهد لخالقه بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه.

ز ـ ضرورة النظر في الكون للتعرف على بديع صنع الله فيه؛ تأكيدًا على الإيمان بالخالق العظيم عن طريق الإدراك الحسيّ والوعي الملموس، وهذا الإيمان الحسّي هو دعم للإيمان الفطري الذي غرسه الله تعالى في جبلّة كل مخلوق، ثم علّمه لأبينا آدم عليه السَّلام لحظة خلقه، وبعد ذلك أنزله على سلسلة طويلة من الأنبياء والمرسلين، وأكملَه وأتَمَّه وحفظه في القرآن الكريم، وفي سنة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ. ولو قام كل إنسان عاقل بذلك ما بقيَ

على وجه الأرض كافر أو مشرك أو متردِّد في اعتقاده، أو مُتشكِّك في الإيمان بالله عزّ وجل[١].

هذه هي بعض جوانب الإعجاز العلميّ والإنبائيّ والتاريخيّ فيما بيّنه القرآن الكريم من قصة إبراهيم عليه السَّلام، الذي نشأ في بيئة وثنيّة تعبد الأصنام والأوثان، كما تعبد النجوم والكواكب، وتعبد ملوكَها من دون الله سبحانه وتعالى، وتعرض الآيات موقف الفطرة السليمة عند إبراهيم عليه السَّلام، واستدراجه لقومه إلى توحيد الله عزّ وجل وإفراده بالعبادة، وتشهد الوقائع التاريخية والحقائق العلمية كلها التي جاءت في الآيات [٧٥ ـ ٧٩] من سورة الأنعام للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله محمد ﷺ، وحفظه لعهده الذي قطعه على ذاته العليّة في لغة وَحيه (اللغة العربية) نفسها، وتعهّد الله بهذا الحفظ تعهُّدًا مطلقًا، حتى يبقى القرآن الكريم حجة الله البالغة على جميع خلقه إلى يوم الدين[٢].

* * *

رابعًا: قوله تعالى ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠ ـ ٨١]:

إنَّ قوم إبراهيم عليه السَّلام جادلوه لمّا أعلن عن توحيده الله، وعن إفراده بالعبادة، وعن براءته من الشرك، وأعلن أيضًا عن هجرانه للأصنام والأوثان وعن اعتزاله لها، فحينئذ جادلوه، فتعجّب من جدالهم[٣].

---

(١) من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي، د. زغلول النجار، (١/ ٣٢٠).

(٢) المرجع نفسه (١/ ٣٢٠).

(٣) قصص الأنبياء، مصطفى العدوي، (٢/ ٨٩).

وقد حاولوا التأثير عليه بأساليب الحرب النفسية، والتهديد بالقوة الخفية التي تملكها معبوداتهم، فأرادوا منه أن يكفَّ عن أسلوب التحدِّي للأصنام؛ بحجة الخوف عليه من انتقام هذه الآلهة التي يعتقدون بقدرتها على الإساءة لمن يتحداها أو يسيء إليها، فأجابهم بكل ثبات واطمئنان، وردّ على كل محاولات التلبيس والتضليل والتشغيب التي يسلكها الخصوم، بل إنَّ إبراهيم عليه السَّلام اتَّخذ من حجج قومه وتضليلهم ما عجّل بإقامة الحجة عليهم وإفحامهم[١].

١ ـ قال تعالى: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ ﴾:

* ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ ﴾: أي جادله قومه، فردّ عليهم مستنكرًا جدالهم قائلاً: أتجادلونني في وحدانية الله تعالى، وهو الذي دلّني على وحدانيته بالبصائر التي بصّرني بها، والدلائل التي أرشدني إليها؟! ولعلَّ إبراهيم عليه السَّلام أراد ما مرّ معنا في قوله جلّ وعلا ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥][٢].

* وفي قوله ﴿ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ ﴾: الاستفهام إنكاري لإنكار الواقع، وإنكار الواقع توبيخ، فهو يُوبِّخهم ويُؤيِسُهم من نتيجة المحاجّة[٣]، أي: أتجادلونني في توحيدي لله عزّ وجل، وفي إخلاصي له، وقد وفَّقني الله لعبادته، ووفّقني لترك أصنامكم وآلهتكم التي عبدتموها مع الله عزّ وجل، فكيف تُنكرون عليّ عبادتي لله؟! فتعجّب إبراهيم الخليل عليه السَّلام من مجادلتهم ومحاجّتهم له، فكان من اللائق بهم أن يؤمنوا وأن يُسلموا لما جاءهم بالحجج الدّالة على وحدانية الله عزّ وجل، لكن القوم لم يوفَّقوا للهداية، بل استمرُّوا على ما هم

(١) صناعة الحوار، حمد عبد الله السيف، ص٢٩٨.
(٢) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٢/ ٤٦٨).
(٣) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (٥/ ٢٥٦٦).

فيه من الضلال والشرك وخوّفوه من آلهتهم؛ اعتقادًا منهم أنّها تنفع وتضرُّ، وأنها ستُصيبه بمكروه أو سوء إن أعرض عن عبادتها[١].

٢ ـ ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾:

* ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ﴾: أي إنني لم يستولِ عليّ الوهم كاستيلائه عليكم، فأنا لا أخاف آلهتكم، لأنني أعلم أنّها لا تضرُّ ولا تنفع، وهي أحجار صمّاء بكماء عمياء، تُنقل من مكان إلى مكان، فكيف أخاف منها؟ كيف أخاف من حجر لا يَسمع ولا يُبصر؟ تصنعونها بأيديكم وتعبدونها بأوهامكم؟

وقد كان إبراهيم عليه السَّلام حريصًا في إجابته، ويخشى أن يُصيبَه قَدَرٌ، فيتوهَّمون أن ذلك من سرِّ آلهتهم، فقطع عليهم عليه السَّلام أسباب ذلك، وقال مطمئنًا إلى قضاء الله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾.

* ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾: هذا استثناء يدلُّ على أمرين:

أولهما: تفويضه لله تعالى في كل الأمور، وأنه راضٍ بما يُقدِّره الله تعالى له، يتقبَّل ما يأتي به، وأن الله وحده القادر على ما يريد.

ثانيهما: الردّ عليهم في أن أصنامهم لا تستطيع أن تفعل شيئًا، إنما الأمر كله لله وحده، وهو الذي يصيب بالضرر إن شاء، وهو الذي ينزل الخير من سحائب رضوانه إن شاء، وأنه القادر على ذلك وحده[٢].

فإن شاء الحقُّ أن يُنزِّل على عبدٍ كوكبًا يصعقه أو يحرقه، فهذا موضع آخر لا دخل للكواكب ولمن يعبدها فيه، لأنّ النافع والضّارّ هو الله، فحين يشاء الله

---

(١) قصص الأنبياء، مصطفى العدوي، (٢/ ٨٩).
(٢) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (٥/ ٢٥٦٧).

الضرّ يأتي الضرّ، وحين يشاء النفع يأتي النفع[(١)]. فالنفع والضرّ منوطان بمشيئته سبحانه وحده، وهكذا فوّض أمره لله تعالى بعد أن أعلن براءته من الأصنام[(٢)].

* ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: أحاط علمُه سبحانه بكلِّ شيء، فلا يبعد أن يكون في علمه أن يحيق بي مكروهٌ من جهتها[(٣)].

وبهذا احتاط عليه السَّلام لنفسه ولدينه، فلن يستطيعوا أن ينسبوا إلى آلهتهم شيئًا من التأثير إذا قدّر الله تعالى بعض المكروه، كما أظهر عبوديته واستسلامه لله تعالى، ورضاه بقضائه وقدره جلّ جلاله، الذي له كمال العلم وتمام المشيئة، فلا يخرج شيء عن علمه ومشيئته أبدًا[(٤)].

* ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾: فالله عليم بكل شيء يضع الأمور في مواضعها، لا يغيب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وكل شيء على مقتضى علمه بما كان وما سيكون، وذكرُه لله تعالى بوصف ﴿رَبِّي﴾؛ للدلالة على أنه يستشعر معنى الربوبية دائمًا، فهو الذي ربّاه، وهو الذي يحميه ويحفظه من كل ضر وسوء، إلا أن يكون ذلك من حكمة أرادها وهو العليم الخبير[(٥)].

* ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾: الهمزة للاستفهام، والفاء للإفصاح، والمعنى إذا كان الأمر كله بيد الله تعالى، وأن أحجاركم لا تنفع ولا تضر، أفلا تتذكرون

---

(١) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (٦/ ٣٧٥٥).
(٢) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٢/ ٤٦٨).
(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي)، عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ، (٢/ ٤٣٧).
(٤) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٢/ ٤٦٩).
(٥) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (٥/ ٢٥٦٧).

الأمور، وتعرفونها على وجهها، والاستفهام هنا للتحريض على التذكُّر[١].

ويدلُّ قوله تعالى ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ على أن قضايا العقائد مأخوذة بالفطرة، وإقبال النفس على الشهوات هو ما يطمس آثار هذه الفطرة، فليس مطلوبًا منك أيُّها الإنسان إنشاء فكرة عقدية، بل المطلوب منك أن تتذكر فقط، والتذكُّر أمر فطريّ طبعيّ؛ لأنَّ الإنسان الخليفة في الأرض هو الذي تناسل من آدم إلى أن وصل إلينا، فقد جاء آدم إلى الأرض ومعه منهج سماوي يُنظِّم حركة الحياة، ولقّن آدمُ المنهج لأولاده، وكذا فعل أبناء آدم مع أولادهم، ولكن المناهج تنطمس؛ لأنّها تتدخل فيها أهواء الناس، فيُعرضون عنها أو يتجاهلونها، إذن فهي عرضة أن تُنسى، والرسالات إنما تُذكِّر بالمنهج الأصلي الذي أخذناه عن الحق سبحانه وتعالى، لذلك يُعلنها إبراهيم عليه السَّلام[٢].

٣ ـ ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨١]:

إنَّ حال هؤلاء الذين ساروا وراء الأوهام عجب، يُخوِّفون نبيَّ الله تعالى من أن يصيبه سوء من أحجارهم التي لا تضرُّ ولا تنفع، كما هو مُشاهَد بالحسِّ ومُدرَك بالعقل، ومع ذلك لا يخافون أن يَنزل بهم مقتٌ من الله تعالى، الذي يملك الوجود كلَّه، بما في ذلك آلهتهم، ولذا قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السَّلام:

* ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ﴾: الاستفهام هنا للتعجّب من المفارقة التي كانت منهم، وهي مفارقة عجيبة يُخوِّفون إبراهيم من أن تُصيبه آلهتُهم بسوء، ولا يخافون هم من إشراكهم بالله ما لم ينزّل به سلطانًا، والعجب من ناحيتين:

---

(١) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (٥/ ٢٥٦٨).
(٢) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (٤/ ٣٧٥٦).

أولاهما: أنَّ أصنامهم لا تملك نفعًا ولا ضرًّا، والله تعالى يملك كل شيء، يملك النفع والضرّ والإنقاذ من أسباب الضرر.

وثانيتهما: أنّهم يُخوِّفون إبراهيم عليه السَّلام ولا سبب للتخويف، ولا يخافون، وقد توافر سبب الخوف.

* ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾: قالوا: السلطان هو الحجة، والتعبير عن الحجة هنا بالسلطان، إشارة أولاً إلى أنّه لا دليل يسوّغ عبادتها، وثانيًا أنّها لا قوة لها، ولا سلطان لها، حتى تُصيب بسوء أو بنعمة، إنما هي أوهامكم التي جعلت لها تلك الصفة، وقد رتّب الله تعالى على هذه الحال أن قال: ﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

* ﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: الفاء هنا فاء الإفصاح، الذي يُفصح عن هذا الشرط المقدر، أي إذا كنتم تلجؤون إلى من لا يضرُّ ولا ينفع، وتحسبون أنه يمسُّ مَن لا يعتقد به، وإبراهيم يلجأ إلى الله تعالى الذي يملك كل شيء، فأي الفريقين أحقّ بأن يكون في أمن لا خوف فيه؟!

أهو الذي يلجأ إلى الله القادر على كل شيء، أم الذي يلجأ إلى أصنام لا تضرُّ ولا تنفع؟ وعلّق سبحانه وتعالى الحكم على العلم؛ لا حكم بغير علم[١].

ولذا قال سبحانه: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إن كنتم تُدركون الأمور على وجهها، ولا تسيطر عليكم الأوهام التي تُضِلُّ ولا تَهدي[٢].

* * *

(١) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (٥/ ٢٥٦٩).
(٢) المرجع نفسه، (٥/ ٢٥٦٩).

خامسًا: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]:

١ ـ قول الإمام الطبري:

هذا فصل القضاء من الله بين إبراهيم خليله عليه السَّلام، وبين مَن حاجّه من قومه من أهل الشرك بالله، إذ قال لهم إبراهيم عليه السَّلام: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، فقال الله تعالى فاصلاً بينه وبينهم: الذين صدَّقوا الله، وأخلصوا له العبادة، ولم يخلطوا عبادتهم إياه وتصديقهم له بظلم، يعني: بشرك، ولم يُشركوا في عبادته شيئًا، ثم جعلوا عبادتهم لله خالصةً، أحقّ بالأمن من عقابه من الذين يُشركون في عبادتهم إياه الأوثان والأصنام، فإنّهم الخائفون من عقابه، أما في عاجل الدنيا فإنهم وَجِلون من حلول سُخط الله عليهم، وأما في الآخرة فإنهم الموقنون بأليم عذاب الله[(١)].

٢ ـ قول ابن عاشور:

هذه الجملة من حكاية كلام إبراهيم عليه السَّلام على ما ذهب إليه جمهور المفسّرين، فيكون جوابًا منه في قوله ﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ [الأنعام: ٨١]، تولّى جواب استفهامه بنفسه، ولم ينتظر جوابهم لكون الجواب ممّا لا يسع المسؤول إلاّ أن يجيب بمثله، وهو تبكيت لهم. قال ابن عباس: كما يَسأل العالم ويُجيب نفسَه بنفسِه، أي بقوله: فإن قلتَ قلتُ، وقد تقدمت نظائره في هذه السورة[(٢)].

وقيل ليس ذلك من حكاية كلام إبراهيم، وقد انتهى قول إبراهيم عند

---

(١) تفسير الطبري «جامع البيان في تأويل القرآن»، (٧/ ٢٥٤).

(٢) التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، (١٠/ ٣١٠).

قوله: ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨١]، بل هو كلام مستأنف من الله تعالى لابتداء حكم، فتكون الجملة مستأنفة استئنافًا ابتدائيًّا تصديقًا لقول إبراهيم عليه السَّلام. وقيل هو حكاية لكلام صدر من قوم إبراهيم جوابًا عن سؤال إبراهيم: ﴿فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ﴾ [الأنعام: ٨١]، ولا يصحّ لأنّ الشأن في ذلك أن يُقال: قال الذين آمنوا... إلخ، ولأنَّه لو كان من قول قومه لما استمرّ بهم الضلال والمكابرة إلى حدّ أن ألقَوا إبراهيم في النّار[١].

٣ ـ قول الشنقيطي:

المراد بالظلم هنا الشرك، كما ثبت عن النبي ﷺ في صحيح البخاري وغيره من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وقد بيَّنه قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣]، وقوله تعالى ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]. وقوله تعالى ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦][٢].

٤ ـ قول السعدي:

قال الله تعالى فاصلاً بين الفريقين: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ﴾، أي يخلطوا ﴿إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ الأمن من المخاوف والعذاب والشقاء، والهداية إلى الصراط، فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقًا لا بشرك ولا بمعاصٍ، حصل لهم الأمن التام والهداية التامة، وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده، ولكنهم يعملون السيئات، حصل لهم أصل الهداية وأصل الأمن، وإن لم يحصل لهم كمالها. ومفهوم الآية الكريمة: أنَّ

---

(١) تفسير التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م، (٧/ ٣٣١ ـ ٣٣٢).

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م، (٢/ ٢٠١ ـ ٢٠٢).

الذي لم يحصل لهم الأمران، لم يحصل لهم هداية ولا أمن، بل حظّهم الضلال والشقاء(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ شقّ ذلك على الناس وقالوا: يا رسول الله فأيّنا لا يظلم نفسه؟ قال: «**إنه ليس الذي تَعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح** ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، **إنّما هو الشرك**»(٢).

٥ ـ قول ابن قيم الجوزية:

الخوف دائمًا مع الشرك، والأمن دائمًا مع التوحيد، قال تعالى حكاية عن خليله إبراهيم أنه قال في محاجته لقومه: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨١]، فحكم الله بين الفريقين بحكم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

وقد صحّ عن رسول الله ﷺ تفسير الظلم فيها بالشرك وقال: «**ألم تسمعوا قول العبد الصالح** ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾»، فالتوحيد من أقوى أسباب الأمن من المخاوف، والشرك من أعظم أسباب حصول المخاوف، ولذلك من خاف شيئًا غير الله سُلّط عليه، وكان خوفه منه سبب تسليطه عليه، ولو خاف الله دونه ولم يخفه، لكان عدم خوفه منه وتوكُّله على الله من أعظم أسباب نجاته منه، وكذلك من رجا شيئًا غير الله حُرم ما رجاه منه، وكان رجاؤه غير الله من أقوى أسباب حرمانه، فإذا رجا الله وحده كان توحيد رجائه أقوى أسباب الفوز

(١) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص٤٨٧.
(٢) صحيح البخاري، رقم (٤٦٢٩)، (٨/ ٣٧٣).

به أو بنظيره أو بما هو أنفع له منه، والله الموفّق للصواب[١]. إنَّ الذين آمنوا وأخلصوا أنفسهم لله، لا يخلطون بهذا الإيمان شركًا في عبادة ولا طاعة ولا اتجاه، هؤلاء لهم الأمن، وهؤلاء هم المهتدون[٢].

* * *

سادسًا: قوله تعالى ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣]:

١ ـ في قوله تعالى ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾:

جاءت الإشارة للبعيد، والظاهر شمولها احتجاجه على قومه الذين ناظرهم، فإنّه حاجّهم في الكواكب والقمر والشمس والتماثيل، وبعد ذلك انتصر بالحجّة وأقامها على والده وقومه[٣].

والإشارة ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾ للبعيد، والبُعد هنا لا يُراد به المعنى الحقيقي المحسوس، وإنما يُراد به المعنى المجازي، متمثِّلاً في قوة الحجّة، وقدرتها على الإقناع، وأضاف الله سبحانه وتعالى الحجة إلى ذاته العليّة إعلاءً لمكانتها ولصدقها وتشريفًا لمن أجراها على لسانه وقلبه[٤].

٢ ـ وقوله تعالى ﴿ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ﴾:

أي: أعطيناها له بإلهام الفطرة السليمة، والعقل الحنيف الذي لا يميل إلا للحق ولا يتّجه إلا إليه، وكانت هذه حجة قوية فاز بها على قومه، وقامت

---

(١) مفتاح دار السعادة، ابن قيم الجوزية، تحقيق: عبد الرحمن بن حسن بن قائد، مجمع الفقه الإسلامي، جدة، السعودية، ط١، ١٩٩٧م، (٣/ ٣٨٧ـ٣٨٨).
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٢/ ١١٤٢).
(٣) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (٥/ ٢٥٧١)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، (٢/ ٢٠٢).
(٤) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (٥/ ٢٥٧١).

عليهم فيما يفعلون ويتوهّمون ويزعمون، ثم يعتقدون الباطل الذي ليس فيه حقّ ولا شبهة، إنما البهتان العظيم، والظلم العظيم للحقائق.

إنَّ الله عزّ وجل اختار إبراهيم عليه السَّلام لتقوم به الحجة؛ لأنه لم يخلق الناس في الفكر والعلم على سواء، فمنهم الهادي المرشَد الذي اختاره الله تعالى؛ ليكون رسول الحق إلى الناس، ومنهم الضّال الذي يطلب الهداية، ومنهم من أُركس في الشرّ، وخَتم الله على بصيرته وسمعه وبصره، فلا يُدرك حقًّا ولا يستمع لداعي الحق[١].

وقد أقام الله الحجة على قوم إبراهيم عليه السَّلام، فأمدّه بقوة في شخصيته كمُحاور بارع ومناظر مُفحِم، كما رزقه الله قوة في حججه وبراهينه التي حقَّق بها انتصارات متوالية على كبار قومه وسادتهم، ولذلك استحقّ الثناء العظيم من المولى سبحانه.

واسم الإشارة «تلك» إشارة إلى جميع احتجاجاته، حتى خاصمهم وغلبهم بالحجة[٢]. وفي إضافة الحجة إلى اسم الجلالة تنويه بشأنها وصحتها، فإيتاء الحجة وإلهامه إياها وإلقاء ما يعبِّر عنها في نفسه، هو فضل من الله على إبراهيم عليه السَّلام إذ نصره على مناظريه[٣].

والواقع أنَّ جميع حوارات إبراهيم عليه السَّلام تتَّسم بالقوة المقنعة والنفوذ المؤثر في نفوس الآخرين، وتنتهي بانتصاره على خصومه الذين لا يجدون أمامهم إلا الإذعان والتسليم، لكن كبرياءَهم وعنادهم يصدّانهم عن الحق،

---

(١) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (٥/ ٢٥٧٢).

(٢) صناعة الحوار، حمد عبد الله السيف، ص٢٨٦، تفسير القرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، مؤسسة الرسالة، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م، (٧/ ٣٠).

(٣) صناعة الحوار، حمد عبد الله السيف، ص٢٨٦، تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (٧/ ٣٣٥).

ويستبدلون أساليب التحاور والتفاهم بأساليب الكبت والبطش والتنكيل. وكل من يتأمَّل حواراته عليه السَّلام، ويستحضر مكوناته الشخصية وأدواره الرسالية، يُدرك ـ بلا عناء ـ جوانب متعددة من القوة الحجاجيّة والخبرة الجدلية التي تمتعت بها شخصية إبراهيم عليه السَّلام، حتى صارت سمة شاخصة وأسلوبًا متميزًا[١].

٣ ـ وقوله تعالى ﴿ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ ﴾:

تُطلق الدرجات على المراتب المعنويّة في الخير والجاه والعلم والسيادة والرزق، ومن معاني الآية: نرفع من شئنا من عبادنا درجات، بعد أن لم يكن على درجة منها، ومن معانيها نرفع درجات من شئنا من أصحاب الدرجات حتى تكون درجته في كل فضيلة ومنقبة أرفع من درجة غيره فيها.

فالعلم النظري درجة كمال، والحكمة العلمية والعملية درجتا كمال، وفصل الخطاب وقوة العارضة في الحِجاج من درجات الكمال، والسيادة والحكم بالحق درجة كمال، والنبوة والرسالة أعلى من كل هذه الدرجات؛ لأنّها تشتمل عليها وتزيد عنها، وكل ذلك متفاوت بفضل الله، فضّل بعض أهله على بعض، فهو سبحانه يُؤتي الدرجات ابتداءً بإعداده وبتوفيقه من يشاء. وقد وهبَ اللهُ عزَّ وجلَّ خليله إبراهيم الدرجات العلا في الحجة والسيادة والقَبول عند أهل الأرض، كما خصَّه بأعلى الدرجات وهي درجة النبوّة.

وقال الشيخ الإمام محمد أبو زهرة: الدرجات المراتب العالية في الهداية والتوفيق، وعبَّر سبحانه وتعالى بالفعل المضارع ﴿ نَرۡفَعُ ﴾ لتجدد الرفعة المستمرة، فالوجود الإنساني يستمر الخير فيه بوجود الهداة المرشدين والمستمعين الأخيار الذين يستمعون فيقولون سمعنا وأطعنا، وبجوار هؤلاء

(١) صناعة الحوار، حمد عبد الله السيف، ص٢٨٧.

أولئك الذين يستمعون طيب القول فيقولون سمعنا وعصينا، وبذلك يتفاعل الخير والشر في هذه الحياة، وسبق بيان العاقبة للمتقين، قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩] [١].

٤ ـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾:

تذييل مقرر لمضمون ما قبله، مبيّن لمُنشئه ومتعلقه من صفات الله تعالى، وقد وُضع فيه اسم الرب مضافاً إلى ضمير الرسول عليه الصلاة والسلام موضع نون العظمة على طريق الالتفاف، تذكير منه تعالى لخاتم رسله بفضله عليه وتفضيله إياه برفعه درجات على جميع رسل الله، فهو يقول له: إنّ ربك الذي ربّاك وأراك وعلّمك وهداك، ورفع ذكرك بجوده وكرمه، وجعلك خاتم رسله لجميع خلقه، حكيم في فعله وصنعه، عليم بشؤون خلقه وسياسة عباده، وسيُريك شاهد ذلك عياناً في سيرتك مع قومك، كما أراكهُ بياناً فيما كان من إبراهيم مع قومه[٢].

فالله عزّ وجل حكيم يضع كل شيء بميزان، عليم بكل شيء، وله فيما يشاء ويختار الحكم والعبر البالغات، تبارك الله رب العالمين.

وذكرت الآية الكريمة ثلاثة أسماء من أسماء الله الحسنى: الربّ، والحكيم، والعليم، وإليك بيان لمعاني هذه الأسماء:

أ ـ الرب: هو المربّي جميع عباده بالتدبير وأصناف النعم، وأخصُّ من هذا: تربيته لأصفيائه بإصلاح قلوبهم وأرواحهم وأخلاقهم، ولهذا أكثر دعائهم له بهذا الاسم الجليل، لأنهم يطلبون منه التربية الخاصة[٣].

---

(١) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (٥/ ٢٥٧٢).
(٢) تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم)، محمد رشيد رضا، (٧/ ٥٨٢ ـ ٥٨٤).
(٣) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، (٥/ ٤٨٦).

ب ـ الحكيم: هو الذي له الحكمة العليا في خلقه وأمره، الذي أحسن كل شيء خلقه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، فلا يُخلق شيء عبثًا، ولا يُشرَّع سدى، الذي له الحكم في الأولى والآخرة، لا يشاركه مشارك، فيحكم بين عباده في شرعه وفي قدره وجزائه.

والحكمة: وضع الأشياء مواضعها وتنزيلها منازلها.

ج ـ العليم: هو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والإسرار، والإعلان، وبالواجبات والمستحيلات والممكنات، وبالعالم العلوي والسفلي، وبالماضي والحاضر والمستقبل، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء[1].

* * *

سابعًا: قوله تعالى ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٤ ـ ٨٦]:

لم يستطع إبراهيم المقام في قومه بعد أن بلَّغهم الدعوة إلى الله، وبعد أن اتَّسعت الهوة بينه وبينهم عندما جعل أصنامهم جذاذًا، وألقوه في النار، ونجّاه الله من النار، ولما أيقن أنه لا مقام له بينهم هاجر واعتزلهم، وأخذ يطوف في الآفاق، فذهب إلى بلاد الشام وإلى مصر، وأخذ يبثُّ التوحيدَ في كل ركن، ولا يصاحبه إلا امرأته ومعه ابن أخيه لوط عليه السَّلام، الذي قام مع عمه بالدعوة خير قيام.

ولمّا أحسن إبراهيم عليه السَّلام في طاعة ربّه، وأخلص في الدعوة إلى

---

(١) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» (٥/ ٢٩٩).

توحيده، أحسن الله تعالى إليه برفع درجاته، وجعل النبوة والكتاب في أولاده وذُرِّيّته، فهو أصل شجرة النبوّة، ومنه تفرعت فروعها وأغصانها، فما من نبي أكرمه الله تعالى بالنبوة والرسالة بعده إلا كان من ذُرِيّته عليه السَّلام، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧] [١].

إنَّ الله عزّ وجل جعل إبراهيم عليه السَّلام عزيزًا في الدنيا؛ بأن جعل أشرف الناس ـ وهم الأنبياء والرسل ـ من نسله ومن ذُرِيّته، وأبقى هذه الكرامة في نسله إلى يوم القيامة؛ لأن من أعظم أنواع السرور علم المرء بأنه سيكون من عَقِبه الأنبياء والملوك، والمقصود من هذه الآيات تعديد أنواع نعم الله على إبراهيم عليه السَّلام جزاءً على قيامه بالذّبِّ عن دلائل التوحيد[٢].

وهذه الآيات من سورة الأنعام جمع فيها ثمانية عشر نبيًّا من أنبياء الله: إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونوح عليه السَّلام هؤلاء أربعة، ثم ذكر أربعة عشر نبيًّا في مجموعات ثلاث كما تجد ذلك في الآيات السابقة[٣]، وإليك تفسيرها:

١ ـ قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ﴾:

يخبر الله تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحاقَ عليهما السلام بعد أن طعن في السن، وأيس هو وامرأته سارة من الولد، فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط فبشَّروهما بإسحاق، فتعجَّبت المرأة من ذلك: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ

---

(١) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٢/ ٤٧١).
(٢) التفسير الكبير مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، (١٣/ ٦٧).
(٣) قصص القرآن الكريم، فضل حسن عباس، ص٢٩٣.

وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾ [هود: ٧٢ ـ ٧٣]، وبشَّروهما بنبوةِ إسحاق، وبأن له نسلاً وعقبًا، كما قال: ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢]، وهذا أكمل في البشارة وأعظم في النعمة، وقال: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ [هود: ٧١] أي: ويولد لهذا المولود ولد في حياتكما فتقرّ أعينكما به كما قرّت بوالده، فإن الفرح بولد الولد شديد لبقاء النسل والعقب.

ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يُتوهَّم أنه لا يُعقِب لضعفه وقعت البشارة به وبولده باسم «يعقوب» الذي فيه اشتقاق العقب والذرية، وكان هذا مجازاة لإبراهيم عليه السَّلام حين اعتزل قومه وتركهم، ونزح عنهم وهاجر من بلادهم ذاهبًا إلى عبادة الله في الأرض، فعوضه الله عزَّ وجل عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه على دينه؛ لتقرَّ بهم عينه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا﴾ [مريم: ٤٩]، وقال ههنا: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ﴾[1].

ونلاحظ في الآية السابقة تعظيم هبة الله لإبراهيم بولده إسحاق وبحفيده يعقوب عليهما السلام بنون الجمع والثناء عليهما بالهداية: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ﴾ والوهب والهبة: إعطاء الشيء بلا عوض.

وقد جاءت المنّة على إبراهيم عليه السَّلام بهبة إسحاق ويعقوب له بصيغة الجمع أربع مرات في كتاب الله عزّ وجل:

أولها من حيث ترتيب المصحف ما ذكرناه في سورة الأنعام.

والثاني في قوله تعالى ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا﴾ [مريم: ٤٩ ـ ٥٠].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، (٣/ ٢٩٠ ـ ٢٩١).

والثالث في قوله تعالى ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ۝٧١ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١ ـ ٧٢].

والرابع في قوله تعالى ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢٦ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٦ ـ ٢٧].

وجميع هذه السور مكيَّة، وهذا التقديم والاختصاص بالذكر لإسحاق ويعقوب عليهما السلام في السور المكيّة فيه تسلية لنبينا محمد ﷺ بأن الله سيحفظه وينصره، كما حفظ أباه إبراهيم عليه السَّلام من قبل، وبأن الله سيُمكِّن له في الأرض، وينشر دينه، وإن عاداه قومه، كما مكّن لإبراهيم عليه السَّلام وذُريّته من قبل.

وفي الجمع بين إسحاق ويعقوب عليهما السلام في هذه المواضع الأربعة ما يدلُّ على أنَّ البشارة بهما كانت في مقام واحد، كما جاء ذلك صريحًا في قوله تعالى خطابًا لسارة زوج إبراهيم عليه السَّلام ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١].

وقال الطبري رحمه الله: يقول تعالى ذكره: فجزينا إبراهيم على طاعته إيّانا، وإخلاصه توحيد ربّه، ومفارقته دين قومه المشركين بالله، بأن رفعنا درجته في عليين، وآتيناه أجره في الدنيا، ووهبنا له أولادًا خَصَصناهم بالنبوّة، وذريةً شرفناهم منا بالكرامة، وفضَّلناهم على العالمين، منهم ابنه إسحاق وابن ابنه يعقوب عليهما السلام ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾، يقول: هدينا جميعهم لسبيل الرشاد، فوفَّقناهم للحقِّ والصواب(١).

---

(١) تفسير الطبري «جامع البيان في تأويل القرآن»، (٧/ ٢٦٠).

أ ـ وقد تحدث العلماء عن الحكمة من تقديم إسحاق على إسماعيل عليهما السلام في سورة الأنعام:

وأجاب المفسر الكبير الرازي على ذلك، فقال: فإن قالوا: لمَ لم يذكر إسماعيل مع إسحاق عليهما السلام؟ قلنا: لأن المقصود بالذكر هنا أنبياء بني إسرائيل، وهم بأسرهم أولاد إسحاق ويعقوب عليهما السلام، وأما إسماعيل عليه السَّلام فإنه ما خرج من صلبه أحد من الأنبياء إلا محمد ﷺ، ولا يجوز ذكر محمد ﷺ في هذا المقام؛ لأن الله أمرَ محمدًا ﷺ أن يحتج على العرب في نفي الشرك بالله بأن إبراهيم لما ترك الشرك وتمسَّك بالتوحيد، رزقه الله النعم العظيمة في الدين والدنيا، ومن النعم العظيمة في الدنيا أن آتاه الله أولادًا كانوا أنبياء وملوكًا، فإذا كان المحتج بهذه الحجة هو محمد ﷺ امتنع أن يذكر نفسه في هذا المعرض، فلهذا السبب لم يذكر إسماعيل مع إسحاق[١].

هذا وجه ظاهر قوي، ويعني بذلك: أن إسماعيل وإسحاق عليهما السلام لم يُذكرا مقترنين، وإلا فإن إسماعيل عليه السَّلام ذُكر بعد ذكر إسحاق عليه السَّلام بآية واحدة.

وقال البقاعي في ذكر حكمة الابتداء بإسحاق ويعقوب عليهما السلام: وابتدأ سبحانه بهما؛ لأن السّياق للامتنان على الخليل عليه السَّلام وهو أشدُّ سرورًا بابنه الذي مُتّع به، ولم يُؤمر بفراقه، وابن ابنه الذي أكثرُ الأنبياء الداعين إلى الله من نسله ومن خواصِّه، وهو الموجب الأعظم للبداءة أن أبناءه طهَّروا الأرض المقدسة، التي هي دار إبراهيم عليه السَّلام ومختاره للسكنى بنفسه ونسله، بل مختار الله له ولهم بعده بمدد طهورها من الشرك وعبادة الأوثان، ودعَوْا إلى الله ونوَّروا الأرض بعبادته[٢].

---

(١) التفسير الكبير مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، (٦/ ٣٥٩).

(٢) حديث القرآن عن إسماعيل وإسحاق عليهما السلام، د. سليمان إبراهيم الحصين، مجلة=

ب ـ الحكمة من ذكر هداية الله لنوح بعد ذكر هبة إسحاق ويعقوب عليهم السلام:

وفي قوله تعالى ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾: أي: من قبله هديناه، ووهبنا له ذرية صالحة، وكلٌّ منهما له خصوصية عظيمة. أما نوح عليه السَّلام فإنَّ الله سبحانه وتعالى لما أغرق أهل الأرض إلا مَن آمن به ـ وهم الذين صحبوه في السفينة ـ جعل الله ذُريّته هم الباقين، فالناس كلهم من ذرية نوح، وكذلك الخليل إبراهيم عليه السَّلام إذ لم يبعث الله عزّ وجل بعده نبيًّا إلا من ذُريّته، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾ [مريم: ٥٨][١].

٢ ـ قال تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾:

قوله تعالى ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾؛ أي وهدينا من ذُريّته ﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾، ويعود الضمير إلى «نوح»؛ لأنه أقرب المذكورين، وهو اختيار ابن جرير ولا إشكال عليه، وعوده إلى إبراهيم صحيح؛ لأنّه الذي سبق الكلام من أجله[٢].

= تبيان للدراسات القرآنية، الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه، ٢٠١٦م، ص٤٧١، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م، (٧/ ١٧٧٠).

(١) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، (٣/ ٢٩٠ ـ ٢٩٢).

(٢) المرجع نفسه، (٣/ ٢٩٠ ـ ٢٩٢).

وقال محمد رشيد رضا: ذكر الله في هذه الآيات الثلاث أربعة عشر نبيًّا، لم يرتِّبهم على حسب تاريخهم وأزمانهم؛ لأنه أنزل كتابه هدى وموعظة لا تاريخًا، ولا على حسب فضلهم ومناقبهم؛ لأن كتابه ليس كتاب مناقب ومدائح، وإنما هو كتاب تذكرة وعبرة، وقد جعلهم ثلاثة أقسام لمعانٍ في ذلك جامعة بين كل قسم منهم. **فالقسم الأول**: داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون، والمعنى الجامع بين هؤلاء أن الله تعالى آتاهم الملك والإمارة، والحكم والسيادة، مع النبوة والرسالة، وقد قدم ذكر داود وسليمان وكانا ملكين غنيَّين مُنعَّمين، وذكر بعدهما أيوب ويوسف، وكان الأول أميرًا غنيًّا عظيمًا محسنًا، والثاني وزيرًا عظيمًا وحاكمًا متصرّفًا، ولكنَّ كلاًّ منهما قد ابتُلي بالسراء فشكر، وأما موسى وهارون فكانا حاكمين، ولكنهما لم يكونا ملكين، فكلٌّ زوجين من هؤلاء الأزواج الثلاثة ممتاز بمزيّة.

والترتيب بين الأزواج على طريق التدلّي في نعم الدنيا، وقد يكون طريق الترقّي في الدين، فداود وسليمان كانا أكثر تمتُّعًا بنعم الدنيا، ودونهما أيُّوب ويوسف، ودونهما موسى وهارون، والظاهر أن موسى وهارون أفضل في هداية الدين وأعباء النبوة من أيوب ويوسف، وأن هذين أفضل من داود وسليمان بجمعهما بين الشكر في السراء، والصبر في الضراء، والله أعلم.

وقال تعالى بعد ذكر هؤلاء: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي: بالجمع بين نعم الدنيا ورياستها بالحق وهداية الدين وإرشاد الخلق، وهذا كما قال تعالى في أحدهما وهو يوسف: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢]، فهو جزاء خاص بعضُه مُعجَّل في الدنيا، أي: ومثل هذا الجزاء في جنسه يجزي الله بعض المحسنين بحسب إحسانه في الدنيا قبل الآخرة، ومنهم من يُرجئ جزاءه إلى الآخرة(١).

---

(١) تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم)، محمد رشيد رضا، (٧/ ٥٨٦ ـ ٥٨٨).

٣ ـ قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾:

ذكر محمد رشيد رضا **القسم الثاني** فقال: زكريا ويحيى وعيسى وإلياس، وهؤلاء قد امتازوا في الأنبياء عليهم السلام بشدة الزهد في الدنيا والإعراض عن لذاتها، والرغبة عن زينتها وجاهها وسلطانها، ولذلك خصّهم هنا بوصف الصالحين، وهو أليق بهم عند مقابلتهم بغيرهم، وإن كان كلُّ نبيٍّ صالحًا ومحسنًا على الإطلاق[١].

٤ ـ قال تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾:

وهذا **القسم الثالث** الذي ذكره محمد رشيد رضا: إسماعيل واليسع ويونس ولوط، وأَخَّرَ ذكرَهم لعدم الخصوصية، إذ لم يكن لهم من ملك الدنيا أو سلطانها ما كان للقسم الأول، ولا من المبالغة في الإعراض عن الدنيا ما كان للقسم الثاني، وقد قفَّى على ذكرهم بالتفضيل على العالمين، الذي جعله الله تعالى لكل نبيٍّ على عالِمي زمانه، فمن كان من النبيين منهم منفردًا في عالم أو قوم كان أفضلهم على الإطلاق، وما وُجد من نبيَّين فأكثر في عالم أو قوم فقد يكونون مع تفضيلهم على غيرهم متفاضلين في أنفسهم، فلا شكّ في أن إبراهيم أفضل من لوط المعاصر له، وأن موسى أفضل من أخيه هارون الذي كان وزيره، وأن عيسى أفضل من ابن خالته يحيى، صلوات الله عليهم أجمعين[٢].

وقد تحدث الإمام الرازي عن حكمة ترتيب ذكر الأنبياء في هذه الآيات، فقد ذكر الله عزّ وجل في هذه الآيات أربعة من الأنبياء، وهم نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب، ثم ذكر من ذُرِيَّتِهم أربعة عشر نبيًّا: داود، وسليمان،

---

(١) تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم)، محمد رشيد رضا، (٧/ ٥٨٦ ـ ٥٨٨).
(٢) المرجع نفسه، (٧/ ٥٨٦ ـ ٥٨٨).

وأيوب، ويوسف، وموسى، وهارون، وزكريا، ويحيى، وعيسى، وإلياس، وإسماعيل، واليسع، ويونس، ولوطًا ـ عليهم السلام جميعًا ـ والمجموع ثمانية عشر[١]، فقد قال الرازي: فإن قيل: رعاية الترتيب واجبة، والترتيب إما أن يُعَدّ بحسب الفضل والدرجة، وإما أن يُعَدَّ بحسب الزمان والمدة، والترتيب بحسب هذين النوعين غير معتبر في هذه الآية، فما السبب فيه؟

قلنا: الحقُّ أن حرف الواو لا يُوجب الترتيب، وأحد الدلائل على صحة هذا المطلوب هذه الآية؛ فإن حرف الواو حاصل ههنا مع أنه لا يُفيد الترتيب البتَّة، لا بحسب الشرف، ولا بحسب الزمان، وأقول عندي فيه وجه من وجوه الترتيب؛ وذلك لأنّه سبحانه وتعالى خصّ كل طائفة من طوائف الأنبياء بنوع من الإكرام والفضل، فمن المراتب المعتبرة عند جمهور الخلق: الملك والسلطان والقدرة، والله تعالى قد أعطى داود وسليمان عليهما السلام من هذا الباب نصيبًا عظيمًا.

والمرتبة الثانية: البلاء الشديد والمحنة العظيمة، وقد خصَّ الله أيوب عليه السَّلام بهذه المرتبة والخاصية.

والمرتبة الثالثة: من كان مستجمعًا لهاتين الحالتين، وهو يوسف عليه السَّلام، فإنه نال البلاء الشديد الكثير في أول الأمر، ثم وصل إلى الملك في آخر الأمر.

والمرتبة الرابعة: من فضائل الأنبياء عليهم السلام وخواصِّهم: قوة المعجزات، وكثرة البراهين، والمهابة العظيمة، والصولة الشديدة، وتخصيص الله تعالى إياهم بالتقريب العظيم والتكريم التام، وذلك كان في حق موسى وهارون عليهما السلام.

---

(١) حديث القرآن عن إسماعيل وإسحاق عليهما السلام، د. سليمان إبراهيم الحصين، ص٤٧٢.

والمرتبة الخامسة: الزهد الشديد والإعراض عن الدنيا، وترك مخالطة الخلق، وذلك كما في حق زكريا ويحيى وعيسى وإلياس عليهم السلام، ولهذا السبب وصفهم الله بأنهم من الصالحين.

والمرتبة السادسة: الأنبياء الذين لم يبقَ لهم فيما بين الخلق أتباع وأشياع، وهم إسماعيل، واليسع، ويونس، ولوط عليهم السلام، فإذا اعتبرنا هذا الوجه الذي راعيناه ظهر أن الترتيب حاصل في ذكر هؤلاء الأنبياء عليهم السلام بحسب هذا الوجه الذي شرحناه(١).

وبهذا الوجه الذي ذكره الرازي رحمه الله يتبيَّن لنا حكمة الجمع بين هؤلاء الأنبياء الأربعة: إسماعيل واليسع ويونس ولوط عليهم السلام، والله أعلم.

ومن حكمة الفصل في هذه الآيات بين إسماعيل وأبيه ويوسف وأبيه عليهم السلام ما ذكره البقاعي، حيث قال: فُصل بين إسماعيل وأبيه، ويوسف وأبيه عليهم السلام إشارة إلى فراق كل منهما لأبيه في الحياة(٢).

❊ ❊ ❊

ثامنًا: قوله تعالى ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٧ ـ ٩٠]:

١ ـ قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٨٧]:

---

(١) التفسير الكبير مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، (٦/ ٣٦٠)، حديث القرآن عن إسماعيل وإسحاق عليهما السلام، د. سليمان إبراهيم الحصين، ص٤٧٣.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، (٧/ ١٧٢).

هناك مجموعة رابعة لأنبياء لم يذكرهم الله تعالى في كتابه من ذرية إبراهيم، ولكنهم من ذوي قرابتهم أو من جنس الأنبياء، وإن لم يكن لهم قرابة إلا أُخوّة الأنبياء، فقد قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ﴾، أي جعلنا أنبياء أخلصوا وجوههم لله من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم، كإدريس وشعيب وهود، وصالح عليهم السلام وغيرهم، وقد اجتبيناهم أي اصطفيناهم واخترناهم للرسالة الإلهية، وهديناهم إلى صراط مستقيم من الحقّ، لا اعوجاج فيها ولا التواء. قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، والصراط المستقيم هو صراط الحق جلّ جلاله، ومن سار فيه لا يَضلُّ ولا يُغوى(١).

٢ ـ قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]:

هذا تقرير لينابيع الهدى في هذه الأرض، فهُدى الله للبشر يتمثَّل فيما جاءت به الرسل، فيجب اتّباعهم في هذا المصدر الواحد، الذي يقرِّر الله سبحانه أنه هو هدى الله، وأنه هو الذي يهدي إليه من يختار من عباده، ولو أن هؤلاء العباد المهديِّين حادوا عن توحيد الله وتوحيد المصدر الذين يَستمدُّون منه هداه، وأشركوا بالله في الاعتقاد أو العبادة أو التلقي، فإنّ مصيرهم أن يَحبط عنهم عملُهم: أي أن يذهب ضياعًا، ويهلك كما تهلك الدابة التي ترعى نبتًا مسمومًا، فتنتفخ ثم تموت، وهذا هو الأصل اللغوي للحبوط(٢).

ويقول الإمام محمد أبو زهرة: إن ما عليه أولئك النبيّون من صبر في النعماء والضراء، والقوة والضعف، والشدة والرخاء، ومن سيطرة الروح على الجسد، وجعله خادمًا لمطالب الحياة، والعزّة التي لا ذلّة فيها، والتواضع

---

(١) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (٥/ ٢٥٧٩).
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٢/ ١١٤٤).

الذي لا ضِعة فيه، هذه هي الهداية تُؤخذ من أخلاق النبوة، هذا هدى الله تعالى؛ ولذا قال تعالى بعد قصص الأنبياء السابقين: ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ ﴾ [1].

وقد قال تعالى: ﴿ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ ﴾، فالجميع عبيد الله تعالى، وإن هؤلاء وصلوا إلى ما وصلوا بالوحدانية: ﴿ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾، «لو» كما يقول النحويّون: حرف امتناع لامتناع، امتناع الجواب لامتناع الشرط، أي لو أشركوا، وهو ممتنع عليهم لعصمتهم، لحبطت أعمالهم، وهو أيضًا ممتنع لامتناع الشرط. وحبوط الأعمال بطلانها كأنها لم تكن، أي يذهب ما في الأعمال من الخير، وتُسلَب منهم الهداية، فالشرك يمحو كل خير، ويذهب بكل عمل نافع، وما يفعله المشركون من خير ليس له اعتبارٌ في ميزان القبول عند الله تعالى. فالنصّ تقبيح للشرك أيًّا كانت صورته، وحثّ على الخير، وحمايته بالوحدانية[2].

قال الرازي: اعلم أنه يجب أن يكون المراد من هذا الهدى معرفةَ التوحيد وتنزيه الله تعالى عن الشرك، ثم ختم تعالى هذه الآية بنفي الشرك ﴿ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ ﴾، والمعنى: أن هؤلاء الأنبياء لو أشركوا لحبط عنهم طاعاتهم وعباداتهم، والمقصود منه تقرير التوحيد وإبطال طريقة الشرك[3].

وقال رسول الله ﷺ: «**قال الله تعالى: أنا أغنى الشُّركاءِ عَنِ الشِّرك، مَن عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركتُه وشركَه**»[4].

(١) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (٥/ ٢٥٧٩).
(٢) المرجع نفسه، (٥/ ٢٥٨٠).
(٣) التفسير الكبير مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، (٥/ ٥٤).
(٤) صحيح مسلم، (٤/ ٢٢٨٩).

٣ ـ قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٩]:

هذا هو التقرير الثاني، فقرّر في الأول مصدر الهدى، وقصره على هدى الله الذي جاءت به الرسل، وقرَّر في الثاني أن الرسل الذين ذكرهم، والذين أشار إليهم، هم الذين آتاهم الله الكتاب والحكمة والسلطان والنبوة.

و﴿ٱلۡحُكۡم﴾ يجيء بمعنى الحكمة كما يجيء بمعنى السلطان كذلك، وكلا المعنيين محتمل في الآية[١]، و﴿ٱلۡحُكۡم﴾ هو الفصل بين الحق والباطل، والظلم والعدل، والصالح والفاسد[٢]، و﴿ٱلنُّبُوَّة﴾: هي الوحي الذي أنزله الله على الأنبياء[٣].

وقد أفرد الله سبحانه وتعالى النبوَّةَ بالذكر مع أن ما مضى يتضمَّنُها؛ وذلك لشرفها، باتصالها بالله تعالى، وللتصريح بالأنبياء الذين لم ينزل عليهم كتاب، ولبيان مكان العلم الذي أُوتوه واتَّبعوه، وأنه من الله العلي الحكيم، وليرتب الحكم على الكفر بالنبوّات، إذ كان من العرب من كفر بالنبوَّة، وقال: ما أنزل الله على بشر من شيء[٤].

وقد أنزل الله تعالى على بعض هؤلاء الرسل الكتاب، كالتوراة على موسى، والزبور على داود، والإنجيل على عيسى، وبعضهم آتاه الله الحكم كداود وسليمان، وكلُّهم أُوتي السلطان على معنى أن ما معه من الدين هو حكم الله، وأن الدين الذي جاؤوا به يحمل سلطان الله على النفوس وعلى الأمور، فما أرسل الله تعالى الرسل إلا ليُطاعوا، وما أنزل الكتاب إلا ليحكم

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٢/ ١١٤٤).
(٢) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (٥/ ٢٥٨٠).
(٣) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٢/ ٤٧٣).
(٤) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (٥/ ٢٥٨١).

بين الناس بالقسط، كما جاء في الآيات الأُخر، وكلُّهم أُوتي الحكمة وأوتي النبوَّة، وأولئك هم الذين وكَّلهم الله بدينه، يحملونه إلى الناس، ويقومون عليه، ويؤمنون به، ويحفظونه، فإذا كفر بالكتاب والحكم والنبوَّة مشركو العرب ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، فإن دين الله غني عنهم، وهؤلاء الرهط الكرام المؤمنون هم حسبُ هذا الدين(١).

إنّها حقيقة قديمة امتدَّت شجرتها، وموكب موصول تماسكت حلقاته، ودعوة واحدة حملها رسول بعد رسول، وآمن بها ويؤمن مَن يَقسم الله له الهداية، وهو تقرير يسكب الطمأنينة في قلب المؤمن، وفي قلوب العصبة المسلمة أيًا كان عددها.

وإنَّ هذه العصبة ليست وحدها، ولا مقطوعة من شجرة، إنّها فرع منبثق من شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وحلقة في موكب جليل موصول، موصولة أسبابه بالله وهداه، وإنَّ المؤمن الفرد، في أي أرض وفي أي جيل، قوي قوي، كبير كبير، إنه من تلك الشجرة المتينة السامقة الضاربة الجذور في أعماق الفطرة البشرية، وفي أعماق التاريخ الإنساني، وعضو من ذلك الموكب الكريم الموصول بالله وهداه منذ أقدم العصور(٢).

وفي قوله تعالى ﴿ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾: وهم كلُّ من آمن برسالة خاتم الأنبياء ـ عليه الصلاة والسلام ـ من الصحابة والتابعين لهم إلى يوم الدين، فالأمة المسلمة هي الأمة الموكَّلة بحمل الرسالة وأداء الأمانة، بعد أن ختم الله عزَّ وجل النبوَّة والرسالة بخاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ، ومعنى توكيلهم بها أنهم وُفّقوا للإيمان بها، والقيام بحقوقها، كما يُوكّل الرجل

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٢/ ١١٤٤).
(٢) المرجع نفسه، (٢/ ١١٤٤).

بالشيء؛ ليقوم به ويتعهده ويحافظ عليه[١]، فالأنبياء آتاهم الله الرسالة بما أنزل عليهم من الوحي، وكلّفهم بتبليغها، بينما الأمة المسلمة وُكِّلت بحفظ الرسالة، والقيام عليها، ونشرها بعد أن خُتمت النبوَّةُ.

إنَّ في الآية إشارةً كبيرة للنبي ﷺ، وهو في مكة المكرمة، أن الله سبحانه سيُظهر دينَه ويُعِزُّ رسالته، ويُمكِّن له في الأرض، وفيها أيضًا تنويه بفضل الصحابة رضي الله عنهم من المهاجرين والأنصار، الذين وكّلهم الله تعالى على رسالته، وجعلهم الحمَلة والحفظة لأمانته، وتنويه أيضًا بفضل الأمة الإسلامية وبيان مسؤوليتها الكبيرة في حمل رسالة الإسلام وحفظها ونشرها بين الناس.

كما تدلّ الآية الكريمة على كمال الشريعة الإسلامية، فكتابها القرآن الكريم الذي تعهّد الله تعالى بحفظه، وحكمُها سنَّة النبي ﷺ المبيِّنة لأحكام الكتاب الكريم، ونبوّتها خاتمة النبوات، فبه عليه الصلاة والسلام اكتملت شجرة النبوَّة وخُتمت كما قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**مَثَلي ومَثلُ الأنبياء مِن قَبلي، كمَثَلِ رَجُلٍ بنى بُنيانًا، فأحسَنَه وأجمَلَهُ، إلا مَوضِعَ لَبِنَةٍ من زاويةٍ من زواياه، فَجَعَلَ النّاسُ يَطُوفُونَ به، ويَعجبونَ لَه ويقولون: هلاّ وُضِعَت هذه اللَّبِنةُ؟! فأنا اللَّبِنةُ، وأنا خاتَمُ النَّبيِّينَ**»[٢].

٤ ـ قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]:

هو التقرير الثالث، فهؤلاء الرهط الكرام الذين يقودون موكب الإيمان، وهم الثمانية عشر نبيًّا المذكورون في هذه الآيات، وبقي سبعة ممَّن سمّاهم الله

---

(١) مدارك التنزيل وحقائق التأويل (تفسير النسفي)، (٢/ ٢٤١).
(٢) صحيح البخاري، رقم (٣٥٣٥)، التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٢/ ٤٧٤).

في كتابه، وهم آدم وإدريس وهود وصالح وشعيب وذو الكفل ـ عليهم السلام جميعًا ـ ومحمد ﷺ.

وقد أُمر النبي ﷺ ـ بعد ذكر الأنبياء الثمانية عشر ـ بالاقتداء بهم ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ ﴾.

* ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ ﴾: أي: أولئك الأنبياء الذين سبق ذكرهم، الذين هداهم الله تعالى بالوحي الذي أنزله عليهم.

* ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ ﴾ أي: لا تقتدِ إلا بهم، ولهذا قدَّم المفعول؛ لِيُفيد الحصر والتخصيص، وهُداهم هو إيمانهم بالله تعالى وحده، واستسلامهم لأمره ومشيئته، وما كانوا عليه من الأخلاق الفاضلة الكريمة[١].

إنَّ الأنبياء والمرسلين يُمثِّلون نماذج بشرية بلغت من السُّموِّ والعلوِّ منزلة رفيعة، سواءٌ في ذواتهم أم في منهجهم في الدعوة، ولا غروَ في ذلك فهم المُصطَفَون الذين اختارهم الخالق عزّ وجل، الذين خصّهم بكرامته وأهّلهم للرسالة والنبوَّة، من غير أن يكون ذلك منهم على رجاء، أو كسب أو توسل إليه بعمل، بل هو أمر أُريد بهم، والله أعلم حيث يجعل رسالته، قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآۚ ﴾ [مريم: ٥٨]، ومعنى اجتبينا: أي اصطفينا من العباد حتى جعلناهم أنبياء[٢].

فمناهج دعوة هؤلاء الأنبياء الفردية والجماعية، بما تحويه من اعتقادات وسلوكيات وأفعال، تعدّ ترجمة أو تطبيقًا واقعيًّا فاعلاً لهذا الدين الذي أنزله الله هدى ورحمة للعباد[٣].

---

(١) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٢/ ٤٧٤).

(٢) زبدة التفاسير، محمد سليمان الأشقر، ص٤٠٢.

(٣) منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٤، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م، (١/ ١٨٠).

قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ ﴾ [الأنعام: ٩٠]، والخطاب هنا لنبيّنا محمد ﷺ، والمؤمنين به من بعده، وأولئك أي: الأنبياء الذين هداهم الله لدينه الحق، وأهّلهم لحمل دعوته وهداية الناس إليه. والاقتداء بهم: أي اتخاذهم أسوة ومثالاً ونموذجًا في الأقوال والأفعال والمناهج، فهم المعصومون الهادون إلى الحقِّ بإذن الله[١].

وأمْرُ النبي ﷺ بالاقتداء بهداهم يُؤذِن بأن الله زَوى إليه فضائلهم الَّتي اختصَّ كلَّ واحدٍ بها، فقد كان الرسول محمد ﷺ أعظم قدوةً للناس فهو خاتم الأنبياء والمرسلين، جمع الله عزّ وجل له من الفضائل ما لم تجتمع بهذا الكمِّ العظيم في غيره، وهو صاحب الخُلُق الموصوف بالعظيم.

وقوله تعالى ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]، يشمل ما كان راجعًا إلى أصول شرائع الأنبياء، وما كان راجعًا إلى زكاء النفس وحُسن الخلق والفضيلة[٢].

قال الشيخ العلاّمة محمد متولي الشعراوي: وإذا أُمر رسول الله ﷺ أمرًا من ربّه، فلا بُدّ أن نعتقد أنه ﷺ قد نفَّذ الأمر، وما دام أنه ﷺ قد اجتمعت فيه مزايا الأنبياء، فحُقَّ له أن يكون خاتم النبيين والمرسلين[٣].

وقال الرازي: لا شكّ في أن قوله تعالى ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ ﴾ أمرٌ لمحمد عليه الصلاة والسلام، وإنما الكلام في تعيين الشيء الذي أمر الله محمدًا أن يقتدي فيه بهم، فمن الناس من قال: المُراد أن يقتدي بهم في الأمر الذي أجمعوا عليه، وهو القول بالتوحيد والتنزيه عن كل ما لا يليق به في الذات والصفات والأفعال وسائر العقليات، وقال آخرون: المراد الاقتداء بهم في

---

(١) تفسير الطبري «جامع البيان في تأويل القرآن»، نقلاً عن منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني، منى عبد الله بن داود، ص١٤١.

(٢) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (٧/ ٣٥٦ـ٣٥٧) بتصرف.

(٣) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (٦/ ٣٧٧٦).

جميع الأخلاق الحميدة والصفات الرفيعة الكاملة من الصبر على أذى السفهاء والعفو عنهم. والجواب: أن قوله ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ يتناول الكل[١].

إنّ صفات الشرف وخصال الكمال كانت مُفرَّقة فيهم بأجمعهم، فداود وسليمان كانا من أصحاب الشكر على النعمة، وأيوب كان من أصحاب الصبر على البلاء، ويوسف كان مستجمعًا لهاتين الحالتين، وموسى كان صاحب الشريعة القوية القاهرة والمعجزات الظاهرة؛ لأنَّ الغالب عليهم خصلة معينة من خصال العبودية والطاعة، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كانوا أصحاب الزهد، وإسماعيل كان صاحب الصدق، ويونس صاحب التضرّع، فثبت أنه تعالى إنما ذكر كلَّ واحد من هؤلاء الأنبياء؛ لأنَّ الغالب عليه كان خصلة معينة من خصال المدح والشرف، ثم إنه تعالى لما ذكر الكلَّ أمر محمدًا عليه الصلاة والسلام بأن يقتدي بهم بأسرهم، فكان التقدير كأنه تعالى أمر محمدًا ﷺ أن يجمع من خصال العبودية والطاعة كلَّ الصفات التي كانت مُفرَّقة فيهم بأجمعهم، ولما أمره الله تعالى بذلك امتنع أن يقال: إنه قصَّر في تحصيلها، فثبت أنه حصَّلَها، ومتى كان الأمر كذلك ثبت أنه اجتمع فيه من خصال الخير ما كان مُتفرِّقًا فيهم بأسرهم، ومتى كان الأمر كذلك وجب أن يقال: إنه أفضل منهم بكلِّيتهم، والله أعلم[٢].

وقال محمد رشيد رضا: أمره أن يقتدي بهداهم الذي هداهم إليه في سيرتهم، سواءٌ ما كان منه مشتركًا بينهم، وامتاز في الكمال فيه بعضهم، كما امتاز نوح وإبراهيم وآل داود بالشكر، ويوسف وأيوب وإسماعيل بالصبر، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس بالقناعة والزهد، وموسى وهارون بالشجاعة وشدة العزيمة في النهوض بالحق.

---

(١) التفسير الكبير مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، (٥/ ٥٦).
(٢) المرجع نفسه، (٥/ ٥٧).

فالله تعالى قد هدى كلَّ نبيٍّ، ورفعه درجاتٍ في الكمال، وجعل درجات بعضهم فوق بعض، ثم أوحى إلى خاتم رسله ﷺ خلاصة سير أشهرهم وأفضلهم، وهم المذكورون في هذه الآيات وفي سائر القرآن الكريم، وأمره أن يقتدي بهداهم ذاك.

وهذه هي الحكمة العليا لذكر قصصهم في القرآن، وقد شهد الله تعالى بأنه جاء بالحق وصدَّق المرسلين، وأنه لم يكن بدعًا من الرسل، فعُلم بهذا أنه كان مهتديًا بهداهم كلِّهم، وبهذا كانت فضائله ومناقبه الكسبية أعلى من جميع مناقبهم وفضائلهم؛ لأنّه اقتدى بها كلِّها، فاجتمع له من الكمال ما كان متفرقًا فيهم إلى ما هو خاصٌّ به دونهم، ولذلك شهد الله تعالى له بما لم يشهد به لأحد منهم، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. وأما فضائله وخصائصه الوهبية فأمرُ تفضيله عليهم فيها أظهر، وأعظمها عموم البعثة، وختم النبوَّة والرسالة، وإنما كمال الأشياء في خواتيمها، صلى الله عليه وعليهم أجمعين[١].

وقال العلامة محمد أبو زهرة: قد أُمر النبي ﷺ بالاقتداء بهم جميعًا في صفاتهم كلها مجتمعة؛ لأنّه خاتم الأنبياء، ولأنّه مُخاطِب للأجيال كلِّها، وأُرسل للناس كافة بشيرًا ونذيرًا، فكان هو وشريعته صالحَينِ لكلِّ الأجيال؛ لأنّه وشرعه جمعا كل ما عند الأنبياء السابقين من صفات فاضلة ومراتب من التكليفات عالية[٢].

وإذا كان ذلك من مقام رسالته فقد أوجب الله سبحانه وتعالى الدعوة إليها؛ لأنّها الكمال البشري، ولأنه لا يريد منهم جزاء ولا شكورًا؛ ولذا قال تعالى مخاطبًا نبيّه الكريم: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ﴾، لا أريد منكم أي أجر من

---

(١) تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم)، محمد رشيد رضا، (٧/ ٥٩٧ ـ ٥٩٨).
(٢) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (٥/ ٢٥٨٤).

مال أو جاه أو سلطان؛ لقد ظنُّوا بادي رأيهم أنه يريد مالاً فعرضوا عليه مالهم، أو يريد السلطان فيُسوِّدوه عليهم، فبيَّن الله لنبيّه أن يقول لهم إنَّ شيئًا من أعراض الدنيا لا يريدها، ولكن يريد الإصلاح والتذكير بالله واليوم الآخر ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾.

إنَّ المقصود من إنزال الله تعالى القرآن على نبيِّه الكريم ليس مالاً يأخذه، ولا سلطانًا يفرضه، ولا سيادة يطلبها، وإنما جاء للذكرى والموعظة والهداية للعالمين، أي: للعقلاء أجمعين، فهو ذكرى لهم بما فيه صلاحهم، وقيام أمرهم، ونشر العدالة، وذكرى لهم باليوم الآخر، وما فيه من حساب وعقاب، وذكرى لهم من ربّهم بأن يكونوا دائمًا ذاكرين، أي: تذكر دائم لله تعالى، وفي ذكر الله طِبٌّ للقلوب من أدوائها(١).

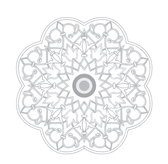
وهذا يدلُّ على عموم رسالة الإسلام، فهي رسالة كاملة وعامة ومُنزَّهة عن الأغراض المادية كلِّها، فعلى حمَلة الرسالة وُدعاتها أن يعرفوا طبيعة هذه الرسالة؛ ليرتفعوا إلى مستواها، ويُنزِّهوا أنفسَهم وحياتهم ودعوتهم عن أعراض الدنيا ومتاعها الرخيص(٢).

* * *

---

(١) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (٥/ ٢٥٨٤).

(٢) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٢/ ٤٧٥).



المبحث الثاني

قصة إبراهيم عليه السَّلام في سورة مريم عليها السلام وحواره مع والده

قال تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ﴾ [مريم: ٤١ ـ ٥٠].

إنَّ أول سورة سردت لنا حديثًا مُفصَّلاً عن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ هي سورة مريم عليها السلام، التي نزلت مُبكِّرة بعض الشيء، ويدلّ على هذا أن جعفر بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قرأها على النجاشي ومَن عنده من رجال الدين النصارى.

وفي هذه السورة ـ التي لها من اسمها نصيب كبير ـ يُحدِّثنا ربّنا عن زكريا ويحيى ومريم وعيسى عليهم السلام، ثم ينتقل الحديث إلى إبراهيم عليه

السَّلام وبعض الأنبياء من بَنيه، بما يأخذ باللبِّ ويأسر القلب، ولكن هذا القلب يأبى إلا أن يتفلّت؛ ليرقص إعجابًا ثم يلين خشوعًا، ذلك أن الحديث في سورة مريم عن إبراهيم عليه السَّلام كان يتناول ذلك الحوار المُؤثِّر بينه وبين أبيه، ولعلَّ الناظر في السورة الكريمة وهو ينعم النظر ويُعمل الفكر، ويُدقِّق في الموضع، يُدرك هذا السرَّ الذي يأبى إلا أن ينتشر شذاه وأريجه.

إنّ سورة مريم التي جاءت بدايتها تُحدِّثنا عن زكريا الوالد ويحيى الولد عليهم السلام، وعن مريم الأم وعيسى الابن عليهما السلام، هي التي ستُحدِّثنا في آخرها بما يَهزُّ القلوب والمشاعر، وبما تكاد السماوات تنفطر له، وتنشقُّ الأرض، وتخر الجبال هدًّا.

لا عجب إذن أن نجد ما حدَّثت به السورة الكريمة عن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان جلّه بل كلّه يتَّصل بهذا الجانب، وهو حديث إبراهيم عليه السَّلام مع أبيه، ولنقرأ الآيات الكريمة لنرى أيَّ تأثير وأيَّ فعل يُمكن أن تفعله الآيات[(١)].

تُبيّن هذه القصة كيف حاور إبراهيم عليه السَّلام أباه، ودعاه إلى نبذ عبادة الأوثان، واجتناب طاعة الشيطان، في رفق ولين وأدب جمّ، كما سنبيّنه بالتفصيل ـ إن شاء الله ـ من خلال البلاغة القرآنية، وأتمنى أن يقرأ هذه القصة الأبناء العاقّون لآبائهم؛ لِيَرَوا كيف كان أدب إبراهيم عليه السَّلام، وهو مقام المحاورة والوعظ لأبيه.

إنَّ ذكر قصة إبراهيم عليه السَّلام جاء ملائمًا جدًّا للسياق؛ لأن العرب تُقرّ بعلوّ مكانته عليه السَّلام وطهارة دينه ونقائه، وله في نفوسهم منزلة عظيمة، فهو أبو العرب، قال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ [الحج: ٧٨].

---

(١) قصص القرآن الكريم، فضل حسن عباس، ص٢٧٨.

ففي ذكر طرفٍ من أخباره تشويق لمشركي العرب ولغيرهم من بابٍ أولى؛ ليسمعوا قصَّتَه بشغفٍ ولهفة، يتلوها عليهم الرسول ﷺ، والقصد من وراء ذلك بيان فساد عقيدتهم الباطلة في الشرك بالله تعالى، وبيان هذا: كأنه قيل للعرب: إن كنتم تتشدَّقُون بحبكم لأبيكم إبراهيم، فلمَ لا تقلّدونه في نبذه عبادة الأوثان، وأنتم الذين تقولون نحن على دين آبائنا، ونقتفي آثارهم، كما حُكي عنكم قولكم ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

إذن فلمَ لا تتبعون رأسَكم وأصلَكم وأشرَفَ آبائكم المُقرَّب إليكم، المُحبَّب عندكم إبراهيم عليه السَّلام في تركه لعبادة الأوثان؟ ثم إن أباكم إبراهيم نبذ دين آبائه الباطل، فلم لا تتركون أيضًا دين آبائكم الباطل؟ ثم إنكم تعترفون بطهارة دين أبيكم الأكبر إبراهيم عليه السَّلام من شوائب الشرك، فلم تركتم دينه القائم على التوحيد؟

ثم إن كنتم ممَّن يَحتجُّ بالنظر والعقل والدليل، فتأمَّلوا في الأدلة التي ساقها أبوكم إبراهيم عليه السَّلام لإبطال دين أبيه الفاسد بالعموم، فإن لم تتَّبعوا أباكم الأكبر والأشرف إبراهيم عليه السَّلام تقليدًا، فاتّبعوه استدلالاً وحجةً ومنطقًا[١].

وخلاصة القول في هذه المسألة: إنَّ في ذكر قصة إبراهيم عليه السَّلام تشويقًا وإغراءً للسامع؛ ليقتفي أثر أبيه الأكبر إبراهيم عليه السَّلام ويتَّبع ملَّته إمّا اقتداءً بفعله، وإما اقتداءً بفكره وحجّته ومنطقه، وإما اقتداءً بهما معًا، وهذا كله من براعة الاستهلال في القصة، والله أعلم[٢].

❊ ❊ ❊

---

(١) تأملات في سورة مريم، عادل أحمد صابر الرويني، دار النوادر، دمشق، سورية، ٢٠١١م، ص١٨١.
(٢) التفسير الكبير مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، (١٠/ ٤٦٤).

أولاً: قوله تعالى ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١]:

١ ـ ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ :

هذا استفتاح لقصة إبراهيم عليه السَّلام وهو متناسبٌ مع بدايات القصص الواردة في سورة مريم، فقد كانت بداية قصة زكريا عليه السَّلام قولَه تعالى: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم: ٢]، وبداية قصة مريم قوله سبحانه: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ﴾ [مريم: ١٦]، وبداية الإخبار عن كلٍّ من موسى وإسماعيل وإدريس عليهم السلام بقوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ (١).

﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ يا محمد ﷺ ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي القرآن الكريم، وهو أجلّ الكتب وأفضلها وأعلاها، فإن ذُكرت فيه الأخبار كانت أصدَقَ الأخبار وأحقَّها وأنفعَها، وإن ذُكر فيه الأمر والنهي كانت أجلَّ الأوامر والنواهي وأعدلَها وأقسطَها، وإن ذُكر فيه الجزاء والوعد والوعيد كان أصدقَ الأنباء، وأحقَّها وأدلَّها على الحكمة والعدل والفضل، وإن ذُكر فيه الأنبياء والمرسلون كان المذكور فيه أكمل من غيره وأفضل، ولهذا كثيرًا ما يُبدئ ويعيد في قصص الأنبياء الذين فضّلهم على غيرهم، ورفع قدرهم، وأعلى أمرهم؛ بسبب ما قاموا به من عبادة الله ومحبته، والإنابة إليه، والقيام بحقوقه وحقوق العباد، ودعوة الخلق إلى الله، والصبر على ذلك، والمقامات الفاخرة والمنازل العالية. فذكرَ الله في هذه السورة جملة من الأنبياء يأمر فيها رسوله أن يذكرهم؛ لأنّ في ذكرهم إظهارَ الثناء على الله وعليهم، وبيان فضله وإحسانه إليهم، وفيه الحثُّ على الإيمان بهم، ومحبتهم والاقتداء بهم(٢).

٢ ـ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا﴾ :

جمع الله تعالى له بين الصدّيقيّة والنبوَّة، فالصدّيق: كثير الصدق؛ فهو

---

(١) تأملات في سورة مريم، عادل أحمد صابر الرويني، ص١٧٩.

(٢) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٠٠٠.

الصادق في أقواله وأفعاله وأحواله، المصدّق بكل ما أُمر بالتصديق به، وذلك يستلزم العلم العظيم الواصل إلى القلب، المؤثر فيه، الموجب لليقين والعمل الصالح الكامل. وإبراهيم عليه السَّلام هو أفضل الأنبياء كلّهم بعد محمد ﷺ، وهو الأب الثالث للطوائف الفاضلة، وهو الذي جعل الله في ذُريّته النبوَّة والكتاب، وهو الذي دعا الخلق إلى الله تعالى، وصبر على ما ناله من العذاب العظيم، فدعا القريب والبعيد، واجتهد في دعوة أبيه مهما أمكنه[١].

وإنّ الله عزّ وجل وصف إبراهيم عليه السَّلام بالصّدّيق، وهذا قبل الوحي، وتأمَّل كيف وصف الله إبراهيم عليه السَّلام بالصّدّيق قبل أن يصفه بالنبوَّة؛ ليرينا قيمة الصِّدق، وأنه من الدعائم التي تقوم عليها النبوَّة[٢].

إنّ كلَّ نبيّ صدّيق، وليس كلُّ صدّيق نبيًّا، فالصدّيق دُوين النبي وبُعَيده في الدرجة، والصدّيق قُبيل الشهيد وفُوَيقه في الدرجة، وفي القرآن الكريم وردت كلمة الصّدّيق ثلاث مرات: مرتين في سورة مريم إخبار من الله تعالى لاثنين من أنبيائه هما: إبراهيم وإدريس عليهما السلام، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٦]، والمرة الثالثة جاءت وصفًا ليوسف عليه السَّلام على لسان الذي نجا من السجن، وجاء يسأله تأويل الرؤيا، قال تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ [يوسف: ٤٦].

والصّدِّيقة مُؤنث الصدّيق، وقد وردت هذه الصفة في القرآن الكريم مرّة واحدة في حقِّ السيدة مريم أم المسيح عيسى عليهما السلام، قال تعالى في

---

(١) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٠٠٠.

(٢) اليهود في القرآن، عفيف عبد الفتاح طبارة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط ١٣، ٢٠٠١م، ص١٣١.

سورة المائدة: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ﴾ [المائدة: ٧٥] أي مصدِّقة للأنبياء مؤمنة بهم، قال تعالى في سورة التحريم: ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ ﴾ [التحريم: ١٢].

والصّدّيقون: جمع الصّدِّيق، وقد جاءت مرتين في القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النساء: ٦٩]، وفي قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ [الحديد: ١٩] [١].

إنَّ إبراهيم عليه السَّلام كان صادقًا مع قومه قبل النبوَّة، كما كان أمينًا صادقًا في تبليغ الرسالة وفي استسلامه وانقياده لأوامر ربه[٢].

ووصفُ إبراهيمَ عليه السَّلام بالصدّيقية والنبوَّة، قبل الحوار، له أكثر من دلالة، منها:

الدلالة الأولى:

إبراهيم عليه السَّلام كان جامعًا خصائص الصدّيقين والأنبياء حينما خاطب أباه تلك المخاطبات[٣]، وهذا يعني أنَّ إبراهيم عليه السَّلام أصبح رسولاً قبل أن يُحاور أباه وقومه والملك؛ لأنَّ هدف الحوار تبليغ دعوة الله كما أمره بالتمام والكمال، ولهذا أثنى الله على إبراهيم عليه السَّلام، في قوله ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ [النجم: ٣٧]، وقوله تعالى ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ [الأنعام: ٨٣]، وجاءت معجزة إبراهيم، وهي نجاته من النار، دليلاً على صدقه أنه مرسل من الله تعالى لقومه كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ

(١) من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين، محمد فؤاد سندي، ص١١٠.
(٢) قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، ص٢٨.
(٣) دعوة الرسل إلى الله، محمد أحمد العدوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ص٥٠.

ٱلنَّارِۚ﴾ [العنكبوت : ٢٤]، وقال تعالى : ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء : ٦٩ ـ ٧٠].

الدلالة الثانية :

وصفُ إبراهيمَ عليه السَّلام بالصدِّيقية قبل وصفه بالنبوَّة يُشير إلى أن الصّدق صفة أساسية لكلِّ نبيّ ورسول، وهذا يعني أنه يستحيل على النبيّ أن يكون كاذبًا، ولهذا كان سيدنا محمد ﷺ يُلقَّب بالصادق الأمين قبل البعثة، وكذلك كل نبيّ ورسول، ويعدُّ خُلُق الصدق أصلاً من أصول الأخلاق الإسلامية، إذا وُجد وُجدت معه بقيّةُ الأخلاق الطيبة، بدليل أن إبراهيم عليه السَّلام وصفه الله بالصدّيقية، فجمع من الصفات الطيبة الكثيرة ما يجتمع في أمة، ولهذا أثنى الله عليه، فقال عزّ وجل : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾، وعلى هذا يُمكن القول إنَّ الصّفات تزداد في الإنسان بمقدار ما عنده من صدق[١].

إنَّ الصّديق هو الذي بلغ الغاية في تصديق الحقّ، فيُورثه الله شفافية وإشراقًا بحيث يهتدي إلى الحقّ، ويُميِّزه عن الباطل، من أول نظرة في الأمر، دون بحث وتدقيق في المسألة؛ لأنَّ الله تعالى يهبُك النّور الذي يُبدد عنك غيامات الشكّ، ويهبُك الميزان الدقيق الذي تزن به الأشياء، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال : ٢٩] [٢].

ومن هنا سُمّي أبو بكر الصدِّيق ـ رضي الله عنه ـ صدّيقًا، ليس لأنّه صادقٌ في ذاته فقط؛ بل لأنّه يُصدِّق كلَّ ما جاءه من رسول الله ﷺ؛ ولقد وصف رسول الله ﷺ سيدنا أبا بكر بالصّدّيقيّة، ولقد كان سيدنا أبو بكر صادقًا لا يكذب، وكان يسارع إلى تصديق رسول الله ﷺ في كل ما يُخبر به، وكان يسارع إلى العمل بما تقتضيه الأخبار إن كانت تقتضي عملاً، وكان وصف

(١) قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، ص٢٨.

(٢) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١٥/ ٩٠٩٢).

رسول الله ﷺ لسيدنا أبي بكر بالصّدّيقيّة في مكة قبل الهجرة بمناسبة حادثة معينة هي حادثة الإسراء[١].

فلما أخبروا أبا بكر خبر الإسراء والمعراج الذي كذّب به كثيرون، ماذا قال؟ قال: أوَقال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: أتصدّقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس، وجاء قبل أن يُصبح؟ قال: نعم إنّي لأصدّقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدّقه بخبر السماء في غدوة أو روحة. فلذلك سُمّي أبو بكر: الصدّيق[٢].

إنَّ الأمر عنده مُتوقِّف على مجرَّد قول رسول الله ﷺ، فهذا هو الميزان عنده، وطالما أن رسول الله قد قال، فهو صادق، هكذا دون جدال ودون نقاش، ودون بحث في ملابسات هذه المسألة، لذلك عُرف من يومها بأنّه الرجل الصدّيق عن جدارة[٣].

لقد كان خليل الله إبراهيم عليه السَّلام «صدّيقًا»، وكان أيضًا «نبيًّا»؛ لأنَّ الإنسان قد يكون صدِّيقًا يعطيه الله شفافيةً خاصّة، وليس من الضروري أن يكون نبيًّا، كما كانت مريم صدّيقة وأبو بكر صدّيقًا، فهذه إذن صفة ذاتية إشراقية من الله، أما النبوَّة فهي عطاء وتشريع يأتي من أعلى، وهدى يأتي من الله بحمل النبيّ مسؤوليته[٤].

إنّ مظاهر الصدّيقيّة في حياة إبراهيم عليه السَّلام كثيرة، منها امتثاله لأمر الله في مجابهة قومه بأن دينهم باطل، وأن عبادتهم فاسدة، وأن آلهتهم مُزيَّفة،

---

(١) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١٥/ ٩٠٥٩).
(٢) المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، (٣/ ٦٢)، والسيرة النبويّة عرض وقائع وتحليل أحداث، د.علي محمّد محمّد الصّلابيّ، دار المعرفة، بيروت، ط ١٢، ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م، (١/ ٣١٧).
(٣) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١٥/ ٩٠٩٣).
(٤) المرجع نفسه (١٥/ ٩٠٩٣).

فقد كانوا يعبدون الأصنام، وكانوا يعبدون أحجارًا ينحتونها بأيديهم ثم يسجدون لها. وبدوره اتّجه إبراهيم عليه السَّلام أول ما اتّجه إلى أبيه، وكان حريصًا على هدايته، محبًّا لصلاحه(١).

❊ ❊ ❊

ثانيًا: قوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢]:

بعد أن جمع الله تعالى لإبراهيم عليه السَّلام المقامَيْن، وشرّفه بالمنزلتَيْن؛ منزلة الصدّيق، ومنزلة النبيّ، توجَّه إلى أبيه بكلام يهزُّ أعطاف السامعين، ويأخذ بمجامع القلوب في الاستدراج والإذعان والانقياد بألطف العبارات وأرشقها، وهو مشتمل على حسن الملاطفة والاستدراج، والرفق في الخصومة والحجاج، والأدب العالي، وحسن الخلق الحميد(٢).

ونعيش في هذه الآيات الكريمة مع الخليل عليه السَّلام وهو يُحاور أباه ويَعظه، ويُبطل له عقيدته الفاسدة بأدب واحترام وحكمة ورفق.

وقد بدأ وعظ أبيه وإرشاده بندائه وقوله ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾، وهو نداء لطف ومحبة، استفتح به ليُحنِّن قلبَ أبيه ويستلطفه، والتاء في قوله ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ عوض عن ياء المتكلم، وذكرُها بدلاً عن الياء مبالغة في التَّلطُّف.

ونادى أباه مع أنه في حضرته؛ لإثارة انتباهه وإيقاظ نفسه وتهيئة ذهنه، والإقبال عليه بوعي وتركيز، واستخدم إبراهيم عليه السَّلام في نداء أبيه أداة النداء ﴿يَا﴾ التي للبعيد على الرغم من أنه قريب منه وبجواره؛ لإشعار أبيه بعلوِّ منزلته ورفعة مكانته في نفس ابنه، وقد كرّر النداء بـ ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ أربع

---

(١) قصص الأنبياء في رحاب الكون، د. عبد الحليم محمود، ص٩٧.

(٢) بلاغة الاحتجاج العقلي في القرآن الكريم، زينب عبد اللطيف كامل الكردي، مكتبة الرشد ناشرون، الرياض، ط١، ١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م، ص٢٠٢.

مرات، وهو نداء يهشُّ له كل أب ويَرقُّ له ويتلذَّذ به، وهو نداء فيه من الرفق والتودُّد واللين والاستمالة ما فيه، وقد توجّه إلى أبيه بخطابه برابطة الأبوة إيماء إلى أنه مخلصٌ له النصيحة.

وبعد تلك التهيئة النفسية الرائعة ألقى على أبيه حجة فساد عبادته في صورة الاستفهام عن سبب عبادته وعمله الخطأ، فقال له: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾، فابتدأ حواره بالحجة الراجحة إلى الحسِّ، واستفهم عن السبب الذي حدا بأبيه أن يعبد وثنًا من حجارة، وقد وصف الوثن بثلاث صفات مذمومة: **إحداها**: لا يسمع، **ثانيها**: لا يبصر، **ثالثها**: لا يغني شيئًا.

تأمَّلْ فطنة الداعية إلى الله إبراهيم عليه السَّلام وهو يفنّد عقيدة أبيه في الأصنام، فوصفها بأوصاف تُبطل استحقاقها للألوهية، بيانُ ذلك أنّها إذا لم تسمع ولم تبصر، ولا تنفع من يطيعها، ولا تضرُّ من يعصيها، فأية فائدة في عبادتها؟! وإذا كان الدعاء لبَّ العبادة، فالوثن إذا لم يسمع دعاء الداعي، فأيّة منفعة في عبادته؟! وإذا كانت لا تُبصر مَن يتقرَّب إليها، فأيّة منفعة في ذلك التقرُّب؟! بل إذا كانت لا تُبصر من يُعظِّمها ويتقرَّبُ إليها، ولا من يحقرها ويؤذيها، فأية فائدة في عبادتها؟! وأيّ نفع لمن يعبدها؟! وإذا كانت لا تنفع ولا تضرّ، فأية فائدة في عبادة ما لا تستطيع حماية نفسها من الشّر والإفساد، كما فعل بها إبراهيم عليه السَّلام فيما بعد؟! فأيّة حماية تستطيع أن تقدّمها تلك الأوثان لمن يلجأ إليها؟!(١).

لقد واجه إبراهيم عليه السَّلام أباه في عقيدته الفاسدة، بسؤال الاستفهام المشوب بالتعجُّب والتوبيخ لمن يعبد وثنًا أو صنمًا لا يملك لنفسه ولا لعابده شيئًا(٢)، أي لِمَ تعبد أصنامًا ناقصة في ذاتها وفي أفعالها، فلا تسمع

---

(١) تأملات في سورة مريم، عادل أحمد صابر الرويني، ص١٨٣.
(٢) المرجع نفسه، ص١٨٤.

ولا تبصر، ولا تملك لعابدها نفعًا ولا ضرًّا، بل لا تملك لنفسها شيئًا من النفع، ولا تقدر على شيء من الدفع؟! فهذا برهان جليّ دالّ على أن عبادة الناقص في ذاته وأفعاله مستقبح عقلاً وشرعًا، ودلّ تنبيهه وإشارته أن الذي يَجبُ ويَحسُنُ: عبادة مَن له الكمال؛ الذي لا ينال العبادُ نعمةً إلا منه، ولا يَدفع عنهم نقمةً إلا هو[١].

والأصل في العبادة أن يتوجَّه بها الإنسان إلى من هو أعلى من الإنسان، وأعلم وأقوى، وأن يرفعها إلى مقام أسمى من مقام الإنسان وأسمى[٢].

وأن تكون العبادة لمن خلق الإنسان والمخلوقات، ولمن شأنه النفع والضرّ والثواب والعقاب، فقد ثبت عن الفاروق عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في الصحيحين أنه جاء إلى الحجر الأسود، فقبّله، وقال: إني أعلم أنك حجر لا تضرّ ولا تنفع، ولولا أني رأيت النبيَّ ﷺ يُقبِّلُك ما قَبَّلتُك[٣].

إنَّ العبادة هي غاية التعظيم، فلا تحقُّ إلا لمن له غاية الإنعام، وهو الخالق الرازق القادر المحيي المميت، الذي له الأسماء الحسنى والصفات العُلا، الذي منه أصول النِّعم وفروعها[٤]، فهو وحده سبحانه وتعالى المستحقُّ للعبادة.

وتُعرَّف العبادة بأنها: طاعة عبد لمعبود في أمرِه ونهيِه. فالذين يعبدون ما دون الله من صنم أو وثن أو شمس أو قمر، هل هذه الأصنام خَلقتهم أو خلقت شيئًا، أو رزقتهم أو رزقت أحدًا...؟ وبماذا أمَرتهُم هذه المعبودات؟ وعن أي شيء نَهتهم؟ وماذا أعدّت هذه المعبودات لمن عبدها؟ وماذا أعدّت

---

(١) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٠٠٠.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٤/ ٢٣١١).
(٣) صحيح البخاري، رقم (١٥٩٧)، صحيح مسلم، رقم (١٢٧٠).
(٤) بلاغة الاحتجاج العقلي في القرآن الكريم، زينب عبد اللطيف كامل الكردي، ص٢٠٤.

لمن عصاها؟ وما المنهج الذي جاءت به حتى تستحق العبادة؟ الجواب هنا: لا يوجد شيء من هذا كله، إذن فعبادتهم باطلة(١).

لقد سلك الخليل إبراهيم عليه السَّلام في دعوة أبيه أحسن منهاج، واحتجّ عليه أبلغ احتجاج، بدأ بتخلية قلبه عن تعظيم الأصنام، فبيّن له أنّها لا تستحق شيئًا من العبادة والتعظيم لسكونها وعجزها وضعفها، فهي لا تَسمع ولا تُبصر، ولا تجلب نفعًا لعابدها ولا تدفع عنه ضرًّا. ثم لفت نظر أبيه إلى ما أكرمه الله سبحانه وتعالى به ومنَّ عليه بالنبوَّة، فقال مكررًا نداءه بصفة الأبوة لما فيها من الاستعطاف والاستلطاف(٢):

* * *

ثالثًا: قوله تعالى ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾ [مريم: ٤٣]:

يُواصل إبراهيم عليه السَّلام نصائحه لأبيه فيقول: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾، وبعد أن بيّن لأبيه بطلان عبادة ما يعبده، لنقصه وعجزه، فالمعبود يستحيل أن يكون دون العابد، شرع إبراهيم عليه السَّلام في بيان مصدر دعوته لأبيه، فهو لم يَدعُهُ بناءً على هوى نفسه، ولكن دعوته قائمة على العلم الذي وهبه الله إياه، لذا فهو ينصح أباه بأن يتّبعه لينجوَ من الهلاك، وليسيرَ في طريق الهدى والرشاد(٣).

ويُكرِّر نبيُّ الله إبراهيم عليه السَّلام هذا النداء اللطيف ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ مرة أخرى، وكأنه يريد أن يُثير في أبيه غريزة الحنان، ويُوقظ عنده أواصرَ الرَّحم، وكأنه يقول له: إن كلامي معك كلام الابن لأبيه، حيث نادى أباه بهذا النداء

---

(١) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١٥/ ٩٠٩٧).
(٢) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٥/ ١٨٢).
(٣) تأملات في سورة مريم، عادل أحمد صابر الرويني، ص١٨٦.

أربع مرات متتالية في هذه الآيات، وما ذاك إلا لحرصه على هدايته، والأخذ بيده إلى الطريق القويم(١).

وتَدَبَّرْ نصيحة إبراهيم عليه السَّلام الثانية لأبيه، فقد حرص على جلب استعطافه، وأكَّد الكلام بـ (إن) و(قد)؛ لأنه عليه السَّلام يُبطل عبادة أبيه ويدعوه لاتباعه؛ وهو قد وُهب علمًا من الله لم يَنلْه أبوه، وهذا بطبيعة الحال أمر يبعث على إنكار الأب؛ لذا قام بالتأكيد بأكثر من مُؤكِّد.

وتأمَّلْ أدبَ الابن الداعية الرفيق، فهو لم يرمِ أباه بالجهل، وإن كان مُتردِّيًا في مهاويه، فهو لم يقل له مثلاً: إنني عالم وأنت جاهل فاتَّبعني، كما أن إبراهيم لم يدَّعِ أنه بلغ أقصى درجات العلم وإن كان كذلك؛ لأن علمه موصول بالله تعالى عن طريق الوحي والهداية، بل قال: ﴿قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ أي: معي طائفة وجزء من العلم ليس معك(٢)، وهو علم الدلالة إلى درب الهداية(٣). ونلحظه فيما يأتي:

١ ـ تصدير الحجّة بعد النداء بالخبر المؤكَّد بمؤكِّد واحد، الذي يُسمِّيه علماء المعاني بالخبر الإنكاري ﴿إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾؛ وهذا يُناسب المقام لأنه يخاطب مُنكِرًا للخبر(٤)، ثم جعل الخبر تمهيدًا للإنشاء الطلبي بصيغة الأمر لغرض النصح ﴿فَٱتَّبِعْنِىٓ﴾(٥).

٢ ـ مما يلاحظ في لغة القرآن: أنه حين يُعبِّر عن مجيء العلم لا يستخدم معه إلا الفعل ﴿جَآءَنِى﴾؛ لأنه من المجيء الذي له شأن وأهمية، فهو يُزيل

---

(١) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١٥/ ٩٠٩٨).
(٢) تأملات في سورة مريم، عادل أحمد صابر الرويني، ص١٨٧.
(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الآلوسي، (٨/ ٤١٥)، بلاغة الاحتجاج العقلي في القرآن الكريم، زينب عبد اللطيف كامل الكردي، ص٢٠٥.
(٤) بلاغة الاحتجاج العقلي في القرآن الكريم، زينب عبد اللطيف كامل الكردي، ص٢٠٤.
(٥) المرجع نفسه، ص٢٠٤.

الجهل ويَرفع الضَّلال، ويكشف الغشاوة عن الأبصار والقلوب، لما فيه من الظهور وقوة البرهان والحجة، والمنع من الهوى والزيغ والانحراف، لذا قيل على لسان إبراهيم عليه السَّلام ﴿إِنِّي قَدْ جَآءَنِي﴾ ولم يقل: إني قد أتاني[١].

٣ ـ إطلاق «العلم» دون تقييد لمجيئه بالمعبود الحقّ، نحو أن يقول: «جاءني من العلم من الله»؛ وذلك لئلاّ يُفاجئ والدَه بنبوّته قبل أن يستكمل معه الاستدراج؛ لتتحقَّق بالإطلاق دلالة اشتراك الطرفين في العلم، ذلك أن أباه كان يرى نفسه على علم عظيم؛ لأنّه كان كبير كهنة قومه، وأراد إبراهيم عليه السَّلام علم الوحي والنبوَّة[٢].

٤ ـ إيثار تعليق العلم العظيم الذي جاء بـ «من» بما تحمله من دلالة التبعيض، ولا يخفى ما في ذلك من خصلة التواضع، والعلم بحر خضمّ متجدِّد لا يمكن لأحد من البشر الإحاطة به.

٥ ـ تقييد العلم الذي جاءه بالموصول (ما) ﴿مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ المتعلّق بصلة تنفي عنه الاشتراك التامّ ﴿قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ من الجملة السابقة، وتُثبت للخليل عليه السَّلام شيئًا من التميُّز تمهيدًا لإلقاء النصح: ﴿فَٱتَّبِعْنِيٓ﴾، إنَّ وجود كلمة العلم هنا فيه إشارة إلى أن المؤمن ينبغي أن يعبد الله على علم، ويدعو الناس لعبادة الله سبحانه وتعالى على علم، ويتابع الأنبياء على علم، ويمارس كلَّ شؤون حياته على علم، وإنَّ الله حين أوصى خيرة خلقه محمدًا ﷺ بكلمة التوحيد، وهي أشرف ما يمكن أن ينجزه الإنسان من عمل في حياته، وهي الحسنة التي تنجيه من عذاب النار، وتضمن له الجنة في الآخرة،

---

(١) الإتيان والمجيء فقه دلالتهما، واستعمالهما في القرآن الكريم، محمود موسى حمدان، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م، ص٧٤.

(٢) أساليب المحاورة في القرآن الكريم، طالب محمد إسماعيل، دار زهران للنشر، عمّان، ط١، ٢٠١٣م، ص١٥٦.

أمره أن يأخذها على علم، فقال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ [محمد: ١٩] [(١)].

٦ ـ تقييد طلب الاتّباع بجواب هو: ﴿أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾، فيه إشارة للجزاء والعاقبة وإغراء بالاتّباع، بطريق الاستعارة في الفعل ﴿أَهْدِكَ﴾ إذ شبه فعل الخليل عليه السَّلام بفعل هادٍ بصير بالمعالم والصُّوى، وكُني عن المشبَّه به بقرينة ﴿صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾، ويمكن إجراؤها على التصريحية بتشبيه الاعتقاد الحقّ المُوصل إلى النجاة بطريق مستقيم يبلغ المقصود[(٢)]. وفي قوله ﴿صِرَٰطًا﴾ دلالة التشبيه، إذ لو كان المقصود به طريق التوحيد حقيقة لجاء معرفًا بأل العهد الذهني نحو قوله تعالى ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] [(٣)].

يقول السعدي في قوله تعالى ﴿فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ أي: مستقيمًا معتدلاً، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وطاعته في جميع الأحوال، وفي هذا من لطف الخطاب ولِينه ما لا يخفى، فإنه لم يقل: يا أبتِ أنا عالم وأنت جاهل، أو ليس عندك من العلم شيء، وإنما أتى بصيغة «تقتضي» أنّ عندي وعندك علمًا، وأن الذي وصل إليّ لم يصل إليك ولم يأتك، فينبغي لك أن تتبع الحجة وتنقاد لها[(٤)].

وفي قوله تعالى ﴿فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾، وهذا يدلُّ على استحسان اتباع أهل الصلاح من العلماء، وأن الواجب على ما لم ينل حظًّا من العلم أن يتّبع مَنْ جاءه بالعلم وأَرشَدَه؛ لأنَّ ذلك سيكون له حجة له أو عليه يوم القيامة[(٥)].

---

(١) ملة أبيكم إبراهيم، عبد الستار كريم المرسومي، ص٦٦.
(٢) بلاغة الاحتجاج العقلي في القرآن الكريم، زينب عبد اللطيف كامل الكردي، ص٢٠٦.
(٣) المرجع نفسه، ص٢٠٧.
(٤) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٠٠١.
(٥) تأملات في سورة مريم، عادل أحمد صابر الرويني، ص١٨٨.

وإنَّ التنكير في ﴿صِرَٰطًا﴾ ووصفه بـ ﴿سَوِيًّا﴾ يُفيد الدلالة على سهولة السير في هذا الطريق وقِلّة المؤونة التي يحتاجها، والأمر في قوله ﴿فَٱتَّبِعۡنِيٓ﴾ ليس للإيجاب بل للإرشاد[١].

وفي قوله تعالى ﴿فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ أي: أدلّك على الطريق المستقيم والدين القويم، وهذا من أدبه عليه السَّلام مع أبيه، جعل نفسه معه كدليل ورفيق في الطريق. ثم بيّن إبراهيم عليه السَّلام لأبيه أنَّ عبادة الأصنام ليست إلا طاعة للشيطان؛ لأنَّه مؤسِّسها الأول وراعيها، والداعي لها[٢]:

* * *

رابعًا: قوله تعالى ﴿يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيًّا ۝٤٤ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٤ ـ ٤٥]:

بعد أن كشف إبراهيم عليه السَّلام بطلان عبادة الأصنام، وبيَّن المصدر الذي يَستمدُّ منه ويعتمد عليه في دعوة أبيه، أوضح له أن طريقه هو طريق الشيطان، وهو يريد أن يهديه إلى طريق الرحمن[٣].

١ ـ ﴿يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾:

يوصي إبراهيم عليه السَّلام أباه ألا يعبد الشيطان؛ لأن من عبد غير الله فقدْ عبد الشيطان، كما قال تعالى: ﴿۞أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [يس: ٦٠]، والمراد بعبادة الشيطان: عبادة الأصنام، وإنما نهاه عن عبادة الشيطان؛ لأنه الآمر بها المزيّن لها والموسوس باتباعها، أو المراد بعبادة الشيطان طاعته والعمل بوسوسته، ومن أطاع شيئًا في معصية فقد عبده، أو من عبد الأصنام فقد عبد الشيطان[٤].

---

(١) تأملات في سورة مريم، عادل أحمد صابر الرويني، ص١٨٩.
(٢) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٥/ ١٨٣).
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٤/ ٢٣١١).
(٤) تأملات في سورة مريم، عادل أحمد صابر الرويني، ص١٩٠.

٢ ـ ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾:

ذكر إبراهيم عليه السَّلام في هذه الآية علة النهي عن عبادة الشيطان، فكأنه قال له: لا تعبد الشيطان؛ لأنه شديد العصيان للرحمن الذي أفاض عليك نِعمَه، ولا يليق بك أن تعبد من عصى ربَّه وتنكّر لنعمه عليه وخالف أمره. وذكر وصف ﴿عَصِيّٗا﴾ الذي هو من صيغ المبالغة في العصيان مع التعبير بفعل ﴿كَانَ﴾؛ للدلالة على أنه لا يفارق عصيانَ ربِّه وأنه متمكّن منه[1].

وذكر لفظ الرحمن دون غيره؛ لعدّة أمور أهمها:

* التنبيه على سعة رحمة الله، الذي ينبغي أن يُعبد ولا يُعصى.

* الإعلام بشقاوة الشيطان، حيث إنه عصى مَن هذه صفته، وارتكب من ذلك ما طرده من هذه الرّحمة، وفي هذا إظهار لكمال شناعة عصيانه.

* الإشارة إلى أن المعاصي تمنع العبد من رحمة الله الواسعة، وتُغلق عليه أبوابها، كما أن الطاعة أكبر سبب لنيل الرّحمة الإلهية، فالأَوْلى الاتجاه إلى طاعة الله[2].

وكان الظاهر أن يقال: «يا أبَتِ لا تعبدِ الشَّيطانَ إنه كان للرحمنِ عَصِيًّا» بإضمار لفظ «الشيطان»، ولكنه أظهر اسمه ثانية؛ لزيادة التنفير من طاعته، واستبشاع عبادته، حيث إن ذِكرَ اسمه ثانية مستكرَه ومستنكَر ومستفظَع في وجدان كل إنسان سويّ، وكان الإظهار في مقام الإضمار أيضًا؛ لتكون جملة التذييل مستقلة بذاتها وقائمة بنفسها، بحيث تكون موعظة منفصلة مستقلة، وفصل بين جهة التذييل ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾ وبين سابقتها لاختلاف الجملتين خبرًا وإنشاءً[3].

---

(١) تأملات في سورة مريم، عادل أحمد صابر الرويني، ص١٩٠.

(٢) القصص القرآني بين الآباء والأبناء، عماد زهير حافظ، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م، ص٦٥.

(٣) تأملات في سورة مريم، عادل أحمد صابر الرويني، ص١٩٣.

٣ ـ ﴿ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا ﴾ :

إنَّ إبراهيم عليه السَّلام حذّر أباه من عذاب الله تعالى وسخطه عليه، إن مات على ما هو عليه من عبادة الأوثان وطاعة الشيطان؛ لأنه سيكون حينئذ قرينًا للشيطان في العذاب والطرد من رحمة الله تعالى. وقد بدأ الابن البارُّ موعظته الرابعة بما بدأ به مواعظه السابقة، بنداء التَّلطُّف والمحبة، بنداء الأبوة ﴿ يَـٰٓأَبَتِ ﴾، وجاء حديثه متناسقًا مع مقام شفقة إبراهيم عليه السَّلام وخوفه على أبيه وحرصه عليه ورحمته به حيث قال: ﴿ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ﴾، فعبّر بالخوف، والخوف هو توقُّع المكروه، فهو غير مقطوع فيه[١].

إذن إبراهيم عليه السَّلام لم يصرّح بأن العذاب سيُصيب والدَه، بل أخرج ذلك مخرج الخوف الدالِّ على الظنِّ دون القطع، وذلك تأدُّبًا مع الله تعالى أيضًا، فهو لم يُثبت أمرًا فيما هو من تصرُّف الله تعالى، وأيضًا إبقاءً للرجاء في نفس أبيه؛ لينظر في التخلص من ذلك العذاب بالإقلاع عن عبادة الأوثان وطاعة الشيطان[٢].

ولو قال لأبيه: إنَّ العذاب لاحقٌ بك؛ لأقنَطَه، ولأغلَقَ أمامه أبواب النجاة التي ربَّما ينظر في وُلوجها، وعبّر عن لحوق العذاب بأبيه وإصابته له بلفظ المسّ الذي هو ألطف من المعاقبة، والمُشعر بقليل من الإصابة، ولم يذكر له ما يُنبئ عن شدة العذاب، كما نكّر لفظ «العذاب» للتقليل[٣].

---

(١) تأملات في سورة مريم، عادل أحمد صابر الرويني، ص١٩٣.

(٢) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (١٦/١١٨).

(٣) تفسير الزمخشري «الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل»، الزمخشـري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ، (٢/ ٥١١)، وتأملات في سورة مريم، عادل أحمد صابر الرويني، ص١٩٤.

وذكرُ صفة ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ إنما كان للتعبير عن فظاعةِ جرمه إلى حد أن يحرمه من رحمةِ مَنْ شأنهُ سعة الرّحمة(١).

وأُوثرت تلك الصفة أيضًا؛ للإشعار بأن الرّحمة لا تمنع حلول العذاب ولا تُنافيه، وفي الوصف أيضًا دلالة على سَبق الرّحمةِ الغضبَ، وقيل: إنَّ التنكير في كلمة «عذاب» للتعظيم، والمراد بالمسّ مطلق الإصابة، فيكون مقصودًا به المبالغة فيها، كما في قوله تعالى ﴿لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٤]، والمقام مقام تخويف وتحذير، فيناسبه ذلك، وقيل: إن تنكير «عذاب» للتهويل(٢).

ولما حذّر إبراهيم أباه من عذاب الله بيَّن له مآل هذا العذاب والنتيجة المترتبة عليه، فقال: ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾، أي: في الدنيا والآخرة، فتنزل بمنازله الذميمة، وترتع في مراتعه الوخيمة، فتدرّج الخليل عليه السَّلام بدعوة أبيه من السُّهولة إلى الشدَّة، فأخبره بعلمه، وأن ذلك موجب لاتّباعك إياي، وأنّك إن أطعتني؛ اهتديتَ إلى صراط مستقيم، ثم نهاه عن عبادة الشيطان، وأخبره بما فيها من المضارّ، ثم حذَّره عقاب الله ونقمته إن أقام على حاله، وأنّه يكون وليًّا للشيطان(٣).

وقال الشنقيطي: معنى عبادته للشيطان، في قوله ﴿لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾، طاعته للشيطان في الكفر والمعاصي، فلذلك الشرك شرك طاعة كما قال تعالى: ﴿۞أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ [يس: ٦٠ ـ ٦١]، والآية تدلُّ على أن الكفار المعذبين يوم القيامة أولياء للشيطان؛ لقوله تعالى ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ

---

(١) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (١٦/ ١١٨).
(٢) تأملات في سورة مريم، عادل أحمد صابر الرويني، ص١٩٤.
(٣) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٠٠١.

عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴾، والآيات الدالّة على أن الكفار أولياء للشيطان كثيرة، كقوله تعالى ﴿ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ [النساء: ٧٦]، وقوله ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [الأعراف: ٣٠]، إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم.

وكل من كان الشيطان يزيّن له الكفر والمعاصي، فيتبعه في ذلك في الدنيا، فلا وليَّ له في الآخرة إلا الشيطان، كما قال تعالى: ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النحل: ٦٣]، ومن كان وليّه الشيطان تحقّق أنه لا وليَّ له ينفعه يوم القيامة[١]. ولكن هذه اللطيفة بأحب الألفاظ وأرقّها لا تصل إلى القلب المشرك القاسي، فإذا آزر أبو إبراهيم يقابله بالاستنكار والتهديد والوعيد[٢]:

* * *

خامسًا: قوله تعالى ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴾ [مريم: ٤٦]:

قابل آزرُ بقسوة نصيحةَ ابنه المؤدَّب المهذَّب إبراهيم عليه السَّلام؛ إذ قابل الرفق بالعنف، والوعظ بالسفاهة، والتعطّف بالفظاظة والغلظة، وذلك هو شأن الإيمان مع الكفر، وشأن العقل الذي هذّبه الإيمان، والقلب الذي أفسده الكفر والبعد عن الله عزّ وجل، فكلٌّ إناء بما فيه ينضح، وكلٌّ ينفق ممّا عنده[٣].

وفي هذا الموقف الأبوي العنيف تسلية للنبي ﷺ آنذاك على ما كان يلاقيه

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، (٤/ ٢٠٨).
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٤/ ٢٣١٢).
(٣) المرجع نفسه، (٤/ ٢٣١٤)، وتفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، مصر، ط١، ١٣٦٥هـ-١٩٤٦م، (١٦/ ٥٧).

من الأذى من عمّه أبي لهب، ومن قومه عامة، وكذلك للصحابة الذين كانوا يعانون من آبائهم وأمهاتهم المشركين.

وهو تسلية وتثبيت أيضًا لمن جاء من بعد ذلك من المؤمنين الذين يلاقون الأذى والإعراض من أهليهم وذويهم، الذين فسدت فطرتهم، وبعُدوا عن الحق، وصدُّوا عنه.

ومن المعلوم أن أشدّ ما يكون على نفسية الداعية إلى الله أن يجد أهله وذويه يعارضونه في دعوته ويؤذونه بالفعال والمقال، ويهجرونه ويصدون الناس عنه، وإنّ هذا لهو من سلسلة الامتحانات التي يمتحن الله بها عباده المؤمنين؛ ليميز بينهم ويعرف صدقهم، فلا علاج في هذا الموقف إلا الصبر والتجلّد أمام هذه المواقف المؤثرة، والله خير معين.

إنَّ موقفَ آزرَ غيرُ ودّي البتّة تجاه ابنه، مع أنّه جرى في العرف والطبيعة البشرية أن يكون جانبُ العطف والشفقة من الأب أكبر، ولكن هنا نرى العكس، وهذا يدلُّ على أثر الكفر والشرك بالله في تغيير الفطرة البشرية والطبيعة الإنسانية. وهذا ما نشاهده جليًّا واضحًا في كفرة هذا الزمان البعيدين عن دين الله، فكم من الحوادث التي أصبحت أمرًا طبيعيًّا في حياة هذه الفئة من الناس؟ فحوادث قتل الآباء والأمهات لأبنائهم كثيرة، وعدم اكتراثهم لذلك، وغير ذلك من التصرفات اللاإنسانية المُنْبئة عمّا يفعل الكفر والبعد عن الله في فساد الفطرة الإنسانية وانحرافها[١].

١ ـ شخصية الأب «والد إبراهيم عليه السَّلام»:

يعدُّ هذا النص في إجابته توضيحًا لشخصية والد إبراهيم عليه السَّلام وإشارة إلى بعض ملامحها، وأما في بقية المواضع، فيأتي ذكره ضمن الحديث

(١) القصص القرآني بين الآباء والأبناء، عماد زهير حافظ، ص٨٢.

عن قومه، وقد أشار القرآن الكريم في حديثه عن قصة إبراهيم عليه السَّلام إلى بعض صفات شخصية «آزر» والد إبراهيم عليه السَّلام ومنها:

أ ـ الأب المشرك:

يكشف النصُّ عن عقيدة «آزر» الأب في قوله ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾، فنحن أمام شخص يعبد الأصنام، ويبدو أنه يُعنى بها كثيرًا، ويمنحها جهده ووقته، كما يُفهم من لفظ «أتتخذ» في سورة الأنعام[١]، فاللفظ يُوحي بأن «آزر» يصنع الأصنام وينحتها[٢].

ب ـ المكانة الدينية:

نُدرك من سياق الحوار أن الرجل صاحب مكانة في قومه، وعنده عناية كبيرة بالآلهة وطقوسها وتعاليمها، ونستشفُّ ذلك مما سبق آنفًا، ومن قوله ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾، فهو ذو مكانة في قومه، وإسناد الرجم إلى نفسه من باب المجاز العقلي، والذي يرجمه قومه استنادًا إلى حكمه[٣].

ج ـ الإنصات للآخر:

يظهر الأب «آزر» في مشهد الحوار طرفًا يُحسن الاستماع للآخر، حيث أدلى الابن إبراهيم عليه السَّلام بكل ما أراد قوله، ولم يقاطعه، بل ظلَّ صامتًا حتى انتهى الابن من حديثه[٤].

د ـ التعصُّب والتصلّب في الكفر:

يُظهر الحوار أنّ الأب شخصية مُتعصِّبة لآلهتها، مُستميتة في نصرتها،

---

(١) صناعة الحوار، حمد عبد الله السيف، ص٧٧.

(٢) البحر المحيط في التفسير، أبو حيّان الأندلسي، (٤/ ١٧٠).

(٣) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (١٦/ ١٢٠)، صناعة الحوار، حمد عبد الله السيف، ص٧٨.

(٤) صناعة الحوار، حمد عبد الله السيف، ص٧٨.

مستنكرة كلَّ ما يُخالفها، مُضحّية في سبيلها بكل شيء، ولو كان ثمرة الفؤاد وقطعة الكبد المتحركة ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾ أي: أبلغ بك الأمر إلى هذا الحدِّ من الجرأة وقلة الأدب؟! فهو إنكار توبيخي، فيه لون من الاستهجان والاستغراب[١].

وفي التعبير باسم الفاعل ﴿أَرَاغِبٌ﴾ دلالة على ثبات إبراهيم عليه السَّلام واستمراره في النفور من آلهة أبيه، وأنها ليست وليدة الحدوث، وليست نتيجة قرار جديد اتخذه وعزم عليه، بل إن تلك الرغبة عن آلهة أبيه وقومه أمرٌ متأصِّل فيه، وصفةٌ ثابتة له[٢].

ثم تأمل إظهاره ضمير إبراهيم في قوله ﴿أَنتَ﴾ بدلاً من إضماره، وكان يمكن أن يقول: «أراغب عن آلهتي يا إبراهيم» لما في إظهاره من الاستهانة به والتحقير من شأنه، كأنه ليس أهلاً لذلك.

ويمكن أن نقول أيضًا: إنَّ في ذكرِ ضمير المخاطب ﴿أَنتَ﴾ زيادة إنكار وتوبيخ من آزر لإبراهيم عليه السَّلام، وكأنه يقول له: ما كان يُتوقَّع منك أنت بالذات أن تتخلَّى عن آلهة أبيك، وتأمَّلْ قوله ﴿عَنْ ءَالِهَتِي﴾، وكان من الممكن أن يقول: عن آلهتنا تجد في إضافة الآلهة إلى ضميره إغاظة لإبراهيم عليه السَّلام، وتأكيدًا له أنه لم يكترث بموعظته له، وأنه مُتمسِّك بعبادة الأصنام ومُصرٌّ عليها ومدافع عنها بكل ما أُوتي من سلطة وقوة، وكأنه يقول لابنه: إنّ مواعظك لي لم تُغيِّر اعتقادي في آلهتي، ولم تُؤثِّر فيّ قيد أنملة. وفي إضافتها إلى نفسه أيضًا مبالغة في تعظيمها[٣].

---

(١) صناعة الحوار، حمد عبد الله السيف، ص٧٨.
(٢) خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم عليه السلام، د. الشحات محمد أبو ستيت، مطبعة الأمانة، مصر، ط١، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م، ص٤٠.
(٣) تأملات في سورة مريم، عادل أحمد صابر الرويني، ص١٩٧.

هـ ـ غلظة الطبع وقساوة المشاعر :

لقد تلقّى الأب استعطافَ الابن وشفقته وتحنُّنَه إليه بتكرار النداء بالأبوة الذي يُليِّن القلب القاسي، ويُذيب الصخر الجامد، ومحاولاته إحضار ملكات السمع والذهن الشاردة، وإيقاظ داعي الخوف من الله، والتحذير من طاعة الشيطان، تلقَّى كلَّ ذلك بفظاظة المنطق، وجلافة المشاعر، وخمول الأبوية، والإصرار على الكفر، والتهديد بالقتل، والضيق النفسي بالابن الناصح المشفق[١].

و ـ الكبر والتعالي واختصار الآخر :

تجلت الصفتان من خلال التحليل لسمات هذه الشخصية، حيث سيطرت الذات المغرورة المتعالية. بل إنَّ نبرات الاستكبار، ونظرات الاحتقار للآخرين، نحسُّ بها منذ العبارات الأولى من حديثه[٢].

وتأمل اللحظات، وذلك عندما نادى إبراهيم عليه السَّلام باسمه مجرَّدًا فقال: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ ولم يقل: «يا بني» في مقابل مناداة إبراهيم عليه السَّلام برابطة الأبوة؛ ليُشعر ابنه بأنه لا يستحقُّ أن يُنسب إليه، ولا أن يُضاف إلى اسمه ما دام قد رغب عن آلهته، وتظهر في الحوار فظاظة قلب الأب الكافر وقسوته، كما أن في استعماله أداة النداء ﴿يَا﴾ مع إبراهيم، الموضوعة لنداء البعيد فيه إشعارٌ ببعده عن نفسه وقلبه[٣].

تلك بعض المكونات التي أظهرها الحوار من شخصية الأب المستكبر، وهي سمات تُطلعنا على المعاناة الشديدة التي لقيها الابن البارّ في سبيل هداية

(١) صناعة الحوار، حمد عبد الله السيف، ص٨٠.
(٢) المرجع نفسه، ص٨٠.
(٣) خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم عليه السلام، د. الشحات محمد أبو ستيت، ص٣٩.

أبيه وإنقاذه من عذاب الرحمن؛ ليُخلِّد بذلك مثالاً حواريًّا رائعًا للأبناء البررة الصالحين الذين يجدون أنفسهم في بيئة مُنحلّة، وأسرة متهتّكة، وأب مُنتكِس الفطرة، لئيم الخلق، لا يُقيم لشرع الحقِّ وزنًا، ولا يرجو لله وقارًا[١].

٢ ـ ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾:

هذا وعيد وتحذير لإبراهيم، والمعنى: لئن لم تنتهِ عمّا أنت عليه من الدعوة إلى ترك عبادة الأصنام لأرجمنّك، والوعيد شديد، كما أن الإنكار كان شديدًا، فمجيء التهديد على سبيل الشرط للإيذان بتحقُّق وقوع الرَّجم وسرعته، أي: وقوع الأمر المهدَّد به بمجرد وقوع الشرط، وأكّد الشرط بالقسم، كما أكّد الجواب باللام ونون التوكيد الثقيلة، وقال ﴿تَنتَهِ﴾ للتعميم والشمول فيما ينتهي عنه، فالأب يريد من ابنه أن يُقلع تمامًا عن أي فعل أو قول يمسُّ آلهته. وفي تهديد الأب لابنه بالرجم في قوله ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ ما يدلّ على قسوته وغلظة قلبه؛ لأنَّ الرجم (الضرب بالحجارة حتى الموت) هو تهديد بالقتل بأقسى أنواعه، وعليه يكون لفظ الرجم مستخدمًا في معناه الحقيقي، وقد يُراد بالرجم الشتم والذّم، وحينئذ يكون في اللفظ استعارة تبعية.

ولا مانع من إرادة المعنيَين؛ لأنه لم يُبيّن أداةَ الرجم ولا نوعه، وهل هو رجم بالحجارة أم رجم باللسان؟ هكذا كان تهديد الرجل، وقد لمستَ مدى شدّته وعُنفه، واشتمل ردّ الأب على أمر جاء في قوله ﴿وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ أي: تجنّبني ولا تكلّمني وغَيِّبْ وجهك عني زمانًا طويلاً. والأمر في الآية جاء معطوفًا على محذوف، والتقدير: احذرني واهجرني، وإنما أمر أبو إبراهيم ابنه بهجرانه، ولم يُخبره بأنه هو الذي يهجره، فلم يقل له: وأهجرك مليًّا؛ ليدلَّ على أن هذا الهجران جاء في معنى الطرد والخلع إشعارًا بتحقيره[٢].

---

(١) صناعة الحوار، حمد عبد الله السيف، ص٨٠.

(٢) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (١٦/ ١٢٠).

والأمر شديد مثل الإنكار والتهديد، فالأب فقد كلَّ مشاعر الأبوة، وتمزَّقت في نفسه كلُّ الروابط التي فُطرت عليها النفوس، وجُبلت عليها القلوب، حيث دعا ابنه إلى أن يُقاطعه ويَهجره ولا يهتمَّ بأمره ولا يُجالسه ولا يقاربه، لذا عبّر بالهجر بدلاً من البعد أو الترك؛ لأن مُراده شدّة المفارقة وتمام القطيعة، كما أن مادة «هجر» تدلُّ في المعاجم اللغوية على القطيعة والقطع، ومنها: الهُجر بضم الهاء وسكون الجيم، وهو: الإفحاش في المنطق، ويُقال: رماه بالهاجرات، أي: بالفضائح[١].

ولم يُحدِّد الهجر بزمان معلوم، ولكن عبر عن زمانه بلفظ ﴿مَلِيًّا﴾، وهو الزمان البعيد، وهذا مأخوذ من قولهم: أتى على فلان ملاوةٌ من الدهر: أي دهر طويل.

إذن: طلب الأب من ابنه أن يهجره هجرًا دائمًا يستغرق زمانًا طويلاً لا حدود له ولا نهاية، هذا هو ردُّ الأب الكافر، جاء في غاية القسوة والجفاء والغلظة، فماذا كان ردُّ إبراهيم عليه؟ هل بادل أباه غلظة بغلظة؟ وقسوة بقسوة؟ كلاّ، إن جفاء الأب لم يزدْه إلا حلمًا ولينًا وتواضعًا[٢]، اقرأ معي جوابه في الآيات القادمة:

❊ ❊ ❊

سادسًا: قوله تعالى ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ۝٤٧ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٧ ـ ٤٨]:

جاء حوار إبراهيم عليه السَّلام مع أبيه مُثقَلاً بكلمات دعاء صادق، وألفاظ

(١) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة، القاهرة، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م، مادة (هجر).

(٢) تأملات في سورة مريم، عادل أحمد صابر الرويني، ص٢٠٠.

لطيفة رقيقة مُشفِقة تتمنَّى له السلامة والهداية، وتضمن له الموادعة المطلقة، والاستجابة المباشرة لقرار الترحيل والمفارقة الذي فرضه الأب القاسي الكفور، ورغم المنزلة العظيمة التي تبوّأها إبراهيم عليه السَّلام عند ربّه، فقد كان متواضعًا لله تعالى، مُتَّصفًا بلين الجانب، ولطافة المعشر، وسهولة التعامل، لاسيّما مع والده الذي ظلَّ يخفض له جناح الذلِّ رغم عنجهيّته وفظاظته[1].

تميَّزت شخصية الخليل إبراهيم عليه السَّلام في هذا المشهد الحواري بعقل ناضج، وتخطيط مُحكَم، وتفكير سليم، وتصرّف سديد، وصبر حليم كبير، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥]، والمتأمل في هذا المشهد الحواري يندهش من الروح الإيجابية المتفائلة التي تصطبغ بها النظرة المستقبلية عند إبراهيم عليه السَّلام، فبعد فشل أساليبه في التلطّف والاستعطاف، وبعد كل ما لاقى من التهديد بالقتل، والطرد من البيت والوطن، ظلَّ ينتظر فجرًا قادمًا، وفرجًا قريبًا[2].

١ ـ ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾:

هذا دعاء لأبيه بالأمن والسلامة من أي سوء، فإبراهيم عليه السَّلام يرجو لأبيه الأمن والسلامة في غيبته، فهو يريد أيضًا أن يُطمئِن أباه بأنه سيَسلم من جهته من كلِّ ما يكره[3].

والسلام أيضًا سلامُ متاركةٍ وتوديع، ومقابلة للسيئة ـ وهي نفور أبيه ووعيده وإعراضه ـ بالحسنة، وهي الدعاء له والاستغفار وتوديعه وتركه. ويتجلَّى الإيجاز البديع في سلام إبراهيم عليه السَّلام مع قوة المعنى والمبالغة

(١) صناعة الحوار، حمد عبد الله السيف، ص٧٥.
(٢) المرجع نفسه، ص٧٥.
(٣) تأملات في سورة مريم، عادل أحمد صابر الرويني، ص٢٠١.

فـيـه، فقد جاء جملة اسمية تدلُّ على ثبوت السلام ودوامه، ونكّر المبتدأ ﴿سَلَٰمٌ﴾ للإشعار بتمام السلام وكماله من خلال الدعاء له، كأنه قيل: سلام كامل تامّ عليك، وهذا ما سوّغ الابتداء به وهو نكرة(١).

وفي قوله ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ﴾: تلمح قمة الحلم الذي وصل إليه إبراهيم عليه السَّلام(٢)، وهذا هو شأن الداعية، وصفته المميزة، إذا أُسيء إليه قابل بالسيئة الحسنة، وأعرض عمّن جهل عليه اتباعًا لأمر ربه ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٦].

ونذكر في هذا المقام كلامًا للشيخ عبد الرحمن السعدي، حيث يقول: وقد أمرَنا الله باتباع مِلَّة إبراهيم عليه السَّلام، فمن اتباع ملّته سلوك طريقه في الدعوة إلى الله بطريق الحكمة والعلم، واللين والسهولة، والانتقال من رتبة إلى رتبة، والصبر على ذلك، وعدم السآمة منه، والصبر على ما ينال الداعي من أذى الخلق، بالقول والفعل، ومقابلة ذلك بالصفح والعفو، بل بالإحسان القولي والفعلي(٣).

٢ ـ ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ﴾:

لم يكتف إبراهيم عليه السَّلام بالدعاء لأبيه وبتحيته وهو يفارقه، بل وعده أيضًا أن يستغفر له ربَّه تعالى بالدعاء بأن يُوفِّقَه للهداية والإيمان والتوبة. ومعنى الاستغفار للكافر: استدعاء التوفيق لما يجلب مغفرة الله سبحانه وتعالى، وهذا يجوز قبل تبيُّن تحتُّم موته على الكفر(٤).

---

(١) خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم عليه السلام، د. الشحات محمد أبو ستيت، ص٤٢.

(٢) القصص القرآني بين الآباء والأبناء، عماد زهير حافظ، ص٨٤.

(٣) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٠٠٢.

(٤) تأملات في سورة مريم، عادل أحمد صابر الرويني، ص٢٠١.

هذا وقد استغفر إبراهيم لأبيه آزر كما وعده، جاء ذلك من سورة الشعراء ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦]، أي: يا ربّ اصفح عن أبي آزر واهدِهِ إلى الإيمان، فإنه قد ضلَّ عن سبيل الهدى، فكان من الكافرين[١].

لقد استغفر إبراهيم عليه السَّلام لأبيه أثناء حياته راجيًا أن يؤمن بالله، ولكنه لمّا مات كافرًا تبرّأ منه عليه السَّلام ولم يستغفر له. وما فعله إبراهيم عليه السَّلام أمر صحيح، إذ لو صدر من أي شخص لكان حسنًا، فكيف لا يُتوقَّع صدور الأحسن منه عليه السَّلام؟! وقد نصَّ القرآن الكريم على ذلك، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ﴾ [التوبة: ١١٤]، فلا ذنب ولا إثم في ذلك، وإنما طلب من الله تعالى إنجاز الوعد الموعود، وذلك بتوفيقه للإيمان، فيكون طلب استجابة الدعاء مشروطًا بالإيمان[٢].

ويقول القاضي البيضاوي في تفسير الآية: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾: وعدها إبراهيم أباه بقوله ﴿لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ﴾ أي: لأطلبن المغفرة لك بتوفيقك إلى الإيمان، فإنه يَجبُّ ما قبله ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ﴾ بأن مات على الكفر أو أوحي فيه بأنه لن يؤمن ﴿تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ﴾ أي قطع استغفاره[٣].

فالقاضي البيضاوي جمع بين أمرين، أن إبراهيم ظلَّ يستغفر لأبيه إلى أن مات مصرًّا على كفره، فقطع حينئذ الاستغفار وتبرّأ منه؛ لأنه مات مُصرًّا، أو أن الله أوحى إليه أنه لن يؤمن فقطع الاستغفار[٤].

---

(١) من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين، محمد فؤاد سندي، ص١٢٦.
(٢) التوبة في ضوء القرآن، آمال صالح نصير، دار الأندلس الخضراء، جدة، السعودية، ط١، ١٩٩٨م، ص٢٢٤.
(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي)، ص٢٩٩.
(٤) التوبة في ضوء القرآن، آمال صالح نصير، ص٢٢٤.

فالاستغفار الذي وعد إبراهيم أباه به هو طلب الهداية له والتوبة، ولهذا قال في دعائه: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦]، وهو جائز ما دام المستغفَر له في الحياة؛ لأنه يُرجى منه الإيمان، أما إذا مات على الكفر فلا يجوز الاستغفارَ له بمعنى طلب المغفرة له[١].

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٣ ـ ١١٤].

وفي قوله تعالى ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ جاءت الآية دليلاً على أن الوعد والإنجاز كانا قبل التبيُّن، وأكّد الوعد بالسين؛ وذلك لأنّها تفيد الوعد بحصول الفعل، فدخولها على ما يفيد الوعد أو الوعيد مُقتضٍ لتوكيده وتثبيت معناه[٢]. كما أن الوعد بالسين يدلّ على تحقُّق أو قرب وقوعه بخلاف «سوف»، وقُدِّم الجار والمجرور «لك» على المفعول به «ربي» للمسارعة إلى إعلام أبيه بأن الاستغفار سيكون خاصًا له، وأنه من أجله هو، وأُوثِرَ التعبير بوصف الربوبية، لما فيها من معنى العناية والرعاية واللطف والتربية بإبراهيم عليه السَّلام، وهذا من دواعي قبول دعائه لأبيه واستغفاره له.

وأضيف هذا الوصف إلى ضمير المتكلم للتشريف، وللإشعار بأن الربّ الذي يستحقُّ العبادة والدعاء والالتجاء إليه هو رب إبراهيم عليه السَّلام وليس ربَّ آزر الذي لا ينفع ولا يضرّ، وجاء قول ﴿رَبِّيٓ﴾ الدالّ على الوحدانية في مقابلة قول أبيه ﴿ءَالِهَتِي﴾ الدالّ على الشرك[٣].

---

(١) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٥/ ١٨٤).
(٢) تأملات في سورة مريم، عادل أحمد صابر الرويني، ص٢٠٢.
(٣) المرجع نفسه، ص٢٠٣.

٣ ـ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾:

أي: لطيفًا رحيمًا بارًا، يبالغ في إكرامي إكرامًا يُحقِّق سعادتي[١].

وقد قدّم الجار والمجرور ﴿بِى﴾ على خبر كان ﴿حَفِيًّا﴾؛ للمسارعة ببيان أن كرم الله تعالى ملازم له، والمعنى: سأطلب لك المغفرة من الله، فإنه كثير البرّ واللطف بي، يُجيبني إذا دعوتُه، ولفظ «حفيًّا» صيغة مبالغة على وزن فعيل (حفيّ)، وهي تدلُّ على المبالغة في بيان لطف الله تعالى بإبراهيم، وكرمه به، ومكانته عنده سبحانه[٢].

وجاءت «كان» في وسط الكلام؛ لتأكيد الحفاوة وبيان تحقُّق وقوعها، فالله عزّ وجل حفيّ به من قبل ذلك، وليست حفاوته به أمرًا جديدًا، إنما هي واقعة في الماضي ومستمرة في المستقبل[٣].

٤ ـ ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾:

استجاب إبراهيم عليه السَّلام لأمر أبيه له بأن يهجره طويلاً، فأخبره بأنه سيبتعد عنه وعن قومه، بعد أن قام بواجب الدعوة والموعظة، وبعد أن أبرأ ذمّتَه منهم بإقامة الحجة على أبيه وقومه، ونلتمس في هذا الخبر أدب إبراهيم عليه السَّلام الجمّ كعادته دائمًا وحسن تواضعه، فهو لم يَخصَّ أباه بالاعتزال، بل عمَّم الاعتزال وجعله شاملاً لأبيه وقومه، وفي هذا رفق بأبيه، فإبراهيم لم يطلب من أبيه أن يعتزله، وإنما جعل الاعتزال من جهته هو، في حين أن أباه واجهه مباشرة بأمر تركه والابتعاد عنه، وخصّه بذلك ليكون الأمر أشدّ عليه

---

(١) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١٥/ ٩١٠٥).

(٢) تأملات في سورة مريم، عادل أحمد صابر الرويني، ص٢٠٤.

(٣) خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم عليه السلام، د. الشحات محمد أبو ستيت، ص٤٤.

وأصعب على نفسه، وفي اعتزال إبراهيم عليه السَّلام إعلان بهجر أرض الكفر، واعتزال الكافرين.

وقد استخدم إبراهيم عليه السَّلام في التعبير عن آلهتهم الاسم الموصول «ما» لغير العاقل، للدلالة على عدم أهليتها للعبادة بفقدانها العقل والحكمة والتدبير وغيرها من الصفات التي تختص بالعقلاء(١).

وقال: ﴿وَمَا تَدْعُونَ﴾ ولم يقل: «وآلهتكم»، للإشارة إلى أن من شرط المعبود أن يكون أهلاً للمناداة والدعوة في الشدائد(٢).

وفي التعبير عنها بغير العاقل أيضًا تسفيه لهم، أي: لعابديها، وتحقير لتلك الآلهة المزعومة، ويسلب عنها صفة الألوهية التي يزعمونها لها، ويعبدونها ويعظّمونها، وبسببها كان كفره بتلك الآلهة المزعومة، وأنها من نفسه بلغت مبلغًا عظيمًا في الحقارة والتهكم والكره لدرجة أنه لا يريد أن يذكرها بلسانه، وفي التعبير بالموصول أيضًا إيماء إلى وجه بناء الخبر وعلة اعتزاله لهم ولأصنامهم بأن تلك الأصنام تُعبد من دون الله، وأن القوم يعبدونها، فذلك وجه اعتزاله إياهم وأصنامهم(٣).

ووصفُ الأصنام بـأنها ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ زيادة في النكير على من يترك عبادة الله الجامع لصفات الكمال سبحانه وتعالى، ويعبد حجارة صَمّاء لا تملك من أمرها شيئًا، ولا تنفع عابدها.

تأمَّل الأدب الإنساني الرفيع من إبراهيم عليه السَّلام فقد قابل قول أبيه: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ بما فيه من قسوة وفظاظة بقوله ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ بما فيه من دعاء له بالأمن والسلامة، ووعدَه بالاستغفار تقديرًا لحقّ الأبوة، وقابل أمره بهجره

---

(١) تأملات في سورة مريم، عادل أحمد صابر الرويني، ص٢٠٥.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، (١٢/ ٢٠٨).

(٣) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (١٦/ ١٢٢).

زمانًا ممتدًّا، بإخباره بامتثاله لأمره واعتزاله له ولقومه وما يعبدون، ولم يقيّد اعتزاله بزمن، بل أشار إلى أنه معتزل لهم ما داموا على هذا الدين[١].

ومما ورد في ردِّ إبراهيم عليه السلام على أبيه قوله ﴿وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨]، وقال: ﴿وَأَدْعُواْ رَبِّي﴾ ولم يقل: وأدعو الله، للإشعار بالتغاير بين عبادتهم وعبادته[٢].

وأُوثر التعبير بلفظ «ربّ» المضاف إلى ضميره للتعريض بأن ربّه هو المستحق للعبادة والخضوع؛ لأنه يسمع مَن ناجاه، ويُجيب من رجاه بخلاف آلهتهم المزعومة التي لا تسمع نداءً ولا تُجيب رجاءً، فكأنه يقول لهم: إنَّ ربي هو المستحقُّ للعبادة لا آلهتكم. وفي إضافة لفظ «ربّ» إلى ضمير نفسه أيضًا: إشارة إلى انفراده من بينهم بعبادة الله تعالى، فهو ربّه وحده من بينهم، فالإضافة هنا تفيد معنى القصر الإضافي، مع ما تتضمنه الإضافة من الاعتزاز بربوبية الله إياه والتشريف له بذلك[٣].

وقد علَّلَ الخليل إبراهيم عليه السَّلام عبادته لربّه ودعاءه له بـ ﴿عَسَىٰٓ﴾ في قوله ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾، فغاية ما يرجوه إبراهيم عليه السَّلام هو مجرّد تجنُّب الشقاوة. وتصدير الكلام بـ ﴿عَسَىٰٓ﴾ الدالة على الرجاء فيه من إظهار تواضعه عليه السَّلام وحسن أدبه مع ربه، وهضم النفس على ما لحق فيه، فهو لم يجزم بإجابة دعوته وقبول عبادته تعظيمًا وإجلالاً لربّه عزَّ وجلَّ، وللتنبيه على أن الإجابة والإثابة تفضُّل من الله تعالى، وأنهما غير واجبين عليه سبحانه، وأن ملاك الأمر خاتمته[٤].

وفي قول إبراهيم عليه السَّلام السابق ـ فيما حكاه القرآن عنه ـ تعريض

---

(١) تأملات في سورة مريم، عادل أحمد صابر الرويني، ص٢٠٦.
(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الآلوسي، (١٥/ ١٤٨).
(٣) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (١٦/ ١٢٣).
(٤) تأملات في سورة مريم، عادل أحمد صابر الرويني، ص٢٠٧.

بشقاوة قومه وأبيه في عبادتهم أصنامًا يجلبون لها القرابين، ويُرهقون أنفسهم في عبادتها وخدمتها، وهي لا تُقدّم لهم شيئًا ولا تمنحهم ولا تمنعهم شيئًا، بل ستكون وقودًا للنار يوم القيامة، ليُعذَّبوا بها وستكون سببًا في خسرانهم وشقائهم في الدنيا والآخرة، وكان ظاهر السياق أن يُقال: وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعائه شقيًّا، ولكن أظهر لفظ ﴿رَبِّي﴾ في موضع الإضمار للإشعار بعلة الحكم، الذي هو عدم الشقاء، وللتعبُّد والتشرُّف بذكره[١].

وقد نفّذ إبراهيم عليه السَّلام ما عزم عليه، وارتحل من بلاد الكفر وهاجر في سبيل الله قاصدًا الشام فرارًا بدينه، بعد أن أدَّى حقَّ التبليغ والنصح، ومواجهة الكفر بلسانه ويده وقلبه[٢].

وكان المهاجَرَ الأوَّلَ من أجل دينه وعقيدته وتوحيد الله عزّ وجل، هاجر إلى الله من أجل الله، وفي سبيل الله عزّ وجل، وخرجت معه زوجته وابن أخيه لوط عليهما السلام بعد أن ألقاه قومه في النار، ونجّاه الله منها، وجعلها بردًا وسلامًا عليه، وهو يقول: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩]، وهداه الله سبحانه إلى الأرض المباركة في بلاد الشام ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١][٣].

لقد آثر إبراهيم عليه السَّلام غربةَ الوطن واعتزال أبيه وقومه تقرُّبًا لله تعالى ومحبة فيه، وضرب لنا مثلاً عمليًّا في سنة الله في خلقه؛ من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، فكانت المكافآت الربانية، فبعد المِحَن مِنَحٌ ربانية، مصحوبة بالبركات والرحمات الإلهية.

❊ ❊ ❊

---

(١) خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم عليه السلام، د. الشحات محمد أبو ستيت، ص٤٧.
(٢) تأملات في سورة مريم، عادل أحمد صابر الرويني، ص٢٠٧.
(٣) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٥/ ١٨٦).

سابعًا: قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ [مريم: ٤٩ ـ ٥٠]:

هاجر الخليل إبراهيم عليه السَّلام إلى الشام، معتزلاً الأب والأهل والقوم والوطن في سبيل الله؛ لعلَّه يجد أرضًا خصبة لنشر عقيدة التوحيد، وكانت مكافأة الله تعالى أن عوّضه بذرية صالحة تُؤنسه في غربته واعتزاله، فقد وهبه الله تعالى إسحاق على كبر، من امرأة عاقر عقيم هي السيدة سارة، ثم رُزق بحفيده يعقوب، ومن قبلهما رُزق بابنه إسماعيل ـ عليهم السلام جميعًا ـ ووهب الله لهم من صنوف خيري الدنيا والآخرة ما وهب، وجعلهم أنبياء، وجعل لهم بين الناس ذكرًا حسنًا وثناءً جميلاً إلى يوم القيامة. وهكذا أبدل الله سبحانه خليله إبراهيم عليه السَّلام أهلاً خيرًا من أهله، ووطنًا خيرًا من وطنه، ولنتأمل هذا المعنى في صياغة تلك الآيات المباركة[١].

١ ـ ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾:

أي: اعتزل قومه ومظاهرهم وشركهم وكفرهم[٢]، فالفاء في الآية ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ ﴾ تطوي وراءها زمنًا، وقد أعلن إبراهيم عليه السَّلام في الآيات السابقة عزمه الاعتزال. وفي قوله ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ ﴾ إخبار بوقوع الاعتزال وإنباء عن هجرة الخليل إبراهيم ـ عليه السلام ـ، وهكذا طوت الفاء هذا الزمن «زمن الهجرة» للإشعار بسرعة تنفيذ ما عزم عليه، حتى بدت هجرته أرضَ الكفر وكأنها وقعت بعد عزمه اعتزال أبيه وقومه مباشرة، وكرّر ذكر الاعتزال بعد الفاء؛ لتحقيق الترابط والتلاحم بين مشاهد القصة وأحداثها،

(١) تأملات في سورة مريم، عادل أحمد صابر الرويني، ص٢٠٨.
(٢) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٥/ ١٨١).

فتبدو حلقاتها شديدة الترابط والاتساق رغم اختلاف أزمنة وأمكنة حدوثها[١].

٢ ـ ﴿وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾:

ترتبت هبة إسحاق ويعقوب عليهما السلام على اعتزال إبراهيم الخليل؛ لبيان عظم المكافأة التي أعطاها الله تعالى له بمقابلة من اعتزلهم من الأهل والأقارب، وجاء نظم تلك الهبة الجليلة على صورة الشرط وجوابه؛ للإشعار بتحقُّق مكافأة الله له بعد تحقُّق الشرط وهو الاعتزال، وهذا لا يمنع من وجود مدة زمنية فاصلة بين الاعتزال والهبة المذكورة، فالمشهور أنه عليه السَّلام رُزق بإسماعيل أولاً، ثم رُزق بإسحاق بعد ذلك بمدة طويلة[٢].

وعُرف إسحاق عليه السَّلام بالصلاح، واختصَّه الله بالبركة، ومنَّ عليه بالذرية الصالحة، وامتدحه الله تعالى بقوله ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٢ ـ ١١٣].

ووصفه رسول الله ﷺ بالكريم، وفي الحديث الذي رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ، قال: قيل للنبي ﷺ: مَن أكرَمُ النّاس؟ قالَ: «**أكرَمُهم أتقاهُم**»، قالوا: يا نبيَّ اللهِ ليس عن هذا نسألُكَ، قال: «**فأكرَمُ النّاسِ يُوسُفُ نبيُّ الله ابن نبيِّ الله ابن خليلِ الله**»، قالوا: ليس عن هذا نسألُكَ، قال: «**أفعَن مَعادِنِ العَربِ تَسألونَني؟**»، قالوا: نعم، قال: «**فخِيارُكُم في الجاهليّة خِيارُكُم في الإسلامِ إذا فَقِهُوا**»[٣].

فالكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السَّلام، كما أن الله سبحانه وتعالى وصفه بأنه قدوة يُقتدى به في الأعمال

---

(١) خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم عليه السلام، د. الشحات محمد أبو ستيت، ص٤٨.

(٢) تأملات في سورة مريم، عادل أحمد صابر الرويني، ص٢٠٩.

(٣) صحيح البخاري، رقم (٣٣٧٣).

الصالحة، ويقيم الصلاة، ويُؤتي الزكاة، وكان عبدًا لله، وهذا هو مَعين التوحيد الصافي أن يكون الإنسان عبدًا لله[١].

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٢ ـ ٧٣]، ويعقوب هو ابن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام وهو المسمى إسرائيل، وقد بشر الله تعالى به جدَّه إبراهيمَ الخليل حينما جاءته رسل الله ليخبروه خبر قوم لوط[٢]، كما سيأتي تفصيل ذلك بإذن الله تعالى.

ويُحسب يعقوب ولدًا لإبراهيم عليه السَّلام لأنه وُلد في حياة جدّه، فنشأ في بيته وحجره، وكان كأنه وَلَدُه المباشر، وتعلَّم ديانته ولَقَّنَها بَنيه، وكان نبيًّا كأبيه[٣]، وهنا دلالة على أن إبراهيم عليه السَّلام عاش مدة طويلة من الزمان بعد اعتزال قومه حتى أدرك حفيدَه يعقوب عليه السَّلام[٤].

لقد وهب الله عزّ وجل إبراهيم عليه السَّلام إسحاق ويعقوب عليهما السلام وَهبًا دون مقابل ورحمةً منه تعالى؛ لأنه هو الوَهّاب الذي يُعطي الهبة بلا عوض ولا مقابل ولا منٍّ، ويعطي ما يشاء لمن يشاء، وهبات الله ونعمه وعطاياه كثيرةٌ لا يُدوِّنُها قلم ولا يُحصيها حسابٌ، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨]، فالهبة من الوَهّاب سبحانه وتعالى، وهو الذي يُكثر العطاء بلا عوض، ويَهبُ ما يشاء لمن يشاء بلا غرض، ويُعطي الحاجة بغير سؤال، فقد وهب سبحانه إسحاق ويعقوب

---

(١) أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ، د. جمال عبد الهادي ود. وفاء محمد رفعت، دار الوفاء للطباعة والنشر، مصر، ٢٠٠٥م، ص٨٨.
(٢) المرجع نفسه، ص٨٩.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٤/ ٢٣١٢).
(٤) تأملات في سورة مريم، عادل أحمد صابر الرويني، ص٢١٠.

لإبراهيم عليهما السلام تفضُّلاً وكرمًا وجودًا وأثرًا من أثر اسمه الوَهّاب[١].

إنَّ الله الوَهّاب سبحانه يَهبُ شفاءً لسقيم، وولدًا لعقيم، وهُدًى لضالٍّ، وعافية لذي بلاء، وسع الخلق جودُه، ودامت مواهبُه، واتَّصلت مِنَنُه وعوائِدُه[٢].

قال ابن القيم في قصيدته النونية الكافية الشافية:

وكـذلِـكَ الـوَهَّـابُ مـنْ أسْمـائِـهِ فـانظُـرْ مَـواهِبَـهُ مَـدَى الأزْمـانِ
أهلُ السَّماواتِ العُلَى والأرضِ عَن تِلـكَ المَـواهِـبِ لَيـسَ يَنفَكَّـانِ[٣]

والتعبير بالهبة في قوله تعالى ﴿وَهَبْنَا لَهُۥ﴾: إشارة إلى أنّها عطاء خالص من الله تعالى، وإضافة الهبة إلى ضمير العظمة «نا» يدلُّ على كمالها[٤].

وهنا نسأل عن السرِّ في تخصيص إسحاق ويعقوب عليهما السلام بالذكر على الرغم من أن إبراهيم عليه السَّلام رُزق بولده إسماعيل عليه السَّلام قبلهما[٥]؟ والجواب على هذا السؤال يكون من وجوه عدة:

أوّلها: لأن إبراهيم عليه السَّلام لمّا اعتزل قومه خرج بزوجه سارة، وهي قد اعتزلت قومها أيضًا؛ إرضاءً لربّها ولزوجها، فذكر الله الموهبة الشاملة لإبراهيم وزوجه، ولأن هذه الموهبة لما كانت كفاءً لإبراهيم على مفارقته أباه وقومه، كانت موهبة من يعاشر إبراهيم ويؤنسه وهما إسحاق ويعقوب، وقد كان إسماعيل بعيدًا عنه[٦].

---

(١) صفات الأنبياء من قصص القرآن «إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ولوط»، عقيل حسين عقيل، سما للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ٢٠١١م، ص٢٣٢.
(٢) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز ناصر الجليل، دار طيبة، الرياض، ط٣، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م، ص٦٨٤.
(٣) المرجع نفسه، ص٦٨٤.
(٤) تأملات في سورة مريم، عادل أحمد صابر الرويني، ص٢١٠.
(٥) المرجع نفسه، ص٢١٠.
(٦) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (١٦/ ١٢٤).

ثانيها: أنه سبحانه وتعالى خصّ إسماعيل عليه السَّلام بالذكر منفردًا ليكون تنبيهًا على عظم شأنه وعلوّ قدره عند ربه، وهذا نقرؤه في قوله سبحانه في السورة نفسها: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾ [مريم: ٥٤ ـ ٥٥].

وثالثها: أنّ إسحاق ويعقوب عليهما السلام شجرتا الأنبياء، حيث جعل من أولادهما وذُريّتهما أنبياء كثيرين وأحفادًا أُولي شأن عظيم، وإسماعيل عليه السَّلام لم يخرج من صلبه إلا محمد ﷺ(١).

ورابعها: خصَّ يعقوب وإسحاق بالذكر للزومهما محلَّ إقامة إبراهيم، وقيامهما بخلافته فيه. وأما إسماعيل فكان الله سبحانه هو المتولي لتربيته بعد نقله رضيعًا إلى المسجد الحرام، لذا أُخّر في الذكر، وجُعل أصلاً في إجراء الكلام عليه(٢)، والله أعلم.

وخامسها: لأن إسحاق عليه السَّلام وُلد من سارة، وكانت عجوزًا عقيمًا، وإسماعيل وُلد من أمةٍ شابّة، فكانت المنّة في هبة إسحاق أظهر(٣).

وهذه الوجوه جميعها راجعة إلى اجتهاد المفسرين، وهي مسألة لا يترتَّب عليها شيء، وأيًّا كان السبب فلا ضير، وكلها محتملة، والله أعلم بمراده(٤).

٣ ـ ﴿وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ٤٩ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا﴾:

عوَّض الله إبراهيم عليه السَّلام بالفرحة بالولد والأحفاد. أما الولد فإسحاق وأما الحفيد فيعقوب عليهما السلام. فكانوا فئته التي اعتزل بعد الله تعالى بها، وكانوا أُنسه في هذا الاعتزال. وفي قوله تعالى ﴿وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا﴾ أي جعلنا كل

(١) القصص القرآني بين الآباء والأبناء، عماد زهير حافظ، ص٧١.
(٢) تأملات في سورة مريم، عادل أحمد صابر الرويني، ص٢١٠.
(٣) القصص القرآني بين الآباء والأبناء، عماد زهير حافظ، ص٧١.
(٤) المرجع نفسه، ص٧١.

واحد منهما نبيًّا، و﴿كُلًّا﴾ مفعول مقدم على ﴿جَعَلْنَا﴾ وقُدِّم لأهميته، وللإشارة إلى أن الله تعالى بدَّلَه من أبيه المشرك الذي نَهَره وهدَّده بالرجم، ثم طرده محرومًا من محبَّته، بدّله من هذا أنبياء من ذُريّته استأنس بهم بعد وحشة الاعتزال[١].

وقد قُدِّم المفعول الأول ﴿كُلًّا﴾ على فعله ﴿جَعَلْنَا﴾ للتخصيص، فكل واحد منهما كان نبيًّا، ولم تقتصر النبوَّة على واحد منهم، بل شملتهما معًا، ولفظ «كل» يقتضي استغراق ما أضيف إليه، وحكم الاستغراق أن يثبت الحكم لكل فرد من المجموع، والتنوين فيها عوض عن المضاف إليه[٢].

تلك إذن كانت المكافأة لإبراهيم عليه السَّلام، وهي بيان نعمة الله عليه بالذرية التي كان يتشوّق إليها، كما أن النعمة الربانيّة تتصل بولده إسحاق وحفيده يعقوب عليهما السلام، حيث وهبهم الله تعالى من خيري الدنيا والآخرة، وجعل لهم بين الناس ذكرًا حسنًا موصولاً، وثناءً جميلاً ظاهرًا غير خفيٍّ[٣].

وتأمَّلْ قول ربك: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾، حيث حذف الموهوب «المفعول»، ولم ينصَّ على الهبة، بل ذكر مصدرها ﴿مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ لذا كانت هبته عظيمة شاملة؛ لأنّها من رحمة الله التي هي أصل الهبات[٤]. ويعود الضمير في ﴿لَهُم﴾ إلى إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام ولم يذكر الموهوب، وذكر أنه من رحمته سبحانه، فكان العقل يذهب في تقديره أعلى المذاهب التي تليق بهبة الله ورحمته، فهي تشمل النبوَّة، وتشمل الأموال، وتشمل الجاه والسلطان، وتشمل العزة والكرامة والعلوَّ في الأرض ووراثتها والإمامة فيها،

---

(١) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (١/ ٤٦٥٣).

(٢) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام الأنصاري، تحقيق: مازن المبارك، محمد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق، ط٦، ١٩٨٥م، (١/ ٢٠٠)، تأملات في سورة مريم، عادل أحمد صابر الرويني، ٢١١.

(٣) تأملات في سورة مريم، عادل أحمد صابر الرويني، ص٢١١.

(٤) المرجع نفسه، ٢١١.

وكل ذلك كان في ذرية إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط[١].

وفي قوله تعالى ﴿مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ يشمل جميع ما وهب الله تعالى لهم من الرّحمة في العلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والذرية الكثيرة المنتشرة، حيث كثُر فيهم الأنبياء والصالحون[٢].

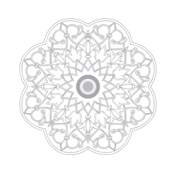
ومن النِّعم التي أنعم الله بها على إبراهيم وذُريّته: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾، وفي قوله ﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾ فيه من إضافة الاسم إلى وصفه، أي لسانًا صادقًا عليًّا، رافعًا لهم وليس خافضًا لمآثرهم، والمراد الكلام الطيب والذكر الطيب من قبيل إطلاق الآلة على ما يكون، فأطلق اللسان والكلام، وهذا استجابة لدعوة إبراهيم عليه السَّلام إذ قال في دعائه عليه السَّلام: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]، وقد آتى الله إبراهيم ذلك وذُريّته[٣].

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾؛ فكانوا صادقين في دعوتهم، مسموعي الكلمة في مجتمعهم، يُؤخذ قولهم بالطاعة والاحترام والتقدير والتبجيل، وهذا أيضًا من الرّحمة التي وهبها لهم؛ لأنَّ الله وعد كلَّ محسن أن ينشر له ثناءً صادقًا بحسب إحسانه، وهؤلاء من أئمة المحسنين، فنشر الله الثناء الحسن الصادق غير الكاذب، العالي غير المخفي، فذِكْرُهم ملء الخافقين، والثناء عليهم ومحبتهم امتلأت بها القلوب وفاضت بها الألسنة، فصاروا قدوة للمتقين، وأئمة للمهتدين، ولا يزال ذِكرُهم في سائر العصور مُتجدِّدًا، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم[٤].

* * *

---

(١) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (٩/ ٤٦٥٤).
(٢) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٠٠٢.
(٣) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (٩/ ٤٦٥٤).
(٤) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٠٠٢.



المبحث الثالث

قصة إبراهيم عليه السَّلام في سورة الأنبياء وحواره مع والده وقومه من عبدة الأوثان

قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝٥٣ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٥٤ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۝٥٥ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٦ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ۝٥٧ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝٥٨ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝٦٠ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝٦١ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ۝٦٣ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٦٤ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ۝٦٥ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝٦٦ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٧ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝٦٨ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ۝٧٠ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ۝٧١ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ۝٧٢ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥١ ـ ٧٣].

ابتدأ هذا المشهد الحواريُّ بمقدمة استهلالية تُعلن المنزلة العظيمة التي مُنحت لإبراهيم عليه السَّلام، حيث أُكدت بلام القسم الداخلة على قد ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾؛ وذلك لتحقيق المضمون في نفوس المخاطبين العرب، الذين يدّعون الانتساب إلى دين إبراهيم عليه السَّلام[١].

إنّ مناسبة هذه الآية لما قبلها أن الله سبحانه وتعالى لمّا قدّم الكلام في دلائل التوحيد[٢] والنبوَّة والمعاد، أتبع ذلك بثلاثة عشر نبيًّا، غير مراعٍ في ذكرهم الترتيب الزماني، وذكر بعض ما نال كثيرًا منهم من الابتلاء، كل ذلك تسلية للرسول ﷺ، وليتأسّى بهم فيما جرى له من قومه[٣].

ومحور الحديث الرئيس في هذه السورة هو موضوع العقيدة، التي هي أصل الدين وأساسه، حيث يجب أن تحتل قصة إبراهيم مع قومه الصدارة في هذا الميدان، وذلك هو ما تصدَّى له كتاب الله هنا بالشرح والبيان، إذ إن اسم إبراهيم أصبح ـ منذ قرون طويلة وفي جميع الأديان الكتابية ـ رمزًا لمكافحة الوثنية، ومجابهة الشرك، وإعلان التوحيد ونشره بين الناس، حتى إنه لَيعدُّ إمام الموحِّدين مصداقًا لقوله تعالى ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠][٤].

لاحظنا الإيجاز في حديث القرآن الكريم في سورة الأنبياء عن الأنبياء عليهم السلام، إلا أننا في قصة الخليل عليه السَّلام نجد التفصيل، ولعلّ السبب في ذلك أن المشركين يزعمون الانتساب للخليل عليه السَّلام، فأراد الله

---

(١) صناعة الحوار، حمد عبد الله السيف، ص٩٠.

(٢) تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي، تحقيق: هاشم محمد علي بن حسين مهدي، دار طوق النجاة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م، (١٨/ ١١٦).

(٣) المرجع نفسه، (١٨/ ١١٦).

(٤) التيسير في أحاديث التفسير، محمد المكي الناصري، دار الغرب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م، (٤/ ١٣٠).

عزّ وجل أن يُبيِّن موقف الخليل عليه السَّلام الصارم في تحطيم الأصنام(١).

وإليك عرض الآيات الكريمة في سورة الأنبياء مع التحليل:

أولاً: قوله تعالى ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥١]:

يبدأ الحقُّ سبحانه وتعالى القصة بداية تعلو فيها نبرة التأكيد، حيث أكّد بلام القسم ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ ﴾؛ لتحقيق مضمونها لدى المخاطبين وتقريره في أذهانهم؛ لأنّه من الأمور التي يجب أن يعلموها علم اليقين، ولتنزيل العرب في مخالفتهم لشريعة أبيهم إبراهيم عليه السَّلام منزلة المُنكر لكون إبراهيم عليه السَّلام أُوتي رشدًا وهداية، وقد أخبر الحقُّ سبحانه عن إيتاء الرشد إبراهيم عليه السَّلام بإسناد الإيتاء إلى ضمير الجلالة للتنبيه على تفخيم ذلك الرشد الذي أوتيه(٢).

قال ابن كثير: يُخبر تعالى عن خليله إبراهيم عليه السَّلام أنه آتاه رشده من قبل، أي ألهمه الحق والحجة من صغره كما قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ [الأنعام: ٨٣].

وما يُذكَر من الأخبار عنه في إدخال أبيه له في السرب، وهو رضيع، وأنه خرج به بعد أيام، فنظر إلى الكوكب والمخلوقات فتبصَّر فيها، وما قصَّه كثيرٌ من المفسرين وغيرهم، فعامتها أحاديث بني إسرائيل، وما وافق منها الحق مما بأيدينا، قبلناه لموافقته الصحيح، وما خالف شيئًا من ذلك، رَدَدناه، وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة، لا نُصدِّقه ولا نُكذِّبه، بل نجعله وقفًا،

---

(١) الحوار في قصة الخليل عليه السلام في القرآن دروس وعبر، محمود سعد عبد الحميد شمس، رسالة ماجستير، كلية أصول الدين، جامعة أم درمان الإسلامية، السودان، ٢٠٠٨م، ص٣٨٥.

(٢) المرجع نفسه، ص٣٨٦.

وما كان من هذا الضرب، فقد رخص كثير من السلف في روايته، وكثير من ذلك مما لا فائدة فيه ولا حاصل له مما لا يُنتفع به في الدين، ولو كانت فائدته تعود على المكلَّفين في دينهم، لبيّنته هذه الشريعة الكاملة الشاملة.

والذي نسلكه في هذا التفسير الإعراض عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية لما فيها من تضييع الوقت، ولما اشتمل عليه كثير منها من الكذب المأخوذ به عندهم، فإنهم لا تفرقة عندهم بين صحيح وسقيم، كما حرَّره الأئمة الحفاظ المتقنون من هذه الأمة، والمقصود ههنا أن الله تعالى أخبر أنه قد آتى إبراهيم رشده من قبل، أي من قبل ذلك، وقوله ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ أي: وكنّا أهلاً لذلك[1].

١ ـ قول الدكتور فضل حسن عباس:

تبدأ القصة بما أكرم الله به إبراهيم عليه السَّلام من الرشد، وهي كلمة جامعة لكل ما يُصلح شؤون الحياة المادية والروحية والدنيا والآخرة. وإن الرشد يُقابل الغواية، كما أن الهدى يُقابل الضلالة، ومن عظمة القرآن أن تُستعمل الكلمة فيه مع غيرها فيكون لها معنى خاص، فإذا جاءت مفردة كان لها معنى أعم، وذلك كثير في كتاب الله تعالى: كالإسلام والإيمان، والبرّ والتقوى، والفقير والمسكين، والكفر والشرك، والرشد والهداية، فإذا استعملت هاتان الكلمتان معًا، كان لكل منهما معناها الخاص بها، ألا ترى أن قول الله تعالى ﴿۞قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٤].

فلا يشكُّ أحد بأن كلاًّ من الإيمان والإسلام في الآية الكريمة له معنى

---

(١) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، (٥/ ٣٤١ ـ ٣٤٢). وعبارة (والذي نسلكه في هذا التفسير. . .) هو قول ابن كثير رحمه الله.

خاص به، وكذلك قوله سبحانه ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]، وقوله تعالى ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]، وقوله تعالى ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ١ ـ ٢]، فإن كل كلمة في هذه الآيات لها معناها اللائق بها.

أما إذا ذُكرت الكلمة وحدها، فإنها تكون شاملة لمعنى الكلمتين معًا، فإن ذُكرت كلمة الإيمان دون كلمة الإسلام كانت شاملة للمعنيين، وكذلك إذا ذُكرت كلمة الفقراء دون كلمة المساكين، أو كلمة الكفر دون كلمة الشرك. والذي يعنينا هنا أن كلمة الرشد في سورة الأنبياء ذُكرت وحدها دون كلمة الهداية، فهي إذن كلمة عامة تدلّ على سلامة العقيدة والسلوك الخيّر، إنّها تدلّ على التوفيق في العلم والعمل وصدق الظاهر والباطن[١].

٢ ـ قول الدكتور البهيّ الخوليّ:

ليس في القرآن الكريم ولا في التوراة نصوص مفصّلة عن نشأة إبراهيم عليه السَّلام إلا آيتان في القرآن، تشيران في إيجاز دقيق إلى نشأته وتربيته:

الآية الأولى: قوله تعالى ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١]، أي آتيناه رشده في صغره قبل الرسالة[٢].

والرشد في فقه القرآن الكريم رشدان:

الرشد الأول: يُنظِّم به المرءُ شؤونه المعيشية والمالية والدنيوية، وهذا يبلغه الصالح والطالح متى أدرك سِنًّا معينة، ومنه قوله تعالى في شأن اليتامى ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء: ٦].

والرشد الثاني: يتم به إدراك الحق والباطل وتمييز كلٍّ منهما، والتصرف

(١) قصص القرآن الكريم، فضل حسن عباس، ص٣٠٦.
(٢) بنو إسرائيل في ميزان القرآن، البهي الخولي، ص٤٦.

في الحياة على مقتضى هذا الإدراك والتمييز، . . . وإن مقتضى الرشد الروحي ألّا يؤثر الباطل على الحقّ وإلا استُبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، . . . وإذا قال الله أنه آتى إبراهيم رشده، فقد جعل له مواهب كلا الرشدين على أتمِّها سلامة ويقظة[١].

والآية الثانية: قوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]، أي نريه ذلك الملكوت في طفولته ليكون من الموقنين عند البلوغ[٢]. وقد شرحتُ الآية الكريمة فيما مضى من الصفحات.

٣ ـ قول السعدي:

ولما ذكر الله تعالى موسى ومحمدًا ﷺ وكتابيهما، قال: ﴿ ۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ﴾ أي: من قبل إرسال موسى ومحمد ونزول كتابيهما، فأراه الله ملكوت السماوات والأرض، وأعطاه من الرشد الذي كمّل به نفسه، ودعا الناس إليه، ما لم يؤتِ أحدًا من العالمين غير محمد، وأضاف الرشد إليه لكونه رشدًا بحسب حاله وعُلُوِّ مرتبته، وإلا فكل مؤمن له من الرشد بحسب ما معه من الإيمان، ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾: أي أعطيناه رُشدَه واختصصناه بالرسالة والخُلّة، واصطفيناه في الدنيا والآخرة لعلمنا أنه أهل لذلك وكفء له؛ لزكائه وذكائه، ولهذا ذكر محاجّته لقومه، ونهيهم عن الشرك، وتكسير الأصنام، وإلزامهم بالحجة[٣].

٤ ـ قول الشيخ محمد متولي شعراوي:

الرشد: هو اهتداء العقل إلى الأكمل في الصلاح والأعلى في الخير،

---

(١) بنو إسرائيل في ميزان القرآن، البهي الخولي، ص٤٦.

(٢) المرجع نفسه، ص٤٦.

(٣) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٠٧١.

بحيث لا يأتي بعد الصلاح فسادٌ ولا بعد الخير شرٌّ، ولا يُسلِمُك بعد العلوِّ في الهبوط، هذا هو الرشد[١].

٥ ـ قول الأستاذة فاطمة محمد أحمد علي:

تقول عن الرشد، أي: الرشد اللائق به وبأمثاله من الرسل الكبار، وهو الرشد الكامل صلاحه وهداه، والاهتداء إلى وجوه الصلاح في الدين والدنيا، والإرشاد بالنواميس الإلهيّة من قبل البلوغ، ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ أي بأحواله، وما فيه من الكمالات، أو بأنه أهل للمقام الذي رفعناه إليه، أي أنه من أهل الهداية والنبوءة[٢]. و﴿كُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ أي بأنه أهل لما آتيناه، وفيه من الدليل على أنه تعالى عالم بالجزئيات، مختار في أفعاله وأقواله[٣].

إنَّ الله تبارك وتعالى هدى إبراهيم عليه السَّلام إلى الحقِّ، وعرّفه طريق الصواب، من قبل أن يكون نبيًا، بل من قبل أن يبلغ مبلغ الرجال[٤]، وكان الله سبحانه وتعالى عالمًا بأن إبراهيم عليه السَّلام جامع لمكارم الأخلاق التي تُؤهِّله للنبوَّة والاصطفاء[٥]. فهداية الله لسيدنا إبراهيم عليه السَّلام منذ الصغر أنه كان من أصحاب العقول النيّرة الراشدة[٦]. وفي التعبير بقوله ﴿ءَاتَيْنَآ﴾

---

(١) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١٥/ ٩٥٦٧).

(٢) البعد العقدي في قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام مع قومه من خلال القرآن الكريم، فاطمة محمد أحمد علي، رسالة ماجستير، كلية أصول الدين، جامعة أم درمان الإسلامية، السودان، ٢٠١٣م، فاطمة أحمد، ص٥٨.

(٣) حياة إبراهيم، محمود شلبي، ص٢١ ـ ٢٢.

(٤) البعد العقدي في قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام مع قومه من خلال القرآن الكريم، فاطمة محمد أحمد علي، ص٥٨.

(٥) محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط٢، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م، (١١/ ٤٢٧٩).

(٦) البعد العقدي في قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام مع قومه من خلال القرآن الكريم، فاطمة محمد أحمد علي، ص٥٩.

دليلٌ على أن الرشد منحة وعطية من الله عزّ وجل للخليل عليه السَّلام فهو لم ينلها بمحض كسبه، وأن التعبير باسم الفاعل ﴿عَٰلِمِينَ﴾ مع قوله ﴿وَكُنَّا بِهِۦ﴾ يُشعر بثبوت العلم، واستمراره، وفي هذا دليل على مكانة إبراهيم عليه السَّلام عند رب العالمين[١].

٦ ـ قول إسحاق محمد حمدان البدارين:

يؤكد الله في هذا التمهيد أنه سبحانه أعطى إبراهيم عليه السَّلام هداية مبكرة إلى توحيد الله عز وجل، وهذه غير الفطرة الموجودة عند كل البشر، وهذا هو الرشد الأكبر، وهو الاهتداء الكامل المستند إلى الهداية الخاصّة الحاصلة بالوحي والاقتدار على إصلاح الأمة باستعمال النواميس الإلهية[٢].

٧ ـ قول الدكتور محمد راتب النابلسي:

الرشد هو الهداية إلى التوحيد، وهو طريق معرفة أنه لا إله إلا الله؛ لأن التوحيد نهاية العلم. ومعنى ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ أي: إن علم الله يشمل كلَّ شيء[٣]، وفي هذه الآية الكريمة بيانٌ لشخصيته القيادية منذ الصغر، حيث امتنَّ الله عليه برجاحة العقل إلى الأكمل في الصلاح والأعلى في مراتب الخير، قبل إتيانه النبوَّة، كما نقله القرطبي، وقال: هذا ما عليه أكثر المفسرين[٤].

وقد جاء السياق المذكور في الآية نكرة، فدلَّ على أنه رشد عام، يشمل الرشد الجسمي والمعنوي والفكري، بحيث لا يرتبط ببلوغ ولا نبوَّة، بل هو

(١) الحوار في قصة الخليل عليه السلام في القرآن دروس وعبر، محمود سعد عبد الحميد شمس، ص٣٨٧.
(٢) قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، ص٦٧.
(٣) تفسير النابلسي «تدبر آيات الله في النفس والكون والحياة»، د. محمد راتب النابلسي، مؤسسة الفرسان، عمان، الأردن، ط١، ١٤٣٨هـ ـ ٢٠١٧م، (٩/ ٤٥٠).
(٤) تفسير القرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، القرطبي، (٤/ ٢١٥).

رشد سابق لأوانه، وهذا مدلوله قوله ﴿مِن قَبۡلُ﴾ أي من قبل النبوَّة والبلوغ[(١)].

وقد ذهب صاحب الظلال في تفسيره إلى أن المراد بالرشد: الهداية إلى التوحيد، وهو أكبر الرشد، فقال: ويعني له الهداية إلى التوحيد، فهذا هو الرشد الأكبر الذي تنصرف إليه لفظة «الرشد» في هذا المقام[(٢)].

إنَّ الرشد من معالم القيادة الراشدة، وهذا ما ظهر في سيرة إبراهيم عليه السَّلام فقد شبَّ وعاش كريم النفس، سليم الفؤاد، حاضر البديهة، قويَّ الحجة، ثاقب النظرة، عميق التفكير، فيه من مؤهلات القيادة ومقوماتها ما يُؤهِّله لأن يكون قائدًا وقدوة للناس أجمعين، وقد اتّضح رشده في طبيعة حواراته كلِّها سواءٌ مع أبيه، أو مع عبدة الكواكب، أو قومه، أو ملك بابل النمرود بن كنعان، فقد انتصر عليهم وأسقط حججَهم مما آتاه الله تعالى من كمال الرشد، والنضج العقلي، والوعي بحجج خصومه ومكائدهم[(٣)].

❊ ❊ ❊

ثانيًا: قوله تعالى ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝٥٣ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٥٤ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۝٥٥ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٢ ـ ٥٦]:

١ ـ ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾:

جاءت ﴿إِذۡ﴾ هنا للوقت الماضي، وهي مفعول به لفعل محذوف تقديره

---

(١) سمات القيادة في القرآن الكريم من خلال قصة إبراهيم الخليل عليه السلام، إبراهيم حسن إسماعيل رامي، مجلة القلم، جامعة القلم للعلوم الإنسانية والتطبيقية، اليمن، المجلد ٥، العدد (١٠)، ٣١ آب/ أغسطس ٢٠١٨م، ص٥٧.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٤/ ٢٣٨٥).

(٣) سمات القيادة في القرآن الكريم من خلال قصة إبراهيم الخليل عليه السلام، ص٥٨.

«اذكر»، والخطاب لمحمد ﷺ، والمعنى: اذكر لقومك من مشركي العرب الذين يفخرون بنسبهم إلى إبراهيم، ويدّعون اتِّباعَه، كيف جاهد قومه من هذا الشرك[١].

ويتجلَّى من هذه المقالة حرص إبراهيم عليه السَّلام بشكل خاص على انتشال أبيه قبل غيره من حضيض الشرك، لما بين الأب والابن من علاقة خاصّة لا تبلغ قوتها بقية العلاقات، وفي الوقت نفسه اهتمَّ إبراهيم عليه السَّلام بانتشال بقية قومه من الهُوّة نفسها التي تردَّوا فيها جميعًا، وهذا الاتجاه الرامي إلى إنقاذ العشيرة الأقربين من الضلال قبل غيرهم أكَّده كتاب الله في خطابه لخاتم الرسل، إذ قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]. ومن هذه المقالة يتجلَّى رُشدُ إبراهيم عليه السَّلام وحذره من إلقاء الكلام على عواهنه، ولذلك لم يُطلق على الأصنام التي كان يعبدها أبوه وقومه اسم الآلهة، كما كانوا يُعبِّرون عنها، وإنما أطلق عليها مجرد لفظ التماثيل[٢].

ويتَّضح لنا ـ في هذا المشهد ـ الحبُّ والنُّصح للآخرين والحرص على هدايتهم، وهذه سمة بارزة في شخصية إبراهيم عليه السَّلام منذ انطلاقه في الدعوة إلى الله، كما أننا نشعر بصدقه وحرصه على إنقاذ أبيه وقومه من خلال هذه الجملة، فهو يتودَّد إلى أبيه بذكر صفة الأُبوّة دون اسمه العَلَم، إشارة إلى إخلاص إبراهيم لأبيه ومحاولة إنقاذه وقومه من الهلاك، ولذلك تلطَّف في الإنكار عليهم في بداية محاورتهم، فصاغه على صورة المُستفهِم العالم فيما يُعرف في علم البديع بـ «تجاهل العارف» تلطُّفًا بهم، وتمهيدًا لتخطئتهم بعد أن يسمع جوابهم[٣].

---

(١) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (٩/ ٤٨٨١).
(٢) التيسير في أحاديث التفسير، محمد المكي الناصري، (٤/ ١٣٠ ـ ١٣٢).
(٣) صناعة الحوار، حمد عبد الله السيف، ص٩٥.

وقد رسم الحوارُ في هذه الآيات الكريمة جيلاً عاكفًا على الأصنام والتماثيل، يعظمونها ويبتهلون إليها بشكل مستمرٍّ، كما يُوحي به التعبير بلفظ «عاكفون» الذي يعني الإقامة على الشيء وملازمته، والإتيان باسم الفاعل ضاعف هذا المعنى، وقد يكون المقصود اعتكافَ القلوب عليها، وتوجُّهَ الفكر إليها في كل وقت، ويُشير السّياق إلى غلو هؤلاء القوم في عبادتهم للأصنام، فقد كان آباؤهم مجرد «عابدين» بينما تحوَّل جيلُهم اللاحق إلى «عاكفين»، لقد زادوا وبالغوا في وراثة الضلال والشرك بالله رب العالمين[١].

وكشفت تساؤلات إبراهيم عليه السَّلام لهؤلاء القوم عن التحجُّر العقلي الذي تتسم به هذه الشخصيات، لقد رضيت من العقل بمجرد اتِّباع الآباء والأجداد مهما كان اختيارهم فاسدًا، ومهما كان دينهم باطلاً[٢].

وإذا تأملنا في حوار إبراهيم عليه السَّلام فإنه تتَّضح لنا مهارته في استدراجه الذكي لقومه في استفهامه الموجَّه ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾، إنه سؤال عن شيء معلوم بالنسبة للسائل، لكنه ينطوي على تحقير مُبطَّن لشأن المسؤول عنه[٣].

يقول الإمام محمد أبو زهرة في قوله تعالى ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾: التماثيل: جمع تمثال، وهو الصورة المجسَّمة للإنسان أو للحيوان، وأكثر ما تكون الآلهة لصورة إنسان، وكذلك كانت التماثيل عند اليونان والرومان، وكانوا يعبدونها أو يُسمُّونها آلهةً، فيقولون: إله الحب، وإله الزرع، وإله العدالة. والعكوف: الإقبال على الشيء وملازمته على سبيل التعظيم له وعبادته، والاستفهام مُنصبٌّ على سؤاله عن هذه الأصنام التي

---

(١) صناعة الحوار، حمد عبد الله السيف، ص١٠٠.
(٢) المرجع نفسه، ص١٠٠.
(٣) المرجع نفسه، ص٣٧١.

عكفوا عليها يُعظِّمونها ويَعبدونها، وهو يتضمَّن أولاً الاستهانة بها وتحقيرها بالإشارة؛ لأن الإشارة تتضمَّن: أنّها حجارة محسوسة لا تضرّ ولا تنفع، ويتضمَّن ثانيًا: استنكار العكوف عليها وعبادتها، والاستفهام ليس عن الماهية، بل عن أوصافها، وتنبيه إلى أنّها لا تضرُّ، ولا مسوّغ لعبادتها؛ لأنَّه ليس فيها صفات الألوهية التي تُوجب العبادة، ولم يُجيبوا عن سؤاله؛ لأن ظاهره أنه يطالبهم بمسوّغ للعبادة، وقد فَرُّوا من الإجابة المسوِّغة إلى قولهم ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ [١].

٢ ـ ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾:

هو جواب يدلُّ على التحجُّر العقلي والنفسي داخل قوالب التقليد الميتة، في مقابل حرية الإيمان وانطلاقه للنظر والتدبُّر، وتقويم الأشياء والأوضاع بقِيَمِها الحقيقية لا التقليدية، فالإيمان بالله تعالى طلاقة وتحرُّر من القداسات الوهمية التقليدية، والوراثات المُتحجِّرة التي لا تقوم على دليل[٢].

ولفظ ﴿وَجَدْنَآ﴾ يُوحي بافتخارهم وتحقيقهم وظفرهم بالأمر الثمين، وأما التعبير بـ ﴿ءَابَآءَنَا﴾ فيُضفي معنى القداسة والقدوة والامتثال، بخلاف ما لو قالوا «قومنا» أو ما في معناها. ويستغرب المتأمِّلُ في هذا الجواب كيف يتفوَّه به شخص منحه الله عقلاً، يعرف به الحقَّ من الضلال، ويُميِّز الخطأ من الصواب، لكنها الآبائية المقيتة، التي تُلغي العقول، وتنسف الأدلة، مهما كانت واضحة قوية، وتَشلُّ كلَّ محاولات التَّحاوُر ومداولات المراجعة والتصحيح[٣].

إنَّ المتأمِّلَ في هذا الجواب التافه، الخالي من كلِّ معنى يُمكن أن يتقبَّله

(١) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (٩/ ٤٨٨٢).
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٤/ ٢٣٨٥).
(٣) صناعة الحوار، حمد عبد الله السيف، ص١٠١.

العقلُ، يستغرب كيف يتفوَّه به شخص، فضلاً عن أن يستحق أن يُنقل أو يُذكر، ولكن الحوار القرآني ـ بكل دقّة وأمانة ـ ينقله نقلاً تامًّا بلا تقطيع ولا تبديل، وهكذا فالحوار ههنا يستحضر الآخر ويعطيه الفرصة الكاملة لكي يُتِمَّ جملةً مفيدة، لكي يُتِمَّ نصًّا كاملاً، يُعطي فكرة واضحة بكل قوتها وجمالها وتناسقها.

ومن خلال ذلك نُدرك تميُّز المنهجية الحوارية في القرآن الكريم، التي تُفسح المجال واسعًا أمام حضور الآخر ـ مهما كان رأيه وموقفه ـ ولا تعمد إلى أساليب التشويه والتحريف والبتر والإقصاء التي ـ للأسف الشديد ـ يتخندق بها اليوم كثير من الرموز المسيطرة على منافذ الإعلام، والتأثير في قطاعات كبيرة وكثيرة من البلاد العربية والإسلامية(١).

وهذه المقالة ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ تكرَّرت في أكثر من جيل، وعند معظم الرسل، وقد قالها قومُ محمد ﷺ ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]، وقالها كلُّ قوم لكل رسول يسبق محمدًا ﷺ ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

٣ ـ ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾:

هذه الكلمة قالها من قبل في حواره مع أبيه في سورة الأنعام: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، وهنا أكَّدها بثلاثة مُؤكِّدات (إنهم في ضلال مبين): اللام الموطئة للقسم، و«قد» التي تُفيد التحقيق، كنتم أنتم؛ ذكر «أنتم» مرتين للتأكيد: أي غارقون في الضلال العظيم الظاهر البيّن لكل عقل سليم. وهذه الجرأة من إبراهيم عليه السَّلام هزّت اعتقادَهم الباطل(٢).

وبهذا الردِّ طَعَن في حجّتهم، ووَصَف قومه عن بكرة أبيهم بالضلال، وهنا تتجلّى معالم الفتوة التي امتاز بها إبراهيم، من جرأته في نصرة الحق،

(١) صناعة الحوار، حمد عبد الله السيف، ص٣٠٢.
(٢) قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، ص٦٨.

ومهاجمته للباطل، وتحدِّيه للتقاليد البالية، مهما كلَّفه ذلك من التضحيات الغالية، ولا يلبث قومه أن يسألوه، مستفسرين وهم متردِّدون[١].

يقول العلاّمة **محمد أبو زهرة**: الضلال هو السير في طريق لا تُعرف نهايتُه، وليس موصلاً لغايته، وأُطلق على السير في الباطل والوصول إلى مداه، فإنه يكون في مسارات مختلفة من مسارات الشيطان، و﴿ مُّبِينٍ﴾: معناه واضح، وكان واضحًا لاستناده إلى دليل علميٍّ يُناقض بَدَائهَ العقول؛ لأنّ المعبود يجب أن يكون أعلى وأقوى من عابده، فهل في تمثال قوّةٌ على الإنسان، فأيُّ ضلال أبيَنُ من هذا، وأضلُّ عقلاً وفكرًا؟! وأكَّد سبحانه على لسان إبراهيم ضلالَهم بـ«اللام» و«قد» و«كان» الدالة على الدوام والاستمرار، وبضمير الفصل المؤكِّد، وإنّ إبراهيم جمع بين ضلالهم وضلال آبائهم، فكان جامعًا بين ضلال المقلِّد والمقلَّد[٢]، وقد أجابوا عن ذلك الكلام الجاد بقولهم ﴿ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾؟!.

٤ ـ ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾:

جلَّى المشهدُ الحواريُّ نفسيّاتِ هؤلاء القوم، وعرَّى بواطِنَهم، لقد داخلَهُم الشَّكُّ في معتقدهم عند أول لحظة اختبار أطلقها الخليل عليه السَّلام، ذلك لأنه معتقد يقوم على تغليف العقول، وتدليس الحقائق ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾، هكذا سؤال التّائهِ الذي لا يدري حقيقة دينه إلا ما تمليه عليه الأعراف والتقاليد، سؤال مزعزعَ العقيدة، الذي لا يطمئن إلى ما هو عليه، لأنه لم يتدبَّره ولم يتحقَّق منه، لكنه ضائع هائم لا يدري أيّ الأقوال أصدق، ولا أيّ المذاهب أحق[٣].

---

(١) التيسير في أحاديث التفسير، محمد المكي الناصري، (٤/ ١٣٠ ـ ١٣٢).
(٢) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (٩/ ٤٨٨٣).
(٣) صناعة الحوار، حمد عبد الله السيف، ص١٠١.

ومعنى الآية: أَبِجدٍّ تقول ما تقول، أم تقوله لاعبًا ومازحًا؟[١]، ولم يجد إبراهيم عليه السَّلام حاجة إلى الجواب عن استفسارهم، بل بادرهم بالإله الحقيقي الذي يجب عليهم أن يعبدوه، ومن خلال كلامه سيعرفون مدى جِدِّه وعزمه وحزمه[٢].

٥ ـ ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾:

جاءت ﴿بَل﴾ للإضراب والردّ، وإبطال عبادتهم، وبيان أن التماثيل ليست أربابًا[٣]، و﴿بَل﴾ تُضرِب عمّا قبلها وتُثبت الحكم لما بعدها[٤].

وجمعت إجابة إبراهيم عليه السَّلام بين الدليل العقلي والدليل السمعي.

فالدليل العقلي: فإنه قد علم كل أحد حتى هؤلاء الذين جادلهم إبراهيم أن الله وحده الخالق لجميع المخلوقات من بني آدم، والملائكة، والجن، والبهائم، والسماوات، والأرض، المُدبِّر لهن بجميع أنواع التدبير، فيكون كل مخلوق مفطورًا مُدبَّرًا مُتصرَّفًا فيه، ودخل في ذلك جميع ما عُبد من دون الله، فهل يليقُ عند مَن له أدنى مسكة من عقل وتمييز أن يعبد مخلوقًا مُتصرَّفًا فيه، لا يملك نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، ويدعَ عبادة الخالق الرازق المُدبِّر؟![٥].

إنَّ إبراهيم عليه السَّلام يقول لقومه: الله تعالى خالق السماوات والأرض، وخالقكم من العدم على غير مثال سابق، هو ربكم شئتم أم أبيتم، بدليل العقل

(١) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٥/ ٣٦٣).
(٢) المرجع نفسه (٥/ ٣٦٣).
(٣) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (٩/ ٤٨٨٣).
(٤) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١٥/ ٩٥٧٩).
(٥) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٠٧٢.

والفطرة والمنطق، فهو ربٌّ واحد، ربُّ الناس، وربُّ السماوات والأرض، ربوبيّتُه ناشئة عن كونه الخالقَ، فهما صفتان لا تنفكّان ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾، فهذه هي العقيدة المستقيمة الناصعة، لا كما يعتقد المشركون أن الآلهة أرباب، في الوقت الذي يُقرّون أنّها لا تَخلق، وأن الخالق هو الله، ثم يعبدون تلك الآلهة التي لا تَخلق شيئًا وهم يعلمون[١].

وأما الدليل السَّمعيُّ، فهو المنقول عن الرسل عليهم الصلاة والسلام، فإن ما جاؤوا به معصوم لا يَغلط ولا يُخبِر بغير الحقِّ، ومن أنواع هذا القسم شهادة أحد الرسل على ذلك، فلهذا قال إبراهيم: ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم﴾ أي: أنَّ الله وحده المعبود، وأن عبادة ما سواه باطلة.

﴿مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، وأيُّ شهادة بعد شهادة الله أعلى من شهادة الرسل؟ خصوصًا أولي العزم منهم، ولاسيما خليل الرحمن[٢].

وفي قوله تعالى ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ الذين يشهدون أن ربّكم هو ربّ السماوات والأرض، فلا إله غيره ولا ربّ سواه عزّ وجل، وهم الذين ذكرهم الله سبحانه وتعالى بقوله ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨][٣].

والشاهد هو الذي اهتدى إلى الحقّ، واهتدى إلى الدليل على هذا الحق، فقال: أنا شاهد على أن ربّكم ربُّ السماوات والأرض، ومعي الدليل على هذه الحقيقة[٤]، وكلمات إبراهيم تدلُّ على ثقته الكبيرة العظيمة بكلمة التوحيد التي يدعو إليها، إنه واثق وثوق الذي يشهد على واقع لا شكَّ فيه: ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٤/ ٢٣٨٥).
(٢) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٠٧٢.
(٣) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٥/ ٣٦٣).
(٤) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١٥/ ٩٥٧٨).

ولم يشهد إبراهيم عليه السَّلام خلق السماوات والأرض، ولم يشهد خلق نفسه ولا قومه، ولكن الأمر من الوضوح والثبوت بحيث يشهد المؤمنون عليه واثقين، إن كل ما في الكون لينطق بوحدانية الخالق المدبِّر، وإنّ كلَّ ما في كيان الإنسان ليهتف به إلى الإقرار بوحدانية الخالق المدبِّر، وبوحدة الناموس الذي يُدير الكون ويُصرِّفه[١].

* * *

ثالثًا: قوله تعالى ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٧ ـ ٦٧]:

١ ـ ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ﴾:

بعدما حدث منهم من لَجَجٍ وجدال بالباطل أقسم إبراهيم عليه السَّلام ﴿وَتَٱللَّهِ﴾، والتاء من حروف القسم، ولا تُستعمل إلا مع اسم «الله» الجليل[٢].

ولفظ ﴿لَأَكِيدَنَّ﴾، بهذا التأكيد بالقسم واللام والنون المشددة، يُوحي بالتَّصميم على وضع خطّةِ عمل، يُنفِّذ من خلالها ذلك القرار الشجاع، لكن التنفيذ مُحاطٌ بعقبات عديدة، ومخاطر شديدة[٣].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٤/ ٢٣٨٦).
(٢) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٥/ ٣٦٤).
(٣) صناعة الحوار، حمد عبد الله السيف، ص١٩٨.

وهذا اللفظ يُشعر بأن إبراهيم اتَّخذ هذا القرار الحاسم الذي لا رجعة عنه، وإذا أمْعَنّا النظر في لفظ ﴿لَأَكِيدَنَّ﴾، وما جاء به من معاني التفكير والنظر والتدبير من أجل الوصول إلى حيلة يَنفَذُ بها إلى هذه الأصنام... إلخ، كل ذلك لا يخرج عن معنى التخطيط بالمفهوم الإداري الحديث، فالعناصر الأساسية لعملية التخطيط مكتملة في هذا المشهد: الأهداف، التنبُّؤ: «هو نشاط ذهني مُسبَق يساعد على اتخاذ القرار السليم»، السياسات، الإجراءات، الوسائل، والإمكانات[1].

وكان الهدف واضحًا في ذهن إبراهيم عليه السَّلام، وهو دعوة أبيه وقومه إلى عبادة الله وحده، والكفر بكل ما يُعبد من دون الله، وأما عنصر التنبُّؤ، فقد ظهر في قوله ﴿لَأَكِيدَنَّ﴾، فهو يتنبَّأ بالفكرة وصعوبة الفعل وخطورته، كما نجد التنبُّؤ ـ أيضًا ـ في توقُّعه إجابتهم، عندما طلب منهم أن يسألوا الأصنام المُكسَّرة[2].

ونجد الآن البعض يدعو إلى ما أسماه بـ«تحليل الحوار»، ويُعنى بتحديد تصوّر مسبق للنتيجة المُؤمَّلة من الحوار قبل البدء به، وجمع المعلومات والشواهد المساعدة[3].

وأما سياسة الهدف، فهي دعوتهم إلى ترك عبادة الأصنام، فإن لم يستجيبوا فيكون إقناعهم بتكسيرها وإثبات عجزها عن دفع الضرِّ، أو جلب النفع لنفسها فضلاً عن غيرها، ويظهر الترتيب الإجرائي بتحديد المنفِّذ للعمل، وهو إبراهيم عليه السَّلام كما في ضمير المتكلم ﴿لَأَكِيدَنَّ﴾، ثم تحديد المستهدف ﴿أَصْنَامَكُم﴾، وتحديد الزمن بدقة: ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ أي: بعد

---

(١) صناعة الحوار، حمد عبد الله السيف، ص١٩٩.
(٢) المرجع نفسه، ص١٩٩.
(٣) المرجع نفسه، ص٢٠٠.

أن تنصرفوا من عبادتهم إلى عيدكم. وأما الوسيلة فهي التسلُّل إلى هذه الأصنام وتكسيرها قطعة قطعة إلا كبيرها؛ ليبقى شاهدًا على سخافة عقولهم، وضعف أحلامهم(١).

وقد اختار إبراهيم عليه السَّلام الوقت المناسب لتحطيم الأصنام، وكان مُوفَّقًا في الاختيار غاية التوفيق؛ فكان في يوم عيدهم، وهو أنسب يوم لتنفيذ هذه العملية الجريئة؛ لأنه يوم غفلة للناس، يَنسَون فيه الأحقاد والعداوات، وجاء هذا اليوم الموعود ـ يُقال هو يوم عيد النيروز ـ حيث يخرج الناس فيه إلى الحدائق والخلوات تاركين أصنامهم بعد أن يضعوا الثمار والأطعمة بين يديها لِتُبارِكَها، ثم يعودون بعد الفسحة والمرح فيأكلونها، وقد طلب الناس من إبراهيم عليه السَّلام أن يخرج معهم في هذا اليوم ليشاركهم في عيدهم، ولكن إبراهيم عليه السَّلام اعتذر عن الخروج لتنفيذ الخطة التي أعدّها، فقال لقومه بعد أن قلَّب نظره في السماء: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ [الصافات: ٨٨ ـ ٩٠].

لقد اعتذر عن الخروج بسبب ظاهر لقومه أنه مريض، وهو في الحقيقة متضايق داخليًّا من إصرارهم على كفرهم، وعبَّر عن هذا الضيق بقوله ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾؛ ليتركوه وشأنَه، ولم يكن هذا كذبًا منه بالمعنى الشرعي؛ لأنه نوع من التورية حيث يقول كلامًا له معنيان؛ معنى متبادَر إلى الذهن لا يقصده، ومعنى آخر غير متبادَر إلى الذهن يقصده، فكّر القوم أنه مريض جسديًّا فتركوه، وهو في الحقيقة عليل النفس، حزين الفؤاد، على إشراك قومه وإصرارهم على عبادة آلهتهم، وعدم الانصياع إلى دعوته(٢).

(١) صناعة الحوار، حمد عبد الله السيف، ص٢٠٠.
(٢) الأنبياء في القرآن، سعد صادق محمد، دار اللواء للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م، ص١١١.

ولم يكن هذا كذبًا منه، إنما كان له أصل في واقع حياته في ذلك اليوم، وإن الضيق ليُسقم ويُمرض ذَويه، وكان القوم مُستعجلين ليذهبوا مع عاداتهم وتقاليدهم ومراسم حياتهم في ذلك العيد، فلم يتلبَّثوا ليفحصوا عن أمره، بل تولَّوا عنه مدبرين مشغولين بما هم فيه، وكانت هذه هي الفرصة التي يريد[1].

وقد طرح الشيخ العلامة **محمد متولي الشعراوي** رحمه الله سؤالاً، فقال: وهل الأصنام تُكاد أم أن المراد «لأكيدنّكم في أصنامكم»؟ فالأصنام كمخلوق من مخلوقات الله تُسبِّح لله وتشكر إبراهيم عليه السَّلام على هذا العمل.

وما أجمل ما قاله الشاعر في هذا المعنى، حين تكلم بلسان الأحجار، في غار حراء وغار ثور، حيث كانت الحجارة تَغار وتَحسد حراء؛ لأنَّ المصطفى ﷺ كان يتعبّد به قبل البعثة، فحراء شاهد تعبُّد رسول الله، وهو يزهو بهذه الصحبة، فلما نزل رسول الله ﷺ بغار ثور عند الهجرة فرح غار ثور؛ لأنّه صار في منزلة حراء.

يقول الشاعر:

كَـم حَسَـدْنـا حِـراءَ حِيـنَ تَـرى ... الـرُّوحَ أمينًـا يَغْـذُوك بـالأنْـوارِ

فَحِـراءُ وثَـوْرٌ صـارا سَـواءً ... بهِمـا تشفـع لـدولـةِ الأحْجـارِ

عَبَـدُونـا ونحـنُ أعبَـدُ لـ ... ـلَّـه مِـنَ القـائِميـنَ بـالأسْحـارِ

تَخِـذُوا صَمْتَنـا علينْـا دَليـلاً ... فَغـدَوْنـا لهُـم وقُـودَ النَّـارِ

قَـدْ تَجنَّـوا جَهْـلاً كمـا قَـدْ ... تجَنَّوا على ابن مَرْيمَ والحواري

لِلمُغـالـي جَـزاؤهُ والمُغـالَـى فيـه ... تُنْجيـهِ رَحْمَـةُ الغَفّـارِ

إذن: فتحطيم الأصنام ليس كيدًا للأصنام، بل لعُبّادها الذين يعتقدون فيها أنّها تضرُّ وتنفع، وكأن إبراهيم عليه السَّلام يُقيم لهؤلاء الدليل على بطلان عبادة الأصنام، إنّه الدليل العملي الذي لا يُدفع، وكأن إبراهيم يقول بلسان

(١) قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، ص٨٣.

الحال: حين أكسر الأصنام، إن كنت على باطل فليمنعوني وليردُّوا الفأس من يدي، وإن كنت على حقٍّ تركوني وما أفعل. وقوله تعالى ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ﴾ أي: بعد أن تنصرفوا عنها، يعني: على حين غفلة منهم(١).

٢ ـ ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾:

جاءت «الفاء» بعد القول لتفيد الترتيب والتعقيب، وفي هذا إشارة إلى أن إبراهيم عليه السَّلام نفَّذ كلامه في أقرب فرصة وبسرعة(٢).

وتحوَّلَت الآلهة المعبودة بفعله عليه السَّلام إلى قطع صغيرة من الحجارة والأخشاب المُهشَّمة إلا كبير الأصنام فقد تركه إبراهيم ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾، فيسألونه كيف وقعت الواقعة وهو حاضر لم يدفع عن صغار الآلهة، ولعلهم حينئذ يُراجعون القضية كلَّها، فيرجعون إلى صوابهم ويُدركون منه ما في عبادة هذه الأصنام من سخفٍ وتَهافُت(٣).

إنَّ إبراهيم عليه السَّلام حطَّم الأصنام إلى قطع صغيرة لأهداف عديدة، لعل من أهمها:

* تفريغ شحنة الغيظ الشديدة ضدَّ الأصنام وضدَّ العقيدة الفاسدة، فأشفى غليلَه بتقطيعها إلى قطع صغيرة، وشفَى نفسَه من السقم والهمِّ والضيق تمامًا، كما ذكر سبحانه في بيان ثمار القتال في سبيل الله ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤].

* إقامة الدليل على بطلان عبادة الأصنام، وذلك بإثبات عجزها عن حماية نفسها، فكيف تحمي غيرها وتنفع عُبّادها؟!.

* تحطيم الأصنام في قلوب عُبّادها، يرونها محطّمة أمام أعينهم لا تستطيع

(١) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١٥/ ٩٥٧٩).
(٢) قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، ص٨٤.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٤/ ٢٣٨٦).

أن تدفع عن نفسها شيئًا، فلا يبقى لها هيبة ولا قدسية في قلوبهم بعد هذه الحادثة، تمامًا كما فعل موسى عليه السَّلام بإله السامري فقال: ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٧]، فعملية الحرق لتفريغ شحنات الحقد والغيظ من نفس موسى لهذا العجل الذي عبده الناس من دون الله، وعملية النَّسف لنسف الاعتقاد الباطل من قلوب قومه الذين يعبدونه من دون الله، وهكذا رجع إبراهيم عليه السَّلام بعد أن حطَّم الأصنام وشفى غليلَه منها: رجع إلى أهله وهو مُطمئنُّ البال، وفي منتهى السعادة؛ لأنه حقَّق هدفًا خطَّط له أيامًا طويلة[١].

وفي قوله تعالى ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ أي: إلاّ صنَمهم الكبير، فإنّه تركه لمقصد قد بيَّنته وتأمَّلْ هذا الاحتراز العجيب، فإن كل ممقوت عند الله لا يُطلق عليه ألفاظ التعظيم إلا على وجه إضافته لأصحابه، كما كان النبي ﷺ إذا كتب إلى ملوك الأرض المشركين يقول: إلى عظيم الفرس.. إلى عظيم الروم.. ونحو ذلك، ولم يقل إلى العظيم، وهنا قال: ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾، ولم يقل: كبيرًا من أصنامهم، فهذا ينبغي التَّنبُّه له والاحتراز من تعظيم ما حقَّره الله إلا إذا أضيف إلى من عَظَّمه[٢].

٣ ـ ﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾:

وعندما عاد القوم من عيدهم، وشاهدوا ما حلَّ بأصنامهم، أصابهم الذهول والفزع، وجمدت عيونُهم على حطام أصنامهم، ثم ما لبثوا أن أفاقوا من ذهولهم وتساءلوا عن الفاعل، و﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، إنكار منهم وتوعُّد شديد للذي حطَّم هذه الأصنام، ووصفوه بأنه من الظالمين، ولاحِظْ هنا كلمة ﴿بِـَٔالِهَتِنَآ﴾ وتكرارها في كلامهم مع إبراهيم،

---

(١) قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، ص٨٥.
(٢) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٠٧٣.

أثناء المحاكمة، تدلُّ بوضوح على التحجُّر الفكري عندهم، وإصرارهم على عبادة الأصنام المُحطَّمة والمكسَّرة، وتدلُّ على شدة انتمائهم للباطل، وحرصهم على حكايته ولو ثبت بطلانُه.

وينبغي على قوم إبراهيم أن يسألوا أنفسهم، أو يسألوا ذلك الصَّنم الكبير الذي يعبدونه، وبقي سالمًا دون تحطيم: إن كانت هذه آلهةً، فكيف وقع لها ما وقع دون أن تدفع عن أنفسها شيئًا، وهذا كبيرها كيف لم يُدافع عنها؟ إنَّ الخرافة قد عطَّلت عقولَهم عن التفكير، وكذلك التقليد قد عطّل أفكارهم عن التأمل والتدبُّر.

وعلى الفور قفزت إلى أذهانهم صورة إبراهيم عليه السَّلام وهو يُحدِّثُهم ويدعوهم إلى الله، وله مواقف جريئة ضد الأصنام؛ فهو الذي أعلن براءته منها، وعدوانه لها، أكثر من مرة، وهو الذي أقسم على الكيد لها بعد انصرافهم عنها، وشهد عليه أناس سمعوه: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾، ولهذا ترجَّح لديهم أن الفاعل هو إبراهيم من خلال عدة قرائن أخرى، منها:

* أنه الوحيد الذي له مصلحة في تحطيم الأصنام.
* وهو الوحيد الذي يجرؤ على هذا العمل الخطير.
* وهو الوحيد الذي اعتذر عن الخروج يوم العيد.
* وهو الذي يَذكرها دومًا بسوء[1].

ونلاحظ في قوله تعالى ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ أن قوم إبراهيم عليه السَّلام أرادوا تنقيص إبراهيم عليه السَّلام، والحطّ من شأنه، وكل كلمة في هذه العبارة تُوحي بذلك.

---

(١) قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، ص٨٦.

إنَّ إبراهيم عليه السَّلام معروفٌ عندهم، وهو ملء السمع والبصر، وكم سمعوا كلامه، وعرفوا قصته ودعوته حتى وصلت للملك، أما بعدما حطَّم الأصنام، فهو ﴿ فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ (١).

إنَّ إطلاق لفظ ﴿ فَتًى ﴾ على النبي إبراهيم عليه السَّلام يحمل معنى الاستهانة به والتجاهل لمنزلته، رغم شهرته بينهم، ليجترئ عليه مَن يسمع وصفَه المذكور، وصياغة الوصف بأسلوب التنكير مبالغة في تصغيره وتهوين شأنه، ووصف ﴿ فَتًى ﴾ بجملة أخرى تزيد في تحقيره وتنكيره ﴿ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾، فهم لا يعرفون عنه سوى أنه فتى مجهول مُنكَر يُدعى أو يُسمَّى إبراهيم، ومجيء الفعل مبنيًّا للمجهول زاد من التنكير له، والتهوين من شأنه، فعلى المُحاور الناجح أن يحذر الاستهانة بمُحاوره ولو بطريقة غير مباشرة، إذ إنّها خُلُق رديء، وأسلوب فعّال في خسارة الآخر، وطريق سريع إلى قلب القناعات الجديدة، والتحوُّلات الإيجابية التي قد تكون بدأت تتخلَّق في وعيه إلى أضدادها(٢).

٤ ـ ﴿ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾:

قال حكّام القوم وأشرافهم لجندهم وأعوانهم: ائتوا بهذا الفتى إبراهيم على مرأى ومسمع من الناس، ليشهدوا عليه بمقالته وبما فعله، وليشاهدوا ما يُصنع به من عقاب، فتكون عقوبتُه عبرةً لمن يعتبر(٣).

وقد أصرّ الملأ من قومه على أن يُهيِّجوا الناس على إبراهيم عليه السَّلام وأن يُجنِّدوهم ضدَّه وأن يُشركوهم في إدانته وعقابه، وكأنهم بقولهم ﴿ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ يحاكمونه في «محكمة الشعب»، ويُصدرون

---

(١) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٣٥١).
(٢) صناعة الحوار، حمد عبد الله السيف، ص١٠٣.
(٣) من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين، محمد فؤاد سندي، ص١٤٣.

عليه «حكم الشعب»، ويُنفِّذون فيه «إرادة الشعب»، وكأن الشعب كلَّه يكرهه ويُحاكمه ويَدينه، وليسوا وحدهم في ذلك، فما هم إلا مُنفِّذون لحكم الشعب(١).

وكان حرصهم على المحاكمة العلنية، كي يُحقِّقوا عدة أهداف منها:

* تهدئة خواطر الجماهير الهائجة التي تهتف بالإعدام لمحطِّم آلهتهم، وإرضاء لنفوسهم المتعطشة إلى الثأر منه، والفتك به.

* إعادة الثقة، وردّ الاعتبار للأصنام المحطَّمة من خلال الثأر لها من إبراهيم عليه السَّلام، وفي الوقت نفسه الثأر لأنفسهم؛ لأنهم شعروا أن هذه العملية هي تحدٍّ لقوتهم، واستهانة بهم، وقلوبهم مملوءة حقدًا وغيظًا على إبراهيم عليه السَّلام.

* إرهاب الجمهور، وتربية الناس بإبراهيم حتى لا يتجرّأ أحد بعد ذلك ويتطاول على دولة الباطل أو يعارضها، فالذي يعارض ويتطاول مصيره مثل مصير إبراهيم عليه السَّلام الحرق والسَّحق، وهذه عادةُ الطغاة في كل زمان ومكان مع معارضيهم، يستعرضون قوّتَهم عليهم أمام الناس للإرهاب، فيلجؤون إلى المحاكمات الميدانية وتنفيذ حكم الإعدام فورًا أمام الناس. وبالفعل أُحضر إبراهيم عليه السَّلام بكل قسوة، ولكنه كان عملاقًا وقف بينهم مرفوع الرأس مُشرئِبَّ العنق، في جلال الواثق، وإيمان الثابت، وعقيدة الخاشع(٢).

وجُمع الناس لمشاهدة المحاكمة العلنية التاريخية، وتسامعَ الناس بالخبر وعرفوا مَن الفاعل، فأقبلوا إليه يُسرعون الخطا ويُحدِثون حوله زفيفًا، وهم

(١) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٣٥٢).
(٢) أنبياء الله، عبد الحميد كشك، ص٢٢.

جمعٌ كثير غاضب هائج، وهو فرد واحد، ولكنه فرد مؤمن لا يبالي كثرتَهم وهياجَهم وزفيفَهم(١).

وهذا الذي أراده خليل الله عليه السَّلام، لقد أقبل الناس، كلُّ الناس، من كلِّ حدب وصوب يشهدون المحاكمة، ويسمعون أقوال الذي حطَّم آلهتهم، وتقدَّم إبراهيم عليه السَّلام وسط هذه الجموع الحاشدة تقدُّمَ ثابتِ الخطا، مطمئن النفس، غير خائف من تهديدهم ووعيدهم(٢).

٥ ـ ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾:

وبدأت المحاكمة العلنية لبطل عملية تحطيم الأصنام إبراهيم عليه السَّلام، وقد تجاوز السياق أسئلة التحقيق، وركَّز على السؤال الأهمِّ ألا وهو الهدف من التحقيق، بخلاف أسئلة المُحققِّين اليوم، يعطيك مئة سؤال ليحصل على جواب سؤال واحد يضعه بينها. وقد قالوا بإيجاز: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٢].

إنَّه سؤال فيه إنكار شديد ووعيد لإبراهيم عليه السَّلام، وكلامهم يقطر حقدًا وغيظًا على إبراهيم؛ لأنه حطَّم أصنامَهم بصورة بشعة، وأصابهم في أقدس ما يعتقدونه من عقائد زائفة ورثوها عن آبائهم وأجدادهم، فهذه العملية الجريئة هزَّت كيانَهم جميعًا على المستويات كافة، ولاحِظْ تحديد اسم إبراهيم، في سؤالهم الإنكاري أثناء المحاكمة، فيه إشارة إلى أن لديهم قناعة أن إبراهيم هو الذي حطَّم الأصنام، وهم مُصرُّون على هذه القناعة، بدليل قولهم ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾، وهذا التحديد منهم بالاسم دليل على قناعتهم بالقرائن التي تُؤكِّد أن إبراهيم هو الذي حطَّم الأصنام.

---

(١) زفيفهم: سرعتهم مع الصوت والجلبة مثل المسيرات.

(٢) منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله، محمد سرور بن نايف زين العابدين، دار الأرقم، الكويت، ط٣، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م، ص٨٧.

وترك إبراهيم عليه السَّلام كبير الأصنام سالمًا دون تحطيم؛ ليسألوه عمّا حدث لبقية الأصنام، ويُجيب إبراهيم عليه السَّلام وكلُّه ثقة ويقين أنه على الحق المبين، الذي لا ترهبه هذه الجماهير الهائجة التي تنادي بموته، ولا ترهبه هذه المحاكم الميدانية التي تُحاط بهالة من استعراض القوة والبطش والإرهاب، ولا ترهبه هذه القيود والسلاسل الحديدية التي أوثقوه بها، وكأنه مجرم حرب، فيُجيبهم إبراهيم عليه السَّلام بالإضراب عن سؤالهم، وردِّ التهمة عنه باتهام كبير الأصنام بأنه عمل هذا، وطلب شهادة الأصنام المُحطَّمة على ذلك[١].

٦ ـ ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾:

نجد في إجابة إبراهيم عليه السَّلام حنكته ومهارته في إقامة الحجج ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾، وهذا ليس كذبًا في حقيقته، وإنما هو من باب التعريض والتورية، فليسألوهم إن كانوا يستطيعون جوابًا، ويدرك القوم ما هم فيه من الخطأ، وما هم عليه من الانحراف[٢].

كما أن التهكُّم واضح في هذا الجواب الساخر، وأراد أن يقول لهم: إن هذه التماثيل لا تدري مَن حطَّمها، إن كنتُ أنا أم هذا الصنم الكبير الذي لا يملك مثلها حراكًا، فهي جماد لا إدراك له أصلاً، وأنتم كذلك مثلها مسلوبو الإدراك لا تُميِّزون بين الجائز والمستحيل، فلا تعرفون إن كنت أنا الذي حطَّمتها، أم أنّ هذا التمثال ﴿ فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾، ويبدو أن هذا التهكُّم الساخر قد هزّهم هزًّا، وردَّهم إلى شيء من التفكُّر والتدبُّر ﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[٣].

---

(١) قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، ص٨٨.

(٢) قصص القرآن الكريم، فضل حسن عباس، ص٣٠٨.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٤/ ٢٣٨٧).

وكانت بادرة خير أن يستشعروا ما في موقفهم من سخف، وما في عبادتهم لهذه التماثيل من ظلم، وأن تتفتّح بصيرتُهم لأول مرّة، فيتدبَّروا ذلك السخف الذي يأخذون به أنفسَهم، وذلك الظلم الذي هم فيه سائرون، ولكنها لم تكن إلا ومضة واحدة أعقبها الظلام، وإلا خمدة واحدة عادت بعدها قلوبهم إلى الخمود[١].

إنَّ الرسالة التي أراد إبراهيم إيصالها للقوم وصلت، فأقام عليهم الحجة بالدليل المادي، بدليل أنهم تأثَّروا بهذا المشهد ﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾، فما هي إلا أصنام مكسرة، والمتَّهم رجل فيه الصفات الجذّابة، كالثقة بالنفس، وعدم الخوف، والرجولة، والمنطق القوي، والحجة البالغة.

لقد انقلب السحر على الساحر ـ سبحان الله ـ وهاجت الجماهير متعاطفة مع إبراهيم عليه السَّلام، وعرفت حقيقة الظالم من المظلوم، وهذه الصحوة أقلقت الحاكم الطاغية وأزلامه، وفورًا بدأت وسائل الإعلام بالتوجيه لإطفاء هذا النور الذي رأوه، ليس صوت الفطرة الذي يناديهم ويُحسُّون به، وليس نور الحق الذي يهديهم ويحلمون به، إنه صوت إبراهيم عليه السَّلام الذي يستهزئ بهم وأصنامهم، ومع قناعة الشعب وأعضاء المحكمة بأن إبراهيم عليه السَّلام على الحق المبين، إلا أن أصحاب القرار نسفوا كل هذه القناعات بقرار جائر، وصدرت الأوامر لدهاة السياسة، وكهنة الباطل، وسدنة الأصنام بالتخطيط والتنفيذ لقلب الحقائق، وإزالة آثار الصحوة التي لامسَت شغاف قلوب الناس[٢].

والخلاصة: إنَّ الرسالة التي كان يريد إبراهيم عليه السَّلام إيصالها لقومه قد

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٤/ ٢٣٨٧).

(٢) أنبياء الله، عبد الحميد كشك، ص٢٢.

وصلت، وأصابت عمق قلوبهم، فهزَّتهم كلمتُه الصادقة في الأعماق، وأظهرت حقيقتهم، ومفادها: إن كانت هذه الأصنام تنطق فاسألوها، وإن كانت لا تنطق فكيف تعبدونها وتجعلونها آلهة؟ إذن إبراهيم عليه السَّلام هو رجل الحجة من الدرجة الأولى، ولجأ إلى هذا الأسلوب ليقنع قومه ببطلان عبادة الأصنام، وقد نجح في ذلك(١).

٧ ـ ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ :

تعدُّ هذه الآية من اللطائف والتعابير الدقيقة في التعبير القرآني، فالفعل «نكس»: النون والكاف والسين أصل يدلُّ على قلب الشيء، والنكس: قلب الشيء على رأسه، نكسه ينكسه نكسًا، فانتكس وهو ناكس، ونكس رأسه أي: أماله، ونكّسه تنكيسًا، ونكس فلان رأسه؛ إذا طأطأه من ذُلٍّ، وقال: النكس في الأشياء معنى يرجع إلى قلب الشيء وردّه وجعل أعلاه أسفله، ومقدَّمَه مُؤخَّرَه، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال ﷺ: «**تَعِسَ عَبدُ الدِّينارِ وانتَكَسَ**»، أي انقلب على رأسه، وهو دعاء عليه بالخيبة؛ لأن من انتكس أمره فقد خاب وخسر، والولدُ المنكوس: أن تخرج رجلا المولود قبل رأسه؛ لأنه مقلوب مخالف للعادة(٢).

وردت مادة «نكس» في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع بثلاث صيغ، هي:

* **الأولى**: على صيغة اسم الفاعل من الفعل الثلاثي «نكس»، في قوله تعالى ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [السجدة: ١٢].

* **والثانية**: على صيغة المضارع المضعَّف «ينكّس»، وذلك في سورة يس، قال تعالى: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ [يس: ٦٨].

---

(١) قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، ص١٩١.
(٢) من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين، محمد فؤاد سندي، ص١٤٥.

* **والثالثة**: على صيغة الماضي المبني للمفعول نُكِس، وذلك في سورة الأنبياء، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥] [(١)].

وفي قوله تعالى ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي: رجعوا عمّا عرفوا من الحُجّة لإبراهيم عليه السَّلام، وقال الغرناطي: (ثم نكسوا على رؤوسهم) استعارة لانقلابهم برجوعهم عن الاعتراف بالحق إلى الباطل والمعاندة، ويحتمل أن يكون على حقيقته، أي: أطرقوا من الخجل لمّا قامت عليهم الحجة.

قلت: وإذا تلوت أخي المسلم قوله ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾، وأنت متذكر الدلالات الحسية والمعنوية الواردة في النكس والانتكاس؛ فسترى العجب في هذا التعبير القرآني إذ إنك ستُبصر أقوامًا انقلبوا على رؤوسهم، وجعلوا أعلاهم أسفلهم، ووضعوا هاماتهم موضع أقدامهم، فظهروا في مظهر ساخر مُزرٍ؛ لأنهم ركبوا رؤوسهم، فانقلب إذعانهم إلى مكابرة، وقالوا في لجاجهم وعنادهم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ والمعنى: علمت يا إبراهيم أن هذه الأصنام لا تتكلم ولا تُجيب، فكيف تأمرنا بسؤالهم؟!

وهذا القول اعتراف من القوم بعجز الآلهة، وأنهم لا ينطقون، وهم مع ذلك يعبدونهم، فهذه غاية الضلال في فعلهم، وعندئذ برزت حجّةُ إبراهيم عليه السَّلام مُدوية مُجلجِلة، تقرع الآذان، وتُفحم الألسنةَ بهذا الكلام البليغ، وبهذا التوبيخ العنيف الوارد في سورة الصافات وفي سورة الأنبياء[(٢)].

وفي قوله تعالى ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ حقًّا لقد كانت الأولى رجعة إلى النفوس، وكانت الثانية نكسة على الرؤوس، كما يقول التعبير القرآني المُصوِّر العجيب، حيث كانت الأولى حركة في النفس

(١) من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين، محمد فؤاد سندي، ص١٤٦.
(٢) المرجع نفسه، ص١٤٧.

للنظر والتدبُّر، وأما الثانية فكانت انقلابًا على الرأس فلا عقل ولا تفكير، وإلا فإن قولهم هذا الأخير هو الحجّة عليهم، وأية حجّة لإبراهيم عليه السَّلام أقوى من أن هؤلاء لا ينطقون؟[(١)].

وفي قوله تعالى ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾، أقرَّ القضاة بعجز أصنامهم واتصافها بالنقص، الذي يتنافى مع تأليهها وعبادتها، وهو ما كان إبراهيم عليه السَّلام يسعى إليه، ولعلّها أوّل مرة في التاريخ يقوم المُتَّهم باستجواب قُضاتِه، ويأخذ منهم اعترافًا بظلمهم، وإقرارهم بخطئهم، مما يؤهله لإصدار الحكم عليهم، وأصبح إبراهيم عليه السَّلام هو القاضي والحاكم، مع أنه في قفص الاتهام، وأصبح القضاة هم المتَّهمين، المعترفين بالجريمة، وهم وراء منصة الحكم، وأصدر عليه السَّلام حكمه مُنكِرًا ومُوبِّخًا[(٢)]، فقال: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا...﴾.

٨ ـ ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾:

عندما اعترفوا بأن الأصنام لا تستطيع النطق، انتهز إبراهيم ـ عليه السلام ـ الفرصة لإرشادهم، وتجلَّت قدرتُه في توظيف الموقف توظيفًا عقليًّا مقنعًا، فاستغل تلك الفرصة السانحة التي أعقبت فضح آلهتهم المحطّمة، وأعلن الحقيقة الكبرى أمام الأسياد والأتباع والناس جميعًا ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾[(٣)].

كيف تعبدون هذه الأصنام الضعيفة العاجزة؟! وها هي أمامكم مُحطَّمة مُكسَّرة، فلو كانت آلهة لدافعت عن نفسها، وإذا كانت عاجزة عن جلب نفع

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٤/ ٢٣٨٧).
(٢) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٥/ ٢٦٧).
(٣) صناعة الحوار، حمد عبد الله السيف، ص٢٠١.

لها أو دفع ضرّ عنها، فهل تقدر على جلب نفع لكم أو دفع ضرّ عنكم؟ إنّها أصنام لا تنفعكم شيئًا ولا تضرُّكم، فكيف تعبدونها من دون الله؟! إنه لا يُعبَد إلا الله تعالى؛ لأنه وحده القوي القاهر القادر على كل شيء، هو وحده الذي يقدم لعباده وعابديه النفع ويدفع عنهم الضرّ. وقد جاء الموقف مناسبًا أن يهزّ إبراهيم عليه السَّلام قومه هزّةً قوية، وأن يخاطبهم خطابًا عاليًا، ولذلك قال لهم: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[١].

ويمثل هذا المشهد مرحلة متأخِّرة من مراحل دعوته، يقول فيه «أُفٍّ» بنبرة غضب وزفرة تَضجُّر لا نجدهما في المشاهد الأخرى التي غلب عليها الحلم واللطف والرّحمة، وهذه الصفات من أبرز سماته التي تُظلِّل شخصيته، ولعلَّ بلادة قومه وسخف عقولهم وتعاميهم عن الحجج القاطعة وإنكارهم البراهين الواضحة، بلغ حدًّا جعل الحليم الغَيور يغضب، بل ويُعلن تضجُّره من قومه ومعبوداتهم[٢].

وكلمة ﴿أُفٍّ﴾ هي إنكار لما هم عليه من ضلال، وإعلان الرفض لباطلهم وكفرهم، أفٍّ لهم، وأفٍّ لأصنامهم، وأفٍّ لآلهتهم الباطلة، وأفٍّ لكل ما يعبدون من دون الله[٣].

وكلمة ﴿أُفٍّ﴾ من الكلمات الموحية المثيرة للنفور الخيالي في دلالتها على التَّضجُّر والتبرُّم والضيق من شيء يُقرف النفوس، وقد تُصاحبها حركة الإشاحة بالوجه عن المتضجَّر منه، وإنَّ ظلال العبارة لتكاد ترسم صورة إبراهيم عليه السَّلام وهو قرفٌ من قومه ومن جهلهم[٤].

---

(١) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٣٥٨).
(٢) صناعة الحوار، حمد عبد الله السيف، ص٩٨.
(٣) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٣٥٨).
(٤) صناعة الحوار، حمد عبد الله السيف، ص٣٤٨.

وقد ختم إبراهيم عليه السَّلام بيانه لقومه وإفحامه لهم بقوله ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وهذا إنكار آخر عليهم، وذمٌّ آخر لهم، وإقرار لهم أنهم لا يعقلون، لا يستخدمون عقولهم، ولا يؤثِّر فيهم المنطقُ العقليُّ، ولا الحجّة المنطقية؛ لأنّهم عطَّلوا عقولَهم وتفكيرهم بكفرهم وضلالهم، وعندما أرادوا محاكمة إبراهيم عليه السَّلام حاكمهم، وأرادوا إدانته فأدانهم، وغلبهم بمنطقه الإيماني وحجّته العقلية، وانتصر بالحق الذي يمثله والهدى الذي يحمله، وهذا هو منطق الحق دائمًا، وهكذا غلبة الحق دائمًا[١].

ونلاحظ في الآيات الكريمة أن ردَّ إبراهيم عليه السَّلام كان قويًّا واضحًا جامعًا لخصائص الإنكار والذمِّ والتوبيخ، وقد رتَّب تلك الأمور ترتيبًا دقيقًا؛ ليُعلِّمنا كيف نكون مع من يجادلنا في ذكاء واختبار للكلمة المُفحِمة، والترتيب الذي يُفحم الطرف الآخر، فقد بدأ بإبطال عبادتهم أولاً بعد إقرارهم بعدم أحقيّتها للعبادة، ثم تأفّف ثانيًا من رجوعهم إلى هذا الباطل وتمسّكهم به مع علمهم أنه باطل، ثم أنكر عليهم عدم التقدير، والتفكير الذي يترتَّب على التعليل، وفي هذا الجدال تفصيل للحالة النفسية التي كان عليها إبراهيم عليه السَّلام لإعراضهم عن الحجّة الواضحة، وتمسّكهم بالباطل ودفاعهم عنه[٢].

لقد كانت قيمة العقل حاضرة في ذهن الخليل عليه السَّلام، يستشعر أهميتها في سعادة الإنسان ووصوله إلى الحقيقة ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وكلَّما مَضَينا مع تطورات هذا الحوار الساخن، ينكشف لنا البعد العقلي في مكونات هذه الشخصية، والوعي التنظيمي، والخبرة الدعوية، والنموذج الفذّ، والشجاعة المذهلة التي ظهرت لنا في سيرته عندما كسَّر أصنامهم وحطَّمها

---

(١) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٣٥٨).

(٢) الحوار في قصة الخليل عليه السلام في القرآن دروس وعبر، محمود سعد عبد الحميد شمس، ص٣٩٩.

وجعلها جُذاذًا، فأرادوا استنطاقه ومحاكمته أمام الجمع الحافل، قبل أن يُنزلوا فيه العقاب الشديد، فلما جاؤوا به على أعين الناس، وقد تجمعوا وصاروا حشدًا هائلاً قاصدين التشهير به وإرهابه أمام الجموع الهائجة، نظر إليهم وهو غير آبه ولا مكترث بهم، بل جادلهم، وتهكم بهم وبآلهتهم حينما سألوه عمّن حطَّمها، فقال ساخرًا: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾، فأربكهم وأرجعهم إلى نفوسهم، وتحاوروا فيما بينهم، وكادوا ينتفعون لكنهم سرعان ما انتكسوا[١].

فلما رأى الخليل عليه السَّلام تجرُّؤَهم وإصرارَهم على الإشراك بالله، رغم ظهور الحق واتّضاح البراهين، غَضِب لربّه، وزفر فيهم زفرة الأسد الهَصور، ولم يَخف كثرة العدد، وقوة البطش، ولم يداهن قريبًا، أو يجامل عظيمًا، ولعلَّ الاستهانة بالدين، والتجرُّؤَ على المقدسات، وضياع حقوق الأمم والشعوب، كل ذلك نتيجة حتمية لغياب المُصلِح الرشيد، والمحاور الشجاع، والداعية الجسور الذي تسيطر على قلبه هموم أمته، وتملأ فؤاده قضايا مجتمعه ومآسي وطنه الكبير[٢].

٩ ـ ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ﴾:

لما دمغَ إبراهيم عليه السَّلام القومَ بالحجّة القاهرة، وفضح باطلَهم، وعرّى أصنامهم أمام الجماهير، وعجزوا عن مواجهته بالحجّة والدليل، ثارت عصبيتهم، وهاجت حميّتُهم، وشعروا بالخطر يداهمهم، فلم يجدوا حلاًّ يُوقف هذا المحاور العظيم الرزين الداعي للتوحيد وإفراد الله عز وجلَّ بالعبادة إلا منطق الحديد والنار، ومسلك القوة الغاشمة والعذاب الغليظ، فهذا أسلوبهم وأسلوب كل الطغاة أمام الحق المبين، والمنطق السديد، والحجج

(١) صناعة الحوار، حمد عبد الله السيف، ص٢٠٢.
(٢) المرجع نفسه، ص١٠٤.

الظاهرة، ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

ويُظهر السياق تشاورهم حول هذا الأسلوب الفظيع في التقتيل أو التحريق، كما صرّح به النصّ القرآني في سورة العنكبوت: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٢٤]، فلم يكن قول فرد واحد منهم، وإنما هو رأي تداولته الألسن، واختبرته العقول(١).

إنَّ انتقام القوم الوثنيين من خليل الرحمن سيدنا إبراهيم عليه السَّلام جاء ذكره في ثلاث سور في كتاب الله العزيز، وهي: العنكبوت والأنبياء والصافات، وتلكم الآيات الواردة في ذلك:

أولًا: في سورة العنكبوت، قال الله تعالى: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٢٤].

ثانيًا: في سورة الأنبياء، قال تعالى: ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٨ ـ ٧٠].

ثالثًا: في سورة الصافات، قال تعالى: ﴿ قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ [الصافات: ٩٧ ـ ٩٨].

وعند التأمل في هذه الآيات الكريمات نجدها يُكمِّل بعضُها بعضًا، إذ كل آية منها تذكر لنا جانبًا جديدًا في موضوع الانتقام ونتيجته، فالآية الأولى في سورة العنكبوت ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾، جاء في معناها: فما كان ردّ قوم إبراهيم عليه السَّلام حين دعاهم إلى الله تعالى،

(١) صناعة الحوار، حمد عبد الله السيف، ص١٠٤.

ونهاهم عن عبادة الأصنام، وحاجّهم قبل تحطيمها وبعده، إلا أن قالوا: ﴿ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ ﴾، والقائل هو بعضهم لبعض، أو كبراؤهم المجرمون أو واحد منهم، وكان الباقون راضين، فكانوا جميعًا في حكم القائلين[١].

وقالوا: ﴿ ٱقۡتُلُوهُ ﴾ أي: اقتلوا إبراهيم لتستريحوا منه، ثم كأنهم أحسّوا في أنفسهم الخبيثة أن القتل لا يكفي في الانتقام منه، ولا يشفي صدورهم الحاقدة، فقالوا: ﴿ أَوۡ حَرِّقُوهُ ﴾، أي: أحرقوا إبراهيم بالنار؛ لأنّها أشنع ما يُعاقَب به وأفظَعُ.

وقد استخدم التعبير القرآني الفعل ﴿ ٱقۡتُلُوهُ ﴾، ولم يقل: «قتّلوه»، بينما استعمل في الإحراق ﴿ حَرِّقُوهُ ﴾، ولم يقل: «حرقوه»، وذلك ـ والله أعلم ـ ليصوّر شدة حقدهم على إبراهيم، وشدة حرصهم على المبالغة في تعذيبه، إذ إنّ تكرار عين الفعل في «فعّل» دليل على تكرار الحدث، وكأن القوم الوثنيين رأوا أن القتل سيُخلّص على إبراهيم بسرعة، ويُزهِقُ روحَه مرّة واحدة، وأما الإحراق فإنه سيُعذِّبه تعذيبًا ويشوي جسده شيًّا، وإنّ اضطرام النيران في جسده قد يشفي بعض حقدهم المستعر، وقد ينفِّس عن غضبهم المكتوم على إبراهيم عليه السَّلام، لهذا اقترحوا في الآية الأولى مع القتل الإحراق ﴿ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ ﴾، ثم اختاروا الإحراق وحده، وأفصحوا عن سبب اختياره وذلك في الآية الثانية من سورة الأنبياء: ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾[٢].

إذن اختاروا الإحراق، وهو أهول العقوبات لإبراهيم عليه السَّلام لا للانتقام منه فحسب؛ بل لأن فيه نصرًا مُؤزَّرًا لآلهتهم المزعومة، التي قد أذلّها وأهانها عليه السَّلام، وهم يقولون: ﴿ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾ أي: إن كنتم

---

(١) من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين، محمد فؤاد سندي، ص١٤٨.

(٢) المرجع نفسه، ص١٤٩.

ناصرين لآلهتكم، وإن لم تُحرِّقوه فقد فرَّطتُم في نُصرتها، وبعد هذا الاختبار الجائر نرى القوم الحاقدين كأنهم لم يُرضهم أن يُحرِّقوا إبراهيم عليه السَّلام بنار تلتهم جسده فحسب، بل أملى عليهم طغيانُهم أن يجعلوها جحيمًا مستمرًّا، وذلك مبالغة في الانتصار، وإمعانًا في الانتقام.

وهذا ما أشارت إليه الآية الثالثة، وهي في سورة الصافات في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾، والجحيم والعياذ بالله ـ هي كل نار بعضها فوق بعض ـ وهكذا قرَّروا أن يُصلوه جحيمًا حامية، تعادل لظى الحقد المتأجِّج في صدورهم.

وهكذا ترى أخي القارئ الكريم أنّ القوم الظالمين اقترحوا في آية سورة العنكبوت القتل أو الإحراق انتقامًا من إبراهيم عليه السَّلام، وفي آية سورة الأنبياء اختاروا الإحراق بالنار انتصارًا لآلهتهم، وفي آية الصافات جعلوا النار جحيمًا، ومن هولها لم يستطيعوا الاقتراب منها، ومن عُلوّ بنيانها اضطروا إلى قذف إبراهيم فيها من بعد، فكل آية تُصوِّر جانبًا وتُضيف مزيدًا، فما أعظم هذا القرآن، إنه كما قال عنه الله عزّ وجل: ﴿الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١] (١).

لقد أصدر الطغاة حكمهم على إبراهيم عليه السَّلام بالإعدام حرقًا، وشرعوا في تنفيذ الحكم، وجمعوا الحطب، وأوقدوا النار الهائلة، وأتَوْا به، ثم ألقَوْه في النار بمشاركة الجماهير الغاضبة في الانتقام، ولم يتزعزع إبراهيم عليه السَّلام ولم يهتزّ، بل بقي رابط الجأش، ثابت القلب، ولم تُؤثِّر فيه ألسنة النيران المتصاعدة في جوّ السماء، ولا صرخات الرعاع والعوام من حوله، وكان عليه السَّلام يُردِّد بقلبه ولسانه: حسبي الله ونعم الوكيل.

وقد ورد في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه: «حسبنا الله

---

(١) من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين، محمد فؤاد سندي، ص١٥١.

ونعم الوكيل»، قالها إبراهيم عليه السَّلام حين أُلقيَ في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] (١).

وأُلقي إبراهيم عليه السَّلام في النار وهو يُردِّد هذه الكلمةَ، وجاء الفرج من الله تعالى مباشرة، قال ابن كثير: وذكر بعض السلف أنّه عَرض له جبريل وهو في الهواء، فقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، وأمّا من الله فنعم، ويُروى عن ابن عباس، قال: فكان أمر الله أسرعَ من أمره(٢).

ليس غريبًا أن تسعى ملائكة السماء لنصرة إبراهيم عليه السَّلام، فقد سعت دوابُّ الأرض لمساعدته، ففي الحديث الشريف، عن عائشة رضي الله عنها: أنّ رسول الله ﷺ، قال: «**إنَّ إبراهيم حين أُلقي في النار، لم تكن دابة إلا تطفئُ عنه النار غير الوزغ، كان ينفخ على إبراهيم**»، فأمر رسول الله ﷺ بقتله(٣). وأمر الله جلّ وعلا النار بأمره الكوني والقدري أن تكون بردًا وسلامًا على إبراهيم(٤).

١٠ ـ ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾:

أي: كوني ذات بردٍ وسلامٍ، أي ابردي بردًا غير ضارّ، فالنار من خلق الله تعالى، مسخّرة لقدرته، ومنقادة لأمره ومشيئته، وإرادته جلَّ وعلا تامة، نافذة في جميع المخلوقات.

وانقادت النار لأمره جلّ وعلا ومشيئته، فلم تحرق إبراهيم عليه السَّلام،

---

(١) صحيح البخاري، رقم (٤٥٦٣).
(٢) مختصر تفسير ابن كثير، محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، ط٧، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨١م، (٢/ ٨٤).
(٣) مسند أحمد، (٦/ ٨٣).
(٤) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٥/ ٣٧٠).

مع أنّها بقيت على ما كانت عليه نارًا، ويدلّ على ذلك قوله تعالى ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٤] (١).

وانظر إلى التعبير الإلهي، إنه سبحانه لم يقل: يا نار كوني بردًا على إبراهيم، ولو كان هذا هو التعبير؛ لآذاه البرد، ولكنه سبحانه ـ وهو أحكم الحاكمين ـ أضاف إلى البرد السلام، فكان بردًا غير ضارّ، بل سلامًا ممتعًا. وما من شكٍّ في أن الله سبحانه لا يتخلّى عن عباده المخلصين في هذه اللحظات الحاسمة، وهو سبحانه الذي يقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣]، أي: يجعل له مخرجًا من كل ضيق، ومن كل أزمة، ومن كل كرب، ومن كل غمٍّ، ويُيسِّر له وسائل الرزق بحيث يأتيه من حيث لا ينتظره(٢).

وعندما أُلقي إبراهيم عليه السَّلام في النار نزع اللهُ بقدرته من النار طبعَها الذي طبعها عليه من الحرّ والإحراق، وأبقاها على الإضاءة والاشتعال كما كانت، وهو على كل شيء قدير، والنار خلق من خلق الله تعالى لا تعصي أمره، وقد أمرها سبحانه أن تكون بردًا وسلامًا على إبراهيم، فكانت كما أراد الله جلَّ جلاله، وسَلِم خليل الرحمن من نارهم(٣).

هذا وكان من الممكن أن يختفي إبراهيم عليه السَّلام عن قومه في أي مكان ولا يظهر، وبهذا ينجو من نارهم، كما كان من الممكن أيضًا أن ينزل المطر من السماء يومها فتنطفئ النار ويسلم إبراهيم منها، ولكن لم يحدث هذا، ولم يحدث ذاك؛ وذلك لأنه لو اختفى إبراهيم عليه السَّلام لقال قومه الكفار: لو أننا قبضنا على إبراهيم لأحرقناه في النار ولدمّرته آلهتنا. ولأنه لو انطفأت النار

(١) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٥/ ٣٧٠).
(٢) قصص الأنبياء في رحاب الكون، د. عبد الحليم محمود، ص١٠٦.
(٣) من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين، محمد فؤاد سندي، ص١٥٣.

لقالوا: لو أن السماء لم تمطر؛ لانتقمت آلهتنا من إبراهيم بحرقه، ولكنّ الله سبحانه شاء أن تبقى النار متأجِّجة، وأن يُؤخذ إبراهيم عيانًا أمام الناس، ويُرمى به في النار المشتعلة، فلا يحترق، إذ عطَّل الله القويُّ العزيز قانونَ إحراق النار، فظهرت المعجزة الإلهية في حفظ الله تعالى لعبده ورسوله إبراهيم عليه السَّلام، وشهد القوم بطلان معتقداتهم، وبقيت آلهتهم التي أرادوا نصرتها والانتقام لها عاجزة عن أن تمسَّ إبراهيم عليه السَّلام بسوء، وهو الذي حطَّمها وأهانها وكادها وأذلَّها، وأراد القوم أن يكيدوا به فخسروا مرادهم[١].

وفي ﴿كُونِي﴾ هذه الكلمة التي تكونُ بها أكوانٌ، وتنشأ بها عوالمُ، وتُخلَق بها نواميسُ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فلا نسأل كيف لم تحرق النار إبراهيم عليه السَّلام، والمشهود المعروف أن النار تحرق الأجسام الحيّة؟ فالذي قال للنار: كوني حارقة، هو نفسه الذي قال لها: كوني بردًا وسلامًا، وهي الكلمة الواحدة التي تُنشئ مدلولها عند قولها، كيفما كان هذا المدلول مألوفًا للبشر أو غير مألوف.

إنَّ الذين يقيسون أعمال الله سبحانه وتعالى على أعمال البشر، هم ذاتهم الذين يسألون كيف كان هذا؟ وكيف أمكن أن يكون؟ فأما الذين يُدركون اختلاف الطبيعتين واختلاف الأداتين لا يسألون أصلاً، ولا يُحاولون أن يخلقوا تعليلاً علميًّا أو غير علميٍّ، فالمسألة ليست في هذا الميدان أصلاً، ليست في ميدان التعليل والتحليل بموازين البشر ومقاييس البشر، وكل منهج في تصوره مثل هذه المعجزات، غير منهج الإحالة إلى القدرة المطلقة لله عزّ وجل، هو منهج فاسد من أساسه؛ لأن أعمال الله غير خاضعة لمقاييس البشر وعلمهم القليل المحدود.

---

(١) من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين، محمد فؤاد سندي، ص١٥٣.

وما علينا فقط، هو أن نؤمن بأن هذا قد كان؛ لأن صانعه يملك له أن يكون، أما كيف صُنع بالنار فإذا هي برد وسلام، وكيف صُنع بإبراهيم فلا تحرقه النار، فذلك ما سكت عنه النص القرآني؛ لأنه لا سبيل إلى إدراكه بعقل البشر المحدود، وليس لنا سوى النص القرآني من دليل(١).

وفي قوله تعالى ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾، جاء هذا الأمر من الحق الأعلى سبحانه ليخرق بالمعجزة نواميس الكون السائدة، ولا يخرق الناموس إلا خالق الناموس، فلا يُعطِّل قانون الأشياء إلا خالقُها؛ لأن الأشياء لم تُخلق لتكون لها القدرة على القيّومية بنفسها، بل مخلوقة لتؤدي مهمة، والذي خلقها للمهمة هو القادر أن يسلبها خواصَّها؛ فالحقُّ سبحانه خلق النار وخلق فيها خاصِّيّة الإحراق، وهو وحده القادر على سلْب هذه الخاصية منها، فتكون نارًا بلا إحراق، فليس للنار قيّومية بذاتها، ونلحظ أن الله سبحانه وتعالى قيّد البرد بالسلام؛ لأن البرد المطلق يؤذي(٢).

١١ ـ ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾:

أي: أخسر من كل خاسر، حيث عاد سعيهم في إطفاء نور الحق قولاً وفعلاً، برهانًا قاطعًا على أنه عليه السَّلام على الحق وهم على الباطل، موجبًا لارتفاع درجته واستحقاقهم لأشد العذاب(٣).

ويَطوي السِّياقُ القرآني ذُهولَ القوم وخيبتَهم عندما طلع إبراهيم عليه السَّلام من النار سالمًا ساطع البرهان باهر الحجّة؛ ليبعث تلك النفوس على التأمل في أمر تلك المعجزة التي حدثت أمام أعينهم، دلالة على صدق الخليل

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٤/ ٢٣٨٨).
(٢) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١٥/ ٩٥٨٦).
(٣) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٥/ ٣٧٠).

عليه السَّلام في دعوتهم إلى عبادة الله عزّ وجل، و﴿ كَيْدًا ﴾ أي: مكرًا عظيمًا في الإضرار به، وهو ما أرادوه من حرقه(١).

وتسمية عزمهم على إحراقه كيدًا يقتضي أنهم دبَّروا ذلك خِفية منه، ولعل قصدهم من ذلك ألا يَفرَّ من البلد فلا يتم الانتصار لآلهتهم، والمعنى: أرادوا أن يكيدوه، فما كانوا إلا مغلوبين، غالبوه بالجدال؛ فلقّنه الله عزّ وجل الحجّة والموعظة، ثم عدلوا للقوة والجبروت، فنصره الله وقوّاه عليهم(٢).

وقد ذكر الله تعالى هنا في سورة الأنبياء: ﴿ فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾، وفي سورة الصافات: ﴿ فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾، وشدة الخسارة التي اقتضاها قوله: ﴿ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ بما لحقهم عقب ذلك من العذاب والخزي والعار لمّا ظهر من بطلان حجّتهم، ولأنهم حرّضوا بعضهم على الانتقام من إبراهيم عليه السَّلام انتقامًا وانتصارًا لآلهتهم، كأنهم كانوا في حرب معه قاصدين الانتصار، فجعلهم الله عزّ وجل هم الأخسرين، وهكذا نجّى الله تعالى الخليل عليه السَّلام من النار، وأظهر حجّتَه وجعلهم الأخسرين، وتلك عُقبى كل جبار عنيد(٣).

وأما في سورة الصافات، فقد قال الكفار: ﴿ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٩٧]، حيث ألقوه إلقاءً من أعلى إلى أسفل، وطرحوه في الجحيم وسط البنيان، وكانوا هم على شفا البنيان يتفرَّجون على إبراهيم، وكان إبراهيم أسفل منهم ـ من حيث المكان ـ ففي الاعتبار المادي كانوا هم أعلى يتفرَّجون، وكان إبراهيم أسفل منهم في الجحيم، ولهذا ناسب أن تُسجَّل

---

(١) الحوار في قصة الخليل عليه السلام في القرآن دروس وعبر، محمود سعد عبد الحميد شمس، ص٤٠٢.

(٢) المرجع نفسه، ص٤٠١.

(٣) المرجع نفسه، ص٤٠٢.

النتيجةُ بالكلمة المقابلة للعلوّ والارتفاع المادي، ولهذا قالت الآية: ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾، فهم الأسفلون في المنزلة، وإن كانوا الأعلين في المكان، وإبراهيم عليه السَّلام الأعلى مكانة، وإن كان أسفل منهم في المكان[(١)].

ويُستعمل الخُسر في المقتنيات الخارجية الدنيوية كالمال والجاه، كما يُستعمل في المقتنيات النفيسة، كالصحة والسلامة والعقل والإيمان والثواب، وكل خسران مذكور في القرآن الكريم فهو على المعنى الأخير[(٢)].

لقد أنجى الله عزّ وجل إبراهيم من الكيد الذي أُريد به، وباء الكائدون بخسارة ما بعدها خسارة ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾، هكذا على وجه الإطلاق دون تحديد[(٣)].

١٢ ـ ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾:

هاجر إبراهيم عليه السَّلام من موطن قومه في العراق إلى دار هجرته فلسطين الأرض المقدسة التي بارك الله فيها للعالمين، وأقام فيها، قال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾[(٤)].

وتكون البركة الربانيّة في فلسطين كاملة شاملة لكل مجالات البركة وألوانها، إنّها بركة إيمانيّة واقتصاديّة وسياسيّة وعلميّة وحضاريّة وجهاديّة، ويُقرِّر القرآن الكريم أن هذه البركة الربانية الشاملة في فلسطين ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾، وفي هذا ردّ على أباطيل وإسرائيليات اليهود الذين يجعلون بركة الربّ في فلسطين خاصّةً بهم، ومقصورةً عليهم. إنّها بركة للعالمين جميعًا، ففلسطين

---

(١) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٣٦٥).
(٢) من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين، محمد فؤاد سندي، ص١٥٥.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٤/ ٢٣٨٨).
(٤) قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، ص١٠٧.

المسلمة المباركة تُقدِّم بركتَها ودروسها ودلالاتها وحقائقها وأنوارها وإشعاعاتها للعالمين كلهم[١].

وقد أقام إبراهيم عليه السَّلام في فلسطين الأرض المقدسة المباركة؛ لأنّها دار هجرته، تمامًا كما فعل محمد ﷺ عندما هاجر إلى المدينة المنورة. واستقرَّ إبراهيم في دار هجرته، ومنها انطلقت رحلاته إلى الأماكن المجاورة، ثم كان يعود إلى دار هجرته ومقرِّ إقامته.

وعندما أقام إبراهيم عليه السَّلام في فلسطين المباركة، كان يغادر المنطقة إلى الأماكن المجاورة في عدة رحلات سجَّلها القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، وكانت الرحلة الأولى إلى مصر والباقي إلى الحجاز، أكثر من أربع رحلات، وكانت معه زوجه هاجر وابنه إسماعيل عليهما السلام في رحلة الحجاز الأولى، أما باقي الرحلات فكان يذهب وحده لزيارة ابنه إسماعيل عليه السَّلام[٢].

ونُوجز أهم الأحداث البارزة التي وقعت لإبراهيم عليه السَّلام بعد الهجرة، فيما يأتي:

* رحلته مع زوجته سارة إلى مصر.
* رحلته مع زوجته هاجر وابنه إسماعيل إلى الحجاز.
* رؤياه وهو يذبح ابنه إسماعيل.
* ضيوفه في دار هجرته وتَلَقِّيه البشرى بإسحاق ويعقوب.
* بناؤه الكعبة المشرفة بالتعاون مع ابنه إسماعيل.
* أذانه بالحج استجابة لأمر الله.

---

(١) قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، ص١٠٨.
(٢) المرجع نفسه، ص١٠٨.

ولأهمية هذه الأحداث، سندرسها في مباحث قادمة بإذن الله تعالى، وقد ورد حديث رحلته مع زوجه سارة إلى مصر في السُّنَّة الصحيحة، وقد وقع حدث ضيوف إبراهيم عليه السَّلام في دار هجرته في فلسطين في بلاد الشام، التي أقام بها بعد هجرته، وهي الأرض المباركة(١).

وقد ذُكرت هجرة إبراهيم عليه السَّلام في مواضع في القرآن الكريم:

الموضع الأول: في قول الله تعالى ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٤٧]، فاعتزلهم في العبادة، واعتزلهم كذلك في المكان.

الموضع الثاني: في قول الله تبارك وتعالى عن إبراهيم ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩].

الموضع الثالث: في قوله تعالى ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، وفي قوله تعالى ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١].

واختلف أهل العلم في البلد التي هاجر إليها نبيُّ الله إبراهيم عليه السَّلام على قولين:

القول الأول: إنه هاجر إلى مكة المكرمة التي شرَّفها الله.

والقول الثاني: إنه هاجر إلى الشام، وهو لا شكّ فيه أنه دخل الشام ودخل مكة المكرمة(٢).

واستقر في فلسطين وبلاد الشام، وهذا ما رجَّحتُه، وهو ما ذهب إليه جمهور المفسرين: أن المراد بالأرض التي بارك الله فيها للعالمين هي أرض

---

(١) قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، ص١٠٨.

(٢) فبهداهم اقتده «قراءة تأصيلية في سير وقصص الأنبياء»، عثمان محمد الخميس، دار إيلاف الدولية، الكويت، ط١، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م، ص١٣٣.

الشام؛ وذلك لأنَّ الله بارك فيها لكثرة خصبها وثمارها وأنهارها، ولأنَّ الله بعث أكثر الأنبياء منها[١].

يقول ابن كثير في معنى الآية الكريمة: يقول الله تعالى مُخبرًا عن إبراهيم عليه السَّلام أنه سلَّمه من نار قومه، وأخرجه من بين أظهرهم مهاجرًا إلى بلاد الشام، إلى الأرض المقدسة منها[٢].

وفي قوله تعالى ﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴾: أي نجينا إبراهيم من النار، ولوطًا من الدمار، والجار والمجرور متعلقان بـ﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ ﴾، أي حفظناهما إلى أن وصلا إلى الأرض المباركة[٣].

وكان إبراهيم عليه السَّلام أول مُهاجر في سبيل الله، ومعه لوط ابن أخيه وزوجه سارة، وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن الفرار بالدين واجب من دار الكفر إلى بلد يَتمكَّن فيه الفارّ بدينه من إقامة دينه، وهذا النوع من الهجرة وجوبه باقٍ بلا خلاف بين العلماء في ذلك[٤].

وفي السنة النبوية الشريفة عدد من الأحاديث في فضل بلاد الشام حتى عقد الإمام المنذريُّ في كتابه (الترغيب والترهيب) فصلاً خاصًّا جعل عنوانه: «الترغيب في سُكنى الشام، وما جاء في فضلها» ذكر فيها ثمانية عشر حديثًا منها: «**طوبى للشام، إنَّ ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليه**»[٥]، وفلسطين هي أفضل أرض في بلاد الشام؛ لأن فيها أولى القبلتين؛ المسجد الأقصى، ومسرى رسول الله ﷺ[٦].

---

(١) تفسير القرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، القرطبي، (١١/ ٢٠٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، (٣/ ٢٢٦).
(٣) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (٩/ ٤٨٩٣).
(٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، (٤/ ٥٩٠ ـ ٥٩١).
(٥) سنن الترمذي، رقم (٣٩٥٤).
(٦) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٥/ ٣٧٢).

وإن أرض الشام التي هاجر إليها إبراهيم عليه السَّلام وابن أخيه كانت مهبط الوحي فترة طويلة، ومبعث الرسل من نسل إبراهيم، وفيها الأرض المقدسة وثاني الحرمين، وفيها بركة الخصب والرزق إلى جانب بركة الوحي والنبوَّة جيلاً بعد جيل(١).

لقد كانت الهجرة باب النجاة ووسيلتها، ولو لم يهاجر إبراهيم عليه السَّلام لما أمن مكر قومه، ولما أمن مكر الشيطان الذي يسعى إلى تدجين الإنسان بكل الوسائل، وإنَّ البقاء مع القوم الكافرين، والركون إلى فئة الظالمين، لا يُؤمَن معه من الوقوع في الفتن والضلال واستحقاق العذاب، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: ١١٣].

إذن، كانت الهجرة منطلقًا فعليًّا واقعيًّا وحقيقيًّا للنجاة والخلاص من كيد الظالمين، وتلك كانت أُولى فتوحاتها وأُولى رحماتها، ولذلك فإن حياة إبراهيم عليه السَّلام التي أراد قومه أن تؤول إلى الاضمحلال والفناء، أصبحت حياة بناء وعطاء منذ لحظة الهجرة بالذات؛ لأنّها نجاة من القوم الظالمين، وتخليص للنفس من آفات معاشرة الكافرين، وسوف تكون كذلك نقطة التأسيس وبداية مشروع البناء لكل الإنجازات الإبراهيمية الكبرى بعد ذلك.

ومن الفتوحات في هذه الهجرة توريث إبراهيم عليه السَّلام وآله من بعده الأرض التي بارك الله فيها للعالمين، كما أن إبراهيم عليه السَّلام بهجرته كان يتَّجه نحو القِبلة الأولى التي رضيها الله سبحانه للأمة الإبراهيمية الأولى، أبناء يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم صلوات الله وسلامه.

إنَّ ظهور القبلة الأولى حدث كبير من أحداث التاريخ، وهو ليس بالهيِّن

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٤/ ٢٣٨٨).

ولا البسيط إلا لأولئك الذين لا يرون شيئًا من التدبير الإلهي لتاريخ العالم، ولمسيرة الإنسان بالذات فوق الأرض. وأما المؤمنون فيعلمون أن مثل هذا الحدث الجليل يُمثِّل إحدى علامات التاريخ الفارقة والفاصلة، وأنه نقطة مُهمّة من نقاط فهم حقيقة مسيرة الإنسان، وخفايا حراك الأمم فوق الأرض[١].

١٣ ـ ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴾:

ذكر الله سبحانه في هذه السورة بعض المنح والعطايا التي وهبها لإبراهيم عليه السَّلام، نتيجة لهجرته وتضحياته في سبيله، فلم يتركه الله وحيدًا، بل وهب له ذرية وعوَّضه خيرًا، فإسحاق هو ابن إبراهيم عليه السَّلام من سارة، ويعقوب هو ابن إسحاق، ولكنه يُحسب ولدًا لإبراهيم؛ لأن إسحاق رُزقه في حياة جدِّه إبراهيم، فنشأ في بيته وحجره، وكان كأنه ولده المباشر، وتعلم ديانته، وكان نبيًّا كأبيه.

ولم يذكر السِّياق إسماعيل عليه السَّلام، مع أنه الابن الأكبر لإبراهيم عليه السَّلام وولدته هاجر؛ لأن السِّياق يتكلم عن الأرض التي هاجر إليها إبراهيم، وعن أنبياء بني إسرائيل الذين سكنوا تلك المنطقة، بينما إسماعيل ذُكر في **سياق الهجرة مباشرة في سورة الصافات**: ﴿ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الصافات: ٩٩ ـ ١٠٠]، فالغلام الحليم هو إسماعيل عليه السَّلام، ومن ذرية إسحاق جاءت أمة بني إسرائيل اليهود والنصارى، ومن ذرية إسماعيل جاءت أمة محمد ﷺ، وكانت هبة الله لإبراهيم بأن رزقَه إسماعيل وإسحاق عليهم السلام أعظم هبة من الله له، وقد تلقّاها خليل الله بالشكر والثناء، وقال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [إبراهيم: ٣٩][٢].

(١) درب إبراهيم عليه السلام، سعيد الشبلي، ام كي للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٩م، ص٢٥١.
(٢) قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، ص١٠٥.

ومعنى ﴿نَافِلَةً﴾ هو وصف ليعقوب عليه السَّلام لأنه ولد ولده يعني أن يعقوب ولد إسحاق، وقال مجاهد: نافلة: عطية[(١)]، وقال الرازي: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ﴾؛ إجابة لدعائه، ووهبنا له يعقوب نافلة على ما سأل، كالصلاة النافلة التي هي زيادة على الفرض، وعلى هذا النافلة يعقوبُ خاصّةً.

وفي قوله تعالى ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ أي: جعلنا كلاًّ من إبراهيم وإسحاق ويعقوب أنبياء مرسلين، هذا قول الضحاك، وقال آخرون: عاملين بطاعة الله مجتنبين محارمه[(٢)].

وجاءت الهبة بإسحاق ويعقوب عليهما السلام بحرف العطف «الواو» وهذا يدلُّ على تأخُّرها، وأنها لم تأتِ بعد هجرته مباشرة، بل بعد مجيء الملائكة بهلاك قوم لوط عليه السَّلام كما سيأتي تفصيله بإذن الله تعالى[(٣)].

ولقد ترك إبراهيم عليه السَّلام وطنًا وأهلاً وقومًا، فعوَّضَه الله الأرض المباركة وطنًا خيرًا من وطنه، وعوضه ابنه إسحاق وحفيده يعقوب أهلاً خيرًا من أهله، وعوَّض من ذُريّته أمة عظيمة العدد قومًا خيرًا من قومه[(٤)].

فقد نشأت من ذُريّته أمتان عظيمتان كان لهما الدور المحوري والبارز في مستقبل الحضارة الإنسانية، وهاتان الأمتان المنحدرتان من صلبه هما على التوالي؛ الأمة العربية التي أنشأها أبناء إسماعيل عليه السَّلام، وأمة بني إسرائيل التي تشكلت من أحفاد يعقوب بن إسحاق عليهما السلام[(٥)].

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، (٥/ ٥٩١ ـ ٥٩٢).

(٢) التفسير الكبير مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، (٢٢/ ١٩١ ـ ١٩٢).

(٣) حديث القرآن عن إسماعيل وإسحاق عليهما السلام، د. سليمان إبراهيم الحصين، ص٤٨٣.

(٤) قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، ص١٠٦.

(٥) سنن الله في الحضارة الإنسانية، أحمد سريرات، ص٤٨.

١٤ ـ ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾:

قول الرازي:

اعلم أن الله سبحانه وصفهم أولاً بالصلاح؛ لأنه أول مراتب السائرين إلى الله تعالى، ثم ترقَّى فوصفهم بالإمامة، ثم ترقَّى فوصفهم بالنبوَّة والوحي، وإذا كان الصلاحُ، الذي هو أوَّلُ العصمة، أوَّلَ مراتب النبوَّة دلّ ذلك على أن الأنبياء معصومون، فإن المحروم أول المراتب أولى بأن يكون محرومًا عند النهاية، ثم إنه سبحانه كما بيّن أصناف نعمه عليهم بيّن بعد ذلك اشتغالهم بعبوديته، فقال تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾، وكأنه سبحانه لما وفى بعهد الربوبية في الإحسان والإنعام، فهم أيضًا وفوا بعهد العبودية وهو الاشتغال بالطاعة والعبادة[١].

قول السعدي:

إنَّ من صلاحهم هو أن الله جعلهم أئمة يهدون بأمره، وهذا من أكبر نعم الله على عبده أن يكون إمامًا يَهتدي به المهتدون، ويمشي على خُلُقه السالكون، وذلك لمّا صبروا، وكانوا بآيات الله يوقنون. وفي قوله ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي: يهدون الناس بديننا لا يأمرون بأهواء أنفسهم، بل بأمر الله ودينه واتِّباع مرضاته، ولا يكون العبد إمامًا حتى يدعو إلى أمر الله. وفي قوله ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾: يفعلونها ويدعون الناس إليها، وهذا شامل لجميع الخيرات، من حقوق الله وحقوق العباد. وفي قوله ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ﴾: هذا من باب عطف الخاص على العام، لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ولأن من كمَّلَهما كما أُمر كان قائمًا بدينه، ومن ضيَّعهما كان لما

(١) التفسير الكبير مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، (٢٢/ ١٩٣).

سواهما أضيع؛ لأن أفضل الأعمال التي فيها حقٌّ، والزكاة أفضل الأعمال التي فيها الإحسان لخلقِه، وفي قوله ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا﴾ أي: لا لغيرنا ﴿عَـٰبِدِينَ﴾ أي: مديمين على العبادات القلبية والقولية والبدنية في أكثر أوقاتهم، فاستحقوا أن تكون العبادة وصفهم، فاتَّصفوا بما أمر الله به الخلق، وخلقهم لأجله(١).

قول ابن عاشور:

إنَّ تخصيص إقام الصلاة وإيتاء الزكاة بالذكر بعد شمول الخيرات إياهما تنويه بشأنهما؛ لأنَّ بالصّلاة صلاحَ النفس، إذ الصّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وبالزكاة صلاحَ المجتمع لكفاية عوز المعوزين، وهذا إشارة إلى أصل الحنيفية التي أُرسل بها إبراهيم عليه السَّلام، ومعنى الوحي بفعل الخيرات وإقام الصّلاة وإيتاء الزكاة أنّه أُوحي إليهم الأمر بذلك كما هو بيِّن، ثم خصَّهم بذكر ما كانوا متميِّزين به على بقية الناس من ملازمة العبادة لله تعالى، كما دلَّ عليه فعل الكون المفيد تمكُّنَ الوصف، ودلّت عليه الإشارة بتقديم المجرور إلى أنهم أفردوا الله بالعبادة، فلم يعبدوا غيره قط، كما تقتضيه رتبة النبوَّة من العصمة عن عبادة غير الله من وقت التكليف، كما قال يوسف: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [يوسف: ٣٨]، وقال تعالى في الثناء عن إبراهيم: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧] (٢).

قول الشنقيطي:

يشمل الضمير في قوله ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ﴾ كلَّ المذكورين: إبراهيم ولوطًا وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، كما جزم به أبو حيان في (البحر المحيط)، وهو الظاهر، وقد دلَّت هذه الآية الكريمة على أن الله جعل إسحاق ويعقوب من الأئمة، أي جعلهم رؤساء في الدين، يُقتدى بهم في الخيرات وأعمال

---

(١) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، (٥/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦).

(٢) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (١٧/ ١١١).

الطاعات، وقوله ﴿ بِأَمۡرِنَا﴾ أي: بما أنزلنا عليهم من الوحي والأمر والنهي، أو يهدون الناس إلى ديننا بأمرنا إياهم، بإرشاد الخلق ودعائهم إلى التوحيد.

وتُبيِّن هذه الآية الكريمة أن طلب إبراهيم الإمامة لذُريّته المذكور في سورة البقرة استجاب الله له فيه بالنسبة إلى بعض ذُريّته دون بعضها، وضابط ذلك: أن الظالمين من ذُريّته لا ينالون الإمامة بخلاف غيرهم، كإسحاق ويعقوب، فإنهم ينالون كما صرح به تعالى في قوله هنا ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ﴾، وطلبُ إبراهيم هو المذكور في قوله تعالى ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]. وفي قوله ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ ﴾؛ أي واجعل من ذريتي أئمة يُقتدى بهم في الخير، فاستجاب الله له بقوله ﴿ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا ينال الظالمين عهدي بالإمامة، على الأصوب، ومفهوم قوله ﴿ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أن عهدي بالإمامة ينالُ غيرَهم، كما صرّح به هنا، وهذا التفصيل المذكور في ذرية إبراهيم أشار إليه تعالى في سورة الصافات بقوله ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴾ [الصافات: ١١٣].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ أي أن يفعلوا الطاعات، ويأمروا الناس بفعلها، وإقام الصّلاة وإيتاء الزكاة من جملة الخيرات، فهو من عطف الخاص على العام، وهو من باب الإطناب في بلاغتنا العربية.

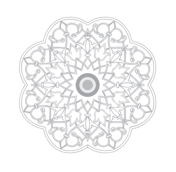
وفي قوله ﴿وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ أي: مطيعين باجتناب النواهي وامتثال الأوامر بإخلاص، فهم يفعلون ما يأمرون الناس به، ويجتنبون ما ينهونهم عنه، كما قال نبيُّ الله شعيب: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ [هود: ٨٨]، وفي قوله ﴿أَئِمَّةٗ﴾ معلوم أنه جمع إمام، والإمام: هو المُقتدى

به، ويُطلَق في الخير كما هنا، وفي الشرِّ كما في قوله ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٤١] [(١)].

وفي قوله تعالى ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ أي: كانوا مطيعين وخاضعين لله تعالى وحده، وهي شهادة عالية رفيعة من الله تعالى، تدلُّ على براءتهم من جميع افتراءات المفترين وسهام المغرضين، المذكورة في الكتب التي يتداولها أهل الكتاب، وفيها تشويه سمعتهم عليهم الصلاة والسلام[(٢)].

❊ ❊ ❊

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، (٤/ ٥٩٢ ـ ٥٩٣).
(٢) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٥/ ٣٧٤).



المبحث الرابع

قصة إبراهيم عليه السَّلام في سورة الشعراء

قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٦٩ ـ ١٠٤].

يحكي لنا القرآن الكريم بكل أمانة ودِقّة وموضوعية قصة إبراهيم عليه السَّلام، وهنا في سورة الشعراء جاءت الآيات تترى؛ لتصف لنا مشاهد من قصته العظيمة التي تلامس الأحاسيس والأعماق الإنسانية.

ونرى شخصية إبراهيم عليه السَّلام، هذا الطود الشامخ الذي يتحدَّى كلَّ المؤثرات بعقيدة التوحيد الراسخة التي تتفاعل مع العقل والقلب، سنلاحظ ذلك في الآيات التي جاءت عن إبراهيم عليه السَّلام في هذه السورة، وبيان تلك الصّلة الوثيقة بربّه، التي ستبقى وتظل الأساس الذي يرجع إليه المؤمنون، والقبس الذي يستنيرون به. ولنشرع في تفسير تلك الآيات البينات على مراحل وفقرات بأسهل الأساليب لمخاطبة الفطرة الإنسانية، والعقول البشرية، والوجدان العام لكل إنسان أينما كان، والهداية من الرحمن.

* * *

أولاً: قوله تعالى ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ [الشعراء: ٦٩ ـ ٧١]:

١ ـ ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾:

بدأت الآيات بأمر إلهي لرسول الله محمد ﷺ بأن يتلو على الناس ﴿نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾، والنبأ هو الخبر العظيم المتحقِّق يقينًا، قال **عبد الرؤوف المناوي في** (التوقيف): النبأ خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن، ولا يُقال للخبر نبأ حتى يتضمَّن هذه الأشياء الثلاثة، وحقُّ الخبر الذي يُقال فيه نبأ أن يُعرَّى عن الكذب، كالتواتر وخبر الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ. والنبوَّة سفارة بين الله سبحانه وتعالى وبين ذوي العقول من عباده لإزاحة عللهم في معاشهم ومعادهم، والنبيُّ سمّي به؛ لكونه مُنبِئًا بما تسكن به العقول الذكية[١].

وإنَّ قصة خليل الله إبراهيم عليه السَّلام وخبره قد رواها لنا القرآن الكريم،

---

(١) التوقيف على مهمات التعاريف، محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي المناوي القاهري، عالم الكتب للطباعة، القاهرة، ط١، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م، (١/ ٦٩١).

والذي هو كلام الله سبحانه وتعالى، ومَن أصدق من الله حديثًا، وقصته بالنسبة لنبيِّنا محمد ﷺ ولأمته من الغيب ونحن نؤمن به. **وإنّ الغيب على ثلاثة أنواع**:

* غيب ماضٍ: كما هو حال أخبار إبراهيم عليه السَّلام والأنبياء والأمم من قبله ومن بعده.

* وغيب مستقبل: وهو أخبار أحداث الزمن الآتي، كَعُمر الدنيا ومآلاتها، وأخبار القيامة والجنة والنار.

* وغيب حاضر: وهو أحوال الملائكة والجن وما شابه ذلك.

كل هذا وذلك من ﴿أَنۢبَآءِ﴾ الغيب الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على قلب محمد ﷺ، فيقول الله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]. والإيمان بالغيب في مِلَّة إبراهيم عليه السَّلام هو جزء لا يتجزأ من الإيمان بالله سبحانه وتعالى، وقد جعل الله الإيمان بالغيب من أركان الإيمان، وهو أول صفات المتقين، وذلك في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢ ـ ٣].

وفي وقفة شجاعة، ومشهد عظيم، وجرأة منقطعة النظير، يقف النبي إبراهيم عليه السَّلام ليدافع عن توحيد الله عزّ وجل وإفراده بالعبادة، ويدعو الناس لدين الله عزّ وجل الذي ارتضاه الله لعباده، ويؤدي ما عليه من أمانة وواجب؛ فيفتح حوارًا جريئًا مع المشركين، مناظرة من أجل نصرة الحق فحسب، وليس من أجل الرياء ولا المِراء ولا المكاسب الدنيوية، ويوضح لنا، نحن أتباع ملته، أن الدين في أصوله العظيمة، هو الدعوة إلى التوحيد ومحاربة الشرك مهما كان الثمن غاليًا[1].

---

(١) ملة أبيكم إبراهيم، عبد الستار كريم المرسومي، ص٣١.

٢ ـ ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ :

يبدأ إبراهيم عليه السَّلام بأبيه وليس بأحد غيره ثم بقومه، وذلك عين منطق العقلاء، فالإنسان الساعي لمشروع التغيير إلى الحق ينبغي أن يبدأ بنفسه أولاً، ثم بمن حوله من الأقربين ليغيّر واقعه وواقعهم، ثم ينتقل إلى الأبعد فالأبعد.

وإنّ أهل المرء هم أولى الناس به، وهم أولى أن يقوم هو بدعوتهم إلى الحق وإصلاح حالهم، فالأب والأم والأخ والأخت والابن وهكذا هم أهمُّ المسؤوليات التي تقع على عاتق المرء، من جانب العقيدة بشكل خاص، والدين والفضيلة بشكل عام.

وبدأ الحوار بأول خطوة ﴿ قَالَ ﴾، والقول أداة مهمة من أدوات التغيير والتأثير في الآخرين، فكم من ضالٍّ هدَته كلمةُ حقٍّ، وكم من معاند انصاع لقول حكيم، وكم من قاسٍ لانَ بفعل قول رقيق، والعكس صحيح؛ فمثلما يؤثر القول إيجابًا، فإنه يؤثر سلبًا كذلك، فلقد وجّه إبراهيم عليه السَّلام سؤالاً مباشرًا وواضحًا لهم والسؤال كان: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾؟

وهو عليه السَّلام يعرف الجواب، مثلما هم يعرفون الجواب، فهم يعبدون الأصنام، ولقد كان سؤاله بـ ﴿ مَا ﴾، وهي في اللغة تُستخدم لغير العاقل، وإلا فالسؤال للعاقل بـ «مَن»، فكان في السؤال لَسعةٌ وإثارة لهم، ولسان حاله يقول: أتعبدون غير عاقل، هل أنتم مجانين؟ أتعبدون تُرّهات؟ ولذلك جاء جوابهم ساذجًا[١].

كان سؤال إبراهيم الخليل عليه السَّلام سؤال استهجان واستنكار، وسؤال استدلال ليُظهر لهم بطلانَ هذه العبادة؛ لأنَّ العبادة أن يطيع العابدُ المعبودَ فيما أمر وفيما نهى، فالذين يعبدون الأصنام: بماذا أمرَتهم؟ وعمّ نهتهم؟ إذن:

---

(١) ملة أبيكم إبراهيم، عبد الستار كريم المرسومي، ص٣١.

فهي آلهة دون منهج، وما أسهل أن يعبد الإنسان مثل هذا الإله الذي لا يأمره بشيء ولا ينهاه عن شيء، وكذلك هي آلهة دون جزاء ودون حساب؛ لأنّها لا تُثيب مَن أطاعها ولا تُعاقب مَن عصاها، ونعلم أنَّ الإله الحق له أوامر لا بُد أن تُنفَّذ، وله نواهٍ لا بُد أن تُترك، وله منهج يُنظِّم للناس حركة الحياة، وأما عبادة الأصنام فلا أوامر ولا نواهيَ ولا منهج يُنظِّم حركة الحياة، وهذا خبلٌ واضح، وسقوط في حبائل إبليس[١].

٣ ـ ﴿ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ :

لقد اعترفوا في جوابهم أنهم يعبدون آلهة أصنامًا من دون الله، ولم يقفوا عند حدّ المسؤول عنها، بل تجاوزوه بقولهم ﴿ فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ أي مقيمين على عبادتها ودعائها، وهنا العكوف فكري ومعنوي؛ لأن العبادة للأصنام موسمية وليست يومية، وإنهم يدأبون على عبادتهم لأصنامهم من دون الله، وهذه الزيادة عن جواب السؤال؛ ليُظهروا ما في نفوسهم الخبيثة من الابتهاج والافتخار[٢].

وفي قوله تعالى ﴿ فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ هنا إشارة منهم لإبراهيم ـ عليه السلام ـ أنهم سيبقَون متمسِّكين بتلك الأصنام، بغضّ النظر عمّا ستؤول إليه نتيجة الحوار بينهم وبين إبراهيم عليه السَّلام[٣]، وأنهم سيُدافعون عنها، ويقاومون من يخرج عن عبادتها؛ فقد أخلصوا أنفسهم لحرب من يعاديها ويتطاول عليها، والترصُّد لمن يُسيء إليها، وذلك ينسجم مع وجود اللام ﴿ فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾[٤].

---

(١) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١٧/ ١٠٥٩١).

(٢) البحر المحيط في التفسير، أبو حيّان الأندلسي، (٧/ ٢٢ ـ ٢٣)، تفسير الزمخشري «الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل»، الزمخشـري، (٢/ ١١٦).

(٣) ملة أبيكم إبراهيم، عبد الستار كريم المرسومي، ص٣٢.

(٤) الحوار في قصة الخليل عليه السلام في القرآن دروس وعبر، محمود سعد عبد الحميد شمس، ص٣٥٩.

وكأن الخليل إبراهيم عليه السَّلام كان ينتظر هذه الإجابة، فبدأ بالرد المنطقي والحوار العملي والحجّة البالغة[١].

* * *

ثانيًا: قوله تعالى ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٢ ـ ٧٤]:

١ ـ ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾:

لقد ركَّز الخليل إبراهيم عليه السَّلام في أول حواره على «السّمع» بقوله: ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ ﴾، ولم يتطرَّق لشيء آخر من الجوارح أبدًا، فقد كان عليه السَّلام ذكيًّا مُحتاطًا حريصًا على اختبار ما ينفع من الكلام أثناء الحوار، ويركّز عليه، والسّمع تتعلق به الإجابة فكيف يُجيب ما لا يسمع، كما قال بشار بن برد[٢]:

لَقَد أَسمَعتَ لَو نادَيتَ حَيًّا ولَكِن لا حَياةَ لِمَن تُنادي
ولو نارًا نفختَ بها أضاءتْ ولكنْ أنتَ تنفخُ في الرمادِ

وكان إبراهيم عليه السَّلام قد قال لهم في حواره: ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾، ولم يستخدم كلمة أخرى، وفي ذلك قصد يتوخّاه لفعله؛ لأن الدعاء يكون برفع الصوت وخفضه، فيقال دعوته من بعيد، ودعوت الله سبحانه في نفسي، فهو يقول لهم: سواء عليكم أدعوتم آلهتكم بصوت مرتفع أو بصوت خفي أو دعوتموهم سرًّا لن يسمعوكم، في حين أن الإله الواحد الحق المستحق للعبادة يسمع العبد في كل الأحوال[٣].

(١) ملة أبيكم إبراهيم، عبد الستار كريم المرسومي، ص٣٢.
(٢) البيتان قالهما بشار بن برد، أو دريد بن الصمة، أو عمرو بن معديكرب، أو كثيّر عزة... فهناك خلاف في العزو إلى القائل.
(٣) ملة أبيكم إبراهيم، عبد الستار كريم المرسومي، ص٣٣.

ولعل قائلاً يقول: يمكن للمعنيّ أن يُجيب إذا طلبتَ منه بالإشارة، والجواب: فكيف إذا كنت في مكان لا يراك فيه، فإنَّ السمع هو الضامن للإجابة في الأحوال كافة، وإن كنت مستترًا عنه.

وللسمع أهمية ومكانة عالية بين الجوارح والسّياق القرآني يتعامل مع هذه الأولوية والأهمية، فيُقدِّمه في الخطاب دائمًا إلا في بعض الاستثناءات، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وكذلك، فإن الله سبحانه وتعالى عندما يصف نفسه، في غالب السّياق القرآني، يقدّم السمع، فيقول: ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ و﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ و﴿سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ و﴿سَمِيعًا عَلِيمًا﴾، وهكذا يُقدِّم السمع، وكان من دعاء رسول الله ﷺ: «**اللَّهمَّ عافِني في بَدَني، اللَّهمَّ عافِني في سَمعي، اللَّهمَّ عافِني في بَصَري، لا إله إلا أنتَ**»(١)، فالنبي ﷺ يُقدِّم السمع على البصر في دعائه.

وتجدر الإشارة في كلامنا عن آلهتهم المزعومة إلى أنّ خليل الله إبراهيم عليه السَّلام كان بارعًا في التركيز وحسن اختيار المفردات أثناء الحوار، لقد أُسقط في أيديهم، فآلهتهم لا تسمع، ولقد أصبحوا في حيرة من أمرهم، وقبل أن يُفكِّروا بإجابة مناسبة للردِّ على إبراهيم عليه السَّلام بادرهم هو بسؤال جديد، ووضعهم في دوامة أخرى، وذلك بسؤاله لهم(٢).

٢ ـ ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾:

وهم يعلمون أن آلهتهم لم تقدّم لهم يومًا شيئًا ينتفعون به، والعاجز عن تقديم شيء لنفسه لا يستطيع أن يُقدِّمه للآخرين؟ مثلما أنّ آلهتهم ليس لها أن

(١) الأدب المفرد، البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، ١٣٧٥هـ، رقم (٧٠١).
(٢) ملة أبيكم إبراهيم، عبد الستار كريم المرسومي، ص٣٤.

تضرّ أحدًا. وقد وصف القرآن الكريم مثل هؤلاء بالضلال، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥].

ومرة أخرى يختار النبي إبراهيم عليه السَّلام كلماته بعناية وبتوفيق رباني، فقد قدّم ﴿يَنفَعُونَكُمْ﴾ على ﴿يَضُرُّونَ﴾، وهي فطرة إنسانية، كما هي سنة كونية إلهية، حيث إن الإنسان يحبُّ جلب النفع والاستمتاع به قبل كل شيء، هذا فيما يخصُّ الإنسان ومشاعره، ولكن في التشريع ومصالح الناس، فإن درءَ المفاسد واجتنابَها أوْلى وهي تُقدَّم، لذلك فإن القاعدة الفقهية تقول: درء المفاسد مُقدَّم على جلب المصالح؛ لأنَّ المفاسد إن سادت سدّت طرق الوصول إلى المنافع. قال **الإمام الشاطبي** رحمه الله: والشريعة مبنية على الاحتياط، والأخذ بالحزم، والتحرُّز مما عسى أن يكون طريقًا إلى مفسدة، بل هو أصل من أصولها[١].

وقد أشار إبراهيم عليه السَّلام إلى ﴿يَضُرُّونَ﴾، وليس «يضرونكم»، وفي ذلك إشارة لهم إلى أن هذه الآلهة لن تستطيع أن تضرَّ أحدًا من الخلق حتى الكافرين بها وأعدائها. فلمّا سمعوا ما يقول إبراهيم عليه السَّلام شعروا بالخيبة والهزيمة، فماذا تُراهم يُجيبون؟ إن أجابوا بنعم، فسيقول لهم اطلبوا منها الآن شيئًا ولننظرْ، وإن قالوا لا، هُزموا في الحوار، فهُم بين نارين، أو إنهم بين خيارين، أحلاهما مرّ[٢].

وقد قال عليه السَّلام لهم: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات: ٨٦]، وهو استفهام إنكاري، لقد سمّى آلهتهم إفكًا، والإفكُ في اللغة هو الكذب، فيذكرهم عليه السَّلام بأن القضية عندهم كذب قائم على كذب، وهذا هو حال

---

(١) ملة أبيكم إبراهيم، عبد الستار كريم المرسومي، ص٤٤.

(٢) المرجع نفسه، ص٤٤.

متّخذي الآلهة في كل زمان ومكان، فالآلهة المزعومة كذبة وخدعة، وإيهام للناس السذج من العامة البسطاء بأنها آلهة كذبة أخرى لأنّها حجارة صماء، ثم إن خليل الله إبراهيم عليه السَّلام ألقى عليهم حجّة كبيرة بأن ذكّرهم بالله رب العالمين، حيث قال لهم كما جاء في سورة الصافات: ﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾.

وجاء في تفسير **الإمام القرطبي** رحمه الله: أي ما ظنكم به إذا لقيتموه، وقد عبدتم غيره؟ فهو تحذير مثل قوله ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦]، وقيل: أي شيء أوهمتموه حتى أشركتم به غيره[١].

فهو عليه السَّلام يُذكِّرهم بأنهم واهمون وبعيدون عن الصواب، وهم يعبدون غير الله رب العالمين، فكل الدلائل والمنطق والتجارب تشير إلى وجود إله واحد للكون هو الله سبحانه وتعالى، وفي هذه الآية دلالة على أن الانصراف عن عبادة ربِّ العالمين سبحانه وتعالى إلى عبادة غيره من خلقه هو من سوء الظن بالله سبحانه وتعالى، بينما ينبغي أن تدفع الإنسانَ فطرتُه لِيظنَّ بربه سبحانه ظنًّا طيبًا حسنًا، والعبد ملزم بذلك أمام ربه سبحانه وتعالى، يقول رسول الله ﷺ في الحديث القدسي: «**يقول الله تعالى: أنا عندَ ظَنِّ عَبدِي بي**»[٢].

وذلك كان دأب الصالحين أنهم يُحسنون الظنَّ بالله سبحانه وتعالى تقديسًا وإيمانًا به، وتأمينًا وضمانًا لأنفسهم ولمستقبلهم في الدنيا والآخرة، وذلك أصل وأساس في مِلَّة إبراهيم عليه السَّلام: فعلى قدر حسن ظنّك بربّك ورجائك له، يكون توكُّلك عليه، فهو حسبنا ونعم الوكيل، ولذلك فسّر بعضهم التوكُّل بحسن الظنّ بالله سبحانه وتعالى[٣].

---

(١) تفسير القرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، القرطبي، (١٥/ ٩٢).
(٢) صحيح البخاري، رقم (٧٤٠٥).
(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية، (٢/ ١٢١).

ويُوجِّه رسول الله ﷺ المؤمنين قبل موته بثلاثة أيام ـ فهي وصية مُودِّع ـ أن يكون حسنُ ظنِّهم بالله ربهم سبحانه وتعالى اعتقادًا جازمًا ويقينًا لا شكّ فيه، لا مجرّد خاطرة عابرة فهو يقول: «**لا يَموتَنَّ أحَدُكُم إلا وهو يُحسِنُ الظَّنَّ بالله عزَّ وجلَّ**»[(١)].

قال **القاضي عياض** رحمه الله: وقوله «**أنا عند ظنّ عبدي بي**»، قيل: معناه بالغفران له إذا استغفرني، والقبول إذا أناب إليّ، والإجابة إذا دعاني، والكفاية إذا استكفاني؛ لأن هذه الصفات لا تظهر من العبد إلا إذا أحسن ظنه بالله وقوي يقينه، قال: يحتمل أن يكون تحذيرًا مما يجري في نفس العبد، مثل قوله سبحانه ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ وقوله تعالى ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾، وقال **الخطابي في** قوله ﷺ «**لا يموتنّ أحدكم إلا وهو حسن الظنّ بالله**»: يعني في حسن عمله، فمن حَسُن عمله حسُن ظنّه، ومن ساء عمله ساء ظنّه، وقد يكون من الرجاء وتأميل العفو[(٢)].

ولكن قوم إبراهيم عليه السَّلام، وكأيِّ مجادل، لا بُدّ لهم أن يُجيبوا، أو يُعلنوا هزيمتهم، ويبدو أنهم توصلوا لجواب يعتقدون أنه لا يُناسب، فقالوا لإبراهيم عليه السَّلام: ﴿بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[(٣)].

٣ ـ ﴿قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾:

قال الآلوسي: أضربوا عن أن يكون لهم سمع أو نفع أو ضرّ اعترافًا بما لا سبيل لهم إلى إنكاره، واضطروا إلى إظهار أن لا سند لهم سوى التقليد،

---

(١) صحيح مسلم، رقم (٨١).

(٢) شرح صحيح مسلم (إكمال المعلم بفوائد مسلم)، القاضي عياض، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م، (٨/ ١٧٢).

(٣) ملة أبيكم إبراهيم، عبد الستار كريم المرسومي، ص٣٦.

فكأنهم قالوا: لا يسمعوننا ولا ينفعوننا ولا يضرّوننا، وإنما وجدنا آباءنا يفعلون مثل فعلنا، ويعبدونهم مثل عبادتنا، فاقتدينا بهم(١).

وقال الرازي: وهذا من أقوى الدلائل على فساد التقليد ووجوب التمسُّك بالاستدلال، إذ لو قبلنا الأمر فمدحنا التقليد، وذَممنا الاستدلال؛ لكان ذلك مدحًا لطريقة الكفار التي ذمَّها الله تعالى، وذَمًّا لطريقة إبراهيم التي مدحها الله تعالى، فأجابهم إبراهيم عليه السَّلام بقوله ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ﴾ [الشعراء: ٧٥ ـ ٧٦]، لقد أراد به أن الباطل لا يتغيَّر بأن يكون قديمًا أو حديثًا، ولا بأن يكون في فاعليه كثرة أو قلة(٢).

وبين طيّات هذا الجواب ﴿بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ تكمن الهزيمة النكراء، فإنّ وجود «بل» في الجواب يعني أنهم ضمنًا قالوا: «لا» قبلها، فقد تقدم سؤال أضربوا عنه ونفوا ما تضمنه؛ لأن إبراهيم عليه السَّلام قال: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝٧٢ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٧٢ ـ ٧٣]، فقالوا مضربين عن هذه الأشياء التي وُبِّخوا عليها لعبادتهم ما لا يسمع ولا ينفع ولا يضرّ، وما يعلمون أنه جماد لا حياة فيه ولا نفع ولا ضرر عنده، وكأنهم قالوا: لا، بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون، ولأن السؤال هنا يقتضي في جوابهم أن يَنفُوا ما نفاه إبراهيم عليه السَّلام أضربوا عنه إضراب من ينفي الأول، ويُثبت الثاني، فاختصاص المكان بـ «بل» لهذا(٣).

وهذا يعني أنهم اعترفوا أن آلهتهم لا تسمع ولا تنفع ولا تضرّ، ثم يُبدون حقيقة أمر معتقدهم، في أنهم يتَّبعون آباءهم اتِّباعًا أعمى من غير تفكير

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الآلوسي، (١٩/ ٩٤).
(٢) التفسير الكبير مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، (٢٤/ ١٤٣).
(٣) درة التنزيل وغرة التأويل، الخطيب الإسكافي، جامعة أم القرى، السعودية، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م، (١/ ٩٠٤).

ولا تدبّر ولا فهم ولا فقه ولا وعي، وكان ذلك واضحًا بإجابتهم الأخيرة التي عبّرت عن موقفهم المتكرر، وذلك حين قالوا: ﴿بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

وكم من هالك في الدنيا والآخرة لم يكن منه إلا اتِّباع الآباء والأجداد من غير تفكير ولا تدبّر ولا وعي ولا فقه، وهذه هي العصبية بعينها التي ترفضها مِلَّة إبراهيم عليه السَّلام، وقد حذر رسول الله ﷺ من طاعة المخلوق في معصية الخالق عندما قال: «**لا طاعةَ لمخلوقٍ في مَعصيةِ الخالِقِ**»[1].

إنَّ طاعة الآباء وأُولي الأمر واجبة على المسلم، ولكنّها مقيّدة بهذا الشرط الذي جاء في هذا الحديث، كما أن القرآن الكريم بيّن لنا أن أقوامًا قد خسروا الآخرة؛ لأنهم أصرّوا على اتِّباع آبائهم الذين لا يفقهون ولا يعلمون ولا يهتدون، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

وعند هذا المفترق جاء دور إبراهيم عليه السَّلام وهم ينتظرون منه مزيدًا من النقاش والمراء والجدال، ولكنه يُفاجئهم بالموقف الحازم في كل مرة، على حين أنهم قد حزموا أمرهم، وأصرُّوا على أنهم مستمرون باتِّباع آبائهم، ونبيُّ الله إبراهيم عليه السَّلام من باب أولى كان موقفه ثابتًا وقويًّا؛ لأنه صاحب الحق، والحق أحقُّ أن يُتَّبع، ولصاحب الحق مقال[2].

* * *

---

(١) المعجم الكبير، الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢، (د.ت)، رقم (٣٨١).
(٢) ملة أبيكم إبراهيم، عبد الستار كريم المرسومي، ص٣٨.

ثالثًا: قوله تعالى ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥ ـ ٧٧]:

وتمثل جواب إبراهيم عليه السَّلام بجملة من الكلمات في غاية الجمال والروعة والإتقان، وهي مستقاة تمامًا من «لا إله إلا الله»، ومبدأ النفي والإثبات هو ما عُرِف به السّياق القرآني، وكلام الأنبياء عليهم السلام.

فقد أعلن الخليل إبراهيم عليه السَّلام العداء والحرب على ما كانوا يعبدون هم وآباؤهم، واستخدم كلمة «الأقدمون»، حتى لا تنصرف أذهانهم لآبائهم الأدنين، بل شملت «الأقدمون» أي جذور القضية إلى أين ما امتدَّت في القدم في التاريخ. فحين قال إبراهيم عليه السَّلام: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ﴾ فهذا شاهد النفي، حيث نفى عليه السَّلام ألوهيّةَ غير الله تمامًا، ثم تقرَّرت ألوهية الله سبحانه وتعالى باستخدام أداة الاستثناء «إلا» التي تفيد الحصر، أي فقط هو ربّ العالمين الذي أعبده ولا يستحقُّ أحد أن يُعبد سواه. وفي موضع آخر قال لهم الخليل إبراهيم عليه السَّلام: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنبياء: ٥٤] (١).

واختار إبراهيم عليه السَّلام أن يُبلِّغهم أنهم ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ لأنّها أجزل في العبارة، وأكثر تعبيرًا عن واقعهم المرّ وحالهم المزري، فالضلال هو ضد الهداية، والضلال هو الضياع، وكذلك الحيرة والعدول عن الصواب، كما يأتي بمعنى الانفلات، وهكذا كان إبراهيم الخليل عليه السَّلام يريد أن يقول لهم لستم بمهتدين وإنكم لضائعون، بعيدون عن الحق والصواب، ويتلبَّسكم الخطأ وحائرون ومنفلتون جامحون لا تضبطكم الضوابط الدينية، ولا الأخلاقية، ولا حتى العرفية(٢).

---

(١) ملة أبيكم إبراهيم، عبد الستار كريم المرسومي، ص٣٨.

(٢) المرجع نفسه، ص٣٨.

وعندما أثبت لهم إبراهيم الخليل عليه السَّلام أن الألوهية لله سبحانه وتعالى الذي هو ربّ العالمين، بادروه بسؤال غريب لم يكن له معنى في سياق الحوار، وما هو إلا المراء وإضاعة الوقت، وهذا هو حال أهل الباطل عندما يتصارعون مع أهل الحق من أتباع مِلَّة إبراهيم عليه السَّلام فإنهم قالوا: ﴿أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٥].

ثم باشر عليه السَّلام بالتعريف بربِّ العالمين من غير التعرُّض للإجابة على سؤالهم الأخير، فأصحاب الرسائل السامية والمبادئ الأصيلة والقيم الكبيرة لا يلتفتون إلى الترّهات، فعن أي لعب يتكلمون؟ إنه يتكلَّم عن التوحيد الذي هو أصل الأصول، والذي من أجله خلق الله سبحانه الإنسان وغير الإنسان، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال إبراهيم عليه السَّلام: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٦]، فهذه شهادة إبراهيم لله في الكون بأن الله عزّ وجل خالق السماوات والأرض وما بينهما، وخالق الإنسان، فخلق السماوات والأرض، وكذلك الإنسان، لا يمكن أن يدَّعيه صنم من الأصنام الحجرية، ولا ملك طاغٍ متجبّر[١].

لقد تحدَّى إبراهيم عليه السَّلام في هذه الآيات الكريمة الأصنام وعُبّادها، وتحدَّى عقيدتهم الفاسدة، ولم يخشَ في الله لومة لائم، لعل هذا التحدي يُوقظ عقولهم المتبلّدة التي أفسدها التعصُّب والتقليد الأعمى للآخرين، ونوع الاستثناء هنا منقطع على رأي الجمهور، ويصبح المعنى ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ﴾، لكن رب العالمين ليس كذلك، بل هو وليّي في الدنيا والآخرة[٢].

---

(١) درب إبراهيم عليه السلام، سعيد الشبلي، ص١٣٠.
(٢) قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، ص٤٥.

وأجاز البعض أن يكون الاستثناء متصلاً على اعتبار أن آباءهم الأقدمين، قبل أن تفسد عقيدتهم وتنحرف، كانوا يعبدون الله ويعبدون معه الأصنام، فأعلمهم إبراهيم أنه تبرّأ مما يعبدون إلا الله، وعلى كلا النوعين يتبرّأ إبراهيم من الأصنام، ويُعلن ولاءه التام لله ربّ العالمين[١]، الذي ربوبيته للعالم تتضمَّن تصرُّفَه فيه، وتدبيره له، ونفاذ أمره كل وقت فيه، وكونه معه كلّ ساعة في شأن، يخلق ويرزق، ويُميت ويُحيي، ويخفض ويرفع، ويُعطي ويَمنع، ويُعزُّ ويُذِلُّ، ويُصرِّف الأمور بمشيئته وإرادته، وإنكار ذلك إنكار لربوبيته وإلهيّته وملكه[٢].

فالله «ربّ العالمين» قيّوم قام بنفسه، وقام بإرادته كلُّ شيء؛ فهو قائم على كلِّ نفسٍ بخيرها وشرّها، قد استوى على عرشه، وتفرّد بتدبير ملكه، فالتدبير كلّه بيديه، ومصير الأمور كلّها إليه، فمراسم التدبير نازلة من عنده على أيدي ملائكته بالعطاء والمنع، والخفض والرفع، والإحياء والإماتة، والتوبة والعزل، والقبض والبسط، وكشف الكروب وإغاثة الملهوفين وإجابة المضطرين ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

فالله سبحانه وتعالى لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولا مُعقِّب لحكمه، ولا رادّ لأمره، ولا مُبدِّل لكلماته، تعرج الملائكة والرّوح إليه، وتُعرَض الأعمال ـ أول النهار وآخره ـ عليه، فيُقدّر المقادير ويُوقّت المواقيت، ثم يسوق المقادير إلى مواقيتها، قائمًا بتدبير ذلك كلّه وحفظه ومصالحه[٣].

---

(١) قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، ص٤٥.

(٢) الصواعق المرسلة في الردِّ على الجهمية والمعطلة، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة للطباعة، الرياض، السعودية، ط١، ١٤٠٨هـ، (٤/ ١٢٢٣).

(٣) الصلاة وحكم تاركها، ابن قيم الجوزية، تحقيق: عدنان بن صفاخان البخاري، مجمع الفقه الإسلامي، جدة، السعودية، ط١، (د.ت)، ص١٦٩ ـ ١٧٠.

وهكذا لم يمنع إبراهيم عليه السَّلام ارتباطه بقومه وانتماؤه إليهم، أن يفارقهم بعقيدته، وأن يجاهر بعدائه لآلهتهم وعقيدتهم، وكذلك يُعلِّم القرآنُ المؤمنين أن لا مجاملة في العقيدة لوالد ولا لقوم، وأن الرابطة الأولى هي رابطة العقيدة، وأن القيمة الأولى هي قيمة الإيمان، وأن ما عداه تبع له يكون حيث يكون. واستثنى إبراهيم عليه السَّلام «ربّ العالمين» من عدائه لما يعبدون هم وآباؤهم الأقدمون: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فقد يكون من آبائهم الأقدمين من عبدَ الله قبل أن تفسد عقيدة القوم وتنحرف، وقد يكون مِن عُبّاد الله، ولكن أشرك معه آلهة أخرى مُدَّعاة، فهو الاحتياط إذن في القول، والدقة الواعية في التعبير، الجديران بإبراهيم ـ عليه السلام ـ في مجال التحدث عن العقيدة وموضوعها الدقيق.

ثم يأخذ إبراهيم ـ عليه السلام ـ في صفة ربه «رب العالمين»، وصلته به في كل حال وفي كل حين، فنُحِسُّ القربى الوثيقة، والصلة النديّة، والشعور بيد الله في كل حركة وسكون، وفي كل أمر وغاية[1].

* * *

رابعًا: قوله تعالى ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٨ ـ ٨٢]:

لما أظهر الخليل عليه السَّلام ولايةَ ربِّ العالمين له، أخذ في الثناء على الله عزّ وجل ببعض ما أفاض عليه من نعم تستوجب توجيه العبادة له «سبحانه»، وتُبيِّن لقومه قدرة ربّه المطلقة على فعل ما يريد، في مقابل عجز آلهتهم عن فعل شيء من نفع أو ضرّ، فذكر صفات جليلة تتضمَّن نعمًا عظيمة أفاضها الله

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٢٦٠٢).

عزّ وجل عليه وعلى جميع خلقه. ونستشعر من وصف إبراهيم لربه، واسترساله في تصوير صلته به، أنه يعيش بكيانه كله مع ربه، وأنه يتطلع إليه في ثقة، ويتوجَّه إليه في حبٍّ، وأنه يصفه كأنه يراه، ويُحسُّ وقع إنعامه وإفضاله عليه بقلبه ومشاعره وجوارحه، والنغمة الرخية في حكاية قوله في القرآن تساعد على إشاعة هذا الجوّ وإلقاء هذا الظل، بالإيقاع العذب الرخي اللين المديد(١).

وقد جمعت الآيات ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٨ ـ ٨٢] على قصرها مراحل الحياة جميعها، بدءًا من الخلق والحياة والهداية بأمر الله، وما يتخلَّل ذلك من طعام وشراب وصحة ومرض، وانتهاء بالموت ثم البعث والأمل في غفران الخطايا(٢).

١ ـ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾:

الله وحده سبحانه وتعالى متفرِّد بالخلق وبالهداية، وبالرزق وبالشفاء، وبالإحياء وبالإماتة، وبالمغفرة يوم القيامة، فهل هناك أشياء أخطر من هذه الأشياء في حياتك؟ وهل هناك أخطر من أن تُخلق، وأن تُهدى، وأن تُرزق، وأن تُشفى، وأن يحيا الإنسان وأن يموت، وأن تُغفر له ذنوبه؟ إذا أيقنت أن الله عزّ وجل متفرد بهذه الأفعال الخطيرة في حياتك كان من باب أولى أن تُفرِدَه بالطاعة والعبادة والحبّ والإخلاص(٣).

وإنك حين تقول مثلاً: فلان أحضر طعامًا، وهذا كلام لا ينفي أن يكون

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٢٦٠٣).
(٢) نظرات عصرية في القرآن الكريم، محمد لطفي جمعة، عالم الكتب للطباعة، القاهرة، ط١، ١٩٩١م، ص٣٢٣.
(٣) تفسير النابلسي «تدبر آيات الله في النفس والكون والحياة»، (٨/ ٣٦٦).

غيره أحضر طعامًا، ولكن إذا قلتَ: الذي أحضر الطعام هو فلان، فهذه صيغة قصر، وسيدنا إبراهيم عليه السَّلام ما قال: الذي هو خلقني؛ لأنه لا أحد يدّعي أنه خلق الإنسان، ولكن عتاة الأرض وطغاتها يدّعون أنهم يدلّون الناس إلى الطريق الصحيح، كفرعون حينما قال: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، فالخلق لم يدّعِهِ أحد؛ لأنه شيء مقطوع به، فلم يؤكده بـ «هو»، لكن الشيء المتنازع عليه والذي يمكن أن يدّعيه شخص ما؛ أكده بـ «هو»، فقوله ﴿فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾ معناه: الذي خلقني هو وحده يهديني، وهذه العبارة فيها قصر وحصر، وتأكيد أن الهدى من الله وحده، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ﴾ [الأنعام: ٧١] أي: إن الهداية لا تكون إلا من الله.

وكل إنسان عنده مقياس، وعنده منهج، وعنده دستور، وإن الله هو الصانع الخبير، الخالق العظيم، فهذا الكون خَلْقُه، وهذا القرآن كلامه، وكلامه مطابق لخَلْقِه، وأنت مثل آلة معقدة، ليس في الأرض كلها جهة واحدة مؤهلة لأن تعطيك تعليمات التشغيل والصيانة إلا الجهة الصانعة، فهذه التعليمات لهذه الآلة أصدرها صانعها؛ لضمان سلامتها وأدائها على أحسن وجه، فإما تكون مهتديًا من قبل الخالق وإلا فأنت في ضلال مبين قولاً واحدًا، وإما أن تهتدي بالهدى الذي أنزله الله على أنبيائه، وإلا فأنت ضال.

ولو قرأت مذهبًا وضعيًّا، أو قرأت كتابًا لفيلسوف كبير، أو اطّلعت على نظرية من صنع البشر، لرأيت أن هذا كله ضلال؛ لأنّ الذي خلقك هو وحده الذي يهديك، فالفكر الذي يُنكر وجودَ الخالق ضلال، وقولهم: الإنسان أصله قرد؛ هذا ضلال، وقولهم المادة هي كل شيء في حياة الإنسان؛ هذا ضلال، وقولهم: الجنس هو كل شيء في حياة الإنسان؛ هذا ضلال، وقولهم: اللذة هي كل شيء في حياة الإنسان الشاذ؛ هذا ضلال.

وثمة كتاب في علم النفس يقول: إنَّ الشاب حين يكون في حياته الاجتماعية مع شابة، تتهذب مشاعره، وترقُّ عواطفه، ويَحسن كلامه، طبعًا علاقة محرمة لا علاقة لها بالزواج ولا بعقد النكاح الصحيح، وإنما تفريغ للشهوات بالباطل لا بالحق، وبالحرام لا بالحلال، هذا كله ضلال؛ لأنه خلاف تعاليم القرآن الكريم. فإن جاء كتاب ما بالدليل من القرآن فهو حق، وأما إن جاء كتاب ببحث علمي يدّعي أن قليلاً من الخمر ينعش القلب، فهذا كلام فارغ؛ لأنّه خلاف القرآن الكريم، وقولهم: النبيذ يبعث في الجسم الحرارة، فهو ضروري في الشتاء، هذا كلام فارغ؛ لأنه خلاف القرآن، فما أسكر كثيره فملء الكف منه حرام(١).

إنَّ الخالق هو الهادي سبحانه وتعالى، والهداية وأنواعها ووسائلها في كتابه العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذه الكلمة ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى﴾، هي الإجابة الشافية الوافية على السؤال التقليدي الذي يتردَّد على ألسنة الناس: مَن خلقني؟ قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، ثم عرّج إبراهيم عليه السَّلام ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ لقد اتبع إبراهيم الهداية بعد الخلق، ولم تبدأ بالإطعام والسقاية؛ لأن المخلوق يحتاج إلى الهداية أكثر من حاجته إلى الطعام والشراب، فهو من غير هداية إيمانية تُصلِح له علاقتَه مع ربّه كسراب أو هراء، والمخلوق بفطرته يحتاج إلى هداية لتستقيم أموره، والمقصود هنا الهداية الإيمانية العامة أولاً، وهي هداية الفطرة التي تخبرك بوجود إله يستحقّ أن يُعبد(٢).

إنَّ هداية التوفيق الرباني في مِلَّة إبراهيم الخليل عليه السَّلام منحة ربانية يمنحها رب العباد لمن يشاء من عباده، ولا دخل لمخلوق في ذلك الاختيار،

---

(١) تفسير النابلسي «تدبر آيات الله في النفس والكون والحياة»، (٨/ ٣٦٨).
(٢) ملة أبيكم إبراهيم، عبد الستار كريم المرسومي، ص٤١.

إنما هو اختيار الخالق، قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص: ٥٦]، فالسّياق القرآني واضح الدلالة في هذه الآية، فالله يخاطب أحبَّ الخلق إليه وخير خلقه محمد ﷺ ليقول له: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾، فهداية الناس لا تتعلَّق بحبّنا أو قُربنا منهم، إنما هي إرادة الله تعالى، وهذا اعتقاد لازم لكل متَّبعٍ مِلَّةَ إبراهيم عليه السَّلام(١).

ومن أنواع الهداية: هداية العيش، فالله يهدي المخلوقات إلى طرق المعيشة المختلفة، من البقاء؛ فالله يهديهم إلى أساليب الأكل والشرب، والصيد، والتكاثر، والحفاظ على النوع، والدفاع عن النفس، وكل شيء من هذا القبيل، قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٠]، وقد جاءت الهداية بلفظ المضارع ﴿يَهْدِينِ﴾؛ لأن الهداية تتكرّر وتتجدد كل حين وأوان، ومنها هداية الله للعبد إلى مصالح الدين والدنيا بضروب الهدايات في كل لحظة ولمحة، وإطلاق الهداية عن القيد؛ لإفادة العموم والشمول لكل ضروب الهدايات أنه «سبحانه» يهدي كلَّ ما خلقه لِما خُلق له هدايةً مستمرّةً متدرِّجة من مبتدأ إيجاده إلى منتهى أجله(٢).

وفي قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ ربط بين انفراد الله سبحانه بالخلق وانفراده سبحانه بالهداية، وهو عين العقل والحكمة، فالخالق المتحكم في سرّ الخلق، العليم بما وضع في مخلوقاته، أَولى من سواه أن يُحدِّد السبيل لهذا المخلوق، وأن يهديه سواء السبيل، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى: ٢ ـ ٣].

---

(١) ملة أبيكم إبراهيم، عبد الستار كريم المرسومي، ص٤٢.

(٢) الحوار في قصة الخليل عليه السلام في القرآن دروس وعبر، محمود سعد عبد الحميد شمس، ص٣٦٤.

وقد بيّن سبحانه وتعالى مصدر الهدى، فقال: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨ ـ ٣٩]، فنبّه سبحانه وتعالى إلى أنه هو مصدر الهدى تمامًا مثلما أنه مصدر الخلق، وأكد على أنّ مَن يتَّبع هداه فلا خوف عليه ولا حزن يأتيه، ومن لا يتّبعه فمآله النار وبئس المصير[١].

إن قانون الخلق والهداية وضعه الله الخالق الهادي سبحانه وتعالى، ولولا هداية الله تعالى القائمة في سرِّ تكوين الكائن في أصل غريزة الحياة لما اهتدى شيء إلى كماله الذي نرى، وما أعطت شجرة ثمرتها، فجاء الكون بكل ما فيه آيات بينات على قدرة الخالق الهادي سبحانه وتعالى، الذي ما هدى الخلق إلا لما يُحبُّ لهم، وإلى ما يبلغون به الكمال ويجعلون من وجودهم وجودًا نافعًا مفيدًا في حياتهم سعادة ونعيمًا، ذلك شأنه سبحانه مع الطير، وشأنه مع الفلك السابح في الفضاء، والحوت السابح في أعماق المحيطات، مع الذرة المتماسكة بإذنه وهديه، فجاء خلقه كاملاً تبعًا لهداه سبحانه.

ومهما نظر الإنسان في الكون وفي نظامه، وفي مخلوقات الله عزّ وجل بأنواعها وأشكالها وصنوفها، فلن يجد سوى هدى الله ظاهرًا، وأعلامه سبحانه منتشرة تَهدي كلَّ مخلوق إلى ما ينفعه، فتلك آية الكون العظمى تتضامن على تأكيد أن الخلق الذي نرى مَهدِيٌّ بالضرورة، وأن هاديه سبحانه أحكمَ الهدى بطريقة لا تُوصَف إلا بكونها معجزة، ومع ذلك ومع كل ما نرى من هديٍ إلهي قائم ومبثوث في ظاهر الكون وفي أطوائه الخفية، فإن من البشر من يقف إلى اليوم ليتحدث عن المصادفة في وجود العالم، والمصادفة في ظهور الحياة، والمصادفة في التطور، والمصادفة في تصنيع الحياة لكائن عاقل واعٍ، وهكذا

(١) درب إبراهيم عليه السلام، سعيد الشبلي، ص١٣٣.

يستمر مثل هذا العمى في إنشاء الأباطيل وقول الزور الذي يخجل من قوله حيوان لو نطق، ناهيك عن عاقل يدّعي أنه من العلماء.

إن الفصل بين الخلق والهداية لم يحدث إلا للإنسان والشيطان، أما الشيطان فقد عصى ثم سار في طريق الشر وأصبح زعيمه، فأنظرَهُ الله تعالى على علم ولحكمة إلى يوم يبعثون. وأما الإنسان فقد غوى وما زال كذلك، إلا من اتبع هدى الله تعالى، وانتبه قبل فوات الأوان[١].

لقد علم إبراهيم عليه السَّلام أن الإنسان من دون هدى، كالبويضة من دون لقاح لا تلبث أن تموت وتندثر، وأنه لا تمام لحركة الخلق إلا بحركة الهداية التي هي دفع للخلق نحو نهاياته وأهدافه المطلوبة.

وعلم أنه لا هادي إلا الخالق سبحانه وتعالى، فمن وضع برنامج الخلق أولى بأن يضع برنامج الهداية، فلخَّص كل هذا في قوله ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾، فأثبت بذلك أهمَّ نعمتين أنعم الله تعالى بهما على الإنسان: نعمة الخلق، ونعمة الهداية، وهاتان النعمتان متعاضدتان لا معنى لإحداهما دون الأخرى، بل إنّ إحداهما وهي نعمة الخلق تصبح نقمة وعذابًا إن لم تقترن بنعمة الهداية، وهو الأمر الذي يعيشه الكافرون والمشركون والمنافقون، هؤلاء الذين أنكروا حقّ الله تعالى في هدايتهم فأضلتهم الشياطين، وعبدوا أهواءهم، وأدخلتهم بالنتيجة إلى معبد الأصنام؛ ليمارسوا هناك أكبر حركة كفر شهدها الوجود[٢].

فالله ربّ العالمين هو الخالق الهادي، هذا تعريف أول يعرف به إبراهيم عليه السَّلام إلهه العظيم مبينًا بذلك أنه ربّ البدايات بتحكُّمه في سرِّ الخلق، وربّ النهايات بتحكُّمه في نهج الهداية المحقِّق لأحسن الغايات، ومعلنًا لكل

---

(١) درب إبراهيم عليه السلام، سعيد الشبلي، ص١٣٥.
(٢) المرجع نفسه، ص١٣٥.

ذي عقل أن الواحد الأحد هو خالق حياة الإنسان، وربُّها هاديها[١].

اسم الله الخالق:

ورد اسمه سبحانه ﴿ٱلْخَٰلِقُ﴾ في القرآن الكريم بصيغة المفرد ثماني مرات، كما في قوله تعالى ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحشر: ٢٤]، وقوله عزّ وجل ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣]، وقوله سبحانه ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢] وغيرها من الآيات.

كما ورد اسمه سبحانه ﴿ٱلْخَٰلِقُ﴾ بصيغة التفضيل مرتين، في قوله تعالى ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وقوله عزّ وجل ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [الصافات: ١٢٥]، ومرة بصيغ الجمع، كما في قوله تعالى ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٩]. وأما اسمه سبحانه ﴿ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فوَرد ذكره مرتين في القرآن الكريم، وذلك في قوله سبحانه ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الحجر: ٨٦]، وقوله جلّ وعلا ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]. والخلّاق اسم مبالغة من الخالق، وهذان الاسمان الجليلان لا يجوز إطلاقهما بالألف واللام على غير الله تبارك وتعالى[٢].

والخالق: هو المبدع للخلق المخترع له على غير مثال سابق، قال سبحانه: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣]، والخلّاق: من أفعال المبالغة من الخالق تدلُّ على كثرة خلق الله تعالى وإيجاده، فكم يحصل في اللحظة الواحدة من بلايين المخلوقات التي هي أثر من آثار اسمه سبحانه الخلّاق ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الحجر: ٨٦]، واسمه سبحانه «الخالق والخلّاق» مما أقرّت به جميع الأمم مؤمنهم وكافرهم، وفي ذلك يقول **الإمام ابن القيم**: إنه ليس في المعلومات أظهر من كون الله «خالقًا»، ولهذا أقرّت به جميع الأمم

---

(١) درب إبراهيم عليه السلام، سعيد الشبلي، ص١٣٥.
(٢) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز ناصر الجليل، ص٤٣٢.

ـ مؤمنهم وكافرهم ـ ولظهور ذلك، وكون العلم به بدهيًّا فطريًّا، احتجّ الله به على من أشرك به في عبادته فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨] في غير موضع من كتابه(١).

اسم الله «الهادي»:

ورد اسمه سبحانه «الهادي» في القرآن الكريم مرتين؛ وذلك في قوله تعالى ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]، وقوله سبحانه ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤]. والهادي: هو من منَّ بهُداه على من أراد من عباده فخصّه وأكرمه بنور توحيده، كقوله تعالى ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥]، وهو الذي هدى سائر الخلق من الحيوان إلى مصالحها، وألهمها كيف تطلب الرزق، وكيف تتّقي المضارّ والمهالك، كقوله تعالى ﴿الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] (٢).

ويقول **الشيخ السعدي**: «الهادي» أي الذي يهدي ويرشد عباده إلى جميع المنافع وإلى دفع المضارّ، ويعلّمهم ما لا يعلمون، ويهديهم لهداية التوفيق والتسديد، ويلهمهم التقوى، ويجعل قلوبهم منيبة إليه منقادة لأمره(٣).

وقد بيّن **ابن قيم الجوزية** أنواع الهداية، فقال: اعلمْ أن أنواع الهداية أربعة:

النوع الأول:

الهداية العامة المشتركة بين الخلق المذكورة في قوله تعالى ﴿الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، أي أعطى كل شيء صورته التي لا يشتبه فيها بغيره، وأعطى كل عضو شكله وهيئته، وأعطى كل شيء موجود خَلْقَه المختصَّ به، ثم هداه إلى ما خلقه له من الأعمال.

---

(١) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز ناصر الجليل، ص٤٣٤.

(٢) المرجع نفسه، ص٥١٧.

(٣) المرجع نفسه، ص٥١٨.

وهذه هداية الحيوان المتحرك بإرادته إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضرّه، وهداية الجماد المسخَّر لما خُلق له، فله هداية تليق به، كما أن لكل نوع من الحيوان هداية تليقُ به، وإن اختلفت أنواعها وصورها، وكذلك كل عضو له هداية تليق به، فهدى الرجلين للمشي، واليدين للبطش والعمل، واللسان للكلام، والأذن للاستماع، والعين لكشف المرئيات، وكل عضو لما خُلق له، وهدى الزوجين من كل حيوان إلى الازدواج والتناسل وتربية الولد، وهدى الولد إلى التقام الثدي عند وضعه وطلبه، ومراتب هدايته سبحانه لا يُحصيها إلا هو، فتبارك الله ربّ العالمين.

وهدى النحل أن تتّخذ من الجبال بيوتًا، ومن الشجر ومن الأبنية، ثم تسلك سبل ربها مُذلَّلةً لها، لا تستعصي عليه، ثم تأوي إلى بيوتها، وهداها إلى طاعة يعسوبها واتِّباعه والائتمام به أين توجَّه بها، ثم هداها إلى بناء البيوت العجيبة الصّنعة، المُحكمة البناء، ومن تأمّل بعض هدايته المبثوثة في العالم شهد له بأنه الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم(١).

وانتقل من معرفة هذه الهداية إلى إثبات النبوَّة بأيسر نظر، وأول وهلة، وأحسن طريق وأخصرها وأبعدها من كل شبهة، فإن من لم يهمل هذه الحيوانات سُدى ولم يتركها معطَّلة، بل هداها هذه الهداية التي تعجز عقول العقلاء عنها، كيف يليق به أن يترك النوع الإنساني الذي هو خلاصة الوجود الذي كرّمه وفضّله على كثير من خلقه مُهمَلاً وسدًى معطَّلاً، لا يهديه إلى أقصى كمالاته وأفضل غاياته، بل يتركه معطلاً لا يأمره ولا ينهاه ولا يُثيبه ولا يعاقبه، وهل هذا إلا منافٍ لحكمته ونسبته إلى ما يليق بجلاله؟ قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [المؤمنون: ١١٥ ـ ١١٦]. فنزّه نفسه عن هذا الحسبان، فدلّ على أنه

---

(١) بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (د.ت)، (٢/ ٣٦).

مستقر بطلانه في الفطر السليمة والعقول المستقيمة، وهذا أحد ما يدلُّ على إثبات المعاد بالعقل، وأنه مما تظاهر عليه العقل والشرع، كما هو أصح الطريقين في ذلك[1].

النوع الثاني:

هداية البيان والدّلالة والتعريف لطريقي الخير والشر والنّجاة والهلاك، وهذه الهداية لا تستلزم الهدى التام، فإنها سبب وشرط لا موجب، ولهذا لا ينبغي الهدى معها، كقوله تعالى ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧] أي: بيّنا لهم وأرشدناهم ودللناهم فلم يهتدوا، ومنها قوله ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢][2].

النوع الثالث:

هداية التوفيق والإلهام، وهي الهداية المستلزمة للاهتداء، فلا يتخلّف عنها، وهي المذكورة في قوله ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [فاطر: ٨]، وفي قوله ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص: ٥٦] نفى عنه هذه الهداية، وأثبت له هداية الدعوة والبيان في قوله ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢].

النوع الرابع:

غاية هذه الهداية هي الهداية إلى الجنة والنار إذا سيق أهلهما إليهما، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩]، وقال أهل الجنة فيها: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقال تعالى عن أهل النار: ﴿ ۞ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ

(١) بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، (٢/ ٣٦).
(٢) المرجع نفسه، (٢/ ٣٧).

ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٢٢ ـ ٢٣] (١).

إنَّ الهداية أكبر نعمة يُنعم بها «الهادي» سبحانه على عبده، إذ كل نعمة دونها زائلة ومضمحلّة، وبقدر هدايته تكون سعادته في الدنيا، وطيب عيشِه وراحة باله، وكذا فوزه ودرجته في الآخرة.

والأنبياء صلوات الله عليهم هم أكمل الناس إيمانًا وهداية، كانوا يسألون الله تعالى أن يهديهم، فهذا يوسف عليه السَّلام يقول: ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١]، وسليمان عليه السَّلام قال: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النمل: ١٩].

وكان خاتم النبيين ﷺ يسأل ربّه تعالى الهداية في دعواته وصلاته، فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته: «**اللَّهمَّ ربَّ جبرائيلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ، فاطرَ السَّماواتِ والأرضِ، عالمَ الغَيبِ والشَّهادةِ، أنتَ تَحكُم بينَ عبادِكَ فيما كانوا فيه يَختلفون، اهدِني لما اختُلِفَ فيه من الحقِّ بإذنِكَ، أنت تَهدي مَن تَشاء إلى صراطٍ مُستقيمٍ**» (٢).

وكان يقول: «**اللَّهمَّ إني أسألُكَ الهُدَى والتُّقَى والعَفافَ والغِنَى**» (٣).

وأُمرَت هذه الأمة أن تسأل الله تعالى الهداية في كل ركعة من صلاتها، في قوله سبحانه ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦ ـ ٧]، وعلّم الرسول ﷺ الحسن بن

---

(١) بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، (٢/ ٣٧).
(٢) صحيح مسلم، رقم (٧٧٠).
(٣) المرجع نفسه، رقم (٢٧٢١).

علي ـ رضي الله عنهما ـ أن يقول: «**اللَّهمَّ اهدِني فيمَن هَدَيتَ، وعافِني فيمَن عافَيتَ**» [١].

وكان من دعائه عليه الصلاة والسلام: «**اللَّهمَّ لكَ أسلَمتُ، وبكَ آمنتُ، وعليكَ توكَّلتُ، وإليكَ أنبتُ، وبكَ خاصَمتُ، أعوذُ بِعزّتِكَ لا إله إلا أنت أن تُضِلَّني، أنت الحيُّ الذي لا يَموتُ والجِنُّ والإنسُ يَموتونَ**» [٢].

هذا هو دعاء الرسول ﷺ، وهو الهادي المعصوم من الضلال، فكيف بنا نحن الضعفاء المعرّضون لفتن الشبهات والشهوات؟! إن حاجتنا لطلب الهداية من مالكها سبحانه وتعالى أشدُّ من حاجتنا إلى الطعام والشراب[٣].

وفي قول إبراهيم عليه السَّلام ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾ أي: الذي أنشأني من حيث يعلم ولا أعلم، ﴿فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾ إليه وإلى طريقي الذي أسلكه، وإلى نهجي الذي أسير عليه، وكأنما يحسُّ إبراهيم عليه السَّلام أنه عجينة طيعة في يد الصانع المبدع، يصوغها كيف شاء على أي صورة أراد، إنه الاستسلام المطلق في طمأنينة وراحة وثقة ويقين[٤].

٢ ـ ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ﴾:

إنّها نعمة أخرى من مظاهر الربوبية العالية، وهو أنه يُطعم عباده، أي أنه سبحانه وتعالى هيأ أسباب الطعام وأسباب الشراب، فطعام الإنسان لحم شهي، أو سمك طري، أو خبز، أو ثمر جنيّ، وكل ذلك من الله، فهو الذي أنبت النبات، وأثمر الغراس، وتغَذَّت من النبات الأنعام، وهو سبحانه الذي خلق الأنهار والبحار التي تعيش فيها الأسماك، وهو الذي ينزل الأمطار،

---

(١) سنن أبي داود، رقم (١٤٢٥)، وصححه الألباني.
(٢) صحيح مسلم، رقم (٢٧١٧).
(٣) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز ناصر الجليل، ص٥٢٤.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٥٦٠٣).

فيشرب منها الإنسان والحيوان، وهكذا هو الذي يُطعم ويَسقي، بتضافر الأسباب سببًا بعد سبب[١].

وفي قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ بيّن إبراهيم عليه السَّلام أن الله عزّ وجل مصدر الطعام والشراب، وهو المنعم بهما على عباده، ورغم أن هذه الحقيقة أيضًا من المسلَّمات التي لا تُناقَش، إلا أن كثيرًا من الناس لا يرون الله تعالى مُنعِمًا، بل يُسندون صفة الإنعام إلى مخلوقات أخرى وكائنات أخرى لا صلة لها أصلاً بالنعمة، فعبدة الأصنام يَرونَ أصنامهم مصدر الخير، وعبدة الطاغوت يعدونهم أولياء نعمتهم وأصحاب الفضل عليهم. فكان إبراهيم الخليل عليه السَّلام نموذجًا فريدًا في قومه بشكره لله وحده، واعترافه بالنعمة لخالقه دون سواه[٢].

إنَّ قصة إبراهيم عليه السَّلام تُعلِّمُنا أن من أهم ثمرات الإيمان الحقيقي عدم الاعتراف بمنعم سوى الله تعالى، وعدم رؤية الخلق سوى أسباب يتبادلون ما رزقهم الله من منافع وطيبات، فالمؤمن لا يربط رزقه إلا بالله سبحانه، سواء أكان هذا الرزق رِزقَ الروح الذي قلنا إنه هدى الله لا سواه، أو رزق البدن وهو ما خلق الله تعالى من طيبات ومن خيرات[٣].

وفي كلام إبراهيم عليه السَّلام ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ إشارة إلى أن الإطعام والإسقاء هو من أعمال الربوبية، ولما كانت الآلهة التي اتَّخذها قومُه لا تُطعم ولا تَسقي فهي ليست جديرة بأن تُعبد، وهي إشارة كذلك إلى الخلق بألا تتحول العلاقات البشرية إلى عبادة من جراء الخوف على الرزق، وهذا ما يحصل كثيرًا في علاقة الناس مع الملوك أو الأمراء ومع أرباب العمل من

---

(١) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (١٠/ ٥٣٦٨).
(٢) درب إبراهيم عليه السلام، سعيد الشبلي، ص١٤١.
(٣) المرجع السابق، ص١٤١.

تملُّقٍ وخضوع وإذلالٍ وتفريطٍ بالكرامة؛ بحجّة لقمة العيش أو منحة مادية من هنا أو هناك[١].

يبيّن لنا إبراهيم عليه السَّلام بأنه لا قلق ولاخوف؛ لأن الله هو الذي يُطعم ويَسقي ويَرزق، قد قُضي أمر الرزق، فهنا الله الخالق سبحانه وتعالى، وهو الرازق والهادي لأسباب الرزق لمخلوقاته وعلى رأسهم الإنسان، فالله هو مَن يُطعم ويَسقي ويَكسو، وهو من يُدبِّر لكم الأمور كلَّها، فلا داعي لحمل الهموم وارتكاب الحرام من أجل ذلك.

ولكن مع هذه الحقيقة، يأمرنا الخالق بأن نأخذ بالأسباب من أجل اكتساب الرزق، وكان أنبياء الله عليهم السلام يعملون من أجل الكسب، وقد عمل كل الأنبياء بمهنة الرعي[٢]، وقد أثنى رسول الله ﷺ على النبي داود عليه السَّلام بأنه كان يأكل من عمل يده، وشجَّع رسول الله ﷺ أصحاب مِلَّة إبراهيم من أتباعه وأصحابه على العمل باليد من أجل الكسب، فقد سُئل رسول الله ﷺ: أي الكسب أطيب؟ قال ﷺ: «**عملُ الرَّجلِ بِيدِه، وكلُّ بَيعٍ مَبرورٍ**»[٣].

وكان نوح عليه السَّلام نجّارًا، وداود كان حدادًا، ووردت الأخبار في أن إدريس عليه السَّلام كان يعمل بالخياطة والحياكة، وكان النبي محمد ﷺ قد عمل في التجارة كما هو معلوم[٤].

٣ ـ ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾:

ذَكر المرض والشِّفاء بعد الطعام والسقيا للإشارة إلى أن بعض الأمراض

---

(١) ملة أبيكم إبراهيم، عبد الستار كريم المرسومي، ص٤٥.
(٢) المرجع نفسه، ص٤٤.
(٣) المعجم الأوسط، الطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين للطباعة، القاهرة، ١٤١٥هـ، رقم (٧٩١٨).
(٤) ملة أبيكم إبراهيم، عبد الستار كريم المرسومي، ص٤٤.

سببها الإفراط في الطعام، كما ورد في بعض الآثار: المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء، ومهما يكن من الطب والعلاج، فالشفاء دائمًا من الله واهب القوى، والقادر على كل شيء، وكثيرًا ما يقول الطبيب وقد عجز: إنّ الشفاء بمعجزة، ويُفوِّض الأمر إلى الله تعالى القادر على كلِّ شيء[١].

ونرى في الآية أن إبراهيم عليه السَّلام نسب المرض لنفسه تأدُّبًا مع الله سبحانه وتعالى، علمًا أن الله تعالى هو الذي يُمرض ويَشفي، ولما كان المرض ضررًا عدلَ عن نسبته إلى الله أدبًا، وإن كانت نسبة الكل إليه سبحانه معلومة[٢].

لقد أنعم الله على إبراهيم عليه السَّلام بعقل راشد يعرف النعمة لصاحبها، ويتفطَّن إلى مواضع النعم ظاهرها وخفيّها، فانظر إلى قوله ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ كيف لخَّص في كلمتين وضع الإنسان وحاله مع الله تعالى؛ فوضع الإنسان هو الفقر والحاجة، ومن الله هو العطاء والإمداد والإغاثة، هذا هو الوعي السليم بحقائق الأمور، كما تجري في الواقع الموضوعي، لا كما تجري في أذهان وأخيلة أولئك المرضى من البشر الذين يدَّعون القدرة والإرادة ويتحدَّثون عن الإنسان القاهر للطبيعة والصانع للمعجزات، فإذا أصابهم أدنى ألم رأيت وجوهَهم مُسودّةً وقلوبهم الصخرية فارغة ليس فيها سوى الهواء بعد أن ضيّعوها في الكبر والاستعلاء، وتركوا دعوة الله تعالى واستجداء رحمته، وهؤلاء من أسباب ما ينزل على الناس من بلاء؛ فالله عزّ وجل لا يعالج هؤلاء إلا بالبلوى تلو البلوى، والمصيبة تلو المصيبة حجّة منه عليهم؛ لعلهم يرجعون قبل أن يأخذهم الفزع الأكبر[٣].

إنَّ معظم الأمراض التي يعاني منها الناس اليوم إنما يعود سببها إلى خلل

---

(١) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (١٠/ ٥٣٦٨).
(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، (٥/ ٣٦٩).
(٣) درب إبراهيم عليه السلام، سعيد الشبلي، ص١٤٥.

في تطبيق منهج الله عزّ وجل، فيذهب الإنسان إلى الطبيب، فيصف له الدواء فيشفى، فيتوهَّم أن هذا الطبيب هو الذي شفاه؛ لأنه عالجه، وينسى أن الله عزّ وجل هو الذي شفاه، فيتوجَّه بالشكر بكل طاقته إلى الطبيب مع أن خطأً صغيرًا من الطبيب قد يُودي بحياة المريض، نعم؛ اشكر الطبيب إذا خدمك، لكن لا تنسَ فضل الله عزّ وجل(١).

إن قوله تعالى ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ من أبلغ العبر، ولعلَّ بعض الأطباء يمرضون باختصاصهم، فإذا توهَّموا أنهم متمكّنون في اختصاصهم؛ لأنهم يأخذون بالأسباب أخذًا مبالغًا به، فإنهم يُؤدَّبون بأن يُصابوا بأمراض هي من اختصاصهم، ويُنسب إلى الخليفة الرشيد قوله:

إنَّ الطَّبيبَ لهُ عِلْمٌ يُدِلُّ به ... إنْ كانَ للمرءِ في الأيامِ تأخيرُ
حتّى إذا ما انتهتْ أيامُ رِحلَتهِ ... حارَ الطبيبُ وخانتهُ العَقاقيرُ(٢)

وهناك ما يُسمَّى عند الأطباء بالشفاء الذاتي، إذ يُحكمَ على المرض بأنه عضال، وأنه لا دواء له، وأن المريض لن يعيش إلا أسبوعين، فإذا به يعيش عشرين عامًا بعد قولهم، وإذا بهذا الطبيب الذي قال: لن يعيش إلا أسبوعين، يموت بعد خمس سنين، فاسأل أهل الطب واسأل علماء الطب: كم من حالة شفاء ذاتي لا يستطيع العلم ولا الطب أن يفسّرها؟ يجب أن تعلم علم اليقين أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يشفيك مما أنت فيه، فلا يستطيع أحد أن يَحول دون هذا الشفاء لقوله سبحانه ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]، فمهما كان المرض عضالاً، ومهما كانت المصيبة مؤلمة، فإن الله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير، إذا أعطى أدهش.

---

(١) تفسير النابلسي؛ «تدبر آيات الله في النفس والكون والحياة»، (٨/ ٣٦٩).
(٢) المرجع نفسه، (٨/ ٣٧٠).

ومن لوازم العلاج النفسي أن يقول الطبيب للمريض: ليس هناك دواء، فلا تُتعب نفسك، فيلجأ المريض إلى الله عزّ وجل طالبًا منه الشفاء، فإذا به يرى ما يُدهشه، فهذه الآية تبثُّ الأمل في النفس، والإيمان يبثّ التفاؤل في النفس، ويبثُّ الرضا، ويبثُّ الإشراق، ولكن البعد عن الإيمان بالإله يجعله منكمشًا على نفسه، لقوله تعالى ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، فأحيانًا يقول الطبيب: هذه علة دائمة، وهذا المرض ليس له دواء، وذلك مبلغه من العلم، ولو علم العلم الكامل الشامل لقال: معلوماتي التي درستُها تقول كذا، وعند الله ما ليس عندي، فالطبيب المؤمن على يقين أن الله هو الشافي، ولذا يقول في الحالات المستعصية في الطب: الذي أعرفه أن هذا المرض لا شفاء منه، ولكن الله عزّ وجل قادر على أن يشفيك منه، فتوجّه إلى الله بالدعاء. وأما إذا جزم بذلك فهذا الطبيب لا يعرف ما عند الله[(١)].

ونقف عند الضمير ﴿فَهُوَ﴾ الذي جاء للتوكيد، والتوكيد لا يأتي ابتداءً إنما يكون على درجات الإنكار، وقد أكّد الحق ـ تبارك وتعالى ـ نسبة الهداية والإطعام والسقيا والشفاء إليه تعالى؛ لأن هذه المسائل الأربع يدّعيها غيره سبحانه وتعالى، وقد يظنّ بعضهم أن الطبيب هو الشافي، أو أن الأب مثلاً هو الرازق؛ لأنه الجالب للرزق والمناول، والهداية قد يدّعيها واضعو القوانين من البشر، وقد رأينا الشيوعية والرأسمالية والوجودية وغيرها تدّعي كلُّها تحقيق مصالح البشر، وأنها طريق هدايتهم[(٢)]. لذلك أكد الله تعالى هذه المسائل بالضمير المنفصل «هو»؛ ليؤكد أن الهادي هو الله ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾، وأن الرازق هو الله ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾، وأن الشافي هو الله وحده ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] [(٣)].

---

(١) تفسير النابلسي «تدبر آيات الله في النفس والكون والحياة»، (٨/ ٣٧٠).
(٢) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١٧/ ١٠٥٩٣).
(٣) تفسير النابلسي «تدبر آيات الله في النفس والكون والحياة»، (٨١/ ٣٧١).

قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾: أسند المرض إلى نفسه، وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه، ولكنه أضافه إلى نفسه أدبًا، كما قال تعالى آمرًا للمصلي أن يقول: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦ ـ ٧]، فأسند الإنعام إلى الله سبحانه، والغضب حذف فاعله أدبًا، وأسند الضلال إلى العبيد، ولهذا قال إبراهيم عليه السَّلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ أي: إذا وقعت في مرض فإنه لا يقدر على شفائي أحد غيره بما يُقدِّر من الأسباب الموصلة إليه(١).

وقد ورد في السنة النبوية الشريفة نصوص صحيحة تبيّن أن الشفاء بيد الله عزّ وجل، فعن ابن عبّاس قال: أبو معاوية أراه رفعه قال: «**من عادَ مَريضًا فقالَ: أسألُ اللهَ العظيمَ ربَّ العَرشِ العَظيمِ أن يَشفِيَكَ، سبعَ مرّاتٍ، شَفاهُ الله إنْ كان قد أُخِّرَ**»، يَعني في أجله (٢).

قال ابن القيم: كان ﷺ يعود مَن مرض مِن أصحابه، وعاد غلامًا كان يخدمه من أهل الكتاب، وعاد عمَّه وهو مشرك، وعرض عليهما الإسلام، فأسلم اليهودي ولم يُسلِم عمُّه، وكان يدنو من المريض ويجلس عند رأسه، ويسأله عن حاله فيقول: كيف تجدك؟(٣).

وذُكر أنه كان يسأل المريض عمّا يشتهيه، فيقول: هل تشتهي شيئًا؟ فإن اشتهى شيئًا وعلم أنه لا يضرّه أمر له به، وكان يمسح بيده اليمنى على المريض ويقول: «**اللَّهمَّ ربَّ النّاسِ أذهِبِ البأسَ، واشفِه أنتَ الشَّافي لا شِفاءَ إلا**

---

(١) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، (٥/ ١٨٨ ـ ١٨٩).
(٢) الأدب المفرد، البخاري، رقم (٥٣٦).
(٣) صحيح البخاري، رقم (٥٦٧٥).

شِفاؤُكَ، شِفاءً لا يُغادِرُ سَقَمًا» (١). وكان يقول: «**امسَحِ البأسَ رَبَّ النّاسِ بيدِكَ الشِّفاءُ لا كاشِفَ لَهُ إلا أنتَ**» (٢). وكان يدعو للمريض ثلاثًا كما قاله لسعد: «**اللَّهمَّ اشفِ سعدًا، اللَّهمَّ اشفِ سعدًا، اللَّهمَّ اشفِ سعدًا**» (٣).

اسم الله الشافي:

ورد اسم الله «الشافي» في القرآن الكريم بصيغة الفعل، كما في قوله تعالى ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠].

وورد اسمه سبحانه «الشافي» في السنة النبويّة الشريفة، وذلك في حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا أتى مريضًا أو أُتِيَ به إليه قال عليه الصلاة والسلام: «**أذهب البأس رب الناس، اشفِ وأنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك لا يغادر سقمًا**» (٤).

إنَّ قصة إبراهيم عليه السَّلام تبيّن لنا أن الله عزّ وجل هو الشافي الحقيقي لأمراض الأبدان والقلوب، لا شفاء إلا شفاؤه، لا يكشف الضرّ إلا هو سبحانه، ولا يأتي بالخير إلا هو، كما في قوله تعالى ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧]، وما سوى الله عزّ وجل، فإنما هي أسباب إن شاء الله عزّ وجل نفع بها وإن شاء أبطلها، وقال الحليمي: قد يجوز أن يُقال في الدعاء: يا شافي يا كافي؛ لأنَّ الله عزّ وجل يشفي الصدور من الشُّبَه والشكوك، ومن الحسد والغلول، والأبدان من الأمراض والآفات، لا يقدر على ذلك غيره، ولا يُدعَى بهذا الاسم سواه(٥).

---

(١) صحيح مسلم، رقم (٢١٩١).
(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، (١/ ٣٩٤ ـ ٣٩٥).
(٣) صحيح البخاري، رقم (٥٧٤٤).
(٤) صحيح البخاري، رقم (٥٦٧٥).
(٥) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز ناصر الجليل، ص٧٤٦.

وقد قال الله عزّ وجل ـ عن أثر القرآن وهو كلام الله عزّ وجل ـ في شفاء القلوب وهدايتها: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧][١].

٤ ـ ﴿ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾:

انتقل إبراهيم عليه السَّلام في حواره إلى قضيَّتَي الموت بعد الحياة والبعث بعد الموت، وهذه قضايا في لبّ الاعتقاد، ومن أصله وجوهره، فقال لهم بكل ثقة: ﴿ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾.

إنَّ قضية الموت يعتقد بها الجميع، ويشترك فيها البَرُّ والفاجر؛ لأنّها أمر واقع، وقد رأوا أجدادهم وآباءهم ومَن حولهم يموتون، والناس يؤمنون بما ترى أعينُهم، ومن أجمل ما قيل في ذلك قول أبي العتاهية:

المـوْتُ بـابٌ وكـلُّ النـاسِ داخِلُـهُ ... يا ليْتَ شعرِيَ بعدَ البابِ ما الدّارُ

ولكن اختلفت عقائد الناس في البعث بعد الموت لأنها مسألة غيبية، والإيمان بالغيب توفيق إلهي، وقد تعمَّد خليل الله إبراهيم عليه السَّلام أن يذكر هذه الحقيقة أمامهم، ليس من أجل الحوار الذي كان يدور بينهم فحسب؛ بل لأنَّ هذا الأمر الاعتقادي بالنسبة له عليه السَّلام هو مُلزم بتبليغه كجزء من رسالته التي يُريد أن يُوصلها للآخرين، وهي رسالة حريٌّ بكل مؤمن مسلم أن يُباشر إيصالها للناس اتّباعًا للنبي محمد ﷺ، ومتَّخذًا إبراهيم عليه السَّلام أسوةً حسنة، فإن إبراهيم عليه السَّلام يقول لهم إنّ ربي الذي هو الله سبحانه وتعالى أبلغني بأنه سيُمِيتُني ويُميتُكم ثم سيبعثنا من قبورنا ويحاسبنا، فأسمِعُوني ماذا تقول آلهتكم لكم، فهل آلهتكم تخلق، وتُحيي وتُميت؟ فهو عليه السَّلام بهذا

---

(١) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز ناصر الجليل، ص٧٤٦.

يحصد الانتصارات عليهم حصدًا، وهم يستمعون له خائبين[١].

ونلاحظ شعور إبراهيم عليه السَّلام القوي بكمال الربوبية، فالله وحده الذي يُميت ولو كان الإنسان في بروج مشيّدة، وللناس آجال، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، وإنه بعد الموت البعث، وهو الحياة الأخرى الجديرة بأن تكون الحياة حقًّا وصدقًا[٢].

وتأمَّلْ حرف العطف «ثم» في قوله ﴿يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾، وهذا الحرف يُفيد العطف مع التَّراخي، فبين الموت والإحياء الآخر مسافة طويلة، ألا ترى قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس: ٢١ ـ ٢٢] [٣].

إنَّ البعث لا يكون عقب الموت، بل يكون بينهما تراخٍ في الزمن حِسًّا ومعنًى، أما الحسّ فظاهر، وأما المعنوي فهو التفاوت بين حياة لاغية مكدودة وحياة بالنسبة لمثل خليل الله تعالى هادئة لا لغوب فيها، بل هي في جنات النعيم[٤].

إنّ إبراهيم عليه السَّلام أكّد على أن الله عزّ وجل بيده الموت والحياة وبعثُ الناس من قبورهم للحساب والجزاء[٥].

٥ ـ ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾:

إنَّ أقصى ما يطمع فيه إبراهيم عليه السَّلام النبي الرسول الذي يعرف ربّه هذه المعرفة، ويشعر بربه هذا الشعور، أقصى ما يطمع فيه أن يغفر له ربّه

(١) ملة أبيكم إبراهيم، عبد الستار كريم المرسومي، ص٤٦.
(٢) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (١٠/ ٥٣٦٨).
(٣) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١٧/ ١٠٥٩٥).
(٤) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (١٠/ ٥٣٦٨).
(٥) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٦/ ١٦٧).

خطيئته يوم الدين، فهو لا يُبرِّئ نفسه، وهو يخشى أن تكون له خطيئة، وهو لا يعتمد على عمله ولا يرى أنه يستحقُّ بعمله شيئًا، إلا أن يطمع في فضل ربّه ويرجو رحمته، وهذا وحده هو الذي يُطمِعُه في العفو والمغفرة.

إنّه شعور التقوى، وشعور الأدب، وشعور التحرّج، وهو الشعور الصحيح بقيمة نعمة الله وهي عظيمة عظيمة، وقيمة عمل العبد وهو ضئيل ضئيل، وهكذا يجمع إبراهيم في صفة ربه عناصر العقيدة الصحيحة؛ توحيد الله رب العالمين، والإقرار بتصرُّفه للبشر في أدقِّ شؤون حياتهم على الأرض، والبعث والحساب بعد الموت، وفضل الله وتقصير العبد، وهي العناصر التي يُنكرها قومُه ويُنكرها المشركون[(١)].

قال ابن كثير في تفسير الآية: أي: لا يقدر على غفران الذنوب في الدنيا والآخرة إلا هو، ومَن يغفر الذنوب إلا الله، وهو الفعّال لما يشاء[(٢)].

وقال أبو السعود في الآية ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢]: ذكره عليه الصلاة والسلام هضمًا لنفسه، وتعليمًا للأمة أن يجتنبوا المعاصي ويكونوا على حذر، وطلب مغفرة لما يفرط منهم، وتلافيًا لما عسى يَبدُر منه عليه الصلاة والسلام من الصغائر، وتنبيهًا لأبيه وقومه على أن يتأملوا في أمرهم، فيقفوا على أنهم من سوء الحال في درجة لا يُقدَّر قَدرُها، فإن حاله عليه الصلاة والسلام مع كونه في طاعة الله تعالى وعبادته في الغاية القاصية، حيث كانت بتلك المنزلة، فما ظنُّك بحال أولئك المغمورين في الكفر، وفنون المعاصي والخطايا؟! وحمل الخطيئة على كلماته الثلاث ﴿إِنِّي سَقِيمٞ﴾ ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ﴾، وقوله لسارة هي أختي[(٣)] مما لا سبيل

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٢٦٠٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، (٦/ ١٥٦).

(٣) قال الدكتور عبد المنعم أبو بكر في كتابه: «أساطير مصرية» الصادر عن دار المعارف بمصر=

إليه؛ لأنّها مع كونها ليست من قبيل الخطايا المفتقرة إلى الاستغفار؛ إنما صدرت عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعد هذه المقاولة الجارية بينه وبين قومه. وأما الثالثة فظاهرة لوقوعها بعد هجرته إلى الشام، وأما الأوليان؛ فلأنهما وقعتا مكتنفتين بكسر الأصنام. ومن البيّن أن جريان هذه المقاولات فيما بينهم كان في بادئ الأمر، وتعليق مغفرة الخطيئة بيوم الدين لأن أثرها يومئذ يتبيّن، ولأن في ذلك تهويلاً له وإشارة إلى وقوع الجزاء فيه إن لم تُغفر[١].

إنَّ هذه الآية، وفي سياق الثناء الإبراهيمي على الله تعالى، لتحمل في ثناياها معنى الدعاء ظاهرًا جليًّا أكثر من غيرها من الجمل التي سبقتها في مقام المدح والثناء. هذا ولما كان هذا الثناء بفقراته الخمس السابقة مُشرَّبًا بالدعاء أحببنا إماطة اللثام عن معانيه، إماطةً تُظهر معالمه، وتُبيِّن مراميه، وتكون مقدمة كاشفة لما يليه من دعاء أبي الأنبياء إبراهيم عليه السَّلام[٢].

وقال **السعدي** في تفسيره: ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾ بنعمة الخلق ونعمة الهداية للمصالح الدينيّة والدنيويّة، ثم خصَّص منها بعضَ الضَّروريّات فقال: ﴿وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾، فهذا هو

= ضمن سلسلة (اقرأ): «إن الفراعنة كانوا يسمّون الزوجة أختاً» وعليه فإبراهيم إنما خاطبهم بعرفهم.

(١) تفسير أبي السعود «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم»، أبو السعود محمد العمادي الحنفي، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار المصحف ومكتبة ومطبعة عبد الرحمن محمد، القاهرة، ٢٠٠٨م، (٦/ ٢٤ ـ ٢٥).

(٢) دعاء الأنبياء والرسل، محمد محمود أحمد وموسى الخطيب، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ط١، ١٩٩٩م، ص٧٩.

وحده المنفرد بذلك، فيجب أن يُفرَدَ بالعبادة والطاعة، وتُترك هذه الأصنام التي لا تخلق ولا تهدي، ولا تُمرِض ولا تَشفي، ولا تُطعم ولا تَسقي، ولا تُميت ولا تُحيي، ولا تَنفع عابديها بكشف الكروب ولا مغفرة الذنوب، فهذا دليل قاطع وحجّة باهرة، لا تقدرون أنتم وآباؤكم على معارضتها، فدلّ على اشتراككم في الضلال، وترككم طريق الهدى والرشد، قال الله تعالى: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ ﴾ [الأنعام: ٨٠] [١]، ثم دعا عليه السَّلام ربه فقال:

* * *

خامسًا: قوله تعالى ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ **[الشعراء: ٨٣ ـ ٨٩]:**

اتّجه إبراهيم عليه السَّلام إلى ربه جلّ جلاله مناديًا بالربوبية؛ لأنّها هي التي تُوجِّه وتُربِّي النفوس وتجعل الرجل ربّانيًا[٢]، فكان هذا الدعاء الذي ليس فيه طلب لِعَرَضٍ من أعراض هذه الأرض ولا حتى صحة البدن، إنه دعاء يتَّجه إلى آفاق أعلى، تُحرِّكُه مشاعر أصفى، ودعاء القلب الذي عرف الله، فأصبح يحتقر ما عداه، والذي ذاق فهو يطلب المزيد، والذي يرجو ويخاف في حدود ما ذاق وما يريد[٣].

١ ـ ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾:

في قوله ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا ﴾ أي: فهمًا وعلمًا، ومعرفة بك،

---

(١) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٢٢١.
(٢) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (١٠/ ٥٣٦٩).
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٢٦٠٤).

وبحدودك، وأحكامك، وعلمًا كثيرًا أعرف به الأحكام والحلال والحرام، وأحكم به بين الأنام(١).

وهذا شيء رائع أن يَهبك الله عزّ وجل قدرة على فهم النصوص، وقدرة على فهم ما وراء النصّ، وقدرة على فهم سرّ التشريع، وقدرة على فهم الحكمة، هذا من فضل الله على الإنسان، وكان من فضل الله على رسله أن علَّمَهم ووهب لهم الحكمة(٢).

ويا ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ أي: أعطني الحكمة التي أعرف بها القيم الصحيحة والقيم الزائفة، فأبقى على الدرب يصلني بما هو أبقى، بالله سبحانه(٣). والحكمة هي الكمال في العلم والعمل بحيث يتمكَّن من خلافة الحقِّ ورياسة الخلق، والحكمة أساس الحكم ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾ [البقرة: ٢٦٩] (٤).

وقال **ابن عاشور**: والحكم: هو الحكمة والنبوَّة، وقد كان إبراهيم عليه السَّلام حين دعا نبيًّا، فلذلك كان السؤال طلبًا للازدياد؛ لأن مراتب الكمال لا حدّ لها بأن يُعطى الرسالة مع النبوَّة، أو يُعطى شريعة مع الرسالة، أو سأل الدوام على ذلك(٥).

وفي بدء الدعاء بالنداء ضراعة وتذلُّل وخضوع لربه عزّ وجل، ونداؤه لربّه تعالى بلفظ الربوبية يُشعر باستجابته له، والهبة لأنّها عطاء بلا مُقابل، فقوله

---

(١) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٢٢٢.
(٢) تفسير النابلسي «تدبر آيات الله في النفس والكون والحياة»، (٨/ ٣٧٤).
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٢٦٠٤).
(٤) قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، ص٤٨.
(٥) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (١٩/ ١٢٥).

﴿ هَبْ لِي﴾ إشارة إلى أن استجابة الله عزّ وجل له محض فضل منه عليه ومنحة يمنحها إياه[١].

وفي قوله ﴿ وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ يقولها إبراهيم النبي الكريم الأواه الحليم، فيا للتواضع ويا للتحرُّج، ويا للإشفاق من التقصير، ويا للخوف من تقلُّب القلوب، ويا للحرص على مجرد اللحاق بالصالحين بتوفيق من ربّه إلى العمل الصالح الذي يُلحقه بالصالحين[٢].

و﴿ وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ أي: وفقني وأعطني من العلوم والأعمال والملكات ما يُؤهِّلني للانتظام في زمرة الكاملين الراسخين في الصلاح[٣].

ويقول ابن كثير: أي اجعلني مع الصالحين في الدنيا والآخرة، كما قال النبي ﷺ عند الاحتضار: «**اللَّهمَّ في الرفيق الأعلى**» قالها ثلاثًا، وفي الحديث: «**اللَّهمَّ أحيِنا مسلمين، وأمتنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مبدّلين**»[٤].

٢ ـ ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾:

قال **السعدي**: أي اجعلْ لي ثناء صدق مستمرًّا إلى آخر الدهر، فاستجاب الله دعاءه، فوهب له من العلم والحكم ما كان به من أفضل المرسلين، وألحقه بإخوانه المرسلين، وجعله محبوبًا مقبولاً مُعظَّمًا مُثنًى عليه في جميع المِلل في كل الأوقات[٥]، قال تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٨ ـ ١١١].

---

(١) الحوار في قصة الخليل عليه السلام في القرآن دروس وعبر، محمود سعد عبد الحميد شمس، ص٣٦٧.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٢٦٠٤).

(٣) قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، ص٤٨.

(٤) مختصر تفسير ابن كثير، محمد علي الصابوني، (٢/ ٦٥).

(٥) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٢٢٢.

قال **القرطبي**: وقد فعل الله ذلك؛ إذ ليس أحد يُصلِّي على النبي ﷺ، إلا ويُصلِّي على إبراهيم ـ عليه السلام ـ وخاصّة في الصلوات، وعلى المنابر التي هي أفضل الحالات، وأفضل الدرجات، والصلاة دعاء بالرّحمة(١).

وقال الآلوسي: أي اجعل لنفعي ذكرًا صادقًا في جميع الأمم إلى يوم القيامة، وحاصله: خلّد صيتي وذكري الجميل في الدنيا، وذلك بتوفيقه للآثار الحسنة والسنن المرضية لديه تعالى المستحسنة التي يقتدي بها الآخرون ويذكرونه بسببها بالخير وهم صادقون، وتعريف ﴿ٱلْأَخِرِينَ﴾ للاستغراق، والكلام مستلزم لطلب التوفيق للآثار الحسنة التي أشرنا إليها، وكأنه المقصود بالطلب على أبلغ وجه، ولا بأس بأن يريد تخليد ذكره بالجميل ومدحه بما كان عليه عليه السَّلام في زمانه، ولكون الثناء الحسن مما يدلُّ على محبة الله تعالى ورضائه.

ويحتمل أن يراد بالآخرين آخر أمة يُبعث فيها نبيٌّ، وأنه عليه السَّلام طلب الصّيت الحسن والذكر الجميل فيهم ببعثة نبي فيهم يُجدِّد أصلَ دينه، ويدعو الناس إلى ما كان يدعوهم إليه من التوحيد مُعلِمًا لهم أن ذلك مِلَّةُ إبراهيم عليه السَّلام، فكأنه طلب بعثة نبي كذلك في آخر الزمان لا تُنسخ شريعته إلى يوم القيامة، وليس ذلك إلا نبينا محمد ﷺ، وقد طلب بعثته عليهما الصلاة والسلام بما هو أصرح مما ذُكر، أعني قوله ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩] (٢).

وروى أشهب عن مالك قال: قال الله تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْأَخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]، لا بأس أن يحبَّ الرجل أن يُثنى عليه صالحًا، ويُرى في عمل الصالحين، إذا قصد به وجه الله تعالى، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ

(١) تفسير القرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، القرطبي، (١٣/ ١١٣).
(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الآلوسي، (١٩/ ٩٨ ـ ٩٩).

عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ [طه: ٣٩]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]، أي حبًّا في قلوب عباده وثناءً حسنًا، فنبّه تعالى بقوله: ﴿ وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ على استحباب اكتساب ما يُورِثُ الذِّكْرَ الجميل[١].

ومعنى ﴿لِسَانَ صِدْقٍ ﴾ أي: ذكرًا حسنًا يذكر بحق، ويذكر بصدق، والصدق هو الكلام المطابق للواقع، وقد ورد هذا المعنى في قوله تعالى ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: ٨٠] يعني: أدخلني بصدق ـ لا بغش ـ يعني: مدخلاً أستطيع منه الخروج، وكذلك أخرجني مخرج صدق، وقوله تعالى ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر: ٥٥]، وقوله تعالى ﴿ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦] [٢].

وفي قوله تعالى ﴿ وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ أي: اجعل لي ثناءً حسنًا وذكرًا جميلاً في الأعقاب والأجيال المتوالية من بعدي، وذلك بتوفيقي للأعمال الحسنة، التي تبقى آثارُها ومنافعُها ماثلةً في ذاكرة الشعوب والأمم. ولا تزال أعمال إبراهيم عليه السَّلام الخالدة معالم حقٍّ وهدى بين الأمم والشعوب، ومن أبرزها: دعوة التوحيد، ورفع قواعد بيت الله الحرام، وقصة الذِّبح والفداء... إلخ[٣].

٣ ـ ﴿ وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ :

أي: أدخلني برحمتك جنة النعيم، وهذا يدلُّ على أنه عليه السَّلام يرى عمله في طاعة ربه، ويرى أنه لا يدخل الجنة بعمله، إنما يدخلها بفضله تعالى ورحمته، كما قال نبينا محمد عليه الصلاة والسلام: «**سَدِّدُوا وقارِبُوا وأَبْشِروا،**

---

(١) تفسير القرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، القرطبي، (١٣/ ١١٣).
(٢) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١٧/ ١٠٥٩٩).
(٣) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٦/ ١٦٨).

فإنّه لن يُدخِلَ الجنَّةَ أحدًا عملُه». قالُوا: ولا أنتَ يا رَسولَ الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يَتغَمَّدَني اللهُ منه برحمةٍ، واعلموا أنّ أحبَّ العملِ إلى اللهِ أدوَمُه وإن قلَّ**» (١).

وكلمة ميراث الجنة: ﴿مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾، وردت في القرآن أيضًا في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠ ـ ١١]، والميراث أن تأخذ ملكًا من آخر بعد موته، فكيف تكون الجنة ميراثًا؟ قال العلماء: إنَّ الخالق ـ عزّ وجل ـ لم يخلق الجنة على قدر أهلها، وكذلك النار، إنما خلق الجنة تتَّسع للناس جميعًا إن آمنوا، وخلق النار تتَّسع للناس جميعًا إن كفروا؛ ذلك لأنه سبحانه خلق الخلق مختارين، مَن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، وعليه ميراث الجنة، يعني أن يرث المؤمنون أماكن الذين كفروا في الجنة يتقاسمونها فيما بينهم. والوارث يرث مال غيره وثمرة سعيه، لكن لا يُسأل عنها، إنما يأخذها طيِّبة حتى إن جمعها صاحبها من الحرام، إلا إن أراد الوارث أن يُبرِّئَ ذمّةَ المُورِّث، فيردّ المظالم إلى أهلها.

إذن، الوارث يأخذ الميراث دون مقابل فكأنه هبة، وعلى هذا المعنى يكون المراد بميراث الجنة أن الله تعالى أعطى عباده الطائعين الجنة هبة منه سبحانه وتفضُّلاً عليهم وليس بعملهم، فالجنة جاءتهم كما يأتي الميراث لأهله دون تعب منهم ودون سعي، وهذا تصديق للحديث النبوي الشريف الذي ذكرته في تفسير هذه الآية.

فالجنة ميراث؛ لأنَّ الأصل أنك لا تُجازى على الخير الذي قدّمتَه؛ لأنّه تكليف من الله تعالى يعود خيره عليك في الدنيا حيث تستقيم به حياتك وتسعد بها، وما دام التكليف في صالحك، فكيف تأخذ أجرًا عليه، كالوالد حين يحثّ ولده على المذاكرة والجدّ في دروسه، فهذا يعود نفعه على الولد،

(١) صحيح مسلم، رقم (٢٨١٨).

لا على الوالد، وكأن ربك ـ عزّ وجل ـ يقول لك: ما دُمت قد احترمت تكليفي لك، وأطعتني فيما ينفعك أنت، ولا يعود عليّ منه شيء، فحين أعطيك الجنة أعطيك بفضلي وهبة مني، أو أننا نأخذ الجنة بالعمل، والمنازل بالفضل.

إذن لا غنى لأحد منّا عن فضل الله لذلك يقول سبحانه: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨]، هذا هو المعنى المراد بميراث الجنة، وينبغي ألاّ تعوّل على عملك وطاعتك واجتهادك في العبادة، واعلم أن النجاة لا تكون إلا برحمة الله وفضل منه سبحانه[١].

وفي سؤال إبراهيم عليه السَّلام الجَنَّة: ردٌّ على من يقول ينبغي أن تكون عبادتك مُنزَّهة عن سؤال الجنة، والجنة ليست كما يظن البعض أنّها طعام وشراب وحور عين، ليس غير، نعم فيها طعام، وفيها شراب، وفيها فاكهة، وفيها أنهار من لبن، ومن عسل، ومن كل شيء ذكره الله في القرآن، ولكن فيها فوق ذلك النظر إلى وجهه الكريم والقرب منه، لذلك كانت الجنة هي النعيم المطلق. فإذا سألت الله الجنة فلا تسأله الطعام والشراب فقط، بل اسأله القرب منه، واسأله النظر إلى وجهه الكريم[٢].

وقد طلب إبراهيم عليه السَّلام في ليلة الإسراء والمعراج من نبينا محمد ﷺ بأن يُبلِّغ أمّته السلام، ويُعلِّمهم السبيل إلى تكثير أشجارهم في الجنة، وذلك بالإكثار من ذكر الله من التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، وفي الحديث وصف الجنة بأن تربتها طيبة وماءَها عذب سلسبيل[٣].

فعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**لقيتُ إبراهيمَ ليلةَ أُسريَ بي،**

(١) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١٧/ ١٠٦٠١).
(٢) تفسير النابلسي «تدبر آيات الله في النفس والكون والحياة»، (٨/ ٣٧٧).
(٣) الحوار في قصة الخليل عليه السلام في القرآن دروس وعبر، محمود سعد عبد الحميد شمس، ص١٥٨.

فقال: يا محمَّدُ أقرِئْ أمّتَك منّي السلام، وأخبِرْهُم أن الجنَّةَ طيّبةُ التُّربةِ، عذبةُ الماءِ، وأنَّها قِيعانٌ[(١)]، وأن غِراسَها: سُبحانَ اللهِ، والحمدُ لله، ولا إله إلا الله، والله أكبَرُ» [(٢)].

٤ ـ ﴿ وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾:

على الرغم مما لقيه إبراهيم عليه السَّلام من أبيه من غليظ القول وبالغ التهديد، ولكنه كان وعده أن يستغفر له، فوفى بوعده. وقد بيّن القرآن الكريم فيما بعد أنه لا يجوز الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولي قربى، وقرَّر أن إبراهيم عليه السَّلام استغفر لأبيه بناء على موعدة وعدها إياه، فلما تبيّن له أنه عدو لله تبرأ منه[(٣)]. قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٤] وسيأتي الحديث عن تفسير هذه الآية لاحقًا بإذن الله تعالى.

٥ ـ ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾:

نستشفُّ من دعاء إبراهيم عليه السَّلام ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ مدى شعوره بأهوال اليوم الآخر، ومدى حيائه من ربه، وخشيته من الخزي أمامه، وخوفه من تقصيره وهو النبي الكريم، كما نستشفُّ في قوله ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ مدى إدراكه لحقيقة ذلك اليوم، وإدراكه كذلك لحقيقة القيم، فليست هناك من قيمة في يوم الحساب إلا قيمة الإخلاص، إخلاص القلب كله لله، وتجرُّده من كل شائبة، ومن كل مرض، ومن كل غرض، وصفائه من الشهوات والانحرافات وخُلُوِّه من التعلُّق بغير الله، فهذه سلامته التي تجعل له قيمة ووزنًا ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾، ولا ينفع شيء من

---

(١) قيعان: جمع قاع، وهو المكان المستوي في الأرض الخالي من الشجر.
(٢) سنن الترمذي، رقم (٣٤٦٢).
(٣) المرجع نفسه، رقم (٣٤٦٢).

هذه القيم الزائلة الباطلة، التي يتكالب عليها المتكالبون في الأرض، وهي لا تزن شيئًا في الميزان الأخير(١).

أ ـ ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ :

* قال **ابن جرير**: ولا تُذلَّني بعقابك إياي يوم تَبعث عبادك من قبورهم لموقف القيامة(٢).

* وقال **مصطفى المنصوري**: وهذا تواضع منه أمام عظمة الله جلاله، وكلُّ ذلك مبنيٌّ على هضم النفس منه عليه السَّلام(٣).

* وقال **الناصري**: تضمَّن التماسَ العزّ والكرامة، وعدمَ التعرُّض للهوان والذل يوم القيامة(٤).

ب ـ ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ :

* قال **ابن كثير**: لا يقي المرء من عذاب الله مالُه، ولو افتدى بملء الأرض ذهبًا، ﴿ وَلَا بَنُونَ ﴾ ولو افتدى بمن في الأرض جميعًا، ولا ينفع يومئذ إلا الإيمان بالله، وإخلاص الدين له، والتبرِّي من الشرك، ولهذا قال: ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ أي: سالم من الدنس والشرك، قال **محمد بن سيرين**: القلب السليم أن يعلم أن الله حقّ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث مَن في القبور.

* وقال **ابن عباس**: ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ حتى يشهد أن لا إله إلا الله.

* وقال **مجاهد والحسن** وغيرهما: ﴿ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ يعني من الشرك.

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٢٦٠٥).
(٢) تفسير الطبري «جامع البيان في تأويل القرآن»، (١٩/ ٨٦ ـ ٨٧).
(٣) المقتطف من عيون التفاسير، مصطفى الخيري المنصوري، تحقيق: محمد علي الصابوني، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠١١م، (٤/ ٦٥).
(٤) التيسير في أحاديث التفسير، محمد المكي الناصري، (٤/ ٣٧٧).

* وقال **سعيد بن المسيَّب**: القلب السليم هو القلب الصحيح، هو قلب المؤمن؛ لأنَّ قلب الكافر والمنافق مريض، قال تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [البقرة: ١٠].

* وقال **أبو عثمان النيسابوريّ**: هو القلب الخالي من البدعة المطمئن إلى السُّنّة[١].

* وقال **المراغيّ**: أي: يوم لا يقي المرءَ من عذاب الله المالُ ولو افتدى بملء الأرض ذهبًا، ولا البنون ولو افتدى بهم جميعًا، ولكن ينفعه أن يجيء خالصًا من الذنوب وأدرانها وحبّ الدنيا وشهواتها، وخصّ الابن بالذكر؛ لأنه أولى القرابة بالدفع والنفع، فإذا لم ينفع فغيره من القرابة أولى[٢].

* وقال **النسفيّ**: إنَّ المال إذا صُرف في وجوه البرّ، وبنوه صالحون، فإنه ينتفع به وبهم سليم القلب، أو جعل المال والبنين في معنى الغنى، كأنه قيل: يوم لا ينفع غنىً إلا غنى مَن أتى الله بقلب سليم؛ لأن غنى الرجل في دينه بسلامة قلبه كما أن غناه في دنياه بماله وبنيه، وقد جعل «مَن» مفعولاً لـ «ينفع»، أي: لا ينفع مال ولا بنون إلا رجلاً سلِم قلبه مع ماله، حيث أنفقه في طاعة الله، ومع بنيه، حيث أرشدهم إلى الدين وعلَّمَهم الشرائع، ويجوز على هذا ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ من فتنة المال والبنين، وقد صوّب الجليل استثناء الخليل إكرامًا له، ثم جعله صفة له في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الصافات: ٨٣ ـ ٨٤].

* وما أحسن ما رتّب عليه السَّلام كلامه مع المشركين حيث سألهم أولاً عمّا يعبدون سؤال مُقرِّر لا مُستفهِم، ثم أقبل على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضرّ ولا تنفع ولا تسمع، وعلى تقليدهم آباءهم الأقدمين، فأخرجه من أن

---

(١) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، (٥/ ١٩٠ ـ ١٩١).
(٢) تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، (١٩/ ٧٥).

يكون شبهة فضلاً عن أن يكون حجّة، ثم صوَّر المسألة في نفسه دونهم حتى تخلَّص منها إلى ذكر الله تعالى فعَظَّم شأنَه، وعدَّد نعمته من حين إنشائه إلى وقت وفاته، مع ما يُرجى في الآخرة من رحمته، ثم أتبع ذلك أن دعا بدعوات المخلصين، وابتهل إليه ابتهال الأوَّابين، ثم وصله بذكر يوم القيامة، وثواب الله وعقابه، وما يُدفع إليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال، وتمنِّي الكَرّة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا[١].

قال ابن قيم الجوزية: فالقلب السليم: هو الذي سَلِمَ من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما، بل قد خلصت عبوديته لله تعالى: إرادة ومحبة وتوكُّلاً وإنابة وإخباتاً وخشية ورجاء، وخلص عمله لله؛ فإن أحبَّ أحبَّ في الله، وإن أبغض أبغض في الله، وإن أعطى أعطى لله، وإن منع منع لله، ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسوله ﷺ فيعقد قلبه معه عقدًا محكمًا على الائتمام والاقتداء به وحده دون غيره في الأقوال والأعمال؛ من أعمال القلب وهي العقائد، وأقوال اللسان وهي الخبر عمّا في القلب، وأعمال القلب وهي الإرادة والمحبة والكراهة وتوابعها، وأعمال الجوارح، فيكون الحاكم عليه في ذلك كله دِقَّه وجِلَّه هو ما جاء به الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فلا يتقدَّم بين يديه بعقيدة ولا قول ولا عمل، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١]، أي: لا تقولوا حتى يقول، ولا تفعلوا حتى يأمر[٢].

وقال أيضًا: فهذا القلب السليم في جنة معجّلة في الدنيا، وفي جنة البرزخ، وفي جنة يوم المعاد، ولا تتم سلامته مطلقًا حتى يسلم من خمسة أشياء:

---

(١) مدارك التنزيل وحقائق التأويل (تفسير النسفي)، (٣/ ١٨٨).

(٢) إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عزير شمس ومصطفى بن سعيد إيتيم، مجمع الفقه الإسلامي، جدة، السعودية، ط١، ١٤٣٢هـ، (١/ ١١-١٣).

* من شرك يناقض التوحيد.

* وبدعة تخالف السنة.

* وشهوة تخالف الأمر.

* وغفلة تناقض الذكر.

* وهوى يناقض التجريد والإخلاص.

وهذه الخمسة تحجب الإنسان عن الله، وتحت كل واحد منها أنواع كثيرة تتضمَّن أفرادًا لا تنحصر[١].

إنَّ القلب السليم هو القلب السالم من أمراض الشبهات والشهوات[٢]، وقد عرّفه **ابن القيم** بقوله: وقد اختلفت عبارات الناس في معنى القلب السليم، والأمر الجامع لذلك: أنه الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خيره، فسلم من عبودية ما سواه، وخلصت عبوديته لله تعالى: إرادة، ومحبة، وتوكُّلاً، وإنابة، وإخباتًا، وخشية، ورجاءً[٣].

ويلاحظ أن دعوات إبراهيم عليه السَّلام خالية من طلب أي غرض من أغراض هذه الأرض، إنّه دعاء يتَّجه إلى آفاق أعلى، تُحرِّكه مشاعر أصفى، ودعاء القلب الذي عرف الله، فأصبح يحتقر ما عداه، والذي ذاق فهو يطلب المزيد، والذي يرجو ويخاف في حدود ما ذاق وما يريد[٤].

* * *

(١) الداء والدواء، ابن قيم الجوزية، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، السعودية، ط١، ١٤٢٩هـ، ص٢١٩.

(٢) الإخلاص في القرآن الكريم، حمد الوهيبي، ص٢٣٢.

(٣) الإخلاص في القرآن الكريم، ص٢٣٢، نقلاً عن الداء والدواء لابن قيّم الجوزية.

(٤) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٦/ ١٧٠).

سادسًا: قوله تعالى ﴿ وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ﴾ [الشعراء: ٩٠ ـ ٩٥]:

١ ـ ﴿ وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ﴾ :

قد تكون الجنة قريبة من موقف السعداء، ينظرون إليها ويفرحون بأنهم المحشورون إليها، والنار تكون بارزة مكشوفة للأشقياء بمرأى منهم، يتحسَّرون على أنهم المُساقُون إليها، قال الله في صفة أهل الثواب: ﴿ وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١]، وقال في صفة أهل العقاب: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ زُلۡفَةً سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الملك: ٢٧] وإنّما يفعل الله ذلك؛ ليكون سرورًا مُعجَّلاً للمؤمنين، وغمًّا عظيمًا للكافرين[١].

وقال الطبري في قوله تعالى ﴿ وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ وأُدنيت الجنة وقُرّبت للمتقين الذين اتَّقَوا عقاب الله في الآخرة بطاعتهم في الدنيا، وفي قوله ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ﴾ أي أُظهرت النار للذين غوَوا فضَلُّوا عن سواء السبيل[٢].

وقال السعدي في ﴿لِلۡغَاوِينَ﴾: الذين أوضعوا في معاصي الله، وتجرَّؤوا على محارمه، وكذّبوا رسله، وردّوا ما جاء به من الحق[٣].

٢ ـ ﴿ وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ﴾ :

أي: أرونا من أشركتموهم مع الله أين هم الآن؟ وفي موضع آخر في القرآن الكريم: ﴿ ۞ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصافات: ٢٢ ـ ٢٥]، لقد

---

(١) التفسير الكبير مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، (٨/ ٥١٨).
(٢) تفسير الطبري «جامع البيان في تأويل القرآن»، (١٩/ ٨٧ ـ ٨٨).
(٣) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٢٢٣.

ضلُّوا عنكم وتركوكم، بل وتبرؤُوا منكم ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]، ثم يأتي الذين اتَّبعوا فيقولون: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ [فصلت: ٢٩]، نعم إنّها معركة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، وقوله تعالى ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٣] يعني: لا يستطيعون نصركم، أو الدفاع عنكم، ولا حتى نصر أنفسهم، فإن كان نصرهم لأنفسهم ممنوعًا، فلغيرهم من باب أولى، ففي الآية تقريع لهم ولمن عبدوهم من دون الله، وتحقير لشأنهم[١].

٣ ـ ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾:

كلمات القرآن معبّرة، فالفعل «كُبكِب» فعل ثنائي مضعّف؛ مثل: زلزل، وقلقل، وزعزع، وعسعس، ودمدم، وهذه الأفعال فيها معنى التكرار؛ أي: أنَّ الكفار حينما يدخلون النار لا يدخلونها بمراسم استقبال، بل يُدفعون إلى النار بعضهم فوق بعض، ويُلقَون دون ترتيب ودون عناية، ودون اهتمام كما لو وضع مئة شخص في شاحنة، ثم أُنزلوا في قلب صندوق الشاحنة، ونحن نرى أن البضاعة التي لا قيمة لها لا تُنقل من الشاحنة إلى الأرض واحدة واحدة، بل يُقلب الصندوق كما هو، فيأتي بعضُها فوق بعض كالرّكام، وهذا معنى كلمة ﴿فَكُبْكِبُواْ﴾ أي: دُفعوا هم ومن أغواهم من الشياطين إلى النار، بلا عناية ولا اهتمام، وهذا الذي يليق بهم[٢].

وفي كلمة ﴿فَكُبْكِبُواْ﴾ إننا لنكاد نسمع مِنْ جَرْس اللفظ صوت تدفُّعهم وتكفُّئهم وتساقطهم بلا عناية ولا نظام، وصوت الكركبة الناشئ من الكبكبة كما

---

(١) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١٧/ ١٠٦).

(٢) تفسير النابلسي «تدبر آيات الله في النفس والكون والحياة»، (٨/ ٣٨٤).

ينهار الـجُرُف فتتبعه الـجُرُوف، فهو مصوِّرٌ بجرسه لمعناه[١]. كما يُشير معنى الكبكبة كأنه إذا أُلقي في جهنم ينكبّ مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها[٢].

٤ ـ ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾:

إبليس: اسم أعجمي ممنوع من الصرف، وقيل عربي، واشتقاقه من الإبلاس؛ لأن الله تعالى أبلسه من رحمته وآيسه من مغفرته، وقال **ابن جرير الطبري**: لم يصرفْ وإن كان عربيًّا لقلة نظيره في كلامهم، فشبَّهوه بالأعجمي[٣].

وفي قوله ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ أي: وكُبكب فيها مع الأنداد، و«الغاوون» هم جنود إبليس أجمعون: وجنوده كلُّ من كان من أتباعه، من ذُريّته كان أو من ذرية آدم[٤].

والغاوون: جمع غاوٍ، وهو الضّالُّ المنهمك في ضلاله لا يزجره شيء[٥].

* * *

سابعًا: قوله تعالى: ﴿قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٦ ـ ٩٨]:

١ ـ ﴿قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾:

هذه لقطة مصورة من ساحة القيامة، حيث يختصم أهل الضلال مع من أضلوهم، ويُلقي كلٌّ منهم بالتبعة على الآخر، ثم يعترف أهل الضلال بضلالهم ويقسمون[٦].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٢٦٠٥).

(٢) التفسير الكبير مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، (٨/ ٥١٩).

(٣) التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، (٢٤/ ٣٨٣).

(٤) تفسير الطبري «جامع البيان في تأويل القرآن»، (١٩/ ٨٧ ـ ٨٨).

(٥) التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، (١٤/ ٣٨٢).

(٦) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١٧/ ١٠٦١٠).

٢ ـ ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ :

جاء القسم بالتاء دون الواو والباء؛ لأنَّ التاء تختص بالقسم في شيء متعجَّب منه، فهم يعجبون من ضلالهم إذ ناطوا آمالهم ـ المعونة والنصر ـ بحجارة لا تُغني عنهم شيئًا، ولذلك أفادوا تمكُّن الضَّلال منهم باجتلاب حرف الظرفية المستعار لمعنى الملابسة؛ لأن المظروف شديد الملابسة لظرفه، وأكَّدوا ذلك بوصفهم الضَّلالَ بالمبين، أي الواضح البيّن، وفي هذا تسفيه منهم لأنفسهم، إذ تمشّى عليها هذا الضَّلال الذي ما كان له أن يروج على ذي مُسكة من عقل[١]. وهذا اعتراف بضلالهم الظاهر المحيط بهم من كل مكان.

٣ ـ ﴿ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ :

أي: في العبادة والطاعة والمحبة والخوف والرجاء، وندعوكم كما ندعوه، فتبيّن لهم حينئذ ضلالهم، وأقرّوا بعدل الله في عقوبتهم وأنها في محلِّها، وهم لم يُسوُّوهم بربِّ العالمين إلا في العبادة، لا في الخلق بدليل قولهم: ﴿ بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ أنهم مُقِرُّون أن الله ربُّ العالمين كلِّهم، الذين من جملتهم أصنامهم وأوثانهم[٢].

* * *

ثامنًا: قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٩٩ فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٩٩ ـ ١٠١]:

١ ـ ﴿ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ :

أي: ما دعانا إلى الضَّلال إلا المجرمون العريقون بالإجرام والظلم والضَّلال[٣].

---

(١) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (١٩/ ١٥٣).
(٢) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٢٢٣.
(٣) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٦/ ١٧١).

وقال **الطبري**: يعني بالمجرمين: إبليس وابن آدم الذي سَنَّ القتل[١].

٢ ـ ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾:

الشفاعة هي التوسُّط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرّة[٢].

والشفاعة الصحيحة يوم القيامة هي التي استوفَت شروطها الثلاثة، وهي:

أ ـ رضا الله عن الشافع، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩].

ب ـ رضا الله عن المشفوع له، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

ج ـ إذن الله بالشفاعة، قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقد جمع الله تعالى هذه الشروط الثلاثة في قوله تعالى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

والشفاعات أنواع، منها شفاعة النبي ﷺ، وله شفاعات مُتعدِّدة يوم القيامة، كالشفاعة العظمى، واختصاصه باستفتاح باب الجنة، وشفاعته في رفع درجات أقوام من أهل الجنة فوق ما يقتضيه ثواب أعمالهم، وغير ذلك من الشفاعات.

ومن الشفعاء غير النبي ﷺ:

* الملائكة.

* الأنبياء عليهم السلام والمؤمنون الصالحون.

* الشهداء.

---

(١) تفسير الطبري «جامع البيان في تأويل القرآن»، (١٩/ ٨٩).

(٢) الإيمان باليوم الآخر، د. علي محمّد محمّد الصلاّبيّ، دار المعرفة، بيروت، ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م، ص١٤٥.

* أولاد المؤمنين.

* القرآن الكريم.

وقد تعدّدت الأسباب الجالبة للشفاعة والتي من أهمها: التوحيد وإخلاص العبادة لله[(١)].

٣ ـ ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾:

وُصف الصديق بالحميم: أي بالقريب الذي يُنتفع بصداقته وقرابته في الدنيا، والصديق الحميم: يُبادر لمساعدة صاحبه وقت الشدة، ووصف الصديق بالحميم؛ لأنَّ الصداقة وحدها في هذا الموقف لا تنفع، حيث إن كل إنسان مشغول بنفسه، فإذا لم تكن الصداقة داخلة في الحميميّة فلن يسأل صديقٌ عن صديقه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٧] [(٢)].

وقال **العلاّمة أبو زهرة** في قوله تعالى ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾: الفاء فاء الإفصاح؛ لأنّها تُفصح عن شرط مُقدَّر، وتقدير القول: إذا كان الذين صاحبونا وشجَّعونا مجرمين، فما لنا من شفيع يشفع لنا، ويَضمُّ صوتَه إلى صوتنا، ولا صديق يتألَّم معنا، ويرفع عنا مقت ربّنا، أو يشاركنا فيُنقِص منّا ما يُصيبنا من مقتٍ وسوء عاقبة، ويتمنَّون نادمين، ولات حين مَندَمٍ، وعُدِّد الشّافعون لأنهم يكونون كثيرين، وذُكر الصديق منفردًا؛ لأن الصديق الحميم يكون قليلاً وليس كثيرًا[(٣)].

والصديق الحميم: الصديق هو فعيل من صدق الودّ، والحميم: الولي

---

(١) من أراد التوسع، يرجى مراجعة كتابي: الإيمان باليوم الآخر، د. علي محمّد محمّد الصلاّبيّ، ص١٤٦.

(٢) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١٧/ ١٠٦١٢).

(٣) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (١٠/ ٥٣٧٤).

القريب الذي يخصُّكَ أمرُه، ويخصُّه أمرُكَ، وحامةُ الرجل: خاصّتُه[(١)].

* * *

تاسعًا: قوله تعالى ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٠٢ ـ ١٠٤]:

١ ـ ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾:

ومعنى كرة: عودة إلى الدنيا ورجعة ﴿فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: نستأنف حياة جديدة فنؤمن بالله ونطيعه، ونستقيم على منهجه، ولا نقف هذا الموقف، وفي آيات أخرى شُرحت هذه المسألة، يقول تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩ ـ ١٠٠]، يعني ﴿كَلَّا ..﴾ لن يعودوا مرة أخرى، وما هي إلا كلمة يقولونها بألسنتهم يريدون النَّجاة بها، لكن هيهات، فبينهم وبين الدنيا برزخ يعزلهم عنها، ويمنعهم العودة إليها، وسوف يظلُّ هذا البرزخ إلى يوم يبعثون.

وفي آية أخرى حول هذا المعنى يُرقِّي الحقُّ ـ تبارك وتعالى ـ المسألة من موقف الموت إلى موقف القيامة، فيقول سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧].

وهذا كذب منهم وقول باللسان لا يوافقه العمل؛ لذلك ردَّ الحقُّ تبارك وتعالى عليهم بقوله ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨][(٢)].

وفي قوله تعالى ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ما هو إلا التمنّي،

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير ابن عطية)، ابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م، (٤/ ٢٣٦).

(٢) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١٧/ ١٠٦١٥).

فلا رجعة ولا شفاعة، فهذا يوم الدين[١].

وفي قوله تعالى ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الفاء للإفصاح؛ لأنّها سدّت عليهم كل منافذ النجاة، فتمنَّوا رجعةً إلى الدنيا كرةً أخرى يؤمنون فيها ويدركون الحق ويُذعنون له، و«لو» هنا للتمني، وهو تمني أن يعودوا إلى الدنيا كرّةً أخرى، والفاء فاء السببية، وأن مضمرة بعدها، أي فنكون بسبب ذلك من المؤمنين المذعنين للحقّ الذي لا يُماري فيه أحد. وكان الكلام في يوم الآخرة عندما قال الله عزَّ وجل ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩].

ولقد أشار سبحانه من بعد ذلك إلى تتمة القصة، فقال سبحانه[٢]:

٢ ـ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾:

إنَّ الآية هي الأمر العجيب اللافت للنظر، وما كان ينبغي أن يمرَّ على العقول دون تأمُّل واعتبار ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾، رغم أن هذه الآيات ظاهرة واضحة، ومع ذلك كان أكثرهم غير مؤمنين[٣].

واسم الإشارة في الآية إشارة إلى كلام إبراهيم ـ عليه السلام ـ وقصته، وما جاء فيها على لسان إبراهيم من بيان فضل الربوبية والإذعان لحقّها، وقد جاء في تفسير البيضاوي فيما ذكر من قصة إبراهيم في بيان معنى «الآية»: لحجّة وعظة لمن أراد أن يستبصر بها ويَعتبر، فإنّها جاءت على أنظم ترتيب وأحسن تقرير، يتفطَّن المتأمِّلُ فيها لغزارة علمه لما فيها من الإشارة إلى أصول العلوم الدينية، والتنبيه على دلائلها، وحسن دعوته للقوم، وحسن مخالقته معهم، وكمال إشفاقه عليهم، وتَصوُّر الأمر في نفسه، وإطلاق الوعد والوعيد على

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٦/ ٢٦٠٥).
(٢) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (١٠/ ٥٣٧٥).
(٣) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١٧/ ١٠٦١٥).

سبيل الحكاية تعريضًا وإيقاظًا لهم؛ ليكون أدعى لهم إلى الاستماع والقبول[١].

وقال **ابن عاشور** ملخصًا لقصة إبراهيم عليه السَّلام التي جاءت في سورة الشعراء: والخروج إلى تصوير هذه الأحوال شيء اقتضاه مقام الدعوة إلى الإيمان بالرغبة والرهبة؛ لأنّه ابتدأ الدعوة بإلقاء السؤال على قومه فيما يعبدون إيقاظًا لبصائرهم، ثم أعقب ذلك بإبطال إلهيّة أصنامهم، والاستدلال على عدم أهليتها لذلك بدليل التأمُّل، وهو أنّها فاقدة السمع والبصر وعاجزة عن النفع والضرّ، ثم طال دليل التقليد الذي نحا إليه قومه لمّا عجزوا عن تأييد دينهم بالنظر.

فلما نهضت الحجّةُ على بطلان إلهية أصنامهم، انتصب لبيان الإله الحقّ ربّ العالمين، الذي له صفات التصرف في الأجسام والأرواح، تصرُّفِ المُنعم المتوحّد بشتّى التصرف إلى أن يأتي تصرُّفه بالإحياء المؤبَّد، وأنه الذي نطمع في تجاوزه عنه يوم البعث، فليعلموا أنهم إن استغفروا الله عمّا سلف منهم مِن كُفْر فإن الله يغفر لهم، وأنهم إن لم يُقلعوا عن الشرك لا ينفعهم شيء يوم البعث، ثم صوَّر لهم عاقبة حَالَيِ التقوى والغواية بذكر دار إجزاء الخير ودار إجزاء الشر.

ولما كان قومه مُستمرِّين على الشرك، ولم يكن يومئذ أحد مؤمنًا غيره وغير زوجه وغير لوط ابن أخيه كان المقام بذكر الترهيب أجدر، فلذلك أطنب في وصف حال الضالّين يوم البعث وسوءِ مصيرهم، حيث يندمون على ما فرطوا في الدنيا من الإيمان والطاعة، ويتمنَّون أن يعودوا إلى الدنيا؛ ليتداركوا الإيمان، ولات ساعة مَندم[٢].

٣ ـ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾:

انتهت قصة إبراهيم عليه السَّلام في سورة الشعراء بخطاب إلهي كريم من ربٍّ رحيم، وَجَّهه الحقُّ سبحانه وتعالى إلى خاتم أنبيائه ورسله مُذكِّرًا إياه أن

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي)، (٤/ ١٤٣).

(٢) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (١٩/ ١٥٠ ـ ١٥١).

الله لأعدائه بالمرصاد ولأوليائه بالرّحمة والإمداد ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ بالنسبة لأعدائه، و﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ بالنسبة لأوليائه[١]، كما أنه كان رحيمًا بهم في أنه لم يُعجِّل بالعذاب، بل أمهل أهل الشر حتى يكون اليوم الآخر، وكان رحيمًا بهم في أنه لم يُسَوِّ الصحيح بالسقيم والحسن بالمسيء، وكان رحيمًا بهم في أن وضع عذابًا للمجرمين، لكيلا يُوغلوا في إجرامهم، ففي هذا الوصف بالرّحمة إنذار وتبشير؛ لأنّ العالم لا يقوم على المساواة بين الخير والشر، ولكلٍّ موضعُه[٢].

لقد صوّرت لنا الآيات الكريمة نهاية قوم إبراهيم ـ عليه السلام ـ وفي حقيقتها نهاية الشرك كافةً، وهو موضع العبرة في قصص السورة جميعًا، ومشاهد القيامة في القرآن الكريم تُعرض كأنها واقعة، وكأنما تشهدها الأبصار حين تُتلى، وتتملّاها المشاعر، وتهتزُّ بها الوجدانات، كالمَصارع التي تمَّت على أعين الناس وهم يشهدون[٣].

اسم الله «العزيز»:

ورد ذكر اسمه سبحانه ﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴾ في القرآن الكريم اثنتين وتسعين مرة، جاء في أكثرها مقترنًا بأسماء أخرى من أسمائه الحسنى، ومن ذلك:

* قوله سبحانه وتعالى ﴿ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

* وقوله سبحانه وتعالى ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴾ [ص: ٩].

* وقوله سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر: ٢٨].

* وقوله سبحانه وتعالى ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [يس: ٣٨].

* وقوله سبحانه وتعالى ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴾ [ص: ٦٦].

---

(١) التيسير في أحاديث التفسير، محمد المكي الناصري، (٤/ ٣٦١ ـ ٣٦٢).
(٢) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (١٠/ ٥٣٧٥).
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٢٦٠٥).

* وقوله سبحانه وتعالى ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

إنَّ الله عزّ وجل هو العزيز بكل معاني العزّة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ [فاطر: ١٠].

يقول **ابن كثير**: ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ أي: الذي قد عزَّ كلَّ شيء فقَهره، وغلب الأشياء فلا يُنال جَنابُه لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه[١].

وقال **القرطبي**: ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ معناه المنيع الذي لا يُنال ولا يُغالَب[٢].

وقال **السعدي**: ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي له العزّة كلُّها: عزّة القوة، وعزّة الغلبة، وعزّة الامتناع، فامتنع أن ينالَه أحدٌ من المخلوقات، وقهر جميع الموجودات، ودانت له الخليقةُ، وخضعت لعظمته[٣].

اسم الله «الرحيم»:

جاء اسم ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ في (١٢٣) موضعًا في القرآن الكريم، أكثرها كان مقترنًا باسمه: «الغفور»، ومن ذلك:

* قوله تعالى ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾ [المزمل: ٢٠].

* وقوله تعالى ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

* وقوله تعالى ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٩١].

واسم الله ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ يُذكر مع الرحمن دائمًا في كتب أسماء الله الحسنى، وهذان الاسمان الكريمان مشتقان من الرّحمة على وجه المبالغة، وهي الرقّة والتعطّف، وإنَّ اسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ أشد مبالغة من اسم ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾؛ لأنَّ بناء فعلان أشد مبالغة من فعيل، وبناء فعلان للسَّعة والشمول.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، (٤/ ٣٤٣).
(٢) تفسير القرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، القرطبي، (٢/ ١٣١).
(٣) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، (٥/ ٣٠٠ـ٣٠١).

وفَرّق بعض أهل العلم بين هذين الاسمين الكريمين بالفروق الآتية:

أولًا: أن اسم «الرحمن» هو ذو الرّحمة الشاملة لجميع الخلائق في الدنيا، وللمؤمنين في الآخرة، وأما اسم «الرحيم» فهو ذو الرّحمة للمؤمنين كما في قوله تعالى ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ولكن يُشكِلُ على ذلك قولُه تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقوله تعالى ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [الإسراء: ٦٦].

ثانيًا: أن اسم «الرحمن» دالٌّ على الرّحمة الذاتية، و«الرحيم» دالٌّ على الرّحمة الفعلية، يقول **ابن القيم** رحمه الله تعالى: إنَّ صفة «الرحمن» دالّةٌ على الصفة القائمة به سبحانه، و«الرحيم» دالّة على تعلُّقها بالمرحوم، فكان الأول **للوصف والثاني للفعل، فالفعل الأول دالّ على أن الرّحمة صفته، والثاني دالّ على أنه يرحم خلقه برحمته، وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله** ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]. ولم يَجِئْ قط «رحمن بهم» فعُلم أن «الرحمن» هو الموصوف بالرّحمة، و«الرحيم» هو الرحيم برحمته[١].

ويقول في موطن آخر: ولم يَجئ رحمن بعباده ولا رحمن بالمؤمنين، مع ما في اسم «الرحمن» ـ الذي هو على وزن فعلان ـ من سعة هذا الوصف، وثبوت جميع معناه للموصوف به، ألا ترى أنهم يقولون غضبان للممتلئ غضبًا، وندمان، وحيران، وسكران، ولهفان، لمن مُلئ بذلك، فبناء فَعلان للسَّعة والشمول[٢].

ولهذا يَقرن استواءه على العرش بهذا الاسم كثيرًا، كقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ

(١) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز ناصر الجليل، ص١٢٠.
(٢) المرجع نفسه، ص١٢٠.

عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وقال الله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٥٩]، فاستوى على عرشه باسم الرحمن؛ لأنَّ العرش محيط بالمخلوقات، قد وسعها، والرّحمة محيطة بالخلق واسعة لهم، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فاستوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات، فلذلك وسعت رحمته كل شيء[١].

اقتران اسم الله العزيز باسمه الرحيم:

ففي سورة الشعراء لما كانت الآية بمنزلة التعقيب على قصة كل نبي مع قومه، ناسب ختمها بهذين الاسمين الكريمين، وذلك ما حصل للمُكذّبين من عذاب وهلاك، إنّما هو مقتضى عزّته سبحانه وقوته وغلبته، وهو مُوجب اسمه سبحانه «العزيز»، وما حصل من إنجاء الرسل وأتباعهم، إنّما مقتضى رحمته ولطفه، وهو موجب اسمه سبحانه «الرحيم».

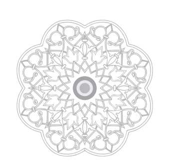
وبالجملة فإنَّ اقتران هذين الاسمين الكريمين يدلُّ على الكمال والعدل والحمد والعزّة والرّحمة، وذلك تبيان أنه سبحانه مع كونه عزيزًا قويًّا غالبًا قاهرًا لكل شيء، فلا ينفي كونَه رحيمًا بعباده أو أن يكون قويًّا غالبًا، فرحمته سبحانه ناشئة عن قدرة وقوة وعزّة لا عن ضعف وعجز، واجتماع الوصفين يدلّ على صفة كمال ثالثة وهي: جريان عزّته ـ سبحانه وتعالى ـ على سنن الرّحمة التي تستلزم إفاضة الخير والإحسان[٢].

❊ ❊ ❊

---

(١) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز ناصر الجليل، ص١٢١.

(٢) المرجع نفسه، ص١٥١.



المَبْحَثُ الخَامِسُ

قصة إبراهيم عليه السّلام في سورة العنكبوت

قال تعالى : ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [العنكبوت : ١٦ ـ ٢٧] .

تعدُّ سورة العنكبوت آخر السور المكيّة التي تحدثت عن إبراهيم عليه

السَّلام، وإليك شرح الآيات الكريمة المتعلِّقة بقصة إبراهيم عليه السَّلام وما جاء في وسطها من توجيهات ربانية لرسول الله ﷺ وقومه ودعوته إلى توحيد الله وعبادته، والإيمان بالرسالة وباليوم الآخر والبعث والحساب.

* * *

أولاً: قوله تعالى ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٦]:

لقد دعاهم إبراهيم عليه السَّلام دعوة بسيطة واضحة، لا تعقيد فيها ولا غموض، وهي مُرتَّبة في عرضها ترتيبًا يَحسن أن يتأمله أصحاب الدعوات. لقد بدأ ببيان حقيقة الدعوة التي يدعوهم إليها:

١ ـ ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ﴾:

يُذكّر الله عزّ وجل نبيَّه محمدًا بما كان من إبراهيم عليه السَّلام مع قومه، فإبراهيم قدوة وأسوة حسنة، يُقتدى ويُتأسَّى بها، فيقول تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أ ـ ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾:

أخلصوا له العبادة، ولا تُشركوا معه شيئًا، ولا تعبدوا إلهًا غيره، واجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية بتوحيدكم وصلاتكم وغير ذلك من الطاعات، ذلكم التوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له خيرٌ لكم من الشرك والكفر إن كنتم تعلمون، وبنحو هذا قال أهل العلم، قال **الطبري** رحمه الله: يقول تعالى ذِكرُه لنبيه محمد ﷺ: واذكر أيضًا يا محمد إبراهيمَ خليلَ الرّحمن إذ قال لقومه: اعبدوا الله أيها القوم دون غيره من الأوثان والأصنام فإنه لا إله لكم غيره[١].

---

(١) قصص الأنبياء، مصطفى العدوي، (٢/١١٨) نقلاً من تفسير الطبري «جامع البيان في تأويل القرآن»، (١٨/ ٣٧٢).

وتكمن دعوات الأنبياء جميعًا ـ من دون استثناء ـ في قوله تعالى ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وقوله تعالى في الآية الكريمة: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾، فالدِّين كلُّه أن تُؤمن بوجود الله وبتوحيده وأن تعبده، وإنّ الدين جانبٌ عَقَدِيٌّ وجانب سلوكيٌّ، فالسلوك أن تعبده، والعقيدة أن تُوحِّدَه، وإذا قيل لك: هل بإمكانك أن تُلخِّص الدِّينَ كلَّه في كلمتين. فقل: نعم؛ أن تؤمن بأنه لا إله إلا الله وأن تعبده، أمّا أن تؤمن بأنه لا إله إلا الله، فكل شيء في الكون ينطق بهذه العقيدة، وأمّا أن تعبده فالعبادة غاية الخضوع لله عزّ وجل مع غلبة الحبِّ. إنّها خضوع مع الحبّ، وأساسها المعرفة، فالعلم قبل كل شيء، والطريق الوحيد الذي لا ثاني له هو العلم، قال: ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ أي: عبادته وتقواه ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

لقد عرضَ إبراهيم عليه السَّلام المواضيع ذات الأهمية الكبرى بكلمات بسيطة واضحة لا لبس فيها ولا غموض، حتى يفهمها المخاطبون على المستويات المختلفة، وهكذا فقد اختار إبراهيم عليه السَّلام لموضوعه ألفاظًا واضحة المعنى، والمراد في ذلك: ألا ينصرف الذهن عن المعنى الأصلي المراد، ولا يترك أي مجال للتأويل، فلخَّص موضوع رسالته بـ ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ﴾.

وكلمة ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ هي قاعدة الدِّين ومحوره وعموده، وملخّصه التوحيد وإفراد الله بالعبادة، والإنسان عبد بالفطرة، لا يملك إلا أن يَعبد، فهو إما أن يعبد الإله الحقَّ، وإما أن يعبد الشيطان أو الهوى أو الأوثان أو المال أو الشهوات... إلى آخر المعبودات.

وتتمثَّل مُهمّة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بأن يردّوا الناس إلى عبادة ربّ الناس وحده، وما أجمل كلمة الصحابي «ربعي بن عامر» لرستم قائد جيوش

الفرس، إذ قال له: إنَّ الله ابتعثنا لِنُخرج العبادَ من عبادة العباد إلى عبادة الله ربِّ العباد.

ومفهوم العبادة شامل ـ كما لا يخفى ـ يُنظِّم شؤون الحياة كلّها، فكلّ ميادين الحياة ميادين عبادة، وكل نشاط في هذه الحياة إن ابتُغي به وجهُ الله فهو عبادة، والعادات بالنيّات تغدو عبادات، والعبادات بلا نيّات عادات[1].

إنَّ في مضمون دعوة إبراهيم عليه السَّلام دعوة الناس لعبادة الله وإفراده وحده بذلك، وقد أثنى الله عزّ وجل على دعوته وجهده في كتابه العزيز، فوصف الله عزّ وجل إبراهيم عليه السَّلام بأنه كان أمةً قانتًا لله حنيفًا، ولم يك من المشركين، وأنه شاكر لله عزّ وجل، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢٠ ـ ١٢١].

ووصف الله عزّ وجل إبراهيم عليه السَّلام بصفة العبودية، وأضافه إلى ضمير التعظيم، وهذا تعظيم له، ورفعٌ لمحلِّه وقَدره، قال سبحانه وتعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ١١٠ ـ ١١١]. فوصفه عليه السَّلام بصفة الإحسان وهي من أعلى مراتب العبودية، ومعناها: أن يعبد المرءُ ربّه سبحانه كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإن الله يراه، وقد قام إبراهيم عليه السَّلام بالدعوة إلى عبودية الله عزّ وجل وتحقيقها في نفسه حقّ القيام، وأخلص له في أعماله كلها، فلم يصرف شيئًا من العبادة لغير الله عزّ وجل، بل وَجَّهَها لخالقه سبحانه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، كما بيّنا وسنُبيِّن بإذن الله في سيرته العطرة.

إنَّ إبراهيم عليه السَّلام عرف الله بالوحي والفطرة السليمة والعقل الراجح

---

(١) تفسير سورة هود «دراسة تحليلية موضوعية»، أحمد نوفل، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، عمّان، الأردن، ط١، ١٤٣٩هـ ـ ٢٠١٨م، ص١١٢.

حقَّ المعرفة، وعبده حقّ العبادة، وهو أشدّ الناس اجتهادًا في العبادة، لما امتنَّ الله عليه من معرفته، وهو دائم الشكر لله عزّ وجل، ومعترف له مع تمام اجتهاده بالتقصير في أداء حقه.

وقد وصفه الله تعالى بالعبودية في مقام تكريم مع ابنه وحفيده، قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ [ص: ٤٥ ـ ٤٧]، ويقول تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ﴾: الذين أخلصوا لنا العبادة ذِكرًا حسنًا ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾ الخليل وابنه ﴿وَإِسۡحَٰقَ﴾ وابن ابنه ﴿وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي﴾ أي: القوة على عبادة الله تعالى ﴿وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ أي البصيرة في دين الله، فوصفهم بالعلم النافع والعمل الصالح الكثير، و﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ﴾: عظيمة وخِصِّيصة جسيمة هي ﴿ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ جعلنا ذكرى الدار الآخرة في قلوبهم والعمل لها صفوةَ وقتهم، والإخلاصَ والمراقبة لله وصفَهم الدائم، وجعلنا ذكر الدار يَتذكّر بأحوالهم المتذكِّرُ، ويَعتبر بهم المُعتبِر، ويُذكرون بأحسن الذكر[1].

وإنَّ نبيّنا إبراهيم عليه السَّلام من أولي العزم الذين حقَّقوا أقدارًا عظيمة، ومراتب متقدِّمة في تحقيق العبودية لله عزّ وجل، والدعوة إليها.

ب ـ ﴿وَٱتَّقُوهُۖ﴾:

اهتمَّ إبراهيم عليه السَّلام بدعوة قومه إلى توحيد الله عزَّ وجلّ، وإفراده بالعبودية، والحثِّ على تقواه؛ لأنَّ تقوى الله عزّ وجلّ هي الضمانة الحقيقة لاستقامة الناس على منهج الله، وعدم التفلُّت منه هنا وهناك، وعدم الاحتيال عليه، أو الالتواء في تنفيذه، كما أنّها هي مبعث الخُلق الفاضل المنظور فيه إلى

(١) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٤٩٩.

الله بلا رياء ولا تظاهر ولا مماراة، كما أنّ التَّقوى في مضمونها: هي اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل الطاعات، واجتناب المنهيّات[١].

إنَّ المتدبِّر لكتاب الله تبارك وتعالى يجد أن التَّقوى هي من أكثر الأمور التي وجَّه القرآنُ الكريم لها العنايةَ، وحمل النفوس على الاهتمام بها، وأصل التَّقوى من الوقاية، وأول مراحل التَّقوى: اجتناب الشرك، والمرحلة الثانية: اجتناب الكبائر، وأما عن المرحلة الثالثة التي تكتمل بها التَّقوى فهي: الابتعاد عن الصغائر، ويدلُّ على ذلك ما رُوي عن سيدنا رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا يبلغ العبد أن يكون من المتّقين حتى يدع ما لا بأس به حذرًا لما به البأس**»[٢].

وعلى هذا، فالتَّقوى هي أرفع الدرجات التي يجب على المؤمن أن يرتفع إليها، مهما تحمَّل في سبيل ذلك من صعاب ومَشقّات.

تعريفات التَّقوى:

ذكروا للتقوى تعريفات كثيرة، وتعدّدت في ذلك كلماتهم وأقوالهم، وسأذكر بعض التعريفات؛ لكي تكون نبراسًا نهتدي بنوره، ومنها:

* قيل: إنّ التَّقوى أن يُطاع الله فلا يُعصى، ويُذكَر فلا يُنسى، ويُشكَر فلا يُكفَر.

* قيل: التَّقوى: هي ترك الإصرار على المعصية، وترك الاغترار بالطاعة، فالمُتَّقي لا يُصرُّ على المعصية وإن كانت صغيرة، ولا يغترُّ بطاعة وإن كانت عظيمة.

* قيل: إنَّ التَّقوى ألا تختار سوى الله، وأن تعلم أنّ الأمور كلّها بيد الله.

* قيل: ألاّ يراك مولاك حيث نهاك.

---

(١) نوح عليه السلام والطوفان العظيم، د. علي محمد محمد الصّلاّبي، ص١٢٧.
(٢) سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة، رقم (٢٤٥١).

ويجمع هذه التعريفات جميعًا ثلاثة أمور:

أولًا: أن تجتنب الذنوبَ صغيرَها وكبيرَها، فإنَّ الإصرار على الصغائر قد يؤدّي إلى الكبائر.

ثانيًا: أن تحذر من كلِّ ما تُقدِم عليه من قول وعمل، كالذي يسير في طريق مليء بالأشواك، يكون حذرًا في كل خطوة يخطوها، وهذا ما جعله علامة التَّقوى لدى بعض الصحابة رضوان الله عليهم، فقد قيل: إن عمر بن الخطاب سأل أبي بن كعب عن التَّقوى، فقال له: أما سلكت طريقًا ذا شوك؟ فقال: بلى، قال: فما عملت؟ قال: شمّرت واجتهدت، قال: فذلك التَّقوى.

ثالثًا: ألا تَحقر شيئًا من صغائر الأمور، فلقد ورد عن سيدنا رسول الله ﷺ: أنّه مرّ بتمرة مَسقُوطة فقال: «**لولا أن تكونَ صدقةً لأكلتُها**»[(١)].

وقد رُوي في الأثر: «مَن أحبَّ أن يكونَ أكرمَ النّاسِ فليتَّقِ الله، ومن أحبَّ أن يكونَ أقوى الناس فليتوكَّلْ على الله، ومن أحبَّ أن يكون أغنى الناس فليكنْ ما في يَدِ الله أوثقَ بما في يَدِهِ»[(٢)].

الفرق بين العبادة والتَّقوى:

مما تقدَّم ندرك أهميّة التَّقوى، وعظيم شأنها، ورفيع منزلتها، وندرك أنّها السلاح الوحيد الذي يستطيع المؤمن به أن يُواجه العقبات، وينتصر على الأزمات، وهي ثمرة يانعة لا بُدّ لتحقيقها من خمسة أمور، وهي: الإيمان، والطاعة، وترك المعصية، والتوبة والإخلاص، فإذا انتفى واحدٌ من هذه الخمسة انتفت التَّقوى. ومن هنا نعلم أنَّ التَّقوى ليست العبادة ـ كما يظنُّ كثير

---

(١) صحيح البخاري، كتاب البيوع، رقم (٩٥٠).

(٢) خماسيات مختارة في تهذيب النفس الأمارة، فضل حسن عباس، دار البشير للنشر والتوزيع، عمّان، ط١، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م، ص٢٨.

من الناس ـ فرُبَّ عابد كثرت عبادته، ولكن لا ترفعُه عبادتُه لدرجة التَّقوى، وفي الكتاب الكريم والسُّنة النبويّة أدلّة كثيرة وبراهين ساطعة على ما بيّنته لك[1].

قال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح: ١ ـ ٣].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

فهذه الآيات الكريمة قد ميّزت بين العبادة والتَّقوى، فنوح وإبراهيم عليهما السلام كلٌّ يأمر قومه بالعبادة والتَّقوى، وفي الآية الثالثة أمر للناس من الله أن يعبدوا الذي خلقهم وخلق الذين من قبلهم، راجين أن ترتفع بهم عبادتهم، وتوصلهم إلى درجة التَّقوى[2].

وفي السُّنة النبويّة المطهّرة، يقول الرسول ﷺ: «**إيّاكم والظّنَّ، فإن الظّنَّ أكذَبُ الحديثِ، ولا تحسَّسُوا، ولا تجسَّسُوا، ولا تَحاسَدوا، ولا تباغَضوا، ولا تَدابَرُوا، وكونوا عبادَ اللهِ إخوانًا، المسلمُ أخو المُسلمِ، لا يَحقُره، ولا يَظلِمُه، ولا يَخذُلُه، بحَسبِ امرئٍ من الشَّرِّ أن يَحقرَ أخاه المسلمَ، كلُّ المسلمِ على المُسلمِ حَرامٌ دَمُه ومالُه وعِرضُه، إنَّ الله لا يَنظُرُ إلى صُوَرِكُم وأجسامِكُم، ولكن ينظرُ إلى قلوبكم وأعمالكم، التَّقوى ههنا، التَّقوى ههُنا**» ويُشير إلى صَدرِهِ[3].

ومن هذا الحديث الشريف نُدرك أولاً أن التَّقوى لا بدّ لها من تجنُّب هذه

---

(١) نوح عليه السلام والطوفان العظيم، د. علي محمد محمد الصّلاّبي، ص١٣٠.
(٢) خماسيات مختارة في تهذيب النفس الأمارة، فضل حسن عباس، ص٢٩.
(٣) صحيح مسلم، كتاب البرّ والتَّقوى، رقم (٢٥٦٤).

الأعمال جميعها التي ذُكرت في الحديث، ونُدرك ثانيًا أن التَّقوى إنما هي سرٌّ بين العبد وربّه، ولهذا أشار النبي الكريم ﷺ إلى صدره، ويُؤيِّد هذا قولُ الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

ومن الآيات التي بيَّنت حقيقةَ التَّقوى بيانًا جامعًا، وبيَّنَت أن هذه التَّقوى لا يَنعم العَبدُ بدفئها وظِلِّها ونُورِها إلا بعد أن يتَّصف بأمهات الفضائل، ويُوفَّق لأمهات العبادات وأصولها، هي قوله تعالى ﴿۞لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

انظروا ـ أرشدني الله وإيَّاكم ـ إلى الخصال الكريمة، والصفات الحميدة التي تَحدَّثَت عنها هذه الآية الكريمة، وكيف أنه ذكرت فيها أصول الشريعة الثلاثة: العقائد، والعبادات، والأخلاق، إضافة إلى خمس عشرة خصلة، جُعلت التَّقوى ثمرةَ ذلك كلّه، كما جاء في الآية القرآنية الكريمة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

مما تقدَّم نُدرك السرَّ، ونُدرك الحكمة التي من أجلها ذكر الله التَّقوى في أوّل كتابه الكريم: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١ ـ ٢]، اللَّهمَّ اجعلنا من المتقين الذين قلتَ فيهم: ﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا﴾ [مريم: ٦٣] (١).

وهذه الآيات حَريّة بالعناية والتَّقدير والاهتمام؛ لأنَّ فيها أوصافًا يجب على المسلم أن يتحرّاها، محاولاً أن يتحلَّى بها، ولاسيما أنّها أوّل آية في

---

(١) خماسيات مختارة في تهذيب النفس الأمارة، فضل حسن عباس، ص٣٠.

كتاب الله تُبيِّن أحوال المتقين، فورودها في أول القرآن الكريم دليلٌ على أهمية شأنها وعظيم خطرها، ومن أهميتها كذلك أنّها وصف لأولئك الذين انتفعوا بالقرآن العظيم، واهتدَوا به فتلَوه وتدبَّروه(١).

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ١ ـ ٥].

الصفة الأولى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾.

الصفة الثانية: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

الصفة الثالثة: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾.

الصفة الرابعة: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾.

الصفة الخامسة: ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾.

وبعد هذه الصفات يذكر الله تبارك وتعالى جزاء أولئك المتقين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، فهم أولاً المُتمكِّنون من الهدى، ثابتون عليه، والهداية نعمة من نعم الله العظيمة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ [محمد: ١٧].

وهذا القسم الأول من الجزاء العظيم، أما القسم الثاني فهو الفلاح، فهؤلاء المتّقون كملت لهم السعادة وسيلة وغاية ومبدأ ونهاية(٢).

وقد وضَّح القرآن الكريم قيمة التَّقوى، وجعلها غاية منشودة، وكتب عنها كثير من العلماء، وبيّنوا حقيقتها وثمارها وآثارها، وصفات المتقين التعبُّديّة

---

(١) خماسيات مختارة في تهذيب النفس الأمارة، فضل حسن عباس، ص٢٥.

(٢) المرجع نفسه، ص٣٧.

والسُّلوكية، وكلَّ ما يتعلَّق بهذه القيمة الربانية السامية[١].

٢ ـ ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

إذا فعلتم ذلك حصل لكم الخير في الدنيا والآخرة، واندفع عنكم الشرُّ في الدنيا والآخرة[٢].

وفي هذا التعقيب ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما يُحفِّزهم إلى نفي الجهل عنهم، واختيار الخير لأنفسهم، وهو في الوقت ذاته حقيقة عميقة لا مجرد تهييج خطابي[٣].

فإذا رأيت أن طاعة الله وعبادته وتقواه خير، فأنت عالم، وإذا رأيت في الطاعة إحراجًا، وفي العبادة مَغرمًا، وفي اتقاء الله خسارة، فأنت لا تعلم ولو نلت أعلى الشهادات، فمقياس العلم طاعة الله وعبادته وتقواه، وأن ترى في معصيته والانحراف عن منهجه كلَّ الشرّ. هذه المعادلة مقياس ثابت حتمًا؛ لأن الله عزّ وجل يقول: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، وهذا هو كلام الخالق، يقول لنا: هذا هو الخير يا عبادي، فأنت لا تكون عالمًا إلا إذا عرفت الله، ولا تكون عالمًا إلا إذا عبدته، ولا تكون ذا رؤية صحيحة إلا إذا سرت على منهجه[٤].

وإنّ تحقيق العبادة والالتزام بالتَّقوى هو طريق الخير في الدنيا والآخرة، وهذا دليل على العلم الحقيقي والعمل الرباني المتعلق بربط الدنيا والآخرة، ومعرفة الهدف من وجود الإنسان وخلق الله له.

❊ ❊ ❊

---

(١) نوح عليه السلام والطوفان العظيم، د. علي محمد محمد الصّلاّبي، ص١٣٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، (٦/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠).
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٢٧٢٨).
(٤) تفسير النابلسي «تدبر آيات الله في النفس والكون والحياة»، (٩/ ٢٠٠).

ثانيًا: قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٧]:

١ ـ ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا ﴾:

﴿ إِنَّمَا ﴾ أداة قصر، أي: أن كلَّ ما تعبدون من دون الله هو وثن، والوثن لا ينفع ولا يضرّ[١]، وهو ما وُضع للتقديس من حجر، أيًّا كان نوعه، حجر جيري، أو جرانيت، أو مرمر، أو كان من معدن، ذهب أو فضة أو نحاس... إلخ، أو من خشب، وقد كان البعض منهم يصنعه من «العجوة»، فإن جاع أكله، وقد حَكَى هذا على سبيل التعجّب سيدنا عمر رضي الله عنه، وبأيِّ عقل أو منطق أنْ تذهب إلى الجبل، وتستحسن منه حجرًا فتنحته على صورة معينة، ثم تتَّخذه إلهًا تعبده من دون الله، وهو صَنْعة يدك، وإنْ أطاحتْ به الريح أقمتَه، وإنْ كسرَته رُحْت تُصلح ما تكسَّر منه وتُرمِّمه، فأيُّ عقل يُمكن أن يقبل هذا العمل؟[٢].

٢ ـ ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ ﴾:

إنَّ كل ما تعبدونه من دون الله هي أوثان لا تنفع ولا تضرّ، وأما التعليلات والتفسيرات والتمهيدات والتحليلات، فهذه كلها كذب في كذب، وإفك في إفك، والإفك هو تعمُّد الكذب الذي يَقلب الحقائق[٣].

ويقول إبراهيم عليه السَّلام: أنتم تتحدَّثون عن هذه الأصنام وكأنها شيء له فعل وعمل، يَمنح ويَمنع، يَغضب ويَرضى، وتُحيطون هذه الأوثان بهالة من

(١) تفسير النابلسي «تدبر آيات الله في النفس والكون والحياة»، (٩/ ٢٠١).
(٢) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١٨/ ١١١٠٨).
(٣) المرجع نفسه، (١٨/ ١١١٠٨)، تفسير النابلسي «تدبر آيات الله في النفس والكون والحياة»، (٩/ ٢٠١).

القدسية، وتُوهمون الناسَ أنّها مقدَّسة، وتَفتَرون على الله تعالى الكذبَ، فهذا كلّه كلام لا أصل له، إنّه اختلاق وافتراء ليس له معنى، والواقع يرفضه؛ إذ هذا الذي تعبدونه صنمٌ لا ينفع ولا يضرّ، وهذا الكلام الذي تتعلَّلون به كلام كذب، والدليل أن هذه الأصنام ﴿لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾ (١).

٣ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾:

وفي موضع آخر بيّن لهم إبراهيم عليه السَّلام أنهم يعبدون آلهة لا تضرُّ ولا تنفع، وهنا يَذكر مسألة مُهمّة في استبقاء الحياة للإنسان بالقوت الذي نسميه الرزق، فهذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله لا تملك لكم رزقًا، ولو امتنع عنكم المطر وأجدبت الأرض لَمُتُّم من الجوع. إذن كان عليكم أن تتأملوا: مِن أين تأتي مُقوِّمات حياتكم، ومَن صاحب الفضل فيها، فتتوجَّهون إليه بالعبادة والطاعة(٢).

٤ ـ ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾:

والرزق مشغلة النفوس، ولاسيما تلك التي لم يستغرقها الإيمان، ولكن ابتغاء الرزق من الله وحده حقيقة، لا مجرد استثارة للميول الكامنة في النفوس(٣).

فإبراهيم عليه السَّلام بيّن لقومه أن يلتمسوا من الله الرزق لا من عند أوثانهم، وبذلك يصلون إلى الحقيقة، وقد دلَّهُم على ما ينفعهم في الدنيا والآخرة، فالرزق بيد الله تعالى، فهو مالكه ومُقدِّره ومُيسِّر أسبابه، والخلق لا يملكون من ذلك شيئًا إلا بأمر الله تعالى، والله تعالى هو الذي بيده وحده توسعة الرزق وقسمته وفق مشيئته، وليس ذلك لأحد من الخلق، فطلب الرزق

---

(١) تفسير النابلسي «تدبر آيات الله في النفس والكون والحياة»، (٩/ ٢٠١).
(٢) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١٨/ ١١١٠٩).
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٢٧٢٨).

وابتغاؤه لا يكون إلا من عند الله تعالى؛ لأنَّه وحده القادر عليه وهو بيده سبحانه، فهو المستوجب للعبادة والشكر، وإليه المرجع والمصير.

وكل مخلوق قد قُدِّر رزقه وعُلم عند الله تعالى، وهو سبحانه يهيئ لخلقه أسباب حصولهم على رزقهم ووصوله إليهم، وفق تلك الأسباب التي جُعل أمر تلمسها والبحث عنها والأخذ بها من العبادة له جلّ جلاله، وقد تُلغى هذه الأسباب كلّها أو بعضها بمشيئته سبحانه في حق بعض خلقه لحكمة يُريدها، ولكن ذلك ليس هو القاعدة، بل هو استثناء منها، فالقاعدة هي الأخذ بالأسباب.

لا أحد يستطيع أن يأتي بالرزق للناس إن أمسكه الله تعالى، وهذه حقيقة يجب أن يَعيها كلُّ مسلم؛ لأن مصادمتها أو الإعراض عنها حمق ونفور عن الحق المبين، قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ [الملك: ٢١].

إنّ قضية الرزق خطيرة ودقيقة في حياة الإنسان، وأحداث الماضي والحاضر تُوضِّح أن لقمة العيش قد يستعبدُ الإنسانُ بسببها غيرَه من بني الإنسان. ولذلك جاء القرآن في هذه القضية بالبيان الشافي تحريرًا للإنسان من العبودية لسواه من بني الإنسان، فهو ليس عبدًا إلا لله تعالى خالقه ورازقه، فبيّن القرآن أن الله تعالى هو الحقيق بأن يُعبَد دون سواه، لأنه خالق الخلق ومالك الرزق، فلا يُبتغى الرزق إلا مِن عنده ولا يُعبد بحقٍّ ولا يُشكَر بحقٍّ إلا هو جل جلاله، فمنه البداية وإليه النهاية[1].

وقد قَرن القرآن الكريم بين الرزق وبين العبادة، قال سبحانه: ﴿ فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾، وهذا دليل على خطر الرزق

(١) الرزق في القرآن الكريم، د. سليمان الصادق البيرة، مكتبة الملك فهد الوطنية، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م، ص٧٣.

وأثره في حياة الإنسان، وبيان أن مَن ملك رزق الخلق من الجن والإنس فهو الجدير بأن يُعبد، وقد نصّ القرآن الكريم على من يَعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقًا، قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: ٧٣] (١).

من أسماء الله «الرازق ـ الرّزاق»:

وَرَد اسم الله سبحانه «الرازق» في القرآن الكريم بصيغة التفضيل خمس مرات، من ذلك قوله تعالى ﴿وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [المائدة: ١١٤]، وقوله سبحانه ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [المؤمنون: ٧٢]، وقوله تعالى ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الجمعة: ١١].

وأما اسمه سبحانه «الرَّزاق» فقد ورد في القرآن مرة واحدة، وذلك في قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، والمعنى في حق الله تعالى: هو المُتكفِّل بالرزق القائم على كل نفس بما يُقيمها من قُوتها، وسع الخلقَ كلَّهم رزقُه ورحمته، فلم يختصَّ بذلك مؤمنًا دون كافر، ولا وليًّا دون عدوٍّ، يسوقه إلى الضعيف الذي لا حيلة له ولا مُتكسَّب فيه، كما يسوقه إلى الجَلْد القويِّ ذِي المِرّة السَّوِيِّ، قال سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] (٢).

وقال **السعدي**: الرزاق: لجميع عباده، فما من دابّة في الأرض إلا على الله رزقها، ورزقُه لعباده نوعان؛ رزق عامٌّ يشمل البرّ والفاجر والأولين والآخرين وهو رزق الأبدان، ورزق خاصٌّ وهو رزق القلوب وتغذيتُها بالعلم والإيمان،

---

(١) الرزق في القرآن الكريم، د. سليمان الصادق البيرة، ص٧٣.
(٢) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز ناصر الجليل، ص٤٩٦.

والرزق الحلال الذي يُعين على صلاح الدين، وهذا خاصٌّ بالمؤمنين على مراتبهم منه، بحسب ما تقتضيه حكمته ورحمته(١).

٥ ـ ﴿وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾:

أ ـ ﴿وَٱعۡبُدُوهُ﴾:

إنَّ عبادة الله تعالى ـ التي هي ثمرة معرفته وتوحيده ـ سبب واسع من أسباب الرزق بنص قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨]، فالله جلّ جلاله لم يُكلِّف خلقَه رِزقَ أنفسهم أو رزقَ غيرهم، ولكنه كلَّفهم عبادته وتوحيده، وهو سبحانه مُتكفِّل برزقهم(٢).

وليس معنى العبادة فقط أداءَ شعائر الإسلام الظاهرة، ولكنه بالإضافة إلى ذلك تحقيق معنى العبودية الشامل لله تعالى في شتى مظاهر الحياة، إذ ليس في الكون كلّه إلا إله واحد يُعبد، وما سواه عبيد له، فيجب له كمال الذلّ والخضوع مع كمال الحبّ، ومن شأن ذلك أن يُفجّر في نفس العابد الطاقات والإمكانات المبدعة، فيتحرك نحو أهدافه بخطا ثابتة غير مضطربة، مُتلمِّسًا أسباب الرزق مستعيناً بالله تعالى، وذلك مدعاة لتيسير الرزق بإذنه، فقد أمر الله سبحانه وتعالى العبد بأمر، وضَمِن له ضمانًا، فإن قام بأمره بالنصح والصدق والإخلاص والاجتهاد، قام الله سبحانه له بما ضَمِنَه له من الرزق والكفاية والنصر، وقضاء الحوائج، فإنه سبحانه ضَمِن الرزقَ لمن عبدَه، والنصر لمن توكَّل عليه واستنصر به، والكفاية لمن كان هو همّه ومراده(٣).

---

(١) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز ناصر الجليل، ص٤٩٧.
(٢) الرزق في القرآن الكريم، د. سليمان الصادق البيرة، ص٩٣.
(٣) المرجع نفسه، ص٩٥.

ب ـ ﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾:

اشكروا الله أن خلقكم، وأعطاكم الأموال والبنين والزوجات والأهل والبيت، وأعطاكم هذه الصِّحة، وأعطاكم الحواسَّ، وأنعم عليكم بنعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الإرشاد، وسخَّر لكم ما في الكون جميعًا، ومنحكم نعمة العقل، وفطركم فطرة عالية، وأعطاكم حرية الاختيار، ألا ينبغي أن تشكروه؟![1].

إنَّ نعمة الرزق يجب أن تُقابَل بالشكر لله تعالى، واهب الرزق ومُسخِّره، وذلك يستلزم الإقرار له بالعبادة لله وحده لا شريك له[2].

والشكر اصطلاحًا: هو ظهور أثر نعمة الله على لسان عباده ثناءً واعترافًا، وعلى قلبه شهودًا ومحبّةً، وعلى جوارحه انقيادًا وطاعة[3].

ومن تأمَّل في سيرة إبراهيم عليه السَّلام يجد تفانيَه في طاعة الله قولاً وعملاً، بغية إظهار شكره لنعم الله عليه، وكونه عزّ وجل قد اختصّه بالنبوَّة والرسالة، واصطفاه بالخلّة ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾، والشكر لله من أسباب زيادة الرزق، فمن شكر فقد حرس النعمة عليه بالبقاء، وكسب به المزيد والنماء، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾ [إبراهيم: ٧].

والشكر بهذا باب الزيادة الواسع ومقام الشكر، وشأنه عظيم عند الله عزّ وجل، ولذلك لما عرف إبليس قدر مقام الشكر، وأنه من أجلِّ المقامات وأعلاها، جعل غايته أن يسعى في قطع الناس عنه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]،

---

(١) تفسير النابلسي «تدبر آيات الله في النفس والكون والحياة»، (٩/ ٢٠٣).

(٢) الرزق في القرآن الكريم، سليمان الصادق البيرة، ص١٧٤.

(٣) تهذيب مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، دار البشير للثقافة والعلوم، مصر، ط١، ١٩٩٧م، (٢/ ٦١١).

ولعظم مقام الشكر، فقد أخبر الله تعالى أنه إنما يعبده مَن شكرَه، فمن لم يشكره لم يكن من أهل عبادته، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢] [١].

وقابل القرآن الكريم بين الشكر والكفر، قال تعالى: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، ومما يشاهد في حياة الناس أن من كثُر شكره لله تعالى ـ مقالاً وحالاً وفعلاً ـ كثُر عطاء الله تعالى له، والشكر سبب المزيد، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، ويسمّونه «الحافظ»؛ لأنه يحفظ النعم الموجودة، والجالب؛ لأنّه يجلب النعم المفقودة[٢].

ج ـ ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾:

أي: يوم القيامة، فيُجازي كلَّ عامل بعمله[٣]، وفي قوله تعالى ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تحذير لهم، ودعوة صادقة للاستعداد لتلك الرجعة إلى خالقهم للحساب والجزاء.

* * *

ثالثًا: قوله تعالى ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [العنكبوت: ١٨]:

قال إبراهيم عليه السَّلام لقومه بعد أن بيَّن لهم بطلان ما هم عليه من الكفر وعبادة الأصنام: وإن تُكذِّبوا فلستم بأوَّلَ مَن كذَّب، ولكم عبرة بالذي حلّ

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، ابن قيم الجوزية، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ومكتبة دار التراث، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط٣، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م، ص١١٧.

(٢) المرجع نفسه، ص١٢٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، (٦/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠).

بالمكذبين من قبلكم، فقد أهلكهم الله ودمَّرهم، كما صنع بقوم نوح وعاد وثمود، فانتظروا أن يحلّ بكم ما حلّ بهم، ولْيعلَمِ الجميعُ أن مهمة الرسول هي تبليغ رسالة ربه للخَلق بلاغًا واضحًا لا لبس فيه ولا غموض، بلاغًا يبيّن لهم أنَّ ما هم عليه من باطل، وأن ما يدعوهم إليه الحق[1].

وتؤكد الآية الكريمة أمورًا، نذكر منها:

أ ـ تقرير حقيقة أن الإنسان تحت وطأة وسوسة الشيطان، يميل إلى تكذيب الحقّ والخروج عليه إلا من رحم الله تعالى، ومسيرة الإنسان عبر التاريخ تؤكّد ذلك وتدعمه، ولذلك قال ربنا ـ تبارك وتعالى ـ على لسان عبده ونبيه إبراهيم عليه السَّلام مخاطبًا قومه مؤكدًا هذا الواقع لهم بقوله ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾.

ب ـ تأكيد حرية الإنسان في اختيار الدين الذي يدين به نفسه لخالقه؛ لأنَّه على أساس من هذا الاختيار سيكون خلوده في الآخرة، إما في الجنة أبدًا، وإما في النار أبدًا، وجاء هذا التقرير في الآية الكريمة: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [العنكبوت: ١٨].

* * *

رابعًا: قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩ ـ ٢٠]:

يُخبر الله تعالى عن إبراهيم عليه السَّلام كيف أرشد قومه إلى إثبات المعاد الذي يُنكرونه ـ بقوله حكاية عن إبراهيم ـ من خلال الآيات التي نحن في صدد تفسيرها، وذلك بأن وجَّههم إلى النظر في أنفسهم وكيفية نشأتهم، وخلق الله

---

(١) قصص الأنبياء، مصطفى العدوي، (٢/ ١٢٠).

إياهم بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا، فالقادر على الإبداء والإيجاد قادر على الإعادة والبعث، ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة، والاستعداد ليوم القيامة، الذي يلقى فيه كل إنسانٍ جزاءه، وأن مصير من يكفر بالله العذاب الأليم(١)، والخطاب في الآيات الكريمة موجَّه لأمة محمد ﷺ كما قال بعض العلماء.

١ ـ قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩]:

لما بيّن الله سبحانه وتعالى الأصل الأول في الآيات السابقة في سورة العنكبوت وهو التوحيد، وأشار إلى الأصل الثاني وهو الرسالة بقوله ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾، شرع في بيان الأصل الثالث وهو الحشر والمعاد، وهذه الأصول الثلاثة لا يَنفكُّ بعضُها عن بعض في الذكر الإلهي(٢).

أ ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾:

وأشباهها، فإنها تفيد أن الشيء الذي سيأتي بعدها آية ظاهرة بيّنة دالة على عظمة الله عزّ وجل، وكأن الله عزّ وجل يدعوك إلى أن ترى، فهل رأيت؟

في ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾: الهمزة هنا للاستفهام الإنكاري، أي للإنكار عليهم عدمَ رؤيتهم، وتقدير الكلام: ألم ينظروا أي: أهل مكة وكفار قريش، ولم يروا أي: ولم يعلموا علمًا جاريًا مجرى الرؤية في الجلاء والظهور ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾: أي يخلقهم ولم يكونوا شيئًا مذكورًا، ويخلقهم من نطفة من غذاء هو ماء وتراب، وهذه القدر كافٍ في حصول العلم بإمكان الإعادة، فإن الإعادة مثل البدء: ألم يعلموا كيفية خلق الله ابتداء من مادة ومن غير مادة،

---

(١) منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني، منى عبد الله بن داود، ص١١٥.

(٢) تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، (٢١/ ٣٦٤).

أي: قد علموا، ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ أي: ثم هو يُعيد الخلق، ويردّهم إلى الوجود في الآخرة عند البعث(١).

وحاصل المعنى في الآية الكريمة: أنَّ إبراهيم خليل الرّحمن عليه السَّلام، أرشد قومه إلى إثبات المعاد الذي يُنكرونه بما يشاهدونه في أنفسهم من خلقهم بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا، ثم أعطاهم السمع والبصر والأفئدة، وتصرُّفهم في الحياة إلى حين، ثم موتهم بعد ذلك، والذي بدأ هذا قادر على أن يُعيده، بل هو أهون عليه كما قال في آية أخرى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾، أنتم قد علمتم نشأة الخَلق، فكيف تُنكرون الإعادة وهي أهون عليه، والمعنى: ألم يروا كيف يخلقهم الله ابتداء بنطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم ينفخ في المخلوق الروح ثم يخرجه إلى الدنيا، ثم يتوفاه بعد ذلك، وكذلك سائر الحيوانات وسائر النباتات، فإذا رأيتم قدرة الله سبحانه على الابتداء والإيجاد أولاً، فهو القادر على الإعادة(٢).

ب ـ ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾:

وقد يقول قائل: أنا لم أشاهد نفسي كيف خُلقت؟ فكيف يأمرنا الله عزّ وجل بالنظر في بدء الخلق؟ إنّ الله عزّ وجل جعل نظام البشر على أساس التوالد، فإذا كنتَ غائبًا عن نشأتك، فهذه نشأة ابنك أمامك، فأنت تعلم علم اليقين أن هذا الابن الذي أمامك كان حُوينًا منويًّا وبُويضةً، ولُقِّحَت هذه البويضة، وتكاثرت ونَمَتْ، والتصقت بجدار الرحم، وجاءها الغذاء إلى أن أصبحت كائنًا كاملاً في تسعة أشهر، ثم خرجت إلى الدنيا، وبدأت تنمو، فهو الآن يلعب ويضحك، ويتثاءب ويتكلم ويبتسم ويأكل، له فم، وله لسان، وله لسان مزمار، وله مريء، وله معدة، وله أمعاء دقيقة، وأمعاء غليظة، وزُغابات

---

(١) تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، (٢١/ ٣٦٤).
(٢) المرجع نفسه، (٢١/ ٢٦٥).

ماصّة، وله كبد، وله صفراء، وله بنكرياس وأوردة وشرايين وقلب، ورئتان وكليتان، وقصبتان ودماغ، ومخ ومخيخ، وبصلة سيسائية، ونخاع شوكي، وفقرات ظهرية وله عظام بعضها ثابت وبعضها متحرك، وعضلات وشعر، وأظافر، وله قوام وله نَفْس[١].

ودَقِّق النظر في ظاهرة النبات، فهي وحدها ظاهرة كافية كي تسجد لله سجود الطائعين الموقنين، فالبذرة التي تزرعها لها غلاف، ولها مخزون من المواد، ولها رُشَيمٌ حيٌّ، فإذا جاءته الرطوبة وجاءه الغذاء وجاءه الضوء، ينمو سويقًا وجذيرًا، ويصبح شجرًا له صفات لا يعلمها إلا الله، فلك أن ترى عملية نمو النبات لتعلم كيف يُبدئ الله خلقه، فهذه البيضة التي تأكلها وتقول: أكلت اليوم بيضًا، لو بقيت تحت أمها لأصبحت حيوانًا كاملاً فرخًا نسميه «صوصًا»، إذن من حوّل هذا السائل الأصفر والأبيض إلى كائن يتحرّك ويزقزق ويلوذ بأمه، ويكبر وينمو، ثم تأكل منه لحمًا وتأكل منه طعامًا لذيذًا؟ الله عزّ وجل لم يُبعدك عن وسائل الإيضاح، بل جعلها أمامك، وبثّها في كل مكان، فربّنا عزّ وجل يقول: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠]. فكلمة ﴿يُبْدِئُ﴾ إما من الإبداء أي: الإظهار، أو من الابتداء، وكلاهما صحيح، فالله عزّ وجل يُظهر لك قدرته وعظمته من تعريفك بخلقك، فأنت لا تعرف ماذا في أحشائك، في الإنسان أشياء معقدة[٢].

وتقول بعض النظريات الحديثة: إن للكبد خمسة آلاف وظيفة، أي: أنّ له دورًا خطيرًا جدًّا، إنّه مخبر مركزي، فبإمكانه أن يحوّل المواد الشّحمية الدهنيّة إلى مواد سكريّة، وبإمكانه أن يحول المواد السكرية إلى شحميّة، وهذا ما يفعله الكبد بقدرة الله عزّ وجل، وهو يفرز هرمون التجلُّط وهرمون التمييع، ومن إفراز هذين الهرمونين على نحو دقيق يكون الدم بهذا القوام المناسب،

---

(١) تفسير النابلسي «تدبر آيات الله في النفس والكون والحياة»، (٩/ ٢٠٥).
(٢) المرجع نفسه، (٩/ ٢٠٥).

فلو أفرز الكبد هرمون التجلُّط زيادة على حدّه الدقيق؛ لأصبح الدم وَحَلاً في الأوعية، ولو أفرز الكبد هرمون التميُّع زيادة عن حدِّه لسال دمُ الإنسان كلُّه من رُعاف واحد، ومَن تعطَّلَ كبدُه لا يستطيع أن يعيش أكثر من ثلاث ساعات.

وإذا قرأت في الفلك تقرأ في ظهور مجرّات جديدة، واختفاء مجرّات، واتساع بعض المجرات، وعن الثقوب السوداء في الفضاء الخارجي، فإذا أردت أن تطّلع تمامًا تجد بدءًا للخلق ثم إعادة للخلق[(١)].

وأما إعادة الخلق فإن ربنا عزّ وجل في أكثر آيات الإيمان يذكر الإيمان باليوم الآخر مقترنًا بالإيمان بالله؛ لأنك لن تستقيم على أمر الله إلا إذا أيقنت بوجود الله، وأيقنت بعلمه وأيقنت باليوم الآخر، فالله عزّ وجل أودع في هذه النفوس الشهوات، وأعطاها قوًى في الظاهر، فهذه القوى مع تلك الشهوات تندفع نحو مصالحها، فما الذي يُلجمها؟

يُلجِمُها الخوف من الله والخوف من حسابه، وهذه المعرفة بالله عزّ وجل، واليقين بالوقوف بين يديه، ففي (المعجم الكبير) للطبراني عن أم سلمة قالت: دعا النبي ﷺ وصيفة له، فأبطأت عليه فقال: «**لولا مَخافةُ القَوَدِ يومَ القِيامةِ لأوجعتُكِ بهذا السِّواكِ**»[(٢)].

إنّ اليوم الآخر له دليلان: دليل نقلي ودليل عقلي، فالنقلي ما جاء به القرآن الكريم، وأما الدليل العقلي فهو أنك من خلال الكون تعلم أن خالق الكون عظيم، أسماؤه حُسنى، وصفاته فُضلى، فلا يُعقل أن يدع عباده هكذا، من دون حساب أو عقاب أو جزاء؛ لأنَّ هذا يتنافى مع عدالته وكماله، ففي الدنيا غنيٌّ وفقير، وهناك قويٌّ وضعيف، ومريض وصحيح، وهناك حاكم ومحكوم، فما الذي يُلجم المؤمن عن الفتك والظلم؟ لو أن جميع الناس خافوا

---

(١) تفسير النابلسي «تدبر آيات الله في النفس والكون والحياة»، (٩/ ٢٠٦).
(٢) المرجع نفسه، (٩/ ٢٠٧).

من الله تعالى لانتهت كلُّ مشاكلهم، لكن هذا الذي يعتدي، وهذا الذي يأخذ ما ليس له ضعيف إيمانه، ولو أيقن يقينًا قطعيًّا أنه سيدفع الثمن باهظًا، وأنه لن يفلت من عقاب الله عزّ وجل، لارتدع واستقام، فلا بُدّ من أن يقف النّاسُ جميعًا للحساب لدى ربّ العالمين، ويُعطى كلُّ إنسان ما يَستحقُّ(١).

ج ـ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾:

أي: بدء الخلق ثم إعادته يوم القيامة: ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾، فالله عزّ وجل قرّب هذا من أذهاننا بأن الشيء إذا صنعته أول مرة، فإنك تجد فيه جهدًا كبيرًا، وفي المرة الثانية يكون أهون، وفي الثالثة أهون، فنحن بني البشر أعدنا صناعةَ الشيء مراتٍ ومراتٍ، فلا بُدّ أننا سنجده سهلاً، ولله المثل الأعلى، فالخلق على الله عزّ وجل ليس كذلك، إنما أمره كنْ فيكون، وعلمه قديم، وكل شيء عليه يسير، ولكن ربنا عزّ وجل يدعونا إلى التفكُّر في أصل الكون، أليس الله قد خلقه؟ إذ لا يصعب عليه بناؤه مرةً ثانية(٢).

فليس في خلق الله شيء عسير عليه سبحانه وتعالى، ولكنّه يقيس للبشر بمقاييسهم، فالإعادة أيسر من البدء في تقديرهم وإلا فالبدء كالإعادة، والإعادة كالبدء بالقياس إلى قدرة الله، وإنما هو توجُّه الإرادة وكلمة: كن فيكون(٣).

٢ ـ قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ٢٠]:

بيّنا في الآية التي قبل هذه الآية، أنَّ إبراهيم عليه السَّلام أرشد قومه إلى إثبات المعاد الذي يُنكرونه بما يشاهدونه في أنفسهم من خلقهم بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا، ثم إعطائهم السمع والبصر والأفئدة وتصرُّفهم في الحياة

---

(١) تفسير النابلسي «تدبر آيات الله في النفس والكون والحياة»، (٩/ ٢٠٧).
(٢) المرجع نفسه، (٩/ ٢٠٧).
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٢٧٢٩).

إلى حين، ثم موتهم بعد ذلك، والذي بدأ هذا قادر على أن يُعيده، بل هو أهون عليه، فأنتم قد علمتهم ذلك، فكيف تُنكرون الإعادة وهي أهون عليه؟[١].

وبعد أن ساق الدليلَ المشاهدَ في الأنفس، أرشد إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة، فقال: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي: سيروا في الأرض، وشاهدوا السماوات، وما فيها من الكواكب النيّرة ثوابتِها وسيّاراتِها، والأرض، وما فيها من جبال ومهاد، وبرارٍ وقفار، وأشجار وثمار، وأنهار وبحار، فكل ذلك شاهد على حدوثها في أنفسها، وعلى وجود صانعها الذي يقول للشيء كن فيكون، أوليس من فعل هذا بقادر على أن يُنشئه نشأة أخرى، ويوجد مرة ثانية؟ بلى هو القادر على كل شيء؟[٢].

إنَّها دعوة ربانية للسير في الأرض، وتتبع صنع الله وآياته في الخلق والإنشاء، في الجامد والحيّ سواء، ليُدركوا أن الذي أنشأ يُعيد بلا عناء[٣].

والسير في الأرض يفتح العين والقلب على المشاهد الجديدة، التي لم تألفها العين ولم يملّها القلب، وهي لفتة عميقة إلى حقيقة دقيقة، وإنّ الإنسان ليعيش في المكان الذي ألفه فلا يكاد ينتبه إلى شيء من مشاهده أو عجائبه، حتى إذا سافر وتنقَّل وساح، استيقظ حسّه وقلبه إلى كل مشهد، وإلى كل مظهر في الأرض الجديدة، مما كان يمرّ على مثله أو أروع منه في موطنه دون التفات ولا انتباه، وربّما عاد إلى موطنه بحسٍّ جديد وروحٍ جديدة؛ ليبحث ويتأمل ويعجب بما لم يكن يهتمُّ به قبل سفره وغيبته، وعادت مشاهد موطنه وعجائبها تنطق له بعدما كان غافلاً عن حديثها؛ أو كانت لا تُفصح له بشيء ولا تُناجيه!

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٢٦/ ٥٦).
(٢) التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، (٢٦/ ٥٦).
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٢٧٢٩).

فسبحان منزل القرآن، الخبير بمداخل القلوب وأسرار النفوس[١].

أ ـ ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾ :

إنَّ التعبير هنا بلفظ الماضي ﴿كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾، بعد الأمر بالسَّير في الأرض لينظروا كيف بدأ الخلق، يُثير في النفس خاطرًا معينًا: ترى أهنالك في الأرض ما يدلُّ على نشأة الحياة الأولى، وكيفية بدء الخليقة فيها، كالحفريات التي يتتبَّعها بعض العلماء اليوم؛ ليعرفوا منها خطَّ الحياة، كيف نشأت؟ وكيف انتشرت؟ وكيف ارتقت؟ وإن كانوا لم يصلوا إلى شيء في معرفة سرِّ الحياة: ما هي؟ ومن أين جاءت إلى الأرض؟ وكيف وُجد فيها أوَّلُ كائن حيّ؟ ويكون ذلك توجيهًا من الله للبحث عن الحياة الأولى والاستدلال به عند معرفتها على النشأة الآخرة[٢].

ويخاطب القرآن الكريم البشر من خلال قصة إبراهيم عليه السَّلام كما في هذه الآيات بما يتماشى مع توجيهاته التي تناسب حياة الناس في أجيالهم جميعًا، ومستوياتهم جميعًا، وملابسات حياتهم ووسائلهم جميعًا؛ ليأخذ كل منها بما تؤهِّله له ظروف حياته ومقدراته، ويبقى فيها امتداد يصلح لقيادة الحياة ونموِّها أبدًا[٣].

وهذا من أهداف القصص القرآني في تقديم الدروس والعبر والفوائد للأجيال المتعلقة بكتاب الله الكريم.

ب ـ ﴿ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴾ :

أي: كما أنَّ الشجر في الخريف تصفرُّ أوراقُه ويصبح خشبًا، ثم يأتي الربيع فتُزهر هذه الأشجار، ثم تُورق فإذا هي بهجة للناظرين، وكل ذلك حصل وجرى بفعل الله سبحانه وتعالى[٤].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٢٧٣٠).
(٢) المرجع نفسه، (٥/ ٢٧٣٠).
(٣) المرجع نفسه، (٥/ ٢٧٣٠).
(٤) تفسير النابلسي «تدبر آيات الله في النفس والكون والحياة»، (٩/ ٢٠٩).

وفي قوله تعالى ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ أي: بعد النشأة الأولى التي تشاهدونها، وفي التصريح بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ إشارة إلى أنه وحده القادر على هذه النشأة، فلا يَقدر عليها غيرُه، وأفاد التعبير عن الإعادة بالنشأة على أنهما نشأتان لا فرق بينهما، فكلاهما اختراع وإيجاد، وهما شأنٌ واحد من شؤونه تعالى، لا فرق بينهما بالأوَّليَّة والآخِرية[١].

وهما النشأتان اللَّتان يُقرُّ بهما المعذَّبون في النار يوم القيامة، وهم يَسألون الله تعالى الخروجَ منها: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ [غافر: ١١][٢].

ج ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾:

يبدأ الله تعالى الحياة ويُعيدها بهذه القدرة المطلقة التي لا تتقيَّد بتصوُّرات البشر القاصرة، وما يحسبونه قوانين يقيسون عليها الممكن وغير الممكن بما يعرفونه من تجاربهم المحدودة[٣]، فالله عزّ وجل يتَّصف بكمال القدرة وبطلاقة المشيئة وتمام الإرادة، فهو الفعّال لما يريد[٤].

وقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ تعليل لما قبلها، فمَن علمَ قدرة الله تعالى على جميع الأشياء، التي منها النشأة الأولى، لا يُتصوَّر أن يتردَّد في التصديق بوقوع الإعادة بعدما أخبر الله تعالى بذلك[٥].

* * *

(١) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٦/ ٣٧٩).
(٢) المرجع نفسه، (٦/ ٣٧٩).
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٢٧٣٠).
(٤) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٦/ ٣٨٠).
(٥) تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، (٢١/ ٣٦٦).

خامسًا: قوله تعالى ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [العنكبوت: ٢١ ـ ٢٣]:

١ ـ قوله تعالى: ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ﴾ [العنكبوت: ٢١]:

أ ـ ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾:

يُعذِّب الله عزّ وجل مَن يشاء، له الحكم والتصرُّف فيما يريد، والكلام هنا عن المكذِّبين المعرضين وعن الكافرين، وقد ناسب أن يبدأ بهم بذكر العذاب، و﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يُعذِّب مَن يشاء منكم ومن غيركم في الدنيا والآخرة بعدله في حكمه، بحسب سُنَنِه في خلقه[١].

ب ـ ﴿وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ﴾:

ويرحم مَن يشاء بفضله ورحمته، فهو الحاكم المُتصرِّف الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا معقّب لحكمه، ولا يُسأل عمّا يفعل، وهم يسألون[٢].

ج ـ ﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ﴾:

أي: ترجعون، وجاء بصيغة ﴿ تُقۡلَبُونَ﴾ الدالة على القهر والانقياد عنوة؛ ليقول لهم: مهما بلغ بكم الطغيان والجبروت والتعالي بنعم الله عزّ وجل، فلا بُدّ لكم من الرجوع إليه، والمثول بين يديه سبحانه وتعالى، فتذكَّروا هذه المسألة جيِّدًا، حيث لا مهرب لكم منها[٣].

---

(١) التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، (١٧/ ١٧٩).
(٢) المرجع نفسه، (١٧/ ١٧٩).
(٣) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١٨/ ١١١٢١).

ولم يقل الله عزّ وجل (إليه ترجعون)، بل قال: ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾، فيبدو أن الإنسان عندما ينتقل إلى الآخرة تتغيّر كل المقاييس لديه، فكل شيء حقّقه في الدنيا من مكاسب ينتهي وتقوّم بمقياس آخر، مقياس العمل الصالح، ومقياس نفع الناس، ومقياس الاستقامة على أمر الله، إنّه مقياس الشرع فقط[١].

قال تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ [الواقعة: ١ ـ ٣]، ففي هذا اليوم الذي ننقلب فيه إلى الله نُقلب، وكأن هناك انقلابًا سيحصل، فكل شيء للدنيا يبقى في الدنيا، قد يكون أسعد السعداء في الدنيا، هو أشقى الأشقياء في الآخرة، وقد يكون أذكى الناس فيبدو في الآخرة من أغباهم، وهكذا.

ومن معاني القلب: موضوع المقاييس، ففي يوم القيامة مقياس يختلف عن مقاييس الدنيا، فالناس الآن لديهم مقاييس كثيرة يتقايسون بها فيرتفعون؛ كمقياس الجمال، ومقياس المال، ومقياس النّسب، ومقياس الجاه، ومقياس الذكاء، ومقياس القوّة، هذه كلها مقاييس يقوّم الناسُ بها، وأما في الآخرة؛ فهناك مقياس واحد: ماذا فعلت من عمل خالص لوجه الله؟[٢].

إنَّ من قدرة الله: تعذيبه لمن يشاء ورحمته لمن يشاء، لا يُعجزه أحد، ولا يمتنع عليه أحد، والعذاب والرّحمة يتبعان مشيئة الله من حيث إنّه بيَّن طريق الهدى وطريق الضَّلال، وخلق للإنسان من الاستعداد ما يختار به هذا أو ذاك، ويُيسِّر له الطريقين سواء، وهو بعد ذلك وما يختار، غير أن اتجاهه إلى الله، ورغبته في هداه، ينتهيان به إلى عون الله له، كما كتب على نفسه. وإعراضُه عن دلائل الهدى وصدُّه عنها يؤديان إلى الانقطاع والضَّلال، ومن ثم

(١) تفسير النابلسي «تدبر آيات الله في النفس والكون والحياة»، (٩/ ٢١١).
(٢) المرجع نفسه، (٩/ ٢١١).

تكون الرّحمة ويكون العذاب ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾: تعبير عن المآب فيه عنفٌ، يناسب المعنى الذي بعده[١].

٢ ـ قوله تعالى ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [العنكبوت: ٢٢]:

أ ـ ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾:

ليس لكم من قوة في هذا الوجود، تمتنعون بها من الانقلاب إلى الله تعالى، لا من قوتكم في الأرض، ولا من قوة ما تعبدونه أحياناً من الملائكة، وتحسبون له قوة في السماء[٢].

إنّكم لن تُفلتوا من الله تعالى، ولن تتأبّوا عليه حين يدعوكم للوقوف بين يديه، بل تأتون صاغرين، فالهرب والإفلات من لقاء الله تعالى في الآخرة أمر غير وارد على الذهن أصلاً، ولذلك نفى عنهم الوصف من أساسه ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[٣].

ب ـ ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾:

أي ليس لكم من وليّ يُغيثكم ويَرعاكم ويَمدُّكم حتى تستغنوا عن فضل الله، وكلمة ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ فيها معنى سلبيٌّ، وهو العجز أمام عذاب الله، فلا وليَّ ولا نصير، ولستم بمعجزين، والحبل مُرخًى، فإذا آن الأوان شدّه الله عزّ وجل، فإذا أنتم في قبضته، فسبحان من قهر عباده بالموت[٤].

وفي قوله تعالى ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ حتى لا يقول قائل: إن كانوا هم غير معجزين، فقد يكون وراءهم مَن يشفع لهم، أو يدافع

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٢٧٣١).
(٢) المرجع نفسه، (٥/ ٢٧٣١).
(٣) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١٨/ ١١١٢٢).
(٤) تفسير النابلسي «تدبر آيات الله في النفس والكون والحياة»، (٩/ ٢١٣).

عنهم، فنفى هذا أيضًا؛ أي: نفى عنهم الولي ونفى عنهم النصير؛ لأنَّ هناك فرقًا بينهما، الوليّ هو الذي يقرب منك بمودة وحبّ، وهذا يستطيع أن ينصرك بالحسنى وبالسياسة، ويشفع لك إن احتجت إلى شفاعته، وأمّا النصير فهو الذي ينصرك بالقوة والفتوة، وهكذا نفى عنهم الولي والنصير، لكن ذَكَر ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ . .﴾ [العنكبوت: ٢٢].

إذن من الممكن أن تكون لهم ولاية وتأييد من الله تعالى، فإن أرادوا الوليَّ الحق والنصير الحق، فليؤمنوا به ليكون وليّهم ونصيرهم، وكأنه سبحانه يقول لهم: إن تُبتم ورجعتم عمّا كنتم فيه من الكفر، واعتذرتم عمّا كان منكم، فأنا وليّكم وأنا نصيركم[١].

٣ ـ قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [العنكبوت: ٢٣]:

هذا الكفر هو جحود آيات الله الدالّة على عظمته، كالآيات الكونية التي تُثبت قدرة الله، وتلفت النظر إلى حكمة الخالق عزّ وجل، كالليل والنهار، والشمس والقمر، أو آيات المعجزات التي تُصاحب الرسل؛ ليُؤيِّدهم الله بها، ويَظهر صدقهم في البلاغ عن الله، وقد كفروا بكل هذه الآيات، فلم يُصدّقوا منها شيئًا، وما داموا قد كفروا بهذه الآيات، وكفروا أيضًا بلقاء الله في الآخرة، فرحمة الله بعيدة عنهم، وهم يائسون منها، واليأس: قطع الرجاء من الأمر، وقد قُطع رجاء الكافرين؛ لأنهم عبدوا ما لا ينفع ولا يضرّ، وكفروا بمن بيده النفع وبيده الضرّ[٢].

وقد جعل الكفار موضوعَ الآخرة خارجَ حساباتهم، وإنما يريدون الدنيا،

---

(١) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١٨/ ١١١٢٣).
(٢) المرجع نفسه، (١٨/ ١١١٢٣).

وقد يئسوا من رحمة الله وقنطوا من عطائه، فليس عندهم إلا الدنيا، فلذلك أقدموا على ما أقدموا عليه من الشرك والمعاصي؛ لأنّه ليس في قلوبهم ما يخوّفهم من عقابه ذلك، ولهذا قال: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي﴾ أي: فلذلك لم يعملوا عملاً واحدًا يُحصِّلون به الرّحمة، وإلا فلو طمعوا في رحمته لعملوا لذلك أعمالاً[١].

ولا ييأس الإنسان من رحمة الله إلا حين يكفر قلبه، وينقطع ما بينه وبين ربّه، وكذلك هو لا يكفر إلا وقد يئس من اتصال قلبه بالله، وجفَّت نداوته، ولم يعد له إلى رحمة الله سبيل، والعاقبة معروفة: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٢]، أي: مُؤلم مُوجع[٣].

وبعد هذا الخطاب المعترض في نهاية القصة، الذي جاء خطابًا لكل مُنكرٍ لدعوة الإيمان ولقوم إبراهيم ضمنًا، يعود لبيان جواب قوم إبراهيم عليه السَّلام، فيبدو هذا الجواب غريبًا عجيبًا، ويكشف عن تبجُّح الكفر والطغيان بما يملك من قوة وسلطان[٤].

لقد عادت الآيات إلى الحديث عن ابتلاء إبراهيم عليه السَّلام، فوَصفت لنا كيف أدركته رحمة الله تعالى، وحفّت به ألطافه، وهو في قمة المحنة والابتلاء؛ لأنّه جعل ولاءه لله وحده، فالله سبحانه لا يتخلَّى عن أصفيائه وأوليائه ولا يَخذلهم[٥].

❊ ❊ ❊

---

(١) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٣٠٩.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٢٧٣١).
(٣) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٣٠٩.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٢٧٣١).
(٥) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٦/ ٣٨١).

سادسًا: قوله تعالى ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٤]:

لقد بدأ إبراهيم عليه السَّلام حوارَه في سورة العنكبوت بدعوة قومه، وأمرهم بإخلاص العبادة لله تعالى، وبالخوف من عقابه، ثم ثنّى بتحبيب هذه الحقيقة إلى قلوبهم ببيان أنَّ إيمانهم خير لهم، ثم ثلّث بتهييج عواطفهم نحو العلم النافع الذي يتنافى مع الجهل، ثم بعد ذلك نفّرهم من عبادة الأوثان، حيث بيّن لهم تفاهتها وعجزها، وحضّهم على طلب الرزق ممَّن يملكه، ألا وهو الله عزَّ وجل الذي إليه المرجع والمآب، ثم أخذ عليه السَّلام يُحذِّر قومَه من الاستمرار في تكذيبه، ويلفت أنظارهم إلى أن هناك حسابًا وثوابًا وعقابًا، ويوجِّههم إلى التأمُّل في تاريخ الأمم المكذّبة برسلها كيف كانت نهايتها، وبعد هذه الجمل التذكيرية التي ابتدأ بها إبراهيم عليه السَّلام في منطق وعظي مؤثر، وأسلوب تذكيري محكم، يأتي ردُّ قومه بهذا المستوى المنحطّ(١).

١ ـ قوله تعالى ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾:

أي: ما كان جواب قومه على حججه وبراهينه القاطعة الملزمة إلا أن قال بعضهم لبعض: ﴿قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ فقد عرفوا قوة حججه، وشعروا بخطره على عقائدهم وضلالاتهم حتى إنهم أقروا لهم بذلك، واعترفوا أمامه بظلمهم لأنفسهم بعبادة غير الله تعالى كما تقدّم بيانه بسورة الأنبياء ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٤] (٢).

إنَّ جواب قوم إبراهيم عليه السَّلام دالٌّ على إفلاسهم وانهزامهم، إنّه مجرد هروب من المواجهة وإفلاس في الحجّة، وإنه جواب مَن لم يحر جوابًا، وليس

---

(١) صناعة الحوار، حمد عبد الله السيف، ص٢٢٩.

(٢) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٦/ ٣٨١).

لديه إلا منطق التهديد والتلويح بالقوة والبطش الشديد، وهذه لغة من لا حجّة عنده ولا برهان(١).

٢ ـ قوله تعالى ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ﴾:

أنجى الله تعالى إبراهيمَ عليه السَّلام من النار بعد أن ألقَوه فيها، ولم يُصبه شيء من حرِّها، بل كانت بردًا وسلامًا عليه، كما تقدَّم تفصيل ذلك في سورة الأنبياء، عند قوله تعالى ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٩ ـ ٧٠].

٣ ـ قوله تعالى ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾:

إن في إنجاء إبراهيم عليه السَّلام من النار دروسًا وعِبَرًا عجيبة ظاهرة، تدلُّ على كمال قدرة الله تعالى وعلى صدق إبراهيم عليه السَّلام، وموالاته لربّه، وأنه تعالى لا يتخلّى عمَّن يلجأ إليه ويُواليه، وخصّ المؤمنين بالذكر؛ لأنّهم هم المنتفعون بهذه الآيات المستفيدون بما فيها من عبر ودروس وعظات(٢).

وفي قوله ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: الآية الأولى هي النجاة من النار، والآية الثانية هي عجز الطغيان عن إيذاء رجل واحد يريد الله له النجاة، والآية الثالثة هي أن المعجزة الخارقة لا تهدي القلوب الجاحدة، ذلك لمن يريد أن يتدبَّر تاريخ الدعوات وتصريف القلوب، وعوامل الهدى والضَّلال(٣).

* * *

(١) صناعة الحوار، حمد عبد الله السيف، ص٢٣٠.
(٢) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٦/ ٣٨٢).
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٢٧٣١).

سابعًا: قوله تعالى ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥]:

قبل أن يُهاجر إبراهيم عليه السَّلام ويقرِّر الرحيل، وجّه كلماته الأخيرة إلى قومه، وقد أودع فيها كل ما يحمل في نفسه وقلبه من مرارة غربته بينهم، كما أعلن فيها براءته من شركهم وكفرهم(١).

١ ـ ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾:

إنَّما تولَّيتُم الأوثان وعبدتموها؛ لتتوادُّوا فيما بينكم وتتواصلوا، لاجتماعكم على عبادتها واتفاقكم عليها، أو إنّ مودة بعضكم بعضًا هي التي دعتكم إلى اتِّخاذها بأن رأيتم بعض من تَودُّونه اتَّخذها، فاتخذتموها موافقة له لمودتكم إيّاه(٢).

وإنّ أصنامكم هذه ليست إلا رموزًا تتعصَّبون لها تعصّبًا عاطفيًّا أعمى، لا يستند إلى دليل وبرهان، فهي لا تستحقُّ أن تُعبد وتُعظّم وتُؤَلَّه، وهذه ظاهرة لا تزال مع الأسف موجودة عند كثير من الأمم والشعوب(٣).

٢ ـ قوله تعالى ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾:

تتغير الأحوال في يوم القيامة وتنقطع بينكم الصلات، وتنقلب المودة إلى بغض وعداء؛ لأنّها قامت على أساس فاسد باطل، كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، وقد كشفت الآية

(١) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٦/ ٣٨٢).
(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الآلوسي، (٢٠/ ١٥٠).
(٣) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٦/ ٣٨٣).

الكريمة عن مصير هؤلاء في الآخرة، فقد كانت بينهم مودّة دفعتهم للتعصُّب لها على حساب توحيد الله وإفراده بالعبادة، وتورطوا في حبائل إبليس، إذن هي يوم القيامة عداء ولعن وخصام وانفصام، ويتنكَّر التابعون للمتبوعين، ويكفر الأولياء بالأولياء، ويتَّهم كلُّ فريق صاحبَه أنه أضلَّه، ويلعن كلُّ غويٍّ صاحبَه الذي أغواه، ثم لا يجدي ذلك الكفر والتلاعب شيئًا، ولا يدفع عن أحد عذابًا[(١)].

قال **ابن القيم**: هذه الخِلطة التي تكون على نوع مودّة في الدنيا، وقضاء وطر بعضهم من بعض تنقلب إذا حقّت الحقائق عداوة، ويعضُّ المخلِّط عليها يديه ندمًا، كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩]، وقال تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧]، وقال تعالى على لسان خليله إبراهيم لقومه: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وهذا شأن كل مشتركين في غرض، يتوادُّون ما داموا متساعدين على حصوله، فإذا انقطع ذلك الغرض أعقبته ندامة وحزنًا وألمًا، وانقلبت تلك المودّة بغضًا ولعنة وذمًّا من بعضهم لبعض، لمّا انقلب ذلك الغرض حزنًا وعذابًا، كما يشاهد في هذه الدار من أحوال المشتركين في خزيةٍ، إذا أُخِذوا وعُوقبوا، فكلُّ متساعدَيْن على باطل متوادَّيْن عليه، لا بُدَّ من أن تنقلب مودّتهما بُغضًا وعداوة[(٢)].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٢٧٣٢).

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية، (١/ ٤٥٥).

٣ ـ قوله تعالى ﴿ وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾:

لا ينتهي الأمر عند هذه العقوبة التي يُوقعونها بأنفسهم من التبرُّؤ واللَّعن، بل ينصرفون إلى عقوبة أشد ﴿ وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، ونلحظ هنا أن الحقَّ سبحانه لم يقل: وما لكم من دون الله؛ لأنَّ الكلام في الآخرة حيث لا توبة لهم ولا رجوع، فقد انتفى أن يكون لهم وليّ أو نصير من الله، كذلك لا ناصر لهم من أوليائهم الذين عبدوهم من دون الله، حيث يطلبون النصرة من أحجار وأصنام، لا تنطق ولا تُجيب[١].

وقد بيّن لهم إبراهيم عليه السَّلام: أن مأواهم النار أبدًا، وما لهم من أولياء يُنجُّونهم في ذلك اليوم المشهود، ولكنّ الذي نجاني من النار التي ألقيتموني فيها سيُنجيني من تلك النار برحمته، وكذلك سينجي المؤمنين.

❊ ❊ ❊

ثامنًا: قوله تعالى ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [العنكبوت: ٢٦]:

بعد أن مَنَّ الله تعالى على خليله إبراهيم عليه السَّلام بمعجزة النجاة من النار التي صنعها له أهل العراق، هاجر عليه السَّلام إلى أرض الشام بحثًا عن وطن يجد فيه الأمن الذي لم يجده في العراق، ويعبد الله سبحانه وتعالى على ما يُحبّ، ولا يُحارَب من أجل معتقده، ولا يُجبر على عبادة ما لا يريد ولا يحبّ، ولا يُفتن في دينه، وينشر ما آمن به من التوحيد والدِّين، ويدعو الناس ويعلِّمهم كلَّ ذلك[٢].

---

(١) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١٨/ ١١١٣٠).
(٢) ملة أبيكم إبراهيم، عبد الستار كريم المرسومي، ص٨٠.

١ ـ قوله تعالى: ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ﴾:

وكان لوط عليه السَّلام قد آمن بنبوَّة إبراهيم عليه السَّلام بعد أن رأى معجزة النار التي لم تحرق خليل الله إبراهيم عليه السَّلام، فتيقّن أنه نبيٌّ مرسَل من الله سبحانه، وأن الذي حصل لم يكن حدثًا عابرًا، وإنما كانت معجزة صنعتها يد الخالق العظيم، وفي هذا إشارة للناس عامة وللمؤمنين خاصّة في أن الله عزّ وجل يُخرج الفَرَج من بين أنياب الضيق، فأهل العراق آنذاك أرادوا حرق النبي الخليل إبراهيم عليه السَّلام، لكن إبراهيم عليه السَّلام كسب دعمًا جديدًا من مؤمن جديد بعد سارة زوجته.

قال **الإمام القرطبي** في قوله تعالى ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ﴾: إنَّ لوطًا أوَّلُ من صدَّق إبراهيم حين رأى النار عليه بردًا وسلامًا[١].

وقال **الشعراوي**: في قوله تعالى ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ﴾؛ جاءت جملة اعتراضية في قصة إبراهيم عليه السَّلام؛ لأنَّ المحصلة النهائية هي دعوة إبراهيم في قومه، ولذلك يعود السِّياق مرة أخرى إلى إبراهيم عليه السَّلام[٢].

٢ ـ قوله تعالى ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾:

أي: إني مهاجر إلى حيث أعبد ربي بحرِّيّة، وأستأنس بطاعته، فلا أستوحش برؤية أصنامكم وأوثانكم، ولا أُعاني من أذاكم[٣].

و﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ لا إلى غيره، بل إلى عبادته، وإقامة شعائر دينه، والقيام بدعوة الخلق إلى الحق من شَرعه وتوحيده[٤].

إنّما هاجر إلى ربّه ليكون مُتقرِّبًا إليه، مُلتجئًا إلى حماه، هاجر إليه بقلبه

(١) تفسير القرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، القرطبي، (١٣/ ٣٣٩).
(٢) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١٨/ ١١١٣٢).
(٣) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٦/ ٣٨٣).
(٤) محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، (١٣/ ١٤٧).

وعقيدته قبل أن يهاجر بلحمه ودمه، هاجر إليه ليُخلِص له عبادته ويُخلِص له قلبَه ويُخلِص له كيانه كلَّه في مهجره، بعيدًا عن موطن الكفر والضَّلال بعد أن لم يبقَ رجاء في أن يفيء القوم إلى الهدى والإيمان بحال[(١)].

إنَّ هجرة الداعية إلى الله تعالى من بلد لا يتمكَّن فيه من عبادة الله عزّ وجل، إلى بلد يتمكَّن فيه من ذلك، من أعظم أسباب نجاح دعوته، فإن إبراهيم عليه السَّلام أبا الأنبياء وأعظمَ الدعاة، بعد نبينا محمد ﷺ، هو أوَّلُ من اتّخذ هذه الوسيلة لنجاح دعوته، فقد هاجر من بلاده وترك وطنه ورَغِبَ عنه، كل ذلك في سبيل الدعوة إلى الله تعالى، فقد خرج من أرض العراق مهاجرًا إلى بلاد الشام، هو وابن أخيه لوط وامرأته سارة عليهم السلام ليتمكَّن من عبادة ربه ودعوة الخلق إليه، وخرج من الشام إلى مصر، ثم رجع إلى الشام، ثم خرج إلى مكة المكرمة حيث ترك فيها ابنه إسماعيل وأُمَّه هاجر، كما هو مشهور معلوم، وسيأتي بيان ذلك في محلِّه بإذن الله تعالى. ولمّا هاجر هذه الهجرة رزقه الله أولادًا صالحين، وجعل في ذُريّته النبوَّة والكتاب[(٢)].

وقد وضع إبراهيم عليه السَّلام بهجرته لَبِنة أُخرى من لبنات مِلَّة إبراهيم الحنيفية السمحة، فهجرته تقول لنا: إنّ المسلم لا ينبغي أن يبقى بأرض لا يستطيع أن يَعبد الله سبحانه وتعالى حقَّ عبادته فيها، ويَعجز فيها أن يُعلن عن عقيدته ودينه، ويُمنع أن يقول مقالة الصدق والحقّ، ولا يَسعه أن يفعل الخيرات ويرفض المنكرات، وإن هؤلاء الذين يبقون في أرض يشاركون الكفار حياتهم خوفًا وطمعًا، ولا يضعون اعتبارًا لعقيدتهم ولدينهم، سيُحاسبهم الله سبحانه على ذلك؛ لأنّهم لم يخرجوا لأرض يُحقِّقون فيها

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٢٧٣٢).

(٢) الدعوة إلى الله في سورة إبراهيم، محمد بن سيدي بن الحبيب، دار الوفاء للطباعة والنشر، جدة، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٠٦هـ ـ١٩٨٥م، ص٤٦٥.

ما يُحبُّون، أو على الأقل ما أُمروا به مما جاءهم من الحقّ[(١)].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧]، و(ظالمي أنفسهم) هنا في هذه الآية: أي الذين لا يُهاجرون إلى حيث أمرهم الله تعالى عن طريق نبيه ﷺ، ولكن هذا الحُكم ليس عامًّا؛ لأنّ فيه استثناء للضعفاء الذين فقدوا الحيل، وانقطعت بهم الأسباب، وإن كانوا رجالاً فحبسهم العذر عن الهجرة، وكذلك فيه رخصة للنساء والأطفال؛ لأنّهم بحكم المستضعفين، فقد قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٨ ـ ٩٩]، وأما الرجال والشباب القادرون على الهجرة فلا استثناء لهم[(٢)].

كما ينبغي أن تكون الهجرة لوجه الله عزّ وجل وفي سبيله، لا من أجل مصالح دنيوية أو مآرب شخصية، يقول رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح: **«إِنَّما الأعْمالُ بِالنِّيّاتِ، وإِنَّما لِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَى، فمَن كانَت هِجرتُهُ إلى دُنيا يُصِيبُها، أو إلى امْرَأةٍ يَنْكِحُها، فَهِجرتُه إلى ما هاجَرَ إلَيهِ»** [(٣)].

إنّ الله عزّ وجل قد وعد مَن يخرج مهاجرًا في سبيل الله أن يفتح له المغاليق، ويُيسِّر له أمرَه، ويُوسِّعَ له في رزقه، ويُفرِّج عنه ما كان ضيّقًا، هذا ما دام على قيد الحياة، وأما إن مات فسينال ثوابًا خاصًّا به[(٤)]، قال تعالى: ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠].

---

(١) ملة أبيكم إبراهيم، عبد الستار كريم المرسومي، ص٨١.
(٢) المرجع نفسه، ص٨٢.
(٣) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، رقم (١).
(٤) ملة أبيكم إبراهيم، عبد الستار كريم المرسومي، ص٨٢.

وفي قوله تعالى ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ إشارة إلى ما يقتضيه الإيمان بالله من ابتلاء بضروب من الشدائد والمحن، والهجرة إلى الله هي الاتجاه إليه سبحانه، والانخلاع من كل ما يَعوق مسيرة المؤمن على طريق الإيمان، حيث يتخطَّى المؤمن المهاجر إلى الله كلَّ ما يعترض طريقه من أهل ومال ووطن، وحيث لا يلتفت إلى ما يُصيبه في نفسه من ضرّ وأذى، ولو كان الموت راصدًا له.

وفي هذا إشارة للمؤمنين الذين كانوا تحت يد قريش، يُسامُون الخسف، ويتجرَّعون كؤوس البلاء مترعة، إنهم في هجرة إلى الله، وإن لم يُهاجروا من بلدهم، ولم يخرجوا من ديارهم، وإنهم لفي هجرة إلى الله، إن هم خرجوا من ديارهم وهاجروا من بلدهم، فالمؤمن بالله إيمانًا حقًّا في هجرة إلى الله دائمًا، ما دام قائمًا على طريق الحقّ والخير، يَهجر كلَّ مُنكَر ويجتنب كلَّ فاحشة، وفي الحديث عن النبي ﷺ قال: «**المُسْلِمُ مَن سَلِمَ المُسْلِمونَ مِن لِسانِه ويَدِه، والمُهاجِرُ مَن هَجَرَ ما نَهى اللهُ عَنهُ**»(١)، وقد كانت هجرة لوط مع عمِّه إبراهيم عليهما السلام هجرة مباركة، إذ ارتقى على طريقه إلى الله بالنبوَّة، فكان من المُصطفَينَ الأخيار من عباد الله المكرمين(٢).

٣ ـ قوله تعالى ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾:

ولما كانت هجرة إبراهيم عليه السَّلام هدفها إظهار دين الله عزّ وجل، والتمكين له، كان من المناسب أن يقول: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، و﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: له العزة ولرسوله وللمؤمنين، و﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: في أقواله وأفعاله وأحكامه القدرية والشرعية(٣).

---

(١) صحيح البخاري، رقم (٦٤٨٤).

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي للنشر، مطبعة السنة المحمديّة، القاهرة، ط١، ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م، (١٠/ ٤٢٥ ـ ٤٢٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، (٦/ ٢٨٢).

وفي قوله ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: الذي له القوة، وهو يقدر على هدايتكم، ولكنه حكيم ما اقتضت حكمته ذلك[١].

وقد اختار إبراهيم عليه السَّلام في هذا الموضع من صفات ربه ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الذي لا يُغلَب، وهذه الصفة تُناسب ما كان من محاولة إحراقه، وكأنه يقول للقوم: أنا ذاهب إلى ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي عزَّ كلَّ شيء فقهره، وغلب الأشياء، فلا يُنال جَنابُه لعزّته ولعظمته وجبروته وكبريائه[٢].

و﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: الذي له العزّة كلُّها: عزّة القوة، وعزّة الغلبة، وعزّة الامتناع، فامتنع أن يناله أحد من المخلوقات، وقهرَ جميع الموجودات، ودانت له الخليقة، وخضعت لعظمته[٣].

وقد اختار إبراهيم عليه السَّلام اسم الله ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: في تصرُّفاته، فلا بُدّ أنه سبحانه سينقلني إلى مكان يُناسب دعوتي، وأناس يَستحقُّون الدعوة بما لديهم من آذان مصغية للحقّ، وقلوب مُتشوِّقة إليه، وتنتظر كلمة الحقّ التي أعرضتُم أنتم عنها[٤].

و﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: هو الله عزّ وجل، الموصوف بكمال الحكمة وبكمال الحُكم بين المخلوقات، فالحكيم الواسع العلم والاطّلاع على مبادي الأمور وعواقبها، الواسع الحمد، التامّ القدرة، الغزير الرّحمة، فهذا الذي يضع الأشياء مواضعها، ويُنزلها منازلَها اللائقة بها في خلقه وأمره، فلا يتوجَّه إليه سؤال، ولا يقدح في حكمته مقال[٥].

---

(١) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٣١١.
(٢) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز ناصر الجليل، ص٤٠٥.
(٣) المرجع نفسه، ص٤٠٥.
(٤) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١٨/ ١١١٣٥).
(٥) الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية، عبد الرحمن بن=

ولما اعتزل إبراهيم عليه السَّلام قومه وفارقهم وهم على حالهم؛ لم يذكر الله عنهم أنه أهلكهم بعذاب، بل ذكر اعتزاله إيّاهم، وهجرته من بين أظهرهم. فأمّا ما يُذكر من الإسرائيليات أنّ الله تعالى فتح على قومه باب البعوض، فشرب دماءهم، وأكل لحومهم، وأتلفهم عن آخرهم، فهذا يتوقَّف الجزمُ به على الدليل الشرعي، ولم يُوجد، فلو كان الله استأصلهم بالعذاب لذكره كما ذكر إهلاك الأمم المُكذِّبة، ولكن هل من أسرار ذلك أنّ الخليل عليه السَّلام من أرحم الخلق وأفضلهم وأحلمهم وأجلّهم؛ فلم يدعُ على قومه كما دعا غيرُه، ولم يكن الله ليجزيهم بسببه عذابًا عامًّا؟ وممّا يدلُّ على ذلك أنه راجع الملائكة في إهلاك قوم لوط، وجادلهم، ودافع عنهم، وهم ليسوا قومه، والله أعلم بالحال[1].

❊ ❊ ❊

تاسعًا: قوله تعالى ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]:

وهو فيض من العطاء جزيل، يتجلَّى فيه رضوان الله سبحانه على الرجل الذي يتمثَّل فيه الخلوص لله بكلِّيته، والذي أجمع الطغيان على حرقه بالنار، فكان كلُّ شيء من حوله بردًا وسلامًا، وعطفًا وإنعامًا، جزاءً وفاقًا[2].

١ ـ قوله تعالى ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾:

لقد آنسه الله سبحانه وتعالى في غربته، ورزقه الذُّرِّيّة الطيِّبة الصالحة بعد أن تقدَّم به العمر، وعاش حتى قرَّت عينه برؤية حفيده يعقوب بن إسحاق، كما

= ناصر السعدي، دار ابن القيم للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط٢، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م، ص٥٠.

(١) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٣١١.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٢٧٣٢).

وهب له سبحانه إسماعيل قبل ذلك أيضًا من هاجر المصرية، ويبدو أن الآيات سكتت عن ذكره هنا؛ لأنه عاش مع أمه هاجر منذ كان رضيعًا في أرض الحرم بعيدًا عن إبراهيم عليه السَّلام، فما استأنس إبراهيم في العيش معه كما استأنس بإسحاق ويعقوب عليهما السلام[١].

و كلمة ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ﴾ تعني: أن الابن الصالح هبة من الله عزّ وجل، فمن كان له ولد صالح فليسجد لله عزّ وجل، وليتضرَّع إليه بقوله: يا ربي لك الحمد على هذه النعمة، فما من نعمة أعظم من أن يكون لك ولد صالح، يعبد الله من بعدك، ويُعلّم الناس من بعدك[٢].

فكيف بإبراهيم عليه السَّلام الذي رزقه الله إسحاق ويعقوب وجعلهما من الأنبياء والأئمة الذين يهدون بأمر الله، وأوحى إليهم فعل الخيرات، والمحافظة على الصلوات، وإعطاء الزكوات، ووصفهم بأنهم ﴿وَكَانُواْ لَنَا عَـٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

٢ ـ قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ﴾:

لم يأتِ بعد إبراهيم عليه السَّلام نبيٌّ إلا من ذُريّته، ولا نزل كتاب إلا على ذُريّته، حتى خُتموا بابنه محمد ﷺ وعليهم أجمعين، وهذا من أعظم المناقب والمفاخر، أن تكون مواد الهداية والرّحمة والسعادة والفلاح والفوز في ذُريّته، وعلى أيديهم اهتدى المهتدون، وآمن المؤمنون، وصلح الصالحون[٣].

لقد كان أنبياء بني إسرائيل من نسل يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى

(١) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٦/ ٣٨٤).
(٢) تفسير النابلسي «تدبر آيات الله في النفس والكون والحياة»، (٩/ ٢٢١).
(٣) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٣١١.

ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٤ ـ ٨٩].

وقد بُعث محمد عليه الصلاة والسلام من نسل إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، فكان خاتم الأنبياء من ذرية إبراهيم وآل بيته الأطهار، وبهذا يكون إبراهيم عليه السَّلام أبًا للأنبياء جميعًا عليهم السلام ونسبًا للناس من بعده، وأباً لجميع المؤمنين بالوحي، والرسالة، والملّة الحنيفية التي بُعث بها إبراهيم عليه السَّلام وأبناؤه من الأنبياء والرسل الذين جاؤوا من بعده، وهي دعوة التوحيد[1].

وفي قوله ﴿وَٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: الكتب التي أُنزلت على الأنبياء من ذُرّيّته، وهي: القرآن، والإنجيل، والتوراة، والزبور[2].

٣ ـ قوله تعالى ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

قال ابن كثير: أي: جمع الله له بين سعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة، فكان له في الدنيا الرزق الواسع الهنيّ، والمنزل الرحب، والمورد العذب، والزوجة الصالحة، والثناء الجميل، والذكر الحسن، فكلُّ أحد يُحبُّه ويَتولاه، كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم، مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه، كما قال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧] أي قام بجميع ما أُمر به، وكمل طاعة ربه ولهذا قال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، (١/ ٨٥ـ٨٦).

(٢) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١٨/ ١١١٣٨).

ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٠ ـ ١٢٢] (١).

وقال **السعدي** في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ من الزوجة الجميلة فائقة الجمال، والرزق الواسع، والأولاد الذين هم قرّة عينه، ومعرفة الله ومحبته والإنابة إليه: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: بل هو ومحمد صلى الله عليهما وسلّم أفضل الصالحين على الإطلاق، وأعلاهم منزلة، فجمع الله له بين سعادة الدنيا والآخرة(٢).

وقال **الرازي**: إنَّ إبراهيم عليه السَّلام لما أتى ببيان التوحيد أولاً دفع الله عنه عذاب الدنيا، وهو عذاب النار، ولما أتى به مرة بعد مرة مع إصرار القوم على التكذيب وإضرارهم به بالتعذيب، أعطاه الجزاء الآخر، وهو الثواب العاجل وعدَّده عليه بقوله ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ وفي الآية لطيفة، وهي أن الله بدَّل جميع أحوال إبراهيم في الدنيا بأضدادها لمّا أراد القوم تعذيبه بالنار، وكان وحيدًا فريدًا، فبدّل وحدتَه بالكثرة حتى ملأ الدنيا من ذُريّته، ولما كان أولاً قومُه وأقاربه ضالّين مُضلّين، ومن جملتهم آزر، بدَّل الله أقاربه بأقارب مُهتدين هادين، وهم ذُريّته الذين جعل الله فيهم النبوَّة والكتاب، وكان أولاً لا جاهَ له ولا مالاً، وهما غاية اللذة الدنيوية، فآتاه الله أجره من المال والجاه، فكثر مالُه حتى كان له من المواشي ما علم الله عدده. وأما الجاه فصار بحيث تُقرَن الصلاة عليه بالصلاة على سائر الأنبياء إلى يوم القيامة، فصار معروفًا بشيخ المرسلين بعد أن كان خاملاً، حتى قال قائلهم: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠]. وهذا الكلام لا يُقال إلا في مجهول بين الناس.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، (٦/ ٢٨٤ ـ ٢٨٥).

(٢) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٣١١.

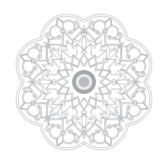
ثم إن الله تعالى قال: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ يعني ليس له هذا في الدنيا فحسب، كما يكون لمن قدَّم له ثواب حسناته أو أملى له استدراجًا ليُكثر من سيئاته، بل هذا له عجالة وله في الآخرة ثواب الدلالة والرسالة، وهو كونه من الصالحين، فإن كون العبد صالحًا فهو أعلى مراتبه، لما بيّنا أن الصالح هو الباقي على ما ينبغي، . . . ومن بقي على ما ينبغي لا يكون في عذاب، ويكون له كلُّ ما يريد من حسن الثواب(١).

وهذه المرتبة التي نالها أبو الأنبياء إبراهيم عليه السَّلام كانت بسبب تحقيقه للتوحيد ودعوته إليه، وقد ذكر الله أخباره في القرآن، وبيّن مواقفه العقدية، وأنه كان أُمّةً قانتًا لله حنيفًا، وما كان من المشركين، والأنبياء كلُّهم على منهاجه؛ لكنه تميَّز بما ذكره الله من صلابته في الدعوة إلى التوحيد، وسعة علمه، وطول نَفَسِه، وشُمول دعوته(٢).

❊ ❊ ❊

---

(١) التفسير الكبير مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، (٢٥/ ٥٧).
(٢) التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، (٢٦/ ٧١).



المبحث السادس

قصة إبراهيم عليه السَّلام في سورة الصافات

قال تعالى: ﴿ ۞وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴾ [الصافات: ٨٣ ـ ١١٣].

تجيء قصة إبراهيم عليه السَّلام في سورة الصافات في حلقتين رئيستين، حلقة دعوة قومه، وتحطيم الأصنام، وهَمِّهم به ليقتلوه، وحماية الله له، وخذلان شانئيه، وهي حلقة تكرَّرت من قبلُ في سور القرآن، وحلقة جديدة لم تُعرض في غير هذه السورة، وهي الخاصّة بحادث الرؤيا والذَّبح والفداء،

مفصَّلة المراحل والخطوات والمواقف في أسلوبها الأخّاذ وأدائها الرهيب، مُمثِّلة أعلى صور الطاعة والتضحية والفداء والتسليم في عالم العقيدة في تاريخ البشرية الطويل(١).

* * *

أولاً: قوله تعالى ﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ٨٣ ـ ٨٧]:

١ ـ قوله تعالى ﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴾:

بعد أن ذكر الله جلّ جلاله تنجيته لنبيه نوح عليه السَّلام أتبع ذلك بذكر أنَّ من شيعته إبراهيم عليه السَّلام، وهذا انتقال بديع إلى قصة الخليل عليه السَّلام فهو من شيعة نوح على تباعُد الزمان بين الرسولين والرسالتين، نظرًا لما بينهما من صلة العقيدة والدعوة والطريق، فالمنهج الإلهي الواحد هو الذي يلتقيان عنده، ويرتبطان به، ويشتركان فيه(٢).

وأفادت الآية الكريمة تأكيد الثناء على نوح، وبداية الثناء على إبراهيم عليهما السلام، ومعنى كلمة شيعة: الأعوان والأنصار، وأصلها «شيع»، الشين والياء والعين أصلان: يدلُّ أحدُهما على مُعاضَدة ومُساعَفة، والآخر على بَثٍّ وإشادة، وكلُّ قوم أمرُهم واحد يَتبع بعضُهم رأيَ بعضٍ فهُم شيعةٌ(٣).

وقد آثر الحقُّ سبحانه التعبير بقوله ﴿مِن شِيعَتِهِۦ﴾ دون أعوانه وأنصاره إشعارًا بالاشتراك في الفكر والرأي والاتجاه دون اتحاد المكان والزمان، لما بين الرسولين من تباعد في المكان والزمان بخلاف الأعوان والأنصار، حيث

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٢٩٩٢).

(٢) المرجع نفسه، (٥/ ٢٩٩٢).

(٣) الحوار في قصة الخليل عليه السلام في القرآن دروس وعبر، محمود سعد عبد الحميد شمس، ص٣٧٣.

يُشعِران بالمعاضدة المادية واتحاد المكان والزمان، ومن معاني ﴿مِن شِيعَتِهِۦ﴾: من أهل دينه ومنهاجِه وسُنَّتِه، والضمير في ﴿شِيعَتِهِۦ﴾ يعود على نوح عليه السَّلام[١].

٢ ـ قوله تعالى ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾:

هي صورة الاستسلام الخالص التي تتمثَّل في مجيئه لربّه، وصورة النقاء والطهارة والبراءة والاستقامة التي تتمثَّل في سلامة قلبه، والتعبير بالسلامة تعبير مُوحٍ مُصوِّر لمدلوله، وهو في الوقت ذاته بسيط قريب المعنى واضح المفهوم، ومع أنه يتضمَّن صفاتٍ كثيرة من البراءة والنقاوة والإخلاص والاستقامة إلا أنه يبدو بسيطًا غير معقد، ويُؤدِّي معناه بأوسع مما تُؤدِّيه هذه الصفات كلُّها مجتمعات، وتلك إحدى بدائع التعبير القرآني الفريد، وبهذا القلب السليم استنكر ما عليه قومُه واستبشَعَه، واستنكر القلبُ السليم كلَّ ما تنبو عنه الفطرة الصادقة من تصوُّر وسلوك[٢].

والسرُّ في نجاح إبراهيم عليه السَّلام بعد توفيق الله له هو هذا القلب السليم، فقلبه عليه السَّلام خالص لربّه، وقلبه سليم من كل ما يناقض التوحيد والإيمان والإخلاص، وقلبه سليم من كل مظاهر أمراض القلوب الأخرى، وبهذا القلب السليم الخالص الصّافي تحرَّك في حياته، ونشر رسالته، وواجه أعداءه، وأقبل على ربّه، فارتقى من نجاح إلى نجاح، ومن توفيق إلى توفيق[٣].

فقلب إبراهيم عليه السَّلام قد سَلِمَ لعبودية ربّه حياءً وخوفًا وطمعًا ورجاء، فتعلَّق بحُبِّه عن حبِّ ما سواه، وبخوفه عن خوف ما سواه، وبرجائه عن رجاء

---

(١) الحوار في قصة الخليل عليه السلام في القرآن دروس وعبر، محمود سعد عبد الحميد شمس، ص٣٧٣.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٢٩٩٢).
(٣) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٤٠٠).

ما سواه، واستسلم لقضائه وقدره، فلم يتَّهِمْه، ولم يُنازِعْه، ولم يتسخَّطْ لأقداره، فأسلم لربه انقيادًا وخضوعًا وذلاًّ وعبودية، وسلّم لربِّه جميعَ أحواله وأقواله وأعماله وأذواقه ومواجيده ظاهرًا وباطنًا، وقلبه السليم سالَمَ أولياء الله وحزبه المفلحين الموحِّدين الذين أفردوا الله بالعبادة وحده، وعادى المشركين والكافرين[١].

٣ ـ قوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ :

فقال: أي شيء تعبدونه؟ وكأنه يقول لهم: إن هذه الأصنام لا تستحقُّ العبادة، فكيف تعبدونها من دون الله؟! ما تعبدونه ليس من شأنه أن يُعبد، ولا أن يكون له عابدون[٢].

و﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾: استفهام إنكاريٌّ وهو أقوى من الإخبار؛ لأنَّ الإخبار يمكن أن يُكذب، أما الاستفهام فيجعل الخصم يُقرّ بالقضية، ولا يستطيع أن يُكذِّبها[٣].

٤ ـ قوله تعالى ﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ :

أي: أتعبدون إفكًا آلهة من دون الله، فالآلهة التي يعبدونها من دون الله إفكٌ وباطلٌ وزورٌ، وهذا مبالغة في ذمِّها[٤].

والإفك: هو أقبح أنواع الكذب؛ لأنَّ القُبح في الكذب على مراحل حسب الموضوع الذي يكون فيه الكذب، فإن كان في الحقيقة العليا في الذات الإلهية فهو أقبح الكذب، كمن يدَّعي لله شريكًا.

---

(١) القلوب والأفئدة والصدور في القرآن الكريم، عبد الستار المرسومي، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، إسطنبول، تركيا، ط١، ٢٠١٣م، ص١٦٥.

(٢) قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، ص٦٣.

(٣) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (٢٠/ ١٢٧٩٠).

(٤) قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، ص٦٣.

فإن كان الكذب على البشر فهو بحسب من تكذب في حقِّه، فمثلاً الذين اتَّهموا السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ وخاضوا في ذلك، سَمَّى اللهُ خَوضَهم إفكًا لشناعته وعظم منزلةِ مَن قيل في حقِّه هذا الكذب، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾ [النور: ١١]. ومن معاني الإفك قلب الشيء على وجهه وقلب الحقيقة، ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ﴾ [النجم: ٥٣]، والمعنى: أتريدون آلهة إفكًا وكذبًا دون الله[١].

وهذا السؤال الإنكاري الموجّه من إبراهيم عليه السَّلام إلى أبيه وقومه يُنكر عليهم فيه عبادة الأصنام، فهي ليس لها أيُّ حقٍّ لعبادتها، فكيف يعبدونها؟ فهي الإفك المحض والافتراء المحض الذي لا شبهة فيه[٢].

٥ ـ قوله تعالى ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

أخبِرُونا ماذا تظنُّون في الله؟ وما الذي تعتقدونه في ألوهيته سبحانه؟ وكيف تَخدعون أنفسكم فتنصرفون عنه سبحانه وهو رب العالمين؟! ومثال ذلك قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦]، لذلك قال أحد العارفين: كأنَّ الحقَّ سبحانه لقَّن الناس الجواب، فالذي غرّني بالله أنه كريم، فكأن الحق سبحانه يتعجّب من هؤلاء الذين أشركوا به سبحانه مع وضوح الدليل على بطلان شركهم، لذلك قال سبحانه في أول البقرة: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨]، يعني: هذا أمر عجيب منكم، ومسألة لا يقبلها العقل[٣].

﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: وهي كلمة يبدو فيها استنكار الفطرة السليمة

---

(١) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (٢٠/ ١٢٧٩١).
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٢٩٩٢).
(٣) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (٢٠/ ١٢٧٩٢).

البريئة، وهي تطَّلع على الأمر البيّن الذي يصدم الحس والعقل والضمير[١]، فما ظنكم بربِّ العالمين أن يفعل بكم وقد عبدتم معه غيرَه؟ وهذا ترهيب لهم بالجزاء بالعقاب على الإقامة على شركهم، وما الذي ظننتم برب العالمين من النقص حتى جعلتم له أندادًا وشركاء؟[٢]. ويُسقط السّياق هنا ردَّهم عليه وحوارهم معه، ويمضي مباشرة في المشهد التالي إلى عزيمته التي قررها في نفسه تجاه هذا الإفك المكشوف[٣].

وقد بيّنت سورة الأنبياء والشعراء رُدودَ قومه، وقد تم توضيحها في مكانها.

* * *

ثانيًا: قوله تعالى ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ۝٨٨ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ۝٨٩ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ۝٩٠ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٩١ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ۝٩٢ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٨٨ ـ ٩٣]:

يُروى أنه كان للقوم عيد ـ ربما كان هو عيد النيروز ـ يخرجون فيه إلى الحدائق والخلوات بعد أن يضعوا الثمار بين يدي آلهتهم لِتُباركها، ثم يعودون بعد الفسحة والمرح، فيأخذون طعامهم، وأن إبراهيم عليه السَّلام بعد أن يئس من استجابتهم له، وأيقن بانحراف فطرتهم الانحراف الذي لا يُرتَجى معه صلاحٌ، اعتزم أمرًا، وانتظر هذا اليوم الذي يبعدون فيه عن المعابد والأصنام ليُنفّذ ما اعتزم، وكان الضيق لما هم فيه من انحراف قد بلغ منه أقصاه، وأتعب قلبه وقُواه، فلما دُعي إلى مغادرة المعبد والأصنام قلَّب نظره إلى السماء[٤].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٢٩٩٢).
(٢) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٤٧٤.
(٣) المرجع نفسه، (٥/ ٢٩٩٢).
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٢٩٩٢).

١ ـ قوله تعالى ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ﴾:

النظرة هنا ليست هي النظرة الخاطفة العابرة، إنما هي نظرة التأمُّل الفاحصة المتأنية، نظرة التمعّن والاستنباط، ومن ذلك قولنا: هذه مسألة فيها نظر يعني: تأمّل وتأنٍّ، والنجوم مفردها نجم، وهي كلُّ مضيء في السماء؛ فالشمس نجم من النجوم. ، فقوله تعالى ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ﴾: دلّ على أنّها نظرة طويلة مُتأمِّلة مستوعبة؛ لأنّها استوعبت كوكبًا وقمرًا وشمسًا، ولذلك شرح لنا هذه النظرة في موضع آخر، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ۝٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ۝٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥ ـ ٧٩].

لقد كانت نظرة إبراهيم طويلةً متأنِّيةً؛ لأنّها استغرقت مطلع الكوكب وغيابه، ثم مطلع القمر وغيابه، ثم مطلع الشمس وغيابها[١].

وبيّن لهم أن هذه المرائي لا تصلح أن تكون آلهة تُعبد من دون الله، ودعاهم إلى الذي فطر السماوات والأرض، وإلى توحيد الله وإفراده بالعبادة.

وكانت نظرته في النجوم نظرة المتفكّر في قدرة الله الذي خلقها وأبدعها، وجعلها شواهد على توحيده وعظمته وقدرته وحكمته وعلمه سبحانه وتعالى.

٢ ـ قوله تعالى ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ﴾:

أي إني مريض القلب من عبادتكم غيرَ الله تعالى، فظنّ قومه أنه مريض حقًّا بمرض بدنيٍّ، والمراد هنا: سُقم القلب وشُغله بما لا يستطيع الإنسان تحمُّلَه

---

(١) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (٢٠/ ١٢٧٩٣).

من إنكار القوم لمسألة الألوهية في عبادة الله الواحد الأحد، فهذه قضية تُتعبه وتُؤرِّقه، وهذا هو السقم الذي أراده سيدنا إبراهيم ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ (١).

وقد أخبر قومَه أنه سقيم، ويبدو أن إخباره لهم بذلك جاء ردًّا على دعوتهم له للخروج معهم إلى البرِّ للاحتفال بالعيد؛ ولذلك تركوه وحدَه، وخرجوا هم للاحتفال(٢).

وأما الحديث الصحيح الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «**لم يَكذِبْ إبراهيمُ إلا ثلاثَ كذباتٍ؛ ثِنتين منهنَّ في ذاتِ الله: قوله:** ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ **وقوله:** ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾، **وقولُه للملكِ الظّالمِ عَن زوجِهِ سارة: أنّها أختُه**» (٣).

وقد بيّن العلماء مفهوم الحديث والمقصود منه، بأن إبراهيم عليه السَّلام لم يكن كاذبًا في قوله ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، بل كان صادقًا في ذلك، ومعنى ﴿سَقِيمٌ﴾ مريض، ومرضه ليس مرضًا عضويًّا جسميًّا ماديًّا، أي: لم يكن مرضُه في جسمه، في يديه أو رجليه مثلاً، إن سقمه ومرضه في نفسه، فهو سقيم سقمًا نفسيًّا معنويًّا؛ لأنّه قرُب حلول عيدهم، ولأنهم يَفجُرون ويكفرون في عيدهم، فلمّا حلّ العيد تألّم إبراهيم وحزن مما سيفعلونه، وأُصيبت نفسه بالهمِّ والغمِّ والضيق والألم، وهذا سقم نفسيٌّ أصاب نفسَه، فهو إذن صادق في قوله لهم ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ (٤).

وأما لماذا اعتبر الحديث هذا القول من إبراهيم كذبًا؟ لأنّه يشبه الكذب في الظاهر، بينما هو يختلف عنه في الحقيقة، فعندما سمع القوم من إبراهيم أنه

---

(١) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٧/ ١٥٦).
(٢) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٣٤٤).
(٣) صحيح البخاري، رقم (٢٢١٧)، صحيح مسلم، رقم (٢٣٧١).
(٤) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٣٤٥).

سقيم، فَهِمُوا منه السُّقمَ الجسميَّ، والمرضَ العاديَّ، وإنَّما هو السقمُ النفسيُّ المتمثّل في الهمّ والحزن.

أي أن إبراهيم عليه السَّلام استخدم طريقة «المعاريض»، والمعاريض مأخوذة من التعريض، وهو أن تتكلم بكلام تريد به شيئًا بينما يفهم منه المخاطب شيئًا آخر، والمعاريض تشبه الكذب في الظاهر، لكنها ليست منه، وإنما هي من الحقيقة، و«إن في المعاريض لَمَنْدوحةً عن الكذب»، فهي تُغني عن الكذب، ومن اضطرّ إليها يستخدمها وهو صادق ولا يستخدم الكذب، وهذا ما فعله إبراهيم عليه السَّلام، فقوله من باب المعاريض وليس من باب الكذب، والله أعلم.

قال **ابن قُتَيْبة** رحمه الله: جاءت الرخصة في المعاريض، وقيل: إن فيها عن الكذب مندوحةً، فمن المعاريض قولُ إبراهيم الخليل ﷺ في امرأته: إنها أختي، يريد أن المؤمنين إخوة، وقولُه ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾؛ أراد: بل فعله كبيرهم هذا إن كانوا ينطقون، فجعل النطق شرطًا للفعل، وهو لا ينطق ولا يفعل، وقولُه ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾؛ يريد سَأسْقَمُ؛ لأن من كُتب عليه الموت والفناء فلا بد من أن يسقَمَ، قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، ولم يكن النبي ﷺ ميّتًا في وقته ذلك، وإنما أراد أنك ستموت وسيموتون[١].

والمهم أن إبراهيم عليه السَّلام قال لقومه: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ وهو يقصد الحزن والغمّ والهم، ففهموا منه سقم الجسم والبدن، فتركوه وذهبوا إلى الاحتفال في عيدهم[٢].

---

(١) تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة الدِّينوري، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، ومؤسسة الإشراق، بيروت، ط٢، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م، ص٨١.

(٢) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٣٤٦).

٣ ـ قوله تعالى ﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ :

أي : فتركوه وانصرفوا عنه إلى عيدهم خارج البلد، وانطلقوا إلى الحقول والبساتين؛ ليمرحوا ويلعبوا، ويَفسُقُوا، ويرتكبوا الموبقات والمُنكَرات، التي كانت تُرتكب في تلك الأعياد الجاهلية.

٤ ـ قوله تعالى ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴾ :

ومعنى راغ : ذهب خفية بحيث لا يراه أحد، وبسريّة تامّة وبسرعة؛ ليُحقّق ما نواه[١].

ودخل إبراهيم عليه السَّلام على الأصنام في خفية عن القوم وسرعة لتحقيق المراد، فوجد طعام القوم أمامها، وأراد أن يسخر منها ومن عابديها، وبدا له أن يتهكّم عليها وهي جمادات، لا تسمع ولا تَعي ولا تتكلَّم، ولا ترى ولا تدري ما يجري أمامها. فقال لها: كلوا، وما أراد حقيقة دعوتها إلى الأكل؛ لأنه يعلم أنّها جامدة لا تأكل ولا تشرب، وإنما أراد أن يسخر منها وأن يضحك من جمودها، طبعًا لم تُلَبِّ الأصنام دعوته، ولم تأكل من الطعام، كما أنّها لم تردَّ عليه، ولم تكلمه، ولم تعتذر عن تلبية الدعوة، فقال: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴾؟ لماذا لم تردّوا عليّ؟ لماذا لا تكلموني؟ والحوار بينه وبين الأصنام هو حوار من طرف واحد؛ فهو يتكلم ويسأل، وهي أصنام جامدة، لا تَسمع ولا تَفهم ولا تُجيب، وهو يعلم ذلك منها، وهو يُحاورها، لكنه أراد أن «يتسلّى» قبل أن يُحطِّمها، أراد أن يسخر منها، وأن يضحك عليها.

وهذا الكلام منه لها قبل تحطيمها يدلُّ على تمتّعه بهدوء الأعصاب وصفاء النفس وإشراق الروح، فهو ليس متسرّعًا ولا متشنّجًا ولا خائفًا ولا مُتوتِّرًا، عند ذلك أقدم على خطوته التنفيذية الفعليّة[٢].

---

(١) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٣٤٧).
(٢) المرجع نفسه، (١/ ٣٤٨).

٥ ـ قوله تعالى ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾:

أقبل إبراهيم عليه السَّلام على الأصنام يُحطِّمها، ومال إليها يضربها بأداة قوية متينة كان يحملها بيده اليمنى، فمعنى ﴿ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ ضربها بيده اليمنى، وحطَّمها بالأداة التي كان يحملها بيده اليُمنى، ومعلوم أن غالب الناس يستخدم الواحد منهم يده اليمنى في الحمل والاستعمال، واليد اليمنى عند غالب الناس أقوى من اليد اليسرى، ولهذا استعمل إبراهيم عليه السَّلام يده اليمنى في تحطيم الأصنام، وانتهت عملية تحطيم الأصنام، حيث حطَّمها كلَّها إلا واحدًا، قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨]، والجذاذ: هي المكسَّرة المحطَّمة، وقد بيّنتُ ذلك في قصة إبراهيم في سورة الأنبياء.

إنَّ إبراهيم عليه السَّلام يعرف ماذا يفعل، ويُخطِّط لما بعد فعله، وكلُّ تصرُّف عنده مدروس هادف يريد منه تحقيق شيء آخر، فتحطيمه للأصنام ليس لمجرد تحطيمها والتخلص منها، وإنَّما ليزيل الحاجز المادي الذي يحول بين قومه وبين الإيمان.

وقد أبقى إبراهيم كبيرَ الأصنام دون تحطيم؛ وذلك لهدف بيّن: ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾، وعندما يجدون الصنم الكبير سليمًا، فعليهم أن يرجعوا إليه، وأن يسألوه: ألم يكن موجودًا؟ ألم يشاهد تحطيم الآلهة الصغيرة؟ ألم يرَ الشخص الذي حطّمها؟ إذن عنده الخبر اليقين فلا بُدّ أن يسألوه، ألم نقُل إنّ خطوات إبراهيم وأفعاله مدروسة؟ وإنه كان يَعي ويعرف ماذا يفعل؟ لذلك ترك الصنم الكبير دون تحطيم، وعاد القوم من احتفالهم وعيدهم، وذهبوا إلى أصنامهم فوجدوها محطّمة إلا الصنم الكبير، ففُوجئوا واستغربوا ودُهشوا[١].

---

(١) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٣٥٠).

وقد بيّنتُ في قصة إبراهيم عليه السَّلام في سورة الأنبياء تفاصيل محاكمته، هذا وإنَّ استعمال اليد اليمنى هو من شرعة إبراهيم عليه السَّلام، وهو ما تسير عليه معظم البشرية في أعمالها وسلامها ولو بشكل عفوي أو لا ديني، ثم جاء الإسلام واعتمد هذا الحكم الشرعي في تقديم اليد اليمنى في القربات والأعمال الطيبة والصالحة، وبيّن ذلك رسولُ الله ﷺ في عدة أحاديث[١]، وخصّ رسولُ الله ﷺ يده اليمنى الشريفة في أعمال كثيرة، وخصَّها علماء الحديث بأبواب عدة منها باب التيمّن في الأكل وغيره[٢]، وباب التيمّن في دخول المسجد[٣]، وباب التيمّن في الوضوء والغسل[٤]، وكان يُعجبه التيمّن[٥]، وهو ما يحرص عليه المسلم يوميًّا[٦].

❊ ❊ ❊

ثالثًا: قوله تعالى ﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ۝٩٤ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٤ ـ ٩٦]:

١ ـ قوله تعالى ﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾:

يُصوِّر الصورة المهتاجة المتشنجة التي عاملوه بها، وواجهوه على أساسها، ومعنى ﴿يَزِفُّونَ﴾: يُسرعون، لقد هجموا عليه مسرعين صاخبين، وهيّجوا الآخرين معهم، وأسرع الجميع إليه، يُسرعون الخطا ويُحدِثون حوله زفيفًا، وهم جمع كثير غاضب هائج، وهو فرد واحد، ولكنه فرد مؤمن، فرد

---

(١) شرعة الله للأنبياء، محمد مصطفى الزحيلي، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ٢٠١٨م، ص١٨٥.
(٢) التيمُّنُ: هو البَداءةُ باليمين، واستعمالُ اليد اليمنى في الأكل والأخذ والعطاء، صحيح البخاري، رقم (٥٠٦٥).
(٣) صحيح البخاري، رقم (٤١٦).
(٤) المرجع نفسه، رقم (٤٠١).
(٥) المرجع نفسه، رقم (١٦٦).
(٦) شرعة الله للأنبياء، محمد مصطفى الزحيلي، ص١٨٥.

يعرف طريقه، فرد واضح التصور للخالق العظيم، عقيدته معروفة، يُدرِكُها في نفسه، ويراها في الكون من حوله، فهو أقوى من هذه الكثرة الهائجة المائجة المدخولة العقيدة المضطربة التصوُّر، ومن ثَمَّ يُجيبهم بالحقِّ الفطري البسيط لا يبالي بكثرتهم وهياجهم وزفيفهم(١).

٢ ـ قوله تعالى ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾:

لقد ناقشهم إبراهيم عليه السَّلام نقاشًا موضوعيًّا عقليًّا منطقيًّا، لكن القوم لا يريدون أن يقتنعوا، ولا ينفع معهم المنطق.

وقال لهم عليه السَّلام: كيف تنحتون الأصنام نحتًا، وتجعلونها تماثيل، ثم تجعلونها آلهة لكم وتعبدونها، إنكم أنتم الذين نحتّموها وصنعتموها وأنتم أقوى منها، وهل يصنع الإنسانُ ربَّه؟ ثم يعبده بعد ذلك، ويطلب منه كشف الضرِّ أو جلب النفع؟

وقال لهم: إنَّ الله خلقكم وخلق ما تعملون وتنحتون من هذه الأصنام، فعليكم أن تعبدوه وحده؛ لأنّه هو الخالق، ولا خالق إلا الله، فيجب أن يكون: لا معبود إلا الله(٢).

إنَّ قوله ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾: يُراد به الأصنام التي عملوها بأيديهم، فالله خلقهم وخلق أصنامهم التي عملوها، لم يستمع القوم لمنطقه الموضوعي، وأصرُّوا على محاكمته، وأرادوا اعترافه بارتكاب الفعل؛ ليُدينوه باعترافه ويعاقبوه على فعله، لكن إبراهيم تغلّب عليهم بمنطقه وحجّته وبرهانه، وبدل أن يحاكموه حاكمَهم هو، وبدل أن يُفحموه أفحمهم هو، وبدل أن يضعف هو أمامهم ضَعُفوا هم أمامه، لقد صار هو القاضي وصاروا هم متّهمين أمامه؛ أدانهم

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٢٩٩٣).
(٢) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٣٥٤).

ووبّخهم وأقام الحجّة عليهم، وهذا هو منطق الحقّ دائمًا، وهذا موقف دعاة الحق دائمًا عندما يواجهون جنود الباطل(١).

* * *

رابعًا: قوله تعالى ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ۝٩٧ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات: ٩٧ ـ ٩٨]:

إنّه منطق الحديد والنار، الذي لا يعرف الطغاة منطقًا سواه؛ عندما تُعوِزُهم الحجّةُ، وينقصهم الدليل، وحينما تُحرِجُهم كلمة الحق الخالصة ذات السلطان المبين(٢).

١ ـ قوله تعالى ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾:

أي: ابنوا له بنيانًا مُشرِفًا على النار التي أوقدتُموها فألقوه فيها.

ولم يتزعزع إبراهيم عليه السَّلام ولم يضطرب، بل بقي رابط الجأش، ثابت القلب، ولم تُؤثِّر فيه ألسنةُ النيران المتصاعدة في جوِّ السماء، ولا صرخات الجماهير المزدحمة حوله، وكان عليه السَّلام يُردِّدُ بقلبه ولسانه: حسبي الله ونعم الوكيل(٣).

ففي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه قال: حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم عليه السَّلام حين أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] (٤).

---

(١) المرجع نفسه، (١/ ٣٥٤).
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٢٩٩٣).
(٣) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٧/ ١٥٧).
(٤) صحيح البخاري، رقم (٤٥٦٣).

٢ ـ قوله تعالى ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾:

وأين يذهب كيد العباد إذا كان الله يريد؟ وماذا يملك أولئك الضعاف المهازيل ـ من الطغاة والمتجبِّرين وأصحاب السلطان وأعوانهم من الكبراء ـ إذا كانت رعاية الله تحوط عباده المخلصين؟[١].

ومعنى ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾: أي في هذا المقام، وفي هذا الموقف الذي فعلوه بإبراهيم؛ لأنّهم ظنُّوا أنهم تعالَوا على إبراهيم وتمكّنوا منه، وقدروا على إلقائه في النار فعلاً وهي مشتعلة، وظنُّوا ساعتها أنهم العالُون.

لكن سرعان ما تكشّفت حقيقة الموقف، وظهرت الآية الكبرى التي أرادها الله تعالى، فلو أراد الله لَنجَّى إبراهيم عليه السَّلام فلم يتمكَّنوا من الإمساك به، ولو أراد سبحانه لأمطرت السماء على النار فأطفأتها، لكن أراد الله أن يُبطل حججَهم، فلو هرب إبراهيم عليه السَّلام من أيديهم لقالوا لو لم يهرب لأحرقناه، ولو أمطرت السماء لقالوا: ظاهرة طبيعية لا دخل لنا بها، لكن ها هو إبراهيم، وها هي النار تشتعل، ومع ذلك ينجو إبراهيم بعد أن جاء نداء الحقِّ وكلمة الحقِّ للخلق: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، جاء الخطاب من الله تعالى والأمر للنار على طبيعتها وبذات مواصفاتها: ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ لا في ذاتك إنما على ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ فهي مثل شجرة الزقوم، تبدو لهم شجرة خضراء وهي نار تحرقهم، وهكذا جعلهم الله في هذا المقام ﴿ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ أي: في الكيد الذي دبّروه، فهم يكيدون، والله يكيد، وسُنَن الله جارية في أنبيائه المرسلين وأوليائه المتّقين[٢].

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٢٩٩٣).
(٢) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (٢٠/ ١٢٧٩٦).

عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣]، و﴿يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾؛ أي أن الأمور مُغلقَة، والحلقة مُحكَمة، والأبواب مُوصَدة، والسُّبل مسدودة، فالله يجعل له مخرجًا بعد أن لم يكن، فلذلك هذه القصة ليست مقصودة لذاتها، بل يجب أن نستنبط منها أن الله سبحانه وتعالى يُنجي المؤمنين، فهنيئًا لمن أخلص لله، وهنيئًا لمن اتّبع رضوان الله، وهنيئًا لمن جعل همَّه مرضاة الله عزّ وجل، وهنيئًا لمن جعل كل قدر الله في خدمة الحقِّ، هذا هو السعيد(١).

* * *

خامسًا: قوله تعالى ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٩٩ رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠٠ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ﴾ [الصافات: ٩٩ ـ ١٠١]:

هذه حلقة أخرى من قصة إبراهيم عليه السَّلام، لقد انتهى أمره مع أبيه وقومه، لقد أرادوا به الهلاك في النار التي أسموها الجحيم، وأراد الله أن يكونوا هم الأسفلين، ونجّاه من كيدهم أجمعين، وعندئذ استدبر إبراهيم مرحلة من حياته ليستقبل مرحلة، وطوى صفحة لينشر صفحة(٢).

١ ـ قوله تعالى ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾:

هكذا ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾؛ إنّها الهجرة، وهي هجرة نفسية قبل أن تكون هجرة مكانية، هي هجرة يترك فيها كلَّ شيء من ماضي حياته، يترك أباه وقومه وأهله وبيته ووطنه وكل ما يربطه بهذه الأرض، وبهؤلاء الناس، ويَدَع وراءه كذلك كل عائق وكل شاغل، ويُهاجر إلى ربه مُتخفِّفًا من كل شيء، طارحًا وراءه كلَّ شيء، مُسلِّمًا نفسه لربّه لا يستبقي منها شيئًا، موقنٌ أن ربَّه سيهديه، وسيرعى خطاه وينقلها في الطريق المستقيم.

---

(١) تفسير النابلسي «تدبر آيات الله في النفس والكون والحياة»، (١٠/ ٤٥٢).
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٢٩٩٤).

إنّها الهجرة الكاملة من حالٍ إلى حال، ومن وضعٍ إلى وضع، ومن أواصر شتى إلى آصرة واحدة لا يزاحمها في النفس شيء، إنَّه التعبير عن التجرُّد والخلوص والاستسلام والطمأنينة واليقين.

وكان إبراهيم عليه السَّلام حتى هذه اللحظة وحيدًا لا عقب له، وهو يترك وراءه أواصر الأهل والقربى والصحبة والمعرفة، وكلَّ مألوف له في ماضي حياته، وكلَّ ما يشدّه إلى الأرض التي نشأ فيها، والتي انحسم ما بينه وبين أهلها الذين ألقوه في الجحيم، فاتَّجه إلى ربّه الذي أعلن أنه ذاهب إليه، اتَّجه إليه يسأله الذُّرّيةَ المؤمنة والخلَفَ الصالح[١].

٢ ـ قوله تعالى ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

لمّا غادر إبراهيم عليه السَّلام العراق متّجهًا إلى الشام، وفي الطريق أحسّ عليه السَّلام بأنه يسير دون أن يكون في صحبته ولدٌ يُؤنسه ويُعينه، لقد شعر بالحاجة إلى وريث للدعوة يُعِينه فيها، وأحسَّ بالشعور الفطري، شعور الأبوة، يريد أن يتحقق هذا الشعور، فهو أمر فطري في الإنسان.

ولم يكن إبراهيم عليه السَّلام قد أنجب آنذاك أولادًا، فاتّجه إلى الله في تبتّل وضراعة وخشوع، وقال: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: الصالحين للدعوة، والصالحين للحياة، والصالحين في أنفسهم. إنَّ كلمة ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فيها من المعاني ما فيها، وقد استجاب الله دعاء عبده الصالح النبيِّ المهاجر، الداعية المتجرِّد، صاحب القلب السليم[٢].

٣ ـ قوله تعالى ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ﴾:

قال ابن كثير: وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السَّلام، فإنه أول ولد بُشّر به

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٢٩٩٤).

(٢) قصص الأنبياء في رحاب الكون، د. عبد الحليم محمود، ص١٢٥.

إبراهيم عليه السَّلام، وهو أكبر من إسحاق، باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل في نصِّ كتابهم أن إسماعيل وُلد وعمر إبراهيم عليه السَّلام ستٌّ وثمانون سنة، ووُلد إسحاق وعمر إبراهيم تسع وتسعون سنة، وعندهم أن الله تعالى أمر إبراهيم عليه السَّلام أن يذبح ابنه، وفي نسخة «بِكْره»، فأقحموا ههنا كذبًا وبهتانًا «إسحاق»، ولا يجوز هذا؛ لأنَّه مخالف لنص كتابهم، وإنما أقحموا «إسحاق»؛ لأنَّه أبوهم، وإسماعيل أبو العرب، فحسدوهم، فزادوا على ذلك وحرّفوا وحيدك، بمعنى الذي ليس عندك غيره، فإن إسماعيل كان ذهب به وبأمه إلى جانب مكة، وهذا تأويل وتحريف باطل، فإنه لا يُقال: «وحيدٌ» إلاّ لمن ليس عنده غيره، وأيضًا فإن أول ولد له معزّةٌ ليست لمن بعده من الأولاد، فالأمر بذبحه أبلغ في الابتلاء والاختبار.

وقد ذهب جماعةٌ من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق، وحُكي ذلك عن طائفة من السَّلف، حتى نُقل عن بعض الصحابة أيضًا، وليس ذلك في كتاب ولا سنَّة، وما أظنُّ ذلك أُخِذ إلاّ عن أحبار أهل الكتاب، وأُخذ مسلَّمًا به من غير حجّة، وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل، فإنه ذكر البشارة بالغلام الحليم، وذكر أنه الذبيح، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢]. ولمَّا بشّرت الملائكة إبراهيم بإسحاق، قالوا: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] أي: يُولد له في حياتهما ولدٌ يُسمَّى يعقوب، فيكون من ذُريّته عقب ونسل، وقد قدمنا هناك أنه لا يجوز بعد هذا أن يُؤمر بذبحه وهو صغير؛ لأنَّ الله تعالى قد وعدهما بأنه سيُعقب ويكون له نسل، فكيف يمكن بعد هذا أن يُؤمر بذبحه صغيرًا، وإسماعيل وُصف ههنا بالحليم؛ لأنَّه مناسبٌ لهذا المقام[١].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، (٧/ ٢٧).

هذا وقد استجاب الله دعاء إبراهيم عليه السَّلام وبشّره بغلام حليم، والحِلم كما نعلم هو العقل والأناة والتبصُّر والرزانة والصبر[١].

وما من شكٍّ في أنَّ الحِلم من الأسس الأصيلة للنجاح في الدعوة، وقد أتى هذا الغلام على كِبَرِ سنِّ والده، وأتى بكر والده وكان وحيدًا، وكان أملُ والده فيه؛ خصوصًا لأنَّ الله منحه عقلاً وذكاءً ونجابة، ومن أجل ذلك كان قرّة عين والديه، وكان حبّهما له كبيرًا[٢].

وفي قوله تعالى ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ﴾؛ انطوت البشارة في الآية على ثلاثة أشياء: على أن الولد غلام ذكر، وأنه يبلغ أوان الحلم، فالصبيُّ الصغير لا يُوصف بالحلم، وأنه يكون حليمًا موصوفًا بالحلم، و«الغلام» هو الصبي من حين يُولد إلى أن يشبّ، ومثناه: غلامان، وجمعه: غِلْمة وغِلمان[٣].

وقد بيّنا أنَّ الغلام الذي بَشَّر الله به إبراهيم عليه السَّلام هو إسماعيل، وإسماعيل: اسم أعجمي، فهو لا يتصرف للعلمية والعُجمة، وفي (تاج العروس) قال السيد الزبيدي: إسماعيل معناه بالسريانية: مُطيع الله، ولذا يكنى من كان اسمه إسماعيل بأبي مطيع. وفي (بصائر ذوي التمييز) قال الفيروز آبادي: وإسماعيل بن إبراهيم هو أول من سُمِّي بهذا الاسم من بني آدم[٤].

وبعض اللغويين يرى أن «إسماعيل» مركب من كلمتين: الأولى مشتقة من سمع، والثانية من إيل، وهو اسم الله عزّ وجل، فإن كان وزنه «إفعاليل»

---

(١) درب إبراهيم عليه السلام، سعيد الشبلي، ص٢٦٥.
(٢) قصص الأنبياء في رحاب الكون، د. عبد الحليم محمود، ص١٢٥.
(٣) من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين، محمد فؤاد سندي، ص١٨٣.
(٤) يُنظر: تاج العروس في جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، مادة (سمعل)، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروز آبادي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٦م، (٦/ ١٣٩).

فمعناه: أسمعَه اللهُ أمرَه فقام به، والذي قال: وزنه «فعاليل»؛ لأنّ أصله سماعيل، قال: معناه: سمع من الله قوله فأطاعه[١].

٤ ـ قصة زواج هاجر أم إسماعيل من إبراهيم عليه السَّلام:

بعد إقامة إبراهيم عليه السَّلام في الأرض المقدسة فلسطين المباركة، وبعد زمن لا يعلمه إلا الله دخل إبراهيم عليه السَّلام بتدبير من الله عزّ وجل إلى أرض مصر، وبما أنه عليه السَّلام رسول يدعو إلى الله، فكل خطواته وحركاته موجَّهة للدعوة، ولتبليغ الرسالة للناس[٢].

وكان من نتيجة هذه الرحلة أن أُهديت هاجر إلى سارة زوج إبراهيم عليه السَّلام، وأصبحت فيما بعد زوجًا ثانية لإبراهيم، وأمَّا لابنه الكبير إسماعيل عليه السَّلام، ومعلوماتنا عن هذه الرحلة مُستمَدّة من حديث رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لم يَكذِبْ إبراهيمُ إلا ثلاثَ كذباتٍ؛ ثِنتَين منهنَّ في ذاتِ الله: قوله:** ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ **وقوله:** ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾، **وقوله للملك الظالم عن زوجه سارة: أنّها أخته**»، وقد بيّنت أن هذا من المعاريض في قصة إبراهيم في سورة «الأنبياء» وفي سورة «الصافات»، كما مرّ معنا سابقًا.

و«**بينا هو ذات يوم وسارة، إذ أتى على جبّار من الجبابرة، فقيل له: إنّ ههنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه فسأله عنها، فقال: من هذه؟ قال: أختي، فأتى سارة، فقال: يا سارة، ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي، فلا تُكذِّبيني. فأرسل إليها، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأُخِذ[٣]، فقال: ادعي الله لي، ولا أضرّك،**

---

(١) ويقال فيه: إسماعين بالنون، وزعم ابن السكيت أن نونه بدل من اللام.

(٢) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٣٧٥).

(٣) فأخذ: قُبِض قبضة شديدة.

فدعت الله، فأُطلق، ثم تناولها ثانية، فأُخذ مثلها أو أشدّ، فقال: ادعي الله لي، ولا أضرّك، فدعت، فأُطلق، فدعا بعض حَجَبته، فقال: إنكم لم تأتوني بإنسان، إنما أتيتموني بشيطان. فأخدمَها هاجر، فأتته وهو قائم يُصلِّي، فأومأ بيده: مَهْيا؟ قالت: ردّ الله كيد الفاجر في نحره، وأخدم هاجر»، قال أبو هريرة: فتلك أمّكم يا بني ماء السماء[1].

هذا الحديث الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما، يذكر الحادثة العجيبة التي جرت لإبراهيم عليه السَّلام وزوجه عندما توجَّها إلى مصر، والكرامة التي أكرمت بها سارة، وعصمتها من ذلك الملك الجبار الفاجر[2].

الذّمّة والعهد والرحم لأهل مصر:

إنَّ الذي يدلُّ على هذه الحادثة التي جرت لإبراهيم وهو في مصر، وأن الملك الجبار الفاجر هو ملك مصر، حديث آخر ينصّ على أن «هاجر» مصرية.

فقد روى مسلم ورواه آخرون عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّكُم تَستَفتِحُونَ مِصرَ، وهي أرضٌ يُسمَّى فيها القِيراطُ، فإذا فتحتُمُوها، فأحسِنُوا إلى أهلِها، فإنَّ لهم ذمّةً ورَحِمًا، أو قال: ذِمّةً وصِهرًا، فإذا رأيتَ رَجُلَينِ يَختَصِمانِ فيها في مَوضِعِ لَبِنةٍ، فاخرُجْ منها**»، قال أبو ذر: فرأيتُ عبدَ الرَّحمنِ بن شرحبيلَ بن حَسنةَ وأخاهُ رَبيعةَ يَختصمانِ في مَوضِعِ لَبِنةٍ، فخَرجتُ مِنها[3].

فهذا الحديث ينصّ على أنّ لأهل مصر ذمّة ورحمًا وصهرًا للعرب، قال العلماء: القيراطُ: جزء من أجزاء الدينار أو الدرهم، وأهل مصر يُكثرون من

(١) صحيح البخاري، رقم (٢٢١٧)، صحيح مسلم، رقم (٢٣٧١).
(٢) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٣٧٦).
(٣) صحيح مسلم، رقم (٢٥٤٣)، سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني، رقم (٩٥).

استعماله والتكلُّمِ به. والذِّمّة: الحرمة والحق. والرحم: لكون هاجر أمِّ إسماعيل منهم، فأهل مصر هم أخوال لأهل مكة والحجاز. والصّهر: لأنَّ أهل مصر صاهروا رسول الله ﷺ؛ لأنَّ حاكم مصر المقوْقس أهداه «مارية» القبْطية، أمَّ ابنه إبراهيم الذي مات وهو صغير، وأن ملك مصر أهدى «هاجر» لإبراهيم فأنجبت منه إسماعيل عليه السَّلام، وأن حاكم مصر فيما بعد أهدى محمدًا ﷺ «مارية»، فأنجبت ابنه إبراهيم، ولهذا كان الرسول ﷺ يُوصي الصحابة بالمصريِّين خيرًا، ويدعوهم إلى مراعاة ذمتّهم ورَحِمهم ومصاهرتهم[١].

من دلالات الحديث عن زيارة مصر:

عندما ننظر في الحديث الذي سجَّل قصة إبراهيم عليه السَّلام وسارة مع ملك مصر، فإننا نخرج منه ببعض النتائج والفوائد، ولعل منها:

* اسم زوج إبراهيم عليه السَّلام هو سارة كما ورد مصرَّحًا به في الحديث.

* كانت سارة رضي الله عنها من أحسن النساء وأجملهن.

* كان ذلك الملك جبارًا من الجبابرة، وكان فاجرًا شهوانيًّا، وكان مُرتكِبًا للفاحشة مُلاحِقًا للنساء.

* كانت له حاشية أو عصابة، مهمتها البحث عن النساء الجميلات وإحضارهن إليه طوعًا أو كرهًا؛ لِيَفجُر بهن، وتحويل مُهمّة الملك ليكون «صائد نساء»، وهذا من سمات الأنظمة الجاهلية في كل زمان ومكان[٢].

* أمر إبراهيمُ سارة لتقول للملك أنّها أُخته، ليأخذها الملك، وهناك يُقدِّم الله لذلك الملك آية ومعجزة، ليُحقِّق قَدَره سبحانه، فيعصم سارة من فجوره، وتأخذ هاجر معها.

* قال إبراهيم عن سارة إنّها أخته، وأرادَ الأخوةَ في الدين، فهو مسلم

---

(١) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٣٧٨).

(٢) المرجع نفسه، (١/ ٣٧٨).

وهي مسلمة، والإسلام جمع بينهما في أخوة إيمانية وإن كانا زوجين، ولقد كان إبراهيم عليه السَّلام صادقًا عندما قال: إنّها أخته، وأراد بذلك الأخوة الإيمانية، وقد وضّح إبراهيم عليه السَّلام هذا لسارة، وذلك في قوله لها: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، ولأنَّ أفراد حاشية الجبّار، فهموا من كلامه الأخوة في النسب، فاعتُبر كلامه كذبًا ظاهرًا، لأنه شابه الكذب في الظاهر؛ لكنه صدق في الحقيقة[1].

* إنَّ إبراهيم عليه السَّلام نبيٌّ، وإن الله هو الذي يُوحي إليه ويُوجِّهه، فالله هو الذي قدَّر إرسالها وتسليمها، وعليه أن يطمئن، ولا يقلق فستكون عند الملك في رعاية الله وحفظه، ولن ينال الملك منها شيئًا، وكان إبراهيم عليه السَّلام واثقًا بوعد الله مسلّمًا أمره إليه.

* عصم الله سارة من فجور الملك، ووهَبَ لها كرامة بارزة، وقدّم لذلك الفاجر الجبار آية على قوة الله وقدرته وعلى عجز ذلك الجبار، فلما مدَّ يدَه إليها أول مرة قبضها الله وعطّلها، فعجز الملك عن تحريكها أو التحكُّم فيها، فتعجَّب واستغرب لأنّ ذلك أول مرة يحصل معه، وطلب من سارة أن تدعو ربّها ليطلق يده ولن يؤذيها، ولما فعلت ذلك عاود الملك الكرّة مرة ثانية ثم مرة ثالثة، عند ذلك علم الملك أنه ممنوع من الوصول إليها، وأيقن بعجزه عن مسّها، وأن هناك قوة أخرى تحفظها وتعصمها وتحميها منه، وهذا هو المراد من الحادثة، وهذه هي الحكمة.

* أراد الملك إكرام هذه المرأة المحفوظة العفيفة، فقدَّم لها إحدى النساء؛ لتكون خادمة لها وجارية عندها وهي هاجر، وأعادها إلى إبراهيم عليه السَّلام معزَّزة مكرَّمة عفيفة مَصونة.

* كان إبراهيم عليه السَّلام أثناء غياب امرأته عند الملك مُلتجِئًا إلى الله

---

(١) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٣٧٩).

يُصلِّي له ويدعوه ويستنصره، ويطلب منه حفظ امرأته، وعادت إليه سارة وهو يُصلِّي، وقد كان دأب النبي محمد ﷺ، إذا حزبه أمر أو وقع في ضيق، أن يفزع إلى الصلاة[١].

* كان من دعاء سارة ـ عليها السلام ـ وهي في طريقها إلى الجبار: «اللَّهمَّ إن كنتَ تعلمُ أني آمنتُ بك وبرسولِكَ، وأحصنتُ فَرجي إلاّ على زَوجي، فلا تُسلِّط عليّ الكافر»[٢]، فاستجاب الله لها.

* فرح إبراهيم عليه السَّلام بعودة سارة، وهو متلهّف متسرّع ليعرف ماذا جرى لها، ولهذا لم ينتظر حتى يفرغ من الصلاة، بل أومأ بيده أثناء الصلاة متسائلاً: مَهْيا؟ ومعنى «مَهْيا»: ما الخبر؟ ولم يتكلم بلسانه، لأنه كان في الصلاة، وإنما كانت إشارة يده تُوحي بهذا الاستفهام.

* يتجلَّى من جواب سارة ـ عليها السلام ـ قوّةُ إيمانها بالله، فقد أسندت الحفظ والرعاية إلى الله، وأعادت الفضل إلى مانحه سبحانه وتعالى، وذلك قولها: ردّ الله كيد الفاجر في نحره، وأخدمَ هاجر.

* قدَّم أبو هريرة راوي الحديث رضي الله عنه على الحادثة تعقيبًا ذكيًا لطيفًا، وذلك في قوله: «فتلك أمُّكم يا بني ماء السماء»، وهو بهذا يخاطب الصحابة ويقول لهم: هاجر المصرية القبطية هي أمُّكم؛ لأن إبراهيم جعلها «سرّيته» فيما بعد، وأنجبت له إسماعيل وبما أنكم أبناء إسماعيل فهاجر أمُّكم[٣].

* معنى قوله «يا بني ماء السماء»: أن العرب في بلادهم يعتمدون على ماء السماء ـ وهو المطر ـ في الزراعة والكلأ والعشب والرعي، ولذلك صاروا كأنهم أبناء المطر ماء السماء.

---

(١) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٣٨٠).
(٢) رواية البخاري في صحيحه عن الأعرج في أواخر كتاب البيوع.
(٣) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٣٨١).

وهذه بعض الفوائد والدلالات السريعة التي نخرج بها من هذا الحديث الصحيح[١]:

* يجب الحذر وبيان بطلان ما تدَّعيه توراة اليهود: أن سبب هجرة إبراهيم عليه السَّلام إلى مصر كانت لأسباب معيشيّة، حيث إن أرض الشام أصابها في ذلك الوقت القحط والجدب، والصحيح أن هجرته عليه السَّلام إلى مصر كانت لأسباب دينية كالدعوة إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة، كما أن الحالة الدينية في مصر في زمن هجرة الخليل عليه السَّلام كانت مهيَّأة لنشر دعوة إبراهيم عليه السَّلام بين الناس.

* إن ما ورد في أسفار اليهود حول قصة إبراهيم وسارة مع ملك مصر متناقض مع ما ورد في الروايات الإسلامية حول تلك القصة، ويجب الحذر مما ألصق اليهود في أسفارهم بإبراهيم عليه السَّلام من صفات قبيحة وأعمالٍ دنيئة يندى لها الجبين، ويقشعرُّ منها البدن، مثل: الكذب، والخوف على حياته من الموت، والدياثة، والتكسُّب بالمال عن طريق المتاجرة بشرف زوجته، والمخاطرة بالعرض والشرف... إلخ. وإن غرض اليهود من إلصاق هذه التُّهم بإبراهيم عليه السَّلام: أن يُبيحوا لأنفسهم التخلُّقَ بهذه الصفات القبيحة، وممارسة الأفعال الدنيئة، وأن ذلك لا حرج عليهم لأنهم يقتدون في أخلاقهم وسلوكهم بإبراهيم عليه السَّلام[٢].

٥ ـ هاجر في بلاد الشام ومولد إسماعيل عليهم السلام:

عاد إبراهيم عليه السَّلام وزوجه سارة من مصر إلى فلسطين، وأقاما فيها معًا مع «هاجر» الجارية، وكانت سارة لا تُنجب ولا تَلد، وقد أخذ العمرُ بإبراهيم عليه السَّلام وليس له أولاد، هذا وعزّ عليها ألا يكون لزوجها أولاد،

---

(١) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٣٨١).
(٢) إبراهيم عليه السلام في أسفار اليهود «عرض ونقد»، فاطمة بنت خالد ردمان، ص١٥٤.

وبما أنّها عقيم، فلماذا لا تُهديه وتهبُه جاريتَها هاجر؛ لتكون جارية له، يتسرّى بها، ويُعاشرها، لعلها تحملُ منه؟!(١).

ومن الطريف في سيرة هاجر: أنّها أحبّت مولاتها وسيِّدَها، ورأت منهما الطُّهْرَ والنقاء، فاعتنقت دينهما، وآمنت بالله تعالى إيمان المحبّين المُخلِصين. وكانت هاجر راضية النفس؛ لأن الله تعالى أراد لها الخير وهداها إلى عبادته، وكانت إذا قامت إلى الصلاة نسيت كل شيء من حولها وتعلّق قلبُها بالله، ولم تكن هاجر تريد غير المناجاة وغير العبادة، وما دار بخلدها أن الله تعالى ما بعث إبراهيم وسارة إلى مصر إلا ليعودا بها، فهي الدّرَّة الغالية في قافلة الإيمان، وهي الجوهرة العظيمة التي بارك الله فيها، والتي يُعدُّها ليوم عظيم.

كانت سارة وهاجر عليهما السلام متصافيتين، فقد أحبّت كلُّ واحدة منهما الأخرى، وراحتا تجتهدان في عبادة الله تعالى، وحمدت هاجرُ اللهَ كثيرًا أن أخرجها من الظلمات إلى النور، وجعلها من بيت مبارك قام على الإيمان وتوحيد الله عزّ وجل وإفراده بالعبادة.

وكان يخطر ببال سارة ـ عليها السَّلام ـ دعاءُ إبراهيم الصادق المخلص ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، فتتأمَّل في موقفها وسني عمرها، وبأنها أصبحت عجوزًا عقيمًا، فبرقت بارقة أمل في ذهنها، وعاشت في صفاء ربَّاني، فقالت في سرور لزوجها إبراهيم عليه السَّلام: هذه هاجر، خُذْها لعلَّ الله أن يرزقك منها الولد(٢).

وحصل ذلك ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾، ومضت الأيام والشهور، وهاجر سعيدة بحَملها، ووضعت هاجر طفلاً جميلاً، وها هو صوته يملأ الرحاب، ويشقُّ صمت الكون، وحملت سارة إسماعيل بين يديها برفق وحنان ومحبة

---

(١) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٣٨١).

(٢) الحياة الزوجية في القرآن الكريم، عبد الفتاح أحمد الخطيب، دار اليمامة، دمشق، ط١، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م، ص٢٢٠.

وقدَّمته إلى أبيه، فألقى إبراهيم نظرة الحبِّ على الابن الموعود، فإذا ينابيع الرّقة تتفجر من قلبه المتهلِّل بالفرح، وإذا به يلثم الوليد ويضمّه في تلك اللحظات المشرقة، قال إبراهيم وسارة وهاجر: الحمد لله رب العالمين، يا ربّ إنّا نُعيذ بك ابننا إسماعيل وذُرِّيَّته من الشيطان الرجيم. وبدأت حياةٌ زوجية لإبراهيم وهاجر، بدأت حياة جديدة بهذا الطفل إسماعيل، الذي غيّر مجرى حياة إبراهيم الزوجية مع هاجر وسارة، فقد بدأ الطفل إسماعيل يكبر في حين بدأت حكمة الله تتجلَّى في أن ينقل إبراهيم هاجر وإسماعيل إلى حيث يأمره ربُّه، إلى أمِّ القرى، لتعود الحياة إليها، ولتظلّ قائمة إلى أن يشاء الله.

إنَّ بعض المفسرين والمصنفين من أهل العلم أرجع نقل هاجر وإسماعيل إلى مكة بسبب غَيرة سارة من جاريتها هاجر، حيث طلبت من إبراهيم عليه السَّلام أن يُبعدَها وأن يغيّبها عنها، ومن هؤلاء العلماء والمصنفين ابن قيِّم الجوزية، حيث قال في (زاد المعاد): إنَّ سارة امرأة الخليل غارت من هاجر وابنها أشدّ الغَيرة، فإنَّها كانت جارية، فلما ولدت إسماعيل وأحبّه أبوه اشتدَّت غَيرة سارة، فأمره الله سبحانه أن يُبعدَ عنها هاجر وابنَها، ويُسكنَهما في أرض مكة؛ لتبرد عن سارة حرارة الغَيرة، وهذا من رأفته ورحمته تعالى[1].

ونحن نعتقد أن السيدة سارة ـ عليها السَّلام ـ فوق كل هذا الأمر، فهي تقيّة نقيّة عابدة، نشأت في كنف خليل الرّحمن نشأة الصفاء، وصُنعت على عينه، وتعلّمت شيئًا كثيرًا من مكارمه وفضائله؛ ولذا فلا يمكن أن تستحكم الغَيرة في قلبها، وتطلب من زوجها أن يُبعد طفلاً رضيعًا وأمّه دون سبب، بل إنَّ ذلك يعود إلى أمر الله ومشيئته فهو علاّم الغيوب. وفي هاتيك الأيام، أوحى الله تعالى إلى إبراهيم أن يأخذ هاجر وابنها إلى الأرض المباركة أمِّ القرى، تلك البقعة التي أراد الله أن يبارك فيها للعالمين[2].

---

(١) الحياة الزوجية في القرآن الكريم، عبد الفتاح أحمد الخطيب، ص٢٢٣.
(٢) المرجع نفسه، ص٢٢٣.

وقد قال الصّاوي: أمره الله تعالى بالوحي أن ينقلها إلى مكة، وأتى بها بالبُراق[١]. وامتثل إبراهيم لأمر ربّه، وأنزل هاجر وإسماعيل عليهما السلام حيث أمره[٢].

ولا بُدّ من الحذر من الروايات التي تزعمها الأساطير والإسرائيليات من أن سارة أصبحت تغارُ غَيرة شديدة من هاجر، بعدما أنجبت الأخيرة الولد لإبراهيم، وأن هاجر لم تعد تستطيع رؤية هاجر وابنِها في البيت، وأنها أمرت الخليل إبراهيم بإبعادهما عنها، ووضعِهما في مكان بعيد بحيث لا تراهما، فنفّذ إبراهيم أمر سارة، وذهب بهم إلى الحجاز. ولا نقول بهذا؛ لأنه لم يَرد في حديث صحيح عن رسول الله ﷺ، ولا نقبل في تفاصيل القصص القرآني أيَّ كلام لأيٍّ كان، إذا لم يُقدِّم الدليلَ على ذلك، إمّا من آية صريحة أو حديث متصل صحيح، ثم إنّ سارة أعظم إيمانًا مما صوَّرها به رواة الإسرائيليات، فهي التي قدَّمت هاجر لإبراهيم، وهي التي رَجت أن يكون له ولد، أمّا وقد جاء الولد فأصبحت تريد التخلص منه والقضاء عليه، وأنّها لو فعلت ذلك لكانت ظالمة، وإبراهيم لو ذهب بهاجر وإسماعيل إلى الحجاز لهذا السبب لكان ظالمًا، وحاشا لإبراهيم عليه السَّلام أن يظلم، وزوجته المؤمنة سارة بريئة من ذلك الظلم[٣].

٦ ـ هاجر وإسماعيل في بلاد الحجاز:

توجَّه إبراهيم عليه السَّلام بهاجر وإسماعيل، ووضعهما في بلاد الحجاز في وادٍ غير ذي زرع، تنفيذًا لأمر الله، ولما غادرهما توجَّه إلى الله ودعا دعاءً خاشعًا منيبًا، كما سيأتي في حديث البخاري المطوّل، والراجح أن البيت

(١) حاشية الصّاوي على تفسير الجلالين، أحمد الصّاوي المالكي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٥م، (٢/ ٢٤٢).

(٢) الحياة الزوجية في القرآن الكريم، عبد الفتاح أحمد الخطيب، ص٢٢٣.

(٣) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٣٨٥).

الحرام لم يكن قد بُني عندما وضع إبراهيم هاجر وإسماعيل في تلك البقعة، وأن البلد لم يكن قد وُجد ـ كما سنبحث هذا فيما بعد إن شاء الله ـ وعرف أنه سيكون في تلك البقعة: البلد الحرام والبيت المُعظَّم الكعبة المشرّفة، وذلك عن طريق الوحي من الله تعالى[١].

جاءت تفاصيل وضع هاجر وإسماعيل عليهما السلام في ذلك الوادي في حديث صحيح عن رسول الله ﷺ، فقد روى البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: أول ما اتّخذ النساء المِنْطَق[٢] من قبل أمِّ إسماعيل، اتّخذت منطقةً لتعفي أثرها عن سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل ـ وهي ترضعه ـ حتى وضعها عند البيت عند دوحة[٣] فوق زمزم، في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء[٤].

أ ـ وضع هاجر وإسماعيل والبحث عن مغيث:

لقد وضعها هناك، ووضع عندها جرابًا من تمر وسقاء فيه ماء، ثم قضى إبراهيم منطلقًا، فتبعته أمُّ إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم! أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنسٌ ولا شيء؟! وقالت له ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يُضيّعنا. ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثّنيّة، حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهذه الكلمات ورفع يديه فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾.

---

(١) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٣٨٥).
(٢) المنطق: الحزام الذي تشد به المرأة ثوبها على وسطها.
(٣) الدوحة: شجرة صحراوية كبيرة.
(٤) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٣٨٧). والمنطقة: ما يُشَدّ في الوسط.

وجعلت أمُّ إسماعيل تُرضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت، وعطش ابنُها وجعلت تنظر إليه يتلوّى، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فهَبَطَت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي، رفعت طَرَفَ دِرْعِها، ثم سعَت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها، فنظرت هل ترى أحدًا؟ فلم تر أحدًا، ففعلت ذلك سبع مرات. قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال النبي ﷺ: «**فلذلك سعى الناس بينهما**»، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا، فقالت: صَهْ[١] ـ تريد نفسها ـ ثم تَسَمَّعَت، فسمعت أيضًا، فقالت: قد أسمعتَ إن كانَ عندَكَ غَوَاث[٢].

ب ـ الملك ونبع ماء زمزم ومجيء جُرْهم:

فإذا هي بالمَلَكِ عند موضع زمزم، فبحث بعقبه ـ أو بجناحه ـ[٣] حتى ظهر الماء، فجعلت تَحوطُه بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها، وهو يَفور بعد ما تغرف، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «**يَرحَمُ الله أمَّ إسماعيلَ، لو تركَت زمزمَ ـ أو لو لم تغرف في الماء ـ لكانت زمزم عينًا مَعينًا**»[٤]، فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها المَلك: لا تخافوا الضَّيعة، فإن ههنا بيت الله، يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يُضيِّع أهلَه.

وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية تأتيه السيول، فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرّت بهم رفقة من جُرْهم، مقبلين من طريق «كداء»[٥]، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائرًا عائفًا[٦]، فقالوا: إنّ هذا الطائر

---

(١) صه: (اسم فعل)، كلمة تنبيه للانتباه والاستماع لمعرفة ماذا يحدث.
(٢) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٣٨٨).
(٣) بحث بعقبه أو بجناحه: ضرب الأرض برجله أو بجناحه، فظهر ماء زمزم.
(٤) أي: لو أن هاجر لم تجمع ماء زمزم فيما يشبه الحوض، لكان زمزم عيناً جارية.
(٥) كداء: هو ثنية «كدى» التي في أعلى مكة.
(٦) الطير العائف: الذي يحوم فوق الماء.

ليدور على ماء، وعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جَرِيًّا أو جَرِيَّين فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا وأمّ إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك، قالت: نعم. ولكن لا حقّ لكم بالماء، قالوا: نعم، فقال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «**فألفى ذلك أمَّ إسماعيل وهي تحب الأُنس**»[١]، فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى كان بها أهل أبيات منهم، وشبّ الغلام وتعلَّم العربية منهم، وأنفسهم وأعجبهم حين شبّ، فلما أدرك[٢] زوّجوه امرأة منهم، وماتت أمُّ إسماعيل[٣].

ج ـ إبراهيم في زيارته لبيت إسماعيل:

فجاء إبراهيمُ بعدما تزوّج إسماعيلُ يُطالع تركته، فلم يجد إسماعيلَ، فسأل امرأتَه عنه فقالت: خرج يبتغي لنا[٤]، ثم يسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بشرّ، نحن في ضيق وشدّة، وشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك اقرئي عليه السلام، وقولي له يُغيِّر عَتَبَةَ بابه. فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئًا، فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرتُه، فسألني: كيف عيشُنا؟ فأخبرتُه أنا في جَهْد وشدة. قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غيِّر عَتَبَةَ بابك، قال: ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقَكِ! الْحَقِي بأهلك.

فطلَّقها وتزوَّج منهم أُخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعدُ فلم يجده، فدخل على امرأته فسأل عنه. قالت: خرج يبتغي لنا، قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسَعَة، وأثنت على الله. فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم، قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء، قال:

---

(١) أي: إن هاجر كانت تحب الاختلاط بالناس، ولا تحب العزلة.
(٢) أدرك: كبر وبلغ مبلغ الرجال.
(٣) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٣٩٠).
(٤) يبتغي لنا: يطلب لنا الرزق.

اللَّهمَّ بارك لهم في اللحم والماء. قال النبي ﷺ: «**ولم يكن لهم يومئذ حَبٌّ**»[١]، ولو كان لهم دعا لهم فيه، قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه.

وفي رواية: فجاء فقال: أين إسماعيل؟ فقالت امرأتُه: ذهب يصيد؛ ثم قالت: ألا تنزل، فتَطعَم وتَشرب؟ قال: وما طعامكم وما شرابكم؟ قالت: طعامنا اللحم وشرابنا الماء، قال: اللَّهمَّ بارك لهم في طعامهم وشرابهم. قال: فقال أبو القاسم ـ ﷺ: «**بركة دعوة إبراهيم**». قال: فإذا جاء زوُجك فاقْرَئي عليه السلام مُرِيهِ يُثَبِّتُ عَتَبَةَ بابه. فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنّا بخير. قال: فأوصاكِ بشيء؟ قالت: نعم، يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تُثَبِّتَ عَتَبَةَ بابك. قال: ذاك أبي، وأنت العَتَبة، أمرني أن أُمسِكَك. ثم لبث عنهم ما شاء الله[٢].

د ـ التقاء إبراهيم وإسماعيل وبناء البيت:

جاء نبيُّ الله إبراهيم عليه السلام بعد ذلك وإسماعيل يَبرِي نَبلاً له تحت دَوحةٍ قريبًا من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد. قال: يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربُّك؟ قال: وتُعِينُنِي، قال: وأُعِينُك، قال: فإن الله أمرني أن أبني بيتًا ههنا، وأشار إلى أكَمَة[٣] مرتفعة على ما حولها، قال: فعند ذلك رفع القواعدَ من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه، وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[٤].

---

(١) الحب: هو القمح والشعير.
(٢) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، (١/٢٠٧).
(٣) الأكمة المرتفعة: أرض مرتفعة كالتل.
(٤) صحيح البخاري، رقم (٣٣٦٣)، سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني، رقم (٩٠).

وهذا حديث صحيح مرفوع للرسول ﷺ، ويتحدَّث عن مسائل ومشاهد من قصة إبراهيم وهاجر وإسماعيل عليهم السلام جميعًا[١].

هـ ـ رؤيا ذبح إسماعيل وبناء الكعبة:

هل كانت رؤيا ذبح إسماعيل عليه السَّلام في زيارة إبراهيم الثالثة إلى مكة، التي قابل فيها إسماعيل، وبَنيا فيها الكعبة المشرفة؟ أم كانت هذه الرؤيا ومشهد الذبح والفداء في زيارة أخرى لاحقة فيما بعد؟

ليس عندنا من النصوص الصريحة ما يُحدِّد ذلك، فلا نستطيع التحديد والجزم والله أعلم، وهناك رواية موقوفة غير مرفوعة، فقد أخرج الفاكهيُّ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كان إبراهيم يزور هاجر كل شهر على البراق، يغدو غدوة فيأتي مكة، ثم يرجع فيَقيل في منزله بالشام[٢].

ولعلَّ الأمرين ـ بناء الكعبة ورؤيا ذبح إسماعيل ـ كانا في الزيارة نفسها التي قابل فيها إبراهيمُ ابنَه إسماعيل عليهما السلام بعد غياب سنوات عديدة، فبنيا البيت، وأذّن إبراهيم بالحج، ورأى إبراهيم رؤيا ذبح إسماعيل، وكان الفداء وكانت الأضحية، وكان عيد الأضحى، وكانت مناسك الحج، لعلّ هذا هو الراجح[٣].

و ـ تعدُّد الزوجات في الأمم السابقة:

كان تعدُّد الزوجات سائدًا في الأمم السابقة، وجاء الإسلام ليقرِّره شرعًا إلهيًّا، وحكمًا دينيًّا، قال تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ [النساء: ٣]، وفي التعدُّد حكمة عظيمة، وخاصّة عند الحاجة، كأنْ تكون المرأة لا تنجب، كما حصل مع سارة، فالتعدُّد حلٌّ

---

(١) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٣٩٢).
(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، (٦/ ٢٨٧).
(٣) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٣٩٥).

سديد، وأفضل من طلاق الأولى لزواج الثانية، ولغير ذلك من الأسباب، كان التعدُّد في الزوجات حلاًّ إلهيًّا، ومعجزة في التشريع الإلهي حتى تقوم الساعة.

وإنَّ التعدُّد في الزوجات موجود في الشريعة اليهودية، وعند النصارى في العهود الأولى، حتى حرّمته ومنعته الكنيسة فيما بعد، وهو شائع في العالم اليوم إلا في بعض البلاد التي يعترف الرجل فيها أن له مع زوجته أكثر من صاحبة أو خليلة، ثم جاءت الطامة الكبرى في العصر الحاضر في الامتناع عن الزواج أصلاً لسهولة الوسائل الأخرى للغريزة الجنسية، وتهرُّبًا من مسؤولية الزواج وتربية الأولاد، ثم جاء الأدهى والأمرّ والنكسة البشرية بالزواج المثلي «اللواط والمساحقة»، وإصدار الأنظمة والتشريعات التي تبيح ذلك وتشجّع عليه. نسأل الله ألا يهلكنا بما فعل السفهاء منّا، وأن يجنّبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن، ويحمي أمتنا ومجتمعاتنا من أوضار الجاهلية الحديثة(١).

ز ـ حضانة الأم لولدها:

ترك إبراهيم زوجته هاجر وترك ابنها إسماعيل عليهم السلام في حضانتها، واستغربَت ذلك منه، وسألته عدة مرات فلم يُجب، فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: فاذهب، فإن الله لن يُضيِّعَنا(٢).

بقي إسماعيل عليه السَّلام في رعاية أمه وحضانتها لتقوم بجميع شؤونه، وتُؤمّن له الطعام والشراب واللباس والمأوى، ونهضت بهذه المُهمّة الجليلة لحفظه وهو صغير وهو لا يستقلُّ بأمر نفسه، مع تربيته بما يُصلحه، ووقايته مما يؤذيه، ولأنَّ الإنسان أكثر المخلوقات حاجة في صغره إلى رعاية غيره وكفالته لأطول مدة بين المخلوقات؛ لأنه يهلك بتركها ويتضرر عند التقصير بها، فوجب حفظه من المهالك، ولذلك خلق الله تعالى غريزة الأمومة وفطر

---

(١) شرعة الله للأنبياء، محمد مصطفى الزحيلي، ص١٥٧.

(٢) صحيح البخاري، رقم (٣١٨٥).

الوالدين على العطف والحنان على الصغير، وخاصّة الأم، وحضانتها لولدها في الصغر أكثر أهمية وضرورة، ولذلك أوجب الله تعالى على الوالدة الرضاعة وما يتعلَّق بها، قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

إنَّ حضانة الأم لولدها رافق البشريةَ منذ مهدها، وسيبقى معها إلى آخرها، وأقرّته جميع الشرائع والأنظمة والقوانين إلا الشرائع المادية البحتة التي تخلّت عن الإنسانية؛ كالشيوعية، فإنها نزعت الأطفال من أمهاتهم، ولذلك تحتّم انقراضُها، بل إنَّ القوانين والأنظمة اليوم تمنح الأم إجازة دائمة أو متقطعة لحضانة أولادها، لينعموا بالعطف والحنان وحسن الرعاية والعناية، وهذا ما بدأ مع حواء وأولادها، ثم هاجر وابنها إسماعيل، وسارة وابنها إسحاق، وجميع البشرية، وهذا أحد الأسباب في منح الأم الأفضلية والمكانة العليا في الحياة(١).

* * *

سادسًا: قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٢]:

أخذ إسماعيل عليه السَّلام يشبّ ويترعرع حتى بلغ السنّ التي يتمكَّن فيها من السعي والعمل، وبلغ أيضًا من حبِّ والديه مبلغًا عظيمًا، وكان الحبُّ يزداد مع الأيام ويكبر على مرِّ السنين، وإذا بوالده يرى فيما يراه النائم أنه يذبح ابنَه، وكان الوالد يعلم أنّها إشارة الله إليه له بذبح ابنَه، إشارة من نوع الابتلاء الذي اختبره الله تعالى به من تحطيم الأصنام والإلقاء في النار، وقد نجح في الاختبار السابق واجتازه في ثقة بالله لا حدّ لها، بيد أن الابتلاء السابق واضح المعنى، وكان سافرَ الملامح، لقد كان أمرًا صريحًا بتحطيم الأصنام، وكان تحطيمًا

(١) شرعة الله للأنبياء، محمد مصطفى الزحيلي، ص١٤٩.

مفهومَ الدلالة، فلا ينبغي أن يُعبد مع الله صنمٌ أو غيره، ولا يجوز في منطق العقل والشعور السليم أن ينصرف الإنسان عن مانح النعم. وكان الإلقاء في النار أيضًا واضح المعنى، إنه في سبيل الله وفي سبيل الله يهون كل ألم، ونجح إبراهيم في الابتلاء الماضي وحفظه الله سبحانه، وكتب له النجاة، كما يفعل سبحانه مع كل من والاه[١].

ونجح في ابتلاء الهجرة ومعاناتها، وما تعرَّض له من جبّار مصر من ابتلاء عظيم، وحان الوقت لابتلاء من نوع جديد أشار الله فيه إلى إبراهيم عليه السَّلام بذبح ابنه، والحكمة في ذلك ـ كما يقول الإمام ابن قيّم الجوزية ـ أن الله سبحانه أجرى العادة البشرية أن بِكْرَ الأولاد أحبُّ إلى الوالدين ممَّن يُولد بعده، وإبراهيم لما سأل ربّه الولد، ووهبه له، تعلَّقت شعبة من قلبه بمحبته، والله سبحانه وتعالى قد اتَّخذه خليلاً، والخلة هي كمال المحبة، والخلة مَنصِبٌ يقتضي توحيد المحبوب بالمحبة، وألا يُشارَك بينه وبين غيره فيها، فلمّا أخذ الولد شعبة من قلب الوالد أحبَّ الله سبحانه لخليله أن يكون قلبه له، فأمره سبحانه بذبح هذا الذي أخذ حبُّه شعبةً من قلبه، وذلك لِيَخْلُصَ له كاملاً[٢].

فلما أقدم على ذبحه، وكانت محبة الله أعظم عنده من محبة الولد، خلصت الخلة حينئذ من شوائب المشاركة، فلم يبقَ في الذبح مصلحة، وحصل مراد الربّ، وصدّق إبراهيم الرؤيا، وفداه الله بذبح عظيم[٣].

ومما سبق نجد أن القصة تدلُّ من سياقها على أن مُراد الله تعالى من إبراهيم عليه السَّلام لم يكن ذبح إسماعيل، بدليل أنَّ الذبح لم يحدث، وإنما كان المراد أن يذبح إبراهيم شغفَه الزائدَ بابنه وتعلُّقَه به، لكيلا يُؤثّر ذلك على مرتبة

---

(١) قصص الأنبياء في رحاب الكون، د. عبد الحليم محمود، ص١٢٦.
(٢) قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، ص١٢٩.
(٣) المرجع نفسه، البدارين، ص١٣٠.

الخلّة التي لا تقبل المشاركة والمزاحمة في المحبة(١).

١ ـ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾:

إن إبراهيم عليه السَّلام الشيخ المقطوع من الأهل والقرابة، والمهاجر من الأرض والوطن، ها هوذا يُرزق في كبره وهرمه بغلام، طالما تطلَّع إليه، فلما جاءه جاء غلامًا ممتازًا يشهد له ربّه بأنه حليم، وها هو ذا ما يكاد يأنس به ويتفتح صباه، ويبلغ معه السعي، ويرافقه في الحياة، ها هو ذا ما يكاد يأنس ويستروح بهذا الغلام الحليم حتى يرى في منامه أنه يذبحه، ويُدرِك أنّها إشارة من ربه بالتضحية، فماذا يفعل؟

إنه لا يتردَّد ولا يُخالجه إلا شعوربالطاعة، ولا يخطر له إلا خاطر التسليم... هذا ودون أن يعترض، ودون أن يسأل ربه: لماذا يا ربي أذبح ابني الوحيد؟!

ولكنه لا يلبي في انزعاج، ولا يستسلم في جزع، ولا يطيع في اضطراب، كلا، إنما هو القبول والرضا والطمأنينة والهدوء، يبدو ذلك في كلماته لابنه، وهو يعرض عليه الأمر الهائل في هدوء واطمئنان عجيبين(٢).

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾.

هي كلمات المالك لأعصابه، المطمئن للأمر الذي يُواجهه، الواثق بأنه يؤدي واجبه، وهي في الوقت ذاته كلمات المؤمن الذي لا يهوله الأمر فيؤديه في اندفاع وعجلة ليخلص منه وينتهي، ويستريح من ثقله على أعصابه.

والأمر شاقٌّ وصعب ـ ما في ذلك شكّ ـ فهو لا يطلب إليه أن يرسل بابنه الوحيد إلى معركة، ولا يطلب إليه أن يُكلِّفه أمرًا تنتهي به حياته، إنما يطلب

---

(١) إبراهيم عليه السلام ودعوته في القرآن الكريم، أحمد البراء الأميري، ص١٢٩.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٥٩٩٥).

إليه أن يتولى هو بيده، يتولى ماذا؟ يتولى ذبحه، وهو ـ مع هذا ـ يتلقّى الأمر هذا التلقّي، ويعرض على ابنه هذا العرض، ويطلب إليه أن يتروّى في أمره، وأن يرى فيه رأيه. إنه لا يأخذ ابنه على غرّة لينفذ إشارة ربه وينتهي، إنما يعرض الأمر عليه، كالذي يعرض المألوف من الأمر، فالأمر في حسِّه هكذا، ربه يريد، فليكن ما يريد، على العين والرأس، وابنه ينبغي أن يعرف، وأن يأخذ الأمر طاعة وإسلامًا لا قهرًا واضطرارًا، لينال هو الآخر أجر الطاعة، وليُسلِّمْ هو الآخر، ويتذوق حلاوة التسليم، إنّه يحبُّ لابنه لذّة التطوُّع التي ذاقها، وأن ينالَ الخير الذي يراه هو أبقى من الحياة وأقنى[1].

أ ـ ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ﴾:

نستشعر في هذه الآية مدى الصحبة القوية بين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فلفظ ﴿ مَعَهُ﴾ مقترنًا بلفظ ﴿ ٱلسَّعۡيَ﴾، وما يحمل من دلالات الحركة والعمل المشترك، كل ذلك يوحي بمعاني المرافقة والمعاونة والاندماج العاطفي بينهما.

إنَّ هذا الأسلوب في التعامل له دور كبير في إزالة الحواجز بين الآباء والأبناء، فيشعر الابن بقرب الأب منه والعكس، فيشاركه أحلامه وتطلُّعاته، ويُفضي إليه بهمومه ومشكلاته. إننا أمام شخصية ترسم معالم الطريقة التربوية السليمة في التعامل مع الأبناء في مرحلة المراهقة، وما يكتنفها من مخاطر ومصاعب، وما ينتابها من مشاعر متباينة في عقول الآباء ونظراتهم، وهي السنّ الخطرة التي ينبغي أن يكون الأب فيها قريبًا من الابن، ولن يكون ذلك إلا بالمصاحبة والمعايشة والرفقة ورفع الكلفة بين الاثنين.

ونلاحظ أن لفظ ﴿ مَعَهُ﴾ يُضيف إلى معنى الحبّ والعطف شيئًا آخر، وهو

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٥٩٩٥).

انتفاع الأب منه في المعيشة والسعي، فقد يجمع عليه أمرين بالغَيِ الإيلام هما: فجيعة فقده، ثم انقطاع نفعه وعونه[١].

لقد أصبح إسماعيل عليه السَّلام شابًّا راشدًا يسعى مع أبيه في الدعوة إلى الله، ويسعى معه في إرشاد الخلق إلى الله عزّ وجل، ويسعى معه في شؤون الحياة العامة.

ب ـ ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾:

* ﴿يَٰبُنَيَّ﴾: استخدم إبراهيم عليه السَّلام في خطابه لولده تعبير ﴿يَا بُنَيَّ﴾، وهو التعبير الذي جاء ليبرز معنى البنوَّة مصحوبة بالنداء والتصغير الدالِّ على التحبُّب، لما في هذا التعبير ـ في هذا الموقف ـ من الوقع البالغ التأثير، وكأن إبراهيم قبل أن يعرض على ولده هذا الأمر الفظيع، أراد أن يُنبِّهه إلى أنه ليس قاسيًا ولا مجرَّدًا من الرّحمة، ولكنَّ شيئًا أقوى من هذا هو الذي جعله يعزم على ما يعزم عليه الآن، هذا الشيء هو استجابته لإرادة ربه.

ونستفيد من هذا الموقف ضرورة التمهيد بكلام طيّب قبل طرح الموضوعات الصعبة والخطيرة، يقول الشيخ عبد الفتاح أبو غدة: إذا اضطررتَ إلى الإخبار عن أمر مكروه، أو وقوع حادث مُفجع، أو وفاة قريب أو عزيز على صاحبك أو قريبك أو ما شابه ذلك، فيَحسُن بك أن تُلطّف وقع الخبر على مَن تُخبره به، وتمهّد له تمهيدًا يخفّف نزول المصاب عليه، فتقول فيمن تُخبر عن وفاته مثلاً: بلغني أن فلانًا كان مريضًا مرضًا شديدًا، وزادت حالُه شدةً، وسمعت أنه توفّي رحمه الله تعالى[٢].

* ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾: استخدم إبراهيم عليه السَّلام الفعل

---

(١) صناعة الحوار، حمد عبد الله السيف، ص١٣٣.

(٢) أدب الكلام وأثره في بناء العلاقات الإنسانية في ضوء القرآن الكريم، د. عودة عبد عودة عبد الله، دار النفائس للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط١، ٢٠٠٥م، ص٣٢٧.

المضارع ﴿أَرَىٰ﴾ دون رأيت؛ ليوحي إلى ابنه بحضور هذه الرؤيا حين كلامه، فإن لفظ المضارع يدلُّ على تكرار الرؤيا كما يقول البيضاوي والآلوسي، وورد عن مقاتل أنه قال: رأى ذلك إبراهيم عليه السَّلام ثلاث ليالٍ متتابعات، وأيًّا كان عدد المرات، فإن المضارع يدلُّ على الحال المستمر، فكأن إبراهيم يقول لابنه: إنه يا بني أمر لازم واضح، ماثل في نفسي، كأني أراه الآن، وفي هذا شيء كأنه الاعتذار من إبراهيم لابنه عليهما السلام، بأنه إنما يُقدِم على ما يُقدم عليه؛ لأنه أمام أمر قوي غالب مسيطر(١).

ورؤيا الأنبياء وحي كالوحي في اليقظة، فإنّ الأنبياء عليهم السلام تنام أعينهم، ولا تنام قلوبهم، كما في الحديث الشريف، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: جاءَه ثلاثةُ نَفَرٍ قبل أن يُوحى إليه، وهو نائمٌ في المسجد الحرام، فقال أَوَّلُهم: أيُّهم هو؟ فقال أوسطُهم: هو خيرُهم.. والنبي ﷺ نائمةٌ عيناهُ، ولا يَنامُ قلبُه، وكذلك الأنبياء تنام أعينُهم ولا تنامُ قلوبُهم(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما كان النبي ﷺ يزيد في رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة، يُصلِّي أربع ركعات، فلا نسأل عن حُسنهنَّ وطُولهنَّ، ثم أربعًا، فلا نسأل عن حُسنهنَّ وطُولهنَّ، ثم يُصلِّي ثلاثًا، فقلت: يا رسول الله تنام قبل أن توتر؟ قال: «**تنامُ عَيني، ولا يَنامُ قَلبي**»(٣).

ولا شكَّ في أنَّ التكليف بالذبح، بواسطة الوحي أثناء النوم، أكمل في الابتلاء من التكليف باليقظة، وقد أظهر الله سبحانه وتعالى به المزيد من فضل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في قضية الذبح والفداء، واستسلامهما وإذعانهما للتكليف الإلهي(٤).

---

(١) أدب الكلام وأثره في بناء العلاقات الإنسانية في ضوء القرآن الكريم، ص٣٢٨.

(٢) صحيح البخاري، رقم (٣٥٧٠).

(٣) المرجع نفسه، رقم (٣٥٦٩).

(٤) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٧/ ١٦٠).

ج ـ ﴿ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ ﴾:

بعد أن عرض إبراهيم الموضوع على ولده خاطبه قائلاً: ﴿ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ ﴾، فشاوره بذلك مع أنه أمر الله الذي يجب تنفيذه؛ لأن في هذه المشاورة إعلامًا له بما رآه، لكي يتقبَّلَه بثبات وصبر، وليكون نزول هذا الأمر عليه أهون، وليختبر عزمه وجَلَدَه، ويعلم إبراهيم عليه السَّلام مدى التزام ولده بشرع الله، ويعلم أنه لا يُمكن أن يتراجع عن الانقياد لأمرِ الله عزّ وجل، لذا فإنه يعرض الموضوع على ولده في صيغة المشاورة لا في صيغة الأمر، وهذا من أدب إبراهيم مع ولده إسماعيل عليهما السلام[(١)].

وقد دلّت هذه المشورة أيضًا على ثقته عليه السَّلام بولده، وحُسن ظنِّه به، وأنه سيكون عونًا له على تنفيذ أمر الله تعالى. وتحقّق ما كان يرجوه إبراهيم من ولده عليهما الصلاة والسلام[(٢)].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ ﴾:

أي: افعل ما أُمرت به، ودلّ قوله هذا على علوّ مداركه عليه الصلاة والسلام، وهو لا يزال في بواكير عمره، فقد أدرك أنّ رؤيا الأنبياء وحي، وأن رؤيا والده أمر إلهيّ، فحثّه على تنفيذه مع أنّ والده أعلمه بالأمر بأسلوب الاستشارة، ولمّا كان خِطاب الوالد ﴿ يَٰبُنَيَّ ﴾ بأسلوب الترحُّم، كان خطاب الولد ﴿ يَٰٓأَبَتِ ﴾ بأسلوب التوقير والتعظيم[(٣)].

و لفظ ﴿ يَٰٓأَبَتِ ﴾ فيه من إظهار الاحترام والطاعة، وهذا اللفظ يُوحي هنا بأن المعنى المسيطر على إسماعيل هو طاعة أبيه، مهما كان الفعل، وأيًّا كان

---

(١) أدب الكلام وأثره في بناء العلاقات الإنسانية في ضوء القرآن الكريم، ص٣٢٨.
(٢) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٧/ ١٦٠).
(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الآلوسي، (٢٣/ ٣٢٩).

مصدر الأمر بالفعل، وكأنه يُشير بذلك إلى تبادل العاطفة السامية النبيلة بين رحمة الآباء وطاعة الأبناء[١].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾:

نلاحظ سموَّ الأدب مع الله عزّ وجل ومعرفة إسماعيل عليه السَّلام لقدرته وطاقته في الاحتمال، والاستعانة بربه على ضعفه، ونسبة الفضل إليه في إعانته على التضحية ومساعدته على الطاعة، ولم يأخذها بطولةً، ولم يأخذها شجاعةً، ولم يأخذها اندفاعًا إلى الخطر دون مبالاة، ولم يُظهر لشخصه ظلاًّ ولا حجمًا ولا وزنًا، إنما أرجع الفضل كلَّه لله إن هو أعانه على ما يُطلب إليه وصبره على ما يُراد به ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، يا للأدب مع الله، ويا لروعة الإيمان، ويا لنبل الطاعة، ويا لعظمة التسليم[٢]!

* * *

سابعًا: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الصافات: ١٠٣ ـ ١٠٦]:

لقد تهيّأ كلُّ شيء لتنفيذ الرؤيا، ومع ذلك فإن الذبح لم يتمَّ، فماذا حدث؟ لقد همَّ سيدنا إبراهيم عليه السَّلام بذبح ابنه، وتهيّأ كلُّ شيء لتنفيذ الذبح، الأب موقن بأن رؤياه إلهام من الله، والابن موقن أنه على صواب حينما رضي بالموت تنفيذاً لأمر الله، لقد استسلم الأب لأمر الله، واستسلم الابن لأمر الله، والقرآن حينما تحدّث عن حالتهما قال:

١ ـ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾:

لقد أسلما رغم محاولة الشيطان أن يلعب دورًا في الاختبار والابتلاء، حين جاء الشيطان يوسوس إلى إبراهيم عليه السَّلام مُوحيًا بأن الأمر لا يخرج عن أن

(١) أدب الكلام وأثره في بناء العلاقات الإنسانية في ضوء القرآن الكريم، ص٣٢٩.
(٢) المرجع نفسه، ص٣٢٩.

يكون رُؤيا، وكم في الرؤى من أضغاث أحلام، وهل من العقل أن يذبح إنسان ابنَه مطيعًا رؤياه؟ لعلها وهم من الأوهام ولعلها خيال، مجرد خيال على أنه في الرؤيا ـ حسب وسوسة الشيطان ـ لم يُؤمر بذبح ابنه، ولكنه رأى أن يذبحه، وفرق بين أن يُؤمر بذبحه، وبين أن يرى أنه يذبحه، وأحسّ سيدنا إبراهيم بالشيطان يريد أن ينفذ إلى قلبه، فرجم الشيطان بسبع حصيات، وردّه خاسئًا مدحورًا، ولم ييأس الشيطان وهو العنيد اللجُوج، لقد انصرف عن الأب إلى الابن قائلاً: إنّها مجرد رؤيا، أيذبحك أبوك من أجل رؤيا؟ وأحسّ الابن بالمحاولة الخبيثة، وعرف أنّها محاولة شيطانية، فرجم الشيطان بسبع حصيات، ولم ييأس الشيطان، وهو العنيد اللجوج، فذهب مسرعًا إلى أم إسماعيل قائلاً لها: أدركي ابنَك، إنّ أباه يريد أن يذبحه، استنقذيه منه قبل فوات الأوان، ورجمته الأم لثقتها بأن زوجَها لا يتصرّف إلا في إطار الوحي، لقد رجمته هي الأخرى بسبع حصيات.

لقد رجم الجميعُ مصدرًا من أهم مصادر الشرّ وهو الشيطان، وهذا الرمز الجميل ـ أعني: رجْم مصدرٍ من مصادر الشرِّ ـ هو الذي يتكرَّر كل عام حينما يُوشك الحجاج إلى بيت الله الحرام أن ينتهوا من حجِّهم، إنَّ الحكمة من رمي الجمار في الحج إنما هي رَمْي مصدرٍ من أهم مصادر الشرِّ والإثم والمعصية وهو «إبليس»، ورجمه مرارًا وتكرارًا، وتنتهي أعمال الحج بهذه الصورة الرائعة، صورة العزم المصمّم على الابتعاد المطلق عن الإثم والمعصية، وذلك تسجيل مؤكَّد وإعلان مشهود وإشهاد سافر على أنَّ الحاجَّ قد عزم عزمًا لا تُزعزعه أعاصير الشهوة أو مغريات الفتنة على أن يصبح خيرًا كلّه، لا مجال لنزغات الشيطان للتسلل إلى نفسه، فقد أصبح ـ بتطهير نفسه وبرجم الشيطان ـ من عباد الله المُخلَصين الذين لا سلطان للشيطان عليهم[١].

(١) قصص الأنبياء في رحاب الكون، عبد الحليم محمود، ص١٢٩.

لقد أسلم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فلما أسلما أي: خلصا لله كلية واستسلما إليه استسلامًا مطلقًا، ثقةً وطاعةً لله ورضًا وتسليمًا له سبحانه وتعالى، وكلاهما لا يجد في نفسه إلا هذه المشاعر التي لا يصنعها غير الإيمان العظيم، وهذا هو الإسلام في حقيقته، الذي يعني الاستسلام لمراد الله، الاستسلام الواعي المتعقّل القاصد المريد، العارف بما يفعل، المطمئن لما يكون مع الرضا الهادى المستبشر المتذوّق للطاعة وطعمها الجميل[١].

وهنا كان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قد أدّيا، وكانا قد أسلما، وكانا قد حقَّقا الأمر والتكليف، ولم يكن باقيًا إلا أن يُذبح إسماعيل ـ بعد أن تلّه للجبين، ورماه على شقه، ليكون الذبح أهون عليه[٢].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: فلما عزم إبراهيم عليه السَّلام على ذبح ولده ورماه على شِقِّه، قال الابن: يا أبتِ اشدُد رباطي حتى لا أضطرب، واكفُفْ ثيابك لئلا ينتضح عليها شيء من دمي فتراه أمي فتحزن، وأحِدَّ شفرتَك، وأسرع بها على حلقي؛ ليكون الموت أهون عليَّ. فقال إبراهيم عليه السَّلام: نعم العبد أنت يا بنيَّ على أمر الله، ثم ضمّه إلى صدره، وأخذ يقبّله ويُودّعه الوداعَ الأخير، ثم أسلم إبراهيم ابنه إسماعيل عليهما السلام، فصرعه على شقه، وأوثقه بكتافه، ووضع السكين على حلقه وأمرَّها فوق عنقه، ولكن السكين لم تقطع؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى الذي سلب خاصِّيّة الإحراق من النار التي أُلقي فيها من قبل إبراهيم عليه السَّلام هو سبحانه وتعالى الذي سلب خاصية القطع من السكين التي مرّرها إبراهيم على رقبة ابنه إسماعيل عليه السَّلام، فقال إسماعيل الغلام الحليم: يا أبتِ كُبّني على وجهي، فإنك إذا نظرت إليّ أدركتك رحمةٌ بي تَحول بينك وبين أمر الله. ففعل إبراهيم الشَّفوقُ الرَّحيم، ثم

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٢٩٩٦).
(٢) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، (٤/ ١٥).

وضع السكين على قفا ابنه المطيع، فلم تمضِ الشفرة، ولم تَفْرِ الأوداجَ(١).

والمهم في القصة أن الابتلاء قد تمَّ، والامتحان قد وقع، ونتائجه قد ظهرت، وغاياته قد تحقَّقت، ولم ينقص إلا الألم البدني وإلا الدم المسفوح والجسد الذبيح، والله لا يريد أن يُعذِّب عبادَه بالابتلاء، ولا يريد دماءهم وأجسادهم في شيء، ومتى أخلصوا له واستعدُّوا للأداء بكليّتهم، فقد أدَّوا وحقَّقوا التكليف، وقد اجتازوا الامتحان بنجاح، وعرف الله من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام صدقَهما، فاعتبرهما قد أدّيا وحقّقا وصدَقا(٢).

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾:

أي: قد صدَّقت الرؤيا وحقَّقتها فعلاً؛ فالله لا يريد إلا الإسلام والاستسلام بحيث لا يبقى في النفس ما تكنّه عن الله، أو تعزّه عن أمره، أو تحتفظ به دونه، ولو كان هو الابن فلذة الكبد، ولو كانت هي النفس والحياة، وأنت ـ يا إبراهيم ـ قد فعلت، جُدتَ بكلِّ شيء، وبأعزّ شيء، وجُدتَ به في رضًا وفي هدوء وفي طمأنينة وفي يقين، فلم يبقَ إلا اللحم والدم، وهذا ينوب عنه ذِبح، أيُّ ذِبحٍ من دم ولحم، ويفدي الله هذه النفس التي أسلمت وأدّت، يفديها بذبح عظيم، قيل: إنّه كبش وجده إبراهيم مهيّأ بفعل ربّه وإرادته ليذبحه بدلاً من إسماعيل(٣).

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: نجزيهم باختيارهم لمثل هذا البلاء، ونجزيهم بتوجيه قلوبهم ورفعها إلى مستوى الوفاء، ونجزيهم بأقدارهم وإجبارهم على الأداء، ونجزيهم كذلك باستحقاق الجزاء(٤).

---

(١) من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين، محمد فؤاد سندي، ص٢٠٥.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٢٩٩٦).
(٣) المرجع نفسه، (٥/ ٢٩٩٦).
(٤) المرجع نفسه، (٥/ ٢٩٩٦).

وقد ذكر الراغب الأصفهاني في كتابه (المفردات) أنَّ الإحسان يُقال على وجهين: **أحدهما**: الإنعام على الغير، يُقال: أحسنَ إلى فلان، و**الثاني**: إحسان في فعله، وذلك إذا علم علمًا حسنًا أو عمل عملاً حسنًا[(١)]، والإحسان أعمُّ من الإنعام، قال تعالى: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ﴾ [الإسراء: ٧]، وقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]، فالإحسان فوق العدل، والعدل هو أن يُعطي ما عليه ويأخذ ما لَهُ، والإحسان أن يعطي أكثر مما عليه ويأخذ أقل مما له، فالإحسان زائد على العدل، فتحرّي العدل واجب، وتحرّي الإحسان ندب وتطوُّع، ولذلك عظّم الله ثواب المحسنين فقال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، وفي الآية إشارة أن نجاح إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السَّلام، وفي هذا الامتحان بلغ من الإحسان والإتقان في العمل درجة عظيمة جعلتهم من المحسنين الذين يستحقُّون هذا الإحسان[(٢)].

ومن معاني ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي: هكذا نصرف المكاره والشدائد عمَّن أحسن طاعتنا وعبادتنا، ونجعل لهم مِن أمرِهم فرجًا ومخرجًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ [الطلاق: ٢] [(٣)].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾:

بيّن الله عزّ وجل أن هذا الامتحان لإبراهيم عليه السَّلام هو الامتحان الكبير؛ لأنَّه امتحنه في أحبّ المخلوقات إليه ابنه البكر، وأمره أن يذبحه بيده، وهذا من أصعب الابتلاءات على النفس البشرية، ومع هذا نجح إبراهيم

---

(١) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م، (١/ ٢٣٦).

(٢) قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، ص١٢٩.

(٣) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٧/ ١٦٢).

وإسماعيل عليهما السلام بدرجة الامتياز[١].

وقد ظهر صفاء إبراهيم عليه السَّلام وكمال محبته لربّه وخلّته، فلما قدّم حبّ الله، وآثره على هواه، وعزم على ذبح ولده، وزال ما في القلب من المزاحم، بقي الذبح لا فائدة فيه[٢].

وظهر من إسماعيل عليه السَّلام انقياد واستسلام لأمر الله، وحِلم عجيب، وصبرٌ يُضرب به المثل، ومحبّةٌ للخالق العظيم، وودٌّ واحترام وتقدير للوالد الكريم صاحب الرسالة والنبوَّة.

وفي هذا البلاء المبين قصة وعبرة قد تقع بنحوٍ ما مع كلِّ مؤمن، ويعيشها كل مؤمن، فالمؤمن لا بُدَّ أن يُمتحَن، ولا بُدَّ من أن يوضع في اختيار صعب؛ ليظهر إيمانه، ولتظهر طاعته، وليظهر حبُّه، وليظهر ورَعه، وليظهر خوفه، فإذا آثر رضوان الله على الدنيا نجح وأتته الدنيا راغمة، كما أخرج الترمذي وغيره من حديث عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «**مَن التمسَ رِضا الله بسَخَطِ النّاسِ رَضيَ اللهُ عنه، وأَرضَى النّاسَ عنه، ومَنِ التَمَسَ رِضا الناسِ بسَخَطِ اللهِ، سَخطَ اللهُ عليه، وأسخَطَ عليه النّاسَ**»[٣].

❊ ❊ ❊

ثامنًا: قوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧]:

أي فدى الله إسماعيل عليه السَّلام بكبش عظيم، ومعنى عظيم أي سمين أو عظيم القدر؛ لأنَّه يُفدى به نبيٌّ ابن نبي[٤].

---

(١) قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، ص١٢٩.
(٢) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص٧٠٦.
(٣) سنن الترمذي، رقم (٢٤١٤)، وابن حبان (٣٧٧)، وعبد بن حميد في المسند (١٥٢٢)، ويُنظر: تفسير النابلسي «تدبر آيات الله في النفس والكون والحياة»، (١٠/ ٤٦١).
(٤) قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، ص١٢٩.

وروى الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إنَّ إبراهيم لما أُمر بالمناسك، عَرض له الشيطانُ عند المَسعى، فسابقه، فسبقه إبراهيم، ثم ذهب به جبريل إلى جمرة العقبة، فعرض له الشيطان، فرماه بسبع حَصَياتٍ حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى، فرماه بسبع حصيات، قال: قد تلّه للجبين.. وعلى إسماعيل قميص أبيض، وقال: يا أبتِ، إنه ليس لي ثوب تكفنّي فيه غيره، فاخلعه حتى تكفنّي فيه فعالجه ليخلعه، فنُودي من خلفه: ﴿أَن يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾، فالتفت إبراهيم فإذا هو بكبش أقرنَ أَعْيَن[١].

ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾ قال: خرج عليه كبش من الجنة قد رعى قبل ذلك أربعين خريفًا، فأرسل إبراهيم عليه السَّلام ابنه واتّبع الكبش، فأخرجه إلى الجمرة الأولى، فرماه بسبع حصيات ثم أفلته عندها، فجاء إلى الجمرة الوسطى، فأخرجه عندها فرماه بسبع حصيات، ثم أفلته، فأدركه عند الجمرة الكبرى، فرماه بسبع حصيات، فأخرجه عندها، ثم أخذه فأتى به المنحر من مِنى فذبحه، فو الذي نفس ابن عباس بيده، لقد كان أول الإسلام، وإن رأس الكبش لمعلّق بقرنيه في ميزاب الكعبة حتى وحش، يعني: يبس[٢].

ومضت بذلك سنَّة النّحر في الأضحى، ذكرى لهذا الحدث العظيم الذي يرتفع منارةً لحقيقة الإيمان، وجمال الطاعة، وعظمة التسليم، والذي ترجع إليه الأمة المسلمة؛ لتتعرف فيه حقيقة أبيها إبراهيم عليه السَّلام الذي تتّبعُ ملّتُه، وترث نسبه وعقيدته، ولتدرك طبيعة العقيدة التي تقوم بها أو تقوم عليها، ولتعرف أنّها الاستسلام لقدر الله في طاعةٍ راضيةً واثقة ملبّية، لا تسأل

---

(١) مسند أحمد، رقم (٢٧٩٤)، ويُنظر: قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، ص١٢٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، نقلاً عن إبراهيم عليه السلام ودعوته في القرآن الكريم، أحمد البراء الأميري، ص١٢٩. =

ربّها لماذا؟ ولا تتلجلج في تحقيق إرادته عند أول إشارة وأول توجيه[١].

وفيما يتعلَّق بوصف الكبش أقوال كثيرة ذكرها العلماء، ومنها قول الجمهور: هو كبش أبيض أقرن أعين أملح عظيم القدر، قال مجاهد: لأنه متقبّل يقينًا، وقيل: لأنّه كان من عند الله، وقيل: لأنّه لم يكن عن نسل، بل عن تكوين[٢].

وفي تفسير ابن كثير: قال سفيان الثوري، عن جابر الجعفي، عن أبي الطفيل، عن علي رضي الله عنه: قال: بكبش أبيض أعين أقرن، قد رُبط بسمرة، قال أبو الطفيل: وجدوه مربوطًا بسمرة في ثبير[٣].

وذُكرت روايات عديدة في هذا الموضوع تحتاج إلى البحث العلمي وفق قواعد المُحدِّثين في علم الجرح والتعديل، وقد استشهد الإمام أبو حنيفة رحمه الله بهذه الآية ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ . فيمن نذر ذبح ولده: أنه يلزمه ذبح شاة[٤].

وقال السعدي في قوله تعالى ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾: أي صار بدله ذبح من الغنم عظيم ذبحه إبراهيم، فكان عظيمًا من جهة أنه كان فداء لإسماعيل، ومن جهة أنه من جملة العبادات الجليلة، ومن جهة أنه كان قربانًا وسُنَّة إلى يوم القيامة[٥].

١ ـ من هو الذبيح؟

لا شكّ في أن الذبيح هو إسماعيل عليه السَّلام، وأقوال العلماء في ذلك كثيرة منها:

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٢٩٩٦).
(٢) من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين، محمد فؤاد سندي، ص٢١٢.
(٣) ثبير: جبل بين مكة ومِنى، ويُرى من مِنى، وهو على يمين الداخل منها من مكة المكرمة، ويُنظر: تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، (٤/ ١٨).
(٤) من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين، محمد فؤاد سندي، ص٢١٢.
(٥) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٤٧٧.

أ ـ يُستدل على أن الذبيح إسماعيل عليه السَّلام بقول الأعرابي للنبي ﷺ: يا بن الذبيحَيْن، وبقوله ﷺ: «**أنا ابن الذبيحَيْن**»، يعني إسماعيل وعبد الله أباه[١].

ب ـ يقول الإمام أحمد بن حنبل: الصحيح أنّ الذبيح إسماعيل عليه السَّلام، وعليه جمهور العلماء من السّلف والخلف[٢].

ج ـ يذكر ابن تيمية أن الذي يجب القطع به أنّه إسماعيل، وأنه هو الذي عليه الكتاب والسنة والدلائل المشهورة. ويذكر في موضع آخر أن الذبيح هو إسماعيل عليه السَّلام على أصح القولين للعلماء، وقول أكثرهم، كما دلّ عليه الكتاب والسنة[٣].

د ـ ينهض القرآن الكريم بمجموع آياته الواردة في هذه القصة وتسلسلها ودلالتها؛ ليكون حجّة كافية، واستدلالاً قويًا للقول بأنّ الذبيح هو إسماعيل، ويُؤيّد ذلك الأحاديث النبوية، وبعض أخبار أهل الكتاب، فهذا القدر من الأدلة يكفي للقول على سبيل القطع بأن الذبيح هو إسماعيل عليه السَّلام، أو كما يقول عنه الحافظ ابن كثير هو القول الصحيح المقطوع به[٤].

هـ ـ يذكر الإمام ابن القيم أنّ القول بأن الذبيح إسحاق باطل بأكثر من عشرين وجهًا، وأن إسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين من بعدهم[٥].

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير ابن عطية)، (٥/ ٤٢٢).

(٢) تفسير الخطيب الشربيني المسمى «السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير»، الخطيب الشربيني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٤م، (٣/ ٣٨٦).

(٣) قصة الذبيح عند أهل الكتاب والمسلمين عرض ونقد، د. فتحي محمد الزغبي، دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١٠م، ص٢٠٠.

(٤) المرجع نفسه، ص٢٠٠.

(٥) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، (١/ ٧١).

و ـ قال البقاعي: وهذا الولد هو إسماعيل عليه السَّلام بلا شكَّ لوجوه؛ منها وصفه بالحليم، ووصف إسحاق بالعليم في سورة الحجر، ومنها: أن هذا الدعاء عند الهجرة، حيث كان شابًّا يرجو الولد، وهو إسماعيل الذي وُلد له بهذه البشرى، وهو الذي كان بمكة موضع الذبح، فجُعلت أفعاله في ذبحه مناسك للحج في مِنى، كما جُعلت أفعال أمه في مكة المشرفة أول أمره، عندما أشرف على الموت من العطش مناسكَ ومعالمَ هناك. وأما إسحاق فأتته البشرى فجأة وهو لا يرجو الولد لكبره ويأس امرأته، ولذلك راجع في أمره، ولم يُنقل أنه فارق أمه من بيت المقدس[(١)].

ز ـ وقال أبو السعود في ترجيح هذا القول: والأظهر الأشهر أن المخاطب إسماعيل عليه السَّلام إذ هو الذي وُهب إثر المهاجرة، ولأن البشارة بإسحاق بعده معطوفةٌ على البشارة بهذا الغلام[(٢)].

ح ـ إنَّ ترجيح القول بأن الذبيح إسماعيل عليه السَّلام لا يلزم منه نقص أخيه إسحاق عليه السَّلام، فإن الله تعالى أثنى عليه بالعلم والنبوَّة والبركة، وأنه من المُصطفَينَ الأخيار، وأن الله تعالى خصّه بخالصة ذكرى الدار[(٣)]، قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٥ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ٤٦ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ [ص: ٤٥ ـ ٤٧].

٢ ـ إسماعيل عليه السَّلام وحديث القرآن الكريم عنه:

وردت كلمة إسماعيل في القرآن الكريم اثنتي عشرة مرة في ثماني سور هي: سورة البقرة، وآل عمران، والنساء، والأنعام، وإبراهيم، والأنبياء، وص، ومريم. ومعظم المرات التي ذُكر فيها كان يُذكر فيها اسمه فقط ضمن

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، (٧/ ١٧٩).
(٢) تفسير أبي السعود «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم»، (٧/ ٢٠٠).
(٣) حديث القرآن عن إسماعيل وإسحاق عليهما السلام، د. سليمان إبراهيم الحصين، ص٥٢٥.

أسماء مجموعة من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، جعلهم الله من ذرية إبراهيم عليه السَّلام: إسحاق، ويعقوب، وداود، وسليمان، وأيوب، ويوسف، وموسى، وهارون، وزكريا، ويحيى، وعيسى، وإلياس، وإسماعيل، واليسع، ويونس، ولوط، ومن قبلهم نوح عليهم الصلاة والسلام، والمذكورون في هذه الآيات ثمانية عشر نبيًّا.

وفي سورة إبراهيم ورد اسمه مرة واحدة في الآية (٣٩) التي تُثبت شكر إبراهيم وحمدَه لربّه عزّ وجل؛ لأنّه وهبه على الكبر إسماعيل وإسحاق عليهم الصلاة والسلام، وفي سورة مريم ورد اسمه مرة واحدة أيضًا، حيث أشاد الله به وأثنى عليه؛ لأنَّه كان صادق الوعد، وكان رسولاً نبيًّا، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة، وكان مرضيًّا عند الله[1].

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٤ ـ ٥٥].

فأثنى الله عزَّ وجلَّ عليه بعدة خصال، نذكر منها:

الصدق والوفاء بالعهود:

قال الطبري عند تفسير هذه الآية: يقول ـ تعالى ذكره ـ لنبيه محمد ﷺ: واذكر يا محمد في الكتاب إسماعيل بن إبراهيم، فاقصص خبره: إنه كان لا يكذب وعده ولا يُخلِف، ولكنه كان إذا وعد ربَّه أو عبدًا من عباده وعدًا وفّى به[2].

ومن أعظم ما وفّى به: صبرُه على الذبح، إذ قال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وفّى بذلك فمكّن أباه من الذبح، وذلك جليٌّ في قوله سبحانه عنه وعن أبيه الخليل عليه السَّلام: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣]، ومن ذلك أيضًا: وعدُه أباه الخليل بمعاونته في بناء البيت، فإن إبراهيم عليه السَّلام

(١) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٣٨٣).
(٢) تفسير الطبري «جامع البيان في تأويل القرآن»، (١٥/ ٥٦١).

قال له: يا إسماعِيلُ، إنَّ رَبَّكَ أَمَرَني أن أبنِيَ له بَيتًا، قالَ: أطِعْ رَبَّكَ، قالَ: إنَّه قد أمَرَنِي أن تُعِينَنِي عليه، قالَ: إذَنْ أفعَلَ[(١)]، وكان أن عاونه كما قصّ الله عزّ وجل ذلك في كتابه: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

وهذه الخصلة الحميدة سمة الأنبياء جميعًا، وإنّما خصّ الله عزّ وجل إسماعيل عليه السَّلام بالثناء عليه بها، تشريفًا وإكرامًا؛ لأنَّه اشتهر بها وبرزت فيه بشكل خاص وتنبيهًا على عظمها، ولذلك كان ضدّها، وهو إخلاف الوعد، من صفات النفاق[(٢)].

حرصه على الدعوة والإصلاح:

فقد بدأ بأهله وخاصته، إذ كان أمرهم بالصلاة المتضمنة للإخلاص للمعبود وبالزكاة المتضمنة للإحسان إلى العبد، فكمل نفسه وكمل غيره، وخصوصًا أخصّ الناس عنده وهم أهله؛ لأنّهم أحقُّ بدعوته من غيرهم، ليكونوا أسوة يُقتدى بهم في الخير والصلاح والإحسان[(٣)]، كما أمر سبحانه وتعالى رسوله ﷺ بقوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢]، وأمر سائر المؤمنين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، فجمع إسماعيل عليه السَّلام بذلك بين الصّلاح والإصلاح، وكان داعيًا إلى الله عزّ وجل، لأهله المقرّبين وأهل ملته.

رضا الله عنه؛ لامتثاله أمر ربّه واجتهاده في طاعته:

وفي حرصه على رضا الله، ارتضاه الله وجعله من خواص عباده وأوليائه

---

(١) صحيح البخاري، رقم (٣٣٦٥).

(٢) الثناء في القرآن الكريم، هتون سامي عبد الرحمن فلمبان، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ٢٠١٦م، ص٣٢٥.

(٣) المرجع نفسه، ص٣٢٥.

المقرّبين، قال الفخر الرازي عند قوله تعالى ﴿ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾ : هو نهاية المدح؛ لأنَّ المرضيَّ عند الله هو الفائز في كل طاعاته بأعلى الدرجات(١).

وصفه بالصّبر:

ورد اسمه في سورة الأنبياء في الآية (٨٥) مقرونًا مع إدريس وذي الكفل عليهم السلام قال تعالى: ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥ ـ ٨٦]، فوُصف مع غيره من الرسل المذكورين من الأنبياء في القرآن الكريم بالصّبر، والصّبر: حمل النفس على ما تكره، وتحمُّل الأذى في سبيل الله، والصّبر على الطاعات، والكفُّ عن المعاصي، والصّبر على أقدار الله المؤلمة، وقد كان منهم هذا الصبر بنوعَيْه؛ فلا يستحقّ العبد اسم الصّبر التام حتى يُوفِّيَ هذين النوعين حقَّهما.

وصفه بالخيرية:

شهد المولى تبارك وتعالى لإسماعيل عليه السَّلام في كتابه العزيز بالخيرية، قال تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴾ [ص: ٤٨]، والمراد بالأخيار: المُنَزّهين عن شوائب الشرور، لقد أمر الله تبارك وتعالى رسوله محمدًا ﷺ أن يذكر هؤلاء الأنبياء بأحسن الذكر، ويثني عليهم بأحسن الثناء، فإن كلاًّ منهم من الأخيار الذين اختارهم الله من الخلق، واختار لهم أكمل الأحوال من الأعمال والأخلاق والصفات الحميدة والخصال السديدة(٢).

وصفه بالنبوّة والرسالة:

قال تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴾ [مريم: ٥٤]، لقد أرسله الله إلى قبيلة جُرْهُم، وكانت رسالتُه إليهم رسالةَ أبيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهذا يدلُّ على اختيار الله تبارك وتعالى

---

(١) التفسير الكبير مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، فخر الدين الرازي، (٢١/ ٢٣٣).
(٢) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص٨٤٠.

لإسماعيل ـ عليه الصلاة والسَّلام ـ رسولاً منه إلى قومه الذين يُقيم معهم في مكة على فضل الله عليه ورحمته به، ومنزلته عند الله عزَّ وجل، فالله لا يختار لحَمْل رسالته ودعوته للناس، إلا مَن كان كفؤًا لذلك، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤] [١].

ومن خلال الدراسة، اتَّضح لنا جواز أن يكون هناك أكثر من رسول في أكثر من موضع، مثل إبراهيم، وإسماعيل، ولوط، حيث إن لوطًا رسول، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطٗا لَّمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٣٣].

وقد كان إبراهيم في مكان، ولوط في مكان آخر، كما يُخبرنا العليم الخبير بقوله جلَّ في علاه: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٣١ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١ ـ ٣٢].

ويجوز أن يكون هناك أكثر من رسول في موضع واحد مثل موسى وهارون عليهما السلام، قال تعالى: ﴿فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ [طه: ٤٧].

ويجوز أن يكون هناك أكثر من نبي في موضع واحد وفي آن واحد، مثل إسحاق ويعقوب عليهما السلام، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا﴾ [مريم: ٤٩].

كما أن مضامين رسالة إسماعيل عليه السَّلام هي مضامين رسالة إبراهيم نفسها ـ عليه السَّلام ـ في الدعوة إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة، وتعليم الناس الأخلاق الحميدة والعبادات الرشيدة والتعامل بينهم بالحسنى.. إلخ[٢].

---

(١) مع الأنبياء في الدعوة إلى الله، محمد عبد القادر أبو فارس، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط١، ٢٠١٣م، ص٢١٣.

(٢) إبراهيم عليه السلام من وحي القرآن، عقيل حسين عقيل، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ٢٠١٠م، ص٣٥١.

وصفه بالحِلم:

وُصف إسماعيل عليه السَّلام بالحِلم، في قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١]، ويعني: الأناة والتثبت في الأمور، وذلك من شعار العقلاء. وصفة الحِلم تعني: الأناة ومعالجة الأمور بصبر وعلم وحكمة.

وصفه بالقوة والعزم:

تظهر في أفعاله التي وصفها لنا ربُّ العزّة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، فرفعُ القواعد مع أبيه عليهما السلام يتطلَّب بلا شكّ قوة بدنية تُؤهِّله لهذا الفعل، كما أنه كان راميًا قويًّا، كما أنه عُرف عنه قوته الروحية، وقوة العقيدة لما قال لأبيه: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (١).

وصفه بأنه مُفضَّل على غيره:

أخبر المولى عزّ وجل عن إسماعيل وعدد من الأنبياء والرسل عليهم السلام تفضيلهم على العالمين، قال تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٦]، وإسماعيل عليه السَّلام مُفضَّل من عدة جوانب منها:

❊ إيمانه وصدق عقيدته.

❊ طاعته لله عزّ وجل.

❊ رسالته ونبوّته.

❊ نسبه النبويّ.

❊ هو جدّ محمد خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم.

---

(١) إبراهيم عليه السلام من وحي القرآن، عقيل حسين عقيل، ص٢٢٩.

وكثير مما لا نُحصي، وإنما قدمنا هذا القليل لنُثير فكر الباحث في الأفضلية[١].

وصفه بأنه هبة من الله:

قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، هبة بعد دعاء مخلص لله عزّ وجل، يقول الحق مخبرًا عن دعاء إبراهيم: ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٩٩ ـ ١٠١]، فإسماعيل عليه السَّلام هبة، والهبة في الاصطلاح عطاء من غير مقابل[٢].

ومع تتبُّع الآيات الكريمة، تتَّضح لنا كثير من الصفات التي وُصف بها إسماعيل عليه السَّلام في القرآن الكريم، والمقرون باسمه صريحًا في الآيات، ومن أهمها: هو رسول نبيٌّ، وهو صادق الوعد، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة، وهو مَرضيٌّ عند الله، وهو من الصابرين الصالحين المرحومين، كما أنه من الأخيار الذين اختارهم الله واصطفاهم عليهم الصلاة والسلام[٣].

٣ ـ إسماعيل عليه السَّلام في كتب السّنة:

ذكرنا فيما مضى قصة إبراهيم عليه السَّلام مع ملك مصر ورجوعه، وقصته مع هاجر وإسكانها مكة المكرمة، وزيارته لهاجر وابنها كل شهر مرة، وتوكُّلَ هاجر على الله، ووصية النبي ﷺ بأهل مصر، وقصة هاجر مع زمزم، وبناء الكعبة المشرفة، ومشاركة إسماعيل والدَه في البناء.

ومن الأحاديث الصحيحة المتعلقة بإسماعيل عليه السَّلام:

---

(١) صفات الأنبياء من قصص القرآن «إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ولوط»، عقيل حسين عقيل، ص٢١٨.
(٢) المرجع نفسه، ص٢٢٣.
(٣) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٣٨٤).

أ ـ تعويذات إبراهيم عليه السَّلام لولديه إسماعيل وإسحاق عليهما السلام:

من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النَّبيُّ ﷺ يُعوِّذُ حسَنًا وحُسينًا: «**أُعيذُكما بكلماتِ اللهِ التَّامَّةِ مِن كلِّ شيطانٍ وهامَّةٍ ومِن كلِّ عينٍ لامَّةٍ**» ثمَّ يقولُ ﷺ: «**كان إبراهيمُ صلواتُ اللهِ عليه يُعوِّذُ به ابنَيهِ إسماعيلَ وإسحاقَ**» [(١)].

ب ـ مهارة إسماعيل عليه السَّلام بالرماية:

من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ على قوم من أسلم ينتضلون بالسّوق فقال: «**ارْمُوا بَنِي إسماعيلَ، فإنَّ أباكُم كان رامِيًا. ارْمُوا، وأنا مع بَنِي فُلانٍ**»، قالَ: فأمْسَكَ أحَدُ الفَرِيقَيْنِ بأيْدِيهِم، فقالَ: «**ما لَكُم لا تَرْمُونَ؟**»، قالوا: كيفَ نَرْمي وأنتَ معهُم؟ قالَ: «**ارْمُوا فأنا معكُم كُلِّكُم**» [(٢)].

ج ـ أول من نطق بالعربية المُبينة إسماعيل عليه السَّلام:

من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وهو الحديث الطويل الذي سبق أن ذكرناه: .. فألفى ذلك أمَّ إسماعيل وهي تحب الأُنس، فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم؛ حتى كان بها أهل أبيات منهم، وشبّ الغلام وتعلَّم العربية منهم[(٣)].

ومن حديث علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أول من فتق لسانه بالعربية المُبِينة إسماعيل، وهو ابن أربع عشرة سنة**» [(٤)].

وقال ابن حجر في (الفتح): تكون أوَّليته في ذلك بحسب الزيادة في البيان

---

(١) صحيح ابن حبّان، رقم (١٠١٢).

(٢) صحيح البخاري، رقم (٢٨٩٩)، الأحاديث الصحيحة من أخبار وقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، إبراهيم محمد العلي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط١، ١٩٩٥م، ص٧٢.

(٣) الأحاديث الصحيحة من أخبار وقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، إبراهيم محمد العلي، ص٧٢.

(٤) صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير، الألباني، رقم (٢٥٨١).

لا الأولية المطلقة، فيكون بعد تعلُّمه أصلَ العربية من جرهم، ألهمه الله العربية الفصيحة المُبِينة، فنطق بها[١].

وقال الديلمي: أصل الفتق: الشقّ، أي أنطق الله لسان إسماعيل عليه السَّلام حتى تكلّم بها، وكان أوَّلَ مَن نطق بها كذلك، وقال في (المصباح): يُقال العرب العاربة هم الذين تكلَّموا بلسان يَعربَ بن قحطان، وهو اللسان القديم، والعرب المستعربة هم الذين تكلَّموا بلسان إسماعيل بن إبراهيم عليهما السَّلام، وهي لغة أهل الحجاز وما والاها[٢].

د ـ كون كنانة من ولد إسماعيل:

من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ اصطَفى من ولدِ إبراهيمَ بني إسماعيلَ، واصطفى كنانةَ من بني إسماعيلَ، واصطفى قُريشًا من كنانةَ، واصطفى بني هاشمٍ من قريشٍ، واصطفاني من بني هاشمٍ**» [٣].

٤ ـ نفي الاستقسام بالأزلام عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام:

من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: إنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ لَمَّا قَدِمَ أَبى أن يَدخُلَ البَيتَ وفيهِ الآلِهةُ، فأمَرَ بها فأُخرِجَت، فأخرَجُوا صُورةَ إبراهيمَ، وإسماعيلَ في أيديهما الأزلامُ، فقالَ ﷺ: «**قاتَلَهُمُ اللهُ، أما واللهِ لقَد عَلِمُوا أَنَّهُما لَم يَستَقسِما بهَا قَطُّ**». فدَخَلَ البَيتَ، فكَبَّرَ في نَواحيهِ، ولَم يُصَلِّ فيهِ[٤].

وقد تكرَّر اسمُ إسماعيل عليه السَّلام في القرآن الكريم مع أبيه إبراهيم عليه

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، (٦/ ٤٠٣).
(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير، محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي المناوي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط١، ١٣٥٦هـ، (٣/ ٩٢ ـ ٩٣).
(٣) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (٢٧/ ٤٧٢).
(٤) صحيح البخاري، رقم (١٦٠١).

السَّلام كما مرّ معنا، ثم ذُكر منفردًا ومع أبيه والأنبياء الآخرين في (٢١٢) آية، وتكرَّر اسمُه وقصّتُه وفضائلُه ومناقبُه في الأحاديث الشريفة كثيرًا[١].

٥ ـ إسماعيل عليه السَّلام في كتب التاريخ:

هو إسماعيل بن إبراهيم عليه السَّلام، وُلد في فلسطين حوالي عام (١٧٩٤) ق.م، في منطقة بئر السبع غالبًا، وكان عمر أبيه ستًّا وثمانين سنة، وكان قد مضى على وجوده في أرض فلسطين حوالي عشر سنوات، ولم يُنجب أولادًا، فدعا ربّه أن يهبه الذُّرّيةَ، قال تعالى: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٠ ـ ١٠١]، فهو الابن الأول والأكبر لإبراهيم، وهو ـ على الراجح ـ الذبيح الذي فداه الله تعالى بذِبح عظيم، وكان وحيدًا لأبيه حينذاك[٢].

وأمُّ إسماعيل عليه السَّلام هي هاجر المصرية التي كانت أميرة وأسيرة عند أحد فراعنة مصر، فأهداها إلى سارة في القصة المعروفة، فسافر بها إبراهيم إلى فلسطين، وأنجب منها إسماعيل، ونشأ وترعرع وهو في سن الرضاعة في فلسطين، ثم انتقل إبراهيم بهاجر وإسماعيل عليهما السلام إلى مكة المكرمة التي قدمت إليها القبائل العربية، واستقرّت فيها[٣].

ولما شبّ إسماعيل عليه السَّلام تزوج من امرأة يُختلف في اسمها، فيُقال هي عمارة بنت سعد بن أسامة، وقيل: إن اسمها جداء بنت سعد، وقيل: حبى بنت أسعد بن عملق، وقيل: ريبة أو ميريبة، ثم فارقها وطلَّقها، وتزوّج الثانية رَعْلة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي، وبقيت معه، فولدت له اثني عشر ولدًا ذكرًا وبنتًا واحدة، هم آباء العرب المستعربة اليوم، فإسماعيل عليه السَّلام هو جدُّ

---

(١) شرعة الله للأنبياء، محمد مصطفى الزحيلي، ص٢٠١.

(٢) عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة، فوزي محمد حميد، دار حطين للدراسات والترجمة، دمشق، سورية، ط١، ١٩٩٣م، ص٣٠٨.

(٣) قصص الأنبياء في رحاب الكون، د. عبد الحليم محمود، ص٢٣٦، وعالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة، فوزي محمد حميد، ص٣٠٩.

العرب، ويقال: إنه تزوّج من ثالثة وهي: سامة بنت مهلهل بن سعد بن عوف[١].

وتذكر كتب التاريخ أن إسماعيل عليه السَّلام أول من تكلّم العربية البليغة، وكان قد نقلها من العرب العاربة الذين نزلوا عندهم بمكة من قبيلة جرهم[٢]، والعماليق، وأهل اليمن، من الأمم السالفة من العرب قبل إبراهيم الخليل عليه السَّلام. ورُوي أن أول من فتق لسانه بالعربية البيّنة إسماعيل، وهو ابن أربع عشرة سنة[٣].

ولما حلّت جرهم بمكة المباركة، وهب كل صاحب خيمة لإسماعيل عليه السَّلام شاة أو شاتين، حتى تشكّل له بعض قطيع، وهو ما يزال في عمره النديّ ويترعرع في كنف أمه ويدرج بين أطفال جرهم، فلما بلغ مبلغ الفتيان والشباب انصرف إلى الرعي والصيد على عادة الناس الذين يعيشون حوله[٤]، وكانت هاجر وإسماعيل ينعمان بقدوم إبراهيم عليه السَّلام والمكوث عندهما، والاطمئنان عليهما، حتى حصلت قصة الذبح والفداء كما سبق، وتمّ التعاون على بناء الكعبة المُشرَّفة كما سبق.

وقد وصف القرآن الكريم إسماعيل عليه السَّلام بأنه: غلام، حليم، صادق الوعد، يحافظ على الصلاة، ويأمر أهله بها، وأن الله تعالى برّأه من كل ما نسب إليه الجاهلون[٥].

وعاش إسماعيل عليه السَّلام (١٣٧) عامًا إلى أن مات، ودُفن بالحِجْر «بجوار الكعبة» مع أمه هاجر[٦].

---

(١) عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة، ص٣١٠.
(٢) قصص الأنبياء في رحاب الكون، د. عبد الحليم محمود، ص٣١٠.
(٣) عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة، فوزي محمد حميد، ص٣١١ ـ ٣١٢.
(٤) قصص الأنبياء في رحاب الكون، د. عبد الحليم محمود، ص٢٤٤.
(٥) عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة، فوزي محمد حميد، ص٣١١.
(٦) المرجع نفسه، ص٣١٠.

ولازم إسماعيل عليه السَّلام والده في أوقات إقامته بمكة المكرمة. وكان التشريع الإلهي لإسماعيل عليه السَّلام مقترنًا بشرعة أبيه إبراهيم عليه السَّلام التي سبقت وهي: الهجرة، تعدُّد الزوجات، حضانة الولد عند أمه، إقامة الصلاة، الختان، بناء الكعبة، الطواف، الاعتكاف، تحقيق الأمن في مكة، مناسك الحج، الرؤيا بذبح الولد، الشورى، طاعة الله تعالى والتسليم لأمره، الذبح والفداء والأضحية، السَّعي بين الصفا والمروة، رمي الجمرات، وتطهير البيت الحرام[(١)]، وسيأتي بإذن الله بيان ذلك بشيء من التفصيل.

وبعد بناء الكعبة المشرفة ورفع قواعدها، على يدَيْ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، بقي إسماعيل مع والدته في مكة، وكان إبراهيم عليه السَّلام يرجع مرارًا إلى بيت المقدس وفلسطين وإلى زوجته سارة ثم ابنه إسحاق عليه السَّلام[(٢)].

وأما إسماعيل فهو المقيم الدائم في مكة المكرمة، وكان أول من تولَّى شؤون بيت الله الحرام، وبعد وفاته تولَّى شؤونَه ابنُه «نابت»، ثم تحولت السدانة إلى أخواله من بني جرهم، وكان ملكهم مضاض بن عمرو الجرهمي أول من ولي البيت منهم، ثم جاء ابنه الحارث، ثم انتقلت إلى عمرو بن الحارث، واستمرت الولاية في بني جرهم ما داموا مُتمسِّكين بالدين الحنيف، يُعظِّمون مكة وبيتَها الحرام، ولم يُقرُّوا فيها بغيًا ولا ظلمًا، ولم يسفك العرب فيها دمًا، ولم يقطعوا شجرًا، ولم يطردوا صيدًا، ولم يقتلوا ظهيرًا، وكان الحرم كله آمنًا مطمئنًا.

ولكن ولاة البيت من جرهم لم يستطيعوا الحفاظ على حرمات مكة وكعبتها المشرّفة وبيتها الحرام، بل بَغَوْا فيها وطَغَوْا واستحلّوا الحرمات المقدسة،

---

(١) شرعة الله للأنبياء، محمد مصطفى الزحيلي، ص٢٠٢.

(٢) المرجع نفسه، ص٢١٠.

وأكثروا الفساد، وألحدوا بالمسجد الحرام، وصاروا يظلمون من يدخل إليها من غير أهلها، وأكلوا ما يُقدَّم للبيت من هدايا وأموال، حتى ابتلاهم الله؛ فهلك كثير منهم. واستمرت ولاية البيت فيهم نحو (٣٠٠) سنة، ثم تحولت الولاية إلى العماليق بقيادة السميدع بن هوبر بعد هزيمة جرهم أمامهم، وزاد العماليق في بناء البيت، ورفعوه على ما كان عليه من بناء إبراهيم عليه السَّلام[١].

ثم صارت ولاية البيت في ولد إياد بن نزار بن معد، وقامت حروب بين مضر بن نزار وإياد، وكانت النتيجة لمضر، الذين أَجْلَوْا إيادًا ومن معه من مكة باتجاه العراق. ثم آلت الولاية إلى خزاعة، ومنها إلى قصي بن كلاب، الذي كان صهرًا لخزاعة، الذي فوّض جميع أعمال البيت ورئاسة قريش إلى ابنه عبد الدار، وتفرقت بطون قريش إلى بني عبد الدار وبني عبد مناف، ثم اتفقوا على أن تكون الرفادة والسقاية لبني عبد مناف، وتكون الحجابة والندوة واللواء لبني عبد الدار، واستمر الأمر كذلك مدّةً طويلة[٢].

ولما فتح الله تعالى مكة على يد محمد ﷺ، كانت السقاية للعباس بن عبد المطّلب وبني عبد مناف، وهو الموضع الذي يُسقى فيه ماء زمزم[٣].

وكان مفتاح الكعبة بيد عثمان بن أبي طلحة العبدري من بني عبد الدار، فأخذه رسول الله ﷺ منه ودخل الكعبة، وصلى بها وكسر الأصنام، وأخرج مقام إبراهيم، ونزلت الآية الكريمة: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن أبي طلحة وابن عمه شيبة بن أبي طلحة، وأعطاهما المفتاح وحفظ البيت[٤].

---

(١) شرعة الله للأنبياء، محمد مصطفى الزحيلي، ص٢١٠.
(٢) عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة، فوزي محمد حميد، ص٣٢٨ ـ ٣٣٠، بتصرف.
(٣) صحيح البخاري، رقم (١٥٥٣).
(٤) تفسير القرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، القرطبي، (٦/ ٤٢٣).

وقال لهما: «خذاها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم»[١]، وبقي مفتاح الكعبة وسدانتها في يد بني شيبة إلى اليوم[٢].

وقد تحدّث العلاّمة السيد سليمان الندوي في كتابه (تاريخ أرض القرآن) عن بني هاجر وإسماعيل عليه السَّلام وأولاده والقبائل التي تفرّعت من إسماعيل عليه السَّلام كآل غسان والأوس والخزرج من الأنصار، كفرع من فروع نابت بن إسماعيل، وعن قريش وأصولها من مضر بن نزار بن عدنان بن قيدار بن إسماعيل، وغير ذلك من فروع القبائل التي ترجع إلى إسماعيل عليه السَّلام. ومن أراد التوسّع فليرجع إلى ذلك الكتاب[٣].

٦ ـ أول من غيّر دين إسماعيل عليه السَّلام:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سَمِعت رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ لأكثَمَ بن الجَونِ الخُزاعِيّ: **«يا أكثَمُ، رَأيتُ عَمرَو بن لُحَيّ بن قَمَعَةَ بن خِندِفَ يَجُرُّ قُصبَهُ[٤] فِي النّارِ، فما رَأيت رَجُلاً أشبَهَ بِرَجُلٍ مِنك بِهِ، ولا بِك مِنهُ». فقالَ أكثَمُ: عَسى أن يَضُرّني شَبَهُهُ يا رَسولَ اللهِ؟ قالَ: «لا، إنّك مُؤمِنٌ وهُوَ كافِرٌ، إنّهُ كانَ أوّلَ مَن غَيّرَ دِينَ إسماعيلَ، فنَصبَ الأوثانَ، وبَحَرَ البَحِيرةَ[٥]، وسَيّبَ السّائِبةَ[٦]، ووَصَلَ الوَصِيلةَ[٧]، وحَمَى الحَامِي»** [٨] [٩].

❊ ❊ ❊

---

(١) شرعة الله للأنبياء، محمد مصطفى الزحيلي، ص٢١١.

(٢) المرجع نفسه، ص٢١١.

(٣) تاريخ أرض القرآن، سليمان الندويّ، دار القلم للطباعة والنشر، دمشق، ط١، ٢٠١٦م، ص٢٥٧ ـ ٤٢٦.

(٤) قصبه: أمعاءه.

(٥) البحيرة: هي التي يمنح درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس.

(٦) السائبة: هي التي يسيبونها لآلهتهم فلا يُحمل عليها شيء ولا تُحبس عن المراعي ولا تُركب.

(٧) الوصيلة: الناقة البكر، تبكر بنتاج أنثى ثم أنثى بعد أنثى ليس بينهما ذكر.

(٨) الحامي: فحل الإبل يضرب الضراب المعدود ثم يزكوه للطواغيت.

(٩) سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني، (٤/ ٢٤٣)، وإسناده صحيح.

تاسعًا: قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١٠٨ ـ ١١٣]:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾:

أي على إبراهيم عليه السلام، فهو مذكور على توالي الأجيال والقرون، وهو أُمّة وَحْدَه، وهو أبو الأنبياء، وهو أبو هذه الأمة المسلمة، وهي وارثة ملّته، وقد كتب الله تعالى لها وعليها قيادة البشرية على مِلَّة إبراهيم عليه السَّلام، فجعلها الله له عقبًا ونسبًا إلى يوم الدين(١).

قال الشيخ مصطفى العدوي: وتركنا على إبراهيم ثناءً حسنًا في الأمم التي جاءت من بعد، فالأمم التي جاءت من بعده تُثني عليه عليه السَّلام، بل واليهود ينسبونه إليهم والنصارى كذلك، وقد قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

ولعل هذا الثناء، والله تعالى أعلم، إنما هو استجابة لدعوة إبراهيم عليه السَّلام إذ دعا قائلاً: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾، هذا ومن صور هذا الثناء الحسن: ذكرُه المُتكرِّر في الكتاب العزيز في معرض الثناء عليه، وكذا ذِكرُنا له في صلاتنا، فنُصلِّي عليه في كل صلاة نصلّيها، وندعو الله تعالى أن يبارك عليه وعلى آله أجمعين، وكذا نذكره في أذكار الصباح والمساء(٢).

٢ ـ قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾:

لما صبر سيدنا إبراهيم عليه السَّلام واستسلم لأمر ربّه عزَّ وجل، جاءه الفرج من الله تعالى، وعُوفي وولدُه من هذا البلاء، وعُوفينا جميعًا معه من هذه

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٢٩٩٧).
(٢) قصص الأنبياء، مصطفى العدوي، (٢/ ٢٥٢).

المسألة، فكلما ذُكر قلنا: عليه السَّلام؛ لأنّه حمانا من هذا الموقف الصعب[١].

سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، سلام عليه من ربّه، إنّه سلام يُسجَّل في كتابه الباقي، ويُرقم في طوايا الوجود الكبير[٢].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾:

كذلك نجزيهم على البلاء بالوفاء، والذكر، والسلام، والتكريم[٣]، كذلك يعني كما فعلنا مع إبراهيم نجزي كلَّ مُحسن، والمحسن هو الذي لا يقف عند حدّ الواجب المطلوب منه، إنما يتعدّاه إلى الزيادة من جنس ما فُرض عليه وكُلِّف به. فالحقّ سبحانه فرض علينا خمس صلوات في اليوم والليلة، فمن زاد فوق المعلوم فهو من الإحسان، والله فرض علينا الحقّ المعلوم للفقير وهو الزكاة، فمن زاد وأعطى غير المعلوم فهو من الإحسان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ [الذاريات: ١٥ ـ ١٦]، يعني: زائدين عمّا فرض الله من جنس ما فرض الله عليهم، ثم يذكر سبحانه حيثيات هذا الإحسان: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٧ ـ ١٩]، والمحسن يَستحقُّ هذا الجزاء؛ لأن الذي يتقرَّب إلى الله بأكثر مما فرض الله عليه، دليل على أنه عشق التكليف والمكلِّف، وعلم أن الله كلّفه بأقلَّ مما يَستحقُّ فزاد[٤].

٤ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

إنه جزاء الإيمان، وتلك حقيقته فيما كَشف عنه البلاء المبين[٥]. وهذا الإيمان الذي أثنى الله تعالى به على إبراهيم عليه السَّلام قد وصل إلى ذروته في

---

(١) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (٢٠/ ١٢٨٠٢).
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٢٩٩٧).
(٣) المرجع نفسه، (٥/ ٢٩٩٧).
(٤) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (٢٠/ ١٢٨٠٢).
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٢٩٩٧).

درجة اليقين، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥] [١].

٥ ـ قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

هذه البشارة الثانية بإسحاق ومن ورائه يعقوب عليهم السَّلام، فبُشِّر بوجوده وبقائه، ووجود ذُرّيّته، وكونه نبيًّا من الصالحين، فهي بشارات مُتعدِّدة[٢].

٦ ـ قوله تعالى: ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ﴾:

أي: أنزلنا عليهما البركة ـ النمو والزيادة ـ في علمهما وعملهما وذُرّيّتهما، فنشر الله من ذُرّيّتهما ثلاث أمم عظيمة: أمة العرب من ذرية إسماعيل، وأمة بني إسرائيل، وأمة الروم من ذرية إسحاق: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ﴾ أي: منهم الصالح والطالح، والعادل والظالم الذي تبيّن ظلمه بكفره وشركه، ولعل هذا من باب دفع الإيهام، فإنه لما قال: ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ﴾، اقتضى ذلك البركة في ذُرّيّتهما، وأنّ من تمام البركة أن تكون الذُّرّية كلهم محسنين، فأخبر الله تعالى أن منهم محسنًا وظالمًا[٣]. وقد بيَّنت الآيات الكريمة أهمية وراثة الملة والمنهج، فمن اتبع فهو محسن، ومن انحرف فهو ظالم لا ينفعه نسبٌ قريب أو بعيد[٤].

* * *

---

(١) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٤٧٩.

(٢) المرجع السابق، ص١٤٧٩.

(٣) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٤٨٠.

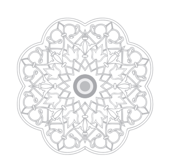
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٢٩٩٧).



حوار إبراهيم عليه السَّلام مع الملِك الظالم وسؤاله لربِّه كيف تُحيي الموتى؟

- المبحث الأول: حوار إبراهيم عليه السَّلام مع الملِك الظالم، وسؤاله لربِّه كيف تُحيي الموتى؟
- المبحث الثاني: قصة إبراهيم عليه السَّلام في سورة التوبة والزخرف والممتحنة.
- المبحث الثالث: حوار إبراهيم عليه السَّلام مع الملائكة في طور شيخوخته والعيش الرغيد والبشرى بإسحاق ويعقوب، وإعلامه بهلاك قوم لوط في سورة هود، والحجر، والعنكبوت، والذاريات.

* * *



المَبْحَثُ الأَوَّل

حوار إبراهيم عليه السَّلام مع الملِك الظالم وسؤاله لربِّه كيف تُحيي الموتى؟

أرسل اللهُ سيدنا إبراهيم عليه السَّلام إلى قومه في بلاد الرافدين، فدعاهم إلى عبادة الله وحده، وحذَّرهم من عبادة الأصنام والكواكب والنجوم التي كانت شائعةً بينهم، لكنهم كذَّبوه ولم يستجيبوا له، وعلى الرغم من ذلك فقد استمرَّ في تبليغ رسالته، مُستخدِمًا أساليبَ متنوعة؛ لإخراجهم من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان.

وقد برع الخليل عليه السَّلام في حوار قومه ومناقشتهم أثناء دعوته لهم، حتى كان أسلوبه محطَّ اهتمام الدعاة والمصلحين والباحثين، وخاصّة أنَّ الله تعالى أرشدنا إلى اتّباع ملَّته وطريقته وهَديه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

وفي هذا المبحث سنُبيِّن، بعون الله وتوفيقه، كيف كان حوار إبراهيم عليه السَّلام مع الملِك الظالم، وسؤاله لربِّه كيف تُحيي الموتى؟

* * *

أولاً: حوار إبراهيم عليه السَّلام مع الملِك الظالم:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ

مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

١ ـ مناسبة الآية لما قبلها:

لما بيّن الله عزّ وجل في الآية التي قبلها ولاية الله لعباده المؤمنين وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وولاية الطاغوت للكافرين، وإخراجهم من النور إلى الظلمات، وأنهم أصحاب النار هم فيها خالدون، كما قال عزّ وجل: ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، أخذ الحقُّ سبحانه يدلُّ على ولاية الله للمؤمنين بقصة الذي حاجّ إبراهيم عليه السَّلام في ربّه في سياق التعجب من تلك الجرأة(١).

كأنه قيل: انظروا إلى إبراهيم عليه السَّلام كيف كان يهتدي بولاية الله عزّ وجل له في الحجج القيمة والخروج من الشبهات التي تعرض عليه؟ فيظل على نور من ربه، وانظروا إلى الذي حاجّه كيف كان بولاية الطاغوت له يَعمى عن نور الحجّة؟ ويتخبّط من ظلمة من ظلمات الشُّبه والشكوك إلى أخرى(٢).

ولما ذكر الحقّ عزّ وجل أن الله سبحانه وتعالى وَليُّ الذين آمنوا يُخرجهم من الظلمات إلى النور، وأن الذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات، ساق شواهد على ذلك في الآيات التي بعدها، ومنها هذا الشاهد الذي اشتمل على ضلال الكافر، وهُدى المؤمن، واستقلاله بأمر عجيب حقيق بأن يُصدَّر به الكلام وهو: اجتراؤه على المحاجّة في الله عزّ وجل، وما أتى في أثنائها من العظمة المنادية بكمال حماقته(٣).

---

(١) الحوار في قصة الخليل عليه السلام في القرآن دروس وعبر، محمود سعد عبد الحميد شمس، ص٤٣٠.

(٢) تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم)، محمد رشيد رضا، (٣/ ٣).

(٣) التناسب القرآني في آية قصة إبراهيم عليه السلام والملك نمرود، مريم نافل الدويلة، جامعة=

٢ ـ متى كانت هذه المناظرة؟

انتقل إبراهيم عليه السَّلام في دعوته انتقالاً متدرِّجًا مُنظَّمًا، وقد بدأ دعوته إلى الله مع أبيه، أقرب الناس إليه، ثم انتقل يدعو قومه، وهي الدائرة الأوسع، ثم الخطوة التي تلتها، وهي دعوة الملِك، وهو رأس القوم. ومن المفهوم المعروف أنه لما ناقش وجادل وحاجج قومه، انتشرت دعوته بين الناس واشتهر أمره وذاع صيته، وعرف الناس مَن هذا الفتى وما هي دعوته وماذا يريد، ومن البديهيّ أن تكون دعوته قد وصلت بلاط الملك، وأن يكون الملك قد سمع به، ولذلك توجّه إبراهيم عليه السَّلام إلى الملك داعيًا ومحاججًا ومجادلاً[١].

وقد اختلف علماء التفسير وغيرهم في الوقت الذي وقعت فيه المناظرة بين إبراهيم عليه السَّلام وبين النمرود لعنه الله، وهل كانت قبل حرق إبراهيم بالنار أو وقعت بعد إحراقه، وجاء الاختلاف على ثلاثة مواقف:

أ ـ ذهب فريق منهم إلى أن المناظرة وقعت قبل إلقاء قوم إبراهيم له بالنار، ومنهم: أبو السعود[٢]، والزمخشري[٣] في تفسيريهما، ولم يَنسباه إلى أحد.

ب ـ ذهب فريق إلى القول بأن المناظرة إنما وقعت بعد إلقاء إبراهيم في النار ونجاته منها، ومنهم: الطبري في تفسيره[٤]، وابن كثير في تفسيره[٥]، وفي البداية والنهاية[٦]، وهذا الرأي منسوب إلى السُّدِّيّ[٧].

= الكويت، مجلس النشر العلمي، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، مجلد (٣٢)، العدد (١١١)، ص٣١.

(١) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٣٣٧).

(٢) تفسير أبي السعود «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم»، (١/ ١٩١).

(٣) تفسير الزمخشري «الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل»، الزمخشـري، (١/ ٢٨٠).

(٤) تفسير الطبري «جامع البيان في تأويل القرآن»، (٥/ ٤٣٦).

(٥) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، (١/ ٣٢٦).

(٦) البداية والنهاية، ابن كثير، (١/ ١٤٩).

(٧) الخليل إبراهيم عليه السلام في الكتاب والسنة، عبد الله علي محمد أبو سيف، رسالة =

ج ـ فيما ذهب فريق ثالث إلى عدم الجزم بأحد القولين، وعدم ترجيح أحد الرأيين، وممن ذهب إلى ذلك: الآلوسي في (روح المعاني) [١]، والرازي في (التفسير الكبير) [٢]، وأبو حيّان في (البحر المحيط) [٣]، والخازن والقرطبي في تفسيريهما، فقالوا واختلفوا في وقت هذه المحاجّة: فقيل: بعد كسر الأصنام وقبل إلقائه في النار، وهو مرويّ عن مقاتل والربيع. وقيل: بعد إلقائه في النار وجعلها عليه بردًا وسلامًا، وهو مرويّ عن جعفر الصادق والسُّدِّيّ[٤].

القول المختار:

إنَّ هذه المناظرة قد وقعت بعد إلقاء إبراهيم عليه السَّلام في النار ونجاته منها؛ وذلك لأنَّ أسلوب القرآن الكريم في قصة الإحراق يدلُّ على أنه كان نتيجة تكسير الأصنام، ومحاكمته على ذلك، وليس في القرآن الكريم ما يدلُّ من قريب ولا من بعيد على أن الإحراق كان نتيجة مناظرته للملك، إذ ليس في القصة ما يدلُّ على أن الملك استدعاه أو ناظره بعد محاكمته وقبل الحكم عليه بالإحراق، وأن هذه المناظرة كانت بعد أن نُجِّي إبراهيم عليه السَّلام من النار، وتعجُّب الملك من نجاته حيث رأى أن ذلك أمر خارق لمألوف العادات، وأنه لا سبيل إلى أخذه عن طريق البطش والقهر، وأن أحسن وسيلة لمراجعة إبراهيم عليه السَّلام هي مناظرته لعلَّه يعود إلى رشده في زعمه، ويرجع إلى عبادة معبوداتهم والخضوع للملك، فجرت بينهما هذه المناظرة التي ذكرها الله في كتابه[٥].

= ماجستير، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الملك عبد العزيز، فرع مكة المكرمة، السعودية، ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م، ص٤٠.

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الآلوسي، (٣/ ١٥).

(٢) التفسير الكبير مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، (٧/ ٢٣).

(٣) البحر المحيط في التفسير، أبو حيّان الأندلسي، (٢/ ٢٨٧).

(٤) الخليل إبراهيم عليه السلام في الكتاب والسنة، عبد الله علي محمد أبو سيف، ص٤١.

(٥) المرجع نفسه، ص٤٢.

٣ ـ من هو هذا الملك؟ وما اسم مملكته؟

من هو هذا الملك الذي جادله إبراهيم عليه السَّلام؟ وما هي مظاهر ملكه؟ وما هي قصة ادّعائه الألوهية؟ وما اسم مملكته وعاصمته؟ وكيف كانت نهايته؟

هذه أسئلة لا جواب عليها في القرآن الكريم، ولا في حديث رسول الله ﷺ، ونعتبرها من مُبهَمات القرآن التي يجب إبقاؤها على إبهامها؛ لأنّها لم تُبيَّن في النصوص الصحيحة المعتمدة.

ونعلم أن هذه الأسئلة عليها إجابات مفصلة في الإسرائيليات، وأن هذه المُبهمات مبيّنة في الأساطير، فالإخباريون ورواة الإسرائيليات يقولون: الملك اسمه «نمرود»، وكان ملكًا على «بابل»، وأنَّ الله أهلكه بالبعوضة، دخلت في أنفه إلى دماغه، وكانت «تطنّ» في دماغه وتزعجه، فيطلب ضربَه بالنعال ليذهب الألم.. إلى غير ذلك من الإسرائيليات.

ونتوقَّف في هذه التفاصيل، ولا نقول بها، ونتعامل مع الآية كما تعامل معها الصحابة رضي الله عنهم، ونفهم قصة إبراهيم عليه السَّلام مع الملك كما فهمها الصحابة، ونسكت عمّا سكتوا عنه، ويَسَعُنا ما وَسِعَهم، فكل ما نقوله عن ذلك الملِك: إنّه كان ملكًا كافرًا ادّعى الألوهية، وكان الناس يعبدونه من دون الله، فتوجّه إبراهيم عليه السَّلام إليه، وحاجّه وجادله وناقشه، وأقام الحجّة عليه، ثم أفحمه وغلبه، فكان الملك أمام إبراهيم عليه السَّلام مهزومًا مبهوتًا[١].

٤ ـ عبادة الملوك في كتب التاريخ وتعدُّد الآلهة:

تحدثت كتب التاريخ عن عبادة الملوك وتعدُّد الآلهة قديمًا وحديثًا، فذكرت أن مجتمع إبراهيم عليه السَّلام يعبد آلهة مُتعدِّدة متنوعة، تضمُّ أنواعًا مختلفة من التماثيل والكواكب والنجوم، وهناك عُبّاد للشمس وللقمر، وعبّاد

---

(١) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٣٣٨).

للنمرود الملك الطاغية الجبّار، وليس هذا الأمر غريبًا، فهذه المجتمعات الوثنية تحتمل تعدُّد الآلهة المختلفة، رغم ما يكون بين هذه الآلهة نفسها من صراع ومعارك، إلا أنّ عبّادها ـ رغم اختلافهم ـ تتَّسع صدورهم لعبادة آلهة كثيرة مخالفة لآلهتهم؛ لأنَّ الجميع من جنود الشيطان، بل لا يجدون غضاضة في مشاركة الآخرين عبادة هذه الآلهة الجديدة.

لهذا فإن المجتمعات الوثنية تعجّ بمئات الآلهة، هذا إله للخصب، وهذا إله للحرب، وهذا إله للحبّ، وهذا إله للخمر، وهذه الآلهة للمطر، وهذه الآلهة للصيد، وهذه للشفاء من أمراض معينة، وتلك تُعبد حتى يفيض النهر، وأخرى يُقرِّبون إليها القرابين لاتّقاء شرّها وأذاها، وهكذا.

وللنجوم دَور في العبادة، وللقمر والشمس مكان في قلوبهم، وللبشر الآلهة مكان وأيُّ مكان، تزعم التوراة المحرّفة أن الجبابرة هم من نسل أبناء الله، فكذلك يزعم أولئك الطغاة منذ أقدم الأزمنة إلى يومنا هذا، وهكذا كان يزعم الفراعنة في مصر، وهكذا كان يزعم أباطرة الروم، وهكذا كان يزعم ملوك بابل، وأكاسرة الفرس، وأباطرة الصين، وملوك الهند، وآخرهم أباطرة اليابان قبل الحرب العالمية الثانية.

إنَّ الغريب حقًّا أن «ماوتسي تونج» مُفجِّر الثورة الشيوعية الإلحادية في الصين وقائدها قال لمراسل الأوبزيرفر (Observer) البريطانية في عام (١٩٧٠م)، بعد إجراء تحقيق طويل معه: إذن لم يكن هناك إله، ولا بُدّ للشعب من إله يعبده، فلماذا تعيبون عليّ أن أكون هذا الإله؟ ولقد قدّمت لشعب الصين من الخدمات ما لم يقدِّمه إنسان، وغيَّرت معالم الصين بصورة لا مثيل لها، فمن حقِّي إذن أن يَعبدني هذا الشعب، لماذا إذن تُنكرون عليّ أنني جعلت نفسي إلهًا لشعب الصين؟ الموقف ذاته كان موجودًا منذ أربعة آلاف سنة تقريبًا في زمن إبراهيم عليه السَّلام، جعل النمرود نفسه إلهًا،

واستغرب جدًّا أن يقف واحد من شعبه، ـ من عبيده ـ يقول له: إنك لست بإله، يا للهول!! كيف يجرؤ هذا الرجل على نكران ألوهيته، مع أن جميع الشعب يراها واضحة جليّة؟ ولو كان رجلاً عاديًّا لأمر بقتله على الفور، ولكن إبراهيم عليه السَّلام الذي رُمي في النار وخرج منها سالمًا[١]، محفوظ من الواحد القهار، لهذا عجز الملك عن قتله.

٥ ـ قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾:

أ ـ ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾:

الهمزة للاستفهام، والمراد به هنا التقرير والتعجُّب، و«التقرير» يعني تقرير هذا الأمر، وأنه حاصل؛ و«التعجُّب» معناه: دعوة المخاطب إلى التعجُّب من هذا الأمر العجيب الغريب الذي فيه المحاجّة لله عزّ وجل[٢].

وقد جاءت ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ على معنى: أنت رأيت، والرؤية تكون بالعين، فهل رأى رسول الله ﷺ ـ وهو المخاطب الأول بالقرآن الكريم من ربه ـ هذه الحادثة أيام إبراهيم عليه السَّلام؟ طبعًا لا، إذن ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ هنا تأتي بمعنى: ألم تعلم[٣].

فكأنك ترى ما يُخبرك به، وعليك أن تأخذه على أنه صدق كأنك رأيتَه بعينك، فالعين هي حاسّة من حواسِّك، والحاسّة قد تَخدع ولكن ربك لا يَخدع، إذن في ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ تعني: ألم تعلم علم اليقين، وكأنك قد رأيت ما يُخبرك به الله[٤].

---

(١) الله جلَّ جلاله والأنبياء عليهم السلام في التوراة والعهد القديم (دراسة مقارنة)، محمد علي الباز، الدار الشامية، بيروت، ٢٠٠٨م، ص٩٢.
(٢) قصص القرآن، محمد بن صالح العثيمين، دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية، ٢٠٠٤م، ص٤٣.
(٣) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (٢/ ١١٢٢).
(٤) المرجع نفسه، (٢/ ١١٢٢).

وخلاصة المعنى: لقد عرفت هذه القصة بالخبر القرآني اليقيني معرفة واضحة جليّة بيّنة، كأنها ـ في تعيينها ووضوحها ـ المعرفة بطريق الرؤية البصرية والنظر، وهذا على أن رأى بمعنى أبصر. وإن كانت رأى بمعنى عَلِم، فالمعنى: تأمَّلْ وانظر بعين بصيرتك، وادرس حال تلك النفس الطاغية التي تحمل الناس على الظلمات بطغيانها. وإذا تأمَّلتَها علمتَ أيها المكلَّف أو أيها القارئ للقرآن إلى أي مدى من الظلمات والضَّلالات يصل الطغيان(١).

والخطاب في قوله تعالى ﴿ أَلَمۡ تَرَ ﴾ للرسول الكريم ﷺ، ولكلِّ مُتدبِّر مُعتبِر من أمته، يدعوه إلى الاستفادة والاعتبار من قصة إبراهيم عليه السَّلام مع الملك(٢).

ب ـ ﴿ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ ﴾:

قيل: هذا الذي حاجّ إبراهيم في ربّه هو ملك بابل: نمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح، ويُقال: نمرود بن فالخ بن عابر بن ثالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح(٣). والأول قول مجاهد وغيره(٤). ولم يُذكر اسمه في الآية؛ لأنَّ اسمه لا يزيد في العبرة التي تُمثِّلها الآية شيئًا(٥).

لم يذكر القرآن الكريم اسم هذا الملك الجبار، ولم يسمِّه رسول الله ﷺ كذلك، ومن ثم فالأولى التوقُّف عن تسميته، حيث إنَّ الحق سبحانه وتعالى قد عرّف هذا الطاغية بالاسم الموصول، ولم يُصرِّح باسمه لما في ذلك من تحقير له وإهمال، وأنه لا يستحقُّ أن يُذكر اسمه، ولأنَّ اسمه لا يهمّ المخاطب في شيء لحصول الفائدة والعبرة من ذكر قصته دون الحاجة إلى

---

(١) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (٢/٩٥٦).
(٢) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/٣٣٨).
(٣) تفسير الطبري «جامع البيان في تأويل القرآن»، (٤/٥٦٨).
(٤) التناسب القرآني في آية قصة إبراهيم عليه السلام والملك نمرود، مريم نافل الدويلة، ص٤١.
(٥) المرجع نفسه، ص٤١.

معرفة اسمه، ولتصدُق العبرة على كل جبار تُسوّل له نفسه التجرّؤ على الله(١).

ومعنى ﴿حَآجَّ﴾: خاصَمَ، وهو فعل جاء على زنة المفاعلة(٢).

والحجّة: الدلالة المبنيّة على المحاجّة أي: المقصد المستقيم، والذي تقتضي صحته أحد النقيضين(٣).

والمحاجة: أن يطلب كل واحد أن يردّ الآخر عن حجّته ومحجّته، والأغلب أنه يفيد الخصام بباطل(٤).

قال تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤٧]، وفي المحاجّة وجهان محتملان:

أحدهما: أنه معارضة الحجّة بمثلها.

و**الثاني**: الاعتراض على الحجّة بما يُبطلها(٥).

ويقول أبو زهرة: وتسمية كلامه حجّة، إنما هو من قبيل المشاكلة اللفظية، أو هو حجّة في نظره السقيم الذي أفسد تفكيره وأضلَّه، فقد توهَّم وتخيَّل، ثم ظنَّ فضَلَّ عن معرفة نفسه وعن معرفة الحق، ووقع في أمور لا يقبلها أي عقل سليم(٦). فمعنى ﴿ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾: أنه خاصمه خصامًا باطلاً في شأن صفات الله ربّ إبراهيم(٧).

---

(١) الحوار في قصة الخليل عليه السلام في القرآن دروس وعبر، محمود سعد عبد الحميد شمس، ص٤٣٢.

(٢) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (٣/ ٣٢).

(٣) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ص١١٩.

(٤) التناسب القرآني في آية قصة إبراهيم عليه السلام والملك نمرود، مريم نافل الدويلة، ص٤١.

(٥) النكت والعيون «تفسير الماوردي»، أبو الحسن الماوردي، دار الكتب العلمية، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٨م، (١/ ٣٢٩).

(٦) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، (٢/ ٩٥٥).

(٧) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (٣/ ٣٢).

وهذا الملك ﴿حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ﴾ أي رفض دعوة إبراهيم عليه السَّلام الموجَّهة له كي يتخلَّى عن ادّعاء الربوبية، ويعلن خضوعه لله رب العالمين، واستسلامه له، واتّخاذه له ربًّا[١].

وإن إبراهيم عليه السَّلام يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وهذا الطاغية يُجادل بالباطل في ربوبية الله عزّ وجل وألوهيّتِه[٢]. والضمير المضاف إليه ﴿رَبِّهِۦٓ﴾ عائد إلى إبراهيم عليه السَّلام، والإضافة لتشريفه عليه السَّلام[٣].

ج ـ ﴿أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ﴾:

إنَّ هذا الملك الذي حاجَّ إبراهيمَ في ربّه، لم يكن مُنكِرًا لوجود الله أصلاً، إنما كان مُنكِرًا لوحدانيته في الألوهية والربوبية، ولتصريفه للكون وتدبيره لما يجري فيه وحده، كما كان بعض المنحرفين في الجاهلية يعترفون بوجود الله، ولكنهم يجعلون له أندادًا ينسبون إليها فاعلية وعملاً في حياتهم، وكذلك كان مُنكِرًا أن الحاكمية لله وحده، فلا حكم إلا حكمه في شؤون الأرض وشريعة المجتمع[٤].

إنَّ هذا الملك المُنكِر المُتعنِّت إنما يُنكِر ويتعنَّت للسبب الذي كان ينبغي من أجله أن يؤمن ويشكر، هذا السبب هو: ﴿أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ﴾، وجعل في يده السلطان، لقد كان ينبغي أن يشكر ويعترف، لولا أنه كان ممّن لا يقدِّرون نعمة الله، ولا يُدرِكون مصدر الإنعام، ومن ثم يضعون الكفر في موضع الشكر، ويضلُّون بالسبب الذي كان ينبغي بأن يكونوا به مهتدين، فهم حاكمون لأنَّ الله حكَّمهم، وهو لم يُخوِّلْهم استعباد الناس بقسرهم على شرائع

---

(١) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٣٣٨).
(٢) قصص القرآن، محمد بن صالح العثيمين، ص٤٤.
(٣) التناسب القرآني في آية قصة إبراهيم عليه السلام والملك نمرود، مريم نافل الدويلة، ص٤٢.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب، (١/ ٢٩٧).

من عندهم، فهم كالناس عبيدٌ الله، يتلقّون مثلهم الشريعة من الله، ولا يستقلُّون دونه بحكم ولا تشريع فهم خلفاء لا أصلاء(١).

ومن الدروس التربوية الرائعة في قوله تعالى ﴿أَنْ ءَاتَـٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾: أنَّ النعم قد تكون سببًا للطغيان؛ لأنَّ هذا الرجل ما طغى وأنكر الخالق عزّ وجل، إلا لأنَّ الله تعالى آتاه الملك، ولهذا أحيانًا تكون الأمراض والفقر والمصائب نعمة على العبد؛ لأنّ الإنسان إذا دام في نعمة وفي رغد وفي عيش هنيء، فإنه ربما يطغى وينسى اللهَ عزّ وجل(٢).

٦ ـ قوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾:

يبدو أن إبراهيم عليه السَّلام قال هذا جوابًا لسؤال وجَّهه إليه الطاغية، كما قال موسى عليه السَّلام عندما سأله فرعون: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩ ـ ٥٠]، فموسى عليه السَّلام برهن على وجود الله تعالى بالخلق والهداية، وكذلك إبراهيم عليه السَّلام في سورة الشعراء ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾. وهنا برهن إبراهيم عليه السَّلام على وجود الله تعالى بالإحياء والإماتة، وكلُّها من الأدلة الظاهرة الواضحة، والحجج القاطعة البيّنة التي لا يُنكرها إلا الذي غشيته الظلمات الكثيفة، وحجبته الحُجُب الغليظة(٣).

وفي تقديم الحياة على الموت في قوله تعالى ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾: لأنَّ المقصود من ذكر الدليل إذا كان هو الدعوة إلى الله تعالى، وجب أن يكون الدليل في غاية الوضوح، ولا شكّ في أن عجائب الخلقة حال الحياة واطلاع

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (١/ ٢٩٧).

(٢) تفسير القرآن الكريم، محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٤هـ، (٣/ ٢٨٥).

(٣) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (١/ ٣٨٦).

الإنسان عليها أتمّ، فلا جرم وجوب تقديم الحياة ههنا في الذكر(١). وكما أن التعبير بالمضارع ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ يفيد معنى الاستمرار الذي يُرى ويُحَسُّ كلَّ يوم(٢).

وخَصَّ إبراهيمُ عليه السَّلام من آيات الله الإحياءَ والإماتةَ؛ لأنهما أبدع آيات الله وأشهرها وأدلّها على تمكُّن القدرة(٣).

وفي قوله ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾: عبّر المولى عزّ وجل بالفعل المضارع؛ لإفادته معنى التجدُّد والحدوث الذي يُرى ويُحَسُّ بين وقت وآخر، أي ربي هو الذي يُحيي الناس ويُميتُهم، كما ترى ذلك مشاهَدًا في كثير من الأوقات، فمن الواجب عليك أن تَخصَّه بالعبادة والخضوع، وأن تُقلع عمّا أنت عليه من كفر وطغيان وضلال(٤).

هو ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾؛ لأنّه المنفرد بأنواع التصرُّف، وخصّ منه الإحياء والإماتة؛ لكونهما أعظم أنواع التدابير، ولأنَّ الإحياء مبدأ الحياة الدنيا، والإماتة مبدأ ما يكون في الآخرة(٥).

وإنَّ الدليل على وجوده هو هذه المعجزة المتكررة، والظاهرة المستنيرة، معجزة الحياة والموت، فلا حياة من غير مُحيٍ، ولا موت من غير مميت، وهو الربّ الذي أدعو إلى عبادته وتوحيده(٦).

فإن الخليل إبراهيم عليه السَّلام استدل على وجود الصانع بحدوث هذه

---

(١) التفسير الكبير مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، (٧/ ٢٤).
(٢) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (٢/ ٩٥٧).
(٣) البحر المحيط في التفسير، أبو حيّان الأندلسي، (٢/ ٢٩٩).
(٤) البعد العقدي في قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام مع قومه من خلال القرآن الكريم، فاطمة محمد أحمد علي، ص٨٧.
(٥) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» (١/ ١٨٩).
(٦) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، (١/ ٣٨٦).

المشاهدات من إحياء الحيوانات وموتها، إذ لا بُدّ من فاعل لهذه الحوادث المشاهَدة، ولهذا قال إبراهيم ﴿ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾.

لقد بيّن إبراهيم عليه السَّلام للملك الطاغية عجزه البشري الذي لا يُؤهِّله إلهًا أو ربًّا، وتناول عليه السَّلام مسألة الحياة والموت وهي مسألة ملحوظة ومَعيشة، ففي كل يوم وكل ساعة يُولد أشخاص ويَحيَون، وفي كل يوم وكل ساعة يموت أشخاص ويُدفنون، والموت والحياة بيد الله، ولهذا قال إبراهيم لذلك الملك: ﴿ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾.

من الذي يخلق الناس؟ إنه الله، من الذي يجعلهم يُولدون ويَحيَون ويَعيشون؟ إنه الله، ومِن ثَمَّ من الذي يُميت الناس؟ إنه الله، ومن الذي يُنهي آجالهم ويقبض أرواحهم؟ إنه الله، الله الذي يحيي ويُميت، وهذا أمر بدهيّ وفطريّ، يعلمه الناس جميعًا، مسلمهم وكافرهم على السواء[١].

لقد عَرَّف إبراهيم عليه السَّلام ربّه بالصفة التي لا يُمكن أن يشاركه فيها أحد، ولا يمكن أن يزعمها أحد. وهذا الملك يسأله عمَّن يدين له بالربوبية ويراه مصدر الحكم والتشريع غيره.. قال: ﴿ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾، فهو من ثم الذي يَحكم ويُشرِّع[٢].

لكن الملك الطاغية الذي حاجَّ إبراهيم عليه السَّلام في ربّه رأى كونه حاكمًا لقومه وقادرًا على إنفاذ أمره فيهم بالحياة والموت مظهرًا من مظاهر الربوبية، فقال لإبراهيم: أنا سيّد هؤلاء القوم وأنا المتصرِّف في شأنهم، فأنا إذن الربّ الذي يجب عليك أن تخضع له وتُسلِّم بحاكميته[٣].

---

(١) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٣٣٩).
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، (١/ ٢٩٨).
(٣) المرجع نفسه، (١/ ٢٩٨).

٧ ـ قوله تعالى ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ :

قالها الملك المتكبِّر: إما تلبيسًا وإما مكابرة، كما قاله أكثر المفسرين، وقالوا إنه أتى باثنين، فقتل أحدهما، وأبقى الآخر، فقال: أمتُّ الأول وأحييت الثاني، هذا هو المشهور عند كثير من المفسرين، وعلى هذا يكون قوله: ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ تلبيسًا، والحقيقة أنه ما أحيا ولا أمات هنا، وإنما فعل ما يكون به الموت في دعوى الإماتة، واستبقى ما كان حيًّا في دعواه الإحياء، فلم يُوجِد حياةً من عنده، وقال بعضهم: بل قال ذلك مكابرة، يعني: هو يعلم أنه لا يحيي ولا يُميت، كأنه يقول لإبراهيم: إذا كان ربك يحيي ويُميت، فأنا أحيي وأميت[١].

سبحان الله! كيف يُسوِّل الغرورُ للمغرور، شتان بين المعنى الذي يُشير إليه إبراهيم عليه السَّلام وبين المعنى الذي لاذ إليه الملك، وأنّى بالأوامر وبالأحكام أن تكون مثل الإنشاء من عدم والإفناء المطلق، إنّه الغرور. ألا يعلم الملك من تجربته أنه كل مرة يعزم على إعدام أحد، ولكن واهب الحياة لا يريد فلا تتمّ إلا إرادة واهب الحياة. وكم مرة يعزم الملك على العفو، ولكن السيف يسبق ذلك؛ لأنّ الأجل ـ وهو بيد الله ـ قد حان، ألا يعلم الملك أن الملوك لو كانوا قادرين على الإحياء الحق ما مات جدّه الأول أبدًا، وما وصل إليه المُلك في يوم من الأيام، نعم إنه يعلم؛ ولكنه يكابر.

وأمام هذه المكابرة على هذه الحجّة الأولى التي لا يمكن أن تظهر آثارها بالملموس؛ لأنَّ الإنشاء والإفناء من أسرار الغيب، يلجأ إبراهيم عليه السَّلام إلى حجّة ملموسة دامغة، يمكن أن تُلْجم الخصم أمام أنصاره أجمعين، وكذا حجّة المؤمن الرباني الملهَم من ربّ العالمين في كل زمان ومكان[٢].

---

(١) قصص القرآن، محمد بن صالح العثيمين، ص٤٦.

(٢) وإبراهيم الذي وفّى، فرحات بن علي الجّعبيري، ص٣٢.

٨ ـ **قوله تعالى** ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾:

تظهر هنا حكمة إبراهيم عليه السَّلام وجودته في المناظرة، سواء قلنا: إن هذا من باب الانتقال من حجّة إلى أوضح منها، أو قلنا: إنّه من باب تفريع حجّة على حجّة[١].

وقد اختلف المفسرون، هل ذلك انتقال من دليل إلى دليل؟ أو هو دليل واحد في الموضعين؟

ذهب الزمخشري إلى القول الأول، فيقول: وكان الاعتراض عتيدًا، ولكن إبراهيم عليه السَّلام لما سمع جوابه الأحمق لم يحاجّه فيه، ولكن انتقل إلى ما لا يقدر فيه، على نحو ذلك من الجواب؛ ليبهته أول شيء، وهذا دليل على جواز الانتقال من حجّة إلى حجّة[٢].

وقال أبو حيان في (البحر المحيط): معنى قول الزمخشري: وكان الاعتراض عتيدًا؛ أي: من إبراهيم لو أراد أن يعترض عليه بأن يقول له: أحيِ مَن أمتَّ، فكان يكون في ذلك نصرة الحجّة الأولى[٣].

وأما القول الثاني: وهو أنه ليس انتقالاً من دليل إلى دليل، بل الدليل واحد في الموضعين، وهذا قول المحققين، يقول ابن كثير: قال له إبراهيم لما ادَّعى هذه المكابرة: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ أي: إذا كنت كما تدّعي أنك أنت الذي تُحيي وتميت، فالذي يحيي ويُميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذواته، وتسخير كواكبه وحركاته، فهذه الشمس

---

(١) قصص القرآن، محمد صالح بن العثيمين، ص٤٨.
(٢) تفسير الزمخشري «الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل»، الرمخشـري، (١/ ٤٨٩).
(٣) البحر المحيط في التفسير، أبو حيّان الأندلسي، (٢/ ٣٠٠).

تبدو كل يوم من المشرق، فإن كنت إلهًا كما ادّعيت تُحيي وتميت، فأتِ بها من المغرب(١).

وهذا التنزيل على المعنى أحسن مما ذكره كثير من المنطقيِّين: إنَّ عدول إبراهيم عليه السَّلام عن المقام الأول إلى المقام الثاني انتقال من دليل إلى أوضح منه، ومنهم من قد يُطلق عبارة ردية، وليس كما قالوه، بل المقام الأول يكون كالمقدمة للثاني، ويبين بطلان ما ادّعاه نمرود في الأول والثاني(٢)، وإلزام المدعي بطرد حجّته إن كانت صحيحة.

ويُشير البقاعي إلى حُسن احتجاج إبراهيم عليه السَّلام فيقول: ولما كان من حسن الاحتجاج ترك المراء بمتابعة الحجّة الملبسة، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ [الكهف: ٢٢]، نقل الحجاج من الحجّة الواقعة في الأنفس إلى الحجّة الواقعة في الآفاق بأعظم كواكبها الشمس ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣]، ففي ظاهر الاحتجاج انتقال، وفي طيِّه تقرير للأول(٣).

وقوله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾: هذه الفاء جواب شرط مقدر، تقديره: قال إبراهيم إن زعمت أو موّهت بذلك فإن الله..، ولو كانت الجملة محكيّة بالقول لما دخلت هذه الفاء، بل كان تركيب الكلام: قال إبراهيم: إن الله يأتي.

وقال الآلوسي: والفاء الأولى للإيذان بتعلّق ما بعدها بما قبلها، والمعنى: إذا ادّعيت الإحياء والإماتة لله تعالى، وأخطأت أنت في الفهم أو غالطت، فمُريح البال ومُزيل الالتباس والإشكال ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ﴾، فالفاء رابطة بين الكلامين إشعارًا لتنمية الحجّة الأولى بالحجّة الثانية(٤).

---

(١) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، (١/ ٦٨٦).
(٢) المرجع نفسه، (١/ ٦٨٦ ـ ٦٨٧).
(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، (١/ ٥٠٤).
(٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الآلوسي، (٣/ ١٩).

كما أن من دلالة دقة المعنى وتقويته مجيء الطباق في الأسلوب بين كلمتي «يحيي» و«يُميت» وبين «المشرق» و«المغرب» سلسًا طيِّعًا غير متكلَّف، يزيد في إيضاح المعنى وإظهاره وتقويته، وذلك عن طريق المقارنة بين الضِّدَّين، وتصوير أحد الضِّدَّين فيه تصوير للآخر، وعلى هذا فالذهن عند ذكر الضدِّ يكون مهيّأ للآخر، ومستعدًّا له، فإذا ورد عليه ثبت وتأكَّد فيه[١].

ومن اللطائف العلمية التي تُستنتج مما سبق: أنّ المحاجة لإبطال الباطل ولإحقاق الحق من مقامات الرسل، لقوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ ﴾، كما أن في الآية إشارة إلى أنه ينبغي للإنسان أن يتعلَّم طُرُقَ المناظرة والمحاجّة؛ لأنّها سُلَّمٌ ووسيلة لإحقاق الحق وإبطال الباطل[٢].

إنَّ إبراهيم عليه السَّلام استند في مناظرته لخصمه لحقيقة في الأنفس: ﴿ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾، وحقيقة في الآفاق: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ ﴾، وهما حقيقتان كونيتان هائلتان، وهما ـ مع ذلك ـ مكرورتان معروضتان للبصائر والأبصار آناء الليل وأطراف النهار، لا تحتاجان إلى علم غزير، ولا إلى تفكير طويل، فالله أرحم بعباده أن يكلَهم في مسألة الإيمان به والاهتداء إليه، إلى العلم الذي قد يتأخَّر أو قد يتعثَّر، وإلى التفكير الذي قد لا يتهيّأ للبدائيين، إنما يكلُهم في هذا الأمر الحيوي الذي لا تستغني عنه فطرتهم، ولا تستقيم دونه حياتهم، ولا ينتظم مع فقدانه مجتمعهم، ولا يعرف الناس دونه من أين يتلقَّوْن شريعتهم وقيمَهم وآدابهم، يكلُهم في هذا الأمر إلى مجرد التقاء الفطرة بالحقائق الكونية المعروضة على الجميع، والتي تفرض نفسها فرضًا على الفطرة، فلا يحيد الإنسان عن إيحائها الملجئ إلا بعسر ومشقة ومحاولة ومِحال وتعنُّت وعناد.

---

(١) التناسب القرآني في آية قصة إبراهيم عليه السلام والملك نمرود، مريم نافل الدويلة، ص٥١.
(٢) المرجع نفسه، ص٥١.

والشأن في مسألة الاعتقاد هو الشأن في كل أمر حيوي تتوقَّف عليه حياة الكائن البشري، فالكائن الحي يبحث عن الطعام والشراب والهواء، كما يبحث عن التناسل والتكاثر بحثًا فطريًّا، ولا يترك الأمر في هذه الحياة حتى يكمل التفكير وينضج، أو حتى ينمو العلم ويَغزُر، وإلا تعرَّضت حياة الكائن الحي إلى الدمار والبوار.. والإيمان حيوي للإنسان حيوية الطعام والشراب والهواء سواء بسواء، ومن ثم يكلُه الله فيه إلى تلاقي الفطرة بآياته المبثوثة في صفحات الكون كله في الأنفس والآفاق[1].

٩ ـ قوله تعالى ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾:

معنى ﴿ فَبُهِتَ ﴾ أي: دُهش أولاً فتحيَّر في أن يردَّ ثانيًا، فكان نتيجة ذلك أنه هُزم ثالثًا، وهذا أمر ليس بعجيب؛ لأنّه ما دام كافرًا فليس له وليٌّ أو أنّ وليَّه من لا يقدر على شيء ﴿ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ ﴾، أما إبراهيم عليه السَّلام فوليُّه الله[2].

وقد اختير لفظ ﴿ فَبُهِتَ ﴾ دون غيره؛ لأنَّ فيه غزارة في المعنى: كانقطع وبطلت حجّته ودهش وتحيَّر[3].

وهذا اللفظ ﴿ فَبُهِتَ ﴾ في نهاية المناظرة مع الملك المتغطرس يُشخِّص الموقفَ، ويُلخِّص النتيجة كاملة، ويُجسِّد معنى الحيرة والانبهار والسكوت، من شدة هول المفاجأة وقوة وقع الهزيمة وانقطاع الحجّة، حتى لكأننا نرى الملك الطاغية مبهوتًا، قد أخذته الحيرة وأحاط به العجز، فامتقع لونه من خزي، وبَرِقَ بصرُه من دَهش، وحاولت شفتاه أن تنطق بمغالطة أخرى فلم تقدرا على شيء، ولكأننا نراه وقد أطرق إلى الأرض عاجزًا مخذولاً، والناس من حوله ينظرون إليه باحتقار وذهول[4].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (١/ ٢٢٩).
(٢) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (٢/ ١١٢٩).
(٣) التناسب القرآني في آية قصة إبراهيم عليه السلام والملك نمرود، مريم نافل الدويلة، ص٥٢.
(٤) صناعة الحوار، حمد عبد الله السيف، ص٣٤٨.

وبهذا الوصف ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾ اختصر السّياق النتيجة العظيمة والفوز الساحق الذي حقَّقه الخليل على خصمه المكابر، الذي سقط صريعًا في لحظات قليلة، واجه بها خبرة إبراهيم وحجّته المؤيَّدة من ربِّ العالمين، فظهر للمُغترِّين به بُطلانَ ادّعائه مشاركة الله تعالى في ربوبيته، وتجلَّت حقيقة التوحيد لله وحده لا شريك له في خلقه وتدبيره، ونصر الله خليله، وجعله قدوة للرسل والمؤمنين من بعده[١].

وفي قوله ﴿ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾ إشارة إلى أن محاجّة هذا الملك محاجة بباطل، قال تعالى: ﴿ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ﴾، كما أن الآية تُبيِّن أن كلَّ مَن جحد الله فهو كافر[٢].

١٠ ـ قوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾:

وما أروع ما خُتمت به الآية الكريمة[٣]، وقد ختم الله عزّ وجل الآية بهذه الجملة السامية، وهي تدلُّ على أمور منها:

أولها: أنّ الذين يعاندون الحقَّ ظالمون دائمًا يظلمون أنفسهم؛ لأنّهم يَسُدُّون منافذ النور فلا يصل إلى قلوبهم، ويظلمون أقوامهم؛ لأنّهم يحملونهم على الضَّلال، ويظلمون الحق لأنهم يحاربونه.

ثانيها: أنَّ ظلمهم يسبق كامل ضلالهم؛ ذلك لأن الشهوات تتحكَّم فيهم فتدفعهم إلى طلب ما ليس لهم، ثم يستهويهم الشيطان بالطمع بعد المطمع، فيتجاوزون الحدود ويَطغَوْن، ثم يكون الضَّلال الكامل الذي تُطمَس به البصيرة، فتُغلَق القلوبُ عن الحق، وتقسو فلا تلين.

ثالثها: أنَّ الظلم إذا استحكم في النفس أصبحت كل البراهين لا تجدي،

---

(١) صناعة الحوار، حمد عبد الله السيف، ص١٢٤.
(٢) قصص القرآن، محمد صالح بن العثيمين، ص٥٠.
(٣) قصص القرآن الكريم، فضل حسن عباس، ص٣٢٢.

بل تزيده عنادًا وإصرارًا، ولذلك لم يكتبِ اللهُ الهداية لمن استمرأ الظلم آحادًا أو جماعات، والله وليُّ المتقين[١].

رابعها: في ختام هذه القصة، جاء التعقيب مناسبًا لما بُنيت عليه القصة، فقوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: تذييل مقرر لمضمون ما قبله[٢].

هذا ومن دلالة دقة المعنى: توكيد الخبر باسمية الجملة والنفي[٣]، وإظهار لفظ الجلالة لتربية المهابة[٤]، وهكذا نجد نهاية الآية مناسب لصدر ومضمون الآية[٥].

ومن الهدايات التربوية في هذا الموضع: أنه كلما كان الإنسان أظلم كان عن الهداية أبعد؛ لأنَّ الله عزّ وجل علَّق نفيَ الهداية بالظلم، وتعليق الحكم بالظلم يدلُّ على علّته، وكلما قويت العلة قوي الحكم المعلَّق عليها[٦].

وهكذا جاءت القصة بأوجز لفظ وأبلغه، فهي كما نلحظ امتازت بالتركيز والتكثيف البلاغي، ودقّة الوصول إلى المعنى عبر القول الموجز والإشارة الدّالة التي تَشِعُّ بالإيحاءات المصوَّرة التي أسهمت في تجسيم المعاني، وجعلت هذه القصة حية تنبض بالحياة والحركة[٧].

ويقول ابن قيّم الجوزية: فإن مَن تأمَّل موقع الحِجاج، فيما تضمنته هذه الآية، وقف على أعظم برهان بأوجز عبارة[٨].

---

(١) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (٢/ ٩٥٩).

(٢) التناسب القرآني في آية قصة إبراهيم عليه السلام والملك نمرود، مريم نافل الدويلة، ص٥٣.

(٣) دليل البلاغة القرآنية، محمد سعيد الدبل، مكتبة الملك فهد الوطنية، السعودية، ط٢، ٢٠١٠م، ص٣٤٥.

(٤) تفسير أبي السعود «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم»، (١/ ٢٤٠).

(٥) التناسب القرآني في آية قصة إبراهيم عليه السلام والملك نمرود، مريم نافل الدويلة، ص٥٤.

(٦) تفسير القرآن الكريم، محمد بن صالح العثيمين، (٣/ ٢٨٥).

(٧) التناسب القرآني في آية قصة إبراهيم عليه السلام والملك نمرود، مريم نافل الدويلة، ص٥٥.

(٨) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، ابن قيم الجوزية، (٢/ ٤٩٠).

١١ ـ أهم صفات إبراهيم عليه السَّلام في هذه القصة:

من أهم السمات والصفات التي أظهرها الحوار ما بين إبراهيم عليه السَّلام والملك الطاغية:

أ ـ دوام الاتصال بالإله الحق:

لقد كان إبراهيم عليه السَّلام وثيق الاتصال بالله عزّ وجل، عظيم الشعور بأن الله معه في كل شيء، في سرِّه وعلانيته، وقوته وضعفه، وحياته وموته لاسيّما عندما يتحرك في الأعمال الرسالية التي تحتاج إلى بذل وجهد وتضحية واستشهاد، ويظهر أن تعبُّد إبراهيم عليه السَّلام، وتعلُّقه بربّه، وتوكُّله عليه، أوصله إلى مقام رفيع، ومنزلة عالية، فأصبح مثالاً في موالاة الله له، ونصره أمام أعدائه[1].

فهذه المحاورة جاءت مثالاً تطبيقيًّا يُجسِّد صور ولاية الله لعباده المؤمنين، فإنّ هذا القرب من الخالق عزّ وجل منح شخص إبراهيم عليه السَّلام هذا البذل المدهش، والتفاني العجيب في نشر دعوته وقضيته الكبرى؛ دلالة الخلق على توحيد الله والإيمان به، ونبذ الشرك بكل صوره وتطبيقاته. ونلمس ذلك في حماسته في أول لقاء يجمعه بالملك المُتجبِّر المشتهر بكفره وطغيانه، كما حكى عنه القرآن الكريم: ﴿إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾.

لقد كانت العقيدة تملأ مشاعره وتشغل تفكيره، تنتقل معه حيث ارتحل، وتحلُّ معه حيث نزل، لا يُداهِن فيها عظيمًا، ولا يجامل فيها قريبًا، ولا يستبقي من أجلها ولدًا ولا وطنًا، ومما يدهش أننا إذا تأملنا الآيات الثلاث التي سبقت هذه المحاورة، نجد أن العقيدة التي أتى بها إبراهيم عليه السَّلام والقضية التي جادل عنها، وخاطر بنفسه من أجلها، هي مضمون آية الكرسي التي هي أعظم آية في القرآن الكريم؛ فالدعوة إلى التوحيد عنده تتصدر سلّم

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الآلوسي، (٢/ ١٦).

الأولويات، والبدء بالإصلاح العقدي يشكِّل منصَّةَ البداية الصحيحة التي تنشد إصلاحًا حقيقيًّا وشاملاً[١].

ب ـ سعة العلم:

لقد أعطى الله إبراهيم عليه السَّلام من العلم واليقين ما لم يُعطَ أحد من المرسلين، سوى محمد ﷺ، وهذه السمة تظهر في كل محاوراته تقريبًا، لكنها هنا برزت في دقّة اختياره الحجج، وانتقائه الأدلة القاطعة.

إنَّ اختيار إبراهيم عليه السَّلام قضية الإحياء والإماتة؛ لتكون محورًا للتحدي، يدلُّ على علم راسخ وفهم دقيق، إذ لا تزال هذه القضية غير محسومة من قبل العلم البشري رغم النقلات العلمية الكبرى التي تشهدها البشرية اليوم، فلا تزال قضيةً مجهولة مفتوحة للتحدي والمناظرة بأكملها، شاهدة على سعة العلم، وقوة اليقين. ولعلَّ السمة التالية تكشف مزيدًا من هذا الجانب في حياة إبراهيم عليه السَّلام[٢].

ج ـ المُناظر الخبير:

انتدب الله إبراهيمَ الخليلَ عليه السَّلام لمقاومة هذا الملك الظالم الذي طغى وادّعى الربوبية، فناظره وأفحمه، وألجمته الحجج، وأذهلته قدرة إبراهيم عليه السَّلام في المناظرة.

وإنَّ المتأمل في هذه المحاورة يتملَّكه العجب من خبرة إبراهيم عليه السَّلام في الحِجاج، وملَكَتِهِ في إلزام الخصم بالبينة والبرهان بثقة نفس وهدوء أعصاب، رغم صلافة الطرف الآخر، ومراوغته وخداعه وكبره وخُيلائه، وأسلوبه محلُّ اقتداء واتِّباع للمدافعين عن الحقّ والسائرين على نهج الأنبياء والمرسَلين والمُصلحين[٣].

---

(١) صناعة الحوار، حمد عبد الله السيف، ص١١٨.
(٢) المرجع السابق، ص١٢٠.
(٣) المرجع نفسه، ص١٢٠.

١٢ ـ شخصية الملِك:

تُمثل شخصية الملِك الذي يُسمَّى في كتب التاريخ «النمرود بن كنعان» نموذجًا بارزًا في تاريخ الطغاة والملوك المتجبِّرين، حيث اتسع ملكه حتى شمل الشرق والغرب، وامتدَّ حكمه حتى تجاوز أربعمائة سنة كما يقول المؤرخون.

ويظهر أن هذا الاتساع المكاني والامتداد الزمني، مضافًا إليهما القوة المادية الظاهرة وخضوع الناس له، كل ذلك قد أبطره وأغراه، فادّعى الربوبية لنفسه، وأخذ يمتحن الناس ويفتنهم في دينهم وفطرتهم، فبعث الله إليه الخليل عليه السَّلام فحاجّه وأبطل كيده، وأظهر للناس كذبه وبهتانه، وقد رسم الحوارُ في هذا المشهد السريع شخصيةَ هذا الملِكِ وأبان بعض صفاتها، فمنها أنه:

❋ كافر بالله تعالى.

❋ ملك، قوي، متجبّر، مغرور.

❋ مخادع أحمق.

❋ ظالم[١].

١٣ ـ وجه من الإعجاز التاريخي:

لم يرد ذكر هذه الواقعة في سيرة إبراهيم في العهد القديم، وإيرادها في القرآن الكريم يُعدُّ وجهًا من أوجه الإعجاز الإنبائي التاريخي، الذي يدحض دعوى المدّعين بأن القصص القرآني مُستمَدٌّ من بعض المصادر القديمة كالعهد القديم، علمًا بأنه إذا وُجد شيء من التشابه فهو حجّة للقرآن الكريم وليست عليه؛ لأنَّ مصدر الوحي السماوي واحد هو الله سبحانه، والفارق الجليّ هنا هو بين وحي تعهد الله عزّ وجل بحفظه تعهُّدًا مطلقًا، فتمّ حفظه على مدى يزيد على الأربعة عشر قرنًا في لغة وحيه «اللغة العربية» نفسها، ووحيٍ ضاعت

---

(١) صناعة الحوار، حمد عبد الله السيف، ص١٢٣.

أصوله ثم دُوّن في لغات غير لغة الوحي، وبأيدي أناس غير معروفين وغير معصومين، مما عرّض الوحي السماويَّ للتحريف والتزوير والتزييف والتضليل، ولا يزال وسوف يستمرُّ كذلك إلى أن يشاء الله(١).

١٤ ـ وجه من الإعجاز البلاغي:

إنَّ آية قصة إبراهيم عليه السَّلام والملك بلغت ذروة الإعجاز، على قصرها وإيجازها، ومع ذلك أصابت جوهر المعنى عبر كلام مُوجَز وإشارة دالّة، يعجز عن الإتيان بمثله جميع البشر، فجمعت القصة بين فصاحة نظم ألفاظها وحُسن ترتيبها بين الآيات الكريمة. وتظهر بلاغة القرآن الكريم في عرض الأمور العجيبة معرض التقرير والاستفهام؛ لأنَّ التقرير يحمل المخاطب على الإقرار، و«الاستفهام» يُثير اهتمام الإنسان، فجمع بين الاستفهام والتقرير في قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ ﴾، وتبرز في الآية الكريمة دور الفاصلة القرآنية، حيث حملت في طيّاتها أهدافًا دلالية مطّردة ومتلازمة مع الهدف الجمالي للإيحاء، ودلالة الوفاء بالغرض المطلوب.

وفي دراسة مثل هذه القصص يجب الاهتمام بعلم التناسب في إظهار الوحدة الموضوعية للقصة القرآنية، وبيان وجه مناسبتها للآيات التي قبلها وبعدها في السورة، إضافة إلى بيان أوجه المناسبة بين بداية القصة وخاتمتها، مما يعكس وجهًا من وجوه الإعجاز القصصي في القرآن الكريم. وظهرت في هذه الآية الكريمة بلاغة الألفاظ القرآنية في تجسيم المعاني وسرعتها في العرض والأداء، وهذا أكسبها قدرة على التأثير والإقناع في نفوس المتلقّين(٢).

١٥ ـ ذكر إبراهيم عليه السَّلام في الآية ثلاث مرات:

ذكرت الآية الكريمة اسم إبراهيم عليه السَّلام ثلاث مرات، ولم يُذكر اسمُ

---

(١) من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي، د. زغلول النجار، (١/ ٣٣٠).

(٢) التناسب القرآني في آية قصة إبراهيم عليه السلام والملك نمرود، مريم نافل الدويلة، ص٥٦.

الملك ولا مرة، وهذا الذكر لإبراهيم تكريمٌ له، وتشريفٌ على مواقفه[(١)].

١٦ ـ محاولة بعض المؤرخين:

حاول بعض المؤرخين استعراض الوضع في منطقة ما بين النهرين في الفترة التي عاشها إبراهيم عليه السَّلام، والمقدَّرة بأوائل الألفية الثالثة قبل الميلاد في حدود (١٨٦١ ـ ١٦٨٦ ق.م)، فوجدوا أنّ هذه التواريخ تتوافق مع الحضارة البابلية التي امتدَّت في حدود (١٩٠٠ ـ ١٣٠٠ ق.م) ومع ملك كان يُدعى «نمرود بن كنعان»، الذي حكم الكلدانيِّين بأرض العراق، وكان يمثِّل رأس الطواغيت في زمانه؛ لأنه كان أول من ادّعى الربوبية. ويُقال: إنّ «النمرود» هذا كان من أحفاد حام بن نوح عليه السَّلام، وكان قائدًا عسكريًّا ذا بطش وطغيان، فاتّسع ملكه ليشمل مدن أكاد، وبابل، وأروك. كما أنشأ في شمال العراق كلاًّ من مدينة نينوى التي كانت تقع إلى الغرب من مدينة الموصل، ومدينة نمرود «كلخ» التي تقع إلى الجنوب الشرقي منها، ولكن لا يستطيع أحد الجزم بذلك[(٢)].

* * *

ثانيًا: سؤال إبراهيم عليه السَّلام لربّه: كيف تُحيي الموتى؟

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠]:

١ ـ صلة الآية بما قبلها:

تتصل هذه الآية بما قبلها، باعتبارها الدليل الثالث لإثبات البعث، إذ

---

(١) قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، ص٧٥.

(٢) من آيات الإعجاز العلمي، د. زغلول النجار، مكتبة الشروق، القاهرة، ط١٣، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م، (١/ ٣٣٠).

الدليل الأول هو قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. والدليل الثاني هو قوله تعالى ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾. فكما أن الله خلق الإنسان في البدء، فهو قادر على إحيائه يوم القيامة، وجاء في القرآن في وصف قدرة الله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾، وقد اهتمَّ القرآن الكريم في ضرب الأدلة العقلية والمنطقية والوجدانية على البعث والحساب والجزاء[(١)].

ولم يذكر الحق تبارك وتعالى اسم القائل في ﴿ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ في الآية السابقة، وذكر اسمَ إبراهيم عليه السَّلام في هذه الآية، مع أن سياق الآيتين واحد وهو طلب «رؤية كيفية إحياء الموتى»، وهذا من تشريف الله عزّ وجل ورفع مكانة إبراهيم عليه السَّلام، وكان ذكر إبراهيم في هذه الآية تنويهًا بشأنه، وإظهارًا لخُلُقه، وإعلامًا عن أدبه مع ربّه[(٢)].

٢ ـ سبب سؤال إبراهيم عليه السَّلام لربِّه:

قال الإمام النووي: أما سؤال إبراهيم عليه السَّلام، فذكر العلماء في سببه أوجهًا[(٣)]:

أظهرها: أنَّه أراد الطمأنينة بعلم كيفية الإحياء مشاهدة بعد العلم بها استدلالاً، فإن علم الاستدلال قد تتطرَّقُ إليه الشكوك في الجملة بخلاف علم المعاينة، فإنه ضروري، وهذا مذهب الإمام أبي منصور الأزهري وغيره.

والثاني: أراد اختبار منزلته عند ربّه في إجابة دعائه، وعلى هذا قالوا: معنى قوله سبحانه ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن ﴾ [البقرة: ٢٦٠] أي: تُصَدِّق بعظم منزلتك عندي، واصطفائك وخلّتك.

---

(١) دعاء الأنبياء والرسل، محمد محمود أحمد وموسى الخطيب، ص٨٥.

(٢) المرجع نفسه، ص٨٦.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ، (٢/ ١٨٤).

والثالث: سأل زيادة يقين، وإن لم يكن الأول شكًّا، فسأل الترقِّيَ من علم اليقين إلى عين اليقين، فإن بين العلمين تفاوتًا قال سهل بن عبد الله التَّستريُّ رضي الله عنه: سأل كشف غطاء العيان ليزداد بنور اليقين تمكّنًا.

والرابع: أنه لما احتجَّ على المشركين بأن ربّه سبحانه وتعالى يحيي ويُميت، طلب ذلك منه سبحانه ليظهر دليلُه عيانًا. وقيل أقوال كثيرة أُخَر ليست بظاهرة[1].

٣ ـ قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾:

هذه محاورةٌ بين ربّ العالمين وخليله إبراهيم عليه السَّلام، لقد كان إبراهيم قانتًا لله حنيفًا، وكان غوّاصًا طالبًا للمعرفة يتأمل في كل شيء، ويتقصَّى بفكره باحثًا وراء الحقيقة، طالبًا لها، قال لربه الذي اتَّخذه خليلاً: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي بعد أن تتمزَّق أجسادها وتتفتَّت[2].

وقد نادى ربَّه ذلك النداء، وهو مُقرٌّ بالأصل مُذعِنٌ له، خاضعٌ كل الخضوع لحكمه، مؤمن بالبعث والنشور، وأنّ الله سبحانه هو الذي يحيي ويُميت، وأنه القاهر فوق عباده، ولكنه يريد أن يعلم بالحسِّ كما علم بالقول الحق، وبالعيان كما علم بالبرهان[3].

كما أن من سنّة إبراهيم عليه السَّلام البحث عن إجابات للأسئلة الكبرى؛ بحثًا عن مزيد من الطمأنينة القلبية والعقلية بالإيمان بالله عزّ وجل والبحث وراء قلق الأسئلة في الخاطر والنفس. وقد دعا إبراهيم ربّه بأن يُبيِّن له بالرؤية المباشرة كيف يُحيي الموتى، وتصل الآية السؤال بالبحث عن تأكيد البعث بالمشاهدة[4].

---

(١) الحوار والاستدلال في القرآن الكريم، خالد سليمان الياسين، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، إسطنبول، تركيا، ط١، ٢٠١٧م، ص١٨٧.

(٢) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (١/ ٣٩٠).

(٣) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (٢/ ٩٦٥).

(٤) التفسير التوحيدي «الجزء الأول من سورة الفاتحة إلى سورة التوبة»، حسن الترابي، دار الساقي للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٤م، (١/ ١٩٧).

وتُبيّن لنا الآية الكريمة تشوُّق إبراهيم عليه السَّلام إلى ملابسة سرِّ الصنعة الإلهية، وحين يجيء هذا التشوُّق من إبراهيم الأواه الحليم، المؤمن الراضي الخاشع العابد القريب الخليل، فإنه يكشف عمّا يختلج أحيانًا من الشوق والتطلع لرؤية أسرار الصنعة الإلهية في قلوب أقرب المقربين.

إنّه تشوُّق لا يتعلَّق بوجود الإيمان وثباته وكماله واستقراره، وليس طلبًا للبرهان أو تقويةً للإيمان، إنما هو أمر آخر، له مذاق آخر، إنّه أمر الشوق الروحي إلى ملابسة السرِّ الإلهي أثناء وقوعه العملي. ومذاق هذه التجربة في الكيان البشري مذاق آخر غير مذاق الإيمان بالغيب.

ولو كان هو إيمان إبراهيم الخليل عليه السَّلام الذي يقول لربّه ويقول له ربّه، وليس وراء هذا إيمان ولا برهان للإيمان، ولكنه أراد أن يرى يدَ القدرة وهي تعمل؛ ليحصل على مذاق هذه الملابسة، فيَسْتروح بها ويتنفس في جوّها، ويعيش معها، وهي أمرٌ آخر غير الإيمان الذي ليس بعده إيمان. وقد كشف الحوار والتجربة التي حكى فيها عن تعدد المذاقات الإيمانية في القلب الذي يتشوَّف إلى هذه المذاقات ويتطلع[١].

٤ ـ قوله تعالى ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾:

﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾: أي بقدرتي على الإحياء بعد الموت، ولا شكّ في أنه تعالى يعلم إيمان إبراهيم عليه السَّلام، ولكنه أراد أن يُظهر علمه للناس على لسان إبراهيم[٢].

ونلاحظ في سؤال الله عزّ وجل لإبراهيم التلطّف من الربِّ الكريم الودود الرحيم مع عبده الأواه الحليم المنيب[٣].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (١/ ٣٠٢).
(٢) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (١/ ٣٩٠).
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، (١/ ٣٠٢).

﴿ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾: أي: بلى. أنا مؤمن بالقدرة على إحياء الموتى ولستُ شاكًّا بذلك، ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ أي: مشاهدته لتجربة عملية حول إحياء الله للموتى، لا تُوجِد ولا تُنشِئ الإيمان في قلبه، ولكنها تزيده وتقوّيه، وهذه الزيادة لإيمانه زيادة للطمأنينة في قلبه(١).

يُريد إبراهيم عليه السَّلام أن يجمع التجربة العملية إلى الإيمان النظري، إنّه يريد أن يرى بعينيه كيفية إحياء الله للموتى؛ ليزداد يقينًا، ويريد أن يقوم بتجربة عملية تجري على يديه ليعرف كيفية إحياء الله للموتى.

ويُكثر إبراهيم عليه السَّلام من استخدام «وسائل الإيضاح»؛ لتأكيد الحقائق النظرية، ويؤدي التجارب العملية لترسيخ القناعة النظرية. رأينا هذا عندما أبطل كون الكواكب آلهة أمام قومه، وعندما طلب من الملك الكافر تغيير حركة ومسار الشمس، وعندما حطّم أصنام قومه وترك الصنم الكبير، ليسأله قومه ويعجز عن الجواب. إننا نرى الآية صريحة في نفي الشكِّ عن إبراهيم عليه السَّلام(٢).

إنَّ هذه الآية الكريمة بيّنت طلب إبراهيم عليه السَّلام من ربّه أن يُرِيَه كيف يُحيي الموتى، وعندما سأله ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن ﴾ وهو يعلم سبحانه إيمانه، يقول إبراهيم عليه السَّلام: ﴿ بَلَىٰ ﴾، وهذه الكلمة ـ كما نعلم ـ تدلُّ على الإيجاب، أي: «بلى قد آمنت»، ولكن ليطمئن قلبي. وطمأنينة القلب لا تعني الشكِّ والارتياب. وإذا استعرضنا بعض الآيات التي ذُكرت فيها الطمأنينة، نجد أن الذين نزلت فيهم لم يكونوا شاكّين أبدًا، فمثلاً قول الله تعالى ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، وهذا خطاب للرسول ﷺ وللمؤمنين الصادقين، أفيُمكننا أن نتّهم أولئك بالشكِّ، وإنَّ قضية الطمأنينة

---

(١) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٤٤٦).
(٢) المرجع نفسه، (١/ ٤٤٨).

لا تدلُّ من قريب ولا بعيد على شكٍّ يُساور النفوس أو القلوب[١]؟

ونحن نعلم أنَّ الإيمان يمكن أن يزيد أو ينقص من جهات ثلاث، والذي يَهمُّنا إحدى هذه الجهات وهي الأدلة، فكلما كانت الأدلة أكثر ظهورًا، وأقوى تأثيرًا، ازداد إيمان صاحبها «ليس من رأى كمن سمع»، وشتان بين علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين، فكلُّ الذي أراده إبراهيم ـ عليه الصلاة والسَّلام ـ أن يرى هذا الدليل معاينةً، ليطمئن به طمأنينة معاينة ومشاهدة[٢].

وإنّ الطمأنينة اعتدال وسكون وهدوء للقلب، وهي أن يسكن فكره في الشيء المعتقَد[٣].

ومما يشهد لذلك خيرَ شهادة: شهادة الله تعالى لإبراهيم عليه السَّلام في مثل قوله تعالى ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]، وقوله تعالى ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ ﴾ [الأنبياء: ٥١]، وقوله تعالى ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ [النحل: ١٢٠]، ثم شهادة النبي ﷺ، فقد جاء في الحديث: «**نحنُ أحقُّ بالشَّكِّ من إبراهيمَ**»[٤]، يا للروعة، يا للعظمة، عظمة النبي ﷺ! نحن أحقُّ بالشكِّ من إبراهيم. إنه نفى بحزم وقوة الشكِّ عن إبراهيم عليه السَّلام. يقول النبي الكريم محمد ﷺ: «**إن كان إبراهيم شاكًّا فنحن أولى بالشكِّ منه**»، ومع ذلك لم نشكَّ أبدًا، فمن الأحرى والأولى ألا يشكّ إبراهيم ـ عليه الصلاة والسَّلام ـ ولا أدري كيف يغيب ذلك عن أولئك الذين يسمحون لأنفسهم أن يتَّهموا إبراهيم بالشكِّ. ولو أن الله تعالى علِم شكًّا من إبراهيم عليه السَّلام لعاقبه أو عاتبه، ولكنه مع ذلك يُكرمه ويُجيبه[٥].

---

(١) قصص القرآن الكريم، فضل حسن عباس، ص٣٢٣.
(٢) المرجع نفسه، ص٣٢٣.
(٣) منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني، منى عبد الله بن داود، ص٤٦.
(٤) صحيح البخاري، رقم (٣٣٧٢). وشرح صحيح مسلم، الإمام النووي، (٢/ ١٨٣).
(٥) قصص القرآن الكريم، فضل حسن عباس، ص٣٢٤.

٥ ـ قوله تعالى ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾:

لقد استجاب الله لطلب إبراهيم عليه السَّلام ومنحه التجربة الذاتية المباشرة، وأمره أن يختار أربعة من الطير، فيقرِّبهن ويُميلهن إليه؛ حتى يتأكَّد من شِياتهنَّ ومميزاتهن التي لا يُخطئ معها معرفتَهُنَّ، وأن يذبحَهُنَّ ويمزِّقَ أجسادَهُنَّ، ويفرّقَ أجزاءهن على الجبال المحيطة، ثم يدعوهنَّ، فتتجمَّعَ أجزاؤهن مرة أخرى، وترتدَّ إليهن الحياة، ويعدن إليه ساعياتٍ، وقد كان طبعًا. ورأى إبراهيم عليه السَّلام السرَّ الإلهيَّ يقع بين يديه، وهو السرّ الذي يقع في كل لحظة، ولا يرى الناس إلا آثاره بعد تمامه، إنه سرّ هبة الحياة، الحياة التي جاءت أول مرة بعد أن لم تكن، والتي نشأت مراتٍ لا حصر لها في كل حيٍّ جديد[١].

لقد رأى إبراهيم هذا السرَّ يقع بين يديه، طيور فارقتها الحياة وتفرقت، مزَّقها في أماكن متباعدة، تدبُّ فيها الحياة مرة أخرى وتعود إليه سعيًا، كيف؟ هذا السرّ الذي يعنو على التكوين البشري إدراكه، إنه قد يراه كما رآه إبراهيم، وقد يصدِّق به كما يصدِّق به كلُّ مؤمن، ولكنه لا يُدرِك طبيعته ولا يعرف طريقته، إنَّه من أمر الله، والناس لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، وهو لم يشأ أن يحيطوا بهذا الطرف من علمه؛ لأنه أكبر منهم، وطبيعته غير طبيعتهم، ولا حاجة لهم به في خلافتهم. إنّه الشأن الخاص للخالق، الذي لا تتطاول إليه أعناق المخلوقين، فإذا تطاولت لم تجد إلا السِّتر المسدَل على السرِّ المحجوب، وضاعت الجهود سدًى، جهود من لا يترك الغيب المحجوب لعلّام الغيوب[٢].

وفي الوقت نفسه رأى إبراهيم عليه السَّلام منظرًا عجيبًا مدهشًا، رأى كيف

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (١/ ٣٠٢).
(٢) المرجع نفسه، (١/ ٣٠٢).

تتطاير الأجزاء إلى بعضها بعض، وتتلاصق بتناسق وانسجام، ويرجع كل جزء إلى مكانه، وتعود قطرات الدماء المتناثرة إلى موضعها التي كانت فيها عند الذبح، لتستأنف جريانها في عروقها بعد أن أعاد الله تعالى إليها الحياة من جديد. لقد تركتنا الآيات مُحلِّقين بخيالنا مع المنظر العجيب المدهش، مع الأعضاء والأجزاء المتناثرة التي تطير في الجوّ إلى بعضها البعض؛ لتتلاحم وتعود كما كانت وتستأنف سيرها في الحياة(١).

كانت الخطوات التي سار عليها إبراهيم عليه السَّلام هي ما أرشده إليه ربُّه:

الخطوة الأولى: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾ من أنواع مختلفة.

الخطوة الثانية: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أي: أمِلْهن إليك، وقرّبهن إليك، وتأمل بهن لتعرف أوصافهن لئلاّ تلتبس عليك بعد الإحياء.

الخطوة الثالثة: ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ أي: فرّق أجزاءهن بعد ذبحهن وتقطيعهن وخلطِ الأجزاء ببعضها البعض على أربعة جبال.

الخطوة الرابعة: ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ﴾ قل لهنّ: تعالين بإذن الله.

الخطة الخامسة: ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ أي: مسرعاتٍ بعد أن تنضمَّ الأجزاء المتفرقة إلى بعضها البعض، ويرجع كل جزء إلى موضعه من الجسد بقدرة الله تعالى الكاملة ومشيئته النافذة في ذرات الأجسام، وتعود إليهن الحياة الكاملة، كما كانوا قبل الذبح والتقطيع والتفريق(٢).

إنها صورة واضحة متحركة، كأنك ترى إبراهيم عليه السَّلام وقد أخذ أربعة من الطير، ثم ضمَّهُن إليه، ثم قام بذبحها وتوزيع أجزائها على الجبال، وهنا قد خرج صوته المبارك في دعوتهن بأن يأتين بإذن الله عزّ وجل، وإذا بالطيور

---

(١) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (١/ ٣٩١).

(٢) المرجع نفسه، (١/ ٣٩١).

قد سعت إليه سعيًا، مقبلةً في سرعة، استجابة لدعوة إبراهيم عليه السَّلام، فتزداد الصورة حياةً، ويزداد المشهد حركةً وحيوية منقطعة النظير[١].

٦ ـ قوله تعالى ﴿ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾:

هذه الصورة التي بيّنها الله عزّ وجل لإبراهيم عليه السَّلام في إماتة الطيور الأربعة ثم إحيائهن من جديد دليل على كمال عزة الله وحكمته، وفيها تنبيه على أن البعث يظهر فيه للعباد كمال عزة الله وحكمته وعظمته وسعة سلطانه وتمام عدله وفضله[٢].

وليعلم الجميع أن الله عزيز في إحاطته بالكون كلّه، لا يعزب عن حوله وقوته شيء، إماتة وإحياء مهما يدقّ ويصغر، وإن كانت الأحياء تسري عناصرها مختلطة بغيرها في التراب مثل أجزاء الطير المذكورة، وأن الله حكيم ينشر بحكمته العناصر الدقيقة في الكون ميتة، ويُركِّبها حية[٣].

لقد خُتمت الآية الكريمة بخطاب الله عزّ وجل لإبراهيم عليه السَّلام بقوله: ﴿ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾، وإليك تعريف باسميه سبحانه: العزيز والحكيم:

العزيز:

هو القويُّ الغالبُ الذي لا يُعجزه شيء ولا يضرّه أحد ولا يغلبه. وأكثر ما يقترن اسم «العزيز» باسمه «الحكيم»، وهو القادر على فعل ما يريد، فلا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فإذا أراد أن يخلق شيئًا خلقه وأحياه، وإذا أراد أن يُهلك شيئًا أهلكه وسلب منه الحياة، ومن جملة ذلك

---

(١) الأداء الحركي للشخصية في قصص إبراهيم وذويه عليهم السلام في القرآن، فاطمة مستور المسعودي، مجلة علوم اللغات وآدابها، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، السعودية، العدد (٧)، محرم ١٤٣٣هـ، كانون الثاني/ يناير ٢٠١٢م، ص٨٠.

(٢) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٩١.

(٣) التفسير التوحيدي «الجزء الأول من سورة الفاتحة إلى سورة التوبة»، حسن الترابي، (١/ ١٩٣).

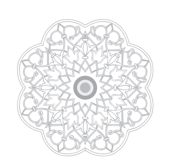
يُحيي الموتى على النحو الذي يُقدِّره، فهو إذا أراد شيئًا يقول له كن فيكون[١].

الحكيم:

هو الذي له الحكمة العليا في خلقه وأمره، والذي أحسن كل شيء خلقه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، فلا يخلق شيئًا عبثًا، ولا يُشرِّع سُدًى، الذي له الحكم في الأولى والآخرة، وله الأحكام الثلاثة لا يشاركه فيها مشارك، فيحكم بين عباده في شرعه، وفي قدره، وفي جزائه. والحكمة وضع الأشياء مواضعَها وتنزيلُها منازلَها[٢].

❊ ❊ ❊

(١) مع الأنبياء في الدعوة إلى الله، محمد عبد القادر أبو فارس، ص١٥٥.
(٢) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز ناصر الجليل، ص٢٨٣.



المبحث الثاني

قصة إبراهيم عليه السّلام في سورة التوبة والزخرف والممتحنة

أولاً: قصة إبراهيم عليه السَّلام في سورة التوبة:

قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٣ ـ ١١٤]:

١ ـ قول ابن جرير الطبري:

اختلف أهل التأويل في السبب الذي نزلت فيه هذه الآية، فقال بعضهم: نزلت في شأن أبي طالب؛ لأنَّ النبي ﷺ أراد أن يستغفر له بعد موته، فنهاه الله عن ذلك، وقال آخرون: بل نزلت في شأن أمِّ رسول الله ﷺ، وذلك أنه أراد أن يستغفر لها فمُنع من ذلك، وقال آخرون: بل نزلت من أجل أن قومًا من أهل الإيمان كانوا يستغفرون لموتاهم من المشركين، فنُهوا عن ذلك(١).

وفي تفسير الآيات قال ابن جرير: إنَّ الله قضى ألا يغفر لمشرك، فلا ينبغي لهم «أي: المسلمين» أن يسألوا ربّهم أن يفعل ما قد علموا أنه لا يفعله، فإن

---

(١) تفسير الطبري «جامع البيان في تأويل القرآن»، (١١/ ٤١ ـ ٤٢).

قالوا: فإن إبراهيم قد استغفر لأبيه وهو مشرك، فلم يكن استغفار إبراهيم لأبيه إلا لموعدة وعدها إيّاه[١].

وقال القرطبي: ودلّ على هذا الوعد: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ [مريم: ٤٧]، والمعنى كما يقول ابن عطية: لا حجّة لكم أيها المؤمنون في استغفار إبراهيم الخليل لأبيه، فإن ذلك لم يكن إلا عن موعدة[٢].

وفي قوله ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾، قال ابن العربي: يعني بموته كافرًا ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُۚ﴾[٣].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾:

جاء في معنى أوّاه: الأوّاه: الكثير التأوّه، والمعنى: الخاشع المتضرِّع الطائع، وكلّ كلام يدلّ على حزن يُقال له: التأوّه، ومعنى حليم: أي كثير الحلم، وهو الذي يَصفح عن الذنب، ويصبر على الأذى، وأصل الحلم: ضبط النفس عن هيجان الغضب، وجمعه أحلام، والحلم هو العقل[٤].

وقال الرازي: واعلم أنه تعالى إنما وصفه بهذين الوصفين في هذا المقام؛ لأنّه تعالى وصفه بشدة الرّقة والشفقة والخوف والوجل، ومَن كان كذلك فإنّه تعظم رقّته على أبيه وأولاده، فبيّن الله تعالى أنه مع هذه العادة تبرأ من أبيه، وغلُظ قلبه عليه لمّا ظهر له إصراره على الكفر، فأنتم بهذا المعنى أولى. وكذلك وصفه بأنه حليم؛ لأنَّ أحد أسباب الحلم رقّة القلب، وشدة العطف؛ ولأنّ المرء إذا كان حاله هكذا، اشتدَّ حلمه عند الغضب[٥].

---

(١) تفسير الطبري «جامع البيان في تأويل القرآن»، (١١/ ٤٠ ـ ٤١).
(٢) تفسير القرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، القرطبي، (٨/ ١٧٤).
(٣) عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي، ابن العربي المالكي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، عن الطبعة المصرية القديمة، ٢٠٠٦م، (١١/ ٢٥٢).
(٤) التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، (١٣/ ٥٨٦).
(٥) التفسير الكبير مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، (١٦/ ٢١٧).

٣ ـ قول السعدي:

يعني: ما يليق ولا يَحسن بالنبي والمؤمنين به ﴿أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: لمن كفر بالله وعبد معه غيره ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾، لأنهم إذا أصرُّوا على الشرك أو ماتوا عليه فقد حقَّت عليهم كلمة العذاب، ووجب عليهم الخلود في النار، ولم تنفع فيهم شفاعة الشافعين ولا استغفار المستغفرين[١].

وأيضًا فإن النبي ﷺ والذين آمنوا معه عليهم أن يوافقوا ربّهم في رضاه وغضبه، ويوالوا من والاه الله، ويُعادوا مَن عاداه الله، والاستغفار منهم لمن تبيّن أنه من أصحاب النار منافٍ لذلك، مناقض له، أما استغفار إبراهيم لأبيه فإنه ﴿عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ في قوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾، وذلك قبل أن يعلم عاقبة أبيه.

فلما تبيّن لإبراهيم أن أباه عدوٌّ لله سيموت على الكفر، ولم ينفع فيه الوعظ والتذكير ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ موافقةً لربِّه وتأدُّبًا معه، ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ﴾ أي: رجّاع إلى الله في جميع الأمور، كثير الذكر والدعاء والاستغفار والإنابة إلى ربه، ﴿حَلِيمٌ﴾ أي: ذو رحمة بالخلق، وصفح عمّا يصدر منهم من الزّلات، لا يستفزّه جهل الجاهلين[٢].

٤ ـ ما ورد في السنة من النهي عن الاستغفار لأهل الشرك والكفر:

عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: لَمَّا حَضَرَت أبا طالِبٍ الوَفاةُ، جاءَهُ رَسولُ الله ﷺ فوَجَدَ عِندَهُ أبا جَهلٍ، وعَبدَ الله بن أبي أُمَيّةَ بن المُغيرةِ، فقالَ: «**أيْ عَمِّ، قُلْ: لا إلهَ إلَّا اللهُ كَلِمةً أُحاجُّ لكَ بها عِندَ اللهِ**»، فَقالَ أبو جَهلٍ،

(١) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص٣٥٣.
(٢) المرجع نفسه، ص٣٥٣.

وعَبدُ الله بن أبي أُمَيّةَ: أترغَبُ عن مِلَّة عبدِ المُطَّلِبِ؟! فلَم يَزَلْ رَسولُ الله ﷺ يَعرِضُها عليه، ويُعيدانِه بتِلكَ المَقالةِ، حتَّى قالَ أبو طالِبٍ آخِرَ ما كَلَّمَهُم: على مِلَّة عبدِ المُطَّلِبِ، وأبَى أنْ يَقولَ: لا إلهَ إلاَّ اللهُ، قالَ: قالَ رَسولُ الله ﷺ: «**واللهِ لأَستَغفِرَنَّ لكَ ما لَمْ أُنهَ عَنكَ**»، فأنْزَلَ اللهُ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ...﴾ [التوبة: ١١٣]، وأنزَلَ اللهُ في أبي طالِبٍ، قوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [القصص: ٥٦] (١).

٥ ـ أبو إبراهيم يوم القيامة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يلقى إبراهيمُ أباه آزرَ يومَ القيامةِ، وعلى وجهِ آزرَ قَتَرةٌ وغبَرةٌ**(٢)، **فيقولُ له إبراهيمُ: ألم أقلْ لك لا تعصِني؟ فيقولُ أبوه: فاليومَ لا أَعصيك، فيقولُ إبراهيمُ: يا ربِّ! إنك وعدْتَني ألا تُخزيَني يومَ يُبعثون، وأيُّ خزيٍ أخزى من أبي الأبعدِ؟ فيقولُ اللهُ: إني حرَّمتُ الجنةَ على الكافرينَ، فيقال: يا إبراهيمُ! انظُرْ ما بين رجلَيك! فينظر فإذا هو بذِيخٍ مُلْتَطِخٍ**(٣)، **فيُؤخَذُ بقوائمِه، فيُلْقَى في النَّارِ**» (٤).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: فهذا لما مات مشركًا لم ينفعه استغفار إبراهيم عليه السَّلام مع عظم جاهه وقدره(٥).

والحكمة في مسخه ضبعًا، أنَّ الضبع من أحمق الحيوانات، وآزر كان

---

(١) صحيح البخاري، رقم (٤٧٧٢).

(٢) قترة وغبرة: قترة أي: سواد الدخان وغيره أي: غبار، اجتماع الغبرة والسواد في الوجه، وقيل القترة: سواد وكآبة.

(٣) بذيخ متلطخ: ذِيْخ: ذكر الضبع الكثير الشعر، متلطخ: أي بالرجيع أو بالطين أو بالدم.

(٤) صحيح البخاري، رقم (٣٣٥٠)، صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير، الألباني، رقم (٨١٥٨).

(٥) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مرجع سابق (١/ ١٤٦).

أحمق البشر؛ لأنّه بعد أن ظهرت له من ولده الآيات البيِّنات أصرّ على الكفر حتى مات، واقتصر في مسخه على هذا الحيوان؛ لأنّه وسط التشويه بالنسبة إلى ما دونه كالكلب والخنزير وإلى ما فوقه كالأسد مثلاً، ولأنَّ إبراهيم بالغ في الخضوع له وخفضِ الجناحِ، فأبى واستكبر وأصرَّ على الكفر، فعُومل بصفة الذل يوم القيامة، ولأنَّ للضبع عوجًا، فأُشير إلى أن آزر لم يستقم فيؤمن، بل استمرَّ على عوجه في الدين(١).

وفي هذا الحديث دليل على أن شرف الولد لا ينفع الوالد إذا لم يكن مسلمًا(٢).

* * *

ثانيًا: قصة إبراهيم عليه السَّلام في سورة الزخرف:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦ ـ ٢٨]:

كانت قريش تقول إنّها من ذرية إبراهيم، وهذا حقٌّ، وإنها على مِلَّة إبراهيم، وهذا ما ليس بحق، فقد أعلن إبراهيم كلمة التوحيد قوية واضحة، لا لبس فيها ولا غموض، ومِن أجلِها هجر أباه وقومه بعدما تعرّض للقتل والتحريق، وعليها قامت شريعته وبها أوصى ذُريّته، فلم يكن للشرك فيها ظلٌّ ولا خيط رفيع.

وفي هذا الشوط من السورة، يردُّهم إلى هذه الحقيقة التاريخية، ليَعرضوا عليها دعواهم التي يدَّعون، ثم يحكي اعتراضَهم على رسالة النبي ﷺ، وقولَهم كما جاء في سورة الزخرف(٣).

إنَّ دعوة التوحيد التي يتنكّر لها القرشيّون، هي دعوة أبيهم إبراهيم عليه

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، (٨/ ٦٤١).

(٢) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، القسطلاني، تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م، (٧/ ٣١٠).

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٣١٨٤).

السَّلام، وهي الدعوة التي واجه بها أباه وقومه مخالفًا بها عقيدتهم الباطلة، غير مَسُوقٍ إلى عبادتهم الموروثة، ولا متمسِّك بها لمجرد أنه وجد أباه وقومَهُ عليها، بل لم يجاملهم في إعلان تبرُّئه المطلق منها في لفظ واضح صريح يحكيه القرآن الكريم بقوله: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾.

وإنه ليبدو من حديث إبراهيم عليه السَّلام وتبرُّئه مما يعبدون أنهم لم يكونوا يكفرون ويجحدون وجود الله أصلاً، وإنما كانوا يشركون به ويعبدون معه سواه، فتبرَّأَ من كل ما يعبدون، واستثنى اللهَ ووصفَهُ بصفته التي تستحقّ العبادة ابتداءً، وهو أنه فطره وأنشأه، فهو الحقيق بالعبادة، وقرّر يقينه بهداية ربّه له، بحكم أنه هو الذي فطره، فقد فطره ليهديه وهو أعلم كيف يهديه، قال إبراهيم هذه الكلمة التي تقوم بها الحياة، كلمة التوحيد التي يشهد بها الوجود، قالها ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

ولقد كان لإبراهيم عليه السَّلام أكبر قسط من إقرار هذه الكلمة في الأرض، وإبلاغها إلى الأجيال من بعده عن طريق ذُريّته وعقبه، ولقد قام بها من بنيه رسلٌ، كان منهم ثلاثة من أولي العزم: موسى، وعيسى، ومحمد خاتم الرسل، عليهم صلوات الله وسلامه[١].

ولقد عرفت البشرية كلمة التوحيد قبل إبراهيم عليه السَّلام، ولكن هذه الكلمة لم تستقرَّ في الأرض إلا من بعده، عرفتها على لسان نوح وهود وصالح عليهم السلام وغيرهم من الرسل الذين لم يتَّصل لهم عقب يقوم على هذه الكلمة ويعيش بها ولها، فلمّا عرفتها على لسان إبراهيم ظلَّت متصلة في أعقابه، وقام عليها مِن بعدِهِ رسلٌ متصلون لا ينقطعون، حتى كان ابنه الأخير من نسل إسماعيل وأشبه أبنائه به: محمد ﷺ خاتم الرسل. فدعا رسولُ الله ﷺ إلى

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٣١٨٤).

كلمة التوحيد، وجعل لها أثرًا في كل نشاط للإنسان المسلم، وكلِّ تصوُّر[١].

١ ـ قول ابن كثير:

يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء، ووالد من بُعث بعده من الأنبياء، الذي تنتسب إليه قريش في نسبها ومذهبها، أنه تبرّأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان فقال: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ أي: هذه الكلمة وهي عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وخلعُ ما سواه من الأوثان، وهي «لا إله إلا الله» أي: جعلها دائمة في ذُريّته يقتدي به فيها من هداه الله من ذرية إبراهيم عليه السَّلام ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي إليها[٢].

٢ ـ قول السعدي:

يخبر تعالى عن مِلَّة إبراهيم الخليل عليه السَّلام الذي ينتسب إليه أهل الكتاب والمشركون، وكلُّهم يزعم أنه على طريقته، فأخبر عن دينه الذي ورَّثه في ذُريّته فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ الذين اتَّخذوا من دون الله آلهة يعبدونهم، ويتقربون إليهم ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ أي: مُبغِضٌ له، مُجتنِبٌ مُعادٍ لأهله ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، فإني أتولاه وأرجو أن يهديَني للعلم بالحقِّ والعمل به، فكما فطرني ودبَّرني بما يُصلح بدني ودنياي، ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ لما يُصلح ديني وآخرتي.

و﴿وَجَعَلَهَا﴾ أي: هذه الخصلة الحميدة، التي هي أهم الخصال وأساسها، وهي إخلاص العبادة لله وحده، والتبرّي من عبادة ما سواه، ﴿كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ أي: في ذُريّته، ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ إليها ﴿يَرْجِعُونَ﴾ لشهرتها عنه، وتوصيته لذُريّته، وتوصية بعض بنيه كإسحاق ويعقوب لبعض، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠] إلى آخر

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٣١٨٤).
(٢) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، (٦/ ٢٢٤).

الآيات الكريمة، فلم تزل هذه الكلمة موجودة في ذُريّته عليه السَّلام حتى دخلهم الترف والطغيان(١).

٣ ـ قول الشنقيطي:

ذكر جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة أنّ إبراهيم، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، قال لأبيه وقومه: إنه ﴿بَرَآءٌ﴾ أي بريء، من جميع معبوداتهم التي يعبدونها من دون الله، أي: يعني أنه بريء من عبادة كل معبود إلا المعبود الذي خلقه وأوجده، فهو وحدَه معبودُه.

وقد أوضح الله تعالى هذا المعنى الذي ذكره عن إبراهيم عليه السَّلام في مواضع أخرى من كتابه، كقوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٥ ـ ٧٨]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٨ ـ ٧٩].

وزاد جلَّ وعلا في سورة الممتحنة براءتَهُ أيضًا من العابدين للأصنام وعداوتَهُ لهم، وبغضه لهم في الله، وذلك في قوله تعالى ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ ذكر نحوه في قوله ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾، وقوله تعالى ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩]، وقوله تعالى ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧]، وقوله تعالى ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ أي خلقني، يدلُّ على أنه لا يستحقّ العبادة إلا الخالق وحده جلَّ وعلا.

---

(١) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٦٠٨.

وهذا المعنى الذي دلَّت عليه هذه الآية، دلَّت عليه آيات أُخر من كتاب الله العزيز، كقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١]، وقوله تعالى ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٤]، وقوله تعالى ﴿ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ [الرعد: ١٦]، وقوله تعالى ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ [النحل: ١٧]، وقوله تعالى ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٢ ـ ٣] إلى غير ذلك من الآيات[١].

وقال أيضًا: الضمير المنصوب في ﴿وَجَعَلَهَا﴾ على التحقيق راجع إلى كلمة الإيمان المشتملة على معنى «لا إله إلا الله» المذكورة في قوله ﴿ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾؛ لأنَّ «لا إله إلا الله» نفي وإثبات، فمعنى النفي منها هو البراءة من جميع المعبودات غير الله في جميع أنواع العبادات، وهذا المعنى جاء موضَّحًا في قوله تعالى ﴿ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾. ومعنى الإثبات منها هو إفراد الله وحده بجميع أنواع العبادات على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله، وهذا المعنى جاء موضَّحًا في قوله تعالى ﴿ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾[٢].

وضمير الفاعل المستتر في قوله ﴿وَجَعَلَهَا﴾ قال بعضهم: هو راجع إلى إبراهيم وهو ظاهر السِّياق، وقال بعضهم: هو راجع إلى الله تعالى؛ فعلى القول الأول فالمعنى: صيّر إبراهيم تلك الكلمة باقية في عقبه، أي: ولده وولد ولده، وإنما جعلها إبراهيم باقيةً فيهم؛ لأنّه تسبَّب بذلك بأمرين:

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، (٧/ ٢٢٩ ـ ٢٣٠).
(٢) المرجع نفسه، (٧/ ٢٣١).

أحدهما: وصيته لأولاده بذلك، وصاروا يتوارثون الوصية بذلك عنه، فيُوصي بها السلفُ منهم الخلفَ، كما أشار تعالى إلى ذلك حيث قال: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠ ـ ١٣٢].

والأمر الثاني: هو سؤالُه ربَّه تعالى لذُريّته الإيمان والصلاح، كقوله تعالى ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ﴾ [البقرة: ١٢٤] أي: واجعل من ذريتي أيضًا أئمة، وقوله تعالى عنه ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ﴾ [إبراهيم: ٤٠]، وقوله عنه ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وقوله عنه هو وإسماعيل ﴿وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] إلى قوله ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وقد أجاب الله دعاءه في بعث الرسول المذكور ببعثه محمدًا ﷺ، ولذا جاء في الحديث عنه ﷺ أنه قال: «**أنا دعوة إبراهيم**» (١).

وقد جعل الله الأنبياء بعد إبراهيم من ذُريّته، كما قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]. وقال عنه وعن نوح في سورة الحديد: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ﴾ [الحديد: ٢٦].

وعلى القول الثاني: إن الضمير عائد إلى الله تعالى فلا إشكال، وقد بيّن تعالى في آية «الزخرف» هذه أن الله لم يُجِبْ دعوة إبراهيم في جميع ذُريّته، ولم يجعل الكلمة باقية في جميع عقبه؛ لأن كفار مكة الذين كذّبوا بنبينا ﷺ من

(١) رواه أحمد (٤/ ١٢٨)، وابن حبان (١٤/ ٣١٢)، والطبراني في المعجم الكبير (١٨/ ٢٥٣)، والحاكم (٢/ ٦٥٦)، وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني، رقم (١٥٤٥).

عقبه بإجماع العلماء، وقد كذبوه ﷺ وقالوا: إنه ساحر، وكثير منهم مات على ذلك، وذلك في قوله تعالى ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني كفار مكة وآباءهم ﴿ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ٢٩] هو محمد ﷺ: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٠].

وما دلّت عليه آية «الزخرف» هذه من أن بعض عقب إبراهيم لم يجعلِ اللهُ الكلمةَ المذكورةَ باقيةً فيهم دلت عليه آيات أُخر من كتاب الله، كقوله تعالى ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] أي الظالمين من ذرية إبراهيم، وقوله تعالى في سورة الصافات ﴿ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣]، وقوله تعالى في سورة النساء ﴿ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ٥٤ ـ ٥٥].

وقد بيّن تعالى في سورة الحديد أن غير المهتدين منهم كثيرون، وذلك في قوله ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦]، وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: جعل الكلمة باقية فيهم لعل الزائغين الضالين منهم يرجعون إلى الحق بإرشاد المؤمنين المهتدين لهم؛ لأنَّ الحق ما دام قائمًا في جملتهم فرجوع الزائغين عنه إليه مرجوٌّ مأمول، كما دلَّ عليه قوله ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، والرجاء المذكور بالنسبة إلى بني آدم؛ لأنّهم لا يعرفون من يصير إلى الهدى، ومن يصير إلى الضَّلال(١).

* * *

ثالثًا: قصة إبراهيم عليه السَّلام في سورة الممتحنة:

قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، (٧/ ٢٣١ ـ ٢٣٤).

بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٤ ـ ٩]:

تُبيِّن هذه الآيات معلمًا مهمًّا في الولاء والبراء على أساس العقيدة والتميّز على ضوئها، فلا عقيدة ولا توحيد لله عزّ وجل دون ولاء وبراء، بل إنّ كلمة التوحيد التي لا يدخل أحد الإسلام إلا بها هي ولاء وبراء، فنصفها ولاء، والنصف الآخر براء، فكلمة «لا إله» براءة من كل شيء يُعبد من دون الله عزّ وجل، و«إلا الله» ولاء عبودية لله وحده؛ فيكون معناهما جميعًا: لا معبود بحق إلا الله تعالى(١).

وقد وصَّانا الله عزّ وجل بالاقتداء بإمام الحنفاء في ولائه وبرائه هذا، كما في الآيات الكريمة التي نحن بصدد شرحها وبيان أقوال العلماء فيها، وإن الولاء والبراء في هذه العقيدة ليس كلمة تُقال باللسان؛ ولكنها حقيقة عظيمة يلزم منها لوازم كثيرة، ويترتب عليه تبعات وتضحيات باهظة، فهي التي من أجلها أُوذي الأنبياءُ وأتباعُهم بالسجن وتارة بالطرد وتارة بالقتل، فهي التي من أجلها هجر الأنبياء أوطانهم وأهليهم فرارًا بدينهم وبغضًا وعداوة للكفر وأهله، كما حدث مع إبراهيم عليه السَّلام، وهي التي من أجلها حُوصر الرسولُ ﷺ وصحابتُه الكرام في شِعْب أبي طالب حتى بلغ منهم الجهدُ مبلغَه(٢).

---

(١) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز ناصر الجليل، (٣/ ١٤٣).
(٢) المرجع نفسه، (٣/ ١٤٣).

١ ـ قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾:

ينظر المسلم فإذا له نسب عريق، وماضٍ طويل، وأسوة ممتدة على آماد الزمان، وإذا هو راجع إلى إبراهيم، لا في عقيدته فحسب، بل في تجاربه التي عاناها كذلك، فيشعر أن له رصيدًا من التجارب أكبر من رصيده الشخصي، وأكبر من رصيد جيله الذي يعيش فيه. إنَّ هذه القافلة الممتدة في شِعاب الزمان، من المؤمنين بدين الله، الواقفين تحت راية الله، قد مرَّت بمثل ما يمرُّ به، وقد انتهت في تجربتها إلى قرار اتَّخذَتْه، فليس الأمر جديدًا ولا مبتدَعًا ولا تكليفًا يَشُقُّ على المؤمنين، ثم إنّ له أمّةً طويلة عريضة يلتقي معها في العقيدة، ويرجع إليها إذا انبتَّت الروابط بينه وبين أعداء عقيدته، فهو فرع من شجرة ضخمة باسقة عميقة الجذور كثيرة الفروع وارفة الظلال، الشجرة التي غرسها أول المسلمين إبراهيم عليه السَّلام[(١)].

أ ـ ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾:

﴿قَدْ﴾ كان ﴿لَكُمْ﴾: يا معشر المؤمنين، ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي: قدوة صالحة وائتمام ينفعكم[(٢)]، ونموذج طيّب في عمل الخير تتأسَّوْن به وتفعلون مثله[(٣)]، ﴿فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾: من المؤمنين؛ لأنكم قد أُمرتم أن تتَّبعوا مِلَّة إبراهيم حنيفًا، فقد مرَّ إبراهيم عليه السَّلام والذين معه بالتجربة التي يعانيها المسلمون المهاجرون، وفيهم أسوة حسنة[(٤)].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٦/ ٣٥٤٢).
(٢) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٨١٣.
(٣) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (٢٤/ ١٥١٢٠).
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٦/ ٣٥٤٢).

ب ـ ﴿ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ :

تبرَّأَ إبراهيم عليه السَّلام ومن معه من المؤمنين من قومهم المشركين ومما يعبدون من دون الله، ثم صرّحوا بعداوتهم غاية التصريح[١]، وكانت بشكل واضح ومسموع، ليس منهم فحسب بل منهم ومما يعبدون، فكلُّهم سواء في تلك البراءة[٢].

ج ـ ﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ :

﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾: وهذا بيان فيه أن ما نعتقد به نحن المؤمنين بالله سبحانه مخالف لمعتقدكم، وإن ممارساتنا العمليّة تختلف كل الاختلاف عن ممارستكم، بل وحتى تلك التي تتشابه أو لها شيء من انحرافكم وبدعكم سنتركها من أجل ألا تتلوث عقيدتنا السليمة بأفعالكم المشينة، ولأنّ المؤمنين يوالون الله سبحانه وتعالى ورسله عليهم السلام، فهم يكفرون بمن يكفر بالله سبحانه وتعالى؛ لأنَّ الولاء يقتضي النصرة، والله سبحانه وتعالى سمّى من يكفر به عدوًّا، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ [فصلت: ١٩]، وعدو الله هو عدو المؤمنين، فمن أجل ذلك يكفرون به[٣].

﴿ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا ﴾: ظهر وبان البغض والعداوة بالقلوب، وذلك ﴿ أَبَدًا ﴾ ما دمتم مستمرِّين على كفركم[٤]، لأننا على طرفَيْ نقيض، ولا يجتمع الإيمان أبدًا مع الكفر[٥].

فهي البراءة من القوم ومعبوداتهم وعبادتهم، وهو الكفر بهم والإيمان بالله، وهي العداوة والبغضاء لا تنقطع حتى يؤمن القوم بالله وحده، وهي

---

(١) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٨١٤.
(٢) ملة أبيكم إبراهيم، عبد الستار كريم المرسومي، ص١٤٦.
(٣) المرجع نفسه، ص١٤٦.
(٤) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٨١٤.
(٥) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (٢٤/ ١٥١٢٠).

المفاصلة الحاسمة الجازمة التي لا تستبقي شيئًا من الوشائج والأواصر، بعد انقطاع وشيجة العقيدة وآصرة الإيمان. وفي هذا فصل الخطاب في مثل هذه التجربة التي يمرُّ بها المؤمن في أي جيل. وفي قرار إبراهيم والذين معه أسوة حسنة لخلفائهم من المسلمين إلى يوم الدين(١).

﴿ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ أي: فإذا آمنتم بالله وحده زالت العداوة والبغضاء، وانقلبت مودّةً وولاية(٢).

د ـ ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾:

أي: لكم أن تتأسَّوْا بإبراهيم عليه السَّلام ببراءته من قومه إلا من استغفاره لأبيه فلا تتأسَّوْا به، فإن إبراهيم قد وعد أباه أن يستغفر له، وبيّن له أنه لا يدفع عنه عذاب الله إن عصاه وأشرك به، ولهذا لما تبيَّن لإبراهيم أن أباه أقام على الكفر، وأصرَّ عليه، تبرأ منه، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٤] (٣).

هـ ـ ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾:

وفي دعاء إبراهيم عليه السَّلام هذا تفويضُ أمرِهِ كلِّه لله، وتوجُّهٌ إليه بالتوكل والإنابة، والرجوعُ إليه في كل حال(٤).

﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ﴾ أي: اعتمدنا عليك في جلب ما ينفعنا ودفع ما يضرّنا، ووثقنا بك يا ربَّنا في ذلك(٥)، والتوكُّل عمل القلب وليس عمل الجوارح،

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٦/ ٢٥٤٢).
(٢) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٨١٤.
(٣) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٨/ ١٨١).
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٦/ ٣٥٤٢).
(٥) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٨١٤.

فالجوارح تعمل والقلوب تتوكل[١].

﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ أي: رجعنا إلى طاعتك ومرضاتك وجميع ما يقرّب إليك، فنحن في ذلك ساعون، وبفعل الخير مجتهدون[٢].

﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع يوم القيامة[٣]، فنستعدُّ للقدوم عليك، ونعمل ما يزلفنا إليك، فإلى الله مرجعُنا[٤].

وهذا التسليم المطلق لله هو السّمة الإيمانية الواضحة في إبراهيم عليه السَّلام، يُبرِزُها ليوجِّه إليها قلوبَ أبنائه المسلمين، كحلقة من حلقات التربية والتوجيه بالقصص والتعقيب عليه، وإبراز ما في ثناياه من ملامح وسمات وتوجيهات على طريقة القرآن الكريم، ويستطرد لهذا في إثبات بقية دعاء إبراهيم ونجواه لمولاه[٥].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾:

هذا دعاء المؤمنين، وعلى رأسهم سيدُنا إبراهيم عليه السَّلام، يقولون:

أ ـ ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾:

كيف يكون المؤمن فتنة للكافر؟ يكون ذلك في حالتين:

الحالة الأولى: إذا انهزم المؤمنون في معركة أمام الكافرين، عندها يُفتَن الكافر؛ لأنه سيقول: لو كانوا مؤمنين بالله ما انهزموا، أو لو كان لهم ربٌّ يدافع عنهم ما انهزموا، أو يقولون: لو كانوا صادقين في إيمانهم ما انهزموا، وهذه فتنة.

---

(١) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (٢٤/ ١٥١٢٢).
(٢) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٨١٤.
(٣) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٨/ ١٨١).
(٤) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (٢٤/ ١٥١٢٢).
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٦/ ٣٥٤٣).

الحالة الثانية: أو يُفتَن الكافر بالمؤمن حينما يرى أهل الإيمان يرتكبون المعاصي ولا يلتزمون بمنهج الله، فيزهدون في الإسلام، ويكرهون الانتساب إليه، وهذا واقع المسلمين الآن، يُنفّرون الناس من دين الله بدل أن يجذبوهم إليه، لذلك قال علماؤنا: لا يصلح حال هذه الأمة إلا بما صلح به أوَّلُها[١]، والمؤمن يتحمل هذه المسؤولية، مسؤولية الصدِّ عن دين الله، لذلك كان هذا الدعاء ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، اجعلنا مُنفِّذين لأوامرك تنفيذًا يُحبِّب الآخرين في الدين، ولا يكون حجّة لهم في الإعراض عن دينك، وهذا يُعطينا ضرورة التمسُّك بتعاليم الدين حتى لا ينظر أحد إلى المسلم أو المؤمن، ويقول: هذا هو مَن يُعلن الإيمان، ويتصرَّف عكس تعاليم دينه، فيكون سببًا في فتنة الآخرين[٢].

ب ـ ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾:

اغفر لنا ما اقترفنا من الذنوب والسيئات، وما قصّرنا به من المأمورات[٣].

﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾: يقولها إبراهيم خليل الرّحمن إدراكًا منه لمستوى العبادة التي يستحقُّها منه ربُّه، وعجزُه ببشريته عن بلوغ المستوى الذي يكافئ به نعم الله تعالى وآلاءه، ويُمجِّد جلال الله وكبرياءه، فيطلب المغفرة من ربه؛ ليكون في شعوره وفي طلبه أسوة لمن معه ولمن يأتي بعده، ويختم دعاءه وإنابته واستغفاره بوصف ربّه بصفته المناسبة لهذا الدعاء[٤].

ج ـ ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾:

وتكرر النداء: ﴿رَبَّنَآ﴾ للمبالغة في الدعاء والتضرُّع، إنَّه **العزيز**: الذي

---

(١) «لن يُصلِحَ آخرَ هذه الأمة إلا ما أصلَحَ أولَها»، هذه العبارة هي قول الإمام مالك رحمه الله.
(٢) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (٢٤/ ١٥١٢٢).
(٣) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٨١٤.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٦/ ٣٥٤٣).

لا يُغلب ولا يُضام من لجأ إليه[١]، القاهر لكل شيء[٢]، و**الحكيم**: في كلِّ ما أمر وقدّر، فبعزّتك وحكمتك انصُرْنا على أعدائنا، واغفِرْ لنا ذنوبنا، وأصلِحْ عيوبنا[٣].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾:

وفي نهاية هذا العرض لموقف إبراهيم عليه السَّلام والذين معه، وفي استسلام إبراهيم وإنابته، يعود فيُقرِّر الأسوة، ويكرِّرها مع لمسة جديدة لقلوب المؤمنين[٤].

أ ـ ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾

أي: ليس كلُّ أحد تسهُلُ عليه هذه الأسوة، وإنما تسهل على من ﴿كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾، فإن الإيمان واحتساب الأجر والثواب يُسهِّل على العبد كلَّ عسير، ويُقلِّل لديه كلَّ كثير، ويُوجب له «الإكثار من» الاقتداء بعباد الله الصالحين والأنبياء المرسلين، فيرى نفسه مفتقرًا ومضطرًّا إلى ذلك غاية الاضطرار[٥].

إنَّ الأسوة في إبراهيم والذين معه مُتحقِّقة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، هؤلاء هم الذين يُدرِكون قيمة التجربة التي عاناها الرهط الكريم، ويجدون فيهم أسوةً تُتَّبع، وسابقةً تُقتدى، فمن كان يرجو الله واليوم الآخر فليتَّخذ منهم أسوة، وهو تلميح موحٍ للحاضرين من المؤمنين، فأما من يريد أن يتولى عن هذا المنهج، ومن يريد أن يحيد عن طريق القافلة، ومن يريد أن ينسلخ من هذا

---

(١) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٨/ ١٨٢).
(٢) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٨١٤.
(٣) المرجع نفسه، ص١٨١٤.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٦/ ٣٥٤٣).
(٥) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٨١٥.

النسب العريق، فما لله من حاجة إليه سبحانه ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [(١)].

ب ـ ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ :

﴿ وَمَن يَتَوَلَّ﴾ : عن طاعة الله والتأسِّي برسل الله، فلن يضرّ إلا نفسه، ولن يضرّ الله شيئًا.

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ﴾ الذي له الغنى التام المطلق من جميع الوجوه، فلا يحتاج إلى أحد من خلقه بوجه[(٢)].

و﴿ ٱلْغَنِىُّ﴾ : من أسماء الله عزّ وجل، فهو الغنيّ بذاته، الذي له الغنى التام المطلق من جميع الوجوه والاعتبارات، لكماله وكمال صفاته، فلا يتطرَّق إليها نقص بوجه من الوجوه، ولا يمكن أن يكون إلا غنيًّا؛ لأنَّ غناه من لوازم ذاته، كما لا يكون إلا خالقًا قادرًا رازقًا محسنًا فلا يحتاج إلى أحد بوجه من الوجوه، فهو الغنيّ الذي بيده خزائن السماوات والأرض وخزائن الدنيا والآخرة، المُغني جميع خلقه غنًى عامًّا، والمغني لخواص خلقه مما أفاض على قلوبهم من المعارف الربانية، والحقائق الإيمانية[(٣)].

ومن كمال غناه وكرمه: أنه يأمر عباده بدعائه، ويعدُهم بإجابة دعواتهم وإسعافهم بجميع مراداتهم، ويؤتيهم من فضله ما سألوه وما لم يسألوه. ومن كمال غناه: أنه لو اجتمع الخلق أولهم وآخرهم في صعيد واحد فسألوه فأعطى كلاًّ منهم ما سأله، وما بلغت أمانيه، ما نقص من ملكه مثقال ذرة. ومن كمال غناه وسعة عطاياه ما يبسطه على أهل دار كرامته من النعيم واللذات المتتابعات والخيرات المتواصلات، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ومن كمال غناه: أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، ولا شريكًا في الملك،

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٦/ ٣٥٤٣).
(٢) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٨١٥.
(٣) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز ناصر الجليل، ص٦٧٤.

ولا وليًّا من الذلِّ، وهو الغنيّ الذي كمُل بنعوته وأوصافه، المغني لجميع مخلوقاته[١].

و﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ أي: المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره، لا إله إلا هو، ولا ربّ سواه[٢].

يقول السعدي: ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فله من الأسماء أحسنُها، ومن الصفات أكملُها، ومن الأفعال أتمُّها وأحسنُها، فإن أفعاله تعالى دائرة بين الفضل والعدل[٣].

إنَّ الآية الكريمة بيَّنت من يريد أن يتولَّى عن المنهج الرباني، ومَن يريد أن يحيدَ عن طريق إبراهيم وأتباعه، ويريد أن ينسلخَ عن هذا النسب العريق، فما بالله من حاجة إليه ـ سبحانه ـ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [٤].

وتنتهي الجولة وقد عاد المؤمنون أدراجهم إلى أوائل تاريخهم المديد، ورجعوا بذكرياتهم إلى نشأتهم في الأرض، وعرفوا تجاربهم المذخورة لهم في الأجيال المتطاولة، ورأوا القرار الذي انتهى إليه من مرّوا بهذه التجربة، ووجدوها طريقًا مُعبّدةً من قبل، ليسوا هم أوَّلَ السالكين فيها.

والقرآن الكريم يؤكد هذا التصوُّرَ ويكرِّرُه؛ ليتصل ركب المؤمنين، فلا يشعر بالغربة أو الوحشة سالك، ولو كان وحده في جيل، ولا يجد مشقة في تكليف نهض به السالكون معه في الطريق. بعدئذ يعود فينسِّم على هذه القلوب التي يعلم الله ما بها من حنين ورغبة في زوال حالة العداء والجفوة التي تكلفهم هذه المشقة، ينسِّم عليها بنسمة الأمل النديَّة في أن ينضمَّ هؤلاء

(١) الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية، السعدي، ص٤٧ ـ ٤٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، (١/ ٣٢١).

(٣) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز ناصر الجليل، ص٣٧٢.

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٦/ ٣٥٤٣).

الأعداء إلى راية الإسلام وإلى صفوف المسلمين، فيكون هذا هو الطريق لزوال الجفوة وقيام الودّ على أساسه الركين. ثم يُخفِّف عنهم مرة أخرى ـ وهو يضع القاعدة الإسلامية الكبرى في العلاقات الدولية بين المسلمين وغيرهم ـ فيجعل المقاطعة والخصومة خاصّة بحالة العداء والعدوان، أما حين ينتفي العداء والعدوان، فهو البرُّ لمن يستحقّ البرَّ، وهو القسط في المعاملة والعدل[١].

٤ ـ قوله تعالى ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

إنَّ الإسلام دين سلام، وعقيدة حبّ، ونظام يستهدف أن يُظلِّل العالمَ كلَّه بظلِّه وأن يُقيمَ فيه منهجَهُ، وأن يجمع الناس تحت لواء الله إخوة متعارفين متحابين، وليس هناك من عائق يحول دون اتجاهه هذا إلا عدوان أعدائه عليه وعلى أهله، أما إذا سالموهم فليس الإسلام براغب في الخصومة ولا مُتطوِّع بها كذلك.

وهو ـ حتى في حالة الخصومة ـ يستبقي أسباب الودِّ في النفوس بنظافة السلوك وعدالة المعاملة، انتظارًا لليوم الذي يقتنع فيه خصومُه بأن الخير في أن ينضووا تحت لوائه الرفيع، ولا يَيْأس الإسلام من هذا اليوم الذي تستقيم فيه النفوس، فتتَّجه هذا الاتجاه المستقيم، فالآية الكريمة من هذا المقطع إشارة إلى هذا الرجاء الذي لا يغلب عليه اليأس، في معرض التخفيف على نفوس بعض المهاجرين، وتغذية قلوبهم المتعَبة بمشقة المقاطعة والحرب للأهل والعشيرة[٢].

أ ـ ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾:

وهذا الرجاء من الله معناه القطع بتحقُّقه، والمؤمنون الذين سمعوه لا بُدَّ قد أيقنوا به، ولقد وقع بعد هذا بوقت قصير أن فُتحت مكة، وأن أسلمت قريش،

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٦/ ٣٥٤٤).

(٢) المرجع نفسه، (٦/ ٣٥٤٤).

وأن وقف الجميع تحت لواء واحد، وأن طُويت الثارات والمواجد، وأن عاد الجميع إخوة مؤتلفي القلوب[١].

وفي هذه الآية إشارة وبشارة بإسلام بعض المشركين الذين كانوا آنذاك أعداء للمؤمنين، وقد وقع ذلك ولله الحمد والمنة[٢].

ب ـ ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌۚ﴾

إنَّه قادر على كل شيء، ومن ذلك هداية القلوب وتقليبها من حال إلى حال[٣]. ويقول ابن قيّم الجوزية في كتابه (طريق الهجرتين): «القدير»: الذي لكمال قدرته يهدي من يشاء ويضلُّ من يشاء، ويجعل المؤمنَ مؤمنًا، والكافرَ كافرًا، والبرَّ برًّا، والفاجرَ فاجرًا، وهو الذي جعل إبراهيم وآله أئمةً يدعون إليه ويهدون بأمره، وجعل فرعون وقومه ﴿أَيِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾ [القصص: ٤١]، ولكمال قدرته خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسّه من لُغوب، ولا يُعجزه أحد من خلقه ولا يفوته، بل هو في قبضته أينما كان، فإن فرّ منه فإنه يطوي المراحل في يديه كما قيل:

وكَيفَ يَفِرُّ المَرءُ عَنهُ بِذَنبِهِ   إذا كانَ تُطوَى في يَدَيهِ المَراحِلُ[٤]

ويقول السعديّ: «القدير»: كامل القدرة، بقدرته أوجد الموجودات، وبقدرته دبَّرها، وبقدرته سوَّاها وأحكمها، وبقدرته يُحيي ويُميت، ويبعث العباد للجزاء، ويُجازي المحسنَ بإحسانه والمسيءَ بإساءته، الذي إذا أراد شيئًا قال له: كن، فيكون، وبقدرته يُقلِّب القلوب، ويُصرِّفها على ما يشاء ويريد[٥].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٦/ ٣٥٤٤).
(٢) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٨١٥.
(٣) المرجع نفسه، ص١٨١٥.
(٤) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن قيم الجوزية، الدار السلفية، القاهرة، مصر، ط٢، ١٣٩٤هـ، ص٢٣٥.
(٥) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز ناصر الجليل، ص٤٢١.

ج ـ ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

لا يتعاظمه ذنب أن يغفرَهُ، ولا عيب أن يسترَهُ[١].

والغفور من أسماء الله الحسنى: الذي لم يزل يغفر الذنوب، ويتوب على كل من يتوب[٢].

والرحيم: من أسماء الله الحسنى، فهو الذي يرحم عباده بنعمته، ويُفيض عليهم برحمته[٣]، ومن رحمته سبحانه مغفرته لذنوب عباده، والصفح عنهم، وتكفير سيئاتهم، وفتح باب التوبة لهم[٤].

قال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقد تحقق هذا الرجاء من الله عزّ وجل: ﴿۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةًۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وشرحت سورة النصر ذلك ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١ ـ ٣]، حين دخل الناس في دين الله أفواجًا، وقد فتح الله عليهم مكة المكرمة، وكانوا طلقاء لرسول الله ﷺ، وكذلك موقف أبي سفيان وغيره، وعام الوفود إلى المدينة بعد الفتح. وفي التذييل بأن الله تعالى قدير، يُشعِر بأن تأليفَ القلوب وموَدَّتَها إنما هو من قدرة الله تعالى وحده[٥].

لقد أسلم أقوام من الكفار وحسُن إسلامهم، ووقع بينهم وبين مَن تقدَّمهم في الإسلام مودّة، وجاهدوا وفعلوا الأفعال المقرّبة إلى الله تعالى[٦].

---

(١) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٨١٥.
(٢) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز ناصر الجليل، ص٥٦٩.
(٣) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (٢٤/ ١٥١٢٥).
(٤) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز ناصر الجليل، ص١٣٤.
(٥) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، (٨/ ١٤٦).
(٦) فتح القدير، الشوكاني، (٥/ ٣٠٢).

٥ ـ قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾:

لمّا نزلت الآيات الكريمة التي حثَّت على الاقتداء بإبراهيم عليه السَّلام في البراء والولاء والمهيِّجة على عداوة الكافرين، وقعت من المؤمنين كلَّ موقع، وقاموا بها أتمّ القيام، وتأثَّموا من صلة بعض أقاربهم المشركين، وظنُّوا أن ذلك داخل فيما نهى الله تعالى عنه، فأخبرهم أن ذلك لا يدخل في المحرَّم(١).

وقد رخَّص الله عزَّ وجل لهم في الإحسان إلى مَن لم يقاتلوهم في الدين، ولم يُخرجوهم من ديارهم، ورفع عنهم الحرج في أن يَبرُّوهم، وأن يتحرَّوا العدل في معاملاتهم معهم، فلا يبخسوهم من حقوقهم شيئًا(٢).

أ ـ صلة الأرحام من المشركين:

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: أتتني أمي راغبة في عهد النبي ﷺ، فسألت النبي ﷺ: أصِلُها؟ قال: «**نعم**»، قال ابن عيينة: فأنزل الله تعالى فيها ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ (٣).

وقال الحافظ ابن حجر: والمعنى أنّها قدمت طالبة في برّ ابنتها لها، خائفة من ردِّها إيّاها خائبة(٤)، وهكذا فسَّره الجمهور.

وقال الخطابي: فيه أن الرحم الكافرة تُوصَل ببرِّ المال ونحوه كالرحم المسلمة، وفيه مُستدَلٌّ لمن رأى وجوب نفقة الأب الكافر والأم الكافرة على الولد المسلم(٥).

---

(١) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٨١٥.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٦/ ٣٥٤٤).
(٣) صحيح البخاري، رقم (٥٩٧٨)، صحيح مسلم، رقم (١٠٠٣)، وفي رواية الطبراني وابن حبان: راغبة وراهبة.
(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، (٥/ ٢٩٢).
(٥) التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، (٣٤/ ٣٨١).

ب ـ قول الطبري:

في قوله ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ من جميع أصناف الملل والأديان أن تَبرُّوهم وتَصِلوهم وتُقسطوا إليهم، إنَّ الله عزّ وجلّ عمّ بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ جميع من كانت تلك صفته، فلم يخصص به بعضًا دون بعض، لأن برّ المؤمن من أهل الحرب ممَّن بينه وبينه قرابة نسب، أو ممَّن لا قرابة بينه وبينه ولا نسب، غيرُ محرّم ولا منهيٌّ عنه إذا لم يكن في ذلك دلالة له[١].

ج ـ قول الشيخ عطية سالم:

إذا رجعنا إلى عموم اللفظ نجد الآية صريحة شاملة لكلِّ من لم يناصب المسلمين العداء، ولم يُظهر سوءًا إليهم، وهي في الكفار أقرب منها للمسلمين؛ لأنَّ الإحسان إلى ضَعَفة المسلمين معلوم بالضرورة الشرعية، وعليه فإن دعوى النسخ تحتاج إلى دليل قوي يقاوم صراحة هذا النص الشامل، وتوفُّر شروط النسخ المعلومة في أصول التفسير، ويُؤيِّد عدم النسخ ما نقله القرطبيُّ عن أكثر أهل التأويل أنّها محكمة، وهذا الذي صوّبه ابن جرير الطبري، وهو ما تقتضيه روح التشريع الإسلامي[٢].

د ـ قول السعديّ:

ولما نزلت هذه الآيات الكريمة، المُهيِّجة على عداوة الكافرين، وقعت من المؤمنين كلَّ موقع، وقاموا بها أتمَّ القيام، وتأثموا من صلة بعض أقاربهم المشركين، وظنُّوا أن ذلك داخل فيما نهى الله عنه، فأخبرهم الله أن ذلك لا يدخل في المحرَّم، وجاء في معناها: لا ينهاكم الله عن البرِّ والصّلة

---

(١) تفسير الطبري «جامع البيان في تأويل القرآن»، (٢٨/ ٦٥ ـ ٦٦).

(٢) التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، (٣٤/ ٣٨٠)؛ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، (٨/ ٨٤)

والمكافأة بالمعروف والقسط للمشركين من أقاربكم وغيرهم حيث كانوا بحال لم ينتصبوا لقتالكم في الدين والإخراج من دياركم، فليس عليكم جناح أن تَصِلوهم، فإن صِلَتَهم في هذه الحالة لا محذور فيها ولا تبعة، كما قال الله تعالى في الأبوين المشركين إذا كان ولدهما مسلمًا: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾ [لقمان: ١٥] [١].

هـ - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾:

أي العادلين[٢]. وفي الحديث النبويّ الشريف: أن رسول الله ﷺ قال: **«إنَّ المُقْسِطينَ عندَ الله على منابرَ من نورٍ عَن يَمينِ الرَّحمنِ عزّ وجلَّ، وكِلتا يَدَيهِ يَمينٌ، الذينَ يَعدِلُونَ في حُكمِهم وأهلِيهم وما وَلُوا»** [٣].

وعدّ النبي ﷺ في الحديث الصحيح الإمام العادل من الأصناف السبعة الذين يظلّهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه[٤].

ويرى الشيخ محمد متولي الشعراوي في قوله تعالى ﴿أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ﴾: أنَّ البرّ يرفع عنهم الحاجة، ﴿وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ﴾ يرفع عنهم مذلّة السؤال، وقال: ومعنى ﴿وَتُقۡسِطُوٓاْ﴾ مادة «قسط» في اللغة من الكلمات التي تدلُّ على الشيء ونقيضه، نقول: قسط يقسط قسطًا يعني عدل. ومنها قسط قسطًا وقسوطًا يعني ظلم وجار، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا﴾ [الجن: ١٥]، وفي قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾، ومُقسِط اسم فاعل من أقسط، والهمزة هنا همزة الإزالة، أي: أزال القسط أو الجور[٥].

---

(١) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٨١٦.
(٢) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٨/ ١٨٤).
(٣) صحيح مسلم، رقم (١٨٢٧).
(٤) صحيح البخاري (١٤٢٣) وصحيح مسلم، رقم (١٠٣١).
(٥) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (٢٤/ ١٥١٢٨).

ومن معاني ﴿وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ﴾: نقول «أقسط يعني جعل الشيء أقساطًا، أي أجزاء وليس جملة واحدة، والمعنى أعطوهم من أموالكم ما يكفيهم على هيئة أقساط كل شهر، ويرفع عنهم مذلة الحاجة والسؤال، لا تجعله يأتيك ويذلّ نفسه» [(١)].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ أي: يعطون الناس شيئًا من أموالهم دون سؤال، فالقسط هنا بمعنى الجزء من الشيء[(٢)].

وهذه الآية توضِّح الفرق بين المحارب وغيره، وأنَّ الولاء المنهيَّ عنه في الآية يُقصَد به المحاربون المعادون لكم، وتوضّح أيضًا الفرق بين المعاملة الحسنة الطيبة وبين الموالاة الممنوعة، فالله تعالى لا ينهى المسلمين عن الإحسان والبرّ والقسط للقبائل التي تميل للمسلمين ولا تحاربُهم ولا تُظاهِرُ عليهم، مثل خُزاعة ومُزينة وأسلم وجهينة وغفار، الذين كانوا مشركين، لكن هواهم مع الرسول ﷺ، وكانوا يُحبُّون أن ينتصر على قريش، فهؤلاء لا ينهاكم الله عنهم. وفي هذا درس لمن يجعلون الكفار في ميزان واحد في التعامل وهم ليسوا كذلك، فمنهم المعتدي المُبارِز بالعداوة والصدِّ عن سبيل الله، ومنهم المُسالِم المحايد، ومنهم المدافع عن حقوق المستضعفين من المسلمين.

وفي العصر الحاضر نجد من يكون متعاطفًا مع قضايا الإسلام، ويتحمل العناء بسبب وضوح آرائه ومدافعته عن الحق، فمثل هؤلاء يجب أن يُحتفى بهم، وتُمدَّ معهم الجسور ويكرَمون معنويًّا وماديًّا، ويُعامَلون بالخلق الحسن والكلام الطيب والصبر وحسن المعاملة والحفاوة والتقدير. كما أن للآباء مكانًا في البرِّ والإحسان كما مرّ معنا، وكذلك الزوجة الكتابية مع ما يقع بين الزوجين من المودة والرّحمة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةًۚ﴾ [الروم: ٢١].

وكما في قصة أبي طالب الذي أحبَّه النبيُّ ﷺ وحزن على موته، فأنزل الله

---

(١) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (٢٤/ ١٥١٢٩).
(٢) المرجع نفسه، (٢٤/ ١٥١٣٠).

قوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص: ٥٦]، ففرَّق بين الطائفتين، وشرع لغير المحاربين أمرين: البر: وهو الإحسان إليهم بالقول والفعل، والقسط: وهو العدل، وفي الآية حثّ عليهما: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ فالعدل قيمة مطلقة مع كل الناس(١).

٦ ـ قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾:

فمن وُجدت فيهم هذه الخصالُ الثلاثُ أو بعضُها: بأن قاتلوكم في الدين، أو أخرجوكم من دياركم، أو ظاهروا على إخراجكم، أي أعانوا على إخراجكم، فواحدة من هذه الجرائم تكفي لأن يكونوا محلَّ النفي والعداوة وتحريم البرّ والتولّي ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

وقد ادّعى بعضهم أن الآية منسوخة، والصحيح أنه ليس فيها نسخ، وأنكر الطبريُّ وعامةُ المفسرين دعوى النسخ؛ لأنَّ الآية متأخرة النزول، نزلت في السنة الثامنة للهجرة أو قريبًا من ذلك، ولم يأتِ بعدها ما ينسخها(٢).

أ ـ قول ابن قيّم الجوزية:

إنَّ الله سبحانه لما نهى في أول السورة عن اتخاذ المسلمين الكفارَ أولياء، وقطع المودة بينهم وبينهم، أي في سورة الممتحنة، توهّم بعضهم أن برّهم والإحسان إليهم من الموالاة والمودّة، فبيّن الله سبحانه أن ذلك ليس في الموالاة المنهيِّ عنها، وأنه لم يَنهَ عن ذلك، بل هو من الإحسان الذي يُحبُّه ويرضاه، وكتبه على كل شيء، وإنّما المنهيُّ عنه تولّي الكفار والإلقاء إليهم بالمودّة(٣).

---

(١) إشراقات قرآنية، سلمان العودة، مؤسسة الإسلام اليوم للنشر، السعودية، ط١، ١٩٧٠م، (٢/ ١١١).

(٢) المرجع نفسه، (٢/ ١١٢).

(٣) أحكام أهل الذمة، ابن قيّم الجوزية، تحقيق: يوسف بن أحمد البكري وشاكر بن توفيق=

ب ـ قول الشوكاني:

﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾، وهم صناديد الكفر من قريش ﴿وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ﴾ أي: عاونوا الذين قاتلوكم على ذلك، وهم سائر أهل مكة، من دخل معهم في عهدهم، وقوله: ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ بدل اشتمال من الموصول كما سلف، ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: الكاملون في الظلم؛ لأنّهم تولَّوا مَن يستحقُّ العداوة، لكونه عدوًّا لله تعالى ولرسوله الكريم ولكتابه[1].

ج ـ قول السعدي:

فإن كان تولِّيًا تامًّا كان ذلك كفرًا مُخرِجًا عن دائرة الإسلام، وتحت ذلك من المراتب ما هو غليظ وما هو دونه[2].

إنَّ الآيات الكريمة التي جاءت في سورة الممتحنة، بعد التعقيب على دعوة المسلمين للاقتداء بالأسوة الحسنة «إبراهيم عليه السَّلام ومن معه» في الولاء والبراء، تُمثِّل قاعدة في معاملة غير المسلمين، وتعدُّ أعدل القواعد التي تتفق مع طبيعة هذا الدين ووجهته ونظرته إلى الحياة الإنسانية، بل نظرته الكلية لهذا الوجود الصادر عن إله واحد، المتجه إلى إله واحد، المتعاون في تصميمه اللدني وتقديره الأزليّ، من وراء كل اختلاف وتنويع.

وهي أساس شريعته الدولية، التي تجعل حالة السلم بينه وبين الناس جميعًا هي الحالة الثابتة، لا يُغيِّرها إلا وقوع الاعتداء الحربي وضرورة ردّه، أو خوف الخيانة بعد المعاهدة، وهي تهديد بالاعتداء، أو الوقوف بالقوة في

= العاروري، رمادي للنشر، الدمام، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م، (٦٠٢/١).

(١) فتح القدير، الشوكاني، (٣٠٣/٥).

(٢) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٨١٦.

وجه حرية الدعوة وحرية الاعتقاد، وهو كذلك اعتداء. فيما عدا هذا، فهو السلم والمودة والبرّ والعدل للناس أجمعين[١].

ثم هي القاعدة التي تتفق مع التصوُّر الإسلامي الذي يجعل القضية بين المؤمنين ومخالفيهم هي قضية هذه العقيدة دون غيرها، ويجعل القيمة التي يضنّ بها المؤمن ويقاتل دونها هي قضية العقيدة وحدها، فليس بينهم وبين الناس ما يتخاصمون عليه ويتقاتلون، إلا حرية الدعوة، وحرية الاعتقاد، وتحقيق منهج الله في الأرض، وإعلاء كلمة الله.

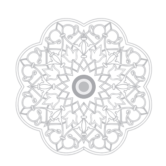
وهذا التوجيه يتفق مع اتجاه السورة ـ أي سورة الممتحنة ـ كلِّها إلى إبراز قيمة العقيدة، وجعلها الرايةَ الوحيدة التي يقف تحتها المسلمون، فمن وقف تحتها فهو منهم، ومن قاتلهم عليها فهو عدوُّهم، ومن سالمهم فتركهم لعقيدتهم ودعوتهم، ولم يصدّ الناس عنها، ولم يَحُلْ بينهم وبين سماعها، ولم يفتِنِ المؤمنين بها، فهو مُسالم لا يمنعُ الإسلامُ من البرّ به والقسط معه.

إنَّ المسلم يعيش في هذه الأرض لعقيدته، ويجعلها قضيته مع نفسه، ومع الناس من حوله، فلا خصومة على مصلحة، ولا جهاد في عصبية؛ أي عصبية من جنس أو أرض أو عشيرة أو نسب، إنَّما الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا، ولتكون عقيدته هي المنهج المُطبّق في الحياة[٢].

* * *

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٦/ ٣٥٤٥).
(٢) المرجع نفسه، (٦/ ٣٥٤٥).



المبحث الثالث

حوار إبراهيم عليه السَّلام مع الملائكة في طور شيخوخته والعيش الرغيد والبشرى بإسحاق ويعقوب، وإعلامه بهلاك قوم لوط في سورة هود، والحجر، والعنكبوت، والذاريات

أولاً: قصة إبراهيم عليه السَّلام وحواره مع الملائكة في سورة هود:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٦٩ ـ ٧٦].

احتفى القرآن الكريم بإبراهيم عليه السَّلام في طفولته وشبابه ورجولته، كذلك يستمرُّ الاحتفاء به في مرحلة شيخوخته في موطنه الجديد، وما أسبغ الله تعالى عليه من المال والإنعام والمنزلة والعالية عند الله تعالى، حيث تمرُّ به ملائكة الربِّ سبحانه مُبشِّرة مُخبِرة.

ولقد حكى القرآن الكريم تفاصيل قصة إبراهيم عليه السَّلام مع الملائكة في

أربع حلقات، تختلف في سياقها ونظمها، وما تتضمَّنه من وقائع وأحداث، وردت كلّها في سور مكية[١].

وجاءت حسب ترتيب المصحف الكريم؛ الأولى في سورة هود، والثانية في سورة الحجر، والثالثة في سورة العنكبوت، والرابعة في سورة الذاريات.

والمتأمل في هذه القصة ـ في جميع حلقاتها ـ يجد أن الحوار فيها يرسم شخصية إبراهيم عليه السَّلام في هذه المرحلة المتأخرة من حياته بأسلوب حواري ممتع، ينبض بالحياة، ويمور بالحركة، ويتَّسم بالواقعية، وهذا يدلُّ على ثراء الجانب الحواري في هذا النوع من القصص، كما يؤكد تنوُّع مصادر الحوار وموضوعاته في القرآن الكريم[٢].

١ ـ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩]:

أ ـ ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾:

الواو: واو لعطف قصة على قصة أو للاستئناف.

واللام: هي الموطئة للقسم، وقد: للتحقيق، وخاصّة إذا دخلت على الماضي، وهي كذلك هنا.

والمجيء: القدوم من قريب، والإتيان: القدوم من بعيد، والملائكة أو الرسل التي جاءت إبراهيم جاءت من بعيد، فلمَ عبَّر بالفعل المفيد القرب وهو «جاءت»؟ لأنَّ البعيد في مقياسنا قريب في مقياس الله تعالى، وهل كانت الرسل مَلَكًا واحدًا أم مجموعة من الملائكة؟[٣].

---

(١) صناعة الحوار، حمد عبد الله السيف، ص١٦٥.
(٢) المرجع نفسه، ص١٦٦.
(٣) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص٢٥٧.

وتدلنا كلمة ﴿رُسُلُنَآ﴾ أنهم كانوا ثلاثة فأكثر[(١)]، وهناك خلاف بين العلماء في العدد، والمراد بـ﴿رُسُلُنَآ﴾ الملائكة: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥] [(٢)].

والملائكة خلق من مخلوقات الله تعالى، بل هي من المخلوقات العظيمة، ولقد كثر ذكر الملائكة في القرآن الكريم، ووجب علينا الإيمان بهم، وهذا ركن من أركان الإيمان الستة. والملائكة أجسام لطيفة، أُعطيت القدرة على التشكُّل بأشكال مختلفة، خُلقت من نور، وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمَرون، لهم وظائف مُتعدِّدة أمرهم الله بالقيام بها.

وذكر القرآن الكريم صفاتٍ اتَّصفت بها الملائكة، فمنها الخَلقية كالأجنحة العظيمة، فمنهم من يملك جناحين أو ثلاثة أو أربعة، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١].

وكذلك أنهم لا يوصفون بالذكورة ولا الأنوثة، وأنهم لا يأكلون ولا يشربون. ومن الصفات الخُلقية: الاستحياء[(٣)]، فقد قال رسول الله ﷺ: «**ألا أستحي من رجل تَستحي منه الملائكةُ؟!**»[(٤)].

وتمثَّلت صفات الملائكة التي اقترنت بقصة إبراهيم عليه السَّلام في ثلاث صفات، ألا وهي:

---

(١) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٤/ ٧٥).

(٢) المرجع نفسه، (٤/ ٧٥).

(٣) المسائل العقدية في حوارات إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم، تهاني إبراهيم عبد الرحمن، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة النيلين، الخرطوم، السودان، ١٤٣٩هـ ـ ٢٠١٨م، ص٦٦.

(٤) صحيح مسلم، رقم (٢٤٠١).

القدرة على التشكّل:

لقد خلق الله الملائكة من نور، ومنحهم القدرة على التشكّل بأي هيئة، وهذا يظهر جليًّا في مجيء الملائكة لإبراهيم على هيئة بشر، ولم يعرفهم عليه السَّلام في بداية الأمر، فقد أتت على صورة بشر، فنكِرَهم حين قدّم لهم الطعام فلم يأكلوا منه، فكشفت الملائكة عن حقيقة الأمر، كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى.

لا يأكلون ولا يشربون:

من صفات الملائكة أنّها لا تأكل، كما أخبر الله تعالى عنهم في معرض حوار الملائكة وإبراهيم عليه السَّلام، فإنه قدّم لهم من الطعام العجل الحنيذ، فلم تصل أيديهم إليه، واتّفق العلماء على أن الملائكة لا تأكل ولا تشرب[١].

وظائف الملائكة:

ولا ننسى أن للملائكة وظائف عدة نطق بها القرآن الكريم والسنة، ومن الوظائف التي وردت في قصة إبراهيم عليه السَّلام: تقديم البشارة، وإرسال العذاب، ونصرتهم لعباد الله المؤمنين، كما سيأتي بيانه في محلِّه بإذن الله تعالى.

وفي قوله ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾: هذا الرسول العظيم خليل الله، وثاني أعظم رسل الله بعد خاتم النبيين، وهو أبو الأنبياء، فهو عظيم المنزلة عند الله، وعند الأمم كلها[٢]. و﴿بِٱلْبُشْرَىٰ﴾: الباء متعلقة بجاءت، والبشرى الخبر السارّ الذي يكون في المستقبل قريبًا أم بعيدًا، والباء: للمصاحبة؛ لأنّهم جاؤوا لأجل البشرى، فهي مصاحبة لهم كمصاحبة الرسالة للمرسَل بها[٣].

وقال الشنقيطي: لم يبين هنا ما المراد بهذه البشرى التي جاءت بها رسل الملائكة إبراهيم، ولكنه أشار بعد هذا إلى البشارة بإسحاق ويعقوب، في قوله

---

(١) المسائل العقدية في حوارات إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم، ص٦٨.
(٢) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص٢٥٧.
(٣) المرجع نفسه، ص٢٥٧.

تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ [هود: ٧١]؛ لأنَّ البشارة بالذُّرِّية الطيبة شاملة للأم والأب، كما يدلُّ على ذلك قوله تعالى ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢]، وقوله تعالى ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ [الذاريات: ٢٨]، وقوله تعالى ﴿قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ [الحجر: ٥٣][(١)].

وقيل: البشرى هي إخبارهم له بأنهم أُرسلوا لإهلاك قوم لوط، كقوله هنا في السورة ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ﴾ [هود: ٧٠]، وقوله ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ۝٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الحجر: ٥٨ ـ ٥٩]، وقوله تعالى ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ۝٣٢ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ﴾ [الذاريات: ٣٢ ـ ٣٣]، وقوله تعالى ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١]، والظاهر القول الأول، وهذه الآية الأخيرة تدلّ عليه؛ لأنَّ فيها التصريح بأن إخبارهم بإهلاك قوم لوط بعد مجيئهم بالبشرى؛ لأنّه مُرتَّب عليه بأداة الشرط التي هي ﴿وَلَمَّا﴾ كما ترى[(٢)].

ب ـ ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ﴾:

أي: سلَّموا عليه، وردّ عليهم السَّلام، ففي هذا مشروعية السَّلام، وأنه لم يزل من مِلَّة إبراهيم عليه السَّلام، وأنّ السَّلام قبل الكلام، وأنه ينبغي أن يكون الردّ أبلغ من الابتداء؛ لأنّ سلامهم بالجملة الفعلية الدالة على التجدُّد، وردّه بالجملة الاسمية الدّالة على الثبوت والاستمرار، وبينهما فرق كبير كما هو معلوم في علم اللغة[(٣)].

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، (٣/ ٢٩ ـ ٣٠).
(٢) المرجع نفسه، (٣/ ٢٩ ـ ٣٠).
(٣) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص٧٥٨.

والله تعالى يقول في كتابه: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ [النساء: ٨٦]، وهكذا استقبل إبراهيم عليه السَّلام رسل الله عزّ وجل، والآية تدلُّ على أن السَّلام هو تحية الإسلام، وهو تحية الملائكة أيضًا، وكذلك أخبر الله أنّها تحيتهم لعباده المؤمنين في الآخرة في آيات عديدة من كتابه العزيز، كقوله في سورة الرعد ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٣ ـ ٢٤]، وكقوله في سورة الزمر أيضًا ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣] [(١)].

ج ـ ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾:

والعجل هو ولد البقر[(٢)]، فلم يمكث إبراهيم عليه السَّلام طويلاً حتى جاءهم بعجل مشويّ، وقد عبَّر عن العجل في سورة الذاريات بقوله تعالى ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ فهو سمين وهو حنيذ[(٣)].

والحنيذ: المشويُّ على حجارة محماة في حفرة من الأرض، وهو من صنيع أهل البادية، يُقال: حَنذ الشاة يحنذها حنذًا، شواها بهذه الطريقة، فهي حنيذ[(٤)].

إنَّ تقديم إبراهيم عليه السَّلام عجلاً مشويًا ناضجًا لهم فور دخولهم عليه، دليل على كرمه، ومبالغة في إكرامه لهم، فكان يكفيه أن يُقدِّم لهم شيئًا من اللحم أو يقدم لهم خروفًا، أما أن يُقدِّم لهم عجلاً فهذا لا يصدر إلا عن رجل كريم[(٥)].

---

(١) القصص القرآني بين الآباء والأبناء، عماد زهير حافظ، ص١٣٦.
(٢) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١١/ ٦٥٥).
(٣) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص٢٥٨.
(٤) المرجع نفسه، ص٢٥٨.
(٥) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٤١٩).

والضيافة من مكارم الأخلاق، ومن آداب الإسلام، ومن خُلق الرسل والنبيين والصالحين(١).

وقال ابن كثير: وقد تضمنت هذه الآية آداب الضيافة من وجوه كثيرة(٢)، منها:

* من الضيافة حسن استقبال الضيف.

* المبادرة إلى إعداد الطعام دون أن يسألهم عن شأنهم.

* والتعبير ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ﴾ يدلُّ على سرعة مبادرة الخليل إبراهيم عليه السَّلام إلى إعداد الطعام لضيوفه الكرام.

* إعداد الطعام استغرق وقتًا قصيرًا، رغم أن الطعام الذي أعدَّه وقدَّمه هو عجل سمين لذيذ حنيذ مشويّ على الحجارة المحماة، وفي هذا ما يدلُّ على إكرام إبراهيم عليه السَّلام لضيوفه وحفاوته بهم، حيث قدَّم لهم أفضل ما عنده(٣).

ولذلك سُمّي إبراهيم عليه السَّلام «أبو الضيفان»، فهو أول من أضاف الضيف؛ وذاعتْ شهرتُه بالكرم، ومن كرمه: يأتي الطعام الكثير للعدد القليل، وهذا الكرم ليس من الإسراف، فالطعام الزائد يُؤكل من أهل البيت، أو يُوزَّع على الفقراء(٤).

ومن أدب الضيافة: تقريب الطعام إلى الضيوف، والملاطفة في الكلام، كقوله في سورة الذاريات ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٧] (٥).

---

(١) شرعة الله للأنبياء، محمد مصطفى الزحيلي، ص١٧٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، (٤/ ٢٦٤).

(٣) المرأة في القصص القرآني، أحمد الشرقاوي، دار السلام للطباعة، القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م، (١/ ١٦٢).

(٤) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص٢٥٨.

(٥) الأحاديث الصحيحة من أخبار وقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، إبراهيم محمد العلي، ص٦٤.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠]:

إنَّ الارتباط ظاهر ووثيق بين الآية السابقة التي فيها أحضر إبراهيم الطعام لضيوفه وبين هذه التي فيها لم يمدّ الضيوف أيديَهم إلى الطعام، فتوجَّس منهم إبراهيم عليه السَّلام خوفًا.

أ ـ ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾:

فلمّا: فاء التعقيب متصلة بـ «لمّا» المقيدة تفيدان المسارعة في حدوث أمر ما، وهنا لمّا رأى أيديَ الضيوف، وهو لا يعلم أنهم ملائكة، رآها لا تمتدّ إلى الطعام، وعبّر بـ ﴿لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ عوضًا عن لا تمتدّ، فهي لن تصل إذا لم تمتدّ، ولعلِّي ألمح أن تعبير لا تصل، يفيد تقريب الطعام الدالّ على الإكرام بحيث لا يحتاج الضيف إلى مدّ يده، وإنما هي من المفروض أنّها واصلة إلى الطعام؛ لقربه أو شدة قربه أعني قرب القِرى، ومعنى ﴿نَكِرَهُمْ﴾ إما استنكر فِعلهم، أو شعر بوحشة مِن فِعلهم، أو شعر بغرابة سلوكهم، فالضيف الذي لا يتناول طعام المضيف أمرُه غير مريح بل مُخيف[١].

ولأنَّ من تقاليد أهل البدو وأهل الريف أنّهم يتحرجون من خيانة من أكلوا معه طعامًا، فإذا امتنعوا عن طعام أحد، فمعنى هذا أنهم ينوون به شرًّا، أو أنهم لا يثقون في نياته لهم[٢]، ولذا قال بعده:

ب ـ ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾:

أي شعر منهم أو نحوهم بشيء من الخوف والتحسُّب والظنِّ والتوجُّس[٣].

---

(١) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص٢٦٠.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٤/ ١٩١٢).

(٣) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص٢٦٠.

ج ـ ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡ﴾:

لاحظ الضّيوف تخوُّف إبراهيم عليه السَّلام منهم، فأرادوا طمأنتَه، فأخبروه عن طبيعتهم ليطمئن، إنّهم لم يأكلوا عنده لأنهم ملائكة، والملائكة لا يأكلون الطعام، فلا يفزع ولا يهوله شيء[١].

د ـ ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ﴾:

﴿إِنَّآ﴾: توكيد من شأنه أن يُذهبَ الرَّوعَ عن إبراهيم، ويُزيلَ التوجُّسَ والخوف من توقُّع نية السوء من قبل هؤلاء نحوه.

﴿أُرۡسِلۡنَآ﴾: أصل الإرسال: الإطلاق، وهو دون البعث في القوة فيما أرى، وغايتنا أعني قوم لوط[٢].

﴿إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ﴾: إلى للغاية؛ أي هم وجهتنا وغايتنا، قوم لوط المنحرفين الكافرين لإهلاكهم ودمارهم[٣].

الدروس والفوائد في الآية الكريمة:

* دقّة التعبير في قوله تعالى ﴿لَا تَصِلُ﴾ بدل لا تمتدّ.

* كل كلمة لها معنى وإيحاء وظلال وإيماءات، هذا هو القرآن الكريم.

* الرسل بشر يعتريهم ما يعتري البشر من خوف وحزن وألم.

* حسب تقاليد البدو، فإن الذي لا يأكل الطعام عند مضيفه أمره مريب، أو أنه يريد شرًّا، أو أنه لا يثق بنيَّة مضيفه[٤].

هذه القصة وقعت بعد هجرة إبراهيم عليه السَّلام من أرض الكلدانيين

(١) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٤٢٠).
(٢) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص٢٦٠.
(٣) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٤٢٠).
(٤) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص٢٥٩.

مسقط رأسه في العراق، وإقامته في أرض كنعان في الأرض التي بارك الله فيها للعالمين.

٣ ـ قوله تعالى ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]:

ما زلنا في مشهد ضيوف إبراهيم من الملائكة، وفي هذه الآية يتحدَّث عن امرأة النبي الكريم، وهي قائمة لخدمة الضيوف مع زوجها الرسول عليه السَّلام، فالصّلة عروة وثقى(١).

أ ـ ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾:

الواو عاطفة أو استئنافية، والجملة مبتدأ وخبره.

و﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾: أي امرأة النبي الكريم إبراهيم عليه السَّلام، وعبّر بالمرأة دون لفظ الزوج، لأن المقام لا يقتضي إلا بيان موقف معيَّن، خدمة الضيوف، وهذا أنسب له التعبير الذي ذكره النص الكريم(٢).

و﴿قَآئِمَةٌ﴾: واقفة على خدمة زوجها وضيوفه(٣)، قال ابن الجوزي: واختلفوا أين كانت قائمة على ثلاثة أقوال:

ـ **أحدها**: وراء الستر تسمع كلامهم، قاله وهب.

ـ **والثاني**: كانت قائمة تخدمهم، قاله مجاهد والسديّ.

ـ **والثالث**: كانت قائمة تُصلِّي، قاله محمد بن إسحاق(٤).

﴿فَضَحِكَتْ﴾: الفاء تفريعية، وضحكت بمعنى تبسَّمت تبسُّم الضحك، وإنما ضحكت للخبر العظيم الذي يُفرِح قلبَ كلِّ مؤمن بهلاك الظالمين والمجرمين(٥).

---

(١) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص٢٦٢.
(٢) المرجع نفسه، ص٢٦٢.
(٣) المرجع نفسه، ص٢٦٢.
(٤) التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، (١٥/٢٦٩).
(٥) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص٢٦٢.

وذكر أبو جعفر الطبري سبب ضحك سارة زوج إبراهيم عليه السَّلام، ولخَّص أقوال العلماء، ثم رجع بعد ذلك فقال: ضحكت تعجُّبًا من أنّها وزوجها يخدمان ضيفانهم بأنفسهما؛ تكرمةً لهم، وهم عن طعامهم ممسكون لا يأكلون.

وقال آخرون: بل ضحكت تعجُّبًا من قوم لوط عليه السَّلام من الغفلة، ومما أتاهم من العذاب.

وقال آخرون: بل ضحكت لما رأت ما بزوجها إبراهيم من الرَّوع.

وقال آخرون: بل ضحكت حين بُشرت بإسحاق تعجُّبًا من أن يكون لها ولد على كبر سنها، وسن زوجها.

وقال آخرون: بل ضحكت سرورًا بالأمن منهم لمّا قالوا لإبراهيم: ﴿ لَا تَخَفۡ﴾، وذلك أنه قد كان خافهم، وخافتهم هي أيضًا كما خافهم إبراهيم، فلما أمنت ضحكت، فأتبعوها بالبشارة بإسحاق.

ويقول الطبري: وأَولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال ﴿فَضَحِكَتۡ﴾: فعجبت من غفلة قوم لوط عمّا أحاط بهم من عذاب الله وغفلتهم عنه، ثم يقول الطبري: إنَّما قلنا هذا القول أَولى بالصواب؛ لأنّه ذُكر عقيب قولهم لإبراهيم عليه السَّلام: ﴿ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٍ﴾ فإذا كان ذلك كذلك، وكان لا وجه للضحك والتعجُّب من قولهم لإبراهيم ﴿ لَا تَخَفۡ﴾ كان الضحك والتعجُّب إنما هو من أمر قوم لوط[١].

وقال ابن عاشور: ضحكت سارة من تبشير الملائكة لإبراهيم عليه السَّلام، وكان ضحكها ضحك تعجُّب واستبعاد[٢].

وقال الخالدي: كانت امرأة إبراهيم سارة رضي الله عنها واقفة قائمة على

---

(١) تفسير الطبري «جامع البيان في تأويل القرآن»، (١٥/ ٣٩٠ ـ ٣٩٤).
(٢) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (١٢/ ١١٩).

خدمة ضيوف زوجها، والترحيب بهم، واطمأنت لمّا علمت أنهم ملائكة، ولمّا سمعت بمهمّتهم في إهلاك قوم لوط ضحكت، وسُرَّت بذلك.

إنَّها تعلم من هم قوم لوط، وتسمع عن كفرهم وضلالهم، وتسمع عن انحرافهم وشذوذهم، وتسمع عن إتيانهم الرجال وارتكابهم اللواط، وكم ساءها ذلك منهم، وكم تمنَّت تدميرهم وتعذيبهم وهلاكهم، والآن حلَّ بهم أمر الله تعالى، وها هي الملائكة في طريقها إليهم لإهلاكهم، وبعد قليل سيُدمَّرون، لذلك ضحكت سارة العجوز العقيم المؤمنة، وفرحت وسُرَّت بذلك، فضحكها ضحك حقيقي، يقوم على الفرح والسرور.

ولا نورد هنا الأقوال السخيفة التي تحمل الضحك على الحيض، ولا نناقش القول المتهافت الذي يقول: إنَّ ضحك سارة هو حيضها، وهي واقفة، ومجيء العادة الشهرية لها بعدما بلغت سِنَّ اليأس، فهذا لا يستحقُّ مناقشتَه، وإظهارَ بطلانه[1].

ب ـ ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾:

﴿فَبَشَّرْنَٰهَا﴾: هي ضحكت لبشرى، فأردفتها الملائكة ببشرى أخرى وهي الولد، وسمّاه السّياق الكريم وليس فقط بَشَّرَ به: ﴿بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾، فالملائكة إذن بشَّرت امرأة إبراهيم بولد، وذكرت اسمه أنه مُسمَّى بهذا الاسم من عند الله: إسحاق[2]، ومعنى إسحاق «الضاحك» بالعبرية، أو الذي يضحك[3].

وبشَّرَتْها الثالثة ضمن البشرى الثانية، وهي أن هذا المُبشَّر به سيُولد له مُبشَّر

---

(١) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٤٢١).
(٢) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص٢٦٣.
(٣) موسوعة نساء الأنبياء (أمهات وزوجات وبنات الأنبياء من آدم إلى الرسول ﷺ)، إسماعيل حامد، مكتبة النافذة، الجيزة، مصر، ط١، ٢٠١١م، ص٦٩.

به أيضًا وهو يعقوب عليه السَّلام، ووراء بمعنى عقب، وهو يعقوب الذي جاء عقب إسحاق، والذي سيُعقب الأسباط الذين سيكونون شعب بني إسرائيل، فهو يعقوب بمعنى الكلمة[١].

قال ابن كثير في الآية ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ أي: بولد لها يكون له ولد وعقب ونسل، فإن يعقوب وَلَدُ إسحاق، كما قال في آية البقرة ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

ومن هنا نستدل بهذه الآية على أن الذبيح إنما هو إسماعيل عليه السَّلام، وأنه يمتنع أن يكون إسحاق؛ لأنَّه وقعت البشارة به، وأنه سيولد له يعقوب الموعود بوجوده، ووعد الله حقٌّ لا خُلف فيه، فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه، فتعيَّن أن يكون هو إسماعيل، وهذا من أحسن الاستدلال وأصحِّه وأبينِه، ولله الحمد[٢].

وقد بيّنت الآية أن الملائكة لم تُبشِّر سارة ـ عليها السَّلام ـ بالولد فحسب، بل بشرتها بولد الولد، أي بالأحفاد، وهذا عزّ الكرم وغاية المنح ودليل الجود؛ لأنَّ الذي هو أعزّ من الولد هو ولد الولد، كما يقول الناس في المثل السائر[٣].

ويعدُّ إسحاق عليه السَّلام من بين الأنبياء الذين اختار لهم ربُّنا تعالى أسماءهم، وكما جاء هذا النبي كطفل في سن كبيرة، وكان مع تقدُّم أبويه في هذه السن من الاستحالة أن ينجباه، لولا تدخل قدرة الله المطلقة، ورحمته الواسعة، ومشيئته النافذة، وحكمته البالغة، ليس هذا فقط، بل إنَّ الله تعالى قد

(١) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص٢٦٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، (٤/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦).
(٣) ملة أبيكم إبراهيم، عبد الستار كريم المرسومي، ص٩٦.

وصف نبيَّه إسحاق بأنه غلام عليم، وأنه سوف يكون نبيًّا من الصالحين[١].

إنَّ نبيّ الله إسحاق عليه السَّلام جاء بمعجزة إلهية، حيث ولدته أمه وهي عجوز عقيم، وجعل في ذُريّته أنبياء بني إسرائيل، وله الفضل ولابنه يعقوب بعد الله تعالى في وجود الأمة اليهودية وبني إسرائيل، ومع ذلك قد نال هؤلاء القومُ الظالمون منهما، حيث أنزلاهما منازل سيئة ومشبوهة فيما قالوا، وكتبوا عنهما في التوراة المزوَّرة، بل وشمل هذا التزوير والافتراء على الله تعالى معظم أنبياء بني إسرائيل أو كلّهم، وللأسف، فإن من لم يشمله هذا التزوير والتقوّل عليه بالأكاذيب ناله التعذيب والقتل[٢].

وقد أشار القرآن الكريم إلى تلك الأفعال المشينة من جانب بني إسرائيل تجاه أنبيائهم، مع أن الله تعالى قد كرّم هؤلاء الأنبياء، ووصفهم وصفًا حميدًا، كما أثنى عليهم وعلى ما قاموا به من مهام تجاه قومهم من بني إسرائيل؛ لأجل هدايتهم وإعادتهم إلى الصراط المستقيم، ومن بين هؤلاء الذين حدثَنا عنهم كتاب الله: إسحاق ويعقوب عليهما السَّلام[٣].

٤ ـ قال تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: ٧٢]:

بُشِّرت امرأة إبراهيم عليه السَّلام بالولد في الآية السابقة، وتُسجِّل هذه الآية ردّ فعلها على تلك البشرى، المتمثِّل بالاندهاش والاستغراب.

أ ـ ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾:

قالت امرأة إبراهيم معبِّرةً عن استغرابها ودهشتها ومفاجأتها ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾:

(١) ثمانون شخصية مشهورة في القرآن الكريم، حنفي المحلاوي، دار النشر للجامعات، ٢٠١٣م، ص٦٥.
(٢) المرجع نفسه، ص٦٥.
(٣) المرجع نفسه، ص٦٥.

يا للنداء، والمنادى: الويل مضاف إلى ياء المتكلم، وزيدت التاء للتقوية، وتحولت الياء إلى ألف مقصورة: يا ويلتى، فكأنها تُنادي الويل للحضور، وهو تعبير غير مقصود معناه حرفيًّا، وإنما هو تعبير عن منتهى التعجيب والاستغراب[١].

﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾: كلمة تُستعمل عند وقوع الداهية العظيمة، والمراد بها التعجُّب لا الدعاء، وقد جاءت في سياق النداء، وكأنها تتصوَّر الويلَ غير حاضر فنادته كالذي يعقل، وذلك على سبيل الاستعارة المكنيَّة، لقد صوَّرت الآية الكريمة دهشتها وتعجُّبها الشديدَيْن من وقوع هذه المفاجأة، وذلك من خلال أسلوب الندبة في ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾[٢].

ب ـ ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾:

الهمزة الأولى للاستفهام التعجُّبِيِّ أو الإنكاري ثم الفعل «ألد»، فمقتضى البشرى بالولد أن تحمل وأن تلد، وهذا في عُرفِ البشر غير مألوف ولا معهود ولا متوقَّع، ومن هنا جاءت الدهشة، وجمع همزتين متتاليتين وصعوبة نطقهما؛ لتدلِّلَ بجمعها على معناها من صعوبة تصوُّر الموقف.

﴿وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾: الواو للحال، والمبتدأ والخبر بعدها في محل نصب حال، ومَن يدخل تحت هذا الوصف هو كبير السنّ، لكن بلا تحديد سِنٍّ معيَّنٍ، فهل هو من سنِّ الستين مثلاً أو قبلها أو ما بعدها، هذا يُحدِّده العُرف أكثر مما تحدِّده اللغة، لكنَّ اللغة وضعته للكبير والكبيرة كالشيخ[٣].

ج ـ ﴿وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾:

الواو للحال أو للعطف، وهذا اسم إشارة للقريب لتعيينه، واستعمال لفظ ﴿بَعْلِى﴾ دون زوجي فيه دقّة شديدة؛ لأنّ البعل هو الذي يقوم بأمر المبعول

---

(١) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص٣٦٥.
(٢) صناعة الحوار، حمد عبد الله السيف، ص٣٤٩.
(٣) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص٣٦٥.

ولا يحوجه لأحد، فالبعل هو الزوج الذي يقوم على أمر زوجته، فلا يحوجها إلى غيره في أي شيء من الأشياء[١].

و﴿شَيْخًا﴾: حال أو الجملة كلُّها في موضع حال، والشيخ الكبير السنّ دون تعيين، وللعرف الاجتماعي واللغوي دوره في تعيين السن وتحديده[٢].

ويقال: إنّها كانت في سنِّ التسعين، وكان إبراهيم عليه السَّلام في سنِّ المئة والعشرين، والله أعلم[٣].

د ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾:

إنَّ: للتوكيد، وللإشارة إلى غرابة الأمر ووقعِهِ عليها، هذا: للمرة الثانية بعد ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي﴾؛ لتعيين الشيء المتحدَّث عنه واستحضاره بتمامه، وفيه قبل أن نصل إلى كلمة عجيب فيه رائحة التعجُّب[٤].

﴿لَشَيْءٌ﴾: اللام لمزيد التأكيد، فتأمَّلْ كيف شُحِنَ النصّ بالمؤكِّدات على قصره؛ لتوكيد غرابة الأمر وعجيب الشأن، وكلمة شيء مطلقة عامة تُطلَق على كل شيء، حتى الأشياء المعنوية مثل هذا الأمر.

﴿عَجِيبٌ﴾: مُتعجَّب منه، مُستَغرَب وبعيد في التصوُّر ومُوغِل في الغرابة[٥].

الدروس والفوائد في الآية الكريمة:

* العجيب كيف ينقل النصُّ القرآني على محدودية عدد كلماته انفعالات الأشخاص، وكيف يغوصُ في أعماقهم؛ ليرصد أدقّ خلجاتهم، هذا هو

---

(١) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١١/ ٦٥٦٣).
(٢) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص٣٦٦.
(٣) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٤/ ٧٨).
(٤) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص٢٦٦.
(٥) المرجع نفسه، ص٢٦٧.

الإعجاز القرآني، أو الإعجاز النفسي في القرآن الكريم إن شئت تحديدًا، أو رُمْتَ تعيينًا.

* السنن الكونية جعلها الله ليضبط الناسُ شؤونَهم ولا يبنوها على الخوارق، أما هو سبحانه فإنه متى شاء خرق هذه السنن لمن شاء؛ ليعلم الناس أن للكون إلهًا، وليست قوانين تسير وحدها، وخَرْقُ السُّنن يُؤيِّد إيمان المؤمنين بالخالق العظيم، ويجعلهم يتوكلون عليه.

* أسباب عدم الإنجاب في حالة إبراهيم وزوجه كاملة، وليست من طرف واحد، ولكن الله لا يُعجزه شيء.

* بين الفينة والأخرى يري اللهُ الناسَ آياته، ويكسر رتابة الحياة والإيقاع المألوف للأشياء؛ ليخرجوا من قوقعة الإلف الذي يقتل الدهشة، فكم جميل أن تعود لنا مشاعر الدهشة بالأشياء والانفعال بها[(١)].

* قال ابن كثير: حكى قولها في هذه الآية ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ كما حكى فعلها في الآية الأخرى ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: ٢٩]، كما جرت به عادة النساء في أقوالهنَّ وأفعالهن عند التعجُّب[(٢)].

* وقال الرازي: أنّها إنما تعجَّبت بحسب العرف والعادة لا بحسب القدرة، فإن الرجل المسلم لو أخبره مخبر صادق بأن الله تعالى يقلب هذا الجبل ذهبًا إبريزًا، فلا شكَّ في أنه يتعجب نظرًا إلى أحوال العادة؛ لا لأجل أنه استنكر قدرة الله تعالى على ذلك[(٣)].

* وقال الآلوسي: ومقصدها كما قيل: استعظام نعمة الله تعالى عليها في ضمن الاستعجال العادي، لا استبعاد ذلك من حيث القدرة[(٤)].

---

(١) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص٣٦٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، (٤/ ٢٦٦).

(٣) التفسير الكبير مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، (١٨/ ٢٩).

(٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الآلوسي، (١٢/ ١٠٠).

٥ ـ **قوله تعالى** ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾ [هود: ٧٣]:

نجد تمام الاتِّصال وكمال الاتِّساق بين هذه الآية وسابقتها، فهناك تعجبت امرأة إبراهيم من أن تنجب، فيما يبدو أنه محال أو أقرب إلى الخيال، وهنا تردّ الملائكة على السؤال (أألد) وعلى قولها: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ﴾ فيقولون: ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾؟! فلا محلَّ للعجب.

أ ـ ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾:

﴿ قَالُوٓاْ﴾: أي الملائكة، والضمير للجميع كما هو للواحد، ويبدو أنهم جمع، لكنّا لا نعلم كم هذا الجمع، أثلاثة أم فوق هذا العدد؟ وليس من شأن القرآن أن يدخل فيما لا جدوى من تفصيله، وإنما قلتُ هذا لأؤكِّدَ المؤكَّد[1].

﴿ أَتَعۡجَبِينَ﴾: رَدُّوا على همزة الاستفهام ﴿ ءَأَلِدُ﴾ بهمزة استفهام: ﴿ أَتَعۡجَبِينَ﴾ هل تعجبين يا زوج النبي الكريم، وهل تستغربين، وأنت في بيت يتلقَّى صاحبُه الوحي من الله، ويأتيه الأمر من الله، وهو موصول كل لحظة من لحظاته بالله؟!

﴿ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾: هذا المستعجَب منه والمُتعجَّب من شأنه، أمر من أمر الله، ولا عجيب على الله، ولا غريب على قدرته، وحرف الجر ﴿ مِنۡ﴾ متعلِّق بالفعل قبله.

﴿ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾: شأنه سبحانه، وكل أمر هو من أمر الله، أي بأمره وإذنه سبحانه: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

فالأمر لفظ عام يطلق على ما لا يُحصى من الأمور، وأضاف الأمر إلى الله لتعظيم شأنه، فالشيء يعظم بالانتساب للعظيم، كما في نحو: كتاب الله، ورسول الله، وبيت الله[2].

---

(١) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص٢٦٨.
(٢) المرجع نفسه، ص٢٦٩.

ب ـ ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ﴾:

﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ ﴾: فما الفرق بين رحمت الله ورحمة الله؟ الفرق بينهما: أن الرّحمة التي تأتي فيها التاء مفتوحة أو مبسوطة «رحمت الله» مفادها أنّها رحمة بُسطت بعد قبضها وأتت بعد شدة، ودائمًا تكون مضافة مباشرة للفظ الجلالة عزّ وجل، مثال: بعد مرور السنين الطويلة وتجاوز الزوجة للسنّ التي يُمكن فيها أن تحمل وتلد وتعطي الذُّرّية، تأتي البشرى لإبراهيم عليه الصلاة والسلام وزوجه، قال تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾: فتح بعد قبض.

وتأتي كذلك استجابة لدعاء زكريا عليه السَّلام بطلب الولد، قال تعالى: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴾، ثم تأتي بعدها قصة وهب الله يحيى لزكريا عليهما السلام، فتح بعد قبض. وأيضًا قال تعالى: ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾، فتح بعد قبض، وتدلُّ أيضًا التاء المبسوطة على اتساع رحمة الله عزّ وجل ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [١].

أما الرّحمة التي تأتي فيها التاء مربوطة، فهي رحمة مرجوّة لم تُفتح للسائل بعدُ، فالعابد: القانت الساجد آناء الليل يرجو رحمة ربّه في الآخرة، ألا وهي الجنة، التي هي مقفلة دونه في الحياة الدنيا، وستُفتح له يوم القيامة إن شاء الله، قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ هي رحمة مرجوّة، وفي قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ هي رحمة موعود بها.

وأُضيفت رحمت في آية ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ ﴾ إلى لفظ الجلالة لتعظيم شأنها،

---

(١) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص٢٦٩.

وفي هذه الآية ﴿أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ ثلاث كلمات مضافة إلى لفظ الجلالة أو الضمير العائد إليه، وأما الأولى والثانية فقد تفوَّقت فيهما سورة هود، وأما الثالثة فانفردت بها هذه السورةُ، فتأمَّلْ[1].

﴿وَبَرَكَٰتُهُۥ﴾: أُضيفت البركات إلى لفظ الجلالة كذلك، ولم ترد ـ كما مرّ ـ في القرآن إلا هنا، أعني مضافة، ووردت بركات في هذه السورة قبل آيات البركة والخير الكثير، وهي مفهوم كبير قد لا يفهمه المادِّيُّ والملحد والحسابيُّ، أعني مَن يحسب الأشياء بالأرقام، ويتعامل مع حدود الفيزياء، فأنّى يفهم معنى البركات، وما درى أن الله يصرف من البلاء والمرض وتلف الأشياء والحوادث ويبارك في الرزق، وكم من أناس دَخْلُهم ألوف ولا يكفيهم، وأناس يعيشون سعداء ومستورين بالقليل!

وكيف تعيش بلدان فقيرة بالأمطار نسبيًا في بلاد الشام، بل إن ثمراتها أطيب الثمرات؛ لأنّها أرض مباركة؟!

وعلى كل حال هذا مفهوم إيمانيٌّ، فمن كان لا يؤمن فلا يتمحَّلْ، ولا يحرمِ المؤمنَ من إيمانه واعتقاده وراحة باله، فليظلَّ هو في أرقامه وحساباته وآلاته التي تساعده على الحساب ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ﴾، هذا شأن البشر وشأن الدنيا ومن عليها، فلا نتجادل في الكلام ولا نتزيَّد في الخصام، وليمضِ كلٌّ في سبيل[2].

﴿عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾؛ أي رحماته تعالى متتابعة عليكم وخيراته النامية المتكاثرة عليكم يا أهل البيت، والمراد به بيت النبوَّة، البيت المفرد العلم، معدن النبوَّة، وموضع الرسالة، الذي تفرَّعت منه كلُّ النبوات والرسالات حتى خُتمت بخاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد عليه وعلى آله الصلاة والتسليم،

---

(١) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص٢٧٠.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٧٠.

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، ودلّت الآية على دخول الزوجة في أهل البيت، ويؤكِّده ما أنزل الله في بيت النبوَّة مخاطبًا أمهات المؤمنين: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] [١]، وقوله تعالى في قصة موسى ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ﴾ تأكيدٌ لهذا المفهوم[٢].

قال ابن عطية الأندلسي: وهذه الآية تُعطي أن زوجة الرجل من أهل بيته؛ لأنّها خُوطبت بهذا، فيقوى القول في زوجات النبي ﷺ بأنهن من أهل بيته الذين أذهب عنهم الرجس[٣].

وقال القرطبي: ويُستدَلُّ من هنا على أن زوجة الرجل من أهل بيته، ودلّت الآية أيضًا على أن منتهى السلام: ﴿وَبَرَكَٰتُهُۥ﴾؛ كما أخبر الله عن صالحي عباده: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ﴾، والبركة: النموّ والزيادة، ومن تلك البركات أن جميع الأنبياء والمرسَلين كانوا في ولد إبراهيم[٤].

ج ـ ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾:

إنَّه المستحقُّ الحمدَ سبحانه وتعالى، والمستحقُّ التمجيدَ والتعظيم، فله المجد، وله العزّة، وله الكبرياء، وله المحامد كلُّها ربُّنا العظيم، وقال ابن عاشور: جملة ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾: تعليل لتوجُّه رحمته وبركاته إليهم، بأن الله تعالى يحمد مَن يُطيعه، وبأنه مجيد: أي عظيم الشأن لا حَدَّ لنعمه فلا يعظم عليه أن يعطيَهُ ولدًا، وفي اختيار وصف الحميد ـ والمجيد ـ من بين الأسماء الحسنى كناية عن رضا الله تعالى على إبراهيم عليه السَّلام وأهله[٥]، فالله

---

(١) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٤/ ٧٨).
(٢) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص٢٧٠.
(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير ابن عطية)، (٣/ ١٩١ ـ ١٩٢).
(٤) تفسير القرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، القرطبي، مرجع سابق، : (٩/ ٧١).
(٥) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص٢٧٢.

مصدر كل فعل محمود، ومنشأ كل كرم وجُود، ويفيض برحمته وبركاته على من يشاء من عباده.

اسم الله «الحميد»:

هو الحميد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فله من الأسماء أحسنُها، ومن الصفات أكملُها، ومن الأفعال أتمُّها وأفضلُها، فإنَّ أفعاله دائرة بين الفضل والعدل[(١)].

فهو سبحانه المحمود بما اتّصف به من صفات الكمال ونعوت الجلال، وهو المحمود، ولا يزال، على ما أبدى من النعم، وأسدى من الكرم[(٢)].

ويقول أبو حامد الغزالي: الحميد بحمده لنفسه أولاً، وبحمد عباده له أبدًا[(٣)].

وقال الطبري: «حميد»: محمود في تفضُّله عليكم بما تفضل به من النعم عليكم وعلى سائر خلقه[(٤)].

اسم الله «المجيد»:

قال السعدي: المجيد: الكبير العظيم الجليل، وهو الموصوف بصفات المجد والكبرياء والعظمة والجلال، الذي هو أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، وأجلُّ وأعلى، وله التعظيم والإجلال في قلوب أوليائه وأصفيائه، قد مُلئت قلوبهم من تعظيمه وإجلاله والخضوع والتذلل لكبريائه[(٥)].

ويقول أيضًا: والمجد هو عظمة الصفات وسَعَتُها، فكل وصف من أوصافه

---

(١) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز ناصر الجليل، ص٣٧٢.
(٢) المرأة في القصص القرآني، أحمد الشرقاوي، (١/ ١٧٠).
(٣) المقصد الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى، الغزالي، الجفان والجابي، قبرص، ط١، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، ص١١٥.
(٤) تفسير الطبري «جامع البيان في تأويل القرآن»، (١٥/ ٤٠٠٠).
(٥) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» نقلاً عن كتاب ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز ناصر الجليل، ص٣٨٧.

عظيمٌ شأنه؛ فهو العليم الكامل في علمه، الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، القدير الذي لا يُعجزه شيء، الحليم الكامل في حلمه، الحكيم الكامل في حكمته، إلى بقية أسمائه وصفاته(١).

وقد جاء في الحديث القدسي: «قَسَمتُ الصَّلاةَ بَيني وبينَ عَبدِي، فإذا قالَ العبدُ: الحمدُ لله ربِّ العالمينَ، قال الله تعالى: حَمِدَني عَبدِي، وإذا قالَ: الرّحمنِ الرَّحيمِ، قالَ الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي، وإذا قال: مالِكِ يَومِ الدِّينِ، قال: مجَّدني عَبدي» (٢).

ومن هذا الحديث، يظهر لنا معنًى من معاني التمجيد، حيث إن من تمجيد الله تعالى وصفَهُ والاعتراف له بالملك والقهر والحكم يوم الدين والحساب، لا مُعقِّب لحكمه، ولا مهرب من جزائه. وقد وصف الله عزّ وجل كتابه بـ «المجيد»، وذلك في قوله تعالى ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق: ١]، وفي قوله تعالى ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ [البروج: ٢١ ـ ٢٢]؛ فالقرآن مجيد أي: شريف كريم عظيم، واسع الخير والفضل والكرم، وذلك لما تضمَّنه من العلوم والمكارم والمقاصد العليا والمصالح الدنيوية والأخروية. ولا غرابة في ذلك فإنه كلام الله عزّ وجلَّ المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. ومن عظمة هذا القرآن ومجده أن الله يرفع به أقوامًا، ويخفض به آخرين، يرفع به من عمل به، واتّخذه دِينًا ومنهجًا، ويخفض به، ويُذِلُّ من تركه وراءه ظِهرِيًّا(٣).

٦ ـ قوله تعالى ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤]:

في السِّياق السابق تكلَّمت الآياتُ عن الرسل الملائكة الذين جاؤوا إلى

---

(١) الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية، السعدي، ص٣٣.
(٢) صحيح مسلم، رقم (٣٩٥).
(٣) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز ناصر الجليل، ص٣٨٩.

الرسول إبراهيم عليه السَّلام وبشَّروه بأنهم آتون لإهلاك قوم لوط، وبشَّروا امرأته بالولد والحفيد من بعد الولد، فاطمأنَّت نفسُ إبراهيم وزايله الخوف، فطفق يجادل الملائكة في قوم لوط، فالآيات هذه والسابقات نسق في تمام الاتّساق[١].

أ ـ ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ ﴾:

﴿ فَلَمَّا ﴾: وقت أن ﴿ ذَهَبَ ﴾: زايله وراح عنه، ﴿ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ﴾: عن نفسه وقلبه، ﴿ ٱلرَّوْعُ ﴾: بفتح الراء: الخوف والفزع، يقال: راعه؛ أي: أفزعه كرَوَّعه[٢].

ب ـ ﴿ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ ﴾:

بعد الرَّوع وذهابه، جاءت البشرى لإبراهيم، واستعمل لفظ المجيء الذي هو للقرب، وأطلق البشرى دون تحديد فحواها؛ لأنّه قد ذُكر قريبًا فأغنى عن إعادته[٣].

ج ـ ﴿ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴾:

﴿ يُجَٰدِلُنَا ﴾: الجدال والمجادلة من الجدل، وهو النقاش والحوار لكن على وجه أشدّ، أي يحاول مدافعة العذاب عن قوم لوط، وتأخيره عنهم، من أجل إعطائهم مهلة وفسحة وفرصة للتوبة والرجوع إلى الصواب. وهذا يدلُّ على حلمه، لا على تهاون في الأحكام معاذ الله، وقد أثنى عليه الله دلالةً على أن منطلقه كان الحرص على الدِّين، والحرص على إيمان الناس بالدِّين قبل إهلاكهم، و﴿ فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴾: أي في شأن قوم لوط، وفي أمرهم وقضية عذابهم وإهلاكهم[٤].

---

(١) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص٢٧٤.
(٢) المرجع نفسه، ص٢٧٤.
(٣) المرجع نفسه، ص٢٧٥.
(٤) المرجع نفسه، ص٢٧٥.

وقال الشنقيطي: لم يبيّن هنا ما جادل به إبراهيمُ الملائكةَ في قوم لوط، ولكنه أشار إليه في «العنكبوت» بقوله تعالى ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ۝٣١ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١ ـ ٣٢]، فحاصل جداله لهم أنه يقول: إن أهلكتم القرية وفيها أحد من المؤمنين، أهلكتم ذلك المؤمن بغير ذنب، فأجابوه عن هذا بقولهم ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾، ونظير ذلك قوله تعالى ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥ ـ ٣٦] (١).

الدروس والفوائد في الآية الكريمة:

* الأنبياء خيرة الله من الخلق، وهم أرحم الخلق بالخلق.

* الأنبياء يُصيبهم الرَّوع والاندهاش كباقي الناس.

* الجدال مأذون طالما كان صاحبه يتحرّى الحق.

* مجادلة إبراهيم عليه السَّلام دلالة على حلمه.

* لا يُتصوَّر أن إبراهيم عليه السَّلام يجادل لو جزم أن الأمر قد حُسم وأصبح حتمًا(٢).

٧ ـ قوله تعالى ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥]:

تكلَّمت الآية السابقة على جدال إبراهيم عليه السَّلام الملائكةَ في شأن قوم لوط وعذابهم، وهذه الآية تُثني عليه حتى لا يُظَنَّ أنه متعاطف مع الكافرين، وإنما هو يجادل من حلمه في دعوته وطول اصطباره واحتماله(٣).

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، (٣/ ٣١).
(٢) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص٢٧٦.
(٣) المرجع نفسه، ص٢٧٦.

وهذه الآية من أقصر آيات سورة هود، بل هي أقصرها، فهي من خمس كلمات، وفيها عشرون حرفًا بالرسم القرآني.

أ ـ ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ ﴾:

﴿ إِنَّ ﴾ للتوكيد، وزيدت «نحويًّا» اللام في الخبر للتوكيد، وعبّر بالاسم إبراهيم عليه السَّلام مع قرب العهد دون التعبير بالضمير، لتكريمه بذكر اسمه، ولتفخيم شأنه والثناء عليه، ولاستحضاره في ذهن القارئ باسمه الكريم.

ب ـ ﴿ لَحَلِيمٌ ﴾:

إنّه لشديدُ الحلم وعظيمُه، والحِلم: السعة في الخُلُق، والسماحة في كل الأمور، والعفو والصفح والاحتمال، ومقابلة السوء بالإحسان، والحلم سيّد الأخلاق كما يقال، والحلم خصلة حبيبة إلى الله تعالى، كما ورد الحديث بهذا المعنى، إذ قال الرسول للأحنف بن قيس: «إنَّ فيكَ خَصلَتَيْنِ يُحبُّهما اللهُ: الحِلمُ، والأناةُ»، أو كما قال ﷺ[1].

والحليم: المتأني غير العَجول[2]، والحليم: الموصوف بالحِلم، وهو صفة تقتضي الصفح واحتمال الأذى[3].

ج ـ ﴿ أَوَّٰهٌ ﴾:

كثير التأوُّه، على وزن «فعّال»، وهي صيغة تفيد وقوع الشيء منه مرّة بعد مرّة، ففيه معنى التردُّد والتكرار، والكثرة والاستمرار، وفي التأوُّه إشارة إلى الشفقة والرقة والرّحمة والرأفة، وقد تكرَّر هذا الثناء على إبراهيم في سورة

(١) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص٢٧٧.
(٢) صفوة البيان لمعاني القرآن، محمد حسنين مخلوف، طبعة لجنة الاحتفالات بمقدم القرن الخامس عشر الهجري، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، ١٩٨١م، ص٢٦٧ ـ ٢٩٧.
(٣) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص٢٧٧.

التوبة في قصة استغفاره لأبيه، وقال هناك: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ (١).

ومن معاني ﴿أَوَّٰهٌ﴾: خاشع متضرِّع في الدعاء، أو كثير التأوُّه من خوف الله، قال أبو عبيدة: الأوّاه: المتأوِّه فَرَقًا، المتضرِّع يقينًا ولزومًا للطاعة. وأصل التأوُّه: قول الرجل: أوّه أو أوْه: أي أتوجَّعُ(٢).

د ـ ﴿مُّنِيبٌ﴾:

اسم فاعل للفعل «أناب»، أي كثير الإنابة إلى الله تعالى من كل أمر يظن أنه قصَّر فيه، فهو كثير الرجوع إلى الله في أمره كلِّه(٣).

فالآية الكريمة ذكرت ثلاث صفات لإبراهيم عليه السَّلام: الحِلم، والتأوُّه، والإنابة: أنه حليم مع الناس، وأوّاه: مُتحزِّن مُتخشِّع مع نفسه، ومُنيب: دائم الإنابة والعودة إلى الله(٤).

ويظهر من إبراهيم عليه السَّلام في قصته الهدوء والحلم، وهذا الظلّ الكريم هو الذي يُظلِّل كلَّ مشاهد قصته في القرآن، إنه حليم هادئ متسامح لا يحتدّ ولا يغضب، ولا يسبّ ولا يشتم، هادئ حليم مع قومه عندما أبطل كون الكواكب آلهة، كما بيَّنت آيات سورة الأنعام، وهادئ حليم في جداله مع الملك الكافر الظالم، كما ذكرت آية سورة البقرة، وهادئ حليم حتى عندما حطَّم الأصنام، فما حطَّمها عنفًا وتطرُّفًا، ولكن حطَّمها من باب الحِلم؛ لأنّه مُشفق على قومه، حريص على إزالة الحواجز أمامهم ليفتح لهم الطريق للإيمان، وهادئ حليم عندما ألقَوْه في النار، فلجأ إلى الله وأناب إليه، وهادئ حليم عندما أخذ ابنه وزوجه إلى بلاد الحجاز، ودعا الله دعاء خاشعًا منيبًا،

---

(١) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص٢٧٧.
(٢) المرجع نفسه، ص٢٧٧.
(٣) المرجع نفسه، ص٢٧٧.
(٤) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٤٣٠).

كما عرضت سورة البقرة وسورة إبراهيم، إنّه نموذج ومثال للعلم والهدوء والإنابة والتسامح، وهو قدوة في هذا لمن بعده من الصالحين[١].

الدروس والفوائد في الآية الكريمة:

* الحلم من أعظم الأخلاق، وهو سيد الأخلاق.

* الرّحمة والشفقة على العباد من أعظم مزايا الأنبياء.

* الرجوع إلى الله سمة المؤمن عمومًا، فكيف الرسل؟

* الحلم خصلة يُحبُّها الله في عباده.

* الحلم يكون ثمرة رياضة نفسية عالية، وكظم للمشاعر، وضبط عالٍ للسلوك.

* إبراهيم نموذج للحلم، ومثال أعلى[٢].

إنَّ موطن العظمة في إبراهيم عليه السَّلام هو قلبه الكبير الذي عاش بالتوحيد وإفراد الله تعالى بالعبادة، ووسع قلبُه الناسَ، فهذه الآية ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ تُشير إلى أن إبراهيم «حليم» غير عجول في الانتقام من المسيء، وهو «أواه» كثير التأوه من الذنوب والتأسُّف على الناس، وهو «منيب» راجع إلى الله، وهي صفات مُنبئة عن الشفقة ورقّة القلب[٣].

٨ ـ **قوله تعالى** ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٧٦]:

هذه الآية الثالثة التي يُذكر فيها اسم إبراهيم عليه السَّلام، ففي الآية السابقة ثناء على إبراهيم، وفي سابقتها بيان لمجادلته في قوم لوط، وفي هذه أمر من

---

(١) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٤٣١).
(٢) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص٢٧٨.
(٣) الوصف في القصة القرآنية، أرشد يوسف العباس، دار المعتز للنشر والتوزيع، عمّان، ط١، ٢٠١٦م، ص١٠١.

الله لإبراهيم بالإعراض عن المجادلة في قوم لوط، فالنسق أوضح من أن يحتاج إلى بيان وجه الاتساق[١].

أ ـ ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾:

﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾: اختُصرت ألف يا النداء، ووُصلت الياء بهمزة إبراهيم، والرسم فيما أرى توقيفيٌّ، والنداء قد يكون من الملائكة لإبراهيم، وقد يكون من الله بلَّغه الملائكةَ ليُبلِّغوه لإبراهيم، والنداء هنا مقصوده للتنبيه.

﴿أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾: دع عنك هذا واتركه، وابتعد عنه، ولا تقل في هذا الموضوع شيئًا، وهذا اسم إشارة للقريب، فالموضوع حاضر وهو يُشير إلى توسُّطه لقوم لوط[٢].

ب ـ ﴿إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾:

﴿إِنَّهُۥ﴾ للتوكيد، والضمير اسمها، ﴿قَدۡ﴾ للتحقيق وقد دخلت على الماضي، ﴿جَآءَ﴾ بمعنى حلّ وحصل ووصل، ﴿أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾ حُكمُه وقضاؤه بهلاك هؤلاء المجرمين، أو الأمر قد صدر بإهلاكهم، وهذا وقت التنفيذ، وأُضيف الأمر إلى لفظ الربِّ مضافًا بدوره إلى كاف الخطاب، أما الإضافة إلى كاف الخطاب فتلطُّفٌ بالمخاطب، وأما إضافة الأمر إلى لفظ الربّ فلتفخيمه وتعظيمه[٣].

ج ـ ﴿وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾:

﴿وَإِنَّهُمۡ﴾: الواو للعطف، وإن للتوكيد، واسمها الضمير المتصل بها، وهو عائد إلى المذكورين في السِّياق وهم قوم لوط، ﴿ءَاتِيهِمۡ﴾: نازل بهم وواقع عليهم، ﴿عَذَابٌ﴾: نُكِّر لفظ عذاب للتفخيم والتكثير والتهويل، ﴿غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾: غير مدفوع ولا مرفوع، ولا يَردُّه رادّ ولا يَصدُّه صادّ، ولا يمنعه

---

(١) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص٢٧٨.

(٢) المرجع السابق، (١/ ٢٧٩).

(٣) المرجع نفسه، (١/ ٢٧٩).

مانع، ولا يُرجعه أحد؛ لأن أمر الله لا يُدافَع[(١)].

قال الشنقيطي: هذا العذاب الذي صرَّح هنا بأنه آتٍ قومَ لوط لا محالة، وأنه لا مردّ له؛ بيّنه في مواضع مُتعدِّدة؛ كقوله في هذه السورة الكريمة ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢ ـ ٨٣]، وقوله في سورة الحجر ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٤ ـ ٧٥]، وقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ﴾ [الفرقان: ٤٠]، وقوله ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٢ ـ ١٧٣]، وقوله ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات: ٣٣ ـ ٣٤] إلى غير ذلك من الآيات[(٢)].

الدروس والفوائد في الآية الكريمة:

❊ لطف الربِّ الكريم برسله الكرام.

❊ أمرُ الله إذا حلَّ لا يردّه أحد.

❊ وعذاب الله لا يَدفَعُه عن القوم المجرمين دافع.

❊ الله تعالى حليم يُرخي العنان للناس علّهم يؤوبون لرشدهم، فإذا تمادَوْا أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

❊ الله سبحانه لا يُحابي أحدًا، فخطابه لرسله يدلُّ على التربية الربانية والتأديب الإلهي ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ﴾ و﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ﴾ [(٣)].

❊ ❊ ❊

---

(١) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص٢٧٩.

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، (٣/ ٣٢).

(٣) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص٢٨٠.

ثانيًا: قصة ضيف إبراهيم من الملائكة في سورة الحجر:

قال تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ [الحجر: ٥١ ـ ٦٠].

هذه الآية تتمة الإنباء الذي ذُكر في الآيتين السابقتين وهو: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ و﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾، فهي تتمة لما مرّ، وتطبيق وتحقيق، ففي قصة إبراهيم مع ضيفه أو ضيوفه تحقيق لما مرّ، فقد تجلَّت رحمة الله على عبده إبراهيم والتفضُّل عليه بالولد، وتجلَّت معاني عذابه على قوم لوط، هذا في قصة واحدة، ظهر فيها المعنيان، فقد سألهم عن مُهمّتِهم، فقالوا كما ستبين الآيات الآتية: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ أي لإهلاكهم وعذابهم، فتبين مصداق ما ذكرت الآيتان في هذه الآية عن ضيف إبراهيم الذين جاؤوا بالبشرى له بالولد وبنجاة قوم لوط، وجاؤوا بخبر عذاب الكافرين المجرمين وهلاكهم[١].

والمتدبِّر للآيات الكريمة في سورة الحجر يجد أنها لا تُحدِّثنا عمّا جرى بين إبراهيم عليه السَّلام وبين قومه، وإنما عن جانب مما كان بينه وبين الملائكة، ويَلمح المتدبِّرُ في الآية الجديدَ في قصة إبراهيم عليه السَّلام لأول مرة دون عناء:

أولًا: يُسمِّيهم القرآن ضيفًا.

---

(١) تفسير سورة الحجر «دراسة تحليلية موضوعية»، أحمد نوفل، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، عمّان، الأردن، ط١، ١٤٤٠هـ ـ ٢٠١٩م. ص٢٧٩.

ثانيًا: يُطوى فيها ذكر الطعام وما يتصل به.

ثالثًا: يُطوى فيها ذكر المرأة.

رابعًا: يُشعرهم إبراهيم هنا بوجله، وهو مقدمات الخوف: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ [الحجر: ٥٢]، وفي السورة السابقة ـ أي هود ـ ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾.

خامسًا: يصف الغلام الذي بُشِّر به هنا بأنه عليم.

سادسًا: نقف عند هذه العبارة المصوِّرة المعبرة في قوله: ﴿مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ [الحجر: ٥٤].

سابعًا: نجد هنا صفة زائدة على ما تقدَّم في سورة هود، وهي عدم «القنوط»، إنما الذين يقنطون هم الضالون فقط، وإبراهيم عليه السَّلام ممّن أكرمهم الله بالهداية، ألا ترى ـ أخي القارئ ـ أن ما في السورة كلَّه جديدٌ لا تحوم حوله شبهة تكرار، ولا تشوبه شائبة إعادة، وأن الذين يدّعون التكرار إنما هم واحد من اثنين، إما أنهم لا يعلمون نظرًا، وإما أنهم لا يفقهون خبرًا[1].

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحجر: ٥١]:

أ ـ ﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾:

الواو للعطف، عطف للإنباء على الإنباء مع التصريح بالعامل أو بالفعل ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ﴾ ﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾، والضمير «هم» في هذه الكلمة يعود إلى العباد المذكورين في الآية السابقة، والأنباء الأخبار ذات الشأن، ولا ريب أن ضيف إبراهيم قد أتَوْا لأمر جلل ذي شأن[2].

ب ـ ﴿عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾:

﴿عَن﴾: حرف جر: متعلقة بنبِّئهم، أي عن أخبارهم.

---

(١) قصص القرآن الكريم، فضل حسن عباس، ص٢٨٩.

(٢) تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، ص٢٧٨.

﴿ضَيۡفِ﴾: للإفراد والجمع، ويبدو هنا أنّها للجمع.

﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾: هو الخليل، باني البيت، صاحب الملة الحنيفية السمحة، وهو أعظم الرسل جميعًا بعد الرسول الأعظم ﷺ[١].

ج ـ قول السعدي:

﴿وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ أي: عن تلك القصة العجيبة، فإن في قَصِّك عليهم أنباء الرسل، وما جرى لهم، مما يوجب لهم العبرة والاقتداء بهم، خصوصًا إبراهيم الخليل عليه السَّلام، الذي أمرنا الله أن نتَّبع مِلّته، وضيفه هم الملائكة الكرام، أكرمه الله بأن جعلهم أضيافه[٢].

الدروس والفوائد في الآية الكريمة:

* الماضي مشحون بالدروس والعبر، وقد انتقى القرآن الكريم من هذا الماضي ما هو غنيٌّ بالدروس، وقصّه علينا، فأين مَن يبحث في كنوزه ويَعتبر؟

* إبراهيم عليه السَّلام من أعظم أولي العزم من الرسل، ويجب ذكر هذه الشخصية العظيمة، والتأسِّي بها.

* يجب التضلُّع من اللغة العربية، ومعرفة أسرارها، ومعاني مفرداتها، وأن «الضيف» مثلاً تصحُّ للمفرد والجمع.

* القصص القرآني حقٌّ مُطلَق مُصفًّى لا يجوز خلطه بخرافات بني إسرائيل وتلفيقاتهم وافتراءاتهم على الأنبياء[٣].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ﴾ [الحجر: ٥٢]:

أ ـ ﴿إِذۡ﴾:

ظرف لما مضى من الزمان، ومن شأنه أن يستحضر لحظة معينة، أو مشهدًا

(١) تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، ص٢٧٨.

(٢) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص٨٦٤.

(٣) تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، ص٢٨٠.

معينًا من شريط طويل للأحداث، فهو ـ أي الظرف «إذ» ـ يُوقفك عند المطلوب من هذا الشريط الطويل، ومن المشاهد المُتعدِّدة.

ب ـ ﴿ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ ﴾:

أول دخولهم على إبراهيم دون سابق إعلام، والضمير في ﴿ عَلَيۡهِ ﴾ عائد إلى إبراهيم عليه السلام، فالحديث عنه منذ الآية السابقة.

ج ـ ﴿ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا ﴾:

فقال الملائكة، ولم يُحدِّد النصُّ الكريم عددهم، وكلمة «ضيف» في الآية السابقة تحتمل الإفراد والجمع، وإن كان قوله: ﴿ دَخَلُواْ ﴾ يُفيد الجمع ولا يُعيِّنه تمامًا، فقد تكون للتعظيم مثلاً، و﴿ سَلَٰمٗا ﴾: نُسلِّم عليك سلامًا[١].

د ـ ﴿ قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ ﴾:

أي: فزعون خائفون، ولا تظنَّنَّ أن إبراهيم عليه السَّلام واجههم بهذا عندما دخلوا عليه، فقد كان عليه السَّلام كريمًا، ويُحبُّ أن يغشاه الضيوف دائمًا في بيته، وإنما قال ذلك في نفسه بعد أن قدّم لهم الطعام، ولم تمتدَّ أيديهم إليه؛ لأنَّ أجسام الملائكة نورانية، فهم لا يأكلون ولا يشربون، ولا يحتاجون إلى ما يحتاج إليه الإنسان المخلوق من تراب الأرض، الذي يتغذى بما تُخرجه له الأرض[٢].

ولم يُسجِّل النصُّ الكريم هنا ردَّ إبراهيم عليه السَّلام؛ اكتفاءً بما ذُكر في غير موضع، فكل موضع يعرض طرفًا مختلفًا، وجزءًا مُتَمِّمًا من القصة، والمشاهد تتكامل[٣].

---

(١) تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، ص٢٨١.
(٢) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٤/ ٣٨٨).
(٣) تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، ص٢٨١.

ففي سورة هود ردّ عليهم بقوله تعالى ﴿قَالَ سَلَٰمٌۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾ [هود: ٦٩]، وفي سورة الذاريات: ﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾ [الذاريات: ٢٥ ـ ٢٦]، قال الدكتور أحمد نوفل: فلا يُتخيَّل ولا يُعقَل أن يردَّ التحية بالقول: ﴿إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ﴾، ولا أتصوَّر أن هذا الكلام من المصرَّح به والملفوظ، ولكنه من الكلام النفسي الملحوظ على الملامح والسمات والقسمات، وكم عبر القرآن بـ ﴿قَالَ﴾ أو قالوا وقصد الكلام النفسي، ومن ذلك: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ﴾ [يوسف: ٧٧].

وخلاصة القول: هذا فيما أرى من الكلام النفسي، قرأه الملائكة على صفحة وجهه الشريف وملامحه الكريمة عليه الصلوات والسَّلام[١].

الدروس والفوائد في الآية الكريمة:

* الكلام النفسي يُعبَّر عنه بـ ﴿قَالَ﴾؛ لشدة ظهوره ووضوحه على الملامح، فكأن لسان الحال ولسان المقال شيء واحد.

* الأنبياء الكرام يعتريهم ما يعتري البشر من الحذر والوجل والخوف والحزن والضيق... ولكن بمقادير مختلفة.

* قد يحذف القرآن ما ذكره في مكان اعتمادًا على ما ذكره في مواضع أخرى، كردِّ إبراهيم عليه السَّلام تحية الملائكة.

* الرسل لا يعلمون الغيب ولا ما وراء الأشياء، إلا إذا أعلمَهم مولاهم، أو جاءهم العلم من مصدره[٢].

٣ ـ قال تعالى: ﴿قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ [الحجر: ٥٣]:

هذه الآية فيها ردُّ الملائكة على ما رأوه من وجل إبراهيم عليه السَّلام أو

---

(١) تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، ص٢٨١.
(٢) المرجع نفسه، ص٢٨٤.

ما صرَّح به مِن وَجَلٍ، هذا جوابٌ من قبل الملائكة بعدم التوجُّس والوجل، فإنما هم مرسَلون من الله وأولياء الله لا يخافون من أولياء الله.

أ ـ ﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ﴾:

قالت الملائكة عليهم السلام لإبراهيم لمَّا رأَوْا وجله، أي خوفه: لا تخف، وَقرَّ عيناً واطمئِنَّ بالاً، فإنما نحن رسل الله إليك بالبشرى[1].

ب ـ ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾:

﴿عَلِيمٍ﴾: كثير العلم، وهو إسحاق، إذ جاء التصريح به في سورة هود ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١].

فقد صرَّحت الآيات باسمه واسم ولده يعقوب عليهما السلام، وأما الغلام الذي بُشِّر به إبراهيم والموصوف بالحلم ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١]، فهو إسماعيل عليه السَّلام[2].

فالبشارة تكررت لإبراهيم عليه السَّلام، ولهذا حكى الله عن إبراهيم قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

٤ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ [الحجر: ٥٤]:

في الآية السابقة بشرت الملائكة إبراهيم عليه السَّلام بغلام عليم، وهنا في هذه الآية يستفهم إبراهيم من الملائكة فيقول لهم: هل تبشروني بعد أن مسّني الكبر ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾؟

---

(١) تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، ص٢٨٥.
(٢) المرجع نفسه، ص٢٨٥.

أ ـ ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي ﴾ :

قال ـ أي إبراهيم ـ عليه الصلوات والتسليم: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي ﴾: الهمزة للاستفهام داخلة على الفعل الذي يتضمَّن فعلاً وفاعلاً ومفعولاً به.

ب ـ ﴿ عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ ﴾ :

«على» بمعنى «أو» متضمنة البَعديّة، أو هي على معناها الأصلي، كما نقول: «أتغفر لي على ما كان مني» أي على وضعي الذي أنا عليه؛ فهي للاستعلاء والتمكّن، أي بعد أن توغَّلتُ في الكبر وتمكَّن مني، بمعنى أبعَدتُ وأوغلتُ، وعبّر بالمسّ ليفيد أن الكبر تمكّن منه، والكبر: الهرم وقطع سنوات عديدة من العمر.

ج ـ ﴿ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ :

الفاء تفريعية، و«بمَ» بأي شيء تُبشِّروني، وحذفت الياء ليس لمراعاة الفواصل، فهي مقصد يتبع المعنى والبلاغة، ولكن الأهم من مراعاة الفواصل، وهي مُهمّة لكنها أقل أهمية، والأهم المسارعة في التعبير وخفّة القول والنطق، والحذف ليس من نصيب الياء فحسب، بل معها أيضًا حذف النون الثانية من أصل الكلمة وهو: تبشرونني.

الدروس والفوائد في الآية الكريمة:

* الاستفهام يحمل معانيَ عديدة وعريضة، والمقصد الأصلي منه الاستعلام والتعجُّب، والآية هنا جاءت على هذا الغرض وليس الاعتراض.

* هذه الآية فيها البشرى في أولها وآخرها ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي ﴾؟ والتكرار مقصود لذاته، وهو تقرير المعنى بالتكرير.

* في الكون سنن يتعامل بها البشر، ويعيشون وفقها، ومتى شاء الله خرق هذه السنن، ونقض هذه النواميس.

* إنَّه عليه السَّلام استعظم نعمة الله عليه؛ فاستفهم هذا الاستفهام التعجُّبيَّ المبنيَّ على السنن التي أجراها الله بين عباده، لا أنه استبعد ذلك على قدرة الله.

* ﴿فَبِمَ﴾ هي «ما» الاستفهامية أو ماذا؛ دخلها معنى التعجُّب، كأنه قيل: فبأي أعجوبة ﴿تُبَشِّرُونَ﴾ [١].

٥ ـ قال تعالى: ﴿قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَانِطِينَ﴾ [الحجر: ٥٥]:

﴿قَالُواْ﴾: أي الملائكة الكرام ردًّا على إبراهيم.

﴿بَشَّرْنَاكَ بِٱلْحَقِّ﴾: ما قلناه لك من البشرى هو الحق؛ فالبشرى ملتبسة بالحق مرتبطة به، بمعنى أنّها متحقِّقة لا محالة، فهذا وعد من الله، والله منجز وعده.

﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَانِطِينَ﴾: ليس إبراهيم عليه السَّلام من القانطين، والملائكة تعلم هذا، ولكن إبراهيم ربما قاس الأمر بمنظور السُّنَن والنواميس المعهودة والمألوفة، ولكن الله تعالى متى شاء خرق النواميس، فقولهم ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَانِطِينَ﴾ يعني: لا ترتبط بالنواميس والسنن، وتقول في ضوء المألوف من السنن: لا يُمكن إنجاب الولد مع هذه الحيثيات الموجودة من: الكبر، وعقم الزوجة، والقنوط، واليأس من الشيء، وعدم توقع حدوثه[٢].

الدروس والفوائد في الآية الكريمة:

* السُّنَن لا تُعرقل نفاذ الإرادة الإلهية.

* نحن نعيش وفق السنن، ونبني تصرُّفاتِنا وفقًا لها، ونعتقد دائمًا بطلاقة المشيئة الإلهية.

* وعد الله حقٌّ، ولا يأس من رحمة الله.

---

(١) تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، ص٢٨٩.
(٢) المرجع نفسه، ص٢٩٠.

* نهي الملائكة لإبراهيم عليه السَّلام عن القنوط لا يعني أنه كان مُستعدًّا له، أو موجودًا عنده، فالله يقول: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾.

* فالأنبياء محال عليهم، ولكنه إشارة لعدم الارتهان إلى ربط الأمور بالأسباب، والله أعلم(١).

٦ ـ **قوله تعالى**: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]:

﴿قَالَ﴾: أي إبراهيم عليه الصلوات والتسليم.

﴿وَمَن﴾: الواو استئنافية.

﴿يَقْنَطُ﴾: القنوط: اليأس واستبعاد حصول الشيء.

﴿مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ﴾: من: متعلقة بالفعل يقنط، وأضاف الرّحمة إلى لفظ ربه لتعظيمها من ناحية وقربها من ناحية، وأضاف الربّ إلى ضمير الغائب؛ ليجعلها قاعدة عامة وقانونًا شاملاً وليس أمرًا متعلّقًا به فحسب.

﴿إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾: الذين لا يعرفون الله، ولا يهتدون إليه سبيلاً، ولا يرجونه ولا يخشونه(٢)، الذين ضلوا عن طريق الله فلا يرجون رحمته، ولا يستشعرون رأفته وبرَّه ورعايته، وأما القلب النديّ بالإيمان المتصل بالرحمن فلا ييأس ولا يقنط مهما أحاطت به الشدائد، ومهما ادلهمّت الخطوب(٣).

قال أسعد حومد: أجابهم إبراهيم عليه السَّلام أنه ليس قانطًا من رحمة الله، وإن كان قد كبر وأسنّت زوجته، فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك، ولا يقنط من رحمة الله إلا مَن ضلّ طريق الهداية والإيمان، وجَهِل عظمة الخالق(٤).

---

(١) تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، ص٢٩٢.
(٢) المرجع نفسه، ص٢٩٣.
(٣) المرجع نفسه، ص٢٩٤.
(٤) أيسر التفاسير، أسعد محمود حومد، ط٤، ١٤١٩هـ ـ ٢٠٠٩م، ص١٨٥٩.

الدروس والفوائد في الآية الكريمة:

* القنوط والإيمان لا يجتمعان.

* الضَّلال أساس الكفر، والعكس صحيح، فبينهما علاقة جدلية، كل واحدة تؤدِّي للأخرى.

* رحمة الله قريب، ولا يأس من وصولها وشمولها كلَّ مَن طلبها.

* إبراهيم عليه السَّلام لم يستغرب ذلك قنوطًا من رحمة الله، ولكن استبعادًا له في العادة التي أجراها الله، والسنن التي اعتادها البشر، وبنَوْا حياتهم ومعاشهم عليها، ولم يَنسَوْا بالطبع أن الله فعّالٌ لما يريد، يَخرق المعتاد وقت يشاء[1].

٧ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [الحجر: ٥٧]:

يواصل إبراهيم عليه السَّلام في هذه الآية حديثه مع الملائكة، ففي السابقة علَّق على قولهم: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ﴾ بعد أن بشَّروه بالولد، وهنا يسألهم عن مهمتهم الأساسية التي جاؤوا من أجلها، فالبشارة بالولد يمكن أن تكون في رؤيا كما كان خبر ذبحه لولده، فالبشارة أمرٌ زائد على عِظَم شأنه، وكأن الأمر كما توقع، فالآيات سلسلة متصلة، وعقد مترابط[2].

أ ـ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾:

قال إبراهيم للملائكة الكرام عليهم السَّلام: ما شأنكم الجلل العظيم الذي جئتم له والمُهمّة التي أتيتم لها؟

ب ـ ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾:

يخاطب المرسَلين بالتكريم والتوقير، وإلا فبالإمكان الاكتفاء بالسؤال:

---

(١) تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، ص٢٩٥.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٩٥.

فما خطبكم؟ والرُّسُل هم عناوين التَّلطُّف والرفق وحُسن معاملة الخَلْق، فكيف إذا كانوا رسلاً مثلهم لهم عند الله مثلُ شأنهم ومنزلتهم؟[(١)]

إنَّ إبراهيم عليه السَّلام انتقل إلى سؤالهم عن سبب نزولهم إلى الأرض؛ لأنه يعلم أن الملائكة لا ينزلون إلا لأمر عظيم، كما قال تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

الدروس والفوائد في الآية الكريمة:

* الرسل عناوين التَّلطُّف في الكلام، والترفُّق في معاملة الخلق، فكيف بتعاملهم مع الخالق سبحانه وتعالى.

* الخطب: الشأن الجلل، الذي يستدعي ممَّن يراه أو يسمع به أن يستفسر عنه، لذا لم ترد كلمة «الخطب» في القرآن إلا في مقام الاستفهام[(٢)].

٨ ـ قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ [الحجر: ٥٨]:

في الآية السابقة كان إبراهيم عليه السَّلام يسأل الملائكة عليهم السلام ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾، وفي هذه الآية يتلقَّى الجوابَ منهم، فالآيات كلها نسق، متعانقة مترابطة متَّصلة متوافقة.

أ ـ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ﴾:

قالوا ـ أي: الملائكة الكرام ـ: إنّا، واستخدموا أداة التوكيد لتأكيد الكلام وإثارة الاهتمام، وأنهم بالفعل أَتَوْا لأمر جلل.

ب ـ ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾:

﴿إِلَىٰ﴾ حرف الجر هنا بمعنى الغاية والنهاية، أي إن مهمتنا في آخرها تنتهي عند هؤلاء لإنهائهم، ولم يُعيِّنوهم في هذه الآية، وسيتم تعيينهم في

---

(١) تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، ص٢٩٦.
(٢) المرجع نفسه، ص٢٩٧.

الآية التالية، من خلال استثناء «آل لوط»، فعلم أنهم قوم لوط، جزاء على خروجهم على فطرة الله وكفرهم بالله، وأن يكون القوم متواطئين على الجريمة، فهذا شيء عجيب.

والمُجرم من فعل الجريمة، وهي الفعلة الكبيرة الخطيرة ذات الجرم، وكمية الشرِّ الكبير[١].

قال السعدي: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴾ أي كثُر فسادهم، وعظُم شرّهم، لنعذبَهم ونعاقبَهم[٢].

الدروس والفوائد في الآية الكريمة:

* من أسماء الله الصبور، لكنه شديد العقاب متى تجاوز الظالمون المدى.

* من فعل الشرّ وتأخَّر عقابُه أصابه نوع من الأمن الكاذب الخادع أنه لن يُؤخَذ ولن يُؤاخَذ، ثم تكون المفاجأة الصاعقة.

* التواطؤ على الجريمة وشرعنتها وتسويغها أخطر من الجريمة في ذاتها.

* حضارة اليوم تُكرِّر حقارة هذا الفعل وتتواطأ عليه، وهذا يجعلها مُهدَّدة بعذاب غيرِ مُتوقَّع يفوق كل توقُّع.

* للحضارة الغربية زخمها وثقلها بحيث تفرض من عاداتها وسيئاتها ما تشاء بقوتها الناعمة أو بقوتها الخشنة، وأمة الإسلام ينبغي أن تكون مُحصَّنة من شرور هذه الحضارة التي تنضح شرًّا وإلحادًا وفجورًا وظلمًا ونهبًا للشعوب المقهورة وشذوذًا أخيرًا.

* مصادرة الإرادات أشدُّ من نهب الثروات[٣].

---

(١) تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، ص٢٩٨.

(٢) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص٨٦٥.

(٣) تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، ص٢٩٩.

٩ ـ قال تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٥٩]:

أ ـ ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾:

الاستثناء منقطع؛ لأن المستثنى ليس من جنس المستثنى منه، وآل الرجل زوجه وذُريّته، ولسنا نُردِّد مع الإسرائيليات حكاية أن له بنتين، فليست تلك الروايات عندنا بمصدر مُعتدٍّ به، يُستَند إليه، ويُعتمد عليه، ويُوثَق به، فلا ندري أكان عنده أولاد وكم كانوا، وكم عنده من البنات، المهم أن القرآن الكريم لا يدخل في التفصيلات، فعبّر بكلمة عامة «إلا آل لوط» ثم يستثني من آل لوط زوجَه.

ب ـ ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾:

إنَّ واسمها وخبرها، وزيدت اللام ـ نحويًّا لا بلاغيًّا ـ على الخبر لتوكيده، وأتت ﴿أَجْمَعِينَ﴾: لتوكيد المؤكَّد، وهذا المنهج في التزام النص لا ينبغي الحيدة عنه تتبُّعًا للإسرائيليات وللفضول بمعرفة الزيادة والتفصيلات[1].

الدروس والفوائد في الآية الكريمة:

* ليست الإسرائيليات مصدرًا للمعرفة والمعلومات.

* آل الرجل: امرأته وذُريّته؛ هذا مصطلح القرآن.

* الاستثناء منه المتصل والمنقطع، وينبغي التمييز بينهما.

* إذا نزل العذاب، فإن الله يُنجّي منه من يشاء، وأحيانًا يُصيب الجميع، كما حذر الله تعالى في قوله ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾.

* ينبغي أن تَحذر الأمةُ، وقد كثر فيها المترفون، والترف قد يكون سببًا في حدوث النكبات والويلات والعطب والهلاك والتلف وفق القانون، قال تعالى:

---

(١) تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، ص٣٠١.

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾ [الإسراء: ١٦] (١).

١٠ ـ قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ [الحجر: ٦٠]:

استثناء متصل بما قبله فلا يحتاج معه إلى بحث عن وجه الارتباط ووجه الاتساق، كأنه جملة وتمامها ومستثنى منه ومستثنى، فهل مثل هذا النسق الكلامي يحتاج إلى بحث وطول تأمل؟ بالطبع لا.

أ ـ ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾:

أداة استثناء، والاستثناء هنا متصل، لأن امرأته من أهله أو من آله، كما في الآية الكريمة ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٥٩ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾، فإن اعتبرناها من غير أهله أو ليست من أهله، كما قال الله تعالى عن ابن نوح: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾، فالاستثناء منقطع، ونُرجِّح الأول، والله أعلم(٢).

ب ـ ﴿ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾:

أي دون زوجه؛ لأنَّ معنى الزوجية والتكامل ليس موجودًا هنا، والله أعلم؛ فهي كافرة فكيف يكون انسجامٌ وزوجيّةٌ؟

ج ـ ﴿قَدَّرۡنَا﴾:

هذا ليس قول الملائكة فيما أرى، ولكنه قول الله عزّ وجل، وليس في كلام الملائكة، فالملائكة لا تقول: قدَّرنا، فالمُقدِّر هو الله، والأقدار أقدار الله، والإرادة إرادة الله، ولا مُريد مع الله، أو يكون القول: قدَّرنا المراد أمر الله، ونحن الملائكة بالتنفيذ، كما قال العبد الصالح في سورة الكهف: ﴿فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا﴾ [الكهف: ٨١] فالله هو الذي أراد،

---

(١) تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، ص٣٠٢.
(٢) المرجع نفسه، ص٣٠٣.

والعبد الصالح نفَّذ إرادة الله بقتل الغلام[١].

د ـ ﴿إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾:

دخلت اللام على خبر إنّ للتوكيد، و﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: أي الهالكين المعذَّبين غير الناجين.

الدروس والفوائد في الآية الكريمة:

* القرب ليس ينفع ولا يعلّم ولا يغير إذا كان القلب مغلقًا.

* هذه امرأة لوط ومن قبلها امرأة نوح كانتا نماذج لأسوأ نَبتٍ في أحسن بيئة؛ فلا تنفع البيئة إذا كان النبات سيئًا، ولو زرعنا الحنظل في أحسن تربة فهل يُنبت عنبًا مثلاً؟!

* كانت النجاة من امرأة لوط قاب قوسين، فلم تسلك سُبُلَها، وركبت مركب الضَّلالة والجهالة، فأهلكت نفسها في الدنيا، وسوف تخلد في العذاب في الآخرة.

* فرصة العمر أثمن من كل ذهب الأرض وما فيها، ومع هذا يُضيِّع الناسُ أو أغلبهم هذه الفرصة في اللعب واللهو.. فمن يُنبِّهُهم؟ ومتى يَتنبَّهون؟[٢].

* * *

ثالثًا: جدال إبراهيم مع الملائكة في قوم لوط في سورة العنكبوت:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١ ـ ٣٢].

بعد أن هاجر لوط مع عمّه إبراهيم عليهما السَّلام، فنزلا بوادي الأردن، ثم

---

(١) تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، ص٣٠٤.

(٢) المرجع نفسه، ص٣٠٥.

عاش لوط وحده في إحدى القبائل على ضفاف البحر الميت أو بحيرة لوط، كما سُمِّيت فيما بعد، وكانت تسكن مدينة سَدُوم، وصار لوط عليه السَّلام منهم بالصهر والمعايشة.

ثم حدث أن فشا في القوم شذوذ عجيب، يذكر القرآن الكريم أنه يقع لأول مرة في تاريخ البشرية، ذلك هو الميل الجنسي المنحرف إلى الذكور بدلاً من الإناث اللاتي خلقهن الله للرجال؛ لتتكوَّن من الجنسين وحدات طبيعية منتجة تكفل امتداد الحياة بالنسل وفق الفطرة المطّردة في جميع الأحياء، إذ خلقها الله أزواجًا ذكرانًا وإناثًا، فلم يقع الشذوذ والانحراف إلى الجنس المماثل قبل قوم لوط هؤلاء، ومن خلال قصة لوط وخطابه لقومه في القرآن الكريم، يظهر أن الفساد قد استشرى فيهم بكل ألوانه، فهم يأتون الفاحشة الشاذة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين[١].

يأتون الرجال، وهي فاحشة قذرة، تدلُّ على انحراف الفطرة وفسادها من أعماقها، فالفطرة قد تفسد بتجاوز حدّ الاعتدال والطهارة مع المرأة؛ فتكون هذه جريمة فاحشة، ولكنها داخلة في نطاق الفطرة ومنطقها، فأما ذلك الشذوذ فهو انخلاع من فطرة الأحياء جميعًا، وفساد في التركيب النفسي والتركيب العضوي سواء، فقد جعل الله لذة المباشرة الجنسية بين الزوجين متناسقة مع خط الحياة الأكبر. أمّا هذه المباشرة الشاذة فلا هدف لها، ولم يُجهِّز الله الفطرةَ بالتذاذها تبعًا لانعدام الهدف منها، فإذا وَجد فيها أحد لذة، فمعنى هذا أنه انسلخ نهائيًا من خطِّ الفطرة، وعاد مِسخًا لا يرتبط بخطِّ الحياة[٢].

ويقطعون السبيل، فينهبون المال، ويُرَوِّعون المارة، ويعتدون على الرجال بالفاحشة كرهًا، وهي خطوة أبعد في الفاحشة الأولى، إلى جانب

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٢٧٣٢).
(٢) المرجع نفسه، (٥/ ٢٧٣٣).

السلب والنهب والإفساد في الأرض، ويأتون في ناديهم المُنكَر، يأتونه جهارًا وفي شكل جماعي مُتَّفَق عليه، لا يخجل بعضهم من بعض، وهي درجة أبعد في الفحش، وفساد الفطرة، والتبجُّح بالرذيلة إلى حدٍّ لا يُرجى معه صلاح.

وجاءت قصة لوط عليه السَّلام في سورة العنكبوت مختصرة، وظاهرٌ أن لوطًا أمرهم في أول الأمر ونهاهم بالحسنى، وأنهم أصرُّوا على ما هم فيه، فخوّفهم عذاب الله، وجابههم بشناعة جرائمهم الكبرى، فكان جوابهم: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، فهو التبجُّح في وجه الإنذار، والتحدِّي المصحوب بالتكذيب والشرود الذي لا تُنتظر منه أوبة، وقد أعذر إليهم رسولُهم فلم يبقَ إلا أن يتوجَّه إلى ربه طالبًا نصرَه الأخير.

قال تعالى: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٠].

وهنا يُسدَل الستار على دعاء لوط، ليرفع إلى الاستجابة، وفي الطريق يُلِمُّ الملائكةُ المكلَّفُون بالتنفيذ بإبراهيم[(١)].

١ ـ ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾:

وهذا المشهد، مشهد الملائكة مع إبراهيم عليه السَّلام، مختصر في هذا الموضوع؛ لأنه ليس مقصودًا، وقد سبق في قصة إبراهيم عليه السَّلام أن الله وهب له إسحاق ويعقوب، وولادة إسحاق في موضوع البشرى، ومن ثم لم يُفصِّل قصَّتَها هنا؛ لأن الغرض هو إتمام قصة لوط، فذكر أن مرور الملائكة بإبراهيم كان للبشرى، ثم أخبروه بمهمتهم الأولى، وهي إهلاك القرية الظالم أهلها[(٢)].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٢٧٣٣).
(٢) المرجع نفسه، (٥/ ٢٧٣٤).

٢ ـ ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾:

يُشعر الأسلوب القرآني في سورة العنكبوت بأن المقصد الأصلي من مجيء الرسل، والهدف من إرسالهم، هو إهلاك أهل القرية الظالمين، وقد ربط الله عزّ وجل مجيء الرسل والإهلاك بقوله ﴿وَلَمَّا﴾، والمعنى: ولمّا جاءت رسلُنا إبراهيمَ بالبشارة بالولد والحفيد، قالوا لإبراهيم عليه السَّلام: إنّا مهلكو أهل هذه القرية، وهي قرية سدوم التي فيها لوط عليه السَّلام، وعللوا ذلك بأنهم كانوا ظالمين، أي: إهلاكنا لهم لهذا السبب، أي كانوا ظالمي أنفسهم بمعصيتهم لله عزّ وجل وتكذيبهم رسول الله ﷺ، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ أَهْلَهَا﴾ للدلالة على اتفاقهم جميعًا على الفساد، وأن منشأ فساد جبلّتهم خبث طينتهم[١].

٣ ـ ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾:

فكيف تهلكونها، وقوله ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ ليس إخبارًا لهم بكونه فيها، وإنما هو جدال في شأنه؛ لأنهم لما عللوا إهلاك أهلها بظلمهم اعترض عليهم بأنه فيها من هو بريء من الظلم، وأراد بالجدال إظهار الشفقة عليهم، وما يجب للمؤمن من التحزّن لأخيه والتشمّر لنصرته، والخوف من أن يَمسَّه أذًى، أو يلحقه ضرر[٢].

وكأنه أراد أن يَطمئنَّ اطمئنانًا كاملاً على ابن أخيه الذي يهتمُّ بأمره، وتزداد شفقته عليه، فكان ردُّ الملائكة حاسمًا[٣].

٤ ـ ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾:

أي نحن أعلم منك بحال لوط وحال قومه، وامتيازه منهم الامتياز البيّن.

---

(١) الحوار في قصة الخليل عليه السلام في القرآن دروس وعبر، محمود سعد عبد الحميد شمس، ص٣٥٣.

(٢) تفسير الزمخشري «الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل»، الزمخشـري، (٣/ ٤٥٦).

(٣) الحوار في قصة الخليل عليه السلام في القرآن دروس وعبر، محمود سعد عبد الحميد شمس، ص٣٥٢.

والتعبير باسم التفضيل «أعلم» وحذف المفضَّل عليه، فيه دلالة على مزيد علمهم بلوط عليه السَّلام، وإشعار بتعميم علمهم بلوط عليه السَّلام وغيره، ودلّ على ذلك قولهم ﴿بِمَن فِيهَاۖ﴾.

قال أبو السعود: وأرادوا أنهم غير غافلين عن لوط عليه السَّلام فيها، بل عمَّن لم يتعرض له إبراهيم عليه السَّلام من أتباعه المؤمنين، وأنهم معتنون بشأنه أتمَّ اعتناء[(١)].

٥ ـ ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾:

أي: والله لنُنجينَّه وأهله إلا امرأته كانت من الباقين في العذاب أو القرية، أي: إن امرأة لوط من الهالكين، لأنّها كانت تُمالئهم على كفرهم وبَغيهم[(٢)].

وقد كان هواها مع القوم، تُقرُّ جرائمهم وانحرافهم، وهو أمر عجيب[(٣)].

والغابرون: جمع غابر، ولها استعمالات في اللغة، نقول: الزمان الغابر أي الماضي، وغابر بمعنى باقٍ أيضًا، فهي إذن تحمل المعنى وضِدَّه؛ ذلك لأنهم جاؤوا لإهلاك هذه القرية، وامرأة لوط باقية لتهلك معهم، وتذهب مع من سيذهبون بالإهلاك، فهي باقية في العذاب، فجاءت كلمة ﴿مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٢]؛ لتؤدِّي هذين المعنيين[(٤)].

* * *

رابعًا: قصة ضيف إبراهيم عليه السَّلام وهلاك قوم لوط في سورة الذاريات:

قال تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ۝٢٤ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ۝٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ۝٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا

(١) تفسير أبي السعود «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم»، (٧/ ٣٨).
(٢) صناعة الحوار، حمد عبد الله السيف، ص٣٥٣.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٢٧٣٤).
(٤) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١٨/ ١١١٤٨).

تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الذاريات: ٢٤ ـ ٣٧]:

١ ـ قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤]:

هنا نوع جديد من الحديث في شأن قصة من أشهر قصص إبراهيم الخليل عليه السَّلام، والسؤال تبجيل وتفخيم؛ لأنّه عبرة وعظة، وهو أسلوب مألوف في القرآن كله كقوله ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ [النازعات: ١٥]، وقوله تعالى ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ [البروج: ١٧]، وقوله تعالى ﴿۞ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ [ص: ٢١]، ومقصده حشد الاهتمام، وتوجيه النظر إلى القصة[١].

أ ـ ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾:

تُلازِمُ دائمًا الشيء العجيب الذي يستحقّ أن تلتفت إليه، ويُشوّقنا الحقُّ سبحانه إلى معرفته كما في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠]، يُشوِّقنا لنقول: نعم يا ربّ دلّنا[٢].

وقوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾: بمعنى: قد أتاك، فهو سؤال للتقرير، وفيه تذكير بالقصة، وسمَّاه الله تعالى حديثًا، إشارة إلى أنه خبر حقيقي[٣].

ب ـ ﴿ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾:

جاءت كلمة «ضيف» مفردة مع أنهم كانوا جمعًا من الملائكة، فلم يقل ضيوف ولا أضياف، إنما اختار اللفظ المفرد فقال: ﴿ضَيْفِ﴾، قالوا: لأنَّ

---

(١) إشراقات قرآنية، سلمان العودة، (١/ ١٢٩).

(٢) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (٢٣/ ١٤٥٨١).

(٣) إشراقات قرآنية، سلمان العودة، (١/ ١٢٩).

﴿ضَيْفِ﴾ تُطلق على المفرد والمثنى والجمع ممّن استدعيته إلى بيتك، أو جاءك فصار ضيفًا عليك، والمستضيف ينبغي أن يعامل الأضياف معاملة واحدة، ويستقبلهم بوجه واحد، لا يُفضِّل أحدًا على أحد، ولا يَحتفي بأحد دون أحد، فكأنهم عنده شخص واحد، لا يميِّز أحدًا لا في مجلسه، ولا في نظره إليهم، لذلك عبّر القرآن الكريم عنهم بصيغة المفرد، فهم في حكم الرجل الواحد.

وقد علَّمنا سيدنا رسول الله ﷺ هذا الدرس، فقد رُوي عنه ﷺ أنه كان يُسوِّي بين جُلسائه حتى في نظره إليهم، حتى ليظنَّ كلٌّ منهم أنه لا يُوجد في المجلس غيره(١).

وفي القرآن الكريم مواضع كثيرة تستخدم المفرد وتريد به الجماعة، ذلك حينما يكون توجُّهُهم واحدًا وهدفهم واحدًا، وحينما يجتمعون على أمر الله، وأمر الله دائمًا واحد لا اختلاف فيه، والجماعة حينئذ في حكم الواحد، اقرأ هذا مثلاً في قوله تعالى في قصة سيدنا موسى وسيدنا هارون عليهما السَّلام: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]، إذن: ضيف يعني أضيافًا من الملائكة(٢).

ج ـ ﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾:

وصفهم بالمكرمين، أي: جمع مُكرَم، وهو الذي يقع عليه الكرم من غيره، والفاعل مُكرِم، والمفعول به مُكرَم، فوُصف الملائكة بأنهم مُكرَمون، فمَن أكرمهم؟ قالوا: لها معنيان: أكرمهم الله تعالى كما قال سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٧]، أو مُكرَمون، قد أكرمهم سيدنا إبراهيم عليه السَّلام حينما أعدَّ لهم طعامًا، وباشر خدمتهم بنفسه لا بعبيده، وجعل امرأته

---

(١) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (٢٣/ ١٤٥٨٤).

(٢) المرجع نفسه، (٢٣/ ١٤٥٨٤).

تشاركه في خدمتهم، وأكرمهم بأن ردّ عليهم التحية بأحسن منها، ثم إنه لم يقدِّم لهم الطعام الحاضر فقط، وإنما أكرمهم وذبح لهم عجلاً؛ وصفه مرة بأنه سمين ووصفه مرة بأنه حنيذ(١).

وهذا كمال في الوصف، فهو سمين في ذاته أي ليس هزيلاً في تكوينه وهو حنيذ، والحنيذ هو أفضل أنواع الشواء عندهم، فهو من حيث طريقة طعمه حنيذ مشوي، وهذا منتهى الإكرام(٢).

٢ ـ قوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥]:

أ ـ ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾:

يُفيد أن دخولهم كان مفاجئًا، وكأنه لم يذكر استئذانًا، وقد يكون بيت إبراهيم عليه السَّلام مفتوحًا للأضياف ـ لهم مقرّ خاص بهم ـ لا يحتاج الناس فيه إلى استئذان لكونه كريمًا مضيافًا.

ب ـ ﴿فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾:

أي: نسلّم عليك سلامًا، فهو مفعول مطلق، فردّ عليهم سلامهم بأطيب منه.

ج ـ ﴿قَالَ سَلَـٰمٌ﴾:

أي «سلام» عليكم، والجملة الاسمية التي قالها إبراهيم عليه السَّلام أقوى وأثبت من جملتهم التي هي فعلية، والفعل ليس له ثبات(٣)، وهذه بداية الكرم من إبراهيم عليه السَّلام.

---

(١) حنذ اللحم: شواه على الحجارة، فهو حنيذ أي مشوي، ولحمه يكون أطيب من المسلوق والمطبوخ في الماء.

(٢) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (٢٣/ ١٤٥٨٥).

(٣) روح البيان في تفسير القرآن، إسماعيل حقي بن مصطفى الخلوتي البروسوري، دار الفكر، بيروت، ٢٠١٣م، (٩/ ١٦١).

د ـ ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾:

وهذه الكلمة لم يقلها إبراهيم عليه السَّلام لهم مباشرة، وإنما قالها خُفية عنهم[١]، بمعنى أنه استنكر حالهم، فقد كانوا على هيئة شباب في نضارة وجمال، قيل: هم ثلاثة ملائكة: جبريل وإسرافيل وميكائيل[٢].

وقيل: كانوا عشرة، أو اثني عشر، أو ثلاثة عشر[٣].

وفي التوراة ذُكر هذا المعنى، وفي بعض الآثار أنهم كانوا ثلاثة في سنِّ الشباب، وفي غاية الجمال، ولم يكن يعرفهم، وهذا جزء من الإنكار أنه لم يرهم من قبل، ربما سحنات وجوههم غير مألوفة، كذلك سلامهم كان شيئًا يُستغرب، فالناس ما كانوا يُحسنون السلام، فهم لما قالوا له: ﴿سَلَٰمًا﴾ كان هذا ما استنكره واستغربه فضلاً عن أنهم ربما دخلوا دون أن يستأذنوه[٤].

والأظهر أن إمامًا مثل إبراهيم الخليل عليه السَّلام، السيد العظيم الذي اتّخذه الله تعالى خليلاً، لديه من قوة الحدس والبصيرة والعرفان ما يغوص فيه على دقائق المعاني والأسرار، حتى ولو لم يُوجد في ظاهر الحال ما يدلُّ عليها، فلذلك أحسّ أنَّ الأمر ليس طبيعيًّا، وهذا فيه حكمة عملية؛ أن الإنسان إذا استغرب شيئًا عليه أن يتعامل معه بشكل طبيعيّ، ويبحث بعد ذلك حتى تتضح له الأمور، ولا يتعجَّل باتخاذ موقف ما، ولا يُفاجِئ الناس بما يستغربون، وينتظر حتى تنكشف الأمور بعد ذلك. ومن كمال الضيافة عند

---

(١) الوسيط في تفسير القرآن المجيد، الواحدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م، (٤/ ١٧٨).

(٢) التفسير الكبير مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، (٢٨/ ١٧٤)، إشراقات قرآنية، سلمان العودة، (١/ ١٣٠).

(٣) مدارك التنزيل وحقائق التأويل (تفسير النسفي)، (٣/ ٣٧٥)، إشراقات قرآنية، سلمان العودة، (١/ ١٣٠).

(٤) إشراقات قرآنية، سلمان العودة، المرجع السابق، (١/ ١٣١).

إبراهيم عليه السَّلام التي عُرف بها، ألاّ يُواجههم بوصفهم بالنكارة، وقد يكون قالها في نفسه، أو يكون قالها لأهل بيته لمّا ذهب إليهم ليصنعوا طعامًا[١].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦]:

أ ـ ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾:

﴿فَرَاغَ﴾: والروغان: الذهاب بسرعة واختفاء، وهو يتضمَّن المبادرة إلى إكرام الضيف، والاختفاء يتضمَّن ترك تخجيله، وألا يعرِّضه للحياء، وهذا بخلاف من يتثاقل ويتبارد على ضيفه، ثم يبرز بمرأى منه ويَحلُّ صُرَّة النفقة، ويزن ما يأخذ، ويتناول الإناء بمرأى منه، ونحو ذلك مما يتضمَّن تخجيل الضيف، فلفظ ﴿فَرَاغَ﴾ تنفي هذين الأمرين، وتدلُّ على ذهاب مع شيء من الخفية، و﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾: مدح آخر لما فيه من الإشعار أن كرامة الضيف معدّة حاصلة عند أهله، وأنه لا يحتاج أن يستقرض من جيرانه، أو يذهب إلى غير أهله؛ إذ قِرى الضيف حاصل عندهم[٢].

ب ـ ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾:

يتضمَّن ثلاثة أنواع من المدح:

أحدها: خدمة الضيف بنفسه، فإنه لم يرسل أحدًا، وإنما جاء بنفسه.

الثاني: أنه جاءهم بحيوان تام، لم يأتهم ببعضه، ليتخيَّروا من أطيب لحمه ما شاؤوا.

الثالث: أنه سمين ليس بمهزول، وهذا من نفائس الأموال؛ ولد البقر السمين، فإنهم يُعجَبون به، فمن كرمه هان عليه ذبحه وإحضاره[٣].

---

(١) إشراقات قرآنية، سلمان العودة، (١/ ١٣١).

(٢) بدائع التفسير، ابن قيّم الجوزية، تحقيق: يسري السيد، صالح الشامي، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، د.ت، (٤/ ٢٤٣).

(٣) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز ناصر الجليل، (٣/ ١١٩).

٤ ـ قوله تعالى: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٧]:

أ ـ ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ﴾:

وهذا من تمام الضيافة، إذا حضر الطعام قرّبه إليهم حتى لا يُحوجهم إلى القيام، وإن كان هذا من العادات، والعادات بابها واسع، وظروف الناس تختلف، واليوم جرت عادة الناس على إدخال الضيوف إلى الطعام؛ لكون الولائم كبيرة، ولكن ما جرى من خليل الرّحمن هنا هو تحقيق كمال الضيافة في زمنه، مع اليُسر والعفوية وعدم التكلف، كما في الحديث: نُهينا عن التكلُّفِ للضَّيفِ[(١)].

ب ـ ﴿قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾:

وهذا من حسن الضيافة، لم يقلْ: «كلوا» على سبيل الأمر، وإنما على سبيل العرض المؤدّب[(٢)]؛ لأنَّ «ألا» حرف استفتاح وعرض، وفيه الدعوة اللطيفة لهم[(٣)].

ونستخلص من قصة ضيف إبراهيم عليه السَّلام قواعد الضيافة في مِلّة إبراهيم عليه السَّلام والتي منها:

* أنَّ الضيف مُكرَّم، وأنه يدخل البيت بيسر وسهولة، وعلى المُضيف ردُّ تحيته بتبسُّط وبشاشة، وعدم تأخير القِرى، وأن يُعِدَّ أهلُ البيت الطعام بأنفسهم، ويُؤمَرون بذلك خِلسة لتجنب إحراج الضيف.

* ومنها أن يأتي المضيف بأجود ما عنده من الطعام، وأن يقرّبه إلى الضيف، فلا يقوم إلى طعامه، بل يُؤتى بالطعام إليه في مجلسه.

---

(١) مسند أحمد، رقم (٢٣٧٣٣)، سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني، رقم (٢٤٤٠).
(٢) روح البيان في تفسير القرآن، (٩/ ١٦٢)، إشراقات قرآنية، سلمان العودة، (١/ ١٣٢).
(٣) إشراقات قرآنية، سلمان العودة، (١/ ١٣٢).

* ومن تلك القواعد أيضًا الدعوة إلى الطعام بلطف، والتبسُّط بالحديث، والسؤال عن الغرض من الزيارة بعد انقضاء مدة الضيافة.

* ومنها أن المرأة تُشارك في إكرام ضيف زوجها من الرجال، ويُؤنَس في تحديد مدى تلك المشاركة ما كان من مسلك زوج إبراهيم عليه السَّلام، فلم يكن منها مجالسة ومحادثة مستفيضة، واكتفت بالقيام على خدمة الضيف، كمساعدة زوجها في تقديم الطعام والشراب والترحيب... إلخ.

* حقُّ الضيافة وإكرام الضيف من أخلاق أتباع مِلّة أبينا إبراهيم عليه السَّلام، وكان إبراهيم عليه السَّلام يُسمَّى «أبا الضيفان»، وكان يُحبُّ أن يكرم ضيوفه بأعز ما يملك، وهذا دليل على كرمه العظيم، وسماحة نفسه، وأصالة معدنه، وتقرُّبه إلى ربه بإكرام الضيوف[١].

٥ ـ قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]:

أ ـ ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾:

حين لم يأكلوا خاف منهم، وجاء في الآية الأخرى في سورة هود: ﴿فَلَمَّا رَءَا أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠]، وهذا يؤكد ما ذكرتُه آنفًا أنه لم يُواجههم بقوله ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾، وإنما قاله في نفسه، فهو لمّا ﴿رَءَا أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾، وحُقَّ له أن يُوجِس منهم خيفة، والضيف إذا لم يأكل، فإنه يُخشى منه الغدر، وقد يكون يُضمر سوءًا، وإيجاس الخيفة لا يعني أنه خاف من أشخاصهم، لكن خاف مما وراءهم وسبب مجيئهم، وعادة فإن الأشياء الغامضة تبعث على الخوف، ولذا قالوا له: ﴿لَا تَخَفْ﴾[٢].

---

(١) من أنباء القرى، أحمد عبيد الكبيسي، تحقيق: فاطمة محمد شنون، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٧م، ص٢٥٠.

(٢) إشراقات قرآنية، سلمان العودة، (١/ ١٣٣).

ب ـ ﴿ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾:

قد ظهر لهم في قسمات وجهه ما يدلُّ على توجُّسه، فقالوا له تطمينًا وتبشيرًا ﴿ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾، وسرعان ما انقلب الخوف بُشرى بغلام، وهو إسحاق وأمه سارة زوج إبراهيم عليه السَّلام.

ويدلُّ على ذلك ما جاء في الآية الأخرى، حيث نصَّت على اسم هذا الغلام، فقال تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود: ٧١] أي: من ولد إسحاق يعقوب(١).

وقد حدث من سارة موقف إنساني عظيم، فإنها لما كبرت ولم يُولد لها، وعرفت أنّها عقيم، تحاملت على نفسها وأهدته هاجر من أجل أن تأتيَهُ بغلام، فأذن الله تعالى أن يكون إسماعيل ولدًا لهاجر، وأن يكون إسحاق ولدًا لسارة، ولم يقل: «بغلام جميل» ولا «طويل»، وإنما ﴿ عَلِيمٍ ﴾، وهذا دليل على أن الصفات المعنوية هي التي يجب أن يُحرص عليها ويُمدح بها، وفي الآية الأخرى قال: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات: ١٠١]، فالآية الأولى ـ آية الذاريات ـ في شأن إسحاق، وآية الصافات في شأن إسماعيل، فإسحاق «عليم»، وإسماعيل «حليم» عليهما السلام(٢).

٦ ـ قوله تعالى: ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ [الذاريات: ٢٩]:

أ ـ ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾:

﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ ﴾: أي في صياح وصوت(٣)، وذُكر هنا أنّها صكّت

---

(١) إشراقات قرآنية، سلمان العودة، (١/ ١٣٣).

(٢) المرجع نفسه، (١/ ١٣٤).

(٣) تفسير القرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، القرطبي، (١٧/ ٤٦).

وجهها أي: ضربته[١]، وهي عادة النساء ضربت خدّيها بكفّيها[٢]، وليست دليلاً على ضعف عقل المرأة كما يظنُّه بعضُهم، ولا ينبغي أن يُقال هذا الكلام في هذا السِّياق، فيكفي من نضج عقلها التضحية التي بذلتها لخليل الرّحمن إبراهيم ـ عليه السلام ـ والصبر معه، وهي حركة عفوية تلقائية تعبّر عن شدّة التصديق، وشدّة الاستغراب[٣].

ب ـ ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾:

العجز والعُقم هما سببان لعدم الإنجاب، فهي لم تُنجب وهي فتاة شابة، فكيف وهي في سنّ اليأس، وكذلك زوجها شيخ كبير؟! كما قالت: ﴿قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: ٧٢]، حتى في بيت النبوَّة يتكلَّم أهلُه بعفوية، ويعبّرون عن مشاعرهم دون تكلُّف[٤].

لقد أخذتها المفاجأة الكبيرة التي لم تكن تتوقَّعها أبدًا، فنسيت أن البشرى تحملها ملائكة، عندئذ ردّها المرسَلون إلى الحقيقة الأولى، حقيقة القدرة التي لا يُقيِّدها شيء، والتي تُدبِّر كل أمر بحكمة وعلم[٥].

٧ ـ قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٣٠]:

هذا قول الملائكة، أخبروها أنه ليس دعاءً ولا تمنِّيًا، وإنما هو خبر من الله سبحانه وتعالى[٦].

أ ـ وفي قولهم: ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾:

إشارة إلى لطفه سبحانه وتعالى، وعطفه على عباده، ورحمته بهم، وخليق

(١) تفسير القرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، القرطبي، (١٥/ ٣٩٥).
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٦/ ٣٣٨٣).
(٣) إشراقات قرآنية، سلمان العودة، (١/ ١٣٤).
(٤) المرجع نفسه، (١/ ١٣٤).
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٦/ ٣٣٨٣).
(٦) إشراقات قرآنية، سلمان العودة، (١/ ١٣٤).

لمن يكون عنده معاناة من العُقم أو الفقر أو المرض أو الهم والغم والحزن والنكد أن يستشعر مثل هذا الموقف، وكيف خرق الله تعالى النواميس والسُّنن والعادات، ورزقهم الغلام العليم، والتعبير بالرّب مع الضمير يُشعرك باللُّطف فهو ﴿رَبُّكِۖ﴾ القريب المجيب الرحيم الذي يُجيب دعوة الدّاعي إذا دعاه[١].

ب ـ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾:

فهو ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في خَلْق هذا الغلام، وهو ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ الذي منح هذا الغلام من علمه، فجاء غلامًا عليمًا، وهو ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بالأشياء والأسباب، ولذلك لا يُعجزه شيء ولا تَخفى عليه خافية[٢].

ولأنه قول الله الحكيم العليم، فقد أصبح هذا الشيخ المسنّ، وهذا العجوز العقيم أبا لأجناس ممتدة من البشرية، فالعرب من ذرية ابن إبراهيم إسماعيل، واليهود من ذرية إسحاق عليهما السلام، فإذا بارك الله فلا حدّ لبركته، ورحمته تجري حيث يرى الناس، وحيث لا يرون[٣].

وقد اقترن اسم الله ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ باسمه ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ في نحو سبعة وثلاثين موضعًا أكثرها بتقديم «العليم» على «الحكيم»، كما ورد في قوله تعالى ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [النساء: ٢٦]، وفي مواضع أخرى، وهي قليلة، وورود تقديم «الحكيم» على «العليم»[٤].

ويلاحظ أن المقامات التي يتقدَّم فيها اسم «العليم» على اسم «الحكيم» منوطة بالعلم أولاً، ثم بالحكمة:

---

(١) إشراقات قرآنية، سلمان العودة، (١/ ١٣٥).

(٢) المرجع نفسه، (١/ ١٣٥).

(٣) المرجع نفسه، (١/ ١٣٥).

(٤) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز ناصر الجليل، ص٣٠٤.

* ففي مقام الاعتراف بالعجز وقصور العلم، يقابله ـ ولا بُدَّ ـ الإقرار والتسليم للعليم، فإذا كان «العليم» هو «الحكيم»، فذلك هو العلم البالغ حدَّ الكمال، فيكون الاعتراف مصحوبًا بغاية الرضا والتسليم، كما في قوله تعالى عن الملائكة ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

* في مقام ارتباط الصبر وانتظار الفرج باسم «العليم» ارتباط قوي وثيق، وذلك أنَّ العبد إذا كان عظيم الإيمان، عميق الصّلة بربّه، وتأخَّر عليه الفرج، لم يتزعزع يقينه؛ لأنّه معتمد على علم الله ـ عزّ وجل ـ في اختيار الزمان الأنسب لما يرجوه من الفرج، معوِّل على حكمته في تهيئة الأسباب له؛ ليقع على أحسن ما يكون، كما في قول الله تعالى ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣].

* وأما مقام التشريع وإقرار الحكم، فالأمر فيه راجع إلى العلم الشامل أولاً؛ لأن العلم هو أساس بناء الأحكام، ثم تأتي الحكمة لتنزِّل الحكم على الواقع، كما في قوله تعالى ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [التحريم: ٢] (١).

وتقديم اسم «العليم» على «الحكيم»؛ لأنَّ مبنى الأحكام على إحاطة العلم أولاً، ثم الحكمة في تنزيل العلم على الواقع بما يُحقِّق الانسجام والتوافق بين الأحكام الشرعية والطبائع البشرية، وذلك ما يُميز الشريعة الإسلامية عن الدساتير والشرائع الوضعية.

وأما تقدم اسمه سبحانه «الحكيم» على اسمه عزّ وجل «العليم»، فيُلاحظ في مقامَيْن متعلّقَيْن بسيرة إبراهيم عليه السلام(٢)، هما:

---

(١) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز ناصر الجليل، ص٣٠٤.
(٢) المرجع نفسه، ص٣٠٤.

مقام التوحيد كما في قوله تعالى ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣].

مقام إجراء المعجزات كما في قوله تعالى ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٣٠].

وذلك أن مضمون الألوهية في مقام التوحيد قهر وقوة وغلبة، يقابلها من العباد طاعة وعبادة وخضوع، فتقديم الحكمة في هذا المقام ـ والله أعلم ـ لِيُعلم أن ألوهيته ـ عزّ وجل ـ السارية على مَن في السماوات والأرض مسارها الحكمة، ولعلّه لما كان العلم الشامل هو رافد الحكمة، وعلى أساسه تُنزَّل الأشياء منازلها، وتُوضع الأمور في مواضعها التي بها تستقيم، أتبع اسم «الحكيم» باسم «العليم».

أما مقام إجراء المعجزات، فهو كذلك راجع إلى القوة الغالبة والمشيئة الطليقة التي تعلو على سنن الكون ونواميسه، واقتران القوة بالحكمة هو ضمان انتظام الأمور، وألا تتحول إلى عبث يُفضي إلى اختلال السنن وفساد الكون. فالحكمة هنا لها الصدارة، يليها العلم الذي على أساسه يكون إجراء السنن على ما قُدِّر لها، أو تعطيلها لحكمة ترجع لعلم «العليم».

يقول ابن قيّم الجوزية عن اقتران اسمه سبحانه «الحكيم» باسمه عزّ وجل «العليم»: العلم والحكمة مُتضمِّنان لجميع صفات الكمال، فالعلم يتضمَّن الحياة ولوازم كمالها من القيوميّة، والقدرة، والبقاء، والسمع، والبصر، وسائر الصفات التي يستلزمها العلم التام. والحكمة تتضمَّن كمال الإرادة، والعدل والرّحمة والإحسان والجود، والبر، ووضع الأشياء مواضعها على أحسن وجوهها، ويتضمَّن إرسال الرسل، وإثبات الثواب والعقاب[(١)].

---

(١) أسماء الله الحسنى، ابن قيم الجوزية، المكتبة التوفيقية، د. ط، (د. ت)، ص١٢٧.

والحكمة أخصُّ من العلم، إذ هي إجراء العلم على نحو خاصٍّ، يُحقِّق أسمى الغايات[١].

اسم الله ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾:

هو الذي له الحكمة العليا في خلقه وأمره، الذي أحسنَ كلَّ شيء خلقه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، فلا يخلق الله شيئًا عبثًا، ولا يُشرِّع شيئًا سُدًى، الذي له الحكم في الأولى والآخرة، وله الأحكام الثلاثة لا يشركه فيها مشارك، فيحكم بين عباده في شرعه وفي قدره وجزائه. والحكمة: وضع الأشياء مواضعها وتنزيلها منازلها[٢].

اسم الله ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾:

وهو الذي أحاط علمُه بالظواهر والبواطن، والإسرار والإعلان، وبالواجبات والمستحيلات والمُمكنات، وبالعالم العلوي والسفلي، وبالماضي والحاضر والمستقبل، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء[٣].

هذا ولمّا ﴿ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ أحسّ بحدسه أن إتيانهم لم يكن من أجل هذه البشرى فحسب، بل البُشرى أمر عارض، ولذا قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[٤].

٨ ـ قوله تعالى: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [الذاريات: ٣١]:

وعادةً «الخَطْبُ» لا يُقال إلا في الشيء الجليل، وهو لمّا علم أنهم ملائكة، أدرك أنَّ الأمر الذي جاؤوا من أجله عظيم[٥].

---

(١) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز ناصر الجليل، ص٣٠٥.
(٢) المرجع السابق، ص٢٨٣.
(٣) المرجع نفسه، ص٣٣٣.
(٤) إشراقات قرآنية، سلمان العودة، (١/ ١٣٥).
(٥) المرجع نفسه، (١/ ١٣٥).

وهذه الكلمة جاءت بهذا المعنى أيضًا في قوله تعالى في قصة سيدنا يوسف: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: ٥١] أي: ما الأمر العجيب الذي حملكنّ على هذا الفعل، وقالها موسى عليه السلام لما رأى ابنتَيْ شعيب عليه السلام قد خرجتا لسقي الغنم: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ [القصص: ٢٣] أي: ما الذي ألجأكنّ للخروج، فكأنه أمر عجيب غير عادي، إذن هذه الكلمة وُضعت للأمر العجيب الذي يدعو إلى الدهشة والتعجُّب(١).

فردّ الملائكة بقوله تعالى:

٩ ـ قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٢]:

وهم قوم لوط، وصفوهم بأنهم «مجرمين»؛ لأنهم كانوا يشركون بالله، ويفعلون الفاحشة الشاذة، كانوا يأتون ﴿ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٥]، لم يسبقهم بها أحد من الناس، ويأتونها في ناديهم، ويتعاطونها جهارًا نهارًا، ويفترون على نبيِّهم، ولا يطيعونه، فهم مجرمون من ثلاثة أوجه: أعظمها الشرك بالله وتكذيب الأنبياء، وإتيان الفاحشة، والعدوان والبغي، حيث دلّ السّياق على أنهم كانوا يتعرّضون لمن لا يُوافقهم ويعتدون عليه، ويُكرهونه على فعل الفاحشة، وقد همّوا بأضياف نبيّهم دون حياء ظانّين أنهم من البشر(٢).

١٠ ـ قوله تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٣]:

وهذه الحجارة من أنواع الحجارة الطينية البركانية، التي رفعها الله تعالى إلى السماء، ثم أنزلها عليهم(٣).

وقال الشعراوي: وطبيعة الحجارة تختلف عن الطين، الحجارة فيها صلابة وقساوة تختلف قوةً وصلابةً حسب نوع الحجر، بدايةً من المرمر، ثم

---

(١) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (٢٣/ ١٤٥٨٩).

(٢) إشراقات قرآنية، سلمان العودة، (١/ ١٣٦).

(٣) المرجع نفسه، (١/ ١٣٦).

الجرانيت، والرخام، والجير، فكيف تكون الحجارة من طين، وهما وصفان في الظاهر متناقضان؟ قالوا: هو طين أُحْمِي عليه في النار حتى صار صلبًا قاسيًا(١).

١١ ـ قوله تعالى: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات: ٣٤]:

﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي: مُعلَّمة، فكل حجر منها يحمل اسم صاحبه وعنوانه، فهو مُخصَّص له لا لغيره، وموجَّه إليه لا يُخطئه. وقوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾: دلّ على أنّها نزلت من السماء وليست من حجارة الأرض، وأنها مُعلَّمة من عند الله جاءت هكذا جاهزة، ونحن مهمّتنا أن نرميهم بها بأسماء أصحابها، فلا يختلط حجر بحجر.

ومعنى ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾: المسرف: هو الذي تجاوز الحدّ في المعصية، فهناك حدود للأمور، وحدود للحلال، وحدود للحرام، وقد بيّنها الحق سبحانه، وعلّمنا كيف نقف عند هذه الحدود؛ فقال تعالى في الحلال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وقال في الحرام: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧]، أي: قف عند حدود الحلال لا تتجاوزه إلى غيره، أما الحرام فإياك أن تقربه، احذر مجرد الاقتراب منه؛ لأنّك لو اقتربت منه تُوشك أن تقع فيه، فهي حماية لك(٢).

كما قال سبحانه لآدم: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٣٢]، ففي الحرام لا يمنعنا من الفعل، بل يمنعنا من الاقتراب من أسبابه. ففي أي شيء أسرف هؤلاء المجرمون المسرفون؟ أسرفوا في فعل محرّم يناقض الطبيعة النقية، التي خلقها الله(٣).

والجريمة التي ارتكبها هؤلاء القوم، واستحقوا بها ما حاق بهم من ألوان

---

(١) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (٢٣/ ١٤٥٨٩).
(٢) المرجع نفسه، (٢٣/ ١٤٥٩٠).
(٣) المرجع نفسه، (٢٣/ ١٤٥٩٢).

العذاب، أنهم صرفوا هذه الغريزة التي جعلها الله في الإنسان عن وجهها الحلال إلى وجه آخر مُحرَّم لا فائدة منه ولا ثمرة له؛ وجه يُنافي الفطرة السليمة والأذواق المستقيمة، فكانوا يأتون الذكران بدل أن يأتوا النساء كما أحلَّ الله تعالى، ومعلوم أن الإتيان مقصور على مكان الحرث والاستنبات: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، ويكون ذلك عن طريق الزواج الذي أباحه الله لعباده.

لكن قوم لوط أسرفوا على أنفسهم، ووقعوا في جريمة الإتيان للذكران، وتصريف الشهوة الجنسية بوسيلة شيطانية، ولما كان هذا الفعل زنًى يستحقُّ الرجم، رجمهم الله لا بحجارة من الأرض وإنما بحجارة من السماء، تنزل على كل واحد منهم باسمه تخصُّه دون غيره، بحيث لم تُبقِ منهم أحدًا، وأبادتهم عن بكرة أبيهم(١).

١٢ ـ قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥]:

أي: قبل أن ينزل بهم العذاب أخرجنا من كان في القرية من المؤمنين، والمعنى: ما قلنا لهم اخرجوا، إنما هيّأنا لهم سبيل الخروج بخواطر قذفناها في نفوسهم، فخرجوا ولم يُصبهم العذاب(٢).

أي: أخرجنا من كان في القرية، وهي سَدُوم، وهي في الشام قريبة من البحر الميت، والذين خرجوا فعلاً هم آل لوط، إلا امرأته فلم تكن مؤمنة، ولكنها في الظاهر كانت معدودة من المسلمين، والله أعلم، كانت تتظاهر بطاعة لوط، وصفها الله في سورة «التحريم» بالخيانة ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠]، فهي ظاهرًا كانت من المسلمين، لكن في باطنها كانت مع قومها(٣).

---

(١) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (٢٣/ ١٤٥٩٢).
(٢) المرجع نفسه، (٢٣/ ١٤٥٩٢).
(٣) إشراقات قرآنية، سلمان العودة، (١/ ١٣٧).

وخيانتها أنّها كانت تدلُّ قومها على أضيافه وقلبها معهم، وليست خيانة فاحشة ولا في الفراش، وإنما خيانة في الدِّين، فإنه ما بغت امرأة نبيٍّ قط(١).

١٣ ـ قوله تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٦]:

والمنافق معدود ظاهرًا من المسلمين، ولكنه ليس من المؤمنين، ولذا وُصف البيت بالإسلام، ولكنه حدَّد الذين أُخرجوا ونَجَوْا بأنهم المؤمنون فحسب(٢).

وقد بيّنت آية العنكبوت بأن زوجة لوط عليه السلام كانت من الغابرين؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٣].

١٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الذاريات: ٣٧]:

أي: في القرية والمكان الذي حدثت فيه هذه العملية، جعلنا للعقوبة التي حلَّت بهم آثارًا تدلُّ عليهم، وفي ذلك تحذير مِن فعلِهم(٣).

وقال الشيخ محمد متولي الشعراوي: الآية الباقية بعد هلاكهم هي الحجارة التي أهلكهم الله بها، فهي ما تزال موجودة، ومن يراها يقول: هذه ليست حجارة الأرض، بل هي نوع آخر، هي الحجارة التي نزلت على هؤلاء المجرمين فأهلكهم الله تعالى بها، وهكذا تظل هذه الآية الكريمة باقية؛ لردع كلِّ مَن تُسوِّل له نفسُه أن يفعل فِعلَهم، وقالوا: بل الآية التي تركها الله تعالى شاهدًا عليهم هي عيْن مُنتنة، لا يُطيق الإنسان أن يَشمَّها(٤).

وفي قوله تعالى ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ فالذين يخافون هم الذين يرون الآية ويُدرِكونها وينتفعون بها، أما الآخرون فمطموسون

---

(١) التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، (٣٢/ ٥٥٧).
(٢) إشراقات قرآنية، سلمان العودة، (١/ ١٣٧).
(٣) المرجع نفسه، (١/ ١٣٧).
(٤) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (٢٣/ ١٤٥٩٥).

لا يرون آيات الله لا في الأرض، ولا في أنفسهم، ولا في أحداث التاريخ[(١)].

* * *

خامسًا: وصف إسحاق عليه السلام في القرآن الكريم:

ما وَرَد عن إسحاق عليه السَّلام لم يصل إلى درجة التفصيل، كما هو الشأن مع بعض الأنبياء مثل: موسى وسليمان ويوسف وعيسى عليهم السَّلام، وإنما كانت إشارات، منها:

١ ـ **هبة من الله**: قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٢].

٢ ـ **الموحى إليه**: قال تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

٣ ـ **غلام عليم**: قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣].

٤ ـ **الصّلاح**: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢].

٥ ـ **من أولي الأيدي والأبصار**: قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [ص: ٤٥].

٦ ـ **ممَّن أتمَّ الله نعمته عليه**: قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٦].

٧ ـ **على مِلّة التوحيد**: قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٨].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٦/ ٣٣٨٣).

٨ ـ **مُبشّر به**: قال تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١].

❊ ❊ ❊

سادسًا: بعثة إسحاق عليه السلام:

ذكرت كتب التاريخ أن الله بعث إسحاق عليه السَّلام إلى الكنعانيين الذين كانوا يسكنون بلاد الشام وفلسطين، فدعاهم إلى التوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له، سائرًا على درب جميع الأنبياء والمرسلين.

يقول الله تعالى ـ على لسان يوسف عليه السلام ـ: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٨]، وقد تزوج إسحاق عليه السَّلام «رفقة» بنت ابن عمه، وأنجب منها ولدين: «العيص» الذي يُسمِّيه أهل الكتاب «عيسو»، والثاني «يعقوب» عليه السلام الملقب بإسرائيل، وهو الذي بُشِّر به جدُّه إبراهيم عليه السَّلام وجدّته «سارة».

وعندما توفِّي إسحاق عليه السَّلام دُفن في الخليل حيث دُفن أبوه إبراهيم عليه السلام[١]، كما تذكر كتب التاريخ.

❊ ❊ ❊

سابعًا: سارة أم إسحاق عليه السلام:

سارة ـ عليها السَّلام ـ زوجة خليل الرّحمن إبراهيم عليه السَّلام فهي زوجة نبيٍّ ورسول من أولي العزم من الرسل، وهو أبو الأنبياء، وأفضل الخلق على الإطلاق بعد نبينا محمد ﷺ، فهي:

❊ زوجة نبي ورسول: زوجة إبراهيم عليه السلام.

---

(١) في صحبة الرسل الكرام، السيّد عبد المقصود عسكر، دار البشير للثقافة والعلوم، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص٩٢.

* أم نبي: أم إسحاق عليه السلام.

* جدة نبي: جدة يعقوب عليه السلام.

* أم جَدِّ نبي: يوسف عليه السلام.

* جارة أم نبي: جارة هاجر أم إسماعيل عليهما السلام.

* إليها ينتهي نسب أنبياء بني إسرائيل من ناحية الأم: موسى، وهارون، وداود، وسليمان، وزكريا، ويحيى، وعيسى، وغيرهم عليهم السلام.

وتذكر كتب التاريخ أنّها كانت فائقة الجمال، وكانت في نصف جمال حواء؛ الجمال الأصلي الحقيقي، لا جمال الغش والمكر وتغيير الخِلقة الإلهية[١].

هاجرت مع زوجها إبراهيم عليه السَّلام وتحمَّلت معه البلاء في الله عزّ وجل، وجبر الله خاطرها بإسحاق وحفيدها يعقوب عليهما السلام، فسلامٌ على أمِّ الأنبياء، وسلام على ولديها وحفيديها «إسحاق ويعقوب» عليهما السلام، وسلامٌ على زوجها «إبراهيم عليه السلام» [٢].

* * *

ثامنًا: بلاد الشام من منارات التوحيد:

شاء الله تعالى بعد أن هاجر إبراهيم عليه السلام أن يُقيم منارة من منارات التوحيد في بلاد الشام، وورث إسحاق النبوَّة عن إبراهيم، ومن بعد إسحاق جاء يعقوب، وهكذا إلى أن جاء سليمان عليه السلام.

أما في مكة المكرمة، فلقد جاء إبراهيم عليه السَّلام بهاجر، وشاء الله أن

(١) زوجات الأنبياء، د. مصطفى مراد، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة، (د.ت)، ص٢٨ ـ ٢٩.

(٢) المرجع نفسه، ص٣١.

تكون هاجر أمًّا للعرب، وأرسل الله إسماعيل عليه السَّلام إلى عرب الحجاز واليمن، فدعاهم إلى التوحيد وإفراد الله بالعبادة، فاستجابوا له، ولم تنقطع آثار هذه الدعوة حتى بَعث الله خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي كان من نسل إسماعيل عليه السلام.

وإذن، فلقد توحَّدت بلاد الشام ممثَّلة بإسحاق مع شبه الجزيرة العربية ممثلة بإسماعيل، وكان إبراهيم الخليل رائد هذه الوحدة الكريمة، وأراد الله لخليله أن يكون له بيتان: أحدهما في القدس، والآخر في مكة، وكان إبراهيم عليه السَّلام يتنقَّل بين هذين البيتين، وفي ذلك دليل واضح على أن هذه المنطقة كيان واحد، وشاء الله تعالى أن يكون إسراء محمد ﷺ من مكة المكرمة إلى بيت المقدس، وهناك يُصلِّي بأنبياء الله ورسله إمامًا، ثم يعرج إلى السماء، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

لو أراد الله لكان عروج رسول الله من مكة، وليس من المسجد الأقصى، ولكنّه جلّ وعلا شاء أن يكون الإسراء بين مكة والقدس، والعروج من القدس، وفي هذا دليل على ارتباط القدس بمكة، وقد أدرك أصحاب رسول الله هذه الحقيقة، فسارعوا إلى فتح بلاد الشام، وطهّروا الأقصى من وثنيات الرومان، وحاول أعداء الله احتلال القدس مرات ومرات، لكن هذه المحاولات تحطَّمت أمام صمود المسلمين، وقوة بأسهم[١].

قال صاحب (خطط الشام): أدرك العالم كلُّه منذ القديم أهمية موقع بلاد الشام، فكانت هدفًا للغزاة الفاتحين، جاءها الفراعنة من البر والبحر، والبابليون والفرس من الشرق والشمال، وغازان وهولاكو وتيمورلنك من الشرق، ونابليون من الجنوب ومن الغرب بحرًا، وإبراهيم باشا المصري برًّا

(١) منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله، محمد سرور بن نايف زين العابدين، ص١٧٩.

وبحرًا، أي من الغرب والجنوب الغربي، وجيوش الحلفاء من الإنجليز والفرنسيين والعرب ـ يعني الكاتب بالعرب جنود فيصل بن الحسين ـ من الجنوب والغرب.

ورأت الشام طلعة عمر بن الخطاب، وأبي عبيدة بن الجراح، وخالد بن الوليد، وموسى بن نصير، وعمر بن عبد العزيز، ونور الدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي، والسلطان سليم من الفاتحين، وابن تيمية، وغيرهم من المجدّدين، وبختنصر، وهولاكو، وجنكيز، وغازان، وتيمورلنك وغيرهم من المخرّبين[١].

إن بلاد الشام مهبطٌ للوحي، وموئلٌ للأنبياء، ومقرٌّ للخليل إبراهيم عليه السَّلام وابنه إسحاق وأحفاده من الأنبياء عليهم السَّلام، وقد باركهم الله من فوق سبع سماوات.

* * *

(١) خطط الشام، محمد كرد علي، مكتبة النوري، دمشق، ط٣، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م، (١/ ١٢ ـ ١٦)؛ منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله، محمد سرور بن نايف زين العابدين، ص١٧٩.

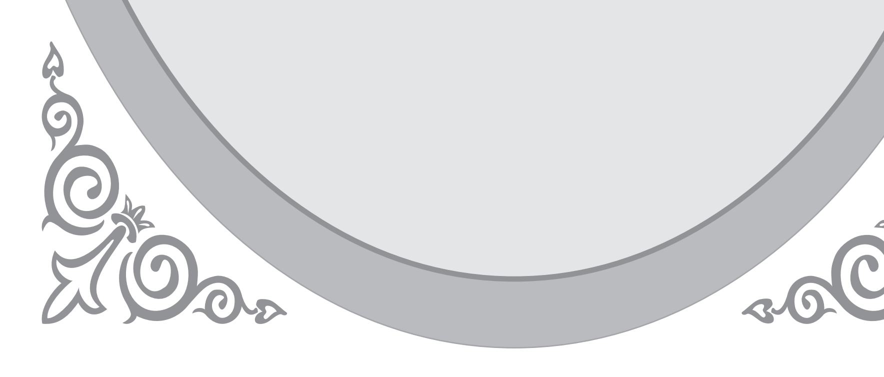


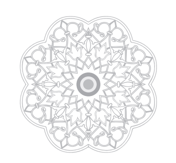
الفصل الرابع

نجاح إبراهيم عليه السلام في الابتلاء، وإمامته للناس وبناؤه الكعبة ووصيته لبنيه في سورة البقرة، ودعاؤه وتضرُّعه وثناؤه على الله ودعوته الناس للحج في سورة إبراهيم

- المبحث الأول: نجاح إبراهيم عليه السلام في الابتلاء، وإمامته للناس وبناؤه الكعبة ووصيته لبنيه في سورة البقرة.
- المبحث الثاني: دعاء إبراهيم عليه السلام وتضرُّعه وثناؤه على الله، ودعوته الناس للحج في سورة إبراهيم.

* * *





المَبْحَثُ الأَوَّلُ

نجاح إبراهيم عليه السلام في الابتلاء، وإمامته للناس وبناؤه الكعبة، ووصيته لبنيه في سورة البقرة

قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ

إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٢٤ ـ ١٤١].

في الآيات الكريمة التي ذُكرت من سورة البقرة، كان الجدال مع أهل الكتاب دائرًا كلُّه حول سيرة بني إسرائيل ومواقفهم من أنبيائهم وشرائعهم، ومن مواثيقهم وعهودهم، ابتداءً من عهد موسى عليه السَّلام إلى عهد محمد ﷺ، أكثرُه عن اليهود وأقلُّه عن النصارى، مع إشارات إلى المشركين عند السمات التي يلتقون فيها مع أهل الكتاب، أو يلتقي معهم فيها أهل الكتاب.

فالآن يرجع السّياق إلى مرحلة تاريخية أسبق من عهد موسى، يرجع إلى إبراهيم عليه السلام، وقصة إبراهيم عليه السلام ـ على النحو الذي تُساق به في موضعها هنا ـ تؤدي دورها في السّياق، كما أنّها تؤدي دورًا هامًّا فيما شجر بين اليهود والجماعة المسلمة في المدينة من نزاع حادٍّ مُتشعِّب الأطراف.

إنَّ أهل الكتاب يرجعون بأصولهم إلى إبراهيم عن طريق إسحاق عليهما السلام، ويعتزّون بنسبتهم إليه، وبوعد الله له ولذُريّته بالنمو والبركة، وعهده معه ومع ذُريّته من بعده، ومن ثم لا يحتكرون لأنفسهم الهدى والقوامة على الدين فحسب، بل يحتكرون لأنفسهم الجنة أيًّا ما كان يعملون[(١)].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (١/ ١١١).

وإنَّ قريشًا لترجع بأصولها كذلك إلى إبراهيم عن طريق إسماعيل عليهما السلام، وتعتزُّ بنسبتها إليه، وتستمدُّ منها القوامة على البيت، وعمارة المسجد الحرام، وتستمدُّ كذلك سلطانها الديني على العرب وفضلها وشرفها ومكانتها.

وقد وصل السِّياق فيما مضى إلى الحديث عن دعاوى اليهود والنصارى العريضة في الجنة ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾، وعن محاولتهم أن يجعلوا المسلمين يهودًا أو نصارى؛ ليهتدوا ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ﴾، كذلك وصل الحديث إلى الذين يمنعون مساجد الله أن يُذكر فيها اسمُه ويَسعَوْن في خرابها، وقلنا[١] هناك: إنّها قد تكون خاصّة بموقف اليهود من قضية تحويل القبلة، وبالدعاية المسمومة التي أثاروها في الصّف الإسلاميّ بهذه المناسبة، فالآن يجيء الحديث عن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق عليهم السلام والحديث عن البيت الحرام وبنائه وعمارته وشعائره... في جوّه المناسب؛ لتقرير الحقائق الخالصة من ادّعاءات اليهود والنصارى والمشركين جميعًا، حول هذه النسبة وهذه الصلات، ولتقرير قضية القبلة التي ينبغي أن يتَّجه إليها المسلمون[٢].

كذلك تجيء المناسبة لتقرير حقيقة دين إبراهيم، وهي التوحيد الخالص، وبُعدِ ما بينها ـ أي عقيدة إبراهيم ـ وبين العقائد المشوَّهة المنحرفة التي عليها أهل الكتاب والمشركون سواء، وقرب ما بين عقيدة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ـ وهو إسرائيل الذي ينتسبون إليه ـ وعقيدة الجماعة المسلمة بآخر دين، ولتقرير وحدة دين الله واطراده على أيدي رسله جميعًا، ونفي فكرة احتكاره في أيدي أمة أو جنس، وبيان أن العقيدة تراث القلب المؤمن لا تراث العصبية العمياء، وأن وراثة هذا التراث لا تقوم على قرابة الدم

(١) القول لسيد قطب.
(٢) المرجع السابق، (١/ ١١١).

والجنس، ولكن على قرابة الإيمان والعقيدة، فمن آمن بهذه العقيدة ورعاها في أي جيل ومن أي قبيل فهو أحقُّ بها من أبناء الصلب وأقرباء العصب، فالدين دين الله، وليس بين الله وبين أحد من عباده نسب ولا صهر.

هذه الحقائق التي تُمثِّل شطرًا من الخطوط الأساسية في التصوُّر الإسلامي، يجلوها القرآن الكريم هنا في نسق من الأداء عجيب، وفي عرض من الترتيب والتعبير بديع، يسير بنا خطوة خطوة من لدن إبراهيم عليه السَّلام، منذ أن ابتلاه ربُّه واختبره، فاستحق اختياره واصطفاءه وتنصيبه للناس إمامًا، إلى أن نشأت الأمة المسلمة المؤمنة برسالة محمد ﷺ استجابة من الله لدعوة إبراهيم وإسماعيل، وهما يرفعان القواعد من البيت الحرام، فاستحقَّت وراثة هذه الأمانة دون ذرية إبراهيم جميعًا، بذلك السبب الوحيد الذي تقوم عليه وراثة العقيدة، سبب الإيمان بالرسالة، وحسن القيام عليها، والاستقامة على تصوُّرها الصحيح.

وفي ثنايا هذا العرض التاريخي يُبرز السِّياق أن الإسلام ـ بمعنى إسلام الوجه لله وحده ـ كان هو الرسالة الأولى، وكان هو الرسالة الأخيرة، هكذا اعتقد إبراهيم، وهكذا اعتقد من بعده إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط؛ حتى أسلموا هذه العقيدة ذاتها إلى موسى وعيسى، ثم آلت أخيرًا إلى ورثة إبراهيم من المسلمين[1].

فمَنِ استقام على هذه العقيدة الواحدة فهو وريثها، ووريث عهودها وبشاراتها، ومن فسق عنها ورغب بنفسه عن مِلّة إبراهيم فقد فسق عن عهد الله، وفقد وراثته لهذا العهد وبشاراته، عندئذ تسقط كلُّ دعاوى اليهود والنصارى في اصطفائهم واجتبائهم، لمجرد أنهم أبناء إبراهيم وحفدته، وأنهم ورثته وخلفاؤه.

لقد سقطت عنهم الوراثة منذ أن انحرفوا عن هذه العقيدة، وعندئذ تسقط كذلك كل دعاوى قريش في الاستئثار بالبيت الحرام وشرف القيام عليه

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (١/ ١١١).

وعمارته؛ لأنهم فقدوا حقَّهم في وراثة باني هذا البيت ورافع قواعده بانحرافهم عن عقيدته، ثم تسقط كل دعاوى اليهود فيما يختص بالقبلة التي ينبغي أن يتَّجه إليها المسلمون، فالكعبة هي قبلتهم وقبلة أبيهم إبراهيم. كل ذلك في نسق من العرض والأداء والتعبير عجيب، حافل بالإشارات الموحية، والوقفات العميقة الدلالة والإيضاح القوي التأثير، فلنأخذ في استعراض هذا النسق العالي في ظل هذا البيان المنير[(١)].

* * *

أولاً: قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]:

شاءت حكمة الله تعالى أن يَبتلي عبدَه إبراهيم عليه السَّلام، فنجح إبراهيم نجاحًا عظيمًا.

١ ـ قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾:

يقول الله عزّ وجل للنبيِّ محمد ﷺ: اذكر ما كان من ابتلاء الله عزّ وجل لإبراهيم بكلمات من الأوامر والتكاليف، فأتمهنَّ وفاءً وقضاء، وقد شهد الله لإبراهيم في موضع آخر بالوفاء بالتزاماته على النحو الذي يرضى الله عنه، فيستحق شهادته الجليلة ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾، وهو مقام عظيم، ذلك المقام الذي بلغه إبراهيم، مقام الوفاء والتوفية بشهادة الله عزّ وجل، والإنسان بضعفه وقصوره لا يُوفِّي ولا يستقيم[(٢)].

فقد قام إبراهيم عليه السَّلام بالكلمات الشرعية وأتمّها ووفّاها، وصبر واحتسب. فمن الأمور الشرعية ما صحّ عن ابن عباس رضي الله عنه في تفسيره هذه الآية قال: ابتلاه الله بالطهارة: خَمسٌ في الرأسِ، وخمسٌ في الجَسَدِ؛

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (١/ ١١٢).
(٢) المرجع نفسه، (١/ ١١٢).

خمسٌ في الرأس: قصُّ الشَّارِبِ، والمضمضةُ، والاستنشاقُ، والسِّواكُ، وفَرْقُ الرأسِ. وفي الجَسَدِ: تقليمُ الأظفارِ، وحَلْقُ العانة، والختانُ، ونتفُ الإبْط، وغسلُ أثَر الغائِطِ والبَولِ بالماءِ. ومن ذلك أيضًا: الإسلام، والحج، والإحرام، والطواف، والسعي، ورمي الجمار[١].

وغير ذلك من التفاسير. والرأي الذي قال به الدكتور عبد الحليم محمود مستندًا على الإمام الحسن البصري: هو ما أمره الله تعالى بشيء إلا وفّى به[٢].

وقد نجح إبراهيم عليه السَّلام في ابتلاءات عديدة بفضل الله تعالى، منها:

* نجح إبراهيم عليه السلام في ابتلاء الدعوة، عندما دعا أباه وقومه وحاكمَ قومه.

* نجح الخليل في ابتلاء المواجهة؛ عندما واجه الكفارَ، وثَبت على الحق.

* نجح في ابتلاء الهجرة عندما هاجر إلى الأرض المقدسة.

* نجح في ابتلاء الفراق عندما وضع زوجه وابنه في وادٍ غير ذي زرع.

* نجح في ابتلاء التضحية عندما نفَّذ رؤياه بذبح ابنه، لولا أنّ الله فداه.

* نجح في ابتلاء الكرم والضيافة.

* نجح في ابتلاء بناء البيت.

* نجح في ابتلاء العبادة والذكر والشكر والتوبة وسنن الفطرة والاختتان والدعاء.

* نجح في ابتلاء الولاء والبراء والمصارمة للأعداء.

* نجح في ابتلاء الإمامة والريادة والقدوة[٣].

---

(١) تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، دار العبيكان، الرياض، ط١، ٢٠١٦م، ص٢١٥.

(٢) قصص الأنبياء في رحاب الكون، د. عبد الحليم محمود.

(٣) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٤٤١).

وتدخل في الكلمات التي كلَّف اللهُ إبراهيمَ عليه السلام بها، وما تشمله من أوامرَ ونواهٍ وأحكام وواجبات، سواءٌ ما يتعلَّق منها بالعقيدة، أو العبادة، أو الدعوة، أو الأخلاق، أو غير ذلك(١).

﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾: أي: أدّاهن أحسن التأدية، وقام بهنَّ حقَّ القيام من غير تفريط ولا تقصير ولا تأخير، فقام بالكلمات الشرعية ووفّى بها، واحتسب وصبر على طاعة الله، وعلى أقدار الله، ولذلك رفع الله منزلته، وكافأه على ذلك في الدنيا والآخرة(٢).

وبهذا شهد الله له بأنه أتمَّ الالتزام بالكلمات، وأتمّ أداء التكاليف والواجبات ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾، ولعل السبب في نجاح إبراهيم في الابتلاء، والباعث له على إتمام الكلمات والواجبات، هو قوة صلته بالله، وسلامة قلبه من الآفات والنقائص وامتلاؤه بالإيمان والإحسان، حيث أثنى الله على إبراهيم بقوله: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٣ ـ ٨٤].

ولما نجح إبراهيم في ابتلاء الله، وأتمّ الكلمات، أكرمه الله بأن جعله إمامًا للناس(٣).

٢ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾:

والإمام: هو الذي يأتمّ به الناس، ويقتدون به في الخير، ويتأثرون به، ويتخلّقون بأخلاقه، ويهتدون بهديه.

قال الإمام الراغب: الإمام هو: المُؤتَمُّ به، إنسانًا: كأن يُقتدى بفعله أو قوله، أو كتابًا أو غير ذلك، سواءٌ كان مُحقًّا أو مُبطلاً، وجمعه أئمة(٤).

---

(١) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٤٤١).
(٢) تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص٢١٥.
(٣) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٤٤٢).
(٤) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ص٢٤.

والإنسان الصالح إمام وقدوة في الخير، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤]، وجعل الله إبراهيم عليه السَّلام إمامَ هدًى للناس، كلِّ الناس على اختلاف الزمان والمكان: ﴿ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾، وبقي إبراهيم إمامًا لمن بعده من المؤمنين، كان إمامًا لمؤمني بني إسرائيل، وإمامًا لمؤمني النصارى، وصار إمامًا للمسلمين أتباع محمد ﷺ، ومازال إمامًا لهذه الأمة وسيبقى إمامًا لها، ما دامت هذه الأمة باقية، إن إبراهيم عليه السَّلام إمام دعوة، ومنار هدى، ومَعلَم عقيدة، ونور طريق منذ وجوده وحتى قيام الساعة[١].

وجعله الله إمامًا للناس، وهيّأ له حياة غنية بالتجارب الإنسانية؛ لتكون نماذج حيّة يَحتذي بها كل من يوجّه وجهه للذي فطر السماوات والأرض حنيفًا مسلمًا. وهذا معنى عالمية دعوته عليه السلام. لقد كان إبراهيم إمامًا في كل دقيقة من دقائق حياته، يسجّل للناس قواعد خالدة في معاشهم ومعادهم، يَفيئُون إليها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها[٢].

إنّ إمامة الناس التي أكرمه الله بها جاءت بعد نجاحه في الابتلاء، وإتمامه للكلمات، وهذا دليل على أن الإمامة لا تأتي إلا بعد نجاح في العمل وأداء للواجبات، فطريق الإمامة ليس سهلاً، بل هو شاقٌّ يحتاج إلى جهد ومجاهدة، وصبر ومصابرة، وتحمُّل للمشقة والتعب.

إنَّ من يعيش على هامش الحياة لن يكون إمامًا، وإن من يعيش مع توافه الحياة لن يكون إمامًا، وإنَّ من يعيش كسولاً أنانيًا لا مباليًا لن يكون إمامًا، فللإمامة رجالُها الأشدّاء، وروادُها الأولياء، وصالِحوها الأوفياء، وإمامُهم إبراهيم أبو الأنبياء عليه الصلاة والسلام.

---

(١) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٤٤٢).
(٢) من أنباء القرى، أحمد عبيد الكبيسي، ص٢٠٥.

ولمَّا أخبر الله إبراهيم عليه السلام بأنه جعله للناس إمامًا، سأل عن الأئمة من ذُريّته[١].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ﴾:

ولما اغتبط إبراهيم عليه السلام بمقام الإمامة للناس طلب ذلك لذُريّته؛ لتعلوَ درجتُه ودرجة ذُريّته، وهذا أيضًا من إمامته ونُصحه لعباد الله ومحبته أن يكثر فيهم المرشدون، فلله عظمة هذه الهمم العالية، والمقامات السامية[٢].

فقد أحب الخير لأولاده وأحفاده، وهذه طبيعة أصحاب الفطر السليمة من بني البشر، كما أنّها رغبة في الامتداد في طريق الخيرات عن طريق الذراري والأحفاد، ذلك الشعور الفطري العميق الذي أودعه الله فطرة البشر لتنموَ الحياة، وتمضيَ في طريقها المرسوم، يُكمل اللاحق ما بدأه السابق، وتتعاون الأجيال كلُّها، وتتساوق على ذلك الشعور الذي يحاول بعضهم تحطيمه وتعويقه وتكبيله، وهو مركوز في أصل الفطرة لتحقيق تلك الغاية البعيدة المدى، وعلى أساسه يُقرِّر الإسلام شريعة الميراث، تلبيةً لتلك الفطرة، وتنشيطًا لها لتعمل، ولتبذل أقصى ما في طَوْقها من جهد[٣].

وتلبية لأشواق الفطرة، قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ﴾، وجاء الردُّ من ربه الذي ابتلاه واصطفاه، يُقرِّر القاعدة الكبرى: إنّ الإمامة لمن يستحقونها بالعمل والشعور وبالصلاح والإيمان، وليست وراثة أصلاب وأنساب، فالقربى ليست وشيجة لحم ودم، إنما هي وشيجة دين وعقيدة[٤]، ولذلك قال: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

---

(١) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٤٤٣).

(٢) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص٩١.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، (١/ ١١٢).

(٤) المرجع نفسه، (١/ ١١٢).

٤ ـ قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ :

إن الظلم أنواع وألوان: ظلم النفس بالشرك، وظلم الناس بالبغي. والإمامة الممنوعة على الظالمين تشمل كل معاني الإمامة: إمامة الرسالة، وإمامة الخلافة، وإمامة الصلاة، وكل معنى من معاني الإمامة والقيادة؛ فالعدل بكل معانيه هو أساس استحقاق هذه الإمامة في أية صورة من صورها، ومَن ظَلَم ـ أي لون من ألوان الظلم ـ فقد جرّد نفسه من حقّ الإمامة، وأسقط حقّه فيها بكل معنى من معانيها[١].

وتبيّن الآية الكريمة أنّ الظالمين لا حقّ لهم في سياسة الشعوب؛ إنّ وظيفة السياسة قيادة الشعوب لدفع المفاسد وجلب المصالح في جميع المجالات العقدية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية... إلخ، وقد مارس ذلك أنبياء الله كداود وسليمان ومحمد عليهم الصلاة والسلام وفق شرع الله وأحكامه سبحانه وتعالى.

إنّ الذين يحاولون إقناع الناس بأن السياسة نجسة، والدين طاهر، ولا يليق أن نخلط المقدس بالرجس، إنما يحاولون بذلك صرف السياسة عن رقابة الدين والأخلاق، وهذا مبدأ جاهلي قديم يقول: «دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله»، أو يحاولون فصل سياسة الناس عمّا يعتقدونه من دين، وهي عملية شريرة حقًّا أن تسوس الناس وفق أهوائك لا وفق معتقداتهم، ثم تقول لهم، وأنت تهز كتفَيْك: لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين.

إن هذا المبدأ الظالم يجعل مقاليد الأمور في أيدي أفسد الناس، وأظلم الناس، ممَّن لا يُقرّون شرعية، ولا يحتكمون للكتاب، وإن الآية الكريمة: ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ تهدم عليهم فكرتهم الباطلة تلك، فقد حرّم الله أن تصير مقاليد الأمور إلى الظالمين؛ فمنصب سياسة الناس يُحرِّم أن يُوسَّد الأمر

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (١/ ١١٢).

إلى غير أهله، كأن يخلفُ الأنبياءَ خَلفٌ لا يستنُّون بسنَّتهم، ويسوسون الناس بالهوى، ويقولون ما لا يفعلون، ويفعلون في شؤون العبادة ما لا يؤمرون، حيث تنحرف وظيفة الخلافة التي خلق الله الإنسان من أجلها، فذلك محض حرام أن تكون مقاليد سياسة البشر في أيدي الظالمين، ولا سيما الذين يفصلون الكتاب عن القارئ، والشريعة عن القضاء، والدين عن السياسة.

وهذا ما أكد الله عليه، حينما عهد بالأمر إلى إبراهيم عليه السَّلام وكلّفه أن يكون للناس إمامًا يسوسهم بمنهج الله، فسأل إبراهيم أن تكون هذه الإمامة في ذريته، فكان الردّ بحرمة أن يؤول هذا الأمر إلى الظالمين[١].

فهذا المنصب يحرُم على الظالمين، ولا يجوز للظالم أن يسوس الناس، فضلاً عن حرمة الركون إليه. واستدل أهل العلم بهذه الآية، على أن أهل الحلِّ والعقد يتوجب عليهم عزل الإمام إذا سار في الرعية بسيرة الظلم، كما حكى الإمام الماوردي[٢].

وقال ابن تيمية: فدلَّ على أن الظالم لا يُؤتَمُّ به[٣]. وقال السعدي: ودل مفهوم الآية أن غير الظالم سينال الإمامة، ولكن مع إتيانه بأسبابها[٤].

وقال القرطبي: استدلَّ جماعة من العلماء بهذه الآية على أن الإمام يكون من أهل العدل والإحسان والفضل مع القوة على القيام بذلك، وهو الذي أمر

---

(١) رؤية إسلامية للنهضة بواقع الأمة، محمد مسعد ياقوت، دار السلام للطباعة، القاهرة، ط١، ٢٠١٣م، ص٢٢.

(٢) الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي، الماوردي، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م، (١٢/ ١٥٤).

(٣) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، ابن تيمية، محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م، (٨/ ٢٥٥).

(٤) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص٩١.

النبيُّ ﷺ ألا ينازعوا الأمر أهله. فأما أهل الفسوق والجور والظلم فليسوا له بأهل لقوله تعالى ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (١).

❊ ❊ ❊

ثانيًا: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]:

١ ـ ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾:

ذكر الله تعالى أنموذجًا باقيًا دالاًّ على إمامة إبراهيم عليه السَّلام وهو هذا البيت الحرام الذي جُعل قصدُه ركنًا من أركان الإسلام، حاطًّا للذنوب والآثام، وفيه من آثار الخليل وذُريّته ما تُعرف به إمامتُه، وتُذْكَر به حالته(٢).

أ ـ ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ﴾:

﴿وَإِذْ﴾ للظرفية، وهي متعلقة بمحذوف تقديره «اذكر» يعني: اذكر يا محمد للناس هذا الأمر الذي صيَّرناه للناس، ﴿جَعَلْنَا﴾ أي: صيَّرنا، ﴿الْبَيْتَ﴾: «الـ» هنا للعهد الذهني، والمراد به الكعبة، لأنّها بيت الله عزّ وجل، وأتى هنا بـ«الـ» التفخيم والتعظيم يعني: البيت المعهود الذي لا يُجهل(٣).

وسُمّيت الكعبة بذلك لتكعيبها، أي تربيعها ولارتفاعها ونتوئها، وارتفاع ذكرها في الدنيا واشتهار أمرها في العالم، ولذلك يقولون لمن عظُم أمره: فلان علا كعبُه(٤).

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم عدة أسماء للكعبة، من هذه

---

(١) تفسير القرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، القرطبي، (٢/ ٧٤ ـ ٧٥).
(٢) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص٩١.
(٣) قصص القرآن، محمد صالح بن العثيمين، ص٦١.
(٤) بيت الله الحرام الكعبة، محمد عبد الله، ص٣٠.

الأسماء: البيت العتيق، قال تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩]، وسبب تسُمِّيته بالبيت العتيق قيل في ذلك عدة أسباب، منها:

* لأنَّ الله تعالى أعتقه من الجبابرة.

* أنَّ العتيق بمعنى القديم.

* أنّه لم يُملَك قطُّ.

* لأنّه أعتق من الغرق زمن الطوفان(١).

وسمّيت مكة بـ«بَكَّة»، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾، وسبب التسمية، ذكر العلماء فيها أقوالاً، منها:

* لازدحام الناس عندها، والمعنى هو الزحم، إذ يُقال: بَكَّ فلان فلاناً إذا زحمه وصدمه، فهو يَبكُّه بكًّا، وسُمِّيت البقعة بفعل المزدحمين بها(٢).

* لأنّها تبكّ أعناق الجبابرة، أي تدقُّها، فلم يقصدها جبار إلا قصمه الله(٣).

* لأنّها تَضَع من نخوة المتجبرين، يُقال: بككت الرجل أي وضعت منه، ووردت نخوته، بمعنى أنهم يذلون بها، ويخضعون عندها(٤).

ومن أسمائها: المسجد الحرام، قال تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤] (٥).

ومن أسمائها: أم القرى؛ لشرفها وعلوِّ كعبها على باقي القرى، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا

---

(١) مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن، ابن الجوزي، تحقيق: مصطفى محمد حسين الذهبي، دار الحديث، القاهرة ط١، ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥م، ص٢٤٣.

(٢) زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط٤، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م، (١/ ٣٤٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، (٢/ ٥٧).

(٤) زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، (١/ ٣٤٣).

(٥) بيت الله الحرام الكعبة، محمد عبد الله، ص٣١.

رَيْبَ فِيهِۚ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢].

وسُمِّيت بأم القرى؛ لتقدُّمها على سائر القرى، وسُمِّيت بذلك لأنَّ الأرض منها دُحيت، وعنها حدثت، فصارت أمًّا لها لحدوثها عنها، كحدوث الولد عن أمه.

وسمّيت كذلك بالبلد الأمين: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [١].

ب ـ ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾

أي: مرجعًا ومعادًا، كلما انصرفوا منه اشتاقوا إليه، فعادوا وثابوا إليه في الحج والعمرة والعبادة، فلا ينقضي منه الوطر ولا تشبع منه النفوس، ويثوبون إليه أيضًا في الصلاة بقلوبهم ويتوجَّهون إليه بأجسادهم، ويتذكَّرونه في كل يوم وليلة[٢].

ويقول الشيخ محمد متولي الشعراوي في قوله تعالى ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾: تأمَّلْ كلمة البيت وكلمة مثابة، بيت مأخوذ من البيتوتة، وهو المأوى الذي تأوي إليه وتسكن فيه وتستريح، وتكون فيه زوجتك وأولادك، ولذلك سُمِّيت الكعبة بيتًا؛ لأنّها في المكان الذي يستريح إليه كل خلق الله، ومثابة يعني مرجعًا تذهب إليه وتعود، ولذلك فإن الذي يذهب إلى بيت الله الحرام مرة يجب أن يرجع مرات ومرات، إذن فهو مثابة له؛ لأنه ذاق حلاوة وجوده في بيت ربّه، وأتحدَّى أن يُوجد شخص في بيت الله الحرام يشغل ذهنه غير ذكر الله وكلامه وقرآنه وصلاته[٣].

---

(١) ملة أبيكم إبراهيم، عبد الستار كريم المرسومي، ص١٨٦.
(٢) تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص٢١٧.
(٣) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١/ ٥٧٥).

تنظر إلى الكعبة فيذهب كلُّ ما في صدرك من ضيق وهمٍّ وحزن، ولا تتذكَّر أولادك ولا شؤون دنياك، ولو ظلت جاذبية بيت الله تعالى في قلوب الناس مستمرة؛ لتركوا كل شؤون دنياهم ليبقوا بجوار البيت، ولذلك كان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حريصًا على أن يعود الناس إلى أوطانهم وأولادهم بعد انتهاء مناسك الحج مباشرة.

ومن رحمة الحق سبحانه: أن الدنيا تختفي من عقل الحاج وقلبه؛ لأنَّ الحجيج في بيت ربِّهم، وكلما كربهم شيء أو أهمَّهم شيء، توجَّهوا إلى ربّهم وهم في بيته، فيذهب عنهم الهمّ والكرب، ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، أفئدة وليست أجسامًا، وتهوي أي يُلقون أنفسهم إلى البيت... إن من الخير أن تترك الناس يثوبون إلى بيت الله؛ ليمحو الله سبحانه ما في صدورهم من هموم مشكلات الحياة وضيقها[(١)].

و﴿وَأَمْنًا﴾ أي: جعلناه آمنًا، يأمن فيه الناس على دمائهم وأموالهم، ويأمن فيه حتى الصيد والأشجار أن تقطع، وهو محل آمن لمن يسكنه، وكان الرجل في الجاهلية يرى قاتل أبيه وأخيه في الحرم، فلا يتعرَّض له، وكانوا لا يُغيرون على مكة مع شركهم. ولأجل توفير الأمن فيه نهى النبي ﷺ عن حمل السلاح في مكة المكرمة، فقال: «لا يُحمَلُ فيها سِلاحٌ لِقِتالٍ» [(٢)].

٢ ـ ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾:

المقامُ في اللغة: بفتح الميم، هو موضع القدمين، من قام يقوم، يكون مصدرًا واسمًا للموضع، ومقام إبراهيم هو الحَجَر الذي قام عليه نبي الله

---

(١) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١/ ٥٧٦).

(٢) صحيح مسلم، رقم (١٣٧٤)، تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص٢١٧.

إبراهيم الخليل ـ عليه الصلاة والسَّلام ـ حين ارتفع بناؤه للبيت، وشقَّ عليه تناول الحجارة، فكان يقوم عليه وهو يبني، وإسماعيل عليه السلام يناوله الحجارة.

وقام عليه أيضًا للنداء والأذان بالحج في الناس، وفي هذا الحَجَر المكرّم أثر قدمَيْ إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، حيث جعل الله تعالى تحت قدميه من ذلك الحَجَر في رطوبة الطين، حيث غاصت فيه قدماه ليكون ذلك آية بيِّنة ظاهرة، وهو الحَجَر الذي يعرفه الناس إلى اليوم عند الكعبة المشرّفة الذي يُصلون عنده ركعتي الطواف، وهذا القول في التعريف بمقام إبراهيم هو القول الصحيح عند جمهور العلماء والمفسّرين المحققين(١).

وهناك أقوال أخرى في المراد من ﴿مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ مروية عن بعض المفسرين المتقدِّمين، أذكرها ـ وإن كانت مرجوحة ـ لاستيفاء القول، فقيل: هو عرفة ومزدلفة والجمار، وقيل: هو الحرم كلُّه، ومما يدلُّ على صحة القول الأول الذي عليه الجمهور: أنّ الله تعالى أمرنا بفعل الصلاة خلف المقام في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، وليس في الصلاة تعلّق بالحرم ولا سائر المواضع التي ذُكرت في الأقوال الأخرى(٢).

وروى أنس عن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: وافقت ربي عزَّ وجل في ثلاث، قلت: يا رسول الله، لو اتَّخذتَ من مقام إبراهيم مصلًّى، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ . . .(٣).

وصلّى النبي ﷺ خلف المقام، كما في حديث جابر رضي الله عنه ـ عند مسلم في صحيحه في صفة حج النبي ﷺ ـ قال: فرَمل ثلاثًا، ومشى أربعًا، ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فقرأ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ

---

(١) فضل الحجر الأسود ومقام إبراهيم وذكر تاريخهما وأحكامهما الفقهية وما يتعلَّق بهما، سائد بكداش، دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٩٩٦م، ص١٠٢.

(٢) المرجع نفسه، ص١٠٢.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب (٣٢)، صحيح مسلم، رقم (٢٤).

مُصَلًّى﴾، فجعل المقام بينه وبين البيت، فدلَّ على أن مراد الله تعالى بذكر المقام هو الحَجَر[١].

إنّ هذا الاسم في العُرف مُختص بهذا الحَجَر؛ ولأن الحَجَر صار تحت قدميه في رطوبة الطين حين غاصت فيه رجلاه، وفي ذلك معجزة له، فكان اختصاصه به أقوى من اختصاص غيره، فكان إطلاقُ هذا الاسم عليه أَولى[٢].

أ ـ قيام إبراهيم على المقام للأذان بالحج:

إنّ هذا الحَجَر المكرّم ﴿مَّقَامِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الذي قام عليه إبراهيم الخليل لبناء البيت، هو نفسه الذي قام عليه حين أُمر بالأذان بالحج، ولا مانع من تكرّر صعوده على المقام مرة للبناء، وأخرى للنداء، وهو صريح الروايات في ذلك، ففي فتح الباري للحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: زاد في حديث عثمان: فلما فرغ إبراهيم من بناء الكعبة جاء جبريل فأراه المناسك كلَّها، ثم قام إبراهيم على المقام فقال: يا أيها الناس أجيبوا ربَّكم، فوقف إبراهيم وإسماعيل تلك المواقف[٣].

وروى الفاكهي، بإسناد صحيح من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: قام إبراهيم عند الحَجَر فقال: يا أيّها الناس، كُتب عليكم الحجُّ، فأسمع من في أصلاب الرجال وأرحام النساء، فأجابه مَن آمن، ومَن كان سبق في علم الله أنه يحجّ إلى يوم القيامة: لبيك اللَّهمَّ لبيك[٤].

ب ـ أثر قدمَيْ إبراهيم الخليل في حَجَر المقام:

إنَّ من آيات الله البيِّنة الباقية على مرّ الأزمان، في حرم الله الآمن، أثر قدمَيْ

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، (٢/ ٢٩٩).
(٢) البحر المحيط في التفسير، أبو حيّان الأندلسي، (١/ ٣٨١).
(٣) فضل الحجر الأسود ومقام إبراهيم، سائد بكداش، ص١٠٧.
(٤) أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، الفاكهي، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، دار خضر للطباعة والنشر، بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م، (١/ ٤٤٦).

نبيه إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام في ذلك الحَجَر الكريم ﴿مَّقَامِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾، وقد جعل الله ذلك معجزةً له حين قام عليه، وهو حجر صَلد، فلانَ تحت قدمَيْه حتى أصبح كالطّين، وغاصت قدماه فيه، ثم لمّا رفع قدميه عنه خلق الله فيه الصلابة الحجرية مرة أخرى، وبقي أثرُهما ظاهرًا فيه من ذلك العصر ـ من حوالي خمسة آلاف سنة ـ إلى يومنا هذا إلى ما شاء الله[١].

وقد كان أثر أصابع وأخمص قدميه الشريفتين في الحَجَر واضحًا إلى زمن الصحابة رضوان الله عليهم: ففي موطأ ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب، عن أنس رضي الله عنه قال: رأيت المقام فيه أصابعُ إبراهيم وأخمصُ قدمَيْه، غير أنه أذهبه مسحُ الناس بأيديهم[٢].

وأخرج الطبري في تفسيره من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة في تفسير قوله ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ﴾ قال قتادة: إنما أُمروا أن يُصلُّوا عنده، ولم يؤمَروا بمسحِه، ولقد تكلَّفت هذه الأمة شيئًا مما تكلَّفته الأمم قبلها، ولقد ذكر لنا بعض من رأى أثر عقبه وأصابعه، فما زالت هذه الأمة تمسحُه حتى اخْلَولَق وانمحى[٣].

وإنه يظهر من نص أثر سيدنا أنس رضي الله عنه المتقدِّم في الموطأ: أن أثر الأصابع وأخمص القدمين كان ظاهرًا، لكن كاد أن ينمحي بسبب مسح الناس للمقام، ولكن لم يذهب الأثر كلية، فمن عاينه عن قرب شديد، وأمعن النظر فيه، ظهر له بعض ذلك الأثر كما ذكر هذا مؤرخ مكة في القرن الرابع عشر الشيخ محمد طاهر الكردي رحمه الله حين فتح المقام ونظر فيه[٤].

---

(١) فضل الحجر الأسود ومقام إبراهيم، سائد بكداش، ص١٠٨.
(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، (٨/ ١٦٩)، وسكت عنه.
(٣) فضل الحجر الأسود ومقام إبراهيم، سائد بكداش، ص١١٣.
(٤) المرجع نفسه، ص١١٣.

قال ابن حجر: ولم تزل آثار قدمَيْ إبراهيم عليه السلام حاضرةً في المقام معروفة عند أهل الحرم حتى قال أبو طالب ـ عمّ النبي ﷺ ـ في قصيدته المشهورة:

ومَوطِئ إبراهيمَ في الصَّخرِ رَطبةً   على قَدَمَيهِ حافِيًا غَيرَ ناعِلِ[١]

ويظهر من أثر القدمين الشريفتين في المقام: أن إبراهيم الخليل عليه السلام كان حافيًا حين رقي المقام، كما أن أثر قدميه ظاهرٌ، كما ذكر أبو طالب في قصيدته[٢].

ويقول الشيخ محمد طاهر الكردي المكي رحمه الله بعد فتحه للمقام، وإمعان النظر في موضع قدمَيْ إبراهيم الخليل عليه السَّلام، وقياسه لذلك: والذي نستنتج من رؤيتنا للقدمين الشريفتين أن طول سيدنا إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه هو كطول الرجل العادي في زماننا ـ القرن الرابع عشر ـ لا بالطويل ولا بالقصير.

ولذلك كان نبينا محمد ﷺ يُشبِه جدَّه إبراهيمَ عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسَلين الصلاة والسلام، ففي صحيح البخاري قال رسول الله ﷺ في حديث الإسراء في وصف سيدنا إبراهيم عليه السلام: «**ورأيتُ إبراهيمَ وأنا أشبَهُ وَلَدِهِ به**»[٣].

وفي (طبقات) ابن سعد عند ذكر خبر كفالة عبد المطلب للنبي ﷺ قال ابن سعد: وقال قوم من بني مدلج[٤] لعبد المطلب ـ جدِّ النبي ﷺ ـ احتفظ به ـ

---

(١) الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام ومعه السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: مجدي بن منصور بن سيد الشورى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٩م، (١٣/٢).

(٢) فضل الحجر الأسود ومقام إبراهيم، سائد بكداش، ص١١٤.

(٣) صحيح ابن حبان، رقم (٥١).

(٤) فضل الحجر الأسود ومقام إبراهيم، سائد بكداش، ص١١٥.

أي: بالنبي ﷺ ـ فإنّا لم نرَ قدمًا أشبه بالقدم التي في المقام ـ مقام إبراهيم ـ منه[١].

ج ـ فضائل مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام:

لقد جعل الله تعالى لهذا الحَجَر الكريم ﴿مَّقَامِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فضائل عديدة، وخصّه بآيات كثيرة، تدلُّ على عظم شرفه وكبير شأنه، وقد ثبت فضله واشتهر بنص القرآن الكريم، وصريح السنة النبوية المطهرة.

تخليد ذكره في القرآن الكريم:

ذكر الله تعالى في كتابه العزيز هذا المقام الكريم في آيتين عظيمتين عند ذكره جلّ وعلا بيته المُشرَّف المُعظَّم، فهو قرآن يُتلى على مرِّ الدهور تخليدًا لذكره الحسن، وبيانًا لشرفه وفضله، وتكرمة لأبي الأنبياء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام.

فقد ذكره الله تعالى آية بيِّنة من أعظم آيات حرم الله، كما أمر المؤمنين باتخاذه مصلّى لهم، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، وفي هذا الأمر باتخاذه مصلًّى تنويه بشرفه وشأنه، وتخليد لذكره ما تلا كتابَ الله تالٍ، وما طاف بالبيت طائف، إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٩٦ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران: ٩٦ ـ ٩٧]، وهكذا أبقى الله تعالى ذكر هذا المقام الكريم يُذكر مع بيت الله وحجّه، مع الصلاة والدعاء خلفه إلى ما شاء الله تعالى[٢].

---

(١) فضل الحجر الأسود ومقام إبراهيم، سائد بكداش، ص١١٥.
(٢) المرجع نفسه، ص١٤٦.

من أعظم آيات الله البينات في حرم الله:

بيّن الله تعالى لعباده أن في بيته المحرّم المعظم المبارك آياتٍ بيناتٍ واضحةَ الدلالات ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ﴾، وإن مقام إبراهيم وأمن الداخل إلى الحرم جُعلا مثالاً مما في حرم الله من الآيات، وخُصّا بالذكر لعظمهما[١].

وهذه الآية العظمى ﴿مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ﴾ هي في نفسها تشتمل على عدة آيات واضحات عجيبة، ومعجزات باهرة، أظهرها الله سبحانه في ذلك الحَجَر الكريم، فهي آيات في آية، ومن هذه الآيات في مقام إبراهيم ما يلي:

* أثر القدمين في الصخرة الصمّاء آية.

* وغوصهما فيها إلى الكعبين آية.

* وإلانة بعض هذا النوع دون بعض آية.

* وارتفاع المقام لإبراهيم الخليل في السماء حين ارتفع بالبناء آية.

* وإبقاؤه على مرِّ الزمان آية.

* وحفظه ألوف السنين من الأعداء مع كثرتهم وشدة عدائهم آية.

* المقام معجزة لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ودليل على نبوته.

* ومن آيات المقام أيضًا أنه لا تخلو لحظة من اللحظات من قائم وراكع وساجد خلف المقام تحقيقًا لقوله تعالى ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ﴾، فسبحان الله المعبود الصمد على الدوام جلّ وعلا[٢].

الأمر الرباني باتخاذه مصلى:

قال تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ﴾؛ إن هذا الأمر الصريح من الله

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير ابن عطية)، (٣/ ٢٢٤).

(٢) فضل الحجر الأسود ومقام إبراهيم، سائد بكداش، ص١٤٩.

تعالى باتخاذ المقام مُصلًّى، دليل على فضل هذا المقام الكريم وشرفه وشأنه الكبير عند الله(١).

من مواطن إجابة الدعاء خلف المقام:

نصّ كثير من العلماء والفقهاء على استحباب الدعاء عقب ركعتَي الطواف خلف المقام؛ لأنّه من مواطن إجابة الدعاء، وعلى هذا يدعو المصلّي خلف المقام بما أحبّ من أمور الدنيا والآخرة، والأفضل أن يدعوَ بما هو مأثور(٢).

ولما كان من حكم الصلاة خلف المقام تذكُّرُ باني البيت العتيق، وهو نبيُّ الله إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، الذي جعله الله تعالى لنا قدوة وأسوة حسنة، حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ ﴾ [الممتحنة: ٤]، فهو قدوة عليه الصلاة والسلام في صفاته الحميدة، وأخلاقه المجيدة، وما منّ الله تعالى به عليه من مقامات عَلِيّة سَنِيّة.

فحريٌّ بالمصلِّي وهو قائم خلف هذا المقام الحسّي، وهذا الحَجَر المبارك الذي قام عليه إبراهيم الخليل، أن يلاحظَ ويذكرَ تلك المقامات العليّة والإكرامات الإلهية التي أفاضها الله على نبيِّه وخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ويسألَ الله تعالى في هذا الموطن الذي تُجاب فيه الدعوات، وتُرجى فيه البركات، أن يكتبَ له من تلك المقامات الإبراهيمية النبوية أوفر الحظ والنصيب، فهو سبحانه القريب المجيب(٣). وقد بيّنا في كتابنا قصة إبراهيم ومواقفه من خلال القرآن الكريم، وما ثبت عن نبينا العظيم ﷺ.

د ـ بعض الأحكام الفقهية المتعلقة بالمقام:

من أهم الأحكام الفقهية المتعلقة بالمقام استحباب صلاة ركعتَيِ الطواف

---

(١) فضل الحجر الأسود ومقام إبراهيم، سائد بكداش، ص١٥٠.
(٢) المرجع نفسه، ص١٥٤.
(٣) المرجع نفسه، ص١٥٨.

خلف المقام، فقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قدم النبي ﷺ، فطاف بالبيت سبعًا، وصلّى خلف المقام ركعتين، ثم خرج إلى الصفا، وقد قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (١).

وروى مسلم في صحيحه عن جابر رضي الله عنه في صفة حجّة النبي ﷺ قال: حتى إذا أتينا البيتَ معه ﷺ استلم الركنَ، فَرَمل ثلاثًا ومشى أربعًا، ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام فقرأ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ فجعل المقام بينه وبين البيت، وكان يقرأ في الركعتين: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] و﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ (٢).

وعلى استحباب ركعتي الطواف خلف المقام جمهور المفسرين والفقهاء، كما قال الإمام علي القاري رحمه الله(٣).

٣ ـ ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾:

أ ـ قول السعدي:

﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾ أي: أوحينا إليهما وأمرناهما بتطهير بيت الله من الشرك والكفر والمعاصي، ومن الرجس والنجاسات والأقذار ليكون ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ فيه ﴿وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي المصلِّين، قدَّم الطواف لاختصاصه بالمسجد الحرام، ثم الاعتكاف؛ لأنّ من شرطه المسجد مطلقًا، ثم الصلاة، مع أنّها أفضل لهذا المعنى.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الحج، باب من صلى ركعتي الطواف، (٣/ ٤٨٧).
(٢) صحيح مسلم، كتاب الحج، (٢/ ٨٨٧).
(٣) فضل الحجر الأسود ومقام إبراهيم، سائد بكداش، ص١٧١.

وأضاف الباري البيتَ إليه لفوائد منها:

* أن ذلك يقتضي شدة اهتمام إبراهيم وإسماعيل بتطهيره لكونه بيت الله، فيبذلان جهدهما ويستغرقان وُسعَهما في ذلك.

* ومنها: أن الإضافة تقتضي التشريف والإكرام، ففي ضمنها أمر عباده بتعظيمه وتكريمه.

* ومنها: أن هذه الإضافة هي السبب الجاذب للقلوب إليه[(١)].

ب ـ قول الدكتور فؤاد محمود بن سندي:

جاء في القرآن الكريم أمرُ اللهِ تعالى لخليله إبراهيم عليه السَّلام بتطهير بيته الحرام مرتين؛ المرة الأولى: وجَّه الأمر إلى إبراهيم وحده، وذلك في سورة الحج، قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦].

والمرة الثانية: وجَّه الأمر لإبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام بعد أن بنيا البيت، وعُرف المقام، وكثر الناس في مكة، وذلك في سورة البقرة، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

ففي الآية الأولى أمر إبراهيمَ عليه السلام بتطهير بيت الله للطائفين به والمصلِّين إليه، قال الإمام القرطبي: ذكر الله تعالى في هذه الآية من أركان الصلاة أعظمَها، وهو القيام والركوع والسجود، وهذه هيئات الصلاة[(٢)].

هذا، وفي الثانية أمر إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السلام بتطهير بيت الله تعالى للطائفين حوله والمعتكفين الملازمين له والمصلين فيه، فآية سورة الحج جمعت صنفين من العابدين في البيت الحرام «طائفين ومصلِّين»، وأما سورة

---

(١) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص٩٢.
(٢) تفسير القرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، القرطبي، (١٢/ ٣٧).

البقرة فقد جمعت ثلاثة أصناف منهم: طائفين ومعتكفين ومصلِّين(١).

ج ـ قول الطاهر بن عاشور:

والمراد من تطهير البيت: ما يدلُّ عليه لفظ التطهير من تطهير محسوس بأن يُحفَظَ من القاذورات والأوساخ؛ ليكون المتعبِّدُ فيه مقبلاً على العبادة دون تكدير، ومن تطهير معنوي وهو أن يُبعَد عنه ما لا يليق بالقصد من بنائه من الأصنام والأفعال المنافية للحق، كالعدوان والفسوق والأفعال المنافية للمروءة، كالطواف عريًا دون ثياب الرجال والنساء، وفي هذا تعريض بأن المشركين ليسوا أهلاً لعمارة المسجد الحرام، لأنهم لم يطهِّروه مما يجب تطهيره منه، حيث قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]، وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨] (٢).

وإذا كان الله تعالى قد منح شرف بناء الكعبة وتطهيرها إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السلام، فقد منح نبيَّنا وحبيبنا محمدًا ﷺ شرف تطهير البيت من أدران الشرك، ومما أحاطه به الكفار والمشركون من أوثان تُعبَد من دون الله تعالى.

فإذا كان إبراهيمُ عليه السَّلام قد بناه ابتداءً خالصًا لله تعالى لا يُشرَك به شيء، فقد أحاطه المشركون مع تتابع السنين ومرور الأزمان بأوثان تُعبَد مع الله جلّ في علاه، فكانت مُهمّة عُظمى ومسؤولية كبرى في عنق محمد ﷺ أدّاها على أكمل وجه(٣).

---

(١) من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين، محمد فؤاد سندي، ص٢٥٦.
(٢) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (١/ ١١٤).
(٣) الكعبة المشرفة، محمود أحمد الدوسري، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط١، ٢٠١٧م، ص١٢٦.

د ـ قول ابن قيّم الجوزية:

بدأ بـ «الطائفين»، وهم أقرب العابدين إلى بيت الله تعالى، وهم أقل المذكورين في الآية، إذ لا يُشرع الطواف إلا حول هذا البيت، وتلاهم «العاكفين»، وهؤلاء يكونون في المسجد الحرام كلِّه، بل وفي كل مسجد، ويختصُّ الاعتكاف الشرعي بالمساجد لا يتعداها، فالعاكفون أكثر عددًا من الطائفين، وهم أبعد رتبة منهم عن البيت الحرام.

ثم ذكر المصلِّين، والصلاة بركوعها وسجودها تكون في البيت وعنده وفي المسجد كلِّه وفي كلِّ مسجد، بل تعمّ سائر بقاع الأرض سوى ما منع منه مانع، أو استُثني شرعًا، فالمصلُّون أكثر من العاكفين، وهم أبعد رتبة عنهم من البيت[١].

❊ ❊ ❊

ثالثًا: قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ١٢٦]:

بيّن الله تعالى بعض الخصائص التي خصَّ بها أرض الحرم، ببركة دعوات إبراهيم عليه السلام، ويبدو أنّها من الدعوات التي دعا بها عندما وضع فيها ولده إسماعيل مع أمه وتركهما وانصرف، وقد مرّ معنا الحديث بتفاصيله عند الحديث عن آيات سورة الصافات، وابتلاء الله لإبراهيم بذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام.

١ ـ ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ ﴾:

❊ قوله ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ ﴾ أي: واذكر يا محمد، إذ قال إبراهيم في دعائه.

---

(١) بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، (١/ ٨١).

* وقوله ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا﴾ أي: الوادي المهجور الخالي الذي ليس فيه زرع ولا ماء ولا بناء.

* وقوله ﴿بَلَدًا﴾: «البلد» اسم لكل مكان مسكون، سواءٌ كان صغيرًا أم كبيرًا.

* وقوله ﴿ءَامِنًا﴾ أي: ذا أمن، يأمن أهله فيه من القحط والخسف والقتل والسّلب والنّهب والرعب والخوف والمسخ والجوع، ونحو ذلك.

وقد استجاب الله دعاء إبراهيم فجعل مكة بلدًا آمنًا، وهذا في الأعم الأغلب على مرّ العصور وكرّ الدهور، ولا يُنافي ذلك ما وقع في مكة من حوادث قليلة تعكّر هذا الأمن، والقاعدة تبقى قاعدة، وإن وُجد لها شواذ؛ لأن الحكم للأعمّ الأغلب، فإن مكة ـ شرّفها الله ـ كانت آمنة في غالب الأزمان التي مرَّت عليها. وأما من الناحية الشرعية، فإن الله أوجب علينا أن نحفظَ الأمن في مكة ولا نُفسدَه، ونعتنيَ به أكثر مما نعتني به في الأماكن الأخرى(١).

ولقد كانت دعوة إبراهيم هذه من جوامع كلم النبوَّة، فإن أمن البلاد والسبل يستتبع جميع خصال سعادة الحياة، ويقتضي العدل والعزة والرخاء، إذ لا أمن من دونها، وهو يستتبع التعمير والإقبال على ما ينفع، وإنما أراد بذلك تيسير الإقامة فيه على سكانه، لتوطيد وسائل ما اختاره لذلك البلد من كونه منبع الإسلام(٢).

* وقوله ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ﴾ أي: أعطِ ساكنيه والمقيمين فيه.

* وقوله ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: والثمرات: ما تحمل به الشجرة وتنتجه مما فيه غذاء للإنسان أو فاكهة له.. وفي هذا دعاء لهم بالرفاهية وتوفُّر أسباب

---

(١) تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص٢١٩.

(٢) منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني، منى عبد الله بن داود، ص٩٤.

الإقامة؛ حتى لا تطمح نفوسهم للارتحال عنه؛ لأنّه رجا أن يكونوا دعاة لما بُنيت الكعبة لأجله من إقامة التوحيد وخصال الحنفية، وخصَّ إبراهيم عليه السلام المؤمنين بطلب الرزق لهم حرصًا على شيوع الإيمان لساكنيه(١).

وقد فعل الله سبحانه ذلك، فالثمار تأتي إلى مكة من مختلف بقاع الأرض القريبة والبعيدة، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧] (٢).

* وقوله ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾: والإيمان بالله يتضمَّن الإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، و﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾: هو يوم القيامة وسُمِّي آخرًا؛ لأنّه لا يوم بعده(٣)، أي: ارزق المؤمنين بالله واليوم الآخر خاصّة؛ ليستعينوا بالرزق على طاعة الله(٤).

ولكن الله تعالى قدّر أن يكون الرزق في الدنيا لجميع الناس، مؤمنهم وكافرهم، كما في قوله تعالى ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]، ولهذا قال الله تعالى تعقيبًا على دعوة إبراهيم عليه السَّلام(٥):

٢ ـ ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾:

* ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ﴾: القائل هو الله سبحانه وتعالى، فأجاب الله تعالى دعاءه يعني: وارزق من كفر أيضًا، فرزق الله شامل للمؤمن والكافر، بل للإنسان والحيوان كما قال تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ﴾ [هود: ٦]، وأنت ترى بعض الخشاش في الأرض ما حوله شيء، ولكن الله يُيسِّر الرزق إليه من حيث لا يشعر ولا يحتسب. ويُذكر في هذه

---

(١) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (١/ ٧١٥ ـ ٧١٦) بتصرف.
(٢) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (١/ ١٩٣).
(٣) قصص القرآن، محمد بن صالح العثيمين، ص٦٨.
(٤) تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص٢١٩.
(٥) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (١/ ١٩٣).

الأمور قصص غريبة، ويشاهد بعض الحيوانات الصغيرة الصماء العمياء يجلب الله لها رزقًا كلما احتاجت إلى ذلك، فتأكله، والله على كل شيء قدير[١].

* وقوله ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾ ومهما كان هذا الرزق فهو في الحقيقة شيء يسير وقليل لأنه زائل وفانٍ[٢]، بل الدنيا كلها لو حصلت لشخص فهي قليلة، كما قال تعالى: ﴿مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ﴾ [النساء: ٧٧][٣].

* وقوله ﴿ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ﴾ أي: أُلجئه وأسوقه، ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ﴾ أي: الذي لا محيص عنه ولا منجى له منه، وهذا جزاء وفاقًا على كفره، و﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي: المرجع الذي يصير إليه[٤].

وفي هذه الآية من الفوائد:

* أنّه لا غنى للإنسان عن دعاء الله تعالى، مهما كانت مرتبته.

* أنّ الدعاء سبب في حصول المقصود.

* رأفة إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ بمن يؤمّ البيت الحرام.

* احتياطه في الدعاء لمّا طلب أن يكون الرزق لمن آمن بالله واليوم الآخر.

* إن الله يرزق المؤمن والكافر.

* وفيها: أنه لما كانت الإمامة نعمة دينية استثنى الله الظالمين منها؛ لأنّهم لا يستحقون هذا الشرف. أما الرزق فنعمة دنيوية، فأعطاه الله المسلم والكافر، ولم يستثن الكافر منه؛ لأنّ متاع الدنيا قليل، ولا يساوي عند الله جناح بعوضة، فلذلك يعطيه من يحبّ ومن لا يحبّ[٥].

* * *

---

(١) قصص القرآن، محمد بن صالح العثيمين، ص٧١.
(٢) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (١/ ١٩٣).
(٣) تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص٢٢٠.
(٤) المرجع نفسه، ص٢٢٠.
(٥) المرجع نفسه، ص٢٢٠.

رابعًا: قوله تعالى ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]:

أمر الله إبراهيم عليه السلام أن يبنيَ الكعبة المُشرَّفة بيت الله الحرام، فتوجّه إلى مكة، حيث يُقيم ابنُه إسماعيل عليهما السَّلام، وقال له: إن الله يأمرني بأمر، قال إسماعيل: اصنع ما أمرك ربك، قال: وتعينني؟ قال إسماعيل: وأعينك، قال: إن الله أمرني أن أبني ههنا بيتًا، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (١).

وقد أشارت آيات القرآن الكريم إلى بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لبيت الله الحرام(٢).

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن الكعبة قد بُنيت قبل إبراهيم عليه السَّلام، وكان فعل إبراهيم وإسماعيل هو تجديد بناء الكعبة وليس إنشاءَها؛ لأنّ الكعبة قد بُنيت من قبل، لكن بقيت أساساتها، فرفع إبراهيم وإسماعيل القواعد على تلك الأساسات.

وذهب علماء آخرون إلى أن الكعبة لم تُبنَ قبل إبراهيم وإسماعيل، وما كان أحدٌ قبلهما يعلم أن مكانها كعبة، وأنها كانت مبنية ثم هُدمت. ولو كانت مبنية ثم هدمت لعلم العرب ذلك، وتناقلوه في بلادهم في الحجاز واليمن ونجد، وبما أنهم لم يتناقلوا ذلك فهو دليل على أن الكعبة لم تكن مبنية من قبل، وإبراهيم وإسماعيل عليهما السَّلام هما أول من بنيا الكعبة.

لا توجد أحاديث صحيحة تتحدَّث عن بناء الكعبة قبل إبراهيم عليه

---

(١) صحيح البخاري، رقم (٣٣٦٣).
(٢) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٤٣).

السَّلام، وكل ما يعتمد عليه أنصار القول الأول، إنما هو أخبار وروايات لم تثبت ولم تصحَّ أسانيدها، ولذلك لا تُعتمد في موضوع النزاع[1].

ومن أراد معرفة ملابسات بناء الكعبة فعليه الوقوف أمام الآيات القرآنية التي تحدثت عن ذلك، فقد اعتمد أنصار القول الأول على ظاهر قوله تعالى ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦]، وعلى ظاهر قوله تعالى ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، فقالوا: إن مكان البيت كان موجودًا قبل إبراهيم، ولكنه كان مخفيًّا مطمورًا؛ لأنّ البيت كان مهدومًا، وبوّأ الله لإبراهيم مكان البيت ودلّه عليه، وأرشده إليه، وعرّفه على أساساته، فقام هو وإسماعيل برفع القواعد على تلك الأساسات، ولا نرى الآيتين تدلان على ما يقولون، فقوله تعالى ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾، يدلُّ على أن الله تعالى عرَّف إبراهيم على هذه المنطقة التي سيُبنى عليها البيت وهيّأها له، وأمره ببناء البيت في ذلك المكان الذي حدّده له سبحانه، وهو يعلم منذ الأزل أنه سيكون فيه بيته المحرم؛ الذي جعله أقدس وأشرف بقعة في الأرض.

لما بوَّأ الله لإبراهيم مكان البيت وأمره ببنائه، نفّذ إبراهيم أمر ربه، فأرسى مع إسماعيل أساسات البيت، وبعد ذلك قاما برفع قواعده، فقوله تعالى ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ يتحدَّث عن المرحلة الثانية من مراحل بناء الكعبة، ويسكت عن المرحلة الأولى، ولا يُستنبط منه أن الأساسات قد بُنيت قبلهما، ونظرًا لعدم وجود أحاديث صحيحة حول بناء البيت قبل إبراهيم؛ فإننا نبقى مع ظاهر الآيات،

---

(١) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٤٠٧). وقد استدل القائلون بأن قواعد البيت كانت قبل بناء إبراهيم عليه السلام له بقوله تعالى ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧] وهذا عندما جاء إبراهيم بهاجر وإسماعيل، وأسكنهما بوادٍ غير ذي زرع.

ونقول: إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام هما أول من بنى الكعبة، وأن الكعبة لم تُبنَ قبلهما، والله أعلم[١].

وحول هذا المعنى، يقول الإمام ابن كثير: أمر الله إبراهيم عليه السَّلام أن يبنيَ له بيتًا، يكون لأهل الأرض كتلك المعابد لملائكة السماوات، وأرشده الله إلى مكان البيت المُهيّأ له المُعيَّن لذلك منذ خلق السماوات والأرض، كما ثبت في الصحيحين: «إنّ هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة» [٢].

ولم يَجئ في خبر صحيح عن المعصوم أن البيت كان مبنيًا قبل الخليل عليه السلام، ومن تمسك في هذا بقوله ﴿مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ فليس بناهض ولا ظاهر؛ لأنّ المراد مكانه المقدَّر في علم الله، المقرَّر في قدره، المعظَّم عند الله موضعُه، من لدن آدم إلى زمان إبراهيم، وقد ذكرنا أن آدم نصب عليه قبّة، وأن الملائكة قالوا له: قد طفنا قبلك بهذا البيت، وأن السفينة طافت به أربعين يومًا أو نحو ذلك، ولكن كل هذه الأخبار من بني إسرائيل، وقد قرّرنا أنّها لا تُصدَّق ولا تُكذَّب فلا يُحتجُّ بها، فأما إن ردّها الحق فهي مردودة[٣].

والقول ببناء الملائكة للكعبة ليس عليه دليل صحيح، وكذا بناء آدم عليه السلام لم يثبت فيه شيء، ولا يستطيع أحد أن يجزم به، وكذا بناء شيت بن آدم عليه السلام، وكذا بناء قصيّ بن كلاب، وإن ذكره بعض المؤرخين، إلا أنه لا يُعتمد فيه على مجرد الذكر، ولا يثبت بناء عبد المطلب للكعبة[٤]، والقول الراجح في بناء الكعبة قبل الإسلام.

---

(١) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٤٠٨).
(٢) قصص الأنبياء، ابن كثير، دار الفيحاء، دمشق، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م، ص١٥٢-١٥٣.
(٣) المرجع نفسه، ص١٥٢-١٥٣.
(٤) الكعبة المشرفة، محمود أحمد الدوسري، ص٣١-٣٢.

إن الثابت أن الكعبة بُنيت قبل الإسلام أربع مرات فقط، وهي على النحو الآتي:

* بناء إبراهيم عليه السلام، وهو أول بناء للكعبة المشرفة.

* بناء العماليق.

* بناء جُرهم.

* بناء قريش، وكان ذلك قبل البعثة النبوية بخمس سنوات، حيث اشترطوا: ألا يُدخِلوا في بنائها مالاً حرامًا، فقصَّرت بهم النفقة الطيبة عن إكمال البناء، فأنقصوا من جهة الحِجر ستة أذرع وشبرًا، أي: حوالي ثلاثة أمتار وربع[١].

وأداروا عليه جدارًا قصيرًا؛ ليطوف الناس من ورائه، وأحدثوا بعض التغييرات فيها، فزادوا ارتفاعها إلى (١٨) ذراعًا، وسقفوها، ولم تكن من قبل مسقوفة، وجعلوا لها ميزابًا من خشب، وسدّوا الباب الغربي، ورفعوا الباب الشرقي على مستوى الأرض، حتى يُدخلوا فيها ما شاؤوا ويمنعوا ما أرادوا، وقد شاركهم رسول الله ﷺ في هذا البناء، وكان يحمل معهم الحجارة.

ولما انتهى البناء، وأرادوا وضع الحجر الأسود، وقع بينهم نزاع شديد، كل قبيلة تريد أن تحظى بشرف وضع الحجر في مكانه، ورضوا أن يحكم فيهم أول داخل إلى البيت، وكان الداخل هو النبيّ ﷺ، فأخذ الحَجَر، ووضعه على رداء، وأمر كل قبيلة أن تأخذ بطرف منه، فرفعوه، وقام ﷺ بوضعه مكانه، وأنهى بهذه الحكمة السامية نزاعًا كاد أن يُمزِّق وحدتهم، ويودي بحياة عدد كبير منهم[٢].

وبُنيت الكعبة بعد الإسلام ثلاث مرات فقط، وهي على النحو الآتي:

* بناء عبد الله بن الزبير رضي الله عنه.

---

(١) الكعبة المشرفة، محمود أحمد الدوسري، ص٣٣.

(٢) تاريخ الكعبة المعظمة، ص٨٧ ـ ٩٤، الكعبة المشرفة، محمود أحمد الدوسري، ص٣٤.

❋ بناء الحجاج بن يوسف الثقفي.

❋ بناء السلطان مراد خان[١].

ومن أراد التوسُّع فليراجع كتاب (الكعبة المشرفة) للدكتور محمود أحمد الدوسري.

١ ـ ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾:

أي: اذكر عندما كان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يبنيان البيت الحرام على قواعده وأساسه، فالقواعد جمع قاعدة، وهي الأساس، ورفع القواعد: البناء عليها.

وليس في الآية تصريح بمن وضع القواعد، هل كان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أم كانت موجودة قبلهما، الله سبحانه أعلم، لكن الحديث الشريف يُشير إلى إبراهيم عليه السلام، فعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «**أَلَم تَرَيْ أنَّ قَومَكِ لَمّا بَنَوُا الكَعبَةَ اقتَصَروا عن قَواعِدِ إبراهِيمَ؟**» فقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، ألا تَرُدُّها على قَواعِدِ إبراهِيمَ؟ قالَ: «**لَولا حِدثَانُ قَومِكِ بالكُفرِ لَفَعَلتُ**»[٢].

ويكشف لنا السّياق القرآني في الآية الكريمة عن فعل إبراهيم وإسماعيل في بناء الكعبة، ويرينا إياهما كما لو كانت رؤية العين لا رؤيا الخيال، إنهما أمامنا حاضران، نكاد نسمع صوتيهما يبتهلان[٣].

٢ ـ ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾:

فنغمة الدعاء، وموسيقى الدعاء، وجوّ الدعاء، كلها حاضرة كأنها تقع اللحظة حية شاخصة متحركة، وتلك إحدى خصائص التعبير القرآني الجميل،

---

(١) الكعبة المشرفة، محمود أحمد الدوسري، ص٣٦.

(٢) صحيح مسلم، رقم (١٣٣٣)؛ التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (١/ ١٩٤).

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، (١/ ١١٤).

ردُّ المشهد الغائب الذاهب، حاضرًا يُسمَع ويُرى، ويتَحرك ويشخص، وتفيض منه الحياة.

إنها خصيصة التصوير الفنِّيّ بمعناه الصادق، اللائق بالكتاب الخالد. وفي ثنايا الدعاء: أدب النبوَّة، وإيمان النبوَّة، وشعور النبوَّة بقيمة العقيدة في هذا الوجود. وهو الأدب والإيمان والشعور الذي يريد القرآن أن يُعلِّمَه لورثة الأنبياء، وأن يُعمِّقه في قلوبهم ومشاعرهم بهذا الإيحاء.

وفي قوله ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ إنه طلب القبول، هذه هي الغاية، فهو عمل خالص لله، الاتجاه به في قنوت وخشوع إلى الله، والغاية المرجوّة من ورائه هي الرضا والقبول، والرجاء في قبوله متعلِّقٌ بأن الله سميع للدعاء، عليم بما وراءه من النية والشعور(١).

وفي الآية نلاحظ برّ الابن لأبيه، والمعاونة في فعل الخير، ونظر العبد المؤمن لعمله بعين النقص مهما كان، تواضعًا لله، وفرارًا من الاغترار والعجب، وأهمية إحكام البناء بتأسيسه على قواعد(٢).

تُبيِّن الآية الكريمة أن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كانا يعملان، وهما في حالة خشوع وخضوع لله عزّ وجل، يستشعران أنهما يقومان بعبادة من أعظم العبادات، ويتقربان إليه تعالى بقربة من أجلِّ القربات، ومع ذلك فخشية الله تعالى تملأ قلبيهما، حتى إنهما يسألانه أن يتفضل بقبول عبادتهما، فما أعظم خشوعهما وخضوعهما عليهما السلام، ومع كل هذا الخضوع والخشوع يسألانه سبحانه المزيد منه، فكمال الإنسان بكمال عبوديته لله تعالى، واستسلامه لأمره وحكمه(٣).

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (١/ ١١٤).

(٢) تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص٢٢١.

(٣) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (١/ ١٩٤).

كما تبيّن الآية الكريمة معرفة إبراهيم وإسماعيل بالله عزّ وجل من خلال أسمائه الحسنى، وتُعلِّمنا كيفية التعامل مع اسمه السميع العليم، مع توكيدهما بأن الله يسمع ويعلم حال جميع مخلوقاته سبحانه وتعالى.

وقد قال أبو حيان في (البحر المحيط) في قوله تعالى ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾: وهاتان الصفتان مناسبتان هنا غاية التناسب، إذ صدر منهما عليهما السلام عملٌ وتضرُّعٌ، فهو سبحانه ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لضراعتهما، وهو سبحانه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بنيّاتهما في إخلاص العمل(١).

اسم الله السميع:

ورد اسمه سبحانه ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ في القرآن الكريم خمسًا وأربعين مرة، من ذلك: قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وقوله عزّ وجل ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

قال السعدي رحمه الله عن اسم الله السميع: ومن أسمائه الحسنى «السميع» الذي يسمع جميع الأصوات باختلاف اللغات، وتَفنُّن الحاجات، فالسّرّ عنده علانية، والبعيد عنده قريب، وسمعه نوعان؛ **أحدهما**: سمعه لجميع الأصوات الظاهرة والباطنة، الخفية والجلية، وإحاطته التامّة بها، **والثاني**: سمع الإجابة منه للسائلين والداعين والعابدين، فيُجيبهم ويُثيبهم، ومنه: قول الله تعالى ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، وقول المصلي بعد ركوعه: سمع الله لمن حمده، أي: استجاب(٢).

اسم الله العليم:

ورد اسم الله «العليم» في القرآن الكريم مائة وسبعًا وخمسين مرة، من

---

(١) البحر المحيط في التفسير، أبو حيّان الأندلسي، (١/ ٣٨٨).
(٢) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز ناصر الجليل، ص٦١٧.

ذلك: قوله تعالى ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧]، وقوله تعالى ﴿سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

قال السعدي رحمه الله عن اسم الله العليم: وهو الذي أحاط علمُه بالظواهر والبواطن، والإسرار والإعلان، وبالواجبات والمستحيلات والممكنات، وبالعالم العلوي والسفلي، والماضي والحاضر والمستقبل، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء، فهو الذي علّم الإنسان ما لم يعلم(١).

* * *

خامسًا: قوله تعالى ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسۡلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨]**:**

١ ـ قوله تعالى ﴿رَبَّنَا﴾:

نلمح هذا الاستعطاف الظاهر في تكرار لفظ ﴿رَبَّنَا﴾، وما فيه من تذلُّل وخضوع ورغبة في الاستجابة والقبول، وكذلك في تكرار جملة ﴿وَٱجۡعَلۡنَا﴾ وما فيها من سلاسة وعذوبة في موضعها(٢).

نلاحظ أهمية الدعاء الذي هو في الحقيقة عبادة عظيمة، وهو من أجلّ العبادات وأعظم القربات، بل هو العبادة كما أسماها الله في قوله تعالى ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وقد صرح بذلك النبيُّ ﷺ بقوله «**الدعاء هو العبادة**»، ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ﴾(٣)، فالدعاء سبب عظيم من أسباب حصول المطلوب، واندفاع المرهوب، وخير معين على تحقيق الإخلاص لله تعالى(٤).

---

(١) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز ناصر الجليل، ص٣٣٣.

(٢) وجوه البيان في دعاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، سميرة عدلي محمد رزق، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، العدد (١٠)، ١٤١٤هـ، ص٢١٨.

(٣) سنن الترمذي، رقم (٢٩٦٩)، حديث حسن صحيح.

(٤) الإخلاص في القرآن الكريم، حمد الوهيبي، ص١٥٣.

٢ ـ قوله تعالى ﴿ وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ :

أي: خاضعَيْن لك، مُنقادَيْن لحكمك، مخلصَيْن وجهَيْنا بالتوحيد والعبادة لك، لا لغيرك، ولا نشرك معك في الطاعة أحدًا سواك[١].

وفائدة تكرار النداء بقوله ﴿رَبَّنَا﴾ : إظهار الضراعة إلى الله تعالى، وإظهار أن كل دعوى من هذه الدعوات مقصودة بالذات[٢].

والنبيّان الكريمان، على قدر ما وهبهما الله تعالى من نعمة الإسلام والتمسُّك به، يطلبان ذلك تأكيدًا وزيادة في الخير، يريدان طاعة مطلقة وانقيادًا؛ ليكون الطلب دليلاً على الرغبة فيه، وليكون الغرض لزامًا لهما وتكليفًا، ويؤكد هذا بالجار والمجرور ﴿لَكَ﴾، فطلب الانقياد والطاعة مقيَّد له عزّ وجل دون سواه[٣]. ولم يكتف إبراهيم عليه السلام بطلب الثبات على الإسلام له ولولده، وإنما دعا بذلك لذُريّتهما أيضًا[٤].

٣ ـ قوله تعالى ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ :

والذُّرّية هم الأبناء وأبناء الأبناء، أي الأجيال القادمة، فهي نظرة مستقبلية وحرص على أن يبقى التوحيد قائمًا ببقاء الموحِّدين على الأرض عبر التاريخ، وفي الدعاء طلب من الله بأن يجعل ذُريّتهم أمة مستسلمة لأمره سبحانه وتعالى، خاضعة لطاعته وشرعه وسلطانه وأحكامه، منقادة لأوامره، وهذا هو دين الأنبياء من لدن آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ[٥].

إنّ هذا الدعاء فيه الرجاء على العون من ربِّهما في الهداية إلى الإسلام،

---

(١) من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين، محمد فؤاد سندي، ص٢٢٠.
(٢) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (١/ ٧٠٠).
(٣) وجوه البيان في دعاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، سميرة عدلي محمد رزق، ص٢١٨.
(٤) ملة أبيكم إبراهيم، عبد الستار كريم المرسومي، ص٢٢٧.
(٥) المرجع نفسه، ص٢٢٨.

والشعور بأن قلبيهما بين أصبعين من أصابع الرّحمن، وأن الهدى هداه، وأنه لا حول لهما ولا قوة إلا بالله، فهما يتَّجهان ويرغبان، والله المستعان به سبحانه، كما بيّن الدعاء طابع الأمة المسلمة، وهو تضامن الأجيال في العقيدة ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾.

وهي دعوة تكشف عن اهتمامات القلب المؤمن، أن أمر التوحيد والاستسلام لله وأحكامه هما شغله الشاغل، وهمُّه الأول، وشعور إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بقيمة النعمة التي أسبغها الله عليهما، نعمة الإيمان، تدفعهما إلى الحرص عليها في عقبهما، وإلى دعاء الله ربِّهما ألا يحرم ذُريّتهما هذا الإنعام الذي لا يساويه إنعام.

لقد دعَوَا الله تعالى ربَّهما أن يرزق ذُريّتهما من الثمرات، ولم ينسيا أن يدعواه ليرزقهم من الإيمان، وأن يريهم جميعًا مناسكهم، ويبين لهم عبادتهم، ويتوب عليهم إنه هو التواب الرحيم[١].

لقد كان دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن يجعل الله لهما من ذُريّتهما وأولادهما جماعة مسلمة لله عزّ وجل منقادة لأمره خاضعة لعظمته سبحانه وتعالى، و﴿وَمِن﴾ هنا تبعيضية، وتخصيص الدعوة ببعض الذرية هو من قبيل الأدب مع الله، الذي سبق وقال لإبراهيم: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وهذا أيضًا من تعليم الله لهما، وتنويره قلوبهما أن من ذُريّتهما المسلم المحسن والكافر الظالم لنفسه، لذا دعوا مِن هنا بالتبعيض[٢].

وفي قوله ﴿أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ أي: على عقيدة التوحيد وإفراد العبادة لك وحدك. وأما وصف الأمة فهو الإسلام، والانقياد لله وحده لا شريك له[٣].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (١/ ١١٥).

(٢) من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين، محمد فؤاد سندي، ص٢٢٠.

(٣) وجوه البيان في دعاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، سميرة عدلي محمد رزق، ص٢٢٠.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾

أي: علِّمْنا مواضع نُسكنا وعبادتنا وبصّرنا بأفعال الحج ومواقيته ومواضع العبادة فيه. و«المنسك» مكان العبادة. ويُؤخذ من هذا أن العبادات توقيفية لا تصحّ إلا بما شرعه الله، وتتوقّف على الدليل الشرعي(١).

وقال السعدي رحمه الله: أي: عَلِّمْناها على وجه الإراءة والمشاهدة ليكون أبلغ، ويحتمل أن يكون المراد بالمناسك أعمال الحج كلها كما يدلُّ عليه السِّياق والمقام، ويحتمل أن يكون المراد هو أعمُّ من ذلك، وهو الدين كلُّه، والعبادات كلها كما يدلُّ عليه عموم اللفظ؛ لأنّ النسك: التعبُّد، ولكن غلب على متعبدات الحج تغليبًا عرفيًّا، فيكون حاصل دعائهما يرجع إلى التوفيق للعلم النافع، والعمل الصالح(٢).

وقال تاج القُرّاء الكرماني: إن كان المراد بـ«المناسك» أعمال الحج، كالطواف والسعي والوقوف بعرفة والصلاة، فتكون «المناسك» جمع «مَنسَك» بفتح السين، وهو مصدر، وجاز جمع المصدر هنا؛ لاختلاف الأعمال في الحجِّ. وإن كان أراد بـ«المناسك» المواقف والمواضع التي تُقام فيها شرائع الحج، كمِنى وعرفة والمزدلفة، فتكون المناسك جمع «منسِك» بكسر السين، وهو اسم مكان، وهو موضع العبادة(٣).

وقال الراغب الأصفهاني: النسك: العبادة، و«الناسك» هو العابد، واختصَّ بأعمال الحج، و«المناسك»: مواقف النسك وأعمالها، و«النسيكة» مختصة بالذبيحة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ﴾ [البقرة: ١٩٦]،

(١) وجوه البيان في دعاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، سميرة عدلي محمد رزق، ص٢٢٠.
(٢) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص٩٣.
(٣) من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين، محمد فؤاد سندي، ص٢٢١.

و﴿ نُسُكٍ ﴾: ذبيحة يذبحها وأقلُّها شاة. وقال تعالى: ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ [الحج: ٦٧]، منسكًا أي: شريعة ومُتعبَّدًا ومنهاجًا. وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢] ﴿ وَنُسُكِي ﴾ أي: ذبحي، وقيل: عبادتي[1].

هذا، ورُوي عن علي رضي الله عنه: أن إبراهيم عليه السَّلام لما فرغ من بناء البيت، ودعا بهذه الدعوة، بعث الله إليه جبريل عليه السَّلام فحجّ به، وانطلق إلى الصفا والمروة ومِنى والمشعر الحرام وعرفات، وقال له: أعرفتَ ما أريتُكَ؟ قال: نعم[2].

٥ ـ قوله تعالى ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَآ ﴾:

أي: سامحنا على تقصيرنا في طاعتك وتجاوز عنّا؛ وذلك لأن العبد وإن اجتهد في طاعة ربه، فإنه لا ينفك عن التقصير من بعض الوجوه، إما على سبيل السهو أو على سبيل تـرك الأَولى، فالدعاء منهما، عليهما السلام، لأجل ذلك ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَآ ﴾ فهما معصومان، على نبينا وعليهما الصلاة والسلام، وقيل المعنى: تُب على ظَلَمة أولادنا حتى يرجعوا إلى طاعتك، وقيل: إنهما أرادا أن يَسُنّا للناس ويعرّفاهم أن بيت الله وما يتبعه من المناسك والمواقف، هي أمكنة التخلص من الذنوب، وطلب التوبة من علّام الغيوب[3].

لقد جاء في موضع التوبة أنّ مقامات التائبين تختلف، فتوبة سائر المسلمين: الندم على الذنب الماضي والعزم على تركه تركًا نهائيًا وردّ المظالم. أما توبة الخواص منهم: فهي رجوع عن المكروهات من خواطر السوء في الأعمال، أو التقصير في العبادات، وعدم أدائها على وجه الكمال.

---

(١) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ص٢٥٣.
(٢) من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين، محمد فؤاد سندي، ص٢٢.
(٣) المرجع نفسه، ص٢٢٤.

وتوبة ثالثة هي توبة خواصِّ الخواص: وهؤلاء تكون توبتهم لرفع درجاتهم وللترقي في مقاماتهم، فإن كان النبيان عليهما السلام طلبا التوبة لأنفسهما خاصّة، فالمراد بها توبة هذا القسم الثالث(١).

والمقصود بطلب التوبة في حق إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام هو الرغبة منهما في رفع درجاتهما، وارتقائهما المقامات، وهذا هو شأن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهي من وجه آخر تربية خلقية وتأديب واضح توجَّهت إليه آيات القرآن الكريم؛ ليكون سلوكًا قويمًا، يجب أن يسلكه كل مسلم حريص على الخير لنفسه وذُرّيّته(٢).

وإن التوبة ركن أساس من أركان السلوك، ولها أنواع، نذكر منها:

توبة الإنابة: وهي أن تخاف من الله من أجل قدرته عليك.

وتوبة الاستجابة: أن تستحي من الله لقربه منك.

والتوبة الصحيحة: هي إذا اقترف العبد ذنبًا تاب عنه بصدق الحال.

والتوبة الفاسدة: هي التوبة باللسان مع بقاء لذة المعصية في الخاطر.

والتوبة النصوح: هي تنزيه القلب عن الذنوب، وعلاماتها: أن يكره العبد المعصية ويستقبحها، فلا تخطر له على بال، ولا ترِدُ في خاطره أصلاً(٣).

وقال الإمام النووي رحمه الله: التوبة واجبة من كل ذنب، فإن كانت بين العبد وبين الله تعالى فلها شروط ثلاثة:

❊ **الأول**: أن يُقلع عن المعصية.

❊ **الثاني**: أن يندم على فعلها.

---

(١) وجوه البيان في دعاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، سميرة عدلي محمد رزق، ص٢٢١.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٢١.

(٣) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد علي التهانوي، تحقيق: رفيق العجم، علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، (١/ ٢٣١).

* **الثالث**: أن يعزم على ألا يعود إليها أبدًا.

فإن كان الذنب يتعلَّق بحقِّ آدمي، فعليه أن يتبرأ من حق صاحبه، وذلك برَدّه إليه، أو طلب عفوه أو أن يستحلّه منه، إذا لم يترتب على ذلك مفسدة أعظم(١).

وإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يعلّمان أتباع مِلّة إبراهيم عليه السَّلام كيف يكون التأدُّب في الدعاء، وذلك بخَتمِه بما يدعو إلى إجابته وتقبُّله، إذ جاء في ختام هذه الآية.

٦ ـ قوله تعالى ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

فالجملة تحتوي على كل ما يؤكد معناها، فهذا حرف التوكيد «إنّ» مقرونًا بكاف الخطاب، ثم يليها الضمير ﴿أَنتَ﴾، ثم الصفتان المبالغ فيهما ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، فالتوّاب صيغة مبالغة من تاب، فهي على وزن فعّال، ويقال لله عزّ وجل توّاب لكثرة قبوله التوبة من عباده حالاً بعد حال، والرحيم هو كثير الرّحمة أيضًا، صيغة مبالغة على وزن فعيل، وهي صفة يمكن أن تكون لله عزّ وجل أو للبشر، جاء في وصف الرسول ﷺ: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقد قيل إن الله تعالى رحمن الدنيا ورحيم الآخرة؛ وذلك لأنَّ إحسانه في الدنيا يعمُّ المؤمنين والكافرين وفي الآخرة يختص بالمؤمنين(٢).

وقد قُدّمت صفة ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ على صفة ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ في السِّياق القرآني؛ لأن ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ مناسبة لقوله ﴿وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ﴾، مناسبة للفاصلة السابقة لها واللاحقة بها في السورة الكريمة(٣). وكذلك تأخير صفة الرّحمة مناسب لعمومها، فالتوبة من الرّحمة، والرّحمة أعمّ منها(٤).

---

(١) رياض الصالحين من حديث سيد المرسلين، الإمام النووي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م، ص١١، بتصرف.

(٢) وجوه البيان في دعاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، سميرة عدلي محمد رزق، ص٢٢١.

(٣) المرجع نفسه، ص٢٢٢.

(٤) من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين، محمد فؤاد سندي، ص٢٢٤.

أ ـ اسم الله ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾:

ورد اسمه سبحانه ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ في إحدى عشرة آية في القرآن الكريم، منها تسع آيات اقترن فيها باسمه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾، كما في قوله تعالى ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

وقال ابن قيّم الجوزية:

وكـذلـك الـتَّـوّابُ مِـن أوصــافِـه والـتَّـوبُ فـي أوصـافِـه نَـوعــانِ
إذنٌ بـتَـوبـةِ عَـبـدِه وقـبـولـهـــا بـعـدَ الـمَـتـابِ بِـمـنَّـةِ الـمَـنَّـانِ[١]

وبيّن في موطن آخر المقصود من هذين البيتين بقوله: فتوبة العبد محفوفة بتوبة الله تعالى عليه قبلها، وتوبة ثانية منه عليه قبولاً ورضًا، فله الفضل في التوبة والكرم أولاً وآخرًا لا إله إلا هو[٢].

ويُؤكِّد هذا المعنى الشيخ السعدي ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله: فهو التائب على التائبين أولاً: بتوفيقهم للتوبة، والإقبال بقلوبهم إليه، وهو التائب على التائبين بعد توبتهم قبولاً لها وعفوًا عن خطاياهم[٣].

ووصفَ الله سبحانه نفسه بالتوّاب؛ لكثرة من يتوب عليه، ولتكريره ذلك في الشخص الواحد حتى يقضى عمره[٤].

ب ـ اسم الله ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾:

وأما اسمه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾، فقد جاء في (١٢٣) موضعًا في القرآن الكريم، أكثرها كان مقترنًا باسمه سبحانه ﴿ٱلۡغَفُورُ﴾.

---

(١) نونية الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، ابن قيّم الجوزية، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، ط١، ٢٠٠٧م، (٢/ ٢٣١).

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية، (١/ ٣٣٩)، مفتاح دار السعادة، ابن قيم الجوزية، (٢/ ٢٧٣).

(٣) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز ناصر الجليل، ص٥٨٢.

(٤) المرجع نفسه، ص٥٨٢.

ومن ذلك: قوله تعالى ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [المزمل: ٢٠]، وقوله تعالى ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وقوله تبارك وتعالى ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، وقوله تعالى ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٩١] (١).

والرحيم: هو الذي يرحم عباده بنعمته، ويُفيض عليهم برحمته(٢).

ومن رحمته سبحانه مغفرته لذنوب عباده، والصفح عنهم، وتكفير سيئاتهم، وفتح باب التوبة لهم(٣).

❊ ❊ ❊

سادسًا: قوله تعالى ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩]**:**

وهكذا تستمرُّ الآيات الكريمات في نقل مشاعر النبيين المتدفقة رحمة وعطفًا على الذُّرّية الصالحة، فالدعاء منهما، كما نرى، ليس مجرد طلب عابر للإسلام والتوبة، بل يتعمَّقان في ذلك، ويسترسلان في إرادة الخير للأمة المسلمة بعدها، فيطلبان في ضراعة وخشوع وتذلُّل واضح في استئناف الدعاء بقولهما ﴿رَبَّنَا﴾؛ هذه اللفظة الدّالة على تمام الرغبة في الاستجابة والقبول، ثم جملة ﴿وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾، وهي معطوفة على ما قبلها من دعاء.

فالمطلوب أن يكون هذا الرسول منهم أي من بينهم لا غريبًا عليهم من جانب، وليكون سببًا لاعتزازهم وشرفهم به من جانب آخر، هذا فضلاً عن معرفتهم له بالأمانة والصدق إذا كان منهم(٤).

---

(١) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز ناصر الجليل، ص١١٨.

(٢) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (٢٤/ ١٥١٢٥).

(٣) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز ناصر الجليل، ص١٣٤.

(٤) وجوه البيان في دعاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، سميرة عدلي محمد رزق، ص٢٢٤.

وقد استُجيب لدعوتهما فبُعث من ذُريّتهما النبي محمد ﷺ، وعن أبي أمامة قال: قلت: يا رسول الله ما كان أول بدء أمرك؟ فقال: «**دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أُمِّي كأنَّهُ خرجَ منها نورٌ، أضاءَت منه قصورُ الشامِ**» (١).

وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قدر الله السابق في تعيين محمد ﷺ رسولًا إلى الأميين وإلى سائر الأمم من الإنس والجن، ويُؤيِّد ذلك قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢]، والأمِّيُّون هم العرب لأنهم لا يقرؤون ولا يكتبون، فقد اشتهرت فيهم الأمية، كما قال عليه الصلاة والسلام: «إنَّا أمَّةٌ أمِّيَّةٌ لا نكتُبُ ولا نحسِبُ(٢)» (٣).

ولم يبعثِ اللهُ تعالى إلى مكة وما حولها إلا حبيبَه محمدًا خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، ولا شك في أن دعوة رسول الله ﷺ كانت كذلك عالمية وللناس أجمعين، هذا ونُسبت الدعوة إلى إبراهيم وحده في قوله ﷺ: «**أنا دعوةُ أبي إبراهيمَ**» (٤)؛ لأنّه الأصل في الدعاء وإسماعيل تبع له، ولأن إبراهيم كان يدعو وإسماعيل يؤمّن على دعائه، والمؤمّن داعٍ أيضًا، كما قال الله تعالى في موسى وهارون عليهما السلام: ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾ [يونس: ٨٩]، وموسى كان يدعو وهارون كان يؤمّن، فنُسبت الدعوة إليهما(٥).

وتمضي الآيات الكريمة في دعاء إبراهيم عليه السَّلام في بيان مُهمّة الرسول الكريم ﷺ التي من أهمها:

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير، الألباني، حديث صحيح، رقم (٣٤٥١).

(٢) صحيح البخاري، رقم (١٩١٣).

(٣) من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين، محمد فؤاد سندي، ص٢٢٥.

(٤) مسند أحمد، (٥/ ٢٦٢).

(٥) من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين، محمد فؤاد سندي، ص٢٢٦.

١ ـ قوله تعالى ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾:

أي: يقرأ آيات القرآن الكريم، مِن: تلا يتلو تلاوة، يُبيِّن حروفَه ويُفصح عن ألفاظه، ويتأنَّى في أدائه ويُرتِّله عليهم ترتيلاً، فيوقفهم بقراءته على كيفية تلاوته وأدائه، وجملة ﴿يَتْلُواْ﴾ في موضع نصب صفة «لرسول»، وقيل: هي في موضع نصب حال من ﴿رَسُولًا﴾؛ لأنه قد وُصف بقوله ﴿مِّنْهُمْ﴾، فتخصَّصت النكرة بالوصف فصحّ مجيء الحال منها.

وقد أُوتي رسولُ الله ﷺ القرآن الكريم، وهو: الكلام المنزل من عند الله تعالى بواسطة جبريل عليه السلام على الرسول، وهو المتعبَّد بتلاوته، المكتوب في المصاحف، المنقول بالتواتر بلا شبهة فيه، المُعجِز ولو بسورة منه، المُجمَع عليه. وأمر الله تعالى رسوله ﷺ بأن يتلوَ القرآن على نفسه، وعلى قومه، وعلى الناس، قال تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩١ وَأَنْ أَتْلُوَاْ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النمل: ٩١ ـ ٩٢] (١).

٢ ـ قوله تعالى ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾:

معطوف على ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ﴾ والمراد بالكتاب القرآن الكريم، وقد خُصَّ بالكتاب المنزّل على محمد ﷺ، فصار له كالعَلَم، كما أن التوراة أُنزلت على موسى، والإنجيل على عيسى عليهما السَّلام، وتسمية هذا الكتاب قرآنًا من بين كتب الله؛ لكونه جامعًا لثمرة كتبه، بل لجمعه ثمرة جميع العلوم، فالرسول ﷺ يُعلِّم قومه معاني القرآن، ويُبيِّن لهم وجوه أحكامه؛ حلاله وحرامه، ومفروضه ومسنونه، ومواعظه وأمثاله، وترغيبه وترهيبه، والحشر والنشر، والعقاب والثواب، والجنة والنار(٢).

---

(١) من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين، محمد فؤاد سندي، ص٢٢٧.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٢٨.

وكان ترتيب التعليم بعد التلاوة؛ لأن أول ما يقرع السمع هو التلاوة والتلفظ بالقرآن، ثم بعد ذلك تُعلَّم معانيه، ويُتدبَّر مدلولُه. وأُسند التعليم للرسول الكريم ﷺ؛ لأنه هو الذي يُلقي الكلام إلى المتعلم، فيُعلِّمه ويُفهِّمه، ويتلطَّف في إيصال المعنى إلى فهمه.

هذا وفي «التلاوة» إشارة إلى «فن القراءة» وما يتعلَّق به، وفي «التعليم» إشارة إلى «فن التفسير» وما يتعلَّق به من توضيح المجمل والمشكل والمبهم والمقادير، والأعداد في الفرائض والنوافل، قال تعالى: ﴿ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ أي: ويُعلِّمهم الرسول السنة، ويُبيِّن لهم أحكام الشريعة، وفي «الحكمة» إشارة إلى «فن التحديث» وما يتعلَّق به، وكل كلمة وعظَتْكَ أو دعتكَ إلى مكرمة أو نهتك عن قبيح فهي حكمة[١].

٣ ـ قوله تعالى ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾:

أي: يُطهِّرهم الرسول باطنًا وظاهرًا، باطنًا من أرجاس الشرك وأنجاس الشك، وظاهرًا بالتكاليف التي تُمحِّص الآثام وتُوصل الإنعام[٢].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: التزكية: الطاعة والإخلاص، وقيل: يأخذ منهم الزكاة التي تكون سببًا لتطهيرهم، وقيل: يدعوهم إلى ما يصيرون به أزكياء أتقياء، وقيل: يشهد لهم بالتزكية، من تزكية العدول. هذا في ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ إشارة إلى «علم العقائد»[٣].

والتزكية في قوله ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ أي: التطهير من الشرك وسائر المعاصي، وبزكاة النفس وطهارتها يصير الإنسان مُستحِقًّا في الدنيا الأوصافَ المحمودة، وفي الآخرة الأجر والثواب، وذلك بأن يتحرَّى الإنسان ما فيه تطهيره، وذلك

---

(١) البحر المحيط في التفسير، أبو حيّان الأندلسي، (١/ ٣٩٣).
(٢) المرجع السابق، (١/ ٣٩٣).
(٣) من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين، محمد فؤاد سندي، ص٢٢٨.

يُنسب تارةً إلى العبد، لكونه مكتسبًا لذلك، وعليه قوله تعالى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٩]، وتارةً يُنسب إلى الله تعالى؛ لكونه فاعلاً لذلك في الحقيقة، قال تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٩]، وتارةً يُنسب إلى النبي ﷺ؛ لكونه واسطة في وصول ذلك إليهم فقال تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣] [١].

٤ ـ قوله تعالى ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾:

وهنا يعاودنا التأكيد المعهود نفسه بالحرف «إنّ»، مقترنًا بكاف الخطاب العائد على الذات العليّة، ثم الضمير «أنت»، وهذا التأكيد أضفى على المعنى زيادة رسوخ صفتَي: ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ وأثرهما في قبول الدعاء، فالعزيز هو الذي لا يعزّ عليه شيء، والحكيم هو الذي يضع الأمور مواضعها.

وهذا فضلاً عن المبالغة المستفادة من صيغة «فعيل» التي جاءت عليها الصفتان الكريمتان ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾، كما نلاحظ مناسبة فاصلة الآية لما جاء في السِّياق، فالعزّة مناسبة للكتاب والشريعة؛ لأنهما يُعزّان من يتمسَّك بهما، كما أن تعليمهما والعمل بهما ليسا من الأمور السهلة، والحكيم مناسبة للحكمة المطلوبة لهذه الأمة في سياق الآية الكريمة.

وهكذا نلاحظ كيف اختُتم الدعاء بهاتين الصفتين المناسبتين لما جاء في الآية الكريمة، وذلك أدعى للقبول والاستجابة فقد قيل: فإذا أراد العبد أن يُستجاب له فليدع الله بما يناسبه من أسمائه وصفاته[٢].

اسم الله «العزيز»:

ورد ذكر اسمه سبحانه ﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴾ في القرآن الكريم في اثنتين وتسعين مرة، جاء في أكثرها مقترنًا بأسماء أخرى من أسمائه الحسنى، ومن ذلك: قوله

---

(١) من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين، محمد فؤاد سندي، ص٢٢٨.

(٢) وجوه البيان في دعاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، سميرة عدلي محمد رزق، ص٢٢٤.

تعالى ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وقوله تعالى ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ [ص: ٩]، وقوله تعالى ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ [ص: ٦٦].

ويقول ابن قيّم الجوزية رحمه الله في نونيّته:

وهو العزيزُ فلن يُرام جَنابُهُ ... أنَّى يُرامُ جَنابُ ذي السُّلطانِ
وهو العزيزُ القاهرُ الغلاّب لم ... يغلبه شيء، هذه صفتانِ
وهو العزيز بقوة هي وصفُه ... فالعزّ حيتئذ ثلاث معانِ
وهي التي كمُلت له سبحانَه ... من كل وجهٍ عادمِ النُّقصانِ[(١)]

ويوضح الشيخ السعدي هذه المعاني الثلاثة «للعزيز» فيقول: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي له العزة كلُّها؛ عزة القوة، وعزة الغلبة، وعزة الامتناع، فامتنع أن يناله أحد من المخلوقات، وقهر جميع الموجودات، ودانت له الخليقة، وخضعت لعظمته[(٢)].

اسم الله «الحكيم»:

ورد اسمه سبحانه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في القرآن الكريم في (٩١) موضعًا، وفي جميع المواضع يُذكر هذا الاسم مقترنًا باسم آخر من أسمائه الحسنى.

ومن أكثر الأسماء اقترانًا باسمه الحكيم ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾، ومن أمثلة ذلك: قوله تعالى ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحديد: ١]، واسم الله «الحكيم»: هو الذي لا يقول ولا يفعل إلا الصواب، وإنما ينبغي أن يُوصَف بذلك، لأن أفعاله سديدة وصنعه متقن، ولا يظهر الفعل المتقن السديد إلا من حكيم، كما لا يظهر الفعل على وجه الاختيار إلا من حيٍّ عالم قدير[(٣)].

---

(١) نونيّة الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، ابن قيّم الجوزية، (٢/ ٢١٨).

(٢) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز ناصر الجليل، ص٤٠٦.

(٣) الأسماء والصفات، البيهقي، تحقيق: عبد الله بن محمد الحاشدي، مكتبة السوادي، جدة، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، ص٢٢.

وقال السعدي أيضًا: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ هو الذي له الحكمة العليا في خلقه وأمره، الذي أحسن كل شيء خلقه ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، فلا يخلق شيئًا عبثًا، ولا يُشرِّع سدًى، الذي له الحكم في الأولى والآخرة، وله الأحكام الثلاثة لا يشاركه فيها مشارك، فيحكم بين عباده في شرعه، وفي قدره وجزائه، والحكمة: وضع الأشياء مواضعها، وتنزيلها منازلها(١).

هذا ولقد حقَّق إبراهيم عليه السَّلام العبودية لله عزّ وجل، فكان لله في صدق، فكان الله له استجابةً ورعاية وعناية وتوفيقًا(٢).

وقد يتساءل إنسان عن السرِّ في أن الله سبحانه كان دائمًا يستُجيب دعاء إبراهيم عليه السلام، ولاستجابة الدعاء شروط، إذا توافرت تمت الاستجابة، منها: ما رواه ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: تليت هذه الآية عند النبي ﷺ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: ١٦٨]، فقام سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني مُستجابَ الدعوة، فقال رسول الله ﷺ: «**يا سعدُ، أطِبْ مَطعمَكَ تكنْ مُستجابَ الدَّعوةِ، والذي نفسُ محمَّدٍ بيدِه إنَّ الرجلَ لَيَقذِفُ اللُّقمةَ الحرامَ في جَوفِه ما يُتقبَّلُ منه عملُ أربعينَ يَومًا، وأيُّما عبدٍ نبتَ لَحمُه من السُّحتِ والرِّبا فالنّارُ أولى به**»(٣).

وإن الشرط الأساسي في استجابة الدعاء أن يُحقِّق الإنسان العبودية في نفسه بالنسبة له وحده تحقيقًا صادقًا، وتحقيق العبودية ليس كلمة تُقال، وليس عملاً دون نية، ولا نية دون عمل، وإنما تتكاتف الجوارح واللسان والقلب، فتتحقَّق ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

---

(١) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، نقلاً عن: ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز ناصر الجليل، ص٢٨٣.

(٢) قصص الأنبياء في رحاب الكون، عبد الحليم محمود، ص١٤٢.

(٣) المرجع نفسه، ص١٤٢.

وإن تحقيق العبودية هو أن يؤدي الإنسان الفُروض، ويُكثر من النوافل، ويخلص قلبه لله، وجماع كل ذلك في قوله ﷺ: «**إن الله تعالى قال: منْ عادَى لي وَلِيًّا فقد آذَنتُهُ بالحَرب، وما تقرَّبَ إليَّ عبدي بشَيءٍ أحبَّ إليَّ ممّا افترَضتُه عليه، وما يزالُ عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنَّوافلِ حتى أُحِبَّهُ، فإذا أحبَبتُه كنتُ سَمعَهُ الذي يَسمعُ بِهِ، وبَصَرهُ الذي يُبصِرُ به، ولئن سألني لأُعطِينَّه، ولئنِ استعاذَني لأُعِيذَنَّهُ**»[1].

٥ ـ أول بيت وُضِع للناس:

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ۝٩٦ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦ ـ ٩٧].

يُخبر الله تعالى عن عظمة بيت الله الحرام، وأنه أول البيوت التي وضعها الله في الأرض لعبادته، وإقامة ذكره، وأن فيه من البركات وأنواع الهدايات وتنوع المصالح والمنافع للعالمين شيئًا كثيرًا، وفضلاً غزيرًا، وأن فيه آيات بينات تُذكِّر بمقامات إبراهيم الخليل وتنقُّلاته في الحج، ومن بعده تُذكِّر بمقامات سيد الرسل وإمامهم، وفيه من الأمن الذي من دخله كان آمنًا مُؤمَّنًا شرعًا ودينًا.

فلما احتوى على هذه الأمور، التي هذه مُجملاتُها، وتكثير تفصيلاتها، أوجب الله حجّه على المكلفين مَن استطاع إليه سبيلاً، وهو الذي يقدر على الوصول إليه بأي مركوب يناسبه، وزاد يتزوّده، وأتَى بهذا اللفظ الذي ينطبق على جميع المركوبات الحادثة والتي ستحدث، وهذا من آيات القرآن، حيث كانت أحكامه صالحة لكل زمان وكل حال، ولا يمكن الصلاح التام من دونها، فمن أذعن لذلك وقام به فهو من المهتدين المؤمنين، ومن كفر فلم

(١) قصص الأنبياء في رحاب الكون، عبد الحليم محمود، ص١٤٢. وانظر: صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم: (٦٥٠٢).

يلتزم حجَّ بيتهِ فهو خارج عن الدين ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (١).

٦ ـ فضائل الكعبة:

أ ـ الكعبة معظّمة عند الله:

ما زالت الكعبة المشرَّفة معظَّمةً مكرّمة في نفوس المؤمنين فطرة ودينًا، منذ بناها خليل الله إبراهيم عليه السَّلام؛ فطرة بما أودعه الله تعالى في القلوب من حبِّ الكعبة وتعظيمها، واشتياق الأرواح إليها، وديانة لما أمر الله تعالى به المؤمنين من تعظيمها وإجلالها، وبما ارتبط بها من شعائر تعبُّديّة من صلاة، يتَّجه فيها المسلمون بقلوبهم وأجسادهم نحوها... إلخ، وقد أكّد النبي ﷺ هذا التعظيم في قصة سيره نحو مكة عندما قال: «هذا يَومٌ يُعَظِّمُ اللهُ فيه الكَعبَةَ، ويَومٌ تُكسَى فيه الكَعبَةُ» (٢).

وقد تعدَّدت مظاهر تعظيم الكعبة، نذكر منها:

* أن الله تعالى أمر الخليل عليه السلام بتطهير بيته للطائفين والعاكفين والركع السجود.

* أن الله أضاف البيت إلى نفسه تشريفًا ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ ﴾.

* أن الله تعالى حرّم مكة يوم خلق السماوات والأرض تعظيمًا لحرمة بيته الذي ستضمُّه جنباتها.

* أن الله سبحانه حماها من أبرهة الأشرم، وحبس الفيل عن هدمها.

* أن الله تعالى أمر الناس أن يأتوا الكعبة المشرَّفة بحج أو عمرة ليتشرَّفوا بذلك، ويشهدوا منافع لهم، وجعل هذا الإتيان إليها فرضًا في الحج على القادر المستطيع.

---

(١) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص٢٣٠.
(٢) صحيح البخاري، رقم (٤٠٣٠).

* أن النبي ﷺ نهى عن استقبال القبلة واستدبارها عند إتيان الغائط تأدُّبًا مع الكعبة المشرَّفة.

* أن النبي ﷺ نهى عن البصاق تجاه القبلة في الصلاة وغيرها تأدُّبًا مع الكعبة المشرَّفة[١].

وقد تحدث القرآن الكريم عن عظمة صفات البيت الحرام (الكعبة) ومحاسنه، فوصفه الله تعالى:

* أنه أسبق بيوت العبادة في الأرض.

* أنه مبارك، والبركة كثرة الخير ودوامه، وليس في بيوت العالم أكثر بركة منه، ولا أكثر خيرًا، ولا أدوم ولا أنفع للخلائق.

* أنه هدى للعالمين.

* فيه آيات بينات ذكرنا بعضها فيما مضى.

* الأمن لداخله[٢].

ب ـ فضائل الخروج إلى الكعبة:

وجاءت في ذلك أحاديث نبوية كريمة، منها قوله ﷺ: «**مَن أتى هذا البيتَ، فلم يَرفُثْ ولم يَفسُقْ، رجعَ كما ولدَتهُ أمُّه**» [٣].

ج ـ فضائل الحجر الأسود:

جاء في ذلك أحاديث عن النبي ﷺ: «**الحجر الأسود من حجارة الجنة**» [٤].

---

(١) الكعبة المشرفة، محمود أحمد الدوسري، ص٥٦.

(٢) المرجع نفسه، ص٥٦.

(٣) صحيح الترغيب والترهيب، الألباني، مكتبة المعارف للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م، (٢/ ١١) رقم (١١١٣).

(٤) صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير، الألباني، حديث صحيح، (١/ ٦٠٦) رقم (٣١٧٥).

وقد توسَّع أهل العلم في ذكر الأحاديث الصحيحة، وذكر العلماء: فضائل الركن اليماني، وفضائل الطواف حول الكعبة، وفضائل مقام إبراهيم، وفضائل ماء زمزم، ومضاعفة الحسنات عند الكعبة(١).

ومن أراد التوسع فليراجع كتاب (الكعبة المشرَّفة) للدكتور محمود الدوسري، فقد أفاد وأجاد في ذكر فضائل الكعبة المشرَّفة، وخصائصها، وأحكامها.

٧ ـ الأقصى بُني بعد الكعبة بأربعين سنة على يد إبراهيم عليه السلام أو يعقوب عليه السلام:

بعد أن بنى إبراهيم الكعبة بفترة، قام ببناء المسجد الثاني المبارك المقدس، وهو المسجد الأقصى في بيت المقدس، فإبراهيم هو باني الكعبة، وإبراهيم هو باني الأقصى، وقد أخبرنا بذلك رسول الله ﷺ، فروى البخاري ومسلم عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي مسجد وُضع في الأرض أولاً؟ قال: «**المسجد الحرام**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**المسجد الأقصى**»، قلت: كم كان بينهما؟ قال: «**أربعون سنة**» (٢).

إنّ هذا الحديث الصحيح يدلُّ على أن إبراهيم عليه السَّلام هو باني الكعبة والأقصى، ويُحدِّد المدة الزمنية بين بناءيهما بأنها أربعون سنة.

وهذا يعني أن الأقصى بُني في القدس، قبل بني إسرائيل، وقبل دخولهم فلسطين بعد موسى عليه السلام، وقبل ملك داود وسليمان، وقبل بناء سليمان للهيكل كما يزعم اليهود، فكون القدس بلدًا إسلاميًّا هذا أمر قديم، منذ إبراهيم عليه السلام على الأقل، وبناء الأقصى مسجدًا لله تعالى قديم، قبل أن يُوجد اليهود ويدّعوا أن لهم حقًّا في فلسطين بمئات السنين، فحقُّ المسلمين في القدس سابق لأي حقٍّ يهوديٍّ أو نصرانيٍّ ـ إن كان لليهود أو النصارى حق فيها ـ وهذا

(١) الكعبة المشرفة، محمود أحمد الدوسري، ص١١٣.
(٢) صحيح البخاري، رقم (٣٣٦٦)، صحيح مسلم، رقم (٥٢٠).

الحق ثابت للمسلمين منذ أبيهم إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام.

ونعلم أن المسجد الأقصى الذي بناه إبراهيم عليه السَّلام قد عَدَت عليه العوادي، وأنه قد تهدّم، فمكانه بقي معروفًا وبقي «أقصى»، وبقي مقدَّسًا، والرسول ﷺ أمَّ الأنبياء في الصلاة، على أطلال بناء الأقصى في ليلة الإسراء والمعراج، ثم قام المسلمون ببناء الأقصى في عهد الأمويين، أو قاموا بتجديد بنائه على الأصح. ولما عاد إبراهيم عليه السلام إلى بيت المقدس ـ بعد بنائه الكعبة ـ بقي ابنُه إسماعيل عليه السلام مقيمًا في مكة حول البيت، مشرفًا على الطائفين والقائمين والعاكفين والحجاج[١].

ويرى الشيخ عثمان الخميس في كتابه القيم (فبهداهم اقتده قراءة تأصيلية في سير وقصص الأنبياء عليهم السلام): أنَّ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بنيا الكعبة، ويعقوب حفيد إبراهيم بنى بيت المقدس، فهو ثاني مسجد وُضع في هذه الأرض، ثم رجع إلى أبيه، وتوفِّي إسحاق عليه السَّلام بعد مدة، وقيل: إنه بلغ من العمر ثمانين ومئة سنة، والعلم عند الله جلّ وعلا[٢].

٨ ـ إبراهيم عليه السلام يدعو لمكة، والرسول ﷺ يدعو للمدينة:

وبعدما أتمّ إبراهيم بناء الكعبة، دعا اللهَ لها ولأهلها، وجعلها حرامًا، يحرم القتال فيها، وحرّم صيدها وشجرها، وحدَّد حدود الحرم، وكان هذا بوحي من الله.

وقد أخبرنا رسول الله ﷺ أن إبراهيم حرّم مكة ودعا لها، وأن رسولنا عليه الصلاة والسلام قد حرَّم المدينة ودعا لها، روى الإمام مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: لا تَفعَل، الزَمِ المَدِينةَ، فإنّا خَرَجنا مع نَبِيِّ الله ﷺ،

---

(١) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٤١٥).

(٢) فبهداهم اقتده «قراءة تأصيلية في سير وقصص الأنبياء»، عثمان محمد الخميس، ص١٨٠.

أَظُنُّ أَنَّهُ قالَ، حتَّى قَدِمنا عُسفانَ، فأقامَ بها لَيالِيَ، فقالَ النّاسُ: واللهِ ما نَحنُ ههُنا في شيءٍ، وإنَّ عِيالَنا لَخُلُوفٌ ما نَأمَنُ عليهم، فبَلَغَ ذلكَ النبيَّ ﷺ، فقالَ: «**ما هذا الذي بَلَغَني مِن حَديثِكُم؟**» ما أدرِي كيفَ قالَ، «**والَّذِي أحلِفُ به، أو والَّذِي نَفسِي بيَدِهِ، لقَد هَمَمتُ، أو إن شِئتُم ـ لا أدرِي أيَّتَهُما قالَ ـ لآمُرَنَّ بناقَتي تُرحَلُ، ثُمَّ لا أحُلُّ لَها عُقدةً حتَّى أقدَمَ المَدِينةَ**»، وَقالَ: «**اللَّهُمَّ إنَّ إبراهِيمَ حَرَّمَ مَكّةَ فجَعَلَها حَرَمًا، وإنِّي حَرَّمتُ المَدِينةَ حَرامًا ما بينَ مَأزِمَيها، ألّا يُهراقَ فِيها دَمٌ، ولا يُحمَلَ فِيها سِلاحٌ لِقِتالٍ، ولا تُخبَطَ فِيها شَجَرةٌ إلّا لِعَلَفٍ**»[(١)].

وروى الإمام مسلم أيضًا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كانَ النّاسُ إذا رأوا أوَّلَ الثَّمَرِ جاؤُوا به إلى النبيِّ ﷺ، فإذا أخَذَهُ رَسولُ اللهِ ﷺ، قالَ: «**اللَّهُمَّ بارِك لَنا في ثَمَرِنا، وبارِك لَنا في مَدِينَتِنا، وبارِك لَنا في صاعِنا، وبارِك لَنا في مُدِّنا، اللَّهُمَّ إنَّ إبراهِيمَ عَبدُكَ وخَلِيلُكَ ونَبِيُّكَ، وإنِّي عَبدُكَ ونَبِيُّكَ، وإنَّه دَعاكَ لِمَكّةَ، وإنِّي أدعُوكَ لِلمَدِينةِ بمِثلِ ما دَعاكَ لِمَكّةَ، ومِثلِهِ معهُ**»، قالَ: ثُمَّ يَدعُو أصغَرَ ولِيدٍ له فيُعطِيهِ ذلكَ الثَّمَرَ[(٢)].

لقد امتنَّ الله على العرب الكافرين بدعوة إبراهيم للحرم وأهله، فجعل مكة بلدًا آمنًا مطمئنًّا، وعليهم أن يشكروا الله على هذه النعمة، فيؤمنوا به وحده، ويتَّبعوا رسوله محمدًا ﷺ، قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

إذن إبراهيم عليه السلام هو الذي بنى الكعبة بنص الآيات والأحاديث

---

(١) صحيح مسلم، رقم (١٣٧٤).

(٢) المرجع نفسه، رقم (١٣٧٣)؛ سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني، رقم (١١٥).

السابقة، ولما انتهى من البناء، ودعا الناس إلى الحج، عاد إلى مكان إقامته في فلسطين[١].

٩ ـ الكعبة مركز الأرض:

اكتشف علماء المسلمين الأوائل أن الكعبة والبلد الحرام مركز الأرض ووسط الدنيا، ومما جاء في ذلك عن علماء اللغة والتفسير ما يأتي:

أ ـ ابن عطية الأندلسي رحمه الله:

قال في سبب تسمية أم القرى بهذا الاسم: سُمِّيت بذلك لوجوه أربعة:

* منها: أنّها منشأ الدين والشرع.

* ومنها: ما رُوي أن الأرض منها دُحيت.

* ومنها: أنّها وسط الأرض وكالنقطة للقُرى.

* ومنها: ما نقل عن الشرع أنّها قبلة كلّ قرية، فهي لهذا كله أمٌّ وسائر القرى بنات[٢].

ب ـ ياقوت الحموي رحمه الله:

جاء في الأخبار: أنّ أوّل ما خلق الله في الأرض مكان الكعبة، ثم دحا الأرض من تحتها، فهي سُرّة الأرض ووسط الدنيا، وأمُّ القرى أوّلها الكعبة، ومكّة حول الكعبة، وحول مكة الحرم، وحول الحرم الدنيا[٣].

ج ـ ابن قيّم الجوزية رحمه الله:

أخبر أنه كما جعلهم أمة وسطًا وخيارًا، اختار لهم أوسط جهات الاستقبال وخيرها، كما اختار لهم خير الأنبياء، وشرع لهم خير الأديان، وأنزل عليهم

---

(١) فبهداهم اقتده «قراءة تأصيلية في سير وقصص الأنبياء»، عثمان محمد الخميس، ص١٨١.
(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير ابن عطية)، (٢/ ٣٢٢).
(٣) معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م، (٤/ ٤٦٣).

خير الكتب، وجعلهم شهداء على الناس كلِّهم لكمال فضلهم وعلمهم وعدالتهم، وظهرت حكمته في أن اختار لهم أفضل قبلة وأشرفها، لتتكامل جهات الفضل في حقهم بالقبلة والرسول والكتاب والشريعة[١].

والخلاصة: أن الكعبة والبلد الحرام يتوسّطان الأرض، إمّا من المعنى اللغوي لاسم مكة، أو الوصف القرآني لها بأنها أم القرى، أو من خلال فهم وتفسير ما ورد في بعض الآيات[٢].

د ـ وسطية الكعبة لها بُعدٌ روحيٌّ وماديٌّ:

ربط العلماء الأوائل بين وسطية الأمة وعدالتها وشرفها وبين وسطية المكان، فاتَّخذت الوسطية بُعدين اثنين:

* بُعدًا روحيًّا معنويًّا: يتمثَّل في تفضيل الأمة المسلمة على غيرها من الأمم، وفي شرفها ومكانتها السامية التي اختارها الله تعالى لها.

* بُعدًا ماديًّا: يتمثَّل في وسطية المكان؛ لتتمكَّن الأمة من أداء رسالتها من خلال هذا المكان، ولتشعّ بنورها في أرجاء الدنيا على وجه متوازن ومتساوٍ، يُمكِّنها من ذلك وجودُها في وسط العالم ومركزه.

وكان اختيار العلماء الأوائل لهذا الرأي، الذي يجمع بين وسطية المكانة ووسطية المكان، من توفِّيق الله تعالى لهم، وغوثه إياهم، ثم جاء العلم الحديث مُؤيِّدًا ومؤكِّدًا ما ذهبوا إليه[٣].

وكما أثبتت الدراسات العلمية المعاصرة: أن الكعبة والبلد الحرام يقعان في مركز اليابسة القديم «آسيا وأفريقيا وأوربا»، والجديد: الأمريكيتين

---

(١) مفتاح دار السعادة، ابن قيم الجوزية، (٢/ ٣١).
(٢) الكعبة المشرفة، محمود أحمد الدوسري، ص١٦٩.
(٣) المرجع نفسه، ص١٧٠.

وأستراليا والقارة الجنوبية المتجمدة، أي: أن اليابسة على سطح الكرة الأرضية موزّعة حول مكة المكرمة توزيعًا منتظمًا.

وهكذا، يعدُّ موقع الكعبة المشرَّفة موقعًا فريدًا من نوعه ومُتميِّزًا، لا ينافسها في ذلك أيُّ موقع أو مدينة أخرى، من هنا وُصفت في القرآن الكريم بأنها أمُّ القرى[١].

* * *

سابعًا: قوله تعالى ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠]:

ملة إبراهيم عليه السلام هي مِلّة التوحيد والإسلام وإفراد العبودية لله، وهكذا ارتفع البيت، وجعلت في الأرض دعوة التوحيد وملّته، وهي مِلّة إبراهيم عليه السلام الذي جعله الله سبحانه إمام الموحدين، فما بُعث نبيٌّ بعدَه إلا من ذُريّته داعيًا إلى ملته ـ كما مرّ معنا ـ فلا ينبغي لأحد أن يرغبَ عن هذه الملة[٢].

١ ـ قوله تعالى ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥۚ﴾:

لقد دعا اللهُ تعالى إلى مِلّة إبراهيمَ الناسَ جميعًا من بعده؛ لأنّها إجابة للفطرة وتنبعث من النفس المستقيمة، واتجاه العقل الحكيم[٣].

والاستفهام للاستبعاد والإنكار، وفيه توبيخ وتقريع للذين انحرفوا عن مِلّة التوحيد، كاليهود، والنصارى، والمشركين[٤].

والمعنى: لا يرغب عن مِلّة إبراهيم ويتركها متجاوزًا لها إلى غيرها من الأوهام الباطلة إلا من سفه نفسه.

---

(١) الكعبة المشرفة، محمود أحمد الدوسري، ص١٧٤.
(٢) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (١/ ١٩٨).
(٣) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (١/ ٤١١).
(٤) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (١/ ١٩٨).

وقوله تعالى ﴿وَمَن يَرْغَبُ﴾: فيها التجاوز والترك إلى أوهام، ونقيض يرغب عنها: يرغب فيها، فالرغبة فيها إقبال عليها، والرغبة عنها تجاوز عنها، وترك لها، وهذا يتضمَّن أمرين؛ **أولهما**: أنه علمها وكان ينبغي أن يرغب فيها، ولكنه تجاوزها وتركها لا عن انصراف مجرد، بل عن قصد وإعراض، **وثانيهما**: أنه اتَّجه ورغب في غيرها، ونفى الله تعالى الرغبة عنها إلا ممَّن سفه نفسه[(١)].

* وقوله تعالى ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ جعلها في حمق ورعونة؛ لأنّ النفس الإنسانية المستقيمة تتَّجه إلى الله لما في داخلها من ينبوع الخير الداعي إلى إدراك الحق المستقيم، فالنفس الإنسانية لو تأملنا خلقها وتكوينها تهدي وتُرشد إلى الحق، ولقد قال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢١ ـ ٢٢][(٢)].

قال الشنقيطي رحمه الله: قوله تعالى ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ﴾ الآية لم تبيّن هنا ما مِلّة إبراهيم، وبيّنها بقوله ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]، فصرّح في هذه الآية بأنها دين الإسلام بعث الله به نبيّه محمدًا ﷺ، وكذا في قوله ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [النحل: ١٢٣]، وقال في سورة الحج: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨][(٣)].

وإنَّ مِلّة إبراهيم كانت مِلّة النبيين؛ لأنّ الله تعالى اختاره للإمامة وابتلاه بالكلمات، ولأنه كان يشكر نعم ربه، ولأنه اختاره لبناء البيت، ولأنه اختاره لتعليم مناسك الحج، ولأنه اختاره ليكون أبا الأنبياء، ولذلك كلِّه[(٤)] قال تعالى:

---

(١) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (١/ ٤١٢).
(٢) المرجع نفسه، (١/ ٤١٢).
(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، (١/ ٨٦).
(٤) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (١/ ٤١٢).

٢ ـ قوله تعالى ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ :

ومعنى اصطفاه الله تعالى، أي اختاره بعد أن ابتلاه بما صفَّى نفسَه، وخلَّصها لله تعالى، وصار ليس في قلبه موضعٌ لغيره، فاختاره من بين خلقه خليلاً له، وكان أمة وإمامًا، وكان أوّاهًا حليمًا رجّاعًا إلى الله تعالى دائمًا، وأكد سبحانه وتعالى أنه في الآخرة من الصالحين، ففي الدنيا اصطفاه، فكان معه فيها على الخير المطلق، وقد ابتُلي فأحسن البلاء، وكان صَفيًّا وكان وليًّا، واختُصَّ بأن يكون خليلاً[١].

وقد أكد سبحانه وتعالى أنه في زمرة الصالحين الذين نالوا رضوان الله بقوله ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، فأكد بـ «إنّ» الدالة على توكيد الخبر، وأكّد بـ «اللام» في قوله ﴿لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وأكد بتقديم ﴿فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، وذلك التأكيد لأنه من الذين وصلوا إلى أعلى درجات الصلاح، وإنْ عده من الصالحين يوم القيامة إنما كان لأنه أخلص وأسلم وجهه لله رب العالمين مستُجيبا طلب الله تعالى منه، إذ طلب ربُّه منه أن يكون كلُّه له وحده؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٢].

* * *

ثامنًا: قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]:

١ ـ قوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ﴾ :

أي: واذكر يا محمد لأمتك، إذ قال الله لإبراهيم ﴿أَسْلِمْ ۖ﴾ أي: أخلص دينك وعملك لله، فاستجاب، وأجاب على الفور قائلاً: أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ[٣].

(١) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (١/ ٤١٣).
(٢) المرجع نفسه، (١/ ٤١٤).
(٣) تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص٢٢٤.

٢ ـ قوله تعالى ﴿أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

أي: أخلصت ديني له، وفوّضت أمري إليه، وهذا يشمل إسلام الباطن والظاهر[(١)].

و﴿أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: أسلمت نفسي وقلبي وجوارحي كلها لربِّ العالمين؛ الذي لا ربّ سواه جلّ وعلا[(٢)]، و﴿أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: إخلاصًا وتوحيدًا ومحبة وإنابة، فكان التوحيد لله نعته[(٣)].

و﴿أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: معنى ذلك أنه لن يكون وحده في الكون؛ لأنّه إذا أسلم لله الذي سخر له ما في السماوات والأرض، يكون قد انسجم مع الكون المخلوق من الله للإنسان، ومَن أكثرُ نضجًا في العقل ممَّن يُسلم وجهه لله سبحانه؛ لأنه يكون بذلك قد أسلمه إلى عزيز حكيم قوي لا يُقهر، قادر لا تنتهي قدرته، غالب لا يُغلَب، رَزّاق لا يأتي الرزق إلا منه، فكأنه أسلم وجهه للخير كلّه[(٤)].

وإن الدين عند الله سبحانه وتعالى منذ عهد آدم إلى يوم القيامة هو الإسلام، وإبراهيم عليه السَّلام يعلمنا كيف يكون الاستسلام والخضوع لله تعالى ولدينه وشرعه، فأين هذا من جحود الجاحدين وعناد المعاندين، الذين سبق الحديث عن مواقف عنادهم وجحودهم[(٥)]؟!

تبيّن الآية الكريمة مقام إبراهيم عليه السَّلام في الاستجابة لأمر ربه، وخلوص نفسه إذ أمره بذلك فاستجاب فورًا قائلاً: ﴿أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أسلمت أي خلّصت نفسي وجعلتها لرب العالمين، أي لخالق العالمين والقائم

---

(١) تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص٢٢٥.
(٢) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (١/ ١٩٩).
(٣) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص٩٤.
(٤) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١/ ٥٠٣).
(٥) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (١/ ١٩٩).

عليهم وربِّهم وكالئهم، وإن ذلك شكر له، فهو في ذلك شاكر لأنعم الله تعالى كحاله دائمًا، فهذا النص لبيان مدى استجابة خليل الله تعالى لربّه غير مُتردِّد ولا مُتلكِّئ[١].

وإنما كان مسارعًا ومندفعًا لرضا رب العالمين والاستجابة لدينه وشريعته وتوحيده وإفراد العبادة له سبحانه وتعالى[٢].

هذه هي مِلّة إبراهيم عليه السَّلام، الإسلام الخالص الصريح. ولم يكتف إبراهيم بذلك، بل وصَّى بهذه الملة بنيه من بعده جيلاً بعد جيل، ووصَّى أحفادَه وأبناءهم، فمن كفر بها فقد كفر بالله وبوصية إبراهيم، وما كان إبراهيم عليه السلام ليرضى عنهم، إذ كفروا بربهم كالمشركين؛ إذ غيّروا وبدّلوا في دين إبراهيم، وكاليهود الذين ادّعوا أن إبراهيم كان يهوديًّا، ولقد ردّ الله تعالى قولهم بقوله ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧][٣].

* * *

تاسعًا: قوله تعالى ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]:

١ ـ قوله تعالى ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ :

«التوصية» هي العهد المؤكد في الأمر الهامّ، ﴿ بِهَآ ﴾: أي بهذه الكلمة العظيمة وهي ﴿ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، وهذه الملة هي مِلّة التوحيد والإسلام، ﴿ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾: أي وصّى بهذه الكلمة يعقوبُ بنيه كما

(١) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (١/ ٤١٤).
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، (١/ ١١٦).
(٣) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (١/ ٤١٥).

وصّى بها جدُّه إبراهيم ـ من قبل ـ بنيه، ويعقوب عليه السلام وُلد في حياة جدّه إبراهيم عليه السَّلام وجدّته سارة[١].

ذكر الله وصية إبراهيم عليه السَّلام لأبنائه في سياق الآيات التي تتحدَّث عن وجوب التمسُّك بملته، والتي تبيِّن أن مَن ترك ملّتَه رغبة عنها إلى غيرها فإنما هو جاهل بموضع حَظِّ نفسه فيما ينفعها ويضرُّها في معادها، كاليهود والنصارى الذين انحرفوا عن الطريق الصحيح، فموضوع الوصية في الآية: الحثُّ على التمسُّك بالإسلام وعدم تركه أبدًا.

٢ ـ قوله تعالى ﴿ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ ﴾:

بدأ وصيته لهم بتذكيرهم بنعمة الله وفضله عليهم، بأن اختار لهم هذا الدين الكامل من بين الأديان، وفضَّلَهم به، وبعد أن هيَّأ قلوبهم، باستشعارهم النعمة، التي فضَّلهم الله بها، واختارها لهم، أوصاهم ألا يموتوا إلا وهم عليها، بمعنى ألا يفارقوا هذا الدين أيام حياتهم كلها، وذلك لأنه لا يدري أحد متى تأتيه منيَّته، وكأنه يقول لهم: اثبتوا على دين الإسلام حتى لا تأتيكم المنية وأنتم على غيره، فتموتوا وربكم ساخط عليكم فتهلكوا[٢].

ويقول ابن كثير في تفسيره موضِّحًا هذه الوصية: أي أحسِنوا في حال الحياة والزموا هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه، فإن المرء يموت غالبًا على ما كان عليه، ويُبعث على ما كان عليه، وقد أجرى الله الكريم عادته بأن مَن قصد الخير وُفِّق له ويُسِّر له، ومن نوى صالحًا ثبت عليه[٣].

ونستنبط من وصية إبراهيم عليه السلام: أن الوصية بعقيدة التوحيد وما تشتمل عليه من سلوك ومكارم أخلاق من أهم ما يُوصي به الأب أبناءه في

---

(١) تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص٢٢٥.
(٢) تفسير الطبري «جامع البيان في تأويل القرآن»، (١/ ٤٣٨).
(٣) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، (١/ ٢٨٠).

كل أطوار حياتهم حتى يلقَوْا ربهم وهم عليه، وإن الدِّين المعنيَّ به هنا هو الدين الإسلامي الحنيف على حدّ قوله تعالى ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾، و«الـ» في الدين للتعريف على قوله تعالى ـ هناك ـ ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقوله تعالى ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ومن هنا يُعلَم أن الدين الإسلامي هو الدين، ولا دين غيره منذ أن بعث الله الرسل، ومن هذه الأخيرة يُعلم أن إبراهيم عليه السلام ـ نفسه ـ كان قد وُصِّي من الله عزّ وجل بهذا الدين، وهو من بعدُ أوصى به أبناءه، فينبغي على الآباء أن يكونوا في غاية الحرص على أبنائهم، بتوجيههم وإرشادهم إلى اتِّباع دين الله والتمسُّك به، فإن هذا خير ما يقدمه الوالد لولده، إذ به ينقذه من سخط الله وعذابه، ويضعه في محلِّ رضوانه ومحبته عزّ وجل(١).

ومما يذكره الفخر الرازي حول ما يُستفاد من هذه الوصية قوله: اعلم أن هذه الحكاية اشتملت على دقائق مُرغِّبة في قبول الدين:

أحدها: أنه تعالى لم يقل: وأمر إبراهيم، بل قال: ووصَّى، ولفظ الوصية أوكد في الأمر؛ لأنّ الوصية عند الخوف من الموت، وفي ذلك الوقت يكون احتياط الإنسان لدينه أشدَّ وأتمّ، فإذا عرف أنه عليه السلام في ذلك الوقت كان مهتمًا بهذا الأمر مُتشدِّدًا فيه كان القول إلى قبوله أقرب.

وثانيها: أنه عليه السلام خصَّص بنيه بذلك، وذلك لأن شفقة الرجل على أبنائه أكثر من شفقته على غيرهم، فلما خصَّصهم بذلك في آخر عمره علمنا أن اهتمامه بذلك كان أشدَّ من اهتمامه بغيره.

وثالثها: أنه عمَّم هذه الوصية على جميع بنيه، ولم يخصَّ أحدًا منهم، وذلك يدلُّ على شدة الاهتمام.

---

(١) القصص القرآني بين الآباء والأبناء، عماد زهير حافظ، ص١٤١.

ورابعها: أنه عليه السلام أطلق هذه الوصية غير مقيَّدة بزمان معين ومكان معين، ثم زجرهم أبلغ الزجر عن أن يموتوا غير مسلمين، وذلك يدلُّ ـ أيضًا ـ على شدة الاهتمام بهذا الأمر.

وخامسها: أنه عليه السلام ما مزج بهذه الوصية وصيةً غيرها، وهذا يدلُّ على شدة الاهتمام بالأمر. ولمّا كان إبراهيم عليه السلام هو الرجل المشهود له بالفضل وحسن الطريقة وكمال السيرة، ثم عُرف أنه كان في غاية الاهتمام بهذا الأمر، عُرف حينئذ أن هذا الأمر أولى الأمور بالاهتمام، وأحراها بالرعاية والقبول[١].

إنَّ إبراهيم عليه السلام وصّى بنيه ويعقوب كذلك، وكانت الوصية ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾، إذن فالوصية لم تكن أمرًا من عند إبراهيم ولا أمرًا من عند يعقوب، ولكن كانت أمرًا اختاره الله للناس، فلم يجد إبراهيم ولا يعقوب أن يُوصيا أولادهما إلا بما اختاره الله، فكأن إبراهيم اؤتُمن على نفسه فنفَّذ التكاليف، واؤتُمِن على أولاده فأراد منهم أن يتمسَّكوا بما اختاره لهم.

٣ ـ قوله تعالى ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾:

فالمعنى: لا تُفارقوا الإسلام لحظة حتى لا يُفاجئكم الموت إلا وأنتم مسلمون.

والله سبحانه وتعالى أخفى موعد الموت ومكانه وسببه، لكي يتوقَّعه الناس في أي وقت وفي أي مكان وفي أي زمان، ولذلك قد نلتمس العافية في أشياء يكون الموت فيها، والشاعر يقول:

إن نـامَ عَنـكَ فكُـلُّ طِـبّ نـافِـعٌ أو لَـم يَنَـم فـالطِّـبُّ مِـن أذنـابِـهِ

أي: إن لم يكن قد جاء الأجل، فالطب ينفعك ويكون من أسباب الشفاء،

---

(١) التفسير الكبير مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، (٤/ ٧٢ ـ ٧٣).

وأما إذا جاء الأجل فيكون الطبُّ سببًا في الموت، كأن تذهب لإجراء عملية جراحية فتكون سبب موتك. كما قال الشاعر:

والنـاسُ يلحـونَ الطَّبيـبَ وإنَّمـا خَطَـأُ الطبيـبِ إصـابـةُ الأقـدارِ

فالإنسان لا بُدَّ أن يتمسَّك بالإسلام وبالمنهج، ولا يغفل عنه أبدًا، حتى لا يأتيَه الموت في غفلته، فيموت غير مسلم، والعياذ بالله(١).

ولقد استجاب أبناء إبراهيم عليه السلام لوصيته، وهذا يعقوب عليه السلام يُكرِّرها في آخر لحظة من لحظات حياته، إذ كانت شغله الشاغل الذي لم يصرفه عنه الموت وسكراتُه، فليسمعها بنو إسرائيل(٢).

* * *

عاشرًا: قوله تعالى ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣]:

١ ـ قوله تعالى ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾:

إنَّ هذا المشهد بين يعقوب وبنيه في لحظة الموت والاحتضار لمشهد عظيم الدلالة، قوي الإيحاء، عميق التأثير، ميِّت يُحتضَر، فما هي القضية التي تشغل باله في ساعة الاحتضار؟ وما هو الشاغل الذي يشغل خاطره وهو في سكرات الموت؟ وما هو الأمر الجلل الذي يريد أن يطمئن عليه ويستوثق منه؟ وما هي التركة التي يريد أن يخلِّفها لأبنائه ويحرص على سلامة وصولها إليهم، فيسلِّمها لهم في محضر يسجِّل فيه كل التفصيلات؟ إنها العقيدة، هي التركة،

(١) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١/ ٥٩٦).
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، (١/ ١١٦).

وهي الذخر، وهي القضية الكبرى، وهي الشغل الشاغل، وهي الأمر الجلل، الذي لا تُشغل عنه سكراتُ الموت وصراعاتُه.

٢ ـ قوله تعالى ﴿إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي﴾:

هذا هو الأمر الذي جمعتُكم من أجله، وهذه هي القضية التي أردتُ الاطمئنان عليها، وهذه هي الأمانة والذخر والتراث الذي أعهد به إليكم.

٣ ـ قوله تعالى ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾:

إنهم يعرفون دينهم ويذكرونه، إنهم يتسلَّمون التراث ويصونونه، وإنهم يطمئنون الوالد المُحتضر ويُريحونه. وكذلك ظلَّت وصية إبراهيم لبنيه مرعيَّةً في أبناء يعقوب، وكذلك هم ينصُّون نصًّا صريحًا على أنهم ﴿مُسۡلِمُونَ﴾. والقرآن يسأل بني إسرائيل: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ﴾؟

فهذا هو الذي كان، يشهد به الله، ويُقرِّره، ويقطع به كلَّ حجّة لهم في التمويه والتضليل ك ويقطع به كل صلة حقيقية بينهم وبين أبيهم إسرائيل، وفي ضوء هذا التقرير يظهر الفارق الحاسم بين تلك الأمة التي خلت، والجيل الذي كانت تُواجهه الدعوة، حيث لا مجال لصلة، ولا مجال لوراثة، ولا مجال لنسب بين السابقين واللاحقين[(١)].

* * *

الحادي عشر: قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤]:

إنَّ اليهود كانوا كلّما ذُكرت مَحمَدةٌ لإبراهيم وبنيه انتحلوها لأنفسهم، وتفاخروا بها على غيرهم، حتى ظنَّهم الناس أنهم هداة آبائهم وإن لم يهتدوا بهديهم. فردّ الله سبحانه وتعالى قولهم وقول غيرهم، ممَّن كانوا يتفاخرون

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (١/ ١١٧).

بأنهم سلالة إبراهيم وإسماعيل، ولا يعملون عملهم، ولا يسلكون مسلكهم، وكانوا يحسبون أنَّ مجرد النسب يكسبهم شرفًا وذكرًا عند الله والناس فقال: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١).

الإشارة هنا إلى هذه الجماعة الفاضلة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب عليهم السلام وذُرِيّتهم الذين اهتدَوْا بهديهم، واقتبسوا من نور الله تعالى بوصيتهم، وهي ﴿ قَدْ خَلَتْ﴾ أي مضت، وصارت في عبر التاريخ، لهم ما كسبوه من خير فيكون عند الله جزاؤه، وعليكم معشر العرب أن تقتدوا بإبراهيم، وتأخذوا بوصيته، وأن تعبدوا إلهًا واحدًا هو الله جلّ جلاله إن كنتم تنتمون إليه، فتجمعون بين شرف النسب وشرف الاتِّباع، والنسب وحده لا يُغني فتيلاً من غير اتِّباع.

وكذلك أنتم معشر اليهود، ليس لكم أن تفخروا بأن هؤلاء آباؤكم، وتُلحقوا تاريخهم بتاريخكم، إلا أن تتَّبعوهم في الإخلاص لله رب العالمين والإسلام له، وإلا كنتم الخارجين عليهم، المحاربين لمآثرهم، وإن لم تجدّوا في اتِّباعهم فلكم جزاء فِعْلِكم (٢).

ولذا قال تعالى: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ أي لها ما كسبته مكسوبًا إليها بقدره، محسوبًا لها في اليوم الآخر بجزائه، ويتضمَّن قولُه ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ الجزاء لهذا الكسب وهو الخير ﴿ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ إن عملتم مثل عملهم، واتبعتم هديهم، وأخذتم بوصيتهم، وكانت لكم شعارًا ودثارًا تتحلَّوْن به، وهذا حثّ على الاقتداء، ودعوة إليه، فإن تجانفوا لإثم، وتخالفوا الوصية؛ فعليكم إثم ما تفعلون.

وإنكم لستم مسؤولين عن أفعالهم إن خيرًا أو شرًّا، فكذلك ليس لكم أن

---

(١) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (١/ ٤٢٠).
(٢) المرجع نفسه، (١/ ٤٢٠).

تدَّعوا أن عملهم عملكم، ونسبهم نسبكم؛ لأنّكم انفصلتم بعملكم عنهم، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ وكذلك لا يكفيكم عملهم، إن كان خيرًا فخيره لهم إلا أن تكونوا قد عملتم مثل عملهم، ولا تزر وازرة وزر أخرى.

إنَّ مِلّة إبراهيم عليه السَّلام ـ وهي التوحيد، والطهارة من الوثنية ـ هي لبّ الدين اصطفاه الله تعالى لنا، وهي الحق الذي لا ريب فيه، وهي مقياس الحق الذي يتميَّز به من الباطل، فمن آمن بها فقد اهتدى، ومن خالفها فقد ضلَّ وغوى، وأهل الكتاب الذين حرَّفوا القول عن مواضعه، وغيَّروا وبدَّلوا، وخرجوا عن المنهاج، وتركوا مِلّة إبراهيم، يزعمون أن ما عندهم حق، وهو الهداية، كذلك ضلّت أفهامهم، فزعم اليهود أن في يهوديتهم السلامة، وزعم النصارى أنَّ بنصرانيتهم الوثنيةِ الهدايةَ، وكلٌّ في غيّهم يعمهون[١].

* * *

الثاني عشر: قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥]:

١ ـ قول الطبري:

احتجَّ الله لنبيه محمد ﷺ أبلغ حجّة وأوجزها وأكملها، وعلّمها محمدًا نبيَّه ﷺ فقال: يا محمد، قل للقائلين لك من اليهود والنصارى ولأصحابك ﴿كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْۗ﴾: بل تعالَوْا نتبع مِلّة إبراهيم التي نُقِرُّ جميعًا أنّها دين الله الذي ارتضاه، واجتباه، وأمر به، فإن دينه كان الحنيفية المسلمة، وندع سائر الملل التي نختلف فيها فينكرها بعضنا، ويقرُّ بها بعضنا، فإن ذلك على اختلافه لا سبيل لنا على الاجتماع عليه، كما لنا السبيل إلى الاجتماع على مِلّة إبراهيم[٢].

---

(١) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (١/ ٤٢١).

(٢) تفسير الطبري «جامع البيان في تأويل القرآن»، (٣/ ١٠٢).

٢ ـ قول القاسمي:

ولما أثبت إسلامه بالحنيفية نفى عن غيره بقوله ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وفيه تعريض بأهل الكتاب وإيذانًا ببطلان دعواهم اتِّباعَه عليه السلام، مع إشراكهم بقولهم عزير ابن الله، والمسيح ابن الله، وقد أفادت هذه الآية الكريمة أن ما عليه الفريقان محض ضلال وارتكاب بطلان، وأن الدين المرضيَّ عند الله الإسلام، وهو دعوة الخلق إلى توحيده تعالى وعبادته وحده لا شريك له، ولما خالف المشركون هذا الأصل العظيم، بعث الله نبيَّه محمدًا خاتم النبيين لدعوة الناس جميعًا إلى هذا الأصل[١].

وقد بيّنت الآية الكريمة تبرئة إبراهيم عليه السلام من الشرك الأكبر والأصغر، وفيها تعريض بأهل الكتاب للإشارة لما هم عليه من الشرك بعد التحريف والتبديل، وفي الآية أن أصحاب الأديان الباطلة، وكذا أصحاب البدع، يدّعون دائمًا أنهم على حق، وأن اتِّباعهم يؤدي إلى الهداية[٢].

بيّن الله سبحانه وتعالى ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: هي ديانة الحق والإقبال على الله، والإعراض عمّا سواه، وهي قائمة على التوحيد وترك الشرك، فهذا الذي في اتِّباعه الهداية، وفي الإعراض عن ملته الكفر والغواية[٣].

فعلينا أن نرجع إليها جميعًا، نحن وأنتم، إلى مِلّة إبراهيم، أبينا وأبيكم، وأصل مِلّة الإسلام، وصاحب العهد مع ربّه عليه ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بينما أنتم تشركون، ثم يدعو المسلمين لإعلان الوحدة الكبرى للدين من لدن

(١) محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، (١/ ٤٠٧).
(٢) تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص٢٢٩.
(٣) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١/ ٦٠٨).

إبراهيم أبي الأنبياء إلى عيسى بن مريم إلى الإسلام الأخير، ودعوة أهل الكتاب إلى الإيمان بهذا الدين الواحد(١).

❊ ❊ ❊

الثالث عشر: قوله تعالى ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]:

تُفسِّر هذه الآية الكريمة ﴿مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾، وقد اشتملت على جميع ما يجب الإيمان به، واعلم أن الإيمان الذي هو تصديق القلب التام بهذه الأصول، وإقراره المتضمن لأعمال القلوب والجوارح ـ وهو بهذا الاعتبار ـ يدخل فيه الإسلام، وتدخل فيه الأعمال الصالحة كلُّها، فهي من الإيمان وأثر من آثاره، فحيث أُطلق الإيمان دخل فيه ما ذُكر، وكذلك الإسلام إذا أُطلق دخل فيه الإيمان، فإذا قُرن بينهما كان الإيمان اسمًا لما في القلب من الإقرار والتصديق، والإسلام اسمًا للأعمال الظاهرة، وكذلك إذا جُمع بين الإيمان والأعمال الصالحة(٢).

❊ فقوله تعالى ﴿قُولُوٓاْ﴾: أي بألسنتكم متواطئة عليها قلوبكم، وهذا هو القول التام المترتب عليه الثواب والجزاء، فكما أن النطق باللسان من دون اعتقاد القلب نفاق وكفر، فالقول الخالي من عمل القلب، عديم التأثير، قليل الفائدة، وإن كان العبد يُؤجَر عليه إذا كان خيرًا ومعه أصل الإيمان، لكن فرق بين القول المجرد والمقترن به عمل القلب. وفي قوله ﴿قُولُوٓاْ﴾: إشارة إلى الإعلان بالعقيدة، والصدع بها، والدعوة لها، إذ هي أصل الدين وأساسه.

وفي قوله ﴿ءَامَنَّا﴾: ونحوه مما فيه صدور الفعل منسوبًا إلى جميع الأمة، إشارة إلى أنه يجب على الأمة الاعتصام بحبل الله جميعًا، والحثّ على

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (١/ ١١٨).
(٢) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، (١/ ٩٦).

الائتلاف حين يكون داعيهم واحدًا وعملهم متَّحدًا، وفي ضمنه النهي عن الافتراق، وفيه أن المؤمنين كالجسد الواحد.

* وفي قوله ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: بأنه موجود، واحد أحد، متصف بكل صفات الكمال، منزّه عن كل نقص وعيب، مُستحقّ لإفراده بالعبادة كلِّها، وعدم الإشراك به في شيء منها، بوجه من الوجوه[1].

* وفي قوله ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾: يشمل القرآن والسنة لقوله تعالى ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ فيدخل فيه الإيمان بما تضمَّنه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من صفات الباري وصفات رسله واليوم الآخر والغيوب الماضية والمستقبلية، والإيمان بما تضمَّنه ذلك من الأحكام الشرعية الأمرية، وأحكام الجزاء، وغير ذلك.

* وفي قوله ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾، فيه الإيمان بجميع الكتب على جميع الأنبياء، والإيمان بالأنبياء عمومًا وخصوصًا، ما نصّ عليه في الآية لشرفهم ولإتيانهم بالشرائع الكبار. فالواجب في الإيمان بالأنبياء والكتب، أن يؤمن بهم على وجه العموم والشمول، ثم ما عرف منهم بالتفصيل، وجب الإيمان به مُفصَّلاً[2].

وفي قوله ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ ﴾ أي: بل نؤمن بهم كلِّهم، هذه خاصية المسلمين التي انفردوا بها عن كلِّ مَن يدَّعي أنه على دين، فاليهود والنصارى والصابئون وغيرهم ـ وإن زعموا أنهم يؤمنون بما يؤمنون به من الرسل والكتب ـ فإنهم يكفرون بغيره، فيُفرِّقون بين الرسل والكتب، بعضها يؤمنون به وبعضها يكفرون به، وينقض تكذيبُهم تصديقَهم، فإن الرسول الذي زعموا أنهم قد

(١) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، (١/ ٩٦).
(٢) المرجع نفسه، (١/ ٩٦).

آمنوا به قد صدَّق سائرَ الرسُل وخصوصًا محمدًا ﷺ، فإذا كذّبوا محمدًا فقد كذّبوا رسولهم فيما أخبرهم به، فيكون كفرًا برسولهم[١].

* وفي قوله: ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾: دلالة على أن عطية الدين هي العطية الحقيقية المتصلة بالسعادة الدنيوية والأخروية، لم يأمرنا أن نؤمن بما أوتي الأنبياء من الملك والمال ونحو ذلك، بل أمرنا أن نؤمن بما أُعطوا من الكتب والشرائع. وفيه أن الأنبياء مُبلِّغون عن الله، ووسائط بين الله وبين خلقه في تبليغ دينه، ليس لهم من الأمر شيء.

* وفي قولهم ﴿مِن رَّبِّهِمۡ﴾: إشارة إلى أنه من كمال ربوبيته أن يُنزل على عباده الكتب، ويرسل إليهم الرسل. وإذا كان ما أُوتي النبيون إنما هو من ربِّهم ففيه الفرق بين الأنبياء وبين من يدعي النبوَّة، وأنه يحصل الفرق بينهم بمجرد معرفة ما يدعون إليه، فالرسل لا يدعون إلا إلى خير، ولا ينهَوْن إلا عن كل شر، وكل واحد منهم يصدِّق الآخر، ويشهد له بالحق من غير تخالف ولا تناقض لكونه من عند ربهم ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ وهذا بخلاف من ادَّعى النبوَّة، فلا بُدَّ أن يتناقضوا في أخبارهم وأوامرهم ونواهيهم، كما يُعلَم ذلك من سِيَر أحوال الجميع، ومعرفة ما يدعون إليه[٢].

فلما بيّن تعالى جميع ما يُؤمَن به، عمومًا وخصوصًا، وكان القول لا يُغني عن العمل، قال: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ أي: خاضعون لعظمته، منقادون لعبادته، بباطننا وظاهرنا، مخلصون له العبادة، بدليل تقديم المعمول وهو ﴿لَهُۥ﴾ على العامل وهو ﴿مُسۡلِمُونَ﴾[٣].

(١) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، (١/ ٩٧).
(٢) المرجع نفسه، (١/ ٩٧).
(٣) المرجع نفسه، ص٩٧.

فقد اشتملت هذه الآية الكريمة ـ على إيجازها واختصارها ـ على أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

واشتملت على الإيمان بجميع الرسل، وجميع الكتب، وعلى التخصيص الدال على الفضل بعد التعميم، وعلى التصديق بالقلب واللسان والجوارح، والإخلاص لله في ذلك، وعلى الفرق بين الرسل الصادقين ومَن ادَّعى النبوَّة من الكاذبين، وعلى تعليم الباري عبادَه كيف يقولون، ورحمته وإحسانه إليهم بالنعم الدينية المتصلة بسعادة الدنيا والآخرة، فسبحان من جعل كتابه تبيانًا لكل شيء، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون[(١)].

١ ـ ﴿مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ عليه السَّلام:

هي دين الإسلام الذي دعا إليه الأنبياء والمرسلون منذ آدم عليه السَّلام إلى خاتمهم نبيِّنا محمد ﷺ. فأصل الدين واحد، بعث الله به جميع الأنبياء والمرسلين، واتفقت دعوتهم إليه، وتوحَّدت سبيلهم عليه، وجعلهم الله وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم بذلك، ودلالتهم عليه؛ لمعرفة ما ينفعهم وما يضرُّهم، وتكميل ما يُصلحهم في معاشهم ومعادهم، بُعثوا جميعًا بالدّين الجامع الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له، وبُعثوا بالدعوة إلى توحيد الله، والاستمساك بحبله المتين، وبُعثوا بالتعريف بالطريق الموصل إليه، وبُعثوا ببيان حالهم بعد الوصول إليه، فاتّحدت دعوتُهم في هذه الأصول الثلاثة:

* الدعوة إلى الله تعالى في إثبات التوحيد، وتقريره، وعبادة إله واحد لا شريك له، وترك عبادة ما سواه، فالتوحيد هو دين العالم بأسره من آدم إلى آخر نفسٍ منفوسةٍ من هذه الأمة.

* التعريف بالطريق الموصل إليه سبحانه في إثبات النبوات، وما يتفرّع عنها من الشرائع، من صلاة وزكاة وجهاد وغيرها أمرًا ونهيًا في دوائر التكليف

---

(١) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص٩٧.

الخمسة: الأمر وجوبًا أو استحبابًا، والنهي تحريمًا أو كراهة، والإباحة، وإقامة العدل والفضائل، والترغيب والترهيب.

* التعريف بحال الخليقة بعد الوصول إلى الله: في إثبات المعاد والإيمان باليوم الآخر، والموت، وما بعده من القبر ونعيمه وعذابه، والبعث بعد الموت، والجنة والنار، والثواب والعقاب[1].

وعلى هذه الأصول الثلاثة مدار الخلق والأمر، وإن السعادة والفلاح لموقوفة عليها لا غير، وهذا مما اتفقت عليه جميع الكتب المنزّلة، وبُعث بها جميع الأنبياء والرسل، وتلك هي الوحدة الكبرى بين الرسل والأمم، وهذا هو المقصود من قول النبي ﷺ: «**إنّا مَعاشِرَ الأنبياءِ إخوةٌ لِعلاّتٍ، أُمَّهاتُهُم شتَّى ودينُهُم واحِدٌ**».

وهو المقصود في مثل قول الله تعالى ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

وهذه الأصول الكلية هي ما تضمنته عامّةُ السور المكية في القرآن الكريم، وعندما نتأمل في القصص القرآني ندرك الحِكَم ممّا قصّه الله تعالى علينا في القرآن العظيم من قصص الأنبياء وأخبارهم مع أممهم، لأخذ العبرة والتفكُّر، وتثبيت أفئدة الأنبياء، وإثبات النبوَّة والرسالة، وجعلها موعظة وذكرى للمؤمنين، وأخبار الأمم المكذبة لرسلهم، وما صارت إليه عاقبتهم، وأنها سننه سبحانه فيمن أعرض عن سبيله. والدين بهذا الاعتبار: هو «دين الإسلام»

(١) الإيمان بالرسل والرسالات، د. علي محمد محمد الصلابي، دار المعرفة للطباعة، بيروت، ط١، ٢٠١١م، ص٢٠.

بمعناه العام، وهو: إسلام الوجه لله، وطاعته، وعبادته وحده، والبراءة من الشرك، والإيمان بالنبوات والمبدأ والمعاد[١].

ولوحدة الدّين بهذا الاعتبار في دعوة جميع الأنبياء والمرسلين، وَحّد الله سبحانه وتعالى ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ﴾ و﴿ ٱلسَّبِيلِ ﴾ في جميع آيات القرآن الكريم، وهذا الدين «دين الإسلام» بهذا، أي باعتبار: وَحْدته العامة، وتوحّد صراطه، وسبيله، وهو الذي ذكره الله في آيات من كتابه عن أنبيائه: نوح، وإبراهيم، وبنيه، ويوسف الصديق، وموسى، ودعوة نبي الله سليمان، وجواب بلقيس ملكة سبأ، وعن الحواريين، وعن سحرة فرعون، وعن فرعون حين أدركه الغرق.

ودين الإسلام بهذا الاعتبار: هو دين جميع الأنبياء والمرسلين وملّتهم، بل إن إسلام كل نبيٍّ ورسول يكون سابقًا لأمته، وهو محلُّ بعثته إلى أمته، وما يتبع ذلك من شريعة، كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥] [٢].

وإنَّما خصّ الله سبحانه نبيَّه إبراهيم عليه السَّلام بأن دينَه هو «دين الإسلام» بهذا الاعتبار العام في مثل قوله تعالى ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [آل عمران: ٩٥] لوجوه:

أولها: أنه عليه السَّلام واجه في تحقيق التوحيد، وتحطيم الشرك، أمرًا عظيمًا، وقد أيَّده اللهُ في ذلك ونصرَه.

ثانيها: أن الله سبحانه وتعالى جعل في ذُرِيّته النبوَّة والكتاب، ولذا قيل له:

---

(١) العقيدة الصافية للفرقة الناجية، سيّد سعيد السيّد عبد الغني، دار طيبة الخضراء، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، ط١، ٢٠٠٦م، ص١٢٠.

(٢) الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان، بكر بن عبد الله أبو زيد، دار العاصمة للطباعة، الرياض، السعودية، ط١، ١٤١٧هـ، ص٥٢.

«أبو الأنبياء»؛ ولذا قال الله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨]، وهو عليه السلام تمام ثمانية عشر نبيًّا سمّاهم الله في كتابه من ذُرِّيّته وهم: ابنه إسماعيل عليه السلام، ومن ذُرِّيّته: محمد ﷺ، وابنه إسحاق، ومن ذُرِّيّته: يعقوب بن إسحاق ويوسف وأيوب، وذو الكفل وموسى وهارون وإلياس واليسع ويونس وداود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى عليهم الصّلاة والسلام جميعًا.

ثالثها: لإبطال مزاعم اليهود والنصارى في دعواهم أنهم على مِلّة إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقد كذبهم الله تعالى في قوله ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٠] (١).

وردّ الله عليهم محاجّتهم في ذلك بقوله ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٥ ـ ٦٧].

ثم بيّن سبحانه أن أَولى الناس بإبراهيم هم الذين على ملته وسنته فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]، وبيَّن سبحانه مدى الضَّلال البعيد في جنوح أهل الكتاب إلى هذه الدعوى، وما هم فيه من الغلوّ والضَّلال، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]، وبيَّن سبحانه أن هذه المحاولة الكاذبة البائسة من أهل الكتاب جاريةٌ في محاولتهم مع المسلمين لإضلالهم عن دينهم، ولبس الحق بالباطل(٢).

---

(١) الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان، بكر بن عبد الله أبو زيد، ص٥٤.
(٢) المرجع نفسه، ص٥٤.

ويجد المتأمل في كتاب الله تعالى التنبيه في كثير من الآيات إلى أن هذا القرآن ما أُنزل إلا مطابِقًا لدين إبراهيم عليه السَّلام، حتى دعا المسلمين بالتسمية التي يكرهها اليهود والنصارى «ملة إبراهيم» [١].

والخلاصة: أن لفظ «الإسلام» له معنيان؛ معنى عام: يتناول إسلام كل أمة مُتَّبعة لنبي من أنبياء الله بُعث فيهم، فيكونون مسلمين حنفاء على مِلّة إبراهيم، فهم على «دين الإسلام». ثم لمّا بعث الله نبيَّه عيسى عليه السلام، فإن من آمن من أهل التوراة بعيسى، واتبعه فيما جاء به، فهو مسلم حنيف على مِلّة إبراهيم، ومن كذَّب منهم بعيسى ـ عليه السلام ـ فهو كافر لا يُوصَف بالإسلام. ثم لما بعث الله محمدًا ﷺ وهو خاتمهم وشريعته خاتمة الشرائع ورسالته خاتمة الرسالات، وهي عامة لأهل الأرض، وجب على أهل الكتاب وغيرهم اتِّباعُ شريعته وما بعثه الله به لا غيره، فمن لم يتبعه فهو كافر لا يُوصف بالإسلام ولا أنه حنيف، ولا أنه على مِلّة إبراهيم، ولا ينفعه ما يتمسَّك به يهودية أو نصرانية، ولا يقبله الله منه، فبقي اسم «الإسلام» عند الإطلاق منذ بعثة محمد ﷺ حتى يرث الله الأرض ومن عليها مختصًّا بمن تبعه لا غير[٢].

وهذا هو معناه الخاص الذي لا يجوز إطلاقه على دين سواه، فكيف وما سواه دائر بين التبديل والنسخ، فإذا قال أهل الكتاب للمسلمين ﴿كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾، فقد أمر الله المسلمين أن يقولوا لهم: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ﴾، ولا يُوصَف أحد اليوم بأنه مسلم، ولا أنه على مِلّة إبراهيم، ولا أنه من عباد الله الحنفاء، إلا إذا كان مُتَّبعًا لما بعث الله به خاتم أنبيائه ورسله محمدًا ﷺ[٣].

---

(١) الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان، بكر بن عبد الله أبو زيد، ص٥٥.
(٢) المرجع نفسه، ص٥٥.
(٣) المرجع نفسه، ص٥٦.

٢ ـ الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان:

كتب الدكتور بكر عبد الله أبو زيد رحمه الله كتابه القيم في هذا المجال، وانتصر فيه لملّة إبراهيم عليه السلام، وسمّى كتابه (الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان)، وخرج بمجموعة من النتائج:

* يجب على المسلمين الكفر بهذه النظرية: «وحدة كل دين محرّف منسوخ مع دين الإسلام الحق المحكم المحفوظ من التحريف والتبديل الناسخ لما قبله» وهذا من بدهيات الاعتقاد والمسلّمات في الإسلام.

* ويجب على أهل الأرض اعتقاد توحّد الملة والدين في دعوة جميع الأنبياء والمرسلين في التوحيد والنبوّات والمَعاد، كما مضى التقرير مُفصَّلاً، وأن الأصل العقدي لم يسلم إلا لأهل الإسلام، وأن اليهود والنصارى ناقضون له، متناقضون فيه، لاسيّما في الإيمان بالله وكتبه ورسله.

* ويجب على أهل الأرض اعتقاد تعدُّد الشرائع وتنوُّعها، وأن شريعة الإسلام هي خاتمة الشرائع، ناسخة لكل شريعة قبلها، فلا يجوز لبشر من أفراد الخلائق أن يتعبَّد الله بشريعة غير شريعة الإسلام[(١)].

* وأن هذا الأصل لم يسلم لأحد إلا لأهل الإسلام؛ فأمة اليهود كافرون بهذا الأصل لعدم إيمانهم بشريعة عيسى عليه السلام، ولعدم إيمانهم بشريعة محمد ﷺ. وأمة النصارى كافرون بهذا الأصل لعدم إيمانهم بمحمد ﷺ وبشريعته وبعموم رسالته، والأمتان كافرتان بذلك، وبعدم إيمانهم بمحمد ﷺ، ومتابعته في شريعته، وترك ما سواه، وبعدم إيمانهم بنسخ شريعة الإسلام لما قبلها من الشرائع، وبعدم إيمانهم بما جاء به القرآن العظيم، وأنه ناسخ لما قبله من الكتب والصحف، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ

---

(١) الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان، بكر بن عبد الله أبو زيد، ص٩١.

قال: «والذي نفسي بيدِه لا يسَمَعُ بي أحدٌ من هذه الأمّةِ، يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثم يَموتُ ولم يُؤمِنْ بالذي أُرسلتُ به، إلا كانَ مِن أهلِ النّارِ»(١).

* أنَّ الإسلام الذي جاءت به رسل الله، والذي هو مِلّة إبراهيم عليه السلام، والذي هو دين الإسلام الحق، يُبطِل نظرية الخلط بينه وبين غيره من الشرائع الدائرة بين التحريف والنسخ، وأنه لم يبق إلا الإسلام وحده والقرآن وحده، وأن محمدًا ﷺ لا نبيَّ بعده، وأن شريعته ناسخةٌ لما قبلها، ولا يجوز اتِّباعُ أحدٍ سواه(٢).

* أنه لا يجوز لمسلم طباعة التوراة والإنجيل وتوزيعهما ونشرهما، وأن نظرية طبعهما مع القرآن الكريم في غلاف واحد من الضَّلال البعيد والكفر العظيم؛ لما فيها من الجمع بين الحق: «القرآن الكريم» والباطل: لما في التوراة والإنجيل من التحريف والتبديل، وأن ما فيهما من حق فهو منسوخ.

* أنه لا تجوز الاستجابة لدعوتهم ببناء «مسجد وكنيسة ومعبد» في مُجمَّع واحد، لما فيه من الدينونة والاعتراف بدين يُعبد الله به سوى الإسلام، والدعوة المادية إلى أن الأديان واحدة ولأهل الأرض التديُّن بأيٍّ منها، وأنها على قدم التساوي، وأن الإسلام غير ناسخ لما قبله، وهذه المردودات السالبة فيها من الكفر والضَّلال ما لا يخفى، فعلى المسلمين بعامة، ومن بسط الله يده عليهم خاصّة، الحذرُ الشديد من مقاصد الكفرة من اليهود والنصارى في إضلال المسلمين والكيد لهم، فإن بيوت الله في أرض الله هي «المساجد» وحدها ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ﴾ [الأعراف: ٢٩](٣).

---

(١) الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان، بكر بن عبد الله أبو زيد، ص٩٢.
(٢) المرجع نفسه، ص٩٤.
(٣) المرجع نفسه، ص١٠٠.

* المساجد من شعائر الإسلام، فواجبٌ تعظيمها، ورعاية حرمتها، وعمارتها، ومن تعظيمها ورعاية حرمتها وعمارتها: عدم الرضا بحلول كنائس الكافرين بالرسول محمد ﷺ ورسالته والقرآن الذي أُنزل عليه، وشريعته الناسخة لمن سبقه من الديانات الكبرى، والتي أخبرت عن طريق رسولها بوجوب متابعة النبي ﷺ.

* ليعلمْ كلُّ مسلم أنه لا لقاء ولا وفاق بين أهل الإسلام والكتابيين وغيرهم من أمم الكفر إلا وفق الأصول التي نصَّت عليها الآية الكريمة ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وهي توحيد الله تعالى وطاعته، في الحكم والتشريع، واتِّباع خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ـ ﷺ ـ الذي بشَّرت به التوراة والإنجيل، ونبذ الشِّرك بالله تعالى، فيجب أن تكون هذه الآية هي شعار كل مجادلة بين أهل الإسلام وبين أهل الكتاب وغيرهم، وكل جهد يُبذل لتحقيق غير هذه الأصول فهو باطل باطل باطل(١).

* * *

الرابع عشر: قوله تعالى ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]:

١ ـ قول الطبري:

يعني الله تعالى بقوله ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾: فإن صدَّق اليهود والنصارى بالنبيّ محمد ﷺ، وما أُنزل إليكم، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أُوتي موسى وعيسى، وما أُوتي النبيون من

(١) الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان، بكر بن عبد الله أبو زيد، ص١٠١.

ربهم، وأقرُّوا بذلك، مثلما صدَّقتم أنتم به أيها المؤمنون وأقررتم، فقد وُفِّقوا ورشدوا ولزموا طريق الحق واهتدَوْا، وهم حينئذ منكم وأنتم منهم بدخولهم في ملتكم، فقد دلَّ الله تعالى بهذه الآية على أنه لا يقبل من أحد عملاً إلا الإيمان بهذه المعاني التي عدَّها قبلها(١).

وهذه الكلمة من الله، وهذه الشهادة منه سبحانه، تسكب في قلب المؤمن الاعتزاز بما هو عليه، فهو وحده المهتدي، ومَن لا يؤمن بما يؤمن به فهو المُشاقُّ للحقِّ، والمعادي للهدى، ولا على المؤمن من شقاق من لا يهتدي ولا يؤمن، ولا عليه من كيده ومكره، ولا عليه من جداله ومعارضته، فالله سيتولاهم عنه، وهو كافيه وحسبه(٢).

* وفي قوله ﴿وَّإِن تَوَلَّوْاْ﴾: وإن تولى هؤلاء الذين قالوا لمحمد ﷺ وأصحابه: ﴿كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾ فأعرضوا، فلم يؤمنوا بمثل إيمانكم أيها المؤمنون بالله، وبما جاءت به الأنبياء وابتُعثت به الرسل، وفرَّقوا بين رسل الله وبين الله ورسله فصدَّقوا ببعض وكفروا ببعض، فاعلموا أيها المؤمنون أنهم إنما هم في عصيان وفراق وحرب لله ولرسوله ولكم(٣).

* وقوله تعالى ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾: فسيكفيك الله يا محمد هؤلاء الذين قالوا لك ولأصحابك: ﴿كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَـٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ﴾ من اليهود والنصارى، إن هم تولَّوا عن أن يؤمنوا بمثل إيمان أصحابك بالله، وبما أُنزل إليك، وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وسائر الأنبياء غيرهم، وفرَّقوا بين الله ورسله، إما بقتل السيف، وإما بجلاء عن جوارك، وغير ذلك من العقوبات.

---

(١) تفسير الطبري «جامع البيان في تأويل القرآن»، (٣/ ١١٣).
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، (١/ ١١٨).
(٣) تفسير الطبري «جامع البيان في تأويل القرآن»، (٣/ ١١٣).

فإن الله هو ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لما يقولون لك بألسنتهم، ويُبدون لك بأفواههم من الجهل والدعاء إلى الكفر والمِلل الضالة، و﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يُبطنون لك ولأصحابك المؤمنين في أنفسهم من الحسد والبغضاء، ففعل الله بهم ذلك عاجلاً وأنجز وعده، فكفى نبيَّه ﷺ بتسليطه إيّاه عليهم، حتى قتل بعضَهم، وأجلى بعضًا، وأذلَّ بعضًا وأخزاه بالجزية والصَّغار(١).

٢ ـ قول السعدي:

أي: فإن آمن أهل الكتاب ﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ يا معشر المؤمنين، بجميع الرسل وجميع الكتب، وأسلموا لله وحده، ولم يفرِّقوا بين أحد من الرسل ﴿فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ للصراط المستقيم المُوصل لجنات النعيم، أي: فلا سبيل لهم إلى الهداية إلا بهذا الإيمان، لا كما زعموا بقولهم ﴿كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾، فزعموا أن الهداية خاصّة بما كانوا عليه(٢).

و«الهدى»: هو العلم بالحق والعمل به، وضده الضَّلال عن العلم، والضَّلال عن العمل بعد العلم، وهو الشقاق الذي كانوا عليه لمّا تولَّوْا وأعرضوا، فالمُشاقُّ هو الذي يكون في شقّ والله ورسوله في شقٍّ، ويلزم من المشاقَّة المحادَّة والعداوة البليغة؛ التي من لوازمها بذل ما يقدرون عليه من أذية الرسول ﷺ، فلهذا وعد الله رسوله أن يكفيَه إياهم؛ لأنه السميع لجميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنُّن الحاجات، العليم بما بين أيديهم وما خلفهم، بالغيب والشهادة، بالظواهر والبواطن، فإذا كان كذلك، كفاك الله شرَّهم، وقد أنجز الله لرسوله ﷺ وعده، وسلَّطه عليهم، حتى قتل بعضهم، وسبى بعضًا، وأجلى بعضًا، وشرَّدهم كل مُشرَّد، ففيه معجزة من معجزات القرآن، وهو الإخبار بالشيء قبل وقوعه، فوقع طِبْقَ ما أخبر(٣).

---

(١) تفسير الطبري «جامع البيان في تأويل القرآن»، (٣/ ١١٦).

(٢) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص٩٨.

(٣) المرجع نفسه، ص٩٨.

هذا هو منهاج القرآن، وكلام رب العالمين، الواضح في الفصل بين الحق والباطل، فلا تشطير ولا ترقيع، فالحق حقٌّ والباطل باطل، فالحق ينبغي أن يُؤخذ كلُّه، ولا يُتنازل فيه عن شيء، فبقدر ما يقع من التنازل بقدر ما ينطفئ نور الحق في نفس الفاعل. فلهذا أمر الله نبيَّه محمدًا ﷺ ألا يلتفت إلى اقتراحات اليهود والنصارى الباطلة، وأن يلتزم بشرعه وما ألزمه الله به. وهكذا يبقى هذا المنهاج خالدًا ما دامت السماوات والأرض[١].

إنه ليس على المؤمن إلا أن يستقيم على طريقته، وأن يعتزَّ بالحق المستمَدِّ مباشرة من ربِّه، وبالعلامة التي يضعها الله على أوليائه، فيُعرفون بها في الأرض[٢].

* * *

الخامس عشر: قوله تعالى ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨]:

١ ـ قوله تعالى ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ﴾:

فسّرها ابن عباس رضي الله عنه وغيره على أنها «دين الله»، وسمّي الدين «صبغة» لظهور أثره على صاحبه، مثلما يظهر أثر الصّبغ في ألوان الأشياء المصبوغة، فكذلك المُتديِّن بدين الله يظهر أثر الدين عليه في صفحة وجهه ومسلكه وسَمْته وهيئته، وبما أن الصِّبغة تلزم الشيء المصبوغ وتبقى عليه، فكذلك المُتديِّن يثبت على هذا الدين، ويستمرُّ عليه، ويلزمه كلزوم اللون للشيء المصبوغ. ومن جهة أخرى، فإن الله عزّ وجل صبغ الأشياء في الطبيعة بالألوان المختلفة، وشتّان بين اللون الطبيعي الذي خلق الله الأشياء عليه، وبين ألوان البشر الصناعية[٣].

---

(١) التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، (٢/ ٣١٩).
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، (١/ ١١٨).
(٣) تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص٢٣٣.

وقوله ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ فكأن الإيمان بالله وملة إبراهيم، وما أنزل الله على رسله، هي الصبغة الإلهية التي تتغلغل في الجسد البشري، وجاء التعبير بكلمة «صبغة» حتى تعرفَ أن الإيمان يتخَّلل جسدك كلَّه، إنه ليس صبغة من خارج جسمك، ولكنها صبغة جعلها الله في خلايا القلب، موجودة فيه ساعة الخلق، ولذلك فإن رسول الله ﷺ يقول: «**كلُّ مولودٍ يولدُ على الفطرةِ، حتى يُعرِبَ عنه لسانُه، فأبواه يُهوِّدانِه، أو يُنصِّرانِه، أو يُمجِّسانِه**»(١).

فكأن الإيمان صبغة موجودة بالفطرة، إنها صبغة الله، فإن كان أبواه مسلمين ظلَّ على الفطرة، وإن كان أبواه من اليهود أو النصارى يُهوِّدانه أو يُنصِّرانه، أي يأخذانه ويضعانه في ماء، ويقولون: صبغناه بماء المعمودية، هذا هو معنى صبغة الله(٢).

ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يُبيِّن لنا ذلك، بأن يجعل من آيات قدرته اختلاف ألواننا، وهذا الاختلاف في اللون من صبغة الله، واختلاف ألوان البشر ليس طلاء، وإنما في ذات التكوين، فيكون هذا أبيض، وهذا أسمر، وهذا أصفر، وهذا أحمر، وغيره.

هذه هي صبغة الله، وما يفعلونه من تعميد للطفل لا يُعطي صبغة؛ لأن الإيمان والدين لا يأتي من خارج الإنسان، وإنما يأتي من داخله، ولذلك فإن الإيمان يهزُّ كلَّ أعضاء الجسد البشري.

واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣]، هذا هو التأثير الذي يضعه الله في القلوب، أمر داخليٌّ وليس خارجيًّا. وأما إيمان غير

(١) صحيح البخاري، رقم (١٣٥٨).
(٢) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١/ ٦١٣).

المسلمين فهو طلاء خارجي وليس صبغة، لأنهم تركوا صبغة الله، ونقول لهم: لا، هذا الطلاء من عندكم أنتم، أما دينُنا فهو صبغة الله[١].

إنَّ في الآية إرشادًا، أي: الزموا صبغة الله وهو دينه، وقوموا به قيامًا تامًّا بجميع أعماله الظاهرة والباطنة، وجميع عقائده في جميع الأوقات، حتى يكون لكم صبغة، وصفة من صفاتكم، فإذا كان صفة من صفاتكم، أوجب ذلك لكم الانقياد لأوامره طوعًا واختيارًا ومحبة، وصار الدين طبيعة لكم بمنزلة الصبغ التام للثوب الذي صار له صفة، فحصلت لكم السعادة الدنيوية والأخروية، لحثِّ الدين على مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ومعالي الأمور[٢].

٢ ـ قوله تعالى ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ﴾:

إنّها صبغة الله التي شاء لها أن تكون آخر رسالاته إلى البشر؛ لتقوم عليها وحدة إنسانية واسعة الآفاق، لا تعصُّب فيها ولا حقد، ولا أجناس فيها ولا ألوان.

ونقف هنا عند سمة من سمات التعبير القرآني ذات الدلالة العميقة[٣]:

فقد جاء السِّياق على سبيل التعجُّب المتقرِّر للعقول الزكية: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ﴾ أي: لا أحسن صبغة من صبغته. وهذا استفهام بمعنى النفي، أي: لا أحد أحسن من الله صبغة، ولا أحد أحسن منه دينًا وشرعة ومنهاجًا، لأن دين الله يشتمل على تحقيق المصالح، ودرء المفاسد بما لا يُوجد مثله في أي دين وملة أخرى من أهواء البشر، والنفي بطريقة الاستفهام أبلغ من النفي المجرّد، لأنه يحمل معنى التحدّي، فكأنه يقول: هاتوا أحسن من صبغة الله، ولا شكَّ أن هذا أبلغ في الإقناع[٤].

---

(١) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١/ ٦١٣).

(٢) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص٩٨.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، (١/ ١١٨).

(٤) تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص٢٣٣.

وإذا أردت أن تعرف نموذجًا يُبيِّن لك الفرق بين صبغة الله وبين غيرها من الصبغ، فقِسِ الشكَّ بضده، فكيف ترى في عبد آمن بربه إيمانًا صحيحًا أثَّر معه خضوع القلب وانقياد الجوارح، فلم يزلْ يتحلَّى بكل وصف حسن، وفعل جميل، وخلق كامل، ونعت جليل، ويتخلَّى من كل وصف قبيح ورذيلة وعيب، فوصفُه الصدق في قوله وفعله، والصبر والحلم والعفة والشجاعة، والإحسان القولي والفعلي، ومحبة الله وخشيته، وخوفه ورجاؤه، فحاله الإخلاص للمعبود والإحسان لعبيده، فقسه بعبد كفر بربه وشرد عنه، وأقبل على غيره من المخلوقين، فاتصف بالصفات القبيحة من الكفر والشرك والكذب والخيانة والمكر والخداع وعدم العفة، والإساءة إلى الخلق في أقواله وأفعاله، فلا إخلاص للمعبود، ولا إحسان إلى عبيده، فإنه يظهر لك الفرق العظيم بينهما، ويتبين لك أنه لا أحسن ﴿صِبْغَةً﴾ من صبغة الله، وفي ضمنه أنه لا أقبح صبغةً ممَّن انصبغ بغير دينه[1].

٣ ـ قوله تعالى ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ﴾:

أي: خاضعون مطيعون، و«العبادة» التذلُّل إلى الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، فمن كان على صبغة الله ودينه لزم العبادة، وزيّن نفسه بطاعة الله تعالى[2].

والعبادة: اسم جامع لكل ما يُحبُّه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، ولا تكون كذلك حتى يُشرِّعها الله على لسان رسوله. والإخلاص أن يقصد العبد وجه الله وحده في تلك الأعمال. فتقديم المعمول يُؤذن بالحصر، وقال: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ﴾ فوصفهم باسم الفاعل الدالّ على الثبوت والاستمرار؛ ليدل على اتّصافهم بذلك، «وكونه صار صبغة لهم

---

(١) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص٩٩.
(٢) تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص٢٣٣.

ملازمًا»[(١)]. وقوله ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ﴾ يدلُّ على حصر العبادة واختصاصها بالله عزّ وجل[(٢)].

* * *

السادس عشر: قوله تعالى ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ [البقرة: ١٣٩]:

لقد أمر الله تعالى النبيَّ ﷺ أن يقول لليهود والنصارى الذين زعموا أنّ لهم مكانة خاصّة عند الله تعالى، كما حكاها عنهم سبحانه في قوله ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]:

١ ـ قوله تعالى ﴿أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ﴾

أي: أتجادلوننا في الله تعالى، وتدّعون أن لكم مكانة خاصّة عنده، وتزعمون أنكم أولى بالله منّا من أجل أن نبيّكم قبل نبينا، وكتابكم قبل كتابنا؟![(٣)].

٢ ـ قوله تعالى ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾:

وقد أمر الله تعالى نبيَّه بأن يُبيِّن لهم أنه لا حاجة إلى المحاجة، ولذا أمره تعالى أن يقول: ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ فصِلَتُنا بالله واحدة، وهو أنه ربنا جميعًا، وقد بيّن المماثلة في الصلة بالله تعالى لصلة الربوبية، وهي مُتَّحدة في معنى الربوبية، ولا تفاوت بيننا في هذا، فلستم أقرب إليه، ولا نحن أقرب من هذه الناحية[(٤)].

وهو خالقنا وخالقكم، والمتصرّف فينا وفيكم، وهو أعلم في تدبير خلقه وبمن يصلح للرسالة وبما يُنسخ من الدين[(٥)].

---

(١) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص٩٩.
(٢) تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص٢٣٣.
(٣) تفسير الطبري «جامع البيان في تأويل القرآن»، (٣/ ١٢٠ ـ ١٢١).
(٤) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (١/ ٤٢٩).
(٥) تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص٢٣٤.

ونبَّههم النبيُّ ﷺ بأمر ربِّه بأن التفاوت إنما هو بالأعمال، ولذلك أمره تعالى بأن يقول لهم: ﴿وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾.

٣ ـ قوله تعالى ﴿وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾:

فأعمالنا بما فيها من خير ونفع تتحمل في ذاتها استحقاق جزائها، ولكم أعمالكم إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشرّ، وأن القرب إلى الله تعالى أو البعد عنه، إنما هو بحسب الأعمال، فهي التي تُقرِّب وهي التي تُبعِد، وهي التي يكون عليها الجزاء[١].

٤ ـ قوله تعالى ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ﴾:

أي: في عبادته والتوجُّه إليه، و«الإخلاص» تنقية الشيء من كل شائبة، والمعنى: أننا نخلص العبادة لله، ولا نشوبها بشيء من الشرك[٢].

ومن تعريفات الإخلاص: تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين، فالعمل لأجل الناس شرك، وترك العمل الصالح من أجل الناس رياء، والإخلاص: المعافاة منهما[٣].

والإخلاص سرٌّ بين العبد وبين الله، لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، وفي الجملة: الإخلاص حصن العبادة الحصين[٤].

وقد بيّنت الآية الكريمة أنه لا مجال للجدل في وحدانية الله وربوبيته ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ﴾، ونحن محاسَبون بأعمالنا، وعليكم وزر أعمالكم، ونحن مُتجرِّدون له مخلصون، لا نشرك به شيئًا، ولا نرجو معه أحدًا، وهذا الكلام

---

(١) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (١/ ٤٢٩).
(٢) تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص٢٣٤.
(٣) المرجع نفسه، ص٢٣٤.
(٤) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (١/ ٤٣٠).

تقرير لموقف المسلمين واعتقادهم، وهو غير قابل للجدال والمحاجّة واللجاج[١].

ومن ثم يُضرب السّياق عنه، وينتقل إلى مجال آخر من مجالات الجدل. وذكر زعم اليهود والنصارى بأن إبراهيم كان يهوديًا أو كان نصرانيًّا، ولقد قال الله في ذلك:

* * *

السابع عشر: قوله تعالى ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٠]:

انتقل السّياق القرآني من توبيخ هؤلاء الذين يُحاجُّون في الله، ويجادلون في توحيده، إلى توبيخ آخر، وهو دعواهم أن رسل الله هؤلاء كانوا هودًا أو نصارى. فزعمت اليهود أن إبراهيم عليه السَّلام كان يهوديًّا، وزعمت النصارى أنه كان نصرانيًّا[٢].

١ ـ قوله تعالى ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ﴾:

جاءت ﴿ أَمْ ﴾ هنا للانتقال من موضوع إلى موضوع، وقد نفى الله هذه المزاعم في سورة آل عمران بقوله ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٧]، فموسى والتوراة كانا بعد إبراهيم بزمن، وعيسى والإنجيل كانا بعد إبراهيم بزمن، فكيف يكون إبراهيم يهوديًّا أو نصرانيًّا؟ وقوله ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ ﴾ وهو أكبر أولاد إبراهيم، ﴿ وَإِسْحَاقَ ﴾ أخو إسماعيل، الولد الثاني لإبراهيم، ﴿ وَيَعْقُوبَ ﴾، هو ابن إسحاق،

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (١/ ١١٩).
(٢) تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ٢٣٤.

ويُسمَّى إسرائيل، ﴿وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ وهم أبناء يعقوب الاثنا عشر[١].

وهناك من قال: والأسباط: جمع سبط، والسبط في بني إسرائيل كالقبيلة في العرب، والمراد عامة أنبياء بني إسرائيل، الذين اختارهم الله من أسباطهم[٢].

وقوله ﴿كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ أي: أتزعمون أن كل هؤلاء كانوا على الديانة اليهودية أو النصرانية؟ وبالإضافة إلى استعمال حجّة التاريخ في الردِّ على مزاعمهم، فقد أبطل الله دعوى اليهود والنصارى هذه بطريقة أخرى[٣].

٢ ـ قوله تعالى ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾:

ولا يستطيعون أن يقولوا أنهم أعلم من الله، فمن المعلوم أنه أعلم، وهذا الاستفهام من أجل إفحام الخصم وإلزامه، فإذا قال الله شيئًا، وقال هؤلاء شيئًا يعارضه، فكلام مَن المعتبَر والمصدَّق؟ لا شكّ أنه كلام الله تعالى، فكأنّه يقول للمجادلين: أأنتم أعلم بدين هؤلاء الرسل، أم الله أعلم بدينهم؟![٤].

والإجابة معروفة: فهؤلاء الأنبياء ما كانوا هودًا ولا نصارى، بل كانوا مسلمين مُوحِّدين، كما مرّ معنا، ورسالة الإسلام هي دعوتهم ووصيَّتُهم التي أوصَوْا بها أبناءهم، والتي ذكرها في الكتب المنزلة عليكم فأخفيتُموها، وكتمتُم الشهادة التي ائتمنكم الله عليها[٥].

٣ ـ قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾:

أي: لا أحد أشدُّ ظلمًا ـ في باب كتمان الشهادة ـ ممَّن أخفى وستر على الناس شهادة ثابتة عنده في كتاب دينه، صادرةً من الله عزّ وجل، وهم اليهود

---

(١) تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص٢٣٥.
(٢) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (١/ ٢٠٢).
(٣) تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص٢٣٥.
(٤) المرجع نفسه، ص٢٣٥.
(٥) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (١/ ٢٠٥).

والنصارى، كتموا الإسلام وهم يعلمون أنه دين الله، واتخذوا اليهودية والنصرانية، وكتموا محمدًا ﷺ، وهم يعلمون أنه رسول الله، وهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل[١].

فهي شهادة عندهم مودَعة من الله لا من الخلق، فيقتضي الاهتمام بإقامتها، فكتموها وأظهروا ضدَّها، جمعوا بين كتم الحق وعدم النطق به، وبين إظهار الباطل والدعوة إليه، أليس هذا أعظم الظلم؟ بلى، والله سيُعاقبهم عليه أشدّ العقوبة[٢]. فلهذا قال:

٤ ـ قوله تعالى ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾:

هذا وعيد وإخبار بأمر الله تعالى، وقد نفى الله تعالى نفيًا مؤكَّدًا أنه غافل عن عملهم، بل إنه سبحانه آخذهم بذنوبهم، فنفى بـ «ما» و«الباء» الدالة على استغراق النفي[٣].

وبيَّنت الآيةُ أن الله قد أحصى أعمالهم وعدَّها، وادّخر لهم جزاءها، فبئس الجزاء جزاؤهم، وبئست النار مثوًى للظالمين. وهذه طريقة القرآن الكريم في ذكر العلم والقدرة، عقب الآيات المتضمنة للأعمال التي يُجازى عليها، فيفيد ذلك الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب. ويفيد أيضًا ذكر الأسماء الحسنى بعد الأحكام أن الأمر الديني والجزائي أثر من آثارها، وموجب من موجباتها، وهي مقتضية له[٤].

قال الرازي: أما قوله ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾: فهو الكلام الجامع لكل وعيد، ومَن تصوَّر أنه تعالى عالم بسرِّه وإعلانه، ولا يخفى عليه خافية من

---

(١) تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص٢٣٥.
(٢) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٠٠.
(٣) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (١/ ٤٣٠).
(٤) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٠٠.

أمره، وسوف يُجازيه، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرٌّ، لا يمضي عليه طرفة عين إلا وهو خائف، ألا ترى أن أحدنا لو كان عليه رقيب من جهة سلطان يَعدُّ عليه الأنفاس لكان دائم الحذر والوجل، مع أن ذلك الرقيب لا يعرف إلا الظاهر، فكيف بالربِّ الرقيب الذي يعلم السرَّ وأخفى، إذا هدَّد وأوعد بهذا الجنس من القول؟!(١).

وبمناسبة زعمهم أنهم يتمسَّكون بما كان عليه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط عليهم السَّلام، قال سبحانه مرة ثانية لهم(٢):

❊ ❊ ❊

الثامن عشر: قوله تعالى ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤١]**:**

فلا تحتجُّوا بهم، فكل إنسان يُسأل عن كسبه وعمله، ولا حجّة لكم يوم القيامة في قولكم إنهم كانوا هودًا أو نصارى، فلن ينفعكم نسبُكم إليهم، ولن يقبل الله حجَّتكم، ولا تقولوا إننا كنا نحسب أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق كانوا هودًا أو نصارى، أي كانوا على غير دين الإسلام؛ لأن هذه حجّة غير مقبولة، وهل أنتم أعلم أم الله سبحانه الذي يشهد بأنهم كانوا مسلمين؟!(٣).

كما أن انتسابكم إليهم لن ينفعكم ما دامت عقائدكم وأعمالكم مخالفةً لعقائدهم وأعمالهم.

وبهذا جرّدت الآيات الكريمة أهل الكتاب من جميع الحجج التي يحتجون بها، وبيَّنت أن صلتهم بالأنبياء السابقين مقطوعة، فلا صلة لهم بهم البتة، لا في العقيدة ولا في العبادة ولا في الشريعة، ولا سبيل إلى الاتصال بهم إلا

---

(١) التفسير الكبير مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، (٤/ ١٠٠).
(٢) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (١/ ٢٠٥).
(٣) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١/ ٦٢٢).

بالقرآن الكريم، الكتاب الذي لا ريب فيه، فهو رسالة النبي الخاتم ﷺ، رسالة الإسلام، دعوة الأنبياء والمرسلين جميعًا عليهم الصلاة والسلام(١).

إنَّ القرآن الكريم يفصل بين الأبناء والآباء، وبين الخلف والسلف، وبين الأنبياء وذرياتهم، فالميزان في الجميع هو الاتِّباع لما بلَّغه أنبياؤه ورسله، فلا ينفع التغنِّي بنسب ولا نسبة إلى نبي أو صحابي أو تابعي أو عالم أو رجل صالح، فالكلُّ له عمله ويُجزى بعمله(٢).

ويُكرِّر الله سبحانه وتعالى أنَّ كلَّ امرئٍ بما كسب رهين، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى، ولهم ما كسبوا وعليكم ما اكتسبتم، وأنَّ خير الماضين ليس خيرًا لكم، وأنّ شرَّهم ليس وزره عليكم، ولقد قال تعالى في ذلك: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾ [الإسراء: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩] (٣).

إنَّ الانتساب وحده لا يكفي مهما كانت صحة النسب، فمن انتسب مثلاً إلى آل النبي ﷺ، وهو مخالف له ﷺ فيما جاء به، فلا يُغني عنه ذلك الانتساب شيئًا، كما صرح بذلك الرسول ﷺ حيث قال: «**يا فاطمةَ بنتَ محمَّدٍ، سَلِيني ما شِئتِ من مالي، لا أُغني عنكِ مِنَ الله شيئًا... يا عباسُ... يا صفيّةُ...**» (٤).

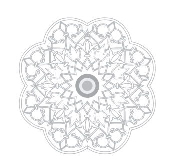
وما أكثر المتغنِّين في هذا الزمان بالأنساب والطوائف، وهم مخالفون

(١) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (١/ ٢٠٥).
(٢) التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، (٢/ ٣٣٢).
(٣) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (١/ ٤٣٢).
(٤) التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، (٢/ ٣٣٢).

لأصولهم وأجدادهم فيما كانوا عليه من متابعةٍ للرسول ﷺ، كما عاب الله على بني إسرائيل الذين زعموا الانتساب إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق عليهم السَّلام، وهم مخالفون لهم في التوحيد والدعوة والاستقامة على شرع الله تعالى، كل ذلك لا يُغني عنهم من الله شيئًا[١].

❊ ❊ ❊

(١) التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، (٢/ ٣٣٢).



المبحث الثاني

دعاء إبراهيم عليه السلام وتضرعه وثناؤه على الله في سورة إبراهيم

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٣٥ ـ ٤١].

إنَّ سورة إبراهيم مكيّة، والحديث فيها عن إبراهيم عليه السَّلام جاء في سلسلة هذه الإلزامات الكثيرة التي تنعي على أهل مكة وغيرهم من العرب استمرارهم في عبادة الأصنام، وكان من واجبهم أن يعبدوا الله الذي منّ عليهم بهذا الأمن في بلدهم، وأن يتذكّروا دعوة إبراهيم عليه السَّلام حينما سأل ربّه أن يجعل هذا بلدًا آمنًا، وأن يجنّبه وبنيه عبادة الأصنام، ويصرفهم عنها، فإنها أضلّت كثيرًا من الناس.

ويبيّن إبراهيم عليه السَّلام بأن الرابطة الحقيقية، التي تربط بنيه به، إنما هي

رابطة العقيدة ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ﴾، كما تُبيِّن الآياتُ الكريمة حرصَ إبراهيم على هذا البلد الآمن وساكنيه، كل ذلك من أجل أن يشكروا نعم الله عليهم فلا يكفروها، ولا يكفروا بالله الذي أنعم بها، ويعطي إبراهيمُ القدوة من نفسه على هذا الشكر، فهو يحمد الله الذي وهب له على الكبر ولديه إسماعيل وإسحاق عليهما السلام، ويسأل ربّه السميع الدعاء أن يجعله مقيم الصلاة، ومن ذُريّته كذلك، وأن يغفر لوالديه وللمؤمنين.

ونرى أن ما جاء في سورة إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان جانبًا جديدًا من خبر إبراهيم، فهو متّسق مع موضوع السورة من جهة، ومع شخصيتها واسمها من جهة أخرى، وهذه الآيات الكريمة في سورة إبراهيم أبلغ ردٍّ لما يقوله خصوم الإسلام من أعداء وأدعياء، والذي أشرنا إليه من قبلُ أولَ الحديث عن قصة أبي الأنبياء وشيخ الحنفاء أبينا إبراهيم عليه السلام من أن صلة إبراهيم بالبيت، وصلته بإسماعيل عليهما السلام، لم يُعرفا إلا في المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام(١).

❊ ❊ ❊

أولًا: قوله تعالى ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]:

هذه بداية الآيات التي اشتملت على فقرات كثيرة من الأدعية، ومنها ما جاء على سبيل الرمز والتعريض تأدُّبًا وحياء، وأكثرها جاء عن طريق الإيضاح والتصريح استعظامًا وطمعًا، كما أننا نلاحظ أن إبراهيم مزجها بالثناء والحمد لله في أولها وأوسطها وآخرها، والآن إلى تفسير ما أجملنا في تفسير الآيات(٢):

---

(١) قصص القرآن الكريم، د. فضل حسن عباس، ص٣٠٥.
(٢) دعاء الأنبياء والرسل، محمد محمود أحمد وموسى الخطيب، ص١٣٠.

١ ـ قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾:

﴿وَإِذْ﴾ أي واذكر على لسان إبراهيم، وقد رفع الدعاء للخالق المربِّي طالبًا عطاء الربوبية من الربِّ الكريم سبحانه وتعالى.

﴿رَبِّ﴾ وقد تكرَّر الدعاء هنا مستفتحًا بلفظ ﴿رَبِّ﴾ الذي يدلُّ على تذلُّل الدّاعي وخشوعه من رغبته الأكيدة في الاستجابة من المدعو عزّ وجل.

﴿ٱجْعَلْ﴾ وهذا يدلُّ على رقّة إبراهيم وسلاسة دعائه وانكساره بين يدي الله تعالى.

﴿هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾، فالملاحظ هنا مجيء اللفظتين معرّفتين بـ «الـ» مع خلوّهما من هذا التعريف في الآية الواردة في سورة البقرة (الآية: ١٢٦) ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾، وما ذاك إلا أن الدعاء أولاً كان لمكة المكرمة قبل أن تكون من جملة البلاد، إذ كانت مجرد واد قفرٍ خال من كل شيء، فطلب عليه الصلاة والسلام الدعاء لها أولاً لتتمكَّن هاجر وابنها إسماعيل عليه الصلاة والسلام من سكنى المكان، والبقاء فيه. أما وقد استقرَّ الأمر وأصبحت بلدًا كسائر البلاد آهلاً بالناس، عامرًا بما فيه، فكان من الطبيعي بل من حكمة النبي الكريم أن يدعوَ لها بالأمن؛ إذ لا قيمة للحياة في بلد خالٍ من الأمن[١].

إنَّ دعاء إبراهيم عليه السلام بالأمن قد صدر مرتين:

الأولى: قبل بنائه الكعبة، فجاء في سورة البقرة المدنية ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾.

والثانية: صدر فيها دعاء إبراهيم بعد بناء الكعبة.

فجاء التعبير في سورة إبراهيم المكية ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾

---

(١) وجوه البيان في دعاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، سميرة عدلي محمد رزق، ص١٣٠.

والمعنى هنا: ربّ اجعل هذا المكان الذي مصّرته وصيّرته معرّفًا، كما سألتك من قبل، اجعله آمنًا[١].

وإذا تساءلنا كيف جاءت ﴿بَلَدًا﴾ النكرة في سورة مدنيّة؟ وجاءت ﴿ٱلْبَلَدَ﴾ المعرفة في سورة مكيّة؟ وكان المتوقع أن يكون العكس؟

فالجواب: لأن ذلك الكلام كان حكاية عن إبراهيم عليه السلام، فلا فرق بين نزوله بمكة أو المدينة[٢].

ولقد مهّد إبراهيم عليه السَّلام بهذا الدعاء ـ الذي استجابه الله له ـ السبيلَ للعابد في هذا البلد أن يتمكَّن من عبادته، بلا خوف أو تهديد من عدوّ، وساد الأمن والطمأنينة والاستقرار في ربوع مكة، وعمّ الخير فيها، وكثر ساكنوها، وتوافد إليها أصحاب الحرف والتجارات.

ولقد أصاب إبراهيمُ عليه السَّلام الحقيقةَ في طلبه هذا؛ لأن الأمن مصدر الخيرات، وأعظم نعم الله على بني الإنسان، إذ به تتمُّ أعمال الدين والدنيا، ولذلك سُئل بعض العلماء: الأمن أفضل أم الصحة؟ فردّ قائلاً: لو أن شاة انكسرت رجلها لصحّت بعد مدة من الزمن، ولقامت بعد ذلك مقبلة على الرعي والأكل، ولو أنها رُبطت في موضع ورُبط بالقرب منها ذئب، لأمسكت عن تناول الأكل إلى أن تموت، وإن دلَّ هذا على شيء، فإنما يدلُّ على أن الضرَّ الحاصل من الخوف أشدّ إيلامًا من الضرّ الحاصل من ألم الجسد.

وطلب إبراهيم عليه السَّلام الأمن لمكة واستجاب الله له دعاءه، فخصَّها بمزيد من الأمن، فهي دوحة الإيمان، وفيها أول بيت وضع للناس في الأرض للعبادة والأمن والإسلام، فيأمن الخائف إذا التجأ إليها، حتى كان المرء يلقى قاتل أحبِّ الناس إليه فلا يمسُّه بسوء أو مكروه[٣].

(١) من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين، محمد فؤاد سندي، ص١٠٣.
(٢) المرجع نفسه، ص١٠٣.
(٣) دعاء الأنبياء والرسل، محمد محمود أحمد وموسى الخطيب، ص٩٧.

لقد أدرك إبراهيمُ عليه السَّلام بما وهبه الله من عقيدة راسخة منذ آلاف السنين أن البلد الذي أُقيمت فيه الكعبة الشريفة لن يكون بلدًا يرفع الحضارة الإنسانية الربانية بحق إلا إذا كان آمنًا، وفعلاً استجاب الله لدعاء خليله، فحتى طيرُه لا يُطارَد، بل حتى نباته لا يُعضَد، أمّا عن حُجّاجه فحدّث ولا حرج، حتى عندما أشرك الناس كان للبيت حرمتُه، وبقي الأمن فيه.

فلتنتبهِ البشرية اليوم عندما تُرسي قواعد العمران، أن تُرسيَ أسباب الأمن معها، ولن تكون آمنة بحق إلا إذا استمدت قوانين التعامل معها ممّا جاء في شريعة الإسلام من كلياتٍ في هذا الشأن، ومن بينها أنّ جبريل ما زال يُوصي النبيَّ ﷺ بالجار حتى ظن أنه سيُورِّثه. فأين مثل هذه المعاني مما تتألَّم البشرية من ويلات فقدانها في حواضر العالم المترامية الأطراف، حيث يتجرَّع المواطن من مرارة الفزع ما لا يخطر على بال، مما يتفنَّن الأدباء في تصويره عسى أن يظفروا بشيء من الأمن، ولكن يبقى هذا الأمن بعيدًا، ذلك أنهم ضلُّوا سواء السبيل[١].

إنَّ نعمةَ الأمن نعمةٌ ماسّة بالإنسان، عظيمة الوقع في حسِّه، متعلِّقة بحرصه على نفسه، والسِّياق هنا يذكرها ليُذكِّر بها سكان ذلك البلد، الذين يستطيلون بالنعمة ولا يشكرونها، وقد استجاب الله دعاء أبيهم إبراهيم فجعل البلد آمنًا، ولكنهم هم سلكوا غير طريق إبراهيم، فكفروا النعمة، وجعلوا لله أندادًا، وصدُّوا عن سبيل الله، ولقد كانت دعوة أبيهم التالية لدعوة الأمن:

٢ ـ قوله تعالى ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾:

ويبدو في دعوة إبراهيم عليه السَّلام الثانية تسليمٌ مطلقٌ إلى ربه، والتجاؤه إليه في أخصِّ مشاعر قلبه، فهو يدعوه أن يُجنِّبَه عبادة الأصنام هو وبنيه، يَستعينه بهذا الدعاء ويستهديه، ثم ليبرزَ أن هذه نعمةٌ أخرى من نعم الله، وإنها

---

(١) وإبراهيم الذي وفّى، فرحات بن علي الجعبيري، ص٩٣.

لنعمة أن يخرجَ القلب من ظلمات الشرك وجهالاته إلى نور الإيمان بالله وتوحيده، فيخرجَ من التِّيه والحيرة والضَّلال والشرود، إلى المعرفة والطمأنينة والاستقرار والهدوء، ويخرجَ من الدينونة المذلّة لشتى الأرباب، إلى الدينونة الكريمة العزيزة لربِّ العباد، إنها لنعمة يدعو إبراهيم ربَّه ليحفظَها عليه، فيُجنِّبه هو وبَنيه أن يعبدوا الأصنام. ويدعو إبراهيم دعوته هذه لما شهده وعلمه مِن كثرة مَن ضلوا بهذه الأصنام من الناس في جيله، وفي الأجيال التي قبله، ومَن فُتنوا بها ومن افتُتنوا، وهم خلق كثير(١).

أ ـ قال أبو السعود في الآية: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ﴾: بَعِّدني وإيّاهم ﴿أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾، واجعلنا منها في جانب بعيد، أي: ثبتنا على ما كنّا عليه من التوحيد وملة الإسلام والبعد عن عبادة الأصنام. وفيه دليل على أن عصمة الأنبياء بتوفيق الله تعالى، والظاهر أن المراد ببنيه أولاده من صلبه(٢).

ب ـ وقال ابن عاشور: وأراد ببنيه أبناء صلبه، وهم يومئذ إسماعيل وإسحاق عليهما السَّلام، فهو من استعمال الجمع في التثنية، أو أراد جميع نسله تعميمًا في الخبر، فاستُجيب له في البعض(٣).

ج ـ وقال الشنقيطي: قوله تعالى ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ لم يبيّن هنا هل أجاب دعاء نبيه إبراهيم هذا، ولكنه بيّن في مواضع أخرى أنه أجابه في بعض ذُريّته دون بعض، كقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ﴾ [الصافات: ١١٣] وقوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ﴾ [الزخرف: ٢٨] (٤).

❊ ❊ ❊

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٤/ ٢١٠٩).
(٢) تفسير أبي السعود «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم»، (٥/ ٥٠).
(٣) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (١٣/ ٢٣٨).
(٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، (٣/ ١١٢).

ثانيًا: قوله تعالى ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]:

١ ـ قوله تعالى ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾:

في قوله دليلٌ على أنه أشدّ الناس بُغضًا للأصنام وإدراكًا لضلال مَن يعبدونها، ولذلك أسند الإضلال إلى الأحجار، مع أن الإضلال من الشيطان الذي ابتدع الأوهام حولها؛ وذلك لأنّهم لمّا عبدوها وأحاطوها بأوهام كثيرة، وصار الوهم يولّد وهمًا وتوالت وتكاثرت كلُّها، صحّ إسناد الإضلال إليها، وعبَّر عليه السلام عن الذين ضَلُّوا بأنهم كثير وليسوا عددًا قليلاً، وذلك لعموم الضَّلال بها، وعمومُه لا يجعلها حقًّا، بل هي باطل ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وإنّ ذكر ضلال الأوثان على لسان إبراهيم عليه السلام، وأهل مكّة يتشرَّفون بنسبتهم إليه، وهو باني الحرم الشريف المقدس، فيه بيان أنه بريء منهم ما داموا يعبدون الأوثان، ولذا قال عليه السلام في دعائه(١):

٢ ـ قوله تعالى ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾:

ملة إبراهيم عليه السلام هي التوحيد، كما قال تعالى: ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]، فمن تبعه في ملته فإنه منه، ومفهوم هذا أن من لم يتبعه في التوحيد وعبد الأوثان فليس منه؛ لأنه اشترط كونَه مُوحِّدًا ليكون منه، فإن لم يتبعه لا يكون منه، بل هو بريء منه، كما تبرأ من أبيه، وكما تبرأ من قومه(٢).

إنَّ إبراهيم عليه السَّلام قصد بالتبعيّة هنا، أي السير على ملته، وأن يكون التابع حنيفًا مسلمًا، ولا أدلَّ على ذلك من تأكيد الخبر بـ«إنّ» المؤكدة في

---

(١) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (٨/ ٤٠٣٦).
(٢) المرجع نفسه (٨/ ٤٠٣٦).

قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾، ولنتأمل هنا جلال التعبير إضافة إلى جماله في قوله: ﴿مِنِّي﴾، إنَّ الجلال يكمن في كون التابع بعضًا من متبوعه لفرط اختصاصه به، ولا يخفى على أحدٍ الجمالَ في سلامة التعبير، وحسن الصياغة، ولطف الوَقع(١).

وفي قوله تعالى ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ أي: فمن تبعني في دعوتي إلى التوحيد والاستسلام لله ـ سبحانه وتعالى ـ وشرعه فإنه على ديني وملّتي، ومِنَ المُتمسِّكين بحبلي(٢).

٣ ـ قوله تعالى ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

في هذا تبدو سمة إبراهيم عليه السَّلام ظاهرة، فهو العطوف الرحيم الأواه الحليم، فهو لا يطلب الهلاك لمن يعصيه من نسله ويحيد عن طريقه، ولا يستعجل لهم العذاب، بل لا يذكر العذاب، إنّما يكِلهم إلى غفران الله ورحمته، ويُلقي على الجو ظلالَ المغفرة والرحمة، وتحت هذا الظلِّ يتوارى ظلُّ المعصية؛ فلا يكشف عنه إبراهيم الرحيم الحليم(٣).

ويتجلَّى هنا بوضوح أدب الخليل مع ربه، حيث لم يقل: ومن عصاك، مع العلم بأن معصية الرسل في الحقيقة معصية لمن أرسلهم وهو الله تعالى، وكأنه تعاظم في نفسه أن يجرؤ العباد على معصية الله، فعبّر عن عدم اتِّباعهم له واسترشادهم برسالته، بالعصيان له، تأدُّبًا وتجمُّلاً في التعبير(٤).

❊ ❊ ❊

(١) وجوه البيان في دعاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، سميرة عدلي محمد رزق، ص٢٣٤.

(٢) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٤/ ٣٢٨٩).

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٤/ ٢١٠٩).

(٤) دعاء الأنبياء والرسل، محمد محمود أحمد وموسى الخطيب، ص١٠٠.

ثالثًا: قوله تعالى ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]:

ثم يُعيد السّياقُ القرآنيُّ الكريم اللفظَ نفسَه الذي آثر سيدنا إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يستفتح به كلَّ دعوة من دعائه[(١)].

١ ـ قوله تعالى ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾:

* ﴿رَّبَّنَآ﴾؛ هذه اللفظة التي تنقل لنا مزيدًا بل فيضًا من مشاعر النبيِّ الكريم في ساعة الدعاء، وهنا كما نلاحظ إضافتها لضمير المتكلِّم «نا»، مع أنّ ما جاء بعدها ياء المتكلِّم الدالة على أن الدعاء من سيدنا إبراهيم وحده عليه الصلاة والسلام، فنرى أن في الأولى إقرارًا منه عليه السَّلام بالربوبية الكاملة من الله عزّ وجل لجميع خلقه الذين تكفّل بمعاشهم وجميع أمور حياتهم، ومادام الأمر كذلك فإنَّ دعوة واحدة منه عليه السلام هي أدعى للاستجابة والقبول، وهذا ما توحي به لنا ياء المتكلِّم.

* وفي قوله ﴿إِنِّيٓ﴾ هذا فضلاً عمّا نقله لنا من إحساسه عليه الصلاة والسلام بالضعف أمام قدرة رب العالمين سبحانه وتعالى.

* وفي قوله ﴿أَسۡكَنتُ﴾ تأتي هذه الجملة هنا لتنقل لنا معنى دقيقًا أراده النبي الكريم من ترك زوجه وولده هناك، فهو لم يتركهما عبثًا أو مؤقتًا، بل وضعهما بنيَّة السكن بهذا الوادي[(٢)].

* وفي قوله ﴿مِن ذُرِّيَّتِي﴾ في هذه الجملة وجه من أوجه الإعجاز الإنبائي والتاريخي في كتاب الله، وذلك في ورود التعبير ﴿مِن ذُرِّيَّتِي﴾؛ لأن فرعًا واحدًا من ذرية إبراهيم هو الذي أُسكن عند بيت الله الحرام، وهو فرع سيدنا

---

(١) وجوه البيان في دعاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، سميرة عدلي محمد رزق، ص٢٣٤.
(٢) المرجع نفسه، ص٢٣٤.

إسماعيل عليه السَّلام، الذي ينتسب إليه خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ، وبارك عليه وعلى أنبياء الله أجمعين، وهو من الحقائق التاريخية الراسخة[١].

٢ ـ قوله تعالى ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾:

هذه صورة أخرى من صور الإعجاز الإنبائي والتاريخي والعلمي في هذا النص الكريم؛ وذلك لأن وادي مكة في ذلك الزمان كان قفرًا لا زرع فيه ولا ثمر ولا ماء ولا أثر لبشر، لأن الزرع لا يتحقَّق إلا في الأماكن الآهلة بالسكان، ولما لم يكن في الحرم المكي كلِّه أيُّ مُقيم ساعةَ أمر الله عبدَه إبراهيم عليه السَّلام بوضع زوجه السيدة هاجر عليها رضوان الله ورضيعها إسماعيل عند قواعد البيت[٢] الحرام، فقد انتفى وجود إمكانية أيِّ زراعة، ولم تنتفِ إمكانية وجود بعض النباتات الفطرية من مثل العضاه والسّلَم والسّمر وغيرها؛ لأن لفظة «نبات» كلمة عامة، تشمل كلَّ ما تُنبته الأرض بالفطرة أو الزراعة[٣].

لقد كان إسكان بعض ذرية إبراهيم عليه السَّلام في هذا الوادي غير ذي الزرع؛ لغرض تعمير بيت الله العتيق، الذي بناه بأمر الله خليلُ الله أبو الأنبياء، ولذلك قال ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾، إذ أضاف البيت إليه سبحانه وتعالى تشريفًا لشأنه، ووصفه بالمحرَّم؛ لأنّه تُحرم فيه الدماء، وهو في ذاته حرم آمن يأمن كلُّ مَن يأوي إليه، وقد بُني في صحراء جرداء؛ ليكون آمنًا من طمع الطامعين ورغبة المعتدين، إذ إنهم يرومون خصب الأرض ليُشبعوا نهمَتَهم ويُرضُوا مطامعَهم، وليكون الاستغلال الغاشم والاستعمار الظالم، فكان في أرض لا يطمع فيها طامع، ولا يرومها فاتح. وقد كرّر نداء ربِّه ضراعة[٤]، فقال: رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ.

---

(١) من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي، د. زغلول النجار، (١/ ٣٥١).

(٢) هذا يدل على وجود قواعد للبيت يعرفها إبراهيم عليه السلام قبل أن يؤمر ببناء الكعبة المشرفة.

(٣) من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي، د. زغلول النجار، (١/ ٣٥١).

(٤) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (٨/ ٤٠٣٨).

٣ ـ قوله تعالى ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾:

وهذا متعلِّق بأسكنتُ، اللام للتعليل، أي: إني أسكنتهم لأجل إقامة الصلاة فيه، وأن يعمروه بصلاتهم، لا ليستمرَّ خرابًا من العبادة، خاويًا من الناس، فلا ينتهي إلى الغاية التي أُمر بإنشائه من أجلها، وفي هذا إشارة إلى أن المشركين من ذرية إبراهيم عليه السَّلام قد انحرفوا به عن غايته عندما أحاطوه بالأوثان التي هدمها النبي ﷺ يوم فتح مكة في العام الثامن من الهجرة(١).

وفي قوله تعالى ﴿ لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾: طلب إبراهيم عليه السَّلام من الله تعالى أولاً أن يُعينَهم على الطاعة، ويرزقَهم الاستقامة، ويُوفِّقَهم إلى الصلاة والذِّكر والعبادة(٢).

ويكون قصد إبراهيم عليه السَّلام في هذا الدعاء بأن يوفقَهما لإقامة الصلاة، ولعله أراد من الله تعالى أن يُلهمَ أبناءه وأحفاده ومَن جاء بعدهم من ذُريّته إقامة الصلاة منذ نعومة أظفارهم، فلا يتكاسلوا ويتراخَوْا في أدائها(٣)؛ لأنَّ إقامة الصّلاة من أخصِّ وأفضل العبادات الدينية، فمن أقامها كان مقيمًا لدينه(٤).

قال القرطبي: تضمَّنت هذه الآية أنَّ الصلاة بمكة أفضل من الصلاة بغيرها(٥).

وهذا ما دلَّ عليه الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «**صلاةٌ في مَسجِدِي أفضلُ من ألفِ صلاةٍ فِيما سِواهُ إلا المسجِدَ الحرامَ، وصلاةٌ في المسجِدِ الحرامِ أفضلُ من مِائةِ ألفِ صلاةٍ فِيما سِواهُ**» (٦).

---

(١) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (٨/ ٤٠٣٩).
(٢) وقفات في حياة الأنبياء عليهم السَّلام، الشيخ خالد عبد العليم، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م، ص٧٧.
(٣) دعاء الأنبياء والرسل، محمد محمود أحمد وموسى الخطيب، ص١٠٠.
(٤) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص٨٥٢.
(٥) تفسير القرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، القرطبي، (٩/ ٣٧١).
(٦) صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير، الألباني، رقم (٣٨٣٨).

ومن حديث جابر رضي الله عنه مرفوعًا: «وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مئة ألف صلاة فيما سواه»[(١)].

ومن حديث أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعًا: «الصلاة في المسجد الحرام بمئة ألف صلاة، والصلاة في مسجدي بألف صلاة، والصلاة في بيت المقدس بخمسمائة صلاة»[(٢)].

وتكرُّر نداء ﴿رَبَّنَآ﴾ وتوسيطه، لإظهار كمال عنايته بإقامة الصلاة، فإنها عماد الدين، ولذا خصّها بالذكر من بين سائر العبادات[(٣)].

٤ ـ قوله تعالى ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾:

هنا الأفئدة جمع فؤاد، وهو القلب، فكأنه أراد أن يكون مسير الناس إليهم عن شوق ومحبة، والمقصود من هذا الدعاء تأنيس مكانهم بتردُّد الزائرين، وقضاء حوائجهم منهم، ومحبة الناس إياهم يحصل معها محبة البلد وتكرير زيارته، وذلك سبب لاستئناسهم به، ورغبتهم في إقامة الشعائر فيه، فيؤول إلى الدعوة إلى الدين[(٤)].

وقال السعدي في تفسير الآية: أي تُحبُّهم وتُحبُّ الموضعَ الذي هم ساكنون فيه، فأجاب الله دعاءه، فأخرج من ذرية إسماعيلَ محمدًا ﷺ، حتى دعا ذُريّته إلى الدين الإسلامي، وإلى مِلّة أبيهم إبراهيم عليه السَّلام، فاستجابوا له، وصاروا مقيمي الصلاة، وافترض الله حجّ هذا البيت الذي أسكن به إبراهيمُ ذُريّته، وجعل فيه سرًّا عجيبًا جاذبًا للقلوب، فهي تَحجُّه،

---

(١) سنن ابن ماجه، رقم (١٤٠٦).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، (٣/ ٣٠٢). رواه البزار وإسناده حسن.

(٣) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٤/ ٣٢٩).

(٤) منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني، منى عبد الله بن داود، ص٩٥.

ولا تقضي منه وطرًا على الدوام، بل كلما أكثر العبدُ التردُّدَ إليه ازداد شوقه وعظُم ولعُه وتَوقُه، وهذا سرّ إضافته تعالى إلى نفسه المقدسة[(١)].

وفي قوله ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾: من للتبعيض؛ لأنه لو قال «فاجعل أفئدة الناس» لانهال عليهم المسلمون من كل صوب حتى يعجز المكان عن استيعابهم، وفي الآية بُشرى عمارة الحرم المكي وجَعلِه آمنًا، وانتشار الإسلام بين جميع أجناس الأرض، فقال: ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ وهو ما تحقّق بالفعل[(٢)].

وفي التعبير بقوله تعالى ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ رقة ورفرفة، تُصوِّر القلوب رفّافة مُجنَّحة، وهي تهوي إلى ذلك البيت وأهله في ذلك الوادي الجديب، إنه تعبير نديّ يندى له الجدب برقّة القلوب[(٣)].

وقيل عن «الأفئدة» جمع وفد، أي واجعل وفودًا من الناس تحنُّ إليهم، وإلى زيارة البيت، فاستجاب الله دعاءه، وأنبت لهم بالطائف سائر الأشجار فضلاً عمّا يُجلب إليهم من الأمصار[(٤)].

٥ ـ قوله تعالى ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾:

أي: ارزقهم من أنواع الثمار لعلهم يكونون من الشاكرين المعترفين بفضلك وإحسانك، وفيه دليل على أن تحصُّلَ منافع الدنيا إنما هو ليُستعان بها على أداء العبادات، وإقامة الطاعات[(٥)].

وقد أجاب الله دعاءه فصار يُجبى إليه ثمرات كل شيء، فإنك ترى مكة المكرمة كل وقت الثمار فيها متوفرة، والأرزاق تتوالى إليها من كل جانب[(٦)].

---

(١) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص٨٥٣.
(٢) من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي، د. زغلول النجار، (١/ ٣٥٢).
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٤/ ٢١١٠).
(٤) تفسير القرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، القرطبي، (٩/ ٣٧٣).
(٥) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٤/ ٣٣٠).
(٦) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص٨٥٣.

وفي قوله ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ هكذا يُبرز السّياق هدف السكن بجوار البيت الحرام، إنه إقامة الصلاة على أصولها كاملة لله، ويُبرز هدف الدعاء برفرفة القلوب وهُوُيّها إلى أهل البيت، ورزقهم من ثمرات الأرض، إنه شكر الله المنعم الوهّاب. وفي ظل هذا الدعاء تبدو المفارقة واضحة في موقف قريش جيرة البيت المحرم، فلا صلاة قائمة لله، ولا شكر بعد استجابة الدعاء وهويّ القلوب والثمرات[١].

ولا يخفى ما في دعاء إبراهيم عليه السَّلام من مراعاة حسن الأدب، والمحافظة على قوانين الضراعة، وعرض الحاجة، واستنزال الرحمة، واستجلاب الرأفة، ولهذا منّ الله عليه بحسن القبول وإعطاء المسؤول، ولا بِدْعَ في ذلك من خليل الرحمن[٢].

ويُعقِّب إبراهيم عليه السلام على دعائه الله لذُريّته الساكنة بجوار بيته المحرم لتقيم الصلاة وتشكر الله، حيث يُعقِّب على الدعاء بتسجيله لعلم الله الذي يَطَّلع على ما في قلوبهم من توجُّه وشكر ودعاء، فليس القصد هو المظاهرات والتلبية والتصدية والمكاء، إنما هو توجُّه القلب إلى الله الذي يعلم السرَّ والجهر، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء[٣].

* * *

رابعًا: قوله تعالى ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٨]:

يبدو هذا التدفُّق الروحانيُّ واضحًا في تكرار لفظ ﴿رَبَّنَآ﴾ في بداية كل آية، فقد نادى ربَّه بضمير الجمع، فقال ﴿رَبَّنَآ﴾ أي أنه ربُّه وربُّ ذُريّته وربُّ

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٤/ ٢١١٠).
(٢) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٤/ ٣٣٠).
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٤/ ٢١١٠).

الوجود كلِّه، وأنه أعلم بحالهم سرِّهم وعلانيتهم، وأن علمه على سواء يستوي فيه المُغيَّب والمُعلَن، وما غاب وما حضر[١].

تعلم سرّنا كما تعلم علانيتنا من الحاجات وغيرها، وما سألناك هذه الحاجات لكونها غير معلومة لك، بل لإظهار افتقارنا إليك، وتذلُّلنا لعزتك[٢].

يا ربَّنا إنك العالم لما في القلوب تعلم ما تُسرُّ وما تُظهر ﴿مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، أي لا يغيب عليه تعالى شيء من الكائنات، سواءٌ منها ما كان في الأرض أو في السماء، فكيف تخفى عليه، وهو خالقها ومُوجدها؟! فإبراهيم عليه السَّلام يُثني على الله تعالى بما هو أهله، ويعترف بأنه تعالى هو الذي يعلم عواقب الأحوال، ونهايات الأمور مستقبلاً، وكأنه بهذا الثناء يقول: أنت الأعلم بما تحفظ به ابنيَّ إسماعيل وإسحاق؛ لأنه لا يخفى عليك شيء في الأرض ولا في السماء[٣].

فالله سبحانه وتعالى قد أحاط علمُه بالظواهر والبواطن، والإسرار والإعلان، وبالواجبات والمستحيلات والممكنات، وبالعالم العلوي والسفلي، وبالماضي والحاضر والمستقبل، فلا يخفى عليه شيء[٤].

أ ـ قول أبي حيان في تفسيره الآية:

كرر النداء للتضرُّع والالتجاء، ولا يظهر تفاوت بين إضافة ربّ إلى ياء المتكلِّم وبين إضافته إلى جمع المتكلِّم، «وما نُخفي وما نُعلن» عامٌّ فيما يخفونه وما يُعلنونه، وقيل: ما نخفي من الوجد لما وقع بيننا من الفرقة، وما نعلن من البكاء والدعاء، وقيل: ما نُخفي من كآبة الافتراق، وما نُعلن مما

---

(١) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (٨/ ٤٠٤٠).
(٢) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٤/ ٣٣٠).
(٣) دعاء الأنبياء والرسل، محمد محمود أحمد وموسى الخطيب، ١٠١.
(٤) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز ناصر الجليل، ص٣٣٣.

جرى بينه وبين هاجر حين قالت له عند الوداع: إلى من تكلنا؟ قال: إلى الله أكِلكم، قالت: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: لا نخشى، تركتَنا إلى كافٍ. والظاهر أن قوله: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ هو من كلام إبراهيم، وفيه شمول لكلّ الأمور والحوائج، وأنها غير خافية عنه سبحانه وتعالى(١).

وقيل: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ . . .﴾ الآيةَ هو من كلام الله سبحانه تصديقًا لإبراهيم عليه السلام، كقوله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤] بعد حكاية قول ملكة سبأ ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ [النمل: ٣٤]، والذي يظهر لي أن قوله تعالى ﴿مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ هو تتمة لكلام إبراهيم عليه السلام، وقد التفت من الخطاب إلى الإخبار؛ لتربية المهابة والإشعار بعلّة الحكم وعمومه(٢).

ب ـ قول الشوكاني في تفسيره الآية:

قال جمهور المفسرين: هو من كلام الله سبحانه تصديقًا لما قاله إبراهيم من أنه سبحانه يعلم ما يُخفيه العباد وما يُعلنونه، فقال سبحانه: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ من الأشياء الموجودة كائنًا ما كان، وإنما ذُكرت السماوات والأرض لأنها المشاهَدة للعباد، وإلا فعلمُه سبحانه محيط بكل ما هو داخل في العالم، وكل ما هو خارج عنه، لا تخفى عليه منه خافية. قيل: ويحتمل أن يكون هذا من قول إبراهيم تحقيقًا لقول الأول، وتعميمًا بعد التخصيص(٣).

❊ ❊ ❊

---

(١) البحر المحيط في التفسير، أبو حيّان الأندلسي، (٥/ ٤٢٢).
(٢) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٤/ ٣٣١).
(٣) فتح القدير، الشوكاني، (٣/ ١٦٠).

خامسًا: قوله تعالى ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]:

ابتدأ كلامه بالحمد إشعارًا بشكر النعمة وتقديرها، إذ إن هذه الآيات من سورة إبراهيم عليه السَّلام تحدَّثت عن آخر حياة إبراهيم، بعد فراغه من بناء البيت، وإقرار الله عينه برؤية أبنائه وذُريّته، ودعائه لهم بأن يكونوا ممَّن يُقيم الصلاة، ويسلم من الشرك(١).

١ ـ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾:

فيه معنى القصر، أي أن الحمد لله تعالى وحده، فهو مانح النعم ومُجريها وحده(٢).

وعرّف ابن قيم الجوزية «الحمد» بأنه: إخبار عن محاسن المحمود، مع حبّه وإجلاله وتعظيمه(٣)، وإنَّ إبراهيم عليه السلام يحمد الله على نعمائه، ويحمده كذلك على ما اتّصف به سبحانه من صفات الكمال والعظمة(٤).

٢ ـ ﴿ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾:

والوَهْب: هو عطاء من الله بلا مقابل منك، وكل الذُّرّية هبة(٥)، ولذا قال الله تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ٤٩ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ﴾ [الشورى: ٤٩ ـ ٥٠]، إنه يحمد الله ويشكره على أنْ وهبه إسماعيل وإسحاق ﴿عَلَى ٱلۡكِبَرِ﴾ مع أنه كبير، وهذا يدلُّ على جلال الشعور بالنعمة، إن ذلك واضح أنه إكرام من الله بخرق الأسباب،

(١) حديث القرآن عن إسماعيل وإسحاق عليهما السلام، د. سليمان إبراهيم الحصين، ص٤٧٥.
(٢) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (٨/ ٤٠٤٢).
(٣) بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، (٢/ ٩٣).
(٤) الثناء في القرآن الكريم، هتون سامي عبد الرحمن فلمبان، ص٣٧.
(٥) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١٢/ ٧٥٨٢).

وإن شكر النعمة بذكر إسماعيل وإسحاق فيه معنى جليل؛ لأنهما وَلَدا أبي الأنبياء الذين جاؤوا بعد إبراهيم عليه السَّلام، فكأن النبوَّة انحصرت في ذُريّته عليه السلام، كما يبدو من قصص القرآن الكريم الصادق في ذاته[١].

وإنما ذكر ﴿عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾؛ لأن المنّة بهبة الولد في هذا السن أعظم، من حيث إن هذا الزمان زمن وقوع اليأس من الولادة، والظفر بالحاجة في وقت اليأس من أعظم النعم، ولأن الولادة في تلك السن العالية كانت آية لإبراهيم عليه السلام[٢].

* وفي قوله تعالى ﴿عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾: تفيد (على) الاستعلاء، فالكبر ضعف، ولكن إرادة الله أقوى من الضعف، فقوله تعالى ﴿وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾ جعل قدرة الله في العطاء فوق الشيخوخة[٣].

* وفي قوله ﴿إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾، تقديم إسماعيل على إسحاق عليهما السلام يدلُّ على أن إسماعيل هو الأكبر[٤].

ويعلّمنا إبراهيم عليه السلام الاعتراف بفضل الله ونعمائه علينا التي لا تُحصى، والواجب أن تُقابَل بالحمد والشكر، وذلك بتسخيرها في طاعة الله، كما يعلّم البشرية ألا تتوقَّف عن الدعاء لله، وألا تقنط من رحماته تعالى، وذلك بالتأكيد على أن الله سميع الدعاء[٥].

٣ ـ ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾:

فالمراد بالسمع هنا: السمع الخاصُّ، وهو سمع الإجابة والقبول،

---

(١) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (٨/ ٤٠٤٢).
(٢) التفسير الكبير مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، (٩/ ٢٦٢).
(٣) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١٢/ ٧٥٨٤).
(٤) حديث القرآن عن إسماعيل وإسحاق عليهما السلام، د. سليمان إبراهيم الحصين، ص٤٧٦.
(٥) وإبراهيم الذي وفّى، فرحات بن علي الجعبيري، ص١٠٠.

لا السمع العام؛ لأنه سبحانه سميع لكل مسموع، وإذا كان كذلك فالدعاء هنا يتناول دعاء الثناء ودعاء الطلب، وسَمْعُ الربّ تبارك وتعالى له يتجلّى في قَبول الثناء، وإجابته للطلب، فهو سميع لهذا وهذا(١).

وقد أكد إبراهيم عليه السلام أن الله سميع الدعاء:

أولًا: بالجملة الاسمية.

ثانيًا: بـ «إن» المؤكدة.

ثالثًا: باللام في قوله ﴿لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾.

والتعبير بقوله ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ فيه أيضًا شعور بالشكر الجزيل لله تعالى، لأنه الذي ربّاه، وكَوّنه، وقام على شؤونه واستجاب دعاءه.

لقد كان إبراهيم عليه السلام صورة سامية للفطرة الإنسانية، وأوضح هذه الفطرة حبُّ الذُّرّية، والحدب عليها، وإكرامها، وتوجيهها إلى الحق، وإلى عبادة الله تعالى، ولذا قال الله تعالى على لسانه(٢):

* * *

سادسًا: قوله تعالى ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠]:

يعود السّياق القرآني مرة أخرى لبيان أهمية إقامة الصلاة، واحتفاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام بها فيقول:

١ ـ ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾:

* ﴿رَبِّ﴾: ويُكرِّر هنا الاستعطاف والتذلُّل لله عزّ وجل بلفظة ﴿رَبِّ﴾ هذه

---

(١) بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، (٣/ ٤).

(٢) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (٨/ ٤٠٤٣).

اللفظة التي تزيّن بداية كل آية، وكأنها مصباح يُضيء الطريق أو يُتيح الفرصة للمضيء، فيما سيرد من دعاء بعد ذلك(١).

إنَّه النداء والدعاء إلى الله تعالى بوصفه أنه ربّه الذي كَوَّنه وخلقه ورزقه، وهو المتصرِّف في حياته، والمالك له، والمدبِّر لشؤونه، يستغيث به لِيُعينه على طاعته.

* وفي قوله ﴿ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾: يطلب العون من الله على إقامة الصلاة، فربُّه هو الذي غذّاه في بدنه وعموم أحواله وحاجاته البدنية، أن يُعينه على غذائه الروحي بعد غذائه الجسدي، أي صَبِّرني وحَوِّلْني ووَجِّهني إلى أن أكون مقيم الصلاة، أي مُؤدِّيًا لها أداءً مستقيمًا كاملاً، بأن تكون أركانها الحسية مستوفاة، ومنها الخشوع والخضوع المطلق، والصلاة رمز للقيام بحق الدين كاملاً من غير التواء(٢).

إنَّ إبراهيم عليه السلام يطلب من المولى عزّ وجل أن يكون مقيمًا للصلاة رغم كونه نبيًّا، وهذا منهج تربويٌّ عالٍ ولا شكَّ، فالمؤمن يجب ألا يغترَّ بنفسه ويُزكِّيهَا، بل عليه أن يتحرَّى الدّقة والصّواب في كل أعماله وأقواله(٣).

* وفي قوله ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾: لم يكتف بالدعاء لنفسه، بل أضاف إلى ذلك الدعاء لذُريّته، ولكن الله تعالى أشار إلى أنه سيكون من ذُريّته من لا يشكر الله تعالى، ومَن يعصيه؛ ولذا قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾ و«مِنْ» هنا للتبعيض، أي اجعل بعضَ ذريتي مقيمَ الصلاة؛ ليكون حبل العبادة متصلاً إلى يوم القيامة، فلا ينقطع التوحيد، وإقامة الشعائر، بل تتصل إلى يوم القيامة، ومن ذُريّته

(١) وجوه البيان في دعاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، سميرة عدلي محمد رزق، ص٢٤١.
(٢) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (٨/ ٤٠٤٤).
(٣) وجوه البيان في دعاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، سميرة عدلي محمد رزق، ص٢٤١.

قائمون على الحق يهتدون بهديه، ويسيرون في طريق الحق، وهو الطريق المستقيم[١].

٢ ـ ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾:

أي: تقبَّلْ دعائي وعبادتي وطاعتي، وهو أدب رفيع مع الله تعالى يدعوه، ويتذلَّل إليه، ثم يسأله أن يتقبَّله بفضله وكرمه. وقد ظهر مثل هذا الأدب أيضًا في دعائه عليه السلام مع ولده إسماعيل عندما كانا يرفعان قواعد بيت الله الحرام: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧][٢].

أ ـ قول الطبري في تفسير الآية:

﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾: ربنا وتقبَّلْ عملي الذي أعمله لك، وعبادتي إياك، وهذا نظير الخبر الذي رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إنَّ الدعاء هو العبادة**»[٣]، ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠][٤].

ب ـ قول الشوكاني في تفسير الآية:

﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾: ثم سأل الله سبحانه أن يتقبَّل دعاءه على العموم، ويدخل في ذلك دعاؤه في هذا المقام دخولاً أوليًّا، قيل: والمراد بالدعاء هنا: العبادة، فيكون المعنى: وتقبَّلْ عبادتي التي أعيدك بها[٥].

* * *

(١) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (٨/ ٤٠٤٤).
(٢) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٤/ ٣٣٢).
(٣) مسند أحمد، (٤/ ٢٦٧، ٢٧١)، وسنن الترمذي، رقم (٢٩٦٩)، قال الترمذي: حديث حسن صحيح.
(٤) تفسير تفسير الطبري «جامع البيان في تأويل القرآن»، (١٣/ ٢٣٥).
(٥) فتح القدير، الشوكاني، (٣/ ١٦١).

سابعًا: قوله تعالى ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]:

إنَّ إبراهيم عليه السلام يمثل، في شخصه النبويّ، الرجل الفطري المستقيم النفس في كل اتجاهاتها، وقد رأينا من فطرته أنه فكر في ذُريّته كما فكر في نفسه، والفطرة السليمة تجعله يذكر عند الخير أبويه كما ذكر ذُريّته، فقد كان إبراهيم عليه السلام مُتَّجهًا دائمًا إلى مقام الربوبية، فنادى ربَّه بالربوبية، ودعاه بالمغفرة، وابتدأ بنفسه أولاً، ثم ثنَّى بوالدَيْه، وثلَّث بالمؤمنين الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر، سواءٌ أكانوا من ذُريّته أم كانوا من غيرهم، فهو دعاء لعامة المؤمنين[١].

وكانت أدعية إبراهيم عليه السَّلام عامَّةً (جماعية)؛ لأنه نادى بالأخوَّة الإنسانية، وهي الأخوَّة القائمة على توحيد الله عزّ وجلّ، وإفراده بالعبادة، وطاعته عزّ وجل وفق منهجه سبحانه وتعالى، وطلب إبراهيم عليه السَّلام الغفران، وستر الذنوب، ومحو السيئات، يوم يقوم الحساب، وهو يوم القيامة، حيث يكون الحساب لكلِّ إنسان على ما قدَّم من خير أو شرٍّ، فهو يطلب من الله في هذا اليوم عفوه، وتغليب مغفرته على عذابه، وذلك بالنسبة للمؤمنين عامة وبالنسبة لوالديه خاصّةً[٢].

قال أبو حيان رحمه الله: والظاهر أن إبراهيم سأل المغفرة لأبوَيْه القريبين، وكانت أمه مؤمنة، وكان والده لم ييئس من إيمانه، ولم تتبيَّن له عداوته لله، وهذا يتماشى إذا قلنا: إنَّ هذه الأدعية كانت في أوقات مختلفة، فجمع هنا أشياء مما كان دعا بها، وقيل: أراد أمَّه ونوحًا عليه السلام، وقيل: آدم

(١) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (٨/ ٤٠٤٥).
(٢) المرجع نفسه، أبو زهرة، (٨/ ٤٠٤٥).

وحواء، والأظهر القول الأول، وقد جاء نصًّا دعاؤه لأبيه بالمغفرة في قوله ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ (١).

١ ـ ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى﴾:

أي: اغفر لي ما فرط مني مما أراه ذنبًا، وهذا يدلُّ على شدّة تواضع خليل الله ـ عليه السلام ـ لربّه، واتهامه لنفسه بالتقصير في حقِّ شكر نعم الله تعالى عليه، وهذا الشعور كان يدفع نبيَّنا محمدًا ﷺ لمضاعفة عبادته وقيامه في الليل، فكان يقوم حتى تَرِمَ قدماه، ففي الحديث الشريف، عن المغيرة رضي الله عنه قال: إنْ كانَ النبيُّ ﷺ لَيَقُومُ لِيُصَلّيَ حتَّى تَرِمَ قَدَماهُ ـ أو ساقاهُ ـ فيُقالُ له، فيَقولُ: «**أفلا أكُونُ عَبدًا شَكُورًا؟!**» (٢).

٢ ـ ﴿وَلِوَٰلِدَىَّ﴾:

أي: اغفِرْ لأمي وأبي، ويبدو أن أمَّه كانت مؤمنة، ووقع استغفاره لأبيه قبل أن يتبيَّن له أنه عدو لله، بإصراره على الكفر حتى الموت، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

٣ ـ ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾:

أي: اغفر للمؤمنين كافّةً يوم القيامة عند وقوع الحساب، وسبق لنبي الله نوح عليه السلام سؤال المغفرة لجميع المؤمنين كما في قوله تعالى ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ [نوح: ٢٨]. وكان الشعبيُّ رحمه الله يقول: ما يَسرُّني بنصيبي من دعوة نوح وإبراهيم عليهما السلام للمؤمنين والمؤمنات حُمْر النّعَم(٣).

---

(١) البحر المحيط في التفسير، أبو حيّان الأندلسي، (٥/ ٤٢٣).
(٢) صحيح البخاري، رقم (١١٣٠).
(٣) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٤/ ٣٣٣).

وهكذا ينتهي هذا المشهد العظيم، مشهد النبي الكريم إبراهيم ـ عليه الصلاة والسَّلام ـ بعد أن يملأ قلوبَنا وأنفسَنا بوحدانية لا يمكن أن يُوفِّرها لنا سوى أسلوب القرآن الكريم، كلام رب العالمين، ذلك الأسلوب الذي احتوى على جَرْس قرآني نديّ عذب فضلاً عن رفعة المعنى(١).

* * *

ثامنًا: دعوة إبراهيم عليه السلام الناس لأداء مناسك الحج في سورة الحج:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٦ ـ ٢٩].

يذكر الله سبحانه وتعالى عظمة البيت الحرام وجلالته، وعظمة بانيه وهو خليل الرحمن، فقد هيأه الله له وأنزله إياه، وجعل قسمًا من ذُريّته من سكانه، وأمره الله ببنيانه، فبناه على تقوى الله، وأسَّسه على طاعة الله هو وابنه إسماعيل، وأمره ألا يُشرك به شيئًا بأن يُخلص لله أعماله ونيّتَه على اسم الله، وأن يُطهِّر بيته من الشرك والمعاصي ومن الأنجاس والأدناس، وأضافه الرحمن إلى نفسه؛ لشرفه وفضله، ولتعظُم محبَّتُه في القلوب، وتنصبَّ إليه الأفئدة من كل جانب، وليكون أعظم لتطهيره وتعظيمه لكونه بيت الربّ للطائفين به والعاكفين عنده، المقيمين لعبادةٍ من العبادات من ذكر

(١) وجوه البيان في دعاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، سميرة عدلي محمد رزق، ص٢٤١.

وقراءة وتعلُّم وتعليم، وغير ذلك من أنواع القرب[١].

وأمره بأن يدعوَ الناس، ويُعلِّمَهم، ويُبلِّغَهم، دانيَهم وقاصيَهم، فرضَه وفَضيلتَه، فإنك إذا دعوتَهم أتَوْك حُجّاجًا وعمّارًا، مشاة على أرجلهم من الشوق، أو على ناقة ضامر تقطع المفاوز وتُواصل السير حتى تأتي إلى أشرف الأماكن من كل بلد بعيد. وقد فعل الخليل عليه السلام ثم من بعده ابنه محمد ﷺ، فدعا الناس إلى حج هذا البيت، وأبدأا في ذلك وأعادا، وقد حصل ما وعد الله به، أتاه الناس رجالاً وركبانًا من مشارق الأرض ومغاربها. ثم ذكر فوائد بيت الله الحرام مُرغِّبًا فيه، لينالوا ببيت الله منافع دينية من العبادات الفاضلة والعبادات التي لا تكون إلا فيه، ومنافع دنيوية من التكسُّب، وحصول الأرباح الدنيوية، وكل هذا من المنافع الدينية والدنيوية أي: ليذكروا اسم الله عند ذبح الهدايا شكرًا لله على ما رزقهم منها، ويسَّرها لهم، ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ أي: شديد الفقر.

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ﴾ أي: يقضوا نُسكهم، ويزيلوا الوسخ والأذى الذي لحقهم في حال الإحرام، ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾: التي أوجبوها على أنفسهم من الحج والعمرة والهدايا، ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ أي: القديم، أفضل المساجد على الإطلاق، المُعتَق: من تسلُّط الجبابرة عليه، وهذا أمر بالطواف، خصوصًا بعد الأمر بالمناسك عمومًا، لفضله وشرفه، ولكونه المقصود، وما قبله وسائل إليه، ولعله، والله أعلم، أيضًا لفائدة أخرى، وهو أن الطواف مشروع في كل وقت، وسواءٌ كان تابعًا لنسك أم مستقلاًّ بنفسه.

إنَّ إبراهيم عليه السلام قام بواجبه في تعليم المؤمنين بالله مناسك الحج وفق ما أمره الله وأوحى إليه من المناسك، وجدّد هذه الفريضة، بعدما اندثرت

(١) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٠٩٧.

وانحرفت مع مرور السنين ووسائل إبليس، نبيُّنا محمد ﷺ[١].

وإنَّ موسم الحج له منافع عظيمة وكثيرة، منها:

* موسم الحج هو تجمع إنساني عظيم.

* الحج مؤتمر روحي.

* الحج موسم تجارة وعبادة.

* الحج مؤتمر اجتماع وتنسيق وتعارف.

* الحج فريضة تلتقي فيها الدنيا والآخرة، كما تلتقي فيها ذكريات العقيدة البعيدة والقريبة.

* أصحاب السلع والتجارة يجدون في موسم الحج سوقًا رائجة، حيث تُجبى إلى البلد الحرام ثمرات كلِّ شيء من أطراف الأرض، ويَقدم الحجيجُ من كل فجٍّ ومن كل قطر، ومعهم من خيرات بلادهم ما تفرَّق في أرجاء الأرض في شتى المواسم، يتجمع كلُّه في البلد الحرام في موسم واحد.

* الحج تجارة ومعرض نتاج، وسوق عالمية تُقام في كل عام.

* الحج موسم عبادة تصفو فيه الأرواح، وهي تستشعر قربها من الله في بيته الحرام، وهي ترفُّ حول هذا البيت، وتستروح الذكريات التي تحوم عنده، وترفُّ كالأطياف من قريب ومن بعيد[٢].

أطياف موسم الحج:

* طيف إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ وهو يُودِّع عند البيت فلذة كبده إسماعيل وأمَّه، ويتوجَّه بقلبه الخافق الواجف إلى ربه: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾.

---

(١) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٠٩٨.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٤/ ٢٤١٩).

* طيف هاجر ـ عليها السَّلام ـ وهي تستروح الماء لنفسها ولطفلها الرضيع في تلك الحرّة الملتهبة حول البيت، وهي تُهرول بين الصفا والمروة، وقد نهكها العطش، وهدّها الجهد، وأضناها الإشفاق على الطفل، ثم ترجع في الجولة السابعة، وقد حطَّمها اليأس لتجد النَّبع يتدفَّق بين يدي الرضيع الوضيء، وإذا هي زمزم ينبوع الرحمة في صحراء اليأس والجدب.

* طيف إبراهيم ـ عليه السلام ـ وهو يرى الرؤيا، فلا يتردَّد في التضحية بفلذة كبده، ويمضي في الطاعة المؤمنة إلى ذلك الأفق البعيد: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾، فتُجيبه الطاعة الراضية في إسماعيل عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، وإذا رحمة الله تتجلَّى في الفداء: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾.

* طيف إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهما يرفعان القواعد من البيت في إنابة وخشوع: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [١].

وتظلُّ هذه الأطياف وتلك الذكريات ترفُّ وتَتتابع حتى يلوح طيف عبد المطلب، وهو ينذُر دمَ ابنِه العاشر إن رزقه الله عشرة أبناء، وإذا هو عبد الله، وإذا عبد المطلب حريصٌ على الوفاء بالنذر، وإذا قومه من حوله يعرضون عليه فكرة الفداء، وإذا هو يدير القداح حول الكعبة ويضاعف الفداء، والقدح يخرج في كل مرة على عبد الله، حتى يبلغَ الفداءُ مائة ناقة بعد عشر، هي الدّية المعروفة، فيُقبَل منه الفداء، فينحر مائة وينجو عبد الله، ينجو لِيُودِع رحم آمنة أكرم خلق الله على الله محمدًا رسول الله ﷺ ثم يموت، فكأنما فداه الله من الذبح لهذا القصد الوحيد الكريم الكبير [٢].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٤/ ٢٤١٩).
(٢) المرجع نفسه، (٤/ ٢٤١٩).

ثم تتواكب الأطياف والذكريات من محمد رسول الله ﷺ، وهو يدرُج في طفولته وصباه فوق هذا الثرى، حول هذا البيت، وهو يُرجع الحجر الأسود بيديه الكريمتين فيضعه موضعه ليطفى الفتنة التي كادت تنشب بين القبائل، وهو يُصلِّي، وهو يطوف، وهو يخطب، وهو يعتكف، وإن خطواته ـ عليه الصلاة والسلام ـ لتنبض حيَّة في الخاطر، وتتمثَّل شاخصة في الضمير، يكاد الحاجُّ هناك يلمحها، وهو مستغرق في تلك الذكريات، وخطوات الحشد من صحابته الكرام وأطيافُهم ترفُّ وترفُّ فوق هذا الثرى، حول ذلك البيت، تكاد تسمعها الأذن، وتكاد تراها الأبصار.

والحج بعد ذلك كله مؤتمر جامع للمسلمين قاطبة، مؤتمر يجدون فيه أصلهم العريق الضارب في أعماق الزمن منذ أبيهم إبراهيم الخليل ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾، ويجدون محورَهم الذي يشدُّهم جميعًا إليه، هذه القبلة التي يتوجَّهون إليها جميعًا، ويلتقون عليها جميعًا، ويجدون رايتهم التي يفيئون إليها، راية العقيدة الواحدة التي تتوارى في ظِلِّها فوارق الأجناس والألوان والأوطان، ويجدون قوَّتَهم التي ينسونها حينًا، قوة التجمُّع والتوحُّد والترابط الذي يضمُّ الملايين، الملايين التي لا يقف لها أحد لو فاءت إلى رايتها الواحدة التي لا تتعدَّد، راية العقيدة والتوحيد[١].

وهو مؤتمر للتعارف والتشاور، وتنسيق الخطط، وتوحيد القوى، وتبادل المنافع والسلع والمعارف والتجارب، وتنظيم ذلك العالم الإسلامي الواحد الكامل المتكامل مرة في كل عام في ظلِّ الله، بالقرب من بيت الله، وفي ظلال الطاعات البعيدة والقريبة، والذكريات الغائبة والحاضرة، في أنسب مكان، وأنسب جوٍّ، وأنسب زمان، فذلك إذ يقول الله سبحانه ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾.. كل جيل بحسب ظروفه وحاجاته وتجاربه ومقتضياته، وذلك بعض

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٤/ ٢٤٢٠).

ما أراده الله بالحج يوم أن فرضه على المسلمين، وأمر إبراهيمَ عليه السَّلام أن يُؤذِّن به في الناس(١).

* * *

تاسعًا: تنازع الطوائف في إبراهيم عليه السلام:

تنازعت الطوائف الدينية في إبراهيم عليه السلام، فكل طائفة ادّعت انتسابها إليه وسَيْرَها على طريقته، وما ذلك إلا لمنزلة إبراهيم عليه السلام في التاريخ والدين والحياة، فهو أمة، وجعله الله إمامًا، وجعل في ذُريّته النبوَّة والكتاب.

وأشهر الطوائف التي ادَّعت انتسابها إليه ثلاث: اليهود، والنصارى، والعرب المشركون، مع أن هذه الطوائف الثلاث بعيدة عن دين إبراهيم عليه السَّلام.

ويدّعي اليهود الانتساب لإبراهيم؛ لأنهم أبناء إسحاق ويعقوب عليهما السَّلام، ويدّعي النصارى الانتساب إليه؛ لأنهم يزعمون أنهم على دينه، ويدّعي العرب الانتساب إليه لأنهم أبناء إسماعيل ويحجّون البيت الذي بناه إبراهيم عليه السلام. وقد تحدثت آيات القرآن عن هذا الموضوع، وسجّلت بعض مزاعم اليهود والنصارى والمشركين، ثم نقضتها وردّت عليها، وبيَّنت حقيقة دين إبراهيم، والذين ينتسبون إليه حقًّا، ويسيرون على طريقه فعلاً(٢).

وقد شرحتُ ما جاء من ذلك في سورة البقرة من قوله تعالى ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾ [البقرة: ١٣٠] إلى قوله تعالى ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾، وقد بيّنتُ من خلال الآية الكريمة أن إبراهيم عليه السَّلام كان على الإسلام، وأوصى بنيه بذلك وساروا على نصيحة والدهم، وكذلك حفيده يعقوب عليه السلام وأولاده، فقد كانوا جميعًا مسلمين، وليسوا كما ادّعى اليهود والنصارى فيما

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٤/ ٢٣٢٠).

(٢) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٤٥١).

بعد، أنهم كانوا يهودًا أو نصارى، لقد كذب اليهود عندما قالوا للناس كونوا يهودًا تهتدوا، وكذب النصارى عندما قالوا للناس كونوا نصارى تهتدوا.

والخلاصة التي بيّنتها الآيات الكريمة في سورة البقرة: أن الطوائف الدينية السابقة تتنازع في إبراهيم عليه السلام، وتدّعي كل واحدة أن إبراهيم كان منها وعلى دينها، وكلُّهم كاذبون في ذلك، فإبراهيم وأبناؤه (الأنبياء) لم يكونوا يهودًا، ولم يكونوا نصارى، ولم يكونوا مشركين، وإنما كانوا مسلمين حنفاء، وكلٌّ منهم كان يُوصي أولاده، وهو على فراش الموت، بالإسلام[١].

وكذلك جاءت آيات كريمة في سورة آل عمران في جدال اليهود والنصارى، الذين زعموا أنهم على طريق إبراهيم عليه السلام ودينه، وأبطلت الآيات هذا الزعم، وبيَّنت من هم أولى الناس بإبراهيم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٦٥ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٦٦ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦٧ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٥ ـ ٦٨].

وإن هذه الآيات تُنكر على أهل الكتاب من اليهود والنصارى جدالهم بشأن إبراهيم عليه السلام، وتُبطل انتسابَهم إليه، وتُكذِّبهم في زعم أن إبراهيم منهم. وقد بيَّنت الآيات الكريمة أن التوراة أُنزلت على موسى عليه السلام، وموسى جاء بعد إبراهيم بعشرات السنين، إن لم تكن مئات السنين، فكيف يزعم اليهود أن إبراهيم كان يهوديًّا، وإبراهيم قبلهم بمئات السنين[٢]؟!

أفلا يَعقل اليهودُ ويتخلَّوْن عن هذا الزعم الذي يُكذِّبه التاريخ؟ وألا يعقل

(١) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٤٥٢).
(٢) المرجع نفسه، (١/ ٤٥٤).

النصارى أيضًا، ويتخلَّوْن عن هذا الزعم: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [آل عمران: ٦٥].

وصرّحت الآيات الكريمة بتكذيب اليهود والنصارى في مزاعمهم، ونفي كون إبراهيم من أيِّ الطوائف الثلاث الكافرة، اليهود والنصارى والعرب المشركين، وتقرِّر صراحةً أنه كان حنيفًا مسلمًا، وأن دينه هو الإسلام: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧] (١).

وبعد أن تُجرِّد الآيات الطوائف الثلاث ـ اليهود والنصارى والمشركين ـ من الانتساب إلى إبراهيم، وأنهم ليسوا منه ولا على طريقه ولا متَّبعين لدينه، وأنهم كافرون ضالّون، بعد هذا تُبيِّن مَن هم أتباعُه الحقيقيون، المنتسبون إليه فعلاً، الذين هم على دينه الحنيف وتحصرهم بأنهم ثلاثة أصناف: ﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨].

إنَّ أولى الناس بإبراهيم عليه السلام هم الذين اتَّبعوه، أي هم المؤمنون الصالحون الذين عاصروه، وعاشوا معه، واستجابوا لدعوته، ودخلوا في دينه، سواءٌ كانوا في المرحلة الأولى من دعوته في العراق، أو في المرحلة الثانية من دعوته في فلسطين(٢).

واللام في قوله ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ هي اللام المزحلقة، التي انتقلت من اسم (إنّ) إلى خبرها: ﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾، وأصل الجملة هكذا: لأولى الناس بإبراهيم الذين اتبعوه، فدخلت لام التوكيد على المبتدأ (أولى) لكن لما دخلت (إنَّ) على الجملة، دخلت على المبتدأ (أولى) و(إنَّ) تدلُّ على التوكيد، واجتماع حرفين للتوكيد في محلٍّ واحد غير ممكن، فلا بُدَّ أن ينتقل الحرف الأضعف إلى مكان آخر، ليحلّ محلّه الحرف الأقوى، وبهذا تنتقل

---

(١) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٤٥٥).
(٢) المرجع نفسه، (١/ ٤٥٦).

اللام ـ أو تُزحلق ـ من المبتدأ إلى الخبر، وبهذا تسمّى اللام «اللام المزحلقة»، وقوله ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ تركيز على موضوع الاتّباع الصحيح الصادق للنبي، لا يكفي مجرد الانتساب العرقي الوراثي، بل لا بد من حُسن الاتّباع[(١)].

والصنف الثاني الأَولى بإبراهيم هو ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ والمراد به رسول الله محمد ﷺ. والصنف الثالث الأَولى بإبراهيم هم: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ﴾ والمراد به المؤمنون الصالحون أتباع محمد ﷺ، إنهم هذه الأمة الإسلامية، أمة الشهادة والرسالة والخلافة والدعوة حتى قيام الساعة، وهم أَولى الناس بإبراهيم لأنهم على دينه، فهم مسلمون حنفاء، وإبراهيم حنيف مسلم، وهم متّبِعون لخاتم النبيِّين محمد ﷺ، والرسول الذي بشَّر به إبراهيم عليه السلام[(٢)].

❊ ❊ ❊

عاشرًا: صُحف إبراهيم عليه السلام:

ذكر المفسرون أنها صحف أُنزلت على إبراهيم عليه السلام، وقال ابن عاشور بأنها الكلمات التي ابتَلى الله بها إبراهيم، وهي المذكورة في قوله: ﴿۞وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾، ثم قال: وهي صحف سُجِّل فيها ما أوحى الله إليه، واختُلف في عددها، فقيل: هي عشر صحف، وقيل عشرين صحيفة، ويذكر ابن عاشور أنها عشر صحف[(٣)].

وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨ ـ ١٩]، وهذا يعني أن إبراهيم عليه السلام كان صاحب كتاب، فتكون الكتب التي أنزلها الله سبحانه وتعالى على رسله، والتي

---

(١) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٤٥٧).
(٢) المرجع نفسه، (١/ ٤٥٨).
(٣) صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام من خلال القرآن والسنة، عمر عبد الوهاب محمود، مجلة كلية العلوم الإسلامية، العراق، المجلد (١١)، العدد (١/ ١٩)، ٢٠١٩م، ص٤٢.

ذُكرت في القرآن الكريم خمسة كتب، وهي حسب التسلسل الزمني: صحف إبراهيم، والتوراة والزبور والإنجيل والقرآن، وتكون صحف إبراهيم عليه السلام أول ما نزل من الكتب. قال الطبري رحمه الله: وأما الصحف: فإنها جمع صحيفة، وإنما عُني بها كتب إبراهيم وموسى عليهما السَّلام(١).

وبيّن القرآن الكريم بعضًا مما كان في تلك الصحف، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ۝١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٤ ـ ١٩].

لقد اختار الله سبحانه من صحف إبراهيم عليه السَّلام هذه الكلمات؛ ليجعلها في القرآن الكريم قدوة أتباع مِلّة إبراهيم عليه السلام، فلقد جاء فيها:

١ ـ قوله تعالى ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾:

فلا يُمكن الوصول إلى الله سبحانه وتعالى بغير نفس زكية نقية، و﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾: أي تطهَّر بالإيمان وصالح الأعمال بعد التخلِّي عن الشرك والمعاصي(٢).

ولهذا كان من دعاء النبي محمد ﷺ: «**اللَّهمَّ آتِ نفسي تقواها، وزكّها أنت خير من زكّاها، أنت وليّها ومولاها**» (٣).

وقد تكون بمعنى الصدقة سواءٌ كانت المفروضة منها أم التطوع وفيها: ﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾، فإن أفضل الأعمال قاطبة هي ذكر الله سبحانه وتعالى، والذكر يكون على كل حال ماشيًا وجالسًا، وفي حال الأكل والشرب، ولبس الثياب، وقبل النوم، وعند هبوب الريح، وعند ركوب الدابة، وعند النظر للقمر، وفي كل تفاصيل الحياة(٤).

---

(١) ملة أبيكم إبراهيم، عبد الستار كريم المرسومي، ص١٨٨.
(٢) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية ط٥، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م، (٥/ ٥٥٨).
(٣) سنن النسائي، رقم (٥٤٥٨).
(٤) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، أبو بكر الجزائري، (٥/ ٥٥٩).

ويقول الفخر الرازي في تفسيره الكبير (مفاتيح الغيب): مراتب أعمال المكلَّف ثلاثة:

أولها: إزالة العقائد الفاسدة من القلب.

وثانيها: استحضار معرفة الله تعالى بذاته وصفاته وأسمائه.

وثالثها: الاشتغال بخدمته.

فالمرتبة الأولى: هي المرادة بالتزكية في قوله ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤].

وثانيها: وهي المرادة بقوله ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ﴾، فإن الذكر بالقلب ليس إلا المعرفة.

وثالثها: الخدمة وهي المرادة بقوله: ﴿فَصَلَّىٰ﴾، فإن الصلاة عبارة عن التواضع والخشوع، فمن استنار قلبه بمعرفة جلال الله تعالى وكبريائه، لا بُدَّ أن يظهر في جوارحه وأعضائه أثر الخضوع والخشوع(١).

وكان خليل الله إبراهيم عليه السَّلام قد التقى برسول الله ﷺ في السماء الدنيا أثناء رحلة الإسراء والمعراج، وكان إبراهيم عليه السلام قد نادى على محمد بأنه ولده، وهو كذلك بالفعل، قال رسول الله ﷺ: «**فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومَن معك؟ قال: محمد ﷺ، قيل: وقد أُرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به، فنعم المجيء جاء، ففُتح، فلمّا خلصتُ فإذ فيها آدم، فقال: هذا أبوك آدم، فسلِّم عليه، فسلمت عليه فردّ السلام، ثم قال: مرحبًا بالابن الصالح والنبي الصالح**»، فما كان من الخليل إبراهيم عليه السلام إلا أن يُوصي ولده محمدًا ﷺ أن يُبلِّغ سلامه لأمته، ثم أوصاه بالذكر الذي هو غراس الجنة وعلّمه أذكارًا

---

(١) التفسير الكبير مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، (٣١/ ١٣٤).

بعينها، وهي: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، فقد قال رسول الله ﷺ: «**لقيت إبراهيمَ ليلة أُسري بي، فقال: يا محمد أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة صلبةُ التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غرسها سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر**» (١).

٢ ـ قوله تعالى ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾:

كان ذلك أيضًا في صحف إبراهيم عليه السلام، فالصلاة عماد الدين، ونور اليقين، وهي الحبل الموصول بين العبد وربه سبحانه وتعالى، فلا غنى عنها، ولا حياة دونها، ولم يسقطها الله سبحانه وتعالى لا عن نبيّ مُقرَّب، ولا عن عبد فقير، ولا عن مريض ولا كبير. ومن صحف إبراهيم استلهم بقية الأنبياء الرسالة، ومارسوا الصلاة بمعناها العام، سواءٌ كان المقصود منها الدعاء، أو العبادة التوقيفية من القيام والركوع والسجود وتلاوة كلام الله سبحانه وتعالى.

وعندما تكون الصلاة المعنية في قوله سبحانه وتعالى في صحف إبراهيم عليه السَّلام ﴿فَصَلَّىٰ﴾ هو الدعاء، فسيكون المعنى قد أفلح مَن دعا ربَّه، والدعاء لبُّ العبادة وأساسها في مِلّة إبراهيم عليه السلام، قال رسول الله ﷺ: «**إن الدعاء هو العبادة**» (٢). فمن أجل ذلك كان الدعاء يرافق إبراهيم عليه السلام في كل أحواله، وكان إبراهيم في كل أحواله يدعو ربَّه بأدعية صارت قبسًا لأتباع ملته يدعون بها إلى يومنا هذا، وقد حفظ القرآن الكريم لنا ذلك النور الرباني من أدعيته الخاشعة العظيمة(٣).

وأما عندما تكون الصلاة هي العبادة التوقيفية، فقد كان إبراهيم عليه السلام

(١) صحيح البخاري، رقم (٣٨٨٧).
(٢) سنن الترمذي، رقم (٢٩٦٩)، قال الترمذي: حديث حسن صحيح.
(٣) ملة أبيكم إبراهيم، عبد الستار كريم المرسومي، ص١٩٢.

قد دعا بها بقوله ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ [إبراهيم: ٤٠] وهي دعوة جليلة تُوضِّح أهمية الصلاة، فقد كان قول إبراهيم عليه السَّلام في دعائه ربّه أن يجعله ربُّه ﴿مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾، فإقامة الصلاة على مراد الله هو المطلوب، وليس الصلاة فحسب(١).

٣ ـ قوله تعالى ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾:

أخبرت صحف إبراهيم عليه السَّلام بأنه رغم الإشارات إلى دور الإنسان الإصلاحي في الأرض، والبشارات لمن عمل صالحًا، والوعيد للكافرين والظالمين والفاسقين، وأن الحنيفية هي الميل عن الباطل إلى الحقّ والمداومة على ذلك الحق، إلا أن الإنسان سيَميل ويُقدِّم الحياة الدنيا على كل ذلك ـ إلا من رحم ربك ـ وسيُؤثر الحياة الدنيا، ويركن إليها، وهو مأمور بألا تكون هذه الدنيا هدفه، وغاية مُناه؛ لأنها دار فناء وليست دار بقاء، وما هي إلا لهو ولعب، قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

والحياة الدنيا هنا هي كل ما في عمر البشرية من أمور معنوية أو مادية أو زمنية، فهي تشمل عمر الإنسان وحياته وغناه وفقره، وكل ما خلق الله سبحانه وتعالى في هذا الكون من بشر ونباتات وحيوانات وجمادات وكواكب ونجوم، وكل الأشياء الأخرى كالشهوات والملذّات والملك وهكذا، وهي دار امتحان وليست دار جزاء، فليس من العقل ولا المنطق أن يتصارع ويتنافس من أجلها المتنافسون، وهذه هي نظرة مِلّة إبراهيم في القضية ألا نُؤثر هذه الحياة الدنيا، وإنما نأخذ منها ما نُقيم به حياتنا من أجل بقائنا للعمل من أجل الآخرة، وقد جاء بيان ذلك في قوله تعالى ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [القصص: ٧٧] (٢).

---

(١) ملة أبيكم إبراهيم، عبد الستار كريم المرسومي، ص١٩٣.

(٢) المرجع نفسه، ص١٩٤.

وهذا هو ملخص قصة الحياة التي نعيشها، أننا في الأصل نبتغي الحياة الآخرة، وهناك مُتطلَّبات لا غنى لنا عنها في هذه الحياة التي نعيشها، وعلينا ألا ننساها، لذلك فإن ما جاء في صحف إبراهيم عليه السلام ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ إنما هو تحذير ووعيد لمن يفعل ذلك؛ لأنه خطأ فاحش، وهو مخالفة صريحة لملة إبراهيم عليه السلام التي أمر الناس باتّباعها.

ثم يقول القرآن الكريم أن من الأمور المُهمّة في صحف إبراهيم عليه السلام: الحديث عن الدار الآخرة في قوله ﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ والكلام عن الحياة الآخرة تأتي أهميته من كونه من الأمور الاعتقادية التي لا يصلح الإيمان ولا الإسلام إلا بها، ففي صحف إبراهيم عليه السلام الدار الآخرة تختلف عن الدار الدنيا بأمرين[١]:

الأمر الأول: أنها خير منها:

وهذا أمر بدهيّ، ولكن بالنسبة للمؤمن فحسب، فتراه يعمل بعمل أهل الآخرة ولا يفعل شيئًا يُغضب الله تعالى، وهذه الأفضلية والخيرية لا تُقارَن، فنعيم الحياة الآخرة كبير جدًّا وعظيم جدًّا وكثير جدًّا بالنسبة لما في الدنيا، وربما حتى هذه الكلمات لا تفي، فيقول رسول الله ﷺ: «**مَوضِعُ سَوطِ أَحَدِكُم مِنَ الجَنَّةِ خَيرٌ مِنَ الدُّنْيا وما عَلَيها**»[٢].

الأمر الثاني: أن الحياة الآخرة أبقى من الدنيا:

فهي حياة باقية لا تزول، فمَن كان في الجنة ومَن كان في النار فهم خالدون فيها، فإخبار القرآن بأنّ أهل الجنة خالدون فيها أكثر من أن يُحصى، فمنها

(١) ملة أبيكم إبراهيم، عبد الستار كريم المرسومي، ص١٩٤.

(٢) صحيح البخاري، رقم (٢٨٩٢) من حديث سهل بن سعد الساعدي؛ صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير، الألباني، رقم (٦٦٣٥) من حديث أبي هريرة وسهل بن سعد.

قوله تعالى ﴿ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ [آل عمران: ١٥]. وأما أهل النار فهم أيضًا خالدون في النار، فيقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [النساء: ١٦٨ ـ ١٦٩]، وقوله تعالى في أهل النار ﴿ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [النحل: ٢٩].

وصحف إبراهيم عليه السلام مثل بقية الكتب، قد أنزلها الله سبحانه وتعالى في رمضان، وهي نزلت في أول ليلة من رمضان، فقد قال رسول الله ﷺ: **«نزَلَتْ صُحُفُ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلام أوَّلَ ليلةٍ مِن رمَضانَ، وأُنزِلَتِ التَّوراةُ لستٍّ مضَيْنَ مِن رمَضانَ، وأُنزِلَ الإنجيلُ لثلاثَ عَشرَةَ خلَت مِن رمَضانَ، وأُنزِلَ الزَّبُورُ لثماني عَشرةَ خلَت مِن رمَضانَ، والقُرآنُ لأربعٍ وعِشرينَ خلَت مِن رمَضانَ»** [(١)].

وقد جاء ما يدلُّ أن هناك معانيَ أخرى في صحف إبراهيم وموسى، كما ذكر الله ما فيها في سورة النجم في قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴾ [النجم: ٣٦ ـ ٥٦].

قال الشيخ عطية سالم: فهذه كانت مما جاء في صحف إبراهيم عليه

(١) مسند أحمد (٢٨/ ١٩١)، سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني، رقم (١٥٧٥).

السلام، وهذا يُؤيِّد أن أكثرَها أمثالٌ ومواعظ، كما يُؤكِّد ترابط الكتب السماوية[١].

وقال الشيخ السعدي: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ﴾ هذا المدّعي ﴿بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾: الذي قام بجميع ما ابتلاه الله به، وأمره به من الشرائع وأصول الدين وفروعه. وفي تلك الصحف أحكام كثيرة من أهمها ما ذكره الله بقوله ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ أي كل عامل له عمله الحسن والسيئ، فليس له من عمل غيره وسعيه شيء، ولا يتحمَّل أحد عن أحد ذنبًا.

وقوله ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾: في الآخرة فيُميَّز حسنُه من سيئه ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾ أي: المُستكمِل لجميع العمل الحسن الخالص بالحسنى، والسيِّئ الخالص بالسُّوءَى، والمشوب بحسبه، تقرأ بعدله وإحسانه الخليقة كلها، وتحمد الله عليه حتى إن أهل النار ليدخلون النار، وإن قلوبهم مملوءة من حمد ربهم، والإقرار له بكمال الحكمة، ومقت أنفسهم، وأنهم هم الذين أوصلوا أنفسهم وأوردوها شرّ الموارد[٢].

وقوله ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾: أي إليه تنتهي الأمور، وإليه تصير الأشياء والخلائق بالبعث والنشور، وإلى الله المنتهى في كل حال، فإليه ينتهي العلم، والحكم، والرحمة، وسائر الكمالات.

وقوله ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾: أي هو الذي أوجد أسباب الضحك والبكاء، وهي الخير والشر، والفرح والسرور، والهم والحزن، وهو سبحانه له الحكمة البالغة في ذلك[٣].

---

(١) صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام من خلال القرآن والسنة، عمر عبد الوهاب محمود، ص٢٢.

(٢) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٧٣٨.

(٣) المرجع نفسه، ص١٧٣٨.

وقوله ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا﴾: أي هو المنفرد بالإيجاد والإعدام، والذي أوجد الخلق وأمرهم ونهاهم، وسيُعيدهم بعد موتهم، ويُجازيهم بتلك الأعمال التي عملوها في دار الدنيا.

وقوله ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ﴾ فسَّرهما بقوله ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ﴾، وهذا اسم جنس شامل لجميع الحيوانات ناطقها وبهيمها، فهو المنفرد بخلقها ﴿مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ﴾، وهذا من أعظم الأدلة على كمال قدرته وانفراده بالعزّة والعظمة، حيث أوجد تلك الحيوانات صغيرها وكبيرها من نطفة ضعيفة من ماء مهين، ثم تمَّمها وكمّلها حتى بلغت، ثم صار الآدمي منها إمّا إلى أرفع المقامات في أعلى عِلِّيِّين، وإمّا إلى أدنى الحالات في أسفل سافلين. ولهذا استدل بالبداءة على الإعادة فقال: ﴿وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾، فيُعيد العباد من الأجداث، ويجمعهم ليوم الميقات، ويجازيهم على الحسنات والسيئات[١].

وقوله ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ﴾: أي أغنى العباد بتيسير أمر معاشهم من التجارات وأنواع المكاسب من الحِرف وغيرها، ﴿وَأَقۡنَىٰ﴾ أي: أفاد عباده من الأموال بجميع أنواعها، ما يصيرون به مقتنين لها، ومالكين لكثير من الأعيان، وهذا من نعمه على عباده، أن أخبرهم أن جميع النعم منه تعالى، وهذا يوجب على العباد أن يشكروه ويعبدوه وحده لا شريك له.

وقوله ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾: وهو النجم المعروف بالشعرى العبور، المسمّاة بالمرزم، وخصَّها الله بالذكر وإن كان هو ربَّ كل شيء، لأن هذا النجم مما عُبد في الجاهلية، فأخبر تعالى أن جنس ما يَعبد المشركون مربوب مُدبَّر مخلوق، فكيف يُتَّخذ إلهًا مع الله[٢]؟!

---

(١) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٧٣٩.
(٢) المرجع نفسه، ص١٧٣٩.

وقوله ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ﴾ : وهم قوم هود عليه السلام حين كذّبوا هودًا ، فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية .

وقوله ﴿ وَثَمُودَاْ ﴾ : قوم صالح عليه السلام، أرسله الله إلى ثمود فكذبوه، فبعث الله إليهم الناقة آية، فعقروها وكذّبوه، فأهلكهم الله تعالى ﴿ فَمَآ أَبۡقَىٰ ﴾ منهم أحدًا، بل أهلكهم الله عن آخرهم .

وقوله ﴿ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ﴾ من هؤلاء الأمم، فأهلكهم الله وأغرقهم في اليم .

وقوله ﴿ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ ﴾ : هم قوم لوط عليه السلام ﴿ أَهۡوَىٰ ﴾ أي : أصابهم الله بعذاب ما عذَّبَ به أحدًا من العالمين، قلب أسفل ديارهم أعلاها، وأمطر عليهم حجارة من سِجِّيل، ولهذا قال : ﴿ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴾ أي : غشيها من العذاب الأليم الوخيم ما غشى، أي : شيء عظيم لا يُمكن وصفُه .

وقوله ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾ : أي فبأي نعم الله وفضله تشكُّ أيها الإنسان؟! فإن نِعَم الله ظاهرة لا تقبل الشك بوجه من الوجوه، فما بالعباد من نعمة إلا منه تعالى، ولا يدفع النقم إلا هو(١) .

قال الشنقيطي في تفسير قوله تعالى ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ ﴾ : لم يُبيِّن هنا هذا الذي أُنزل إلى إبراهيم، ولكنه يُبيِّن في سورة «الأعلى» أنه صحف، وأن من جملة ما في تلك الصحف ﴿ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾ (٢) .

وقال ابن عاشور في تفسيره : وقوله ﴿ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ﴾ ، وتعريف : ﴿ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ : تعريف الجنس، فيصدق بالمُتعدِّد، فيشمل صحف إبراهيم، وصحف موسى، وما أُنزل بعد ذلك،

---

(١) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٧٤٠ .

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، (١/ ٤٥) .

﴿ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾: النبوءة، و«المُلْك»: هو ما وعد الله إبراهيم أن يعطيَه لذُريّته، وما آتى الله داود وسليمان وملوك إسرائيل(١).

ومن خلال الآيتين اللتين ورد ذكر الحديث فيهما عن صحف إبراهيم عليه السَّلام يُفهَم أن فيها القواعد العامة، التي لا بدّ أن تعيَها البشرية في مختلف العصور، كقاعدة الثواب والعقاب، وأن الإنسان يُحاسَب بعمله، فيُعاقَبُ بذنوبه وأوزاره، ولا يُؤاخذ بجريرة غيره، ويُثاب بسعيه وليس بسعي غيره.

أما من خلال الآيات التي وردت في سورة الأعلى، فيُفهَم أن فيها الحثَّ على تزكية النفس، وبيان أن الفلاح الحقيقي لا يتحقَّق إلا بتزكية النفس بالطاعة لله، والعبودية له، وإيثار الآجل على العاجل، فأخبر الله عزّ وجل عن بعض ما جاء في هذه الصحف من وحيه الذي أنزله على رسوله إبراهيم وموسى عليهما السلام، والعلم عند الله(٢).

* * *

الحادي عشر: خصائص إبراهيم عليه السلام وفضائله وصفاته:

إنّ خليل الله إبراهيم عليه السلام عَلَمٌ من أعلام الدنيا، شخصية فذّة، وقامة سامقة، تجسَّدت في شخصيته الكريمة صفاتٌ عظيمة، وفضائلُ كريمة، جعله الله بها مُهيّأً وأهلاً وناشطًا؛ ليضع أساس مِلّةٍ عظيمة، واضحة المعالم ومستقيمة وسمحاء، تصلح للناس جميعًا، وللأحوال كافة على مدى الدهور. فإن إبراهيم عليه السلام هو خليل الله، وهو النبيّ والرسول، والصّدِّيق، والمصطفى، والمجتبى، والمهدي، وأبو الأنبياء، والشاكر، والأواه، والمنيب، والحليم، والقانت، والموقن، والحنيف، وذو القلب السليم،

(١) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (٥/ ٨٨ ـ ٨٩).

(٢) صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام من خلال القرآن والسنة، عمر عبد الوهاب محمود، ص٢٤.

والأمّة، والإمام، والأسوة، والصالح، وصاحب الصحف، وهو أول من بنى لله بيتًا؛ ليُعبد الله سبحانه فيه على الأرض، وهو أول من يُكسى يوم القيامة، وهو مَن أراه الله سبحانه ملكوت السماوات والأرض، وكلُّ هذه الصفات ثابتة بأدلة قطعية الثبوت من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ[1].

ومن أهم هذه الخصائص والصفات والفضائل:

١ ـ السبق إلى الإسلام:

قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠ ـ ١٣١].

هذا تصريح بأن دين إبراهيم عليه السَّلام هو الإسلام، وهذا من أعظم فضائله وصفاته، كونه في أعلى درجات الإسلام الممكنة، حيث استسلم لله، وانقاد لأمره قولاً وفعلاً وعقيدة، وفوّض أمره إليه، وإبراهيم عليه السلام كان في قمة التسليم والاستسلام لأمر خالقه، وهذا واضح في سيرته أكمل وضوح؛ فقد سلّم ولده للقربان، وجسده للنيران، وماله للضيفان، بل سلّم روحه وقلبه وكيانه للرحمن، وجعل صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين[2].

٢ ـ الحنيفية:

وصف الله تبارك وتعالى إبراهيم عليه السلام بأنه حنيف في عدة مواضع من القرآن، فقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا

---

(١) ملة أبيكم إبراهيم، عبد الستار كريم المرسومي، ص٢٤٣.

(٢) فقه دعوة الأنبياء في القرآن الكريم، أحمد البراء الأميري، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠١٢م، ص٢٤٥.

وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]، والحنيف: هو المستقيم على إسلامه لله تعالى، المائل عن الشرك إلى دين الله[(١)].

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: سُئل رسول الله ﷺ: أيّ الأديان أحبّ إليك؟ قال: «**الحنيفية السّمحة**»[(٢)]، إنها سمحة بعقيدتها، سمحة بأحكامها، سمحة بتعاليمها سماحةً دعا إليها الله ورسوله، وحبَّب فيها، وجعلها كُنهَ ديننا، يعني شريعة إبراهيم عليه السَّلام؛ لأنّه تحنّف عن الشرك ومال إلى الحق. ويتضح من هذه النقول أن إبراهيم عليه السَّلام، قد ترك الأديان، ولزم دين الإسلام، واستقام عليه، فوصفه ربه تبارك وتعالى بأنه حنيف[(٣)].

٣ ـ الحلم:

وصف الله تبارك وتعالى أخلاق خليله إبراهيم عليه السَّلام فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥]؛ لأن الحلم خصلة يُحبُّها الله تبارك وتعالى، وهي صفة من صفاته عزّ وجل، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لأشَجِّ عبد القيس: «**إنَّ فيكَ خَصلتَينِ يُحبّهما اللهُ: الحِلم، والأناة**»[(٤)].

وقد عرّف سيد الحلماء محمدٌ ﷺ الرجل القوي بأنه الحليم الذي يتمالك نفسه عند سورة الغضب، لا الذي يصرع الناس ويغلبهم، فقال فيما رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه: «**ليسَ الشَّدِيدُ بالصُّرَعةِ، إنَّما الشَّدِيدُ الذي يَملِكُ نَفسَهُ عِندَ الغَضَبِ**»[(٥)].

---

(١) محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، (٢/ ٢٧٠).

(٢) مسند أحمد، رقم (٢١٠٨)؛ سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني، رقم (٨٨١).

(٣) فقه دعوة الأنبياء في القرآن الكريم، أحمد البراء الأميري، ص٢٤٥.

(٤) صحيح أبي داود، رقم (٥٢٢٥).

(٥) صحيح البخاري، رقم (٦١١٤).

ثم يُحدِّثنا القرآن الكريم بأن الحلم خلق من أخلاق النبوَّة فيقول في سورة التوبة عن أبي الأنبياء إبراهيم: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾، ويقول عنه في سورة هود: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾، فالحليم: غير العجول على الانتقام من المسيء إليه[١].

٤ ـ التأوّه:

قال ابن الجوزي: في الأوّاه ثمانية أقوال:

أحدها: أنه الخاشع والمتضرِّع.

الثاني: الدعّاء.

الثالث: الرحيم.

الرابع: أنه الموقن.

الخامس: أنه المؤمن.

السادس: أنه المُسبِّح.

السابع: أنه المتأوّه لذكر عذاب الله، المتضرِّع شفقًا وفرقًا ولزومًا لطاعة ربه.

الثامن: أنه الفقيه.

وأقرب المعاني عندي الأول والسابع؛ لأنَّ الأواه هو الذي يُكثر التأوُّه، وهو أن يقول: أوّاه، وكل كلام يدلُّ على حُزن يُقال له: التأوّه، وإبراهيم عليه السلام حين كان يدعو ربّه تعالى، ويتضرع إليه في خشية وخشوع، وحين كان يسبّحه، كان يتأوَّه بين يديه، ويرجو رحمته، ويخشى عذابه[٢].

---

(١) موسوعة أخلاق القرآن، أحمد الشرباصي، دار الرائد العربي للطباعة والنشر، بيروت، ط٣، ١٤٤١هـ، (١/ ١٨٥).

(٢) فقه دعوة الأنبياء في القرآن الكريم، أحمد البراء الأميري، ص٢٤٨.

٥ ـ الإنابة:

هي الرجوع إلى الله تعالى بالتوبة وإخلاص العمل[١]، والمنيب إلى الله تعالى يهديه ربه إليه، قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧]، فإبراهيم عليه السلام كان رجاعًا إلى الله دائمًا، مُخلِصًا، تائبًا، طائعًا، ولذلك استحقَّ ثناء الله عليه ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥].

٦ ـ الصدّيقية:

والصدّيق: من كثر منه الصدّق، وقيل: بل يُقال لمن لا يكذب قط، وقيل: بل لمن لا يتأتَّى منه الكذب لِتعوُّده الصدق، وقيل: بل لمن صدق بقوله واعتقاده، وحقَّق صدقَه بفعله[٢].

وقد وصف القرآن الكريم ثلاثة من الأنبياء الكرام عليهم السلام بأنهم صدّيقون، وهم: يوسف وإدريس وإبراهيم، وقد قال الله تعالى في إبراهيم: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١]، كما أطلق هذه الصفة على غير الأنبياء، فمريم بنت عمران صدّيقة، والقوم الذين علَت درجتهم عند الله بطاعتهم لله والرسول حتى سبقوا الصالحين والشهداء هم الصدّيقون أيضًا ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، فإبراهيم عليه السَّلام حاز صفة الصدّيق بأوسع معانيها، وأعلى مراتبها، فهو كثير الصدق، لم يقع في معصية الكذب قط، وقد صدَّق بقوله واعتقاده وفعله، فاستحقَّ أن يكون خليل الرحمن[٣].

---

(١) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ص٥٠٧ ـ ٥٠٨.
(٢) تاج العروس في جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، ص٤٠٥.
(٣) فقه دعوة الأنبياء في القرآن الكريم، أحمد البراء الأميري، ص٢٥٠.

٧ ـ الشكر:

هو تصوُّر النعمة وإظهارها، والشكر ثلاثة أضرب:

شكر القلب: وهو تصوُّر النعمة.

شكر اللسان: وهو الثناء على المُنعم.

شكر الجوارح: وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقها[١].

قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾؛ إذ كان إبراهيم عليه السلام شاكرًا لله بقلبه، ولسانه وجوارحه، خاضعًا لمن أولاه نعمه، مُحبًّا له، معترفًا بفضله، مُثنيًا عليه بما أنعم، مُستعملاً نعمه فيما يُرضي مولاه المنعم، فكان ـ بعد رسولنا محمد ﷺ ـ سيِّدَ الشاكرين.

وقال تعالى: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢١] وأن يكون الإنسان من الشاكرين بتزكية من ربه سبحانه وتعالى، فذلك تمام النعمة التي يُنعمها الله على ذلك العبد، وقد كان إبراهيم كذلك؛ لأنَّ الأصل في الموضوع أن القليل من عباد الله يكونون شاكرين، كما بيَّنت الآية الكريمة[٢].

٨ ـ الدعاء:

كان إبراهيم عليه السَّلام دعّاءً، ودعاؤه يدلُّ على سموِّ نفسه، وحرصه على رضا خالقه وبارئه، والفوز بنعيمه ورضوانه، فهو يسأل ربّه الحكمة، والصلاح والفلاح والجنة والعزّة يوم القيامة[٣].

وقد مرّ معنا كثير من أدعية إبراهيم عليه السلام التي حفظها المولى عزّ وجل في كتابه، مثل قوله تعالى ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾

(١) فقه دعوة الأنبياء في القرآن الكريم، أحمد البراء الأميري، ص٢٥٠.

(٢) ملة أبيكم إبراهيم، عبد الستار كريم المرسومي، ص٢٠٢.

(٣) فقه دعوة الأنبياء في القرآن الكريم، أحمد البراء الأميري، ص٢٥٢.

وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٣ ـ ٨٩] إلى غير ذلك من الأدعية.

٩ ـ القنوت:

وصف الله تبارك وتعالى خليله بأنه قانت له، فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]؛ فالقنوت لفظ مشترك بين عدة معانٍ، لعلّ أظهرها: لزوم الطاعة مع الخضوع، فإبراهيم عليه السلام كان قانتًا لله بهذه المعاني كلِّها؛ فهو ملازم لطاعة ربّه، خاضع له، داعٍ مولاه، ساكت عن كل شرّ، خاشع في عبادته، كامل في عبوديته[1].

١٠ ـ سلامة القلب:

إن من صفات إبراهيم عليه السَّلام: سلامة القلب، قال الله تعالى عنه: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٤] أي: أقبل إلى توحيده بقلب خالص من الشوائب، باقٍ على الفطرة، سليم من النقائص والآفات[2].

والسِّلمُ والسَّلامةُ: التعرّي من الآفات الظاهرة والباطنة، قال الراغب: ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي: مُتعرٍّ من الدّغل، فهذا في الباطن، والسَّلامة الحقيقيّة ليست إلاّ في الجنّة، إذ فيها بقاء بلا فناء، وغنى بلا فقر، وعزّ بلا ذلّ، وصحّة بلا سقم[3].

١١ ـ عمارة البيت الحرام:

فإبراهيم عليه السلام هو الذي بنى بيت الله الحرام، وأذّن في الناس بحجّه، وثوابه من الله عليه لا ينقطع ما دام البيت قائمًا يحجُّ الناس إليه

(١) فقه دعوة الأنبياء في القرآن الكريم، أحمد البراء الأميري، ص٢٥٤.
(٢) محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، (١٤/ ٥٠٤٥).
(٣) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، (١/ ٤٢١).

ويعتمرون، وقد أمر الله نبيّه وأمته أن يتَّخذوا من مقام إبراهيم مُصلًّى تحقيقًا للاقتداء به، وإحياء آثاره[١].

١٢ ـ إكرام الضيف:

إن من أبرز صفات النُّبل والمروءة: إكرام الضيف، وقد حثَّ الإسلام على هذه الفضيلة، واشتهر خليل الرحمن بها حتى صار يكنى بأبي الضيفان، وقد شرحنا الآيات المتعلِّقة بكرمه ـ فيما سبق ـ في سور هود، والحجر، والذاريات[٢].

١٣ ـ الخُلة:

قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٥]، والخُلة «بالضم»: هي الصداقة والمحبة التي تخلَّلت القلبَ، وهذا الوصف صحيح بالنسبة إلى ما في قلب إبراهيم عليه السلام من حُبِّ الله تعالى، وأما إطلاقه في حقّ الله سبحانه فهو على سبيل المقابلة، وقيل في خلة إبراهيم عليه السلام هي منه العداوة في الله والبغض فيه والولاية في الله والحبّ فيه، وهي من الله عزّ وجل نصرة إبراهيم عليه السلام على من يريده بسوء، وتمكينه مما يُحبُّ، وتصييره إمامًا لمن بعده، وقدوةً لمن خلفه[٣].

ولا يخفى أن في هذا التفسير زيادة على المعنى اللغوي للخُلة، وأنه شرح لها بالنظر إلى نتائجها، فإبراهيم عليه السَّلام لمّا تشبَّع قلبُه بحبِّ ربّه عزّ وجل، ولمّا أحبَّه ربُّه واصطفاه، كان من نتيجة ذلك أن نصره الله وجعله إمامًا للناس

(١) جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام، ابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، دار العروبة، الكويت، ط٢، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م، ص١٨٦.

(٢) فقه دعوة الأنبياء في القرآن الكريم، أحمد البراء الأميري، ص٢٥٧.

(٣) المرجع نفسه، ص٢٣٣.

أجمعين، ولا شكَّ أن إبراهيم عليه السَّلام قد تخلَّلت محبّةُ الله تعالى قلبَه، وكان صادقًا في محبَّته لربّه[١].

إنَّ الله سبحانه وتعالى قد اتّخذ عبده إبراهيم خليلاً لما تحلّى به من الفضائل والشمائل، ولأنه اطّلع على قلبه الذي تشرَّب حُبَّ الله وطاعته، فوجده أهلاً لهذه المنزلة الرفيعة والتكريم والتعظيم. وإذا كان إبراهيم عليه السلام قد أكرمه الله بلقب «الخليل» واتَّخذه خليلاً، فإن هذا ليس خاصًّا به، فقد شاركه في هذا الفضل نبيُّنا محمد ﷺ، حيث اتَّخذه الله أيضًا خليلاً[٢].

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن جندب رضي الله عنه قال: سمِعتُ رسولَ الله ﷺ قبْلَ أنْ يُتوفَّى بخمسٍ ليالٍ خطَب النّاسَ، فقال: «**أيُّها النّاسُ إنَّه قد كان لي فيكم إخوةٌ وأصدقاءُ، وإنِّي أبرَأُ إلى اللهِ أنْ أتَّخِذَ منكم خليلاً، ولو أنّي اتَّخَذتُ مِن أمَّتي خليلاً لاتَّخَذتُ أبا بكرٍ خليلاً، إنَّ اللهَ اتَّخَذني خليلاً، كما اتَّخَذ إبراهيمَ خليلاً، وإنَّ مَن كان قبْلَكم اتَّخَذوا قبورَ أنبيائِهم وصالحيهم مساجدَ، فلا تتَّخِذوا قبورَهم مساجدَ، فإنِّي أنهاكم عن ذلك**»[٣].

١٤ ـ خيرُ البريّة:

عن أنس بن مالك قال: جاءَ رَجُلٌ إلى رَسولِ الله ﷺ فقالَ: يا خَيرَ البَرِيَّةِ، فقالَ رَسولُ الله ﷺ: «**ذاكَ إبراهِيمُ عليه السَّلام**»[٤].

وقال العلماء: إنما قال ﷺ هذا تواضعًا واحترامًا لإبراهيم عليه السلام لخُلته وأُبوَّته، وإلا فنبيُّنا ﷺ أفضل، كما قال ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم**»، ولم

---

(١) فقه دعوة الأنبياء في القرآن الكريم، أحمد البراء الأميري، ص٢٣٣.
(٢) المرجع نفسه، ص٢٣٤.
(٣) صحيح البخاري، رقم (١٩٠٤)؛ صحيح مسلم، رقم (٥٣٢)؛ صحيح ابن حبان، رقم (٦٤٢٥).
(٤) صحيح مسلم، رقم (٢٣٦٩).

يقصد به الافتخار، ولا التطاول على من تقدَّمه، بل قاله بيانًا لما أُمر ببيانه وتبليغه، ولهذا قال ﷺ: «**ولا فخر**»، لينفي ما يتطرَّق إلى بعض الأفهام، وقيل: يحتمل أنه ﷺ قال: إبراهيم خير البريّة قبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم... ولا يمتنع أنه أراد أفضل البرية الموجودين في عصره، وأطلق العبارة المُوهِمة للعموم، لأنها أبلغ في التواضع.

ولذا، فإن إبراهيم عليه السلام أفضل أهل زمانه بلا مُنازع، بل هو أفضل خلق الله بعد خاتم النبيين عليهم صلوات الله، كما يدلُّ عليه هذا الحديث(١).

١٥ ـ الإمامة:

امتنَّ الله سبحانه على رسوله إبراهيم عليه السَّلام، فجعله إمامًا للناس، به يقتدون ويهتدون، وذلك لبلوغه الذروة في الفضل والشرف، ولحيازته من مكارم الأخلاق وجميل الصفات ما يجعله أهلاً لذلك، قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤].

قال ابن جرير الطبري في تفسيره: إنما أراد جلّ ثناؤه بقوله لإبراهيم ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾: إني مُصيِّرك تَؤُمُّ مَن بعدَك من أهل الإيمان، فتتقدَّمُهم أنت، ويتَّبعون هديَكَ، ويَستنُّون بسُنَّتِك التي تعمل بها، بأمري إياك، ووحيي إليك(٢).

١٦ ـ الاجتباء والاصطفاء:

قال تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام بأنه ﴿ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢١]، واجتباء الله العبد هو تخصيصه إياه بفيض إلهي يتحصّل له منه أنواع من النعم، بلا سعي من العبد، وذلك للأنبياء وبعض مَن يُقاربهم من الصدّيقين والشهداء. فالله سبحانه هو الذي اختار إبراهيم عليه

---

(١) فقه دعوة الأنبياء في القرآن الكريم، أحمد البراء الأميري، ص٢٣٥.
(٢) تفسير الطبري «جامع البيان في تأويل القرآن»، (٣/ ١٨).

السلام لهذا الفضل العظيم، وأكرمه بهذا الخير العميم، وهداه إلى صراط التوحيد الخالص القويم[١].

وقال عنه كذلك: ﴿ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وقد يكون الاصطفاء بإيجاده تعالى إياه مُصفًّى من الشوائب الموجودة في غيره[٢]، وهو الذي جعله في الآخرة من الصالحين، وهكذا نرى أن الاجتباء والاصطفاء لفظان لمعنيين مُتشابهين، ووصفان لدرجتين متقاربتين، نالهما إبراهيم عليه السلام بمَنّ الله وكرمه[٣].

١٧ ـ الرُّشد:

قال تعالى عن خليله عليه السلام: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥١]، وفي هذا ثناء عظيم على رسول الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فالله تبارك وتعالى آتاه رُشدَه أي هداه إلى التوحيد منذ أن كان صغيرًا، وكان جلَّ جلاله عالمًا به، وبأنه أهلٌ لذلك الإيتاء.

وفي هذه الآية الكريمة ردٌّ على الروايات الإسرائيلية الكثيرة عن دخول إبراهيم عليه السلام السّرب وهو رضيع، وعن نظره إلى الكواكب، والتبصّر فيها، والاعتقاد بأنها أرباب له، فإن هذا يتنافى حتى مع الفطرة التي فطر الله الناس العاديين عليها، والتي يُشير إليها قول المصطفى ﷺ: «**ما مِن مَولُودٍ إلّا يُولَدُ علَى الفِطرةِ، فأبَواهُ يُهَوِّدانِهِ، أو يُنَصِّرانِهِ، أو يُمَجِّسانِهِ، كما تُنتجُ البَهِيمةُ بَهِيمةً جَمعاءَ، هل تُحِسُّونَ فِيها مِن جَدعاءَ؟!**»[٤].

---

(١) فقه دعوة الأنبياء في القرآن الكريم، أحمد البراء الأميري، ص٢٣٦.
(٢) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ص٢٨٣.
(٣) فقه دعوة الأنبياء في القرآن الكريم، أحمد البراء الأميري، ص٢٣٧.
(٤) صحيح البخاري، رقم (١٣٥٨).

١٨ ـ النبوَّة في ذُريّته :

ذكر الله تعالى أنه جعل في نسل إبراهيم عليه السَّلام النبوَّةَ والكتاب، فقال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، وهذا تشريف كبير من الله تعالى لعبده ورسوله إبراهيم أن يَحصر النبوَّةَ والكتابَ في ذُريّته، فلا يكون بعده نبيّ إلا من نسله، فهو أبو الأنبياء، وهو من أولي العزم[١].

١٩ ـ اتخاذ مقامه مصلّى :

كرّم الله خليله إبراهيم عليه السَّلام فأمر نبيَّه محمدًا ﷺ والمؤمنين برسالته أن يتَّخذوا من مقامه مصلًّى، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِۦمَ مُصَلًّى ۖ ﴾ [البقرة: ١٢٥] [٢].

٢٠ ـ وليّ النبي محمد ﷺ :

الوليّ: هو الصديق والمحبّ والنَّصير، وإبراهيم هو أقرب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلى نبينا محمد ﷺ، ولا يخفى ما في هذا من فضل ومزية لإبراهيم، فَهُما ـ على الرغم من البعد الزماني بينهما ـ قريبان في المحبة، وقريبان في منزلتهما عند الله، قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ ﴾ [آل عمران: ٦٨] [٣].

٢١ ـ اللِّين والرحمة :

اتّصف خليل الله فيما اتّصف به من صفات الكمال باللِّين في الله، والرحمة لخلق الله، وقد ضرب رسولنا ﷺ المثلَ بإبراهيم ـ عليه السلام ـ في اللِّين

---

(١) فقه دعوة الأنبياء في القرآن الكريم، أحمد البراء الأميري، ص٢٣٨.
(٢) المرجع نفسه، ص٢٣٩.
(٣) فقه دعوة الأنبياء في القرآن الكريم، أحمد البراء الأميري، ص٢٤١.

والرحمة، روى الإمام أحمد رحمه الله في مسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما كانَ يومُ بدرٍ قال رسول الله ﷺ: «**ما تقولون في هؤلاء الأسرى؟**» فقال أبو بكر: يا رسول الله قومُك وأهلُك، استبقِهم واستأنِ بهم لعل الله يتوب عليهم. قال: وقال عمر: يا رسول الله أخرجوكَ وكذَّبوك، فاضرِبْ أعناقَهم. قال: وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله انظر واديًا كثير الحطب، فأدخلهم فيه ثم أضرم عليهم نارًا، قال: فقال له العباس: قطعتَ رَحِمَك. قال فدخل رسول الله ﷺ ولم يردَّ عليهم شيئًا. قال: فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة. قال: فخرج عليهم رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «**إن الله لَيُلَيِّنُ قلوبَ رجالٍ فيه حتى تكونَ ألينَ من اللَّبَنِ، وإن الله ليشُدُّ قلوبَ رجالٍ فيه حتى تكون أشدَّ من الحجارة، وإن مَثَلَكَ يا أبا بكر كَمَثَل إبراهيم قال:** ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، **ومَثَلَكَ يا أبا بكر مثل عيسى قال:** ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، **وإن مَثَلَكَ يا عمر كمَثَل نوح قال:** ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، **وإن مَثَلَكَ يا عمر كمَثَل موسى قال:** ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]»(١).

من هذا الحديث نعلم أن اللِّين في غير تراخٍ، والرفق في غير ضعف، كانا من صفات خليل الله عليه السلام، حتى إن محمدًا ﷺ ضرب به المثل في هاتين الصِّفتين، والمُتتبِّع لسيرة إبراهيم عليه السلام يجد هذه الصفة واضحة فيه، كما مرّ معنا في أكثر من موضع(٢).

---

(١) مسند أحمد، رقم (٣٦٣٢)، وإسناده ضعيف لانقطاعه.

(٢) فقه دعوة الأنبياء في القرآن الكريم، أحمد البراء الأميري، ص٢٤٣.

٢٢ ـ الرجل الأُمَّة:

الأُمَّة: هي الجماعة التي يجمعها أمر ما: إما دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد، والرجل الجامع لخصال الخير يُوصَف بأنه أمَّة[(١)].

ومن هنا وصف الله تبارك وتعالى خليله عليه السلام فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠]، قائمًا مقام جماعة في عبادة الله، نحو قولهم: فلان في نفسه قبيلة، ورُوي عن ابن مسعود وابن عمر رضي الله عنهم: أنَّ الأُمَّة هو الذي يُعلِّم الناسَ الخيرَ والدِّينَ، ورُوي: أنه كان وحده مؤمنًا، والناس كلُّهم عند أوّل مبعثه كانوا كفارًا[(٢)].

ولا يمتنع أن تكون هذه المعاني كلُّها داخلةً في هذا اللفظ لتدلَّ على علوّ مقام إبراهيم عليه السلام، وفضله عند الله وبين الناس[(٣)].

٢٣ ـ الوفاء:

أثنى الله تبارك وتعالى على خليله إبراهيم، وذكر تحلّيه بخصلة الوفاء، فقال: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧]؛ فهو قد بذل جهده، واستنفد طاقته في تبليغ رسالة ربه، وفي طاعة خالقه، وأداء ما أمره بأدائه وما ابتلاه به[(٤)].

٢٤ ـ الإخلاص:

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٥ ـ ٤٧].

* ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ﴾ الذين أخلصوا لنا العبادة ذكرًا حسنًا.

---

(١) مختار الصحاح، الرازي، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية والدار النموذجية، بيروت، صيدا، ط٥، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م، ص٢٥.

(٢) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ص٢٣.

(٣) فقه دعوة الأنبياء في القرآن الكريم، أحمد البراء الأميري، ص٢٤٣.

(٤) المرجع نفسه، ص٢٦٠.

* ﴿ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ الخليل.

* ﴿ وَإِسْحَٰقَ ﴾ ابنه ﴿ وَيَعْقُوبَ ﴾ ابن ابنه.

* ﴿ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي ﴾ أي: القوّة على عبادة الله تعالى.

* ﴿ وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ أي: البصيرة في دين الله، فوصفهم بالعلم النافع، والعمل الصالح الكثير.

* ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ﴾ عظيمة، وخِصِّيصة جسيمة وهي ﴿ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴾: جعلنا ذكر الدار الآخرة في قلوبهم، والعمل لها صفوةَ وقتهم، والإخلاص والمراقبة لله وصفَهم الدائم، وجعلناهم ذكرى الدار، يتذكَّر بأحوالهم المُتذكِّر، ويَعتبر بهم المُعتبِر، ويُذكَرون بأحسن الذكر(١).

٢٥ ـ الفطانة:

حدة العقل وذكاؤه، والمراد التفطُّن والتقيُّظ لإلزام الخصوم، وإفحامهم، وإبطال دعاويهم الباطلة، والتفطُّن والذكاء إدراك الأمور الدقيقة، وهو أخصُّ من الفهم(٢).

وهي من أبرز أخلاق إبراهيم عليه السَّلام التي منحه إياها الله عزّ وجل، فقد استطاع بفطنته النيّرة، وذكائه المفرط أن يُفحم أعداءه، ويُقيم عليهم الحجّة والبرهان الدامغَيْن على بطلان معبوداتهم، وضلال معتقداتهم، بحيث عجزوا عن مناظرته ومجادلته، وعدلوا إلى مغالبته بقوة البأس، شأن من أقام عليهم الحجج، فيعدلون إلى القوة، ولكن ما لبثوا أن خيَّبهم الله وأذلَّهم من حيث أرادوا القوة والبطش. وقد قصّ الله في كتابه الكريم من أخبار مجادلته لقومه

---

(١) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص١٤٩٩.

(٢) حاشية السباعي على شرح الخريدة البهية في العقائد السنية، أبو السعود السباعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م، ص٢١٤.

ما يشهد ببالغ فطنته وفرط ذكائه، ومن ذلك مناظرته لقومه في شأن معبوداتهم من الكواكب، حيث استطاع أن يُقيم الحجّة الدامغة عليهم في بطلان ألوهيتها بما لم يدع شكًّا للمنصف العاقل[١]، كما مرّ معنا، وكذلك في جِداله مع عبدةِ الأصنام والملك الجبار، وغير ذلك كثير.

٢٦ ـ العِلم:

من صفات إبراهيم عليه السلام أنه يرى الأمور على حقيقتها بالعلم قبل فوات الأوان، يرى الشرّ مِن بُعدٍ، قبل أن يراه الناس، فهذه الرؤية الصحيحة الواضحة عند إبراهيم عليه السلام، من معالم شخصيته، فيحسب للأمور حسابها، وهذا من باب فراسة المؤمن وفهمه للواقع وفق السنن والقوانين التي علَّمه الله إياها، فقد وصل إلى منتهى العلم الإنساني في علوم العقائد والتوحيد وأسماء الله وصفاته وأفعاله وقضائه وقدره، وتاريخ الأنبياء والمرسلين الذين سبقوه، وعلوم الأخلاق، وعلم النفس، وأمراض القلوب وعلاجها، وعلم العبادات من حجّ وصلاة وزكاة... إلخ.

وكان إبراهيم عليه السلام كثير الدعاء لله بأن يهديَهُ، وأن يرزقَهُ العلم النافع والعمل الصالح، مثل قوله تعالى ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ [الشعراء: ٨٣ ـ ٨٥]؛ فهذا الدعاء بهذا الترتيب لم يأتِ عبثًا، طلب من الله أن يُعطيه حكمًا، أي علمًا، والنكرة تفيد العموم والكثرة؛ لأن العلم له فوائد عظيمة جدًّا، ومن فوائده أنه يجعل صاحبه مؤهَّلاً للانضمام إلى الصالحين، فمن دون علم لا يُمكن أن يعمل صالحًا؛ لأن العمل الصالح له شرطان، الشرط الأول: الإخلاص لله، والشرط الثاني: الصواب وموافقة الشرع، وهذا لا يتم إلا بالعلم[٢].

---

(١) فقه دعوة الأنبياء في القرآن الكريم، أحمد البراء الأميري، ص٢٤٤.

(٢) قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، ص١٦٧.

وإن ترتيب هذا الدعاء فيه إشارة إلى أنه بالعلم تُصبح للإنسان ذكرى طيبة بين الناس، فيذكرون العلم من باب الشكر للعلماء؛ لأنهم أفادوهم، ولهذا يكون العلم سببًا في تخليد ذكرى أصحابه، وكذلك العلم يُكرِم صاحبه، ويكون سببًا من أسباب دخول الجنة، وهذا يُؤكِّده حديث صحيح عن رسول الله ﷺ: «**مَن سلكَ طريقًا يلتمسُ فيه علمًا سهَّلَ الله به طريقًا إلى الجنة**»[1]، ولهذا حثَّ اللهُ رسولَه محمدًا ﷺ بأن يطلب منه الزيادة في العلم فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

إنَّ إبراهيم عليه السَّلام زوّده الله بالعلم حتى يتمكَّن من القيام بواجب الرسالة والدعوة إلى الله، واستحقَّ بعلمه وعمله أن يكون إمامًا للناس، ولهذا عندما دعا والده إلى الإسلام قال لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾ [مريم: ٤٣]، وكذلك أعطاه الرشد مبكرًا، وأراه ملكوت السماوات والأرض حتى يزداد يقينًا وعلمًا، فالعلم قاد إبراهيم عليه السَّلام إلى كثير من القربات والطاعات، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾، ولهذا فإن الأنبياء أكثر الناس معرفة بالله، وأكثرهم خشية والتزامًا، فهم قدوة للناس، وشموس في الدنيا والآخرة[2].

٢٧ ـ الدعوة إلى الله:

صفة الدعوة إلى الله من ملامح شخصية إبراهيم عليه السَّلام، حتى إن هذه الصفة هي الغالبة عليه؛ لأن مهمته الرئيسة هي إيصال دعوة الله إلى الناس، وإقامة الحجّة عليهم، واستخدم الأساليب كافة لتبليغ رسالة الله إلى الناس، من الالتزام بالفكرة التي يدعو إليها في شخصه وعائلته وأولاده، والاتصال الشخصي مع المدعوِّين، واستخدام الحوار العقلي والمنطقي والوجداني في

(١) سنن الترمذي، رقم (٢٦٨٢)؛ مسند أحمد، رقم (٢١٧١٥).
(٢) قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، ص١٦٨.

إقناع المدعوِّ، وأكثرَ من الرحلات والهجرات والدعوات الخاشعات من أجل هداية الناس إلى ربهم، وتحقيق توحيده، وإفراده بالعبادة، وقد بيّنا كلَّ المواقف الدعوية العظيمة التي قام بها إبراهيم عليه السلام في هذا الكتاب.

٢٨ ـ إقامة الحجّة:

إقامة الحجّة من ملامح شخصية إبراهيم عليه السَّلام حيث أعطاه الله القدرة على إقامتها على الآخرين بالدليل والبرهان، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣]. ويظهر هذا في جملة مواقف مرّت معنا في هذا الكتاب:

* في حواره مع أبيه لإثبات بطلان عبادة الأصنام.

* في حواره مع قومه لإثبات بطلان عبادة الأصنام، وبطلان عبادة الكواكب.

* في حواره مع الملك لإثبات بطلان عبادة الأصنام البشرية.

* في حواره مع قومه بعد تحطيم الأصنام أثناء التحقيق معه، وبعد نجاته من النار.

كل هذا يُثبت أن إبراهيم عليه السَّلام كان عنده هذه الصفة البارزة، والتي تجعله يُقنع الآخَرين بفكرته بالحجّة والمنطق(١).

وكان إبراهيم عليه السَّلام يستخدم أنجح الوسائل، وأفضل الأساليب في عرض الإسلام والدعوة إليه، فقد ناقش قومَه بالمنطق الحواري البرهاني، واستطاع الوصول إلى ما يريده من إقامة الحجّة، بأسئلة علمية منطقية لا تحتمل إلا جوابًا واحدًا، يعدُّ من البدهيات اليقينيات التي لا يختلف فيها اثنان(٢).

---

(١) قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، ص١٦٩.

(٢) المرجع نفسه، ص١٧١.

٢٩ ـ الصّبر :

كان الصّبر من ملامح شخصية إبراهيم عليه السَّلام، بل من الصفات البارزة فيه؛ لأنه نفَّذ جميع الأوامر التي كلَّفه الله بها، واستحقَّ شهادة ربه ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾، وقد نجح إبراهيم في جميع الابتلاءات التي أصابته؛ ليرتقي بها إلى أعلى الدرجات عند الله تعالى وعند الناس، فنال مرتبة الخُلّة عند الله، ونال مرتبة الإمامة عند الناس، فجمع خير الدنيا وخير الآخرة، وجمع محبة الله ومحبة الناس، وهكذا كان الصبر من ملامح شخصية إبراهيم عليه السلام(١) .

٣٠ ـ الشجاعة :

من ملامح شخصية إبراهيم عليه السَّلام: الشجاعة، التي كانت من ثمار إيمانه بالله وتوحيده، وإفراده بالعبادة، ويقينه بأن النافع والضارّ هو الله وحده سبحانه وتعالى، والشجاعة والصبر قرينان لا ينفصلان.

وإن قمَّة الشجاعة في إبراهيم عليه السَّلام تجّلت في إقدامه على تحطيم الأصنام؛ لأن هذه العملية الجريئة كلَّفته نفسَه، والجود بالنفس أعلى مراتب الشجاعة، وموقفه أثناء المحاكمة بعد تحطيم الأصنام كان ثابت الجأش كالطَّوْد الشامخ، يُحاور قومه بكل عزة وشجاعة. وعندما نفَّذوا فيه حكم الإعدام بإلقائه في النار العظيمة، بقي ثابتًا على موقفه حتى بعد نجاته من النار زادت شجاعته وتحدّيه للباطل، وأعلن براءته من جميع الأصنام ومن جميع الكفار، وأعلن مفاصلته لقومه، والهجرة في سبيل الله، وهذه شجاعة ما بعدها شجاعة.

وإبراهيم عليه السلام من أصحاب الدعوات الخالدة في تاريخ الإنسانية، ومن الذين لا يخشون في الله لومة لائم، وقد جمع الشجاعة من جميع

(١) قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، ص١٧٦ .

أطرافها، فهو شجاع، قوي الإيمان، قويٌّ في المواقف الداعمة لدعوة التوحيد، وإفراد الخالق العظيم بالعبادة[(١)] .

٣١ ـ التّضحية :

كان إبراهيم عليه السلام من أكثر الأنبياء والمرسلين تضحيةً في سبيل الله، بدليل أن الله قد جعله إمامًا للناس بعد أن قدّم من التضحيات ما قدّم، فما نال رتبة الإمامة للناس إلا بالجهد، والعرق، والتعب، والمعاناة.

والناس لا يُعطُون قيادةً لأي إنسان إلا إذا حاز ثقتهم، وكان كبيرًا في أعينهم، ووجدوا فيه من المؤهِّلات ما يَجعله سيِّدًا عليهم، وإبراهيم عليه السَّلام حصل على هذه المرتبة العليا عن جدارة واستحقاق، بدليل الشهادة التي أعطاها اللهُ لإبراهيم ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾ .

إنَّ إبراهيم عليه السَّلام ضحّى بكل شيء في سبيل الله ودعوة التوحيد، وهذا ليس غريبًا على من سنّ الأُضحية للمسلمين يوم عيد الأضحى، وهكذا كانت التضحية من معالم شخصية إبراهيم عليه السلام[(٢)] .

٣٢ ـ المُلك العظيم في ذُريّته :

قال تعالى: ﴿فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٥٤]، وذلك ما أنعم الله به على إبراهيم وذُريّته من النبوَّة والكتاب، والمُلك الذي اختصَّ به الأنبياء من ذريته، كداود وسليمان عليهما السلام[(٣)] .

وقد بيّنت الآية الكريمة ـ وهي ضمن خطاب كامل لأهل الكتاب ـ أن الله تعالى آتى آل إبراهيم الكتاب والحكمة، وآتاهم مُلكًا عظيمًا، ذلك هو الإرث

---

(١) قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، ص١٧٨ .

(٢) المرجع نفسه، ص١٧٩ .

(٣) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص٣١٥ .

الإبراهيمي الشريف، والمُلك العظيم، فهو الإرث الروحي والحضاري للإسلام ورسالته فوق الأرض[١].

٣٣ ـ الاختتان:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**اختَتَنَ إبراهِيمُ النبيُّ عليه السَّلام، وهو ابن ثَمانِينَ سَنةً بالقَدُومِ**»[٢].

فإبراهيم عليه السلام أوّل من سنَّ الاختتان، ولا يخفى ما يتطلَّبه امتثالُ أمر ربِّه هذا من جرأة ورجولة، إذ ليس سهلاً على المرء، خاصّة وقد بلغ الثمانين، أن يقطع بيده جزءًا من جسمه، فينفصل منه، ويسيل دمه وهو ينظر، وقد تألَّم إبراهيم عليه السَّلام من هذا دون شكّ، ولكنه صبر ابتغاء مرضاة الله عزّ وجل[٣].

هذه بعض خصائص وفضائل وصفات إبراهيم عليه السلام التي تحدّث عنها العلماء من خلال سيرته ومسيرته العظيمة التي حفظها الله في القرآن الكريم والسنة النبوية الطاهرة، لتعطي لنا صورة واضحة المعالم عن شخصيته وأخلاقه الفريدة عليه السلام.

وهذه الخصائص غيض من فيض، وهذه الفضائل جزء من كلّ، وهذه الصفات معالم راشدة، ومصابيح خالدة في دياجير الظلام من سيرته النورانية، ومسيرته الربانية.

❊ ❊ ❊

(١) درب إبراهيم عليه السلام، سعيد الشبلي، ص٣٢٣.
(٢) القدوم: قيل: آلة النجار، وقيل: مكان بالشام، فالقدوم مكان بالشام ففيه التخفيف، فمن رواه بالتشديد أراد القرية، ومن رواه بالتخفيف يحتمل القرية والآلة، والأكثرون على التخفيف وعلى إرادة الآلة. صحيح البخاري، رقم (٣٣٥٦)؛ صحيح مسلم، رقم (٢٣٧٠).
(٣) فقه دعوة الأنبياء في القرآن الكريم، أحمد البراء الأميري، ص٢٥٣.

الثاني عشر: التقارب الكبير بين إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام:

كم يشدُّكَ هذا القرب وهذه القُربى بين إبراهيم الخليل وابنه خاتم النبيين رسول الله محمد ﷺ، إنه قُرب لصيق برغم آماد الزمان، وأبعاد المكان، حتى لكأنها الأُبوّة المباشرة القريبة، ولذا يتلقى إبراهيم ابنه محمدًا في منازل الملأ الأعلى ليلة الإسراء والمعراج بترحاب الآباء بالأبناء قائلاً: «مرحبًا بالابن الصالح والنبيِّ الصالح». وعند التأمُّل في سيرة إبراهيم ومحمد عليهما الصّلاة والسَّلام، نجد هذا التشابه والتوافق في مشاهد عظيمة، نذكر منها[1]:

١ ـ النشأة:

كان إبراهيم عليه السَّلام راشدًا منذ نشأته الأولى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ و﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، فلم يكن إبراهيم مشركًا ولا مُتحيِّرًا في أي مرحلة في حياته. وكذلك كان النبي محمد ﷺ، فلم يُؤثَر عنه قبل النبوَّة أنه عبَد صنمًا، أو شارك في وثنية.

٢ ـ التفكُّر في ملكوت الله:

فتح الله لإبراهيم عليه السَّلام آفاق التفكُّر في آياته الكونية ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾، وكذلك الرسول محمد ﷺ يتحنَّث في غار حراء تفكُّرًا في آيات الله الكونية.

٣ ـ عداوة الأقارب:

واجه إبراهيم عليه السَّلام الخصومة الشديدة من داخل أسرته مع أبيه آزر، ﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

---

(١) هذا النص حول أوجه التوافق بين خليل الله إبراهيم ورسول الله محمد عليهما الصلاة والسلام منقول من مقال: «بين إبراهيم ومحمد عليهم السلام»، د. عبد الوهاب بن ناصر الطريري، إستانبول، ٢٢/ ١٢/ ٢٠٢٠م.

وكذلك واجه الرسول محمد ﷺ الخصومة الدينية من عمِّه أبي لهب، ونزل القرآن يحكي هذه الخصومة، ولم يُعيَّن أحد من المشركين في القرآن إلا أبا لهب.

٤ ـ استغفار إبراهيم لأبيه:

استغفر إبراهيم عليه السَّلام لأبيه فنُهي عن ذلك ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾.

واستغفر النبي محمد ﷺ لعمِّه أبي طالب فقال: «لأستغفرن لك ما لم أُنهَ عنك»، فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾.

٥ ـ إبراهيم والقرابة المؤمنة:

آمن مع إبراهيم ابن أخيه لوطٌ عليهما السلام وهاجر معه ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾. وآمن مع محمد ابن عمه عليّ وهاجر وجاهد معه، وقال له: «أما تَرضَى أنْ تَكُونَ مِنِّي بمَنزِلةِ هارونَ مِن مُوسَى»[(١)].

٦ ـ إبراهيم وبناء الكعبة:

بنى إبراهيم عليه السَّلام الكعبة، ورفع قواعدها: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾، وأذَّن في الناس بالحج: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.

وكذلك الرسول محمد ﷺ شارك في بناء الكعبة حين بنتها قريش، ثم كان على يديه تطهيرُها من أرجاس الجاهلية، وشعائرها الوثنية، وإعادتها إلى ما كانت عليه حين بناها أبوه إبراهيم، فأرسل نداءه بين الناس سنة تسع:

(١) صحيح البخاري، رقم (٣٧٠٦).

«**ألّا يحجَّ بعدَ العامِ مُشرِكٌ، ولا يَطوفَ بالبيتِ عُريانُ**»، ونادى في حجّة الوداع: «**كونوا على مَشاعرِكُم، فإنَّكمُ اليومَ على إرثٍ من إرثِ إبراهيمَ**»[1]، فالكعبة نسب بين محمد وأبيه إبراهيم كنسب الأُبوّة.

٧ ـ قيادة البشرية:

كان إبراهيم عليه السَّلام إمامًا للناس كلِّهم، جيله والأجيال من بعده: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ ﴾.

وكذلك كان محمد ﷺ رسولَ الله إلى الناس جميعًا: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾.

٨ ـ الهجرة:

هاجر إبراهيم عليه السَّلام من العراق وترك بلده وقومه وقال: ﴿ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾، فانتقل إلى الشام وتوفِّي بها. وكذلك الرسول ﷺ هاجر من بلده مكة المكرمة إلى المدينة المنورة وتوفِّي بها.

٩ ـ الرحمة العامة:

مع أن قوم إبراهيم عليه السَّلام حاولوا إحراقه بالنار، فاعتزلهم وهاجر عنهم، لكنه لم يدعُ عليهم، وعندما جاءته الملائكة تُبشِّره بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب عليهما السلام لم يشغله فرحه بالذُّرّية على الكبر أن يجادلَهم في قوم لوط، ويستدفع عنهم العذاب ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴾.

وكذلك الرسول محمد ﷺ لما عرَض عليه مَلَكُ الجبال أن يُطبق على أهل مكة المكرمة جبليها الأخشبين، ويدفنهم تحت أحجارها، استدفع عنهم

---

(١) مسند أحمد، رقم (١٧٢٣٣).

العذاب وقال: «**بل أرجو أن يُخرِجَ اللهُ مِن أصلابِهِم مَن يعبدُ اللهَ، لا يشرِكُ بِهِ شيئًا**» (١).

١٠ ـ الصلاة الإبراهيمية:

أمر النبيُّ محمد ﷺ أمته أن تسأل الله صلاته وبركته عليه وعلى آله كما صلى وبارك على إبراهيم وآله، فقال: «**قُولوا: اللَّهُمَّ صَلِّ علَى مُحَمَّدٍ وعلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كما صَلَّيتَ علَى إبراهِيمَ، وعلَى آلِ إبراهِيمَ، إنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ بارِك علَى مُحَمَّدٍ وعلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كما بارَكتَ علَى إبراهِيمَ، وعلَى آلِ إبراهِيمَ، إنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ**» (٢).

١١ ـ حرم إبراهيم وحرم محمد:

حرّم إبراهيم عليه السَّلام مكة، وحرّم محمد ﷺ المدينة، قال ﷺ: «**اللَّهمَّ إنَّ إبراهيمَ حرَّم مكةَ فجعلَها حرامًا، وإني حرَّمتُ المدينةَ ما بين مأزَمَيها**» (٣).

١٢ ـ الدعاء بالبركة:

دعا إبراهيم عليه السَّلام لأهل مكة بالبركة، في قوله تعالى ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

ودعا الرسول محمد ﷺ بالبركة المضاعفة للمدينة فقال: «**اللَّهمَّ إن إبراهيم كان عبدَكَ وخليلَكَ دعا لأهل مكة بالبركة، وأنا محمد عبدُكَ ورسولُكَ أدعوكَ لأهل المدينة أن تُبارِكَ لهم في مُدّهم وصاعِهم مِثلَما باركتَ لأهل مكّةَ، مع البركةِ بركتَين**» (٤).

---

(١) صحيح البخاري، رقم (٣٢٣١).
(٢) المرجع نفسه، رقم (٣٣٧٠).
(٣) صحيح مسلم، رقم (١٣٧٤).
(٤) مسند أحمد، رقم (٩٣٧).

١٣ ـ حفظ الله لهما:

حاول قوم إبراهيم عليه السَّلام قتله بالإحراق، فأنجاه الله منهم ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات: ٩٧ ـ ٩٨].

وكذلك الرسول محمد ﷺ حاول المشركون قتله، فأنجاه الله من مكرهم ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

١٤ ـ النسب المصريّ:

تَسرَّى إبراهيم عليه السَّلام بهاجر المصرية ووُلد له منها إسماعيل عليه السَّلام، وتسرّى محمد ﷺ بمارية المصرية، ووُلد له منها إبراهيم عليه السَّلام.

١٥ ـ فتح آفاق التساؤل:

فتح إبراهيم ومحمد آفاق التساؤل والتفكير من غير حَجرٍ على العقل، فكان إبراهيم عليه السَّلام سائلاً ومحمد ﷺ مُجيبًا.

فإبراهيم عليه السَّلام يسأل: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ﴾.

ومحمد ﷺ يتلقى السؤال: إنِّي سائِلُكَ فَمُشَدِّدٌ عَلَيكَ في المَسأَلةِ، فلا تَجِد عَلَيَّ في نَفسِكَ؟ فيُجيبه برحابة وترحاب: «سَلْ عَمّا بَدا لكَ» (١).

١٦ ـ حسبنا الله ونعم الوكيل:

عَنِ ابن عَبّاسٍ رضي الله عنهما قال: حَسبُنا اللهُ ونِعمَ الوَكِيلُ، قالَها إبراهِيمُ عليه السَّلام حِينَ أُلقِيَ في النّارِ، وقالَها مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ (٢).

---

(١) صحيح البخاري، رقم (٦٣).
(٢) المرجع نفسه، رقم (٤٥٦٣).

١٧ ـ الهيئة والشبه:

كان رسول الله ﷺ أشبه الناس بأبيه إبراهيم عليه السَّلام، وقد وصف ﷺ الأنبياء الذين رآهم فقال: «**رأَيتُ مُوسَى: وإذا هو رَجُلٌ ضَرْبٌ رَجِلٌ، كأَنَّهُ مِن رِجالِ شَنُوءَةَ، وَرأَيتُ عِيسَى: فَإذا هو رَجُلٌ رَبعَةٌ أَحمَرُ، كأَنَّما خَرَجَ مِن دِيماسٍ، وأَنا أَشبَهُ وَلَدِ إبراهِيمَ ﷺ بِهِ**» [١]. وقال ﷺ: «**أمّا إبراهِيمُ فانظُرُوا إلى صاحِبِكُم**» [٢].

وعن ابن عباس: أَنَّ قُرَيشًا، أَتَوُا امرأَةً كاهِنَةً[٣] فَقالُوا لَها: أَخبرينا أَشبَهَنا أَثَرًا بِصاحِبِ المَقام. فَقالَت: إن أَنتُم جَرَرتُم كِساءً عَلَى هَذِهِ السّهلَةِ ثُمَّ مَشَيتُم عَلَيها أَنبأتُكُم. قالَ: فَجَرُّوا كِساءً ثُمَّ مَشَى النّاسُ عَلَيها، فأَبصَرَتْ أَثَرَ رَسُولِ الله ﷺ. فَقالَت: هَذا أَقرَبُكُم إلَيهِ شَبَهًا. ثُمَّ مَكَثُوا بَعدَ ذَلِكَ عِشرِينَ سَنَةً، أَو ما شاءَ اللهُ، ثُمَّ بَعَثَ اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ [٤].

ولهذه القربى وهذا التوافق نرى الحبَّ والقرب بين محمد ﷺ وأبيه إبراهيم، ولذا سمَّى ابنَه إبراهيم باسم أبيه إبراهيم، فقال مُبشِّرًا أصحابه: «**وُلِدَ ليَ اللَّيلةَ غُلامٌ، فسَمَّيتُه باسمِ أبي إبراهيمَ**» [٥].

وكانت عائشة تحلف حينًا بربِّ إبراهيم عليه السَّلام، وحينًا تحلف بربِّ محمد، فقال لها رسول الله ﷺ: «**إنِّي لأَعرِفُ غَضَبَكِ ورِضاكِ**»، قالَت: قُلتُ: وكيفَ تَعرِفُ ذاكَ يا رَسولَ اللهِ؟ قالَ: «**إنَّكِ إذا كُنتِ راضِيَةً قُلتِ: بَلَى ورَبِّ مُحَمَّدٍ، وإذا كُنتِ ساخِطَةً قُلتِ: لا ورَبِّ إبراهِيمَ**»، قالَت: قُلتُ: أجَل، لَستُ أَهْجُرُ إلاّ اسمَكَ [٦].

---

(١) صحيح البخاري، رقم (٣٣٩٤). الديماس: الحمّام.
(٢) المرجع نفسه، رقم (٣٣٥٥).
(٣) المراد بها هنا قصّاص الأثر ويسمون القافة.
(٤) سنن ابن ماجه، رقم (٢٣٥٠).
(٥) صحيح مسلم، رقم (٢٣١٥).
(٦) صحيح البخاري، رقم (٦٠٧٨).

إنها لا تهجر اسمه إلا إلى اسم أبيه إبراهيم عليه السَّلام، وهو ما تعلم أنه يُشعِرُه بغضبها لا بغضبه، فمحمد ﷺ هو الأقرب إلى إبراهيم، وهو الأَولى بإبراهيم عليه السَّلام.

١٨ ـ الملَّة الإبراهيميّة:

أولى الناس بإبراهيم عليه السَّلام محمد ﷺ والذين اتبعوه ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾. فهو ﷺ الذي أعاد لملة إبراهيم جِدّتها ونقاءَها، وطهّرها من تحريف اليهودية، وانحراف اليهودية، وانحراف النصرانية، ووثنية الجاهلية.

وليس في شيء من بقايا الأديان المحرّفة اتِّباع لإبراهيم عليه السَّلام ولا ولايةٌ له، وكل محاولة للمزج بين الأديان بمُسمَّى الإبراهيمية، فإن إبراهيم وموسى وعيسى ومحمدًا منها براء، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

فملّة إبراهيم عليه السَّلام هي دين محمد ﷺ، الذي أمره الله باتِّباعها، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

وكان من أذكاره ﷺ كل صباح: «**أصبَحنا عَلَى فِطرَةِ الإسلاَم، وَعَلَى كَلِمَةِ الإخلاَصِ، وَعَلَى دِينِ نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَعَلَى مِلّة أَبِينا إبراهِيمَ حَنِيفًا مُسلِمًا وما كانَ مِنَ المُشرِكينَ**»[(١)].

---

(١) مسند أحمد، رقم (١٥٣٦٤)، وقال محققو «المسند»: «إسناده صحيحٌ على شرط الشَّيخين»؛ صحيح، وضعيف الجامع الصغير، الألباني، رقم (٨٨٠٣).

إنَّ دعوة مزج الأديان وتوحيدِها لا يمكن أن تنطلق من المؤمنين الحقيقيين بأي دين؛ فالنصارى لا يُمكن أن تتَّحد كنائسُهم المختلفة، فضلاً عن أن يتّحدوا مع دين آخر غير دينهم، واليهود لم تتّحد طوائفهم، فضلاً عن أن يتّحدوا مع غيرهم من الأمم، والمسلمون لا يمكن أن يمزجوا بين توحيد وشرك، وإسلام وكفر.

ولكن المطلوب بين أهل الأديان هو التعايش، والتعاون على الحق المتفق عليه ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ﴾.

وكما قال ﷺ عن كفار قريش: **«لا يَدْعوني اليوم إلى خُطة يعظّمونَ فيها حُرمة، ولا يَدْعوني فيها إلى صِلةٍ إلا أجبتهم إليها»** [١].

وقال عن حلف الفضول، وهو حلف قبل الإسلام على نصرة المظلوم على مَن ظلمه: **«لَقَد شَهِدتُ فِي دارِ عَبدِ الله بن جُدعانَ حِلفًا ما أُحِبّ أَنّ لِي بِهِ حُمرَ النّعَمِ، وَلَو أُدعَى بِهِ فِي الإسلامِ لأَجَبت»** [٢].

ومساحة التعايش والتعاون واسعة بين الأسرة البشرية كافة، من غير عبث بالأديان، ولا انسلاخ عن شيء من أُسس الملة وقواعد الدين المحكمة، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

* * *

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة «الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار»، ابن أبي شيبة، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٠٩هـ، (٣٦٨٥٥).

(٢) السنن الكبرى، البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م، (١٣٠٨٠)، وابن هشام في السيرة النبوية (١/ ٧١).

الثالث عشر: إبراهيم عليه السلام يوم القيامة:

١ ـ أول من يُكسى يوم الحشر :

روى الإمام مسلم في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قامَ فِينا رَسولُ اللهِ ﷺ خَطِيبًا بمَوعِظَةٍ، فَقالَ: «**يا أَيُّها النّاسُ إنَّكُم تُحشَرُونَ إلى اللهِ حُفاةً عُراةً غُرلًا**، ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] **ألا وإنَّ أَوَّلَ الخَلائِقِ يُكسَى يَومَ القِيامَةِ إبراهِيمُ عليه السَّلام**»[(١)].

ورُوي عن ابن عباس أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «**أوّل من يُكسى إبراهيم حُلة من الجنة، ويُؤتى بكرسيٍّ فيُطرَحُ عَن يَمينِ العَرشِ، ويُؤتى بي فأُكسى حلّة لا يقوم لها البشر**»[(٢)].

ويُقال: إنَّ الحكمة في خصوصية إبراهيم عليه السَّلام بذلك هي أنه لما أُلقي في النار كان عُريانًا، فكان الله جلّ وعلا أراد أن يكافئه في الآخرة فعجّل له بالكساء والستر، وقيل: لأنه أول من لبس السراويل، وهذه الأقوال لا تعدو أن تكون فهمًا خاصًا، واستنباطًا لبعض العلماء ليس لها من الإلزام شيء؛ لأن مثلها يُعرف بالوحي لا بالرأي[(٣)].

٢ ـ مكانة النبي إبراهيم عليه السلام في الشفاعة يوم القيامة:

من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ أُتِيَ بلَحمٍ فَرُفِعَ إلَيهِ الذِّراعُ، وكانَت تُعجِبُهُ فَنَهَشَ منها نَهشَةً، ثُمَّ قالَ: «**أنا سَيِّدُ النّاسِ يَومَ القِيامَةِ، وهل تَدرُونَ مِمَّ ذلكَ؟ يَجمَعُ اللهُ النّاسَ الأوَّلِينَ والآخِرِينَ في صَعِيدٍ واحِدٍ، يُسمِعُهُمُ الدّاعِي ويَنفُذُهُمُ البَصَرُ، وتَدنُو الشَّمسُ، فَيَبلُغُ النّاسَ مِنَ الغَمِّ والكَربِ**

(١) صحيح مسلم، رقم (٢٨٦٠)؛ صحيح البخاري، رقم (٣٤٤٧).
(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، (١٣/١٥٨).
(٣) فقه دعوة الأنبياء في القرآن الكريم، أحمد البراء الأميري، ص٢٤٠.

ما لا يُطِيقُونَ ولا يَحتَمِلُونَ، فيَقولُ النّاسُ: ألا تَرَونَ ما قد بَلَغَكُم، ألا تَنظُرُونَ مَن يَشفَعُ لَكُم إلى رَبِّكُم؟ فيَقولُ بَعضُ النّاسِ لِبَعضٍ: علَيكُم بآدَمَ، فيأْتُونَ آدَمَ عليه السَّلام فيَقولونَ له: أنتَ أبو البَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ بيَدِهِ، ونَفَخَ فِيكَ مِن رُوحِهِ، وأَمَرَ المَلائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشفَع لَنا إلى رَبِّكَ، ألا تَرَى إلى ما نَحنُ فِيهِ؟ ألا تَرَى إلى ما قد بَلَغَنا؟ فيَقولُ آدَمُ: إنَّ رَبِّي قد غَضِبَ اليومَ غَضَبًا لَم يَغضَب قَبلَهُ مِثلَهُ، ولَن يَغضَبَ بَعدَهُ مِثلَهُ، وإنَّه قد نَهانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيتُهُ، نَفسِي نَفسِي نَفسِي، اذهَبُوا إلى غيرِي، اذهَبُوا إلى نُوحٍ. فَيأْتُونَ نُوحًا فيَقولونَ: يا نُوحُ، إنَّكَ أنتَ أوَّلُ الرُّسُلِ إلى أهلِ الأرضِ، وقد سَمّاكَ اللهُ عَبدًا شَكُورًا، اشفَع لَنا إلى رَبِّكَ، ألا تَرَى إلى ما نَحنُ فِيهِ؟ فيَقولُ: إنَّ رَبِّي عزَّ وجلَّ قد غَضِبَ اليومَ غَضَبًا لَم يَغضَب قَبلَهُ مِثلَهُ، ولَن يَغضَبَ بَعدَهُ مِثلَهُ، وإنَّه قد كانَت لي دَعوَةٌ دَعَوتُها علَى قَومِي، نَفسِي نَفسِي نَفسِي، اذهَبُوا إلى غيرِي، اذهَبُوا إلى إبراهِيمَ، فَيأْتُونَ إبراهِيمَ فيَقولونَ: يا إبراهِيمُ أنتَ نَبيُّ اللهِ وخَلِيلُهُ مِن أهلِ الأرضِ، اشفَع لَنا إلى رَبِّكَ ألا تَرَى إلى ما نَحنُ فِيهِ؟ فيَقولُ لهم: إنَّ رَبِّي قد غَضِبَ اليومَ غَضَبًا لَم يَغضَب قَبلَهُ مِثلَهُ، ولَن يَغضَبَ بَعدَهُ مِثلَهُ، وإنِّي قد كُنتُ كَذَبتُ ثَلاثَ كَذِباتٍ ـ فَذَكَرَهُنَّ أبو حَيّانَ في الحَديثِ ـ نَفسِي نَفسِي نَفسِي، اذهَبُوا إلى غيرِي» [١].

ومن حديث أُبَيٍّ بن كعب رضي الله عنه: «يا أُبَيُّ إنَّ ربي تبارك وتعالى أَرسَلَ إلَيَّ أَنِ اقرَأِ القرآنَ على حرفٍ، فرَدَدتُ إليه: أَن هَوِّن على أُمَّتِي، فأَرسَل إلَيَّ الثانيةَ أَنِ اقرأهُ على حَرفَينِ، فرَدَدتُ إليه أَن هَوِّن على أُمَّتي، فأَرسَلَ إلَيَّ الثالثةَ: أَنِ اقرأهُ على سَبعَةِ أَحرُفٍ، ولكَ بكلِّ رَدَّةٍ رَدَدتَها مسألةٌ تَسأَلُنِيها، فقلتُ: اللَّهمَّ اغفِر لأُمَّتِي، اللَّهمَّ اغفِر لأُمَّتِي، وأَخَّرتُ الثالثةَ ليوم يَرغَبُ إلَيَّ فيه الخَلقُ كُلُّهم، حتى إبراهيمُ عَليه السَّلام» [٢].

(١) صحيح البخاري، رقم (٤٧١٢)؛ صحيح مسلم، رقم (١٩٤).
(٢) صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير، الألباني، رقم (٧٨٤١).

٣ ـ حال والد إبراهيم عليه السلام:

عن النبي ﷺ قال: «**يَلقَى إبراهِيمُ أباهُ آزَرَ يَومَ القِيامَةِ، وعلَى وجهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وغَبَرَةٌ، فيَقولُ له إبراهِيمُ: ألَم أقُل لكَ لا تَعصِنِي، فيَقولُ أبُوهُ: فاليومَ لا أعصِيكَ، فيَقولُ إبراهِيمُ: يا رَبِّ إنَّكَ وعَدتَنِي أن لا تُخزِيَنِي يَومَ يُبعَثُونَ، فأيُّ خِزيٍ أخزَى مِن أبي الأبعَدِ؟ فيَقولُ اللهُ تَعالَى: إنِّي حَرَّمتُ الجَنَّةَ علَى الكافِرينَ، ثُمَّ يُقالُ: يا إبراهِيمُ، ما تَحتَ رِجلَيكَ؟ فيَنظُرُ، فإذا هو بذِيخٍ مُلتَطِخٍ، فيُؤخَذُ بقَوائِمِهِ فيُلقَى في النّارِ**»[١].

٤ ـ التفاف أولاد المشركين حول إبراهيم في رؤيا مناميّة لرسول الله ﷺ:

أخرج البخاري في حديث مطوّل في كتاب التعبير من صحيحه من حديث سمرة بن جندب أيضًا، وفيه: كان رسول الله ﷺ مما يكثر أن يقول لأصحابه: «**هل رأى أحد منكم من رؤيا؟**» قال: فيَقصُّ عليه مَن شاء الله أن يقصّ، وإنه قال ذات غداة: «**إنه أتاني الليلة آتيان، وإنهما ابتعثاني، وإنهما قالا لي انطلق، وإني انطلقت معهما**»، فذكر الحديث، وفيه: «**فانطلقنا، فأتينا على روضة معتمّة**[٢]**، فيها من كل لون الربيع**[٣]**، وإذا بين ظهرَي الروضة رجل طويل، لا أكاد أرى رأسه طولًا في السماء، وإذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم قط، قال: قلت لهما: ما هذا؟ ما هؤلاء؟ قال: قالا لي: انطلق انطلق**». فذكر الحديث وفيه: «**وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإنه إبراهيم عليه السلام، وأمّا الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة**»، قال: فقال بعض المسلمين: يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ فقال رسول الله ﷺ: «**وأولاد المشركين**»[٤].

---

(١) صحيح البخاري، رقم (٣٣٥٠).
(٢) هذا وصف لها بشدة الاخضرار.
(٣) من كل ألوان الأزهار.
(٤) صحيح البخاري، رقم (٧٠٤٧).

٥ ـ وفاة إبراهيم عليه السلام وقبره:

توفِّي إبراهيم عليه السلام في فلسطين في عمر يناهز (١٧٥) عامًا، حوالي (١٨٢١) ق.م وقيل غير ذلك، وتضاربت الروايات التاريخية، وقيل: دفنه ولداه إسماعيل وإسحاق عليهما السَّلام، حيث دُفنت زوجته سارة في قرية أربع في حبرون «أو جبرون»، وهي مدينة خليل الرحمن اليوم[١].

ويبدو أن الروايات التاريخية تأثرت بالإسرائيليات التي دخلت على المسلمين، ومن الشعبيات التي يتناقلها الناس جيلاً بعد جيل، ويُردِّدونها من غير وعي أو شعور، أنَّ الباني الحقيقي لهذا السور ـ المضروب على قبر إبراهيم ـ هو شخص يُقال له «هيرودوس» الأدومي، وقد كان ملكًا على فلسطين مؤيَّدًا من قبل الرومان[٢].

وتذكر المصادر أن أول من اتّخذ القبر مكانًا للعبادة هم الرومان، بعد أن اعتنقوا الديانة المسيحية، حيث سقفوا جزءًا كبيرًا من السور، وفتحوا من الجدار بابًا صغيرًا ضيّقًا، وصار مكانًا للعبادة، وحصنًا منيعًا عند الحرب[٣].

ثم تعاقب عليه اليونان والفرس وغيرهم، إلى أن فتح المسلمون فلسطين في السنة الخامسة عشرة للهجرة، ونظروا إليه باحترام، ولم يكن أحد منهم قد اتّخذه مسجدًا إلى حدود المائة الرابعة. يقول ابن تيمية في أوّل مَن اتّخذ قبر إبراهيم مسجدًا: وقد كانت البنية التي على قبر إبراهيم عليه السَّلام مسدودة لا يُدخَل إليها إلى حدود المائة الرابعة، فقيل: إنَّ بعض النِّسوّة المتصلات بالخلفاء رأت في ذلك منامًا، فنُقبت لذلك وقيل: إنَّ النصارى لما استولَوْا

---

(١) شرعة الله للأنبياء، محمد مصطفى الزحيلي، ص٤٢.

(٢) قبر الخليل عليه السلام وبيان ما فيه من «البدع»، عرض ونقد، حافظ محمد حيدر الجعبري، مجلة جامعة القدس المفتوحة للبحوث الإنسانية والاجتماعية، جامعة القدس المفتوحة، ع١٢، ٢٠٠٨م، ص٢٤٠.

(٣) المرجع نفسه، ص٢٤٠.

على هذه النواحي نقبوا ذلك، ثم تُرك ذلك مسجدًا بعد الفتوح المتأخرة[١].

وتعاقب المسلمون على هذا القبر في جميع العهود، ففي العهد الأموي بقي المقام على ما هو عليه، وفي العهد العباسي أُظهر قبر يوسف عليه السَّلام، وفي العهد الأيوبي أُحضر المنبر الموجود إلى اليوم من مدينة عسقلان، وفي العهد المملوكي أُضيف إليه الكثير من الزخارف.

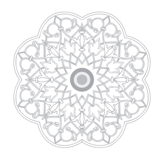
وفي العهد العثماني زُيّن بالرقوم الحجرية والكتابات والبيارق المختلفة، وخضع القبر للحكم الصليبي قبل الأيوبيين، وللحكم البريطاني قبل الأردنيين، وهو الآن تحت حكم اليهود، حيث جعلوا قسمًا منه كنيسًا، وهو الآن مسجد وكنيس، تؤدَّى فيه الصلوات لليهود والمسلمين تحت سقف واحد، وفوق المغارة التي دُفن فيها نبي الله إبراهيم ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ [البقرة: ١٤٨][٢].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: وأما قبور الأنبياء، فالذي اتّفق عليه العلماء هو قبر النبي ﷺ، فإن قبره منقول بالتواتر، وأما قبر الخليل فأكثر الناس على أن هذا المكان المعروف هو قبره وأنكر ذلك طائفة، وحُكي الإنكار عن مالك، وأنه قال: ليس في الدنيا قبر نبيٍّ يُعرف إلا قبرُ نبيِّنا محمد ﷺ[٣].

وسُئل عن قبور الأنبياء: هل هي هذه القبور التي تزورها الناس اليوم؟ فقال: القبر المتفق عليه هو قبر نبينا محمد ﷺ، وقبر الخليل عليه السَّلام فيه نزاع، لكن الصحيح الذي عليه الجمهور أنه قبره[٤].

* * *

(١) قبر الخليل عليه السلام وبيان ما فيه من «البدع»، حافظ محمد حيدر الجعبري، ص٢٤٠.
(٢) المرجع نفسه، ص٢٤١.
(٣) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (٢٧/ ٤٤٤ ـ ٤٤٥).
(٤) المرجع نفسه، (٢٧/ ٤٤٤ ـ ٤٤٥).



الخلاصة

في خلاصة حديثنا عن سيرة إبراهيم عليه السَّلام أبي الأنبياء والمرسلين يَحسنُ بنا التذكير بأنه إمام الحنفاء الَّذِي اتَّخذه الله سُبحانه وتَعالى خليلاً، وجعل النبوَّة والكتاب في ذُرِّيّته، وأحد الرسل الذين واجهوا المعاناة والعذاب والرفض من قومهم، وهو من أولي العزم من الرسل عليهم السلام، وهو خليل الله الصّدّيق الأواب الحليم المنيب الأواه والحنيف والمجتبى والصالح، وصاحب الصُحف. وهو أول نبي بَنى لله بيتًا؛ ليُعبد الله سبحانه فيه على الأرض، وهو أول من يُكسى يوم القيامة، وهو من أراه الله ملكوت السماوات والأرض.

إذن، فقد كان خليل الله إبراهيم عليه السلام عَلَماً من أعلام الدنيا؛ هو شخصية فذة وقامة سامقة، تجسدت في شخصيته صفات وفضائل عظيمة، وقد جعله الله مهيّأً وأهلاً لحمل رسالة التوحيد والإيمان، ووضع أساس مِلّة عظيمة واضحة المعالم تصلح لجميع الناس، وللأحوال كافة على مر الدهور، وكل هذا الجهد النبوي والصفات الجليلة لخليل الله ثابتة بأدلة قطعية الثبوت من كتاب الله وسنة نبيّه ﷺ.

ونخلص أيضًا للقول: بأن كل الطوائف الدينية، وأتباع الديانات السماوية، تنازعوا في الانتساب لإبراهيم الخليل عليه السلام، وذلك نظرًا لمنزلته ـ عليه السلام ـ في التاريخ والدين وحياة البشرية، فهو أمة، إذ جعله الله

للناس إمامًا، وجعل في ذُريّته النبوَّة والرسالة، حيث يدَّعي اليهود والنصارى والعرب (المشركون) الانتساب له عبادة وعقيدة ودمًا، مع أن هذه الطوائف بعيدة كل البعد عن دين إبراهيم عليه السلام والرسالة الإيمانية الراسخة. فإبراهيم وأبناؤه الأنبياء لم يكونوا يهودًا، ولم يكونوا نصارى، ولم يكونوا مشركين، وإنما كانوا مسلمين حنفاء، وكلٌّ منهم كان يُوصي أولاده، وهو على فراش الموت، بالإسلام.

وأخيرًا، يمكننا أن نلخص أهم ما ورد في هذا الكتاب من مواقف ووقفات، وحقائق علمية حول سيرة خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، ونهجه القويم في حمل رسالة الإسلام، التي استندت من بدايتها إلى نهايتها إلى كتاب العزيز الحكيم الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾، وقد اعتمدتُ على تفاسير متنوعة ومُتعدِّدة، كما استفدت مما قاله العلماء في القديم والحديث، ونهلت من مصادرهم وكتاباتهم الرصينة حول نبيّنا الكريم، وأبرز النتائج التي وصلتُ إليها في ذلك:

١ ـ إبراهيم عليه السَّلام هو الأب الثّالث، وأبو الأنبياء، فإن أبانا الأول آدم، والأب الثاني نوح، وأهل الأرض كلهم من ذُريّته، والأب الثالث هو إبراهيم إمام الحنفاء الَّذِي اتَّخذه الله سُبحانه وتَعالى خليلاً، وجعل النبوَّة والكتاب في ذُريّته.

٢ ـ سُمِّي إبراهيم عليه السَّلام بشيخ الأنبياء وأبي الأنبياء؛ لأنه كان رائد الدعوة النبوية في العالم الإنساني بأسره، ومنه تناسل الأنبياء وتتابعوا.

٣ ـ جميع أنبياء بني إسرائيل من نسل إبراهيم عليه السَّلام؛ لأنهم من أولاد يعقوب بن إسحاق، وإسحاق هو ابن إبراهيم.

٤ ـ تتفرع شجرة النبوَّة من إبراهيم عليه السَّلام، حتى خاتم الرسل محمدٍ

ﷺ؛ لأنه من ولد إسماعيل، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

٥ ـ اختلف المؤرخون وأهل السير من العلماء حول مكان ولادة إبراهيم عليه السَّلام فقيل وُلد بالسوس من أرض الأهواز، وقيل وُلد ببابل في العراق، وقيل في كوش أو كوشا، وقيل في حَرّان، وقال عامة أهل العلم: كان مولده في عهد نمروذ أو نمروذ بن كوش، وقيل إن مولده عليه السَّلام كان بغوطة دمشق في قرية برزة في جبل قاسيون، وقال ابن عساكر مُصحِّحًا ومُعلِّقًا: والصحيح أنه وُلد ببابل في مدينة أُور، وهذا هو الصحيح المشهور عند أهل السِّير والتاريخ والأخبار.

٦ ـ لم يَذكر القرآن الكريم مكانًا لمولد إبراهيم عليه السَّلام ولا تاريخ ولادته، ولا يُوجد نص شرعي يُحدِّد لنا على وجه الجزم والتعيين كلَّ هذا، لذا اختلف المؤرخون حول مكان مولده، واضطربت الروايات في تعيين توقيت الميلاد ومكانه على وجه التحديد.

٧ ـ كان إبراهيم عليه السَّلام الابن الوسط لأخوين له هما: هاران، وناحور. وهاران والد لوط عليه السَّلام، ومات هاران في حياة أبيه في أرض بابل، والصحيح أنه الابن الأكبر لأبيه.

٨ ـ إنّ قوم إبراهيم عليه السَّلام خرجوا من قلب الجزيرة العربية، التي نشأ فيها جماعة من جماعات الساميّة المختلفة، وأنه عليه السَّلام كان عربيًّا خالصًا من سلالة العرب العاربة، التي يرتفع نسبُها إلى سام بن نوح ـ عليهما السلام، وأنَّه أبو العرب العدنانيّة الذين هم أبناء ولده إسماعيل، وهو بهذا جدّ العرب قبل أن يكون جدّ الإسرائيليّين.

٩ ـ إنَّ منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط الممتدة إلى الجزيرة العربية،

تُعرف بأنها أرضُ الحضارات ومهدُ الديانات السماوية، فهي منبع الدورة الحضارية في الأرض، والشعوب التي أقامت الحضارات تنتمي لأبناء نوح عليه السَّلام.

١٠ ـ وُلدَ إبراهيم عليه السَّلام في بلاد الرافدين «العراق حاليًّا»، ونشأ في مجتمع تسود فيه عبادة الكواكب والأصنام، بل في مجتمع يسجد الناس فيه للملوك والحكام من دون الله عزّ وجل. كما نشأ في وسط أسرةٍ كافرة تنحت الأصنام للناس، وتتاجر بها، حسب الروايات.

١١ ـ إنَّ الله تعالى أكرم الخليل عليه السَّلام بأن عصمه من الشرك منذ صغره، وذلك بأن آتاه الله رشده وهَداهُ إلى الحق، قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَـٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١].

١٢ ـ أرى الله عزّ وجل خليله عليه السَّلام ملكوت السماوات والأرض، وما خلق فيهما من الشمس والقمر والنجوم والشجر والدواب، وغير ذلك من عظيم خلقه، وجلّى له بواطن الأمور وظهورها، وذلك ليكون عليه السَّلام ممَّن يعتقد بتوحيد الله، ويعلم حقيقة ما هداه الله إليه، وبَصَّره إياه، من معرفة وحدانيته، وما عليه قومه من الضَّلالة في عبادتهم للأصنام، واتخاذهم إياها آلهة من دون الله.

١٣ ـ كانت حياة إبراهيم عليه السَّلام تُجسِّد دعوته لتوحيد الله عزّ وجل وإفراده بالعبادة في مجتمع بلاد ما بين النهرين في بداية دعوته، ثم بلاد الشام ومصر والحجاز.

١٤ ـ كان قوم إبراهيم الخليل عليه السَّلام يعبدون النجوم والكواكب والأجرام السماوية، إذ كان لفرقة الصابئة اعتقاد خاصٌّ بتقديس الكواكب والنجوم، والتوجُّه لها بالعبادة، حيث كانوا يضعون الأصنام في المعابد كرموز

في الأرض لتلك الكواكب السماوية، ثم يقومون بتأدية الطقوس الدينية أمامها، مثل الأدعية والصلوات وتقديم القرابين والنذور وغيرها من الطقوس.

١٥ ـ من العبادات التي كانت سائدة في قوم إبراهيم عليه السَّلام عبادة الملوك وتقديسهم، حيث كانوا يعتقدون فيهم القدرة على الخلق والإماتة، وأن بيدهم النفع والضرَّ، والسعادة والشقاوة. أما عن سبب نشأة هذه العبادة فيهم، فهو نتيجة لاعتقادهم بأن الملوك الأوائل الذين حكموا بعد الطوفان قد هبطوا من السماء إلى الأرض. ومن الملوك الذين ادَّعَوْا الألوهية الملك الطاغية الذي جادل إبراهيم عليه السَّلام.

١٦ ـ من الطقوس الدينية الشائعة في عصر إبراهيم عليه السَّلام تقديم القرابين والنذور للأصنام؛ وذلك لأغراض مختلفة، مثل التكفير عن الذنوب والخطايا، واستعطاف الآلهة واسترضائها، وكانت القرابين التي يُقدِّمها الناس للآلهة، إما قرابين زراعية؛ مثل القمح والذرة والشعير والسمسم وغيرها، وإما قرابين حيوانية؛ مثل الضأن والماعز، حيث كانوا يضعونها على مذبح أمام تمثال الآلهة.

١٧ ـ كانت للمعابد مكانة مُهمّة عند سكان بلاد الرافدين، وذلك كغيرهم من الأقوام الكنعانية والمصرية، إذ يمثِّل المعبد مركز الحياة الدينية والمدنية؛ لأنَّ المعبد في نظر سكان بلاد النهرين وغيرهم من الشعوب القديمة يُعدُّ أقدس مكان؛ وذلك لاعتقادهم أنَّ المعبد مقرٌّ للإله، يعيش فيه ويسكن مع زوجته وأولاده وحاشيته وخدمه.

١٨ ـ تتميَّز الناحية الدينيّة في عصر إبراهيم عليه السَّلام بضخامة الانحراف في جوانبها، وهذا الانحراف أوجد خليطًا من العقائد والعبادات الباطلة في عصر واحد، مما يدلّ على ثقل الدعوة التي قام بها إبراهيم عليه السَّلام في مواجهة العقائد الوثنية والصابئة، أو الملوك الذين كانوا ينتحلون صفة الألوهية.

١٩ ـ اختلف العلماء اختلافًا كبيرًا حول الصّابئة، وتاريخهم، وطقوسهم، وعقيدتهم، واكتشفوا أنّهم فِرق مُتعدِّدة ومذاهب متشعبة، يُخالف بعضها بعضًا في الأصول والفروع، ولم تسلم من التغيّر والتبدّل على مرّ الزمان، وأشار القرآن الكريم إلى الصابئين في ثلاثة مواضع.

٢٠ ـ ربط أهل الأخبار بين الصابئة المذكورين في القرآن الكريم وبين صابئة حرّان وصابئة العراق، وجعلوهم طائفتين: صابئة حنفاء، وهم في نظرهم أصحاب إبراهيم عليه السَّلام ممَّن كان على دعوته، وصابئة مشركين، وهم من فسدوا من الصابئة، واعتقدوا بالكواكب.

٢١ ـ من المظاهر الاجتماعية التي كانت حاضرة في عصر إبراهيم عليه السَّلام إقامة الأعياد والاحتفالات الاجتماعية والدينية، ومن أهم تلك الأعياد أعياد الآلهة، حيث كان لكل إله من آلهتهم أعياده الدينية الخاصّة به، وكما كانوا يحتفلون عند كل سنة جديدة بعيد يعدُّ من أكبر أعيادهم، وذلك بدعوة من جميع الآلهة، على حد زعمهم، ويخرج إلى هذا العيد جميع أهل المدن من الرجال والنساء والأولاد، للمشاركة في الاحتفالات، يتقدَّمُهم الملك، حيث يقومون بأداء الطقوس الدينية من الأدعية والصلوات والابتهالات وتقديم القرابين، وغيرها من الطقوس أمام أكبر آلهتهم.

٢٢ ـ كان التعليم في أيام إبراهيم عليه السَّلام منتشرًا، في المدارس الخاصّة بالمعابد التي كانت تُعلِّم الناس العلوم المختلفة، كالقراءة والكتابة، حيث كانوا يكتبون بأقلام من القصب على ألواح من الطين الرطب، وكذلك اهتمَّ الناس في عصره بعلم الفلك، من خلال بناء الصروح العالية لمراقبة الأجرام السماوية، التي تُعينهم على التنبُّؤ بمستقبل الناس، والتكهُّن بمصائرهم.

٢٣ ـ من العلوم المنتشرة في عصر إبراهيم عليه السَّلام علم الحساب، فكان الناس يهتمون بهذا العلم اهتمامًا عظيمًا؛ من أجل معرفة حسابات دخل المعابد والقرابين، ولتيسير أعمالهم التجارية، إلى غير ذلك من الأمور الحسابية، وكانوا يحفظون الكتب في المعابد والقصور الملكية إلى جانب وثائقهم الرسمية.

٢٤ ـ في زمن إبراهيم عليه السَّلام كان الدين منفصلاً عن الأخلاق، وكانت القيم بعيدة عن الحياة والتطبيق، وكان إتيان الفواحش جهارًا نهارًا أمرًا لا يُستحى منه، بل ربط بعض أولئك الناس العهر بالدين، وجعلوه وسيلة يتقرّب بها المرء من ربِّ العالمين.

٢٥ ـ كانت مصر وبابل دولتين مزدهرتين في زمن إبراهيم عليه السَّلام، قامت فيهما أرقى حضارات العصور القديمة، وقد تأثرت أرض كنعان بنتائج الحروب والمنافسات بين الدولتين، وكانت السيطرة على أرض كنعان وسكانها للغالب منهما، وتدلُّ الآثار البابلية أنّهم كانوا يسيطرون على أرض كنعان في الألف الثالثة قبل الميلاد؛ لذا فقد تأثرت حضارة الكنعانيين بحضارة بابل.

٢٦ ـ كانت حياة إبراهيم عليه السَّلام خالصةً للدعوة إلى توحيد الله، وإفراده بالعبادة، ولزوم منهجه سبحانه وتعالى، مع تجرّد وإخلاص واستسلام وطمأنينة ويقين في تسديد الله له، ونصره، وإعزازه.

٢٧ ـ بدأ إبراهيم عليه السَّلام دعوته في العراق مع أبيه أولاً، ثم مع قومه، ثم مع الملك الكافر الظالم الذي أمر بإحراقه بالنار، وأنجاه الله منها، وبعد ذلك أمره الله بالخروج والهجرة من العراق، فغادرها إلى الأرض المباركة المقدّسة، وكان معه لوط عليه السَّلام.

٢٨ ـ أقام إبراهيم عليه السَّلام في الأرض المباركة فلسطين، وكان معه زوجه المؤمنة سارة رضي الله عنها، وارتحل مع سارة إلى مصر، وهناك جرت لهما قصة مع ملك مصر، فأهداهما «هاجر»، وقدَّمَت سارة هاجر إلى إبراهيم، وتسرّى بها، فأنجبت له أول أولاده إسماعيل عليه السَّلام، ثم أمره الله بأخذ هاجر وإسماعيل إلى بلاد الحجاز، فنفّذ أمر الله. ووهبه الله بعد ذلك إسحاق عليه السَّلام من زوجه سارة، بعد أن صار شيخًا، وكانت زوجه عاقرًا، وشبّ إسحاق في حياة إبراهيم، كما شبّ إسماعيل قبله.

٢٩ ـ هناك فرق بين النبي والرّسول كما تبيّن في تعريفهما الاصطلاحي، فالنبي جاء لتقرير شريعة مَن قبله، أما الرّسول فهو من اختص بشريعة جديدة، وكل رسولٍ نبيّ، وليس كل نبيّ رسولاً.

٣٠ ـ إن عدد الرّسل والأنبياء لا يعلمه إلا الله لقول الله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

٣١ ـ تشملُ تعاليم رسالة إبراهيم عليه السَّلام ما تلقّاه من ربّه عزّ وجلّ عن طريق الوحي، وقد ذكر الله إبراهيم عليه السَّلام في القرآن في جملة مَن يُوحى إليهم من النبيّين.

٣٢ ـ تلقّى الرسل كلهم الوحي من الله تعالى، وما جاؤوا بشيء من عندهم، أولئك الرّسل منهم مَن قصّ الله على رسوله ﷺ ومنهم مَن لم يقصص، فاقتضت عدالة الله ورحمته أن يبعث بهم إلى عباده يبشرونهم بما أعدّه الله للمؤمنين الطائعين من نعيم ورضوان، ويُنذرونهم بما أعدّه الله للكافرين العصاة من جحيم وعذاب.

٣٣ ـ احتشد كتاب الكون المفتوح، وكتاب النفس المكنون، بالآيات والشواهد على الخالق ووحدانيّته وتدبيره وتقديره وقدرته وعلمه، ومع امتلاء الفطرة بالأشواق والهواتف إلى الاتصال بباريها، والإذعان له، والتناسق

والتجاوب والتجاذب بينها، وبين دلائل وجود الخالق في الكون والنفس، ومع هبة العقل الذي يملك أن يُحصي الشواهد ويستنبط النتائج. ولم يشأ العدل الإلهي أن يترك الإنسان موكولاً إلى عقله وبصيرته، بل أرسل الرسل ليأخذوا بيده إلى الحقائق اليقينية وطريق الإيمان الذي ارتضاه الله لعباده.

٣٤ ـ إنَّ تاريخ البشرية لم يُسجِّل أنَّ عقلاً واحدًا من العقول الكبيرة النادرة اهتدى إلى مثل ما اهتدت إليه العقول العادية والمتوسطة بالرسالات: لا في تصور اعتقادي، ولا في خُلُق نفسي، ولا في نظام حياة، ولا في تشريع واحد لهذا النظام.

٣٥ ـ إنَّ إبراهيم عليه السَّلام من أولي العزم من الرسل، الذين أقاموا الدين الذي أمر الله به الأنبياء والمرسلين، والذي ورثته كاملاً صافيًا أمّةُ محمد ﷺ.

٣٦ ـ إنَّ ما شرعه الله تعالى لأولي العزم من الرسل صادر عن كمال العلم والحكمة، كما أن بيان نسبته إلى المذكورين عليهم السلام تنبيه على كونه دينًا قيمًا أجمع عليه الرسل جميعًا.

٣٧ ـ أخبر الله سبحانه وتعالى أنه أخذ على النبيين جميعهم الميثاق، وخصّ بالذكر أولي العزم من الرسل، وقد أخذ الله ميثاق النبيين نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم عليهم الصلاة والسلام أجمعين في حمل أمانة هذا المنهج، والاستقامة عليه، وتبليغه للناس، والقيام عليه في الأمم التي أُرسلوا إليها، وذلك حتى يكون الناس مسؤولين عن هداهم وضلالهم، وإيمانهم وكفرهم، بعد انقطاع الحجّة بتبليغ الرسل عليهم صلوات لله وسلامه.

٣٨ ـ إنَّ النبوَّة اتصال بين الخالق والمخلوق في تبليغ شرعه، وسفارة بين الملك المالك الواحد الأحد وعبيده، ودعوة من الرحمن الرحيم ـ تبارك وتعالى ـ لخلقه؛ ليُخرجهم من الظلمات إلى النور، وينقلهم من ضيق الدنيا

إلى سعة الدنيا والآخرة، فهي نعمة مهداة من الله تبارك وتعالى إلى عبيده، وفضل إلهي يتفضّل به عليهم، وهذا في حقّ المرسَل إليهم.

٣٩ ـ إنَّ النبوَّة لا تأتي باختيار النبيّ، ولا تُنال بطلبه، ولذلك لما قال المشركون: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، أجابهم الربّ تبارك وتعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢].

٤٠ ـ إنَّ الإيمان بالنبوَّة هو الطريق المؤدي إلى معرفة الله عزَّ وجل ومحبَّته، والمسلك المُفضي إلى رضوان الله وجنته، والسبيل المؤدّي إلى النجاة من عذاب الله، والفوز بمغفرته.

٤١ ـ إنَّ حاجة العباد إلى الإقرار بالنبوَّة أشدّ من حاجتهم إلى الهواء الذي يتنسّمونه، وإلى الطعام الذي يأكلونه، وإلى الشراب الذي يشربونه، لأن مَن فقد بعضًا من هذه الأمور خسر الدّنيا، أما من عُدم الإقرار بالنبوَّة فخسارته أشدّ وأنكى، إذ خسر الدنيا والآخرة، عياذًا بالله تعالى.

٤٢ ـ إنَّ الأنبياء والرّسل هم صفوة الخلق، والخلق بحاجة إليهم؛ ليبلّغوهم ما يُحبّه الله ويرضاه، وما يغضب منه ويأباه، وكثير من العُصاة والمنحرفين ضلّوا في متاهات الشقاوة، مع وجود الأنبياء عليهم السلام، فكيف تكون الحال لو لم يُرسل الله تعالى رسلاً مبشّرين ومنذرين؟!

٤٣ ـ إن من رحمة الله جلّ وعلا أن مَنَّ على عباده، فبعث فيهم رسلاً مبشرين ومنذرين، يتلون عليهم آيات ربهم، ويعلمونهم ما يُصلحهم ويُرشدهم إلى مصدر سعادتهم في الدنيا والآخرة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين.

٤٤ ـ إنَّ الغاية العظمى التي أوجد الله الخلق لأجلها هي عبادته وتوحيده،

وفعل الخيرات واجتناب المعاصي، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، فلا يستطيع الإنسان أن يعرف العبادة من فعل ما يُحبّه الله ويرضاه وترك ما يكرهه ويأباه إلا عن طريق الرّسل الذين اصطفاهم الله من خلقه وفضّلهم على العالمين.

٤٥ ـ أرسل الله سبحانه وتعالى الرّسل ليقطع دابر الكافرين، فلا يعتذروا عن كفرهم بعدم مجيء النذير، وليعلم الله تعالى علم ظهور، وإلا فهو تعالى يعلم ـ بالعلم الأزلي ـ من يُطيعه ومَن يَعصيه، وليُقيم على عباده الحجّة الدامغة؛ فيحيا من حيَّ عن بينة، ويهلك من هلك عن بيان وبرهان.

٤٦ ـ كمّل الله الأنبياء بالأخلاق الفاضلة، وعصمهم من الشبهات والشهوات النازلة، فهم نبراس الهدى، ومصابيح الدّجى، يقتدي بهم الخلق، ويتخذون من سيرتهم وحياتهم قدوة يسيرون على منوالها، حتى يصلوا إلى دار السلام، ويَحطُّوا رحالهم في ساحة ربّ الأنام، وهم قدوة الأتباع، والأسوة الحسنة لمن أطاع في العبادات والأخلاق والمعاملات، والاستقامة على دين الله.

٤٧ ـ جاء الرّسل عليهم السلام لإصلاح النفوس وتزكيتها وتطهيرها وتحذيرها من المعصية، فهم بُعثوا لدلالة الخلق على الطريق المستقيم، وإرشادهم إلى المنهج القويم، وتوجيههم نحو الأخلاق الحميدة، وتنفيرهم من المساوئ الذَّميمة، فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

٤٨ ـ إنّ حاجة الناس إلى الرّسل لا تُماثلها حاجة، واضطرارهم إلى بعثتهم لا تفوقها ضرورة، فهم في أشد حاجة، وأعظم ضرورة.

٤٩ ـ يكون الإصلاح بالقدوة الطيبة، والأسوة الحسنة في الأقوال

والأعمال، قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

٥٠ ـ إنَّ دراسة حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تُعرّف البشر على سنن الله عزّ وجل في التغيير، وسنته سبحانه في الدفع والمدافعة، كما أنّها تكشف للدعاة إلى الله عزّ وجل، ذلك الصراع الطويل المرير بين الحق والباطل، وأن الدولة والعاقبة في نهاية الأمر للحق وأهله.

٥١ ـ إنَّ الأنبياءَ عليهم الصلاة والسلام صفوة البشر وسادتهم، وهم من بني آدم، لهم خصائص البشر وصفاتهم لا يخرجون عن صفتهم البشرية، ولكنَّ الله عزّ وجل اصطفاهم، وأنعم عليهم باختيارهم رسلاً إلى الناس، وخصّهم كذلك ببعض الخصائص والصفات التي لا يشترك معهم فيها بقية البشر.

٥٢ ـ انفرد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن البشر بالعصمة، وهي من لوازم الوحي والرسالة التي أكرم الله سبحانه بها من أنبيائه، فجعلهم معصومين فيما يُبلِّغونه للناس من العقائد والأحكام، ولو وقع أحدهم في خطأ قولي أو عملي، فمن لوازم العصمة أن الله عزّ وجل لا يُقرُّه على هذا الخطأ في وقته، ويفيء النبي في ذلك بأسرع وقت؛ ويكون حاله بعد التوبة أكمل من حاله قبل وقوعه في الخطأ.

٥٣ ـ وجوب التأدُّب مع أنبياء الله عزّ وجل ومعرفة حقِّهم، وبالأخص مع مَن بدر منه بعض الأخطاء التي لم يقرّهم الله عزّ وجل عليها، بل وفقهم لتركها، والتوبة منها.

٥٤ ـ الحذر من الروايات الإسرائيلية التي يرويها كثير من المفسرين في قصص الأنبياء، وما في بعضها من إساءة الظن والأدب بأنبياء الله ورسله، ومنافاتها لعصمتهم، مع أنه لا أصل لها، فهي مردودة سندًا ومتنًا.

٥٥ ـ أكرم الله عزّ وجل أنبياءه ورسله عليهم الصلاة والسلام، فمهما طال الزّمان وتقادم العهد تبقى أجسادهم محفوظة من البلى، وهذا قد ثبت عنه ﷺ في قوله: «**إنَّ الله حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء**».

٥٦ ـ الحكمة في أنهم عليهم الصلاة والسلام لا يورّثون، أنهم لو ورّثوا لظُنّ أن لهم رغبة في الدنيا لوارثهم، فيهلك الظانّ، أو لئلا يتمنَّى ورثتهم موتهم فيهلكون، أو لأن النبي ﷺ كالأب لأمته، فيكون ميراثه للجميع، وهو معنى الصدقة العامة.

٥٧ ـ أكرم الله عزّ وجل أنبياءه ورسله، وخصّهم بمزيد عناية وتوفِّيق وأخلاق عالية لم تكتمل لغيرهم من البشر، وذلك لتهيئتهم لقيادة الأمم وسياسة الشعوب، فخصّهم الله بأخلاق سامية، وآداب عالية، وحكمة بالغة، وعزائم وعقيدة صحيحة.

٥٨ ـ لا يتمُّ الإيمان بأنبياء الله عزَّ وجل حتى يؤمن العبد بجميعهم من غير حصر، مَن قصَّهم الله علينا ومَن لم يقصُصهم، فقد أخبرنا الله جلّ وعلا أن هناك أنبياء لم يقصُصهم علينا ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

٥٩ ـ إنَّ الإسلام هو دين الأنبياء جميعًا، فمنذ أن أُهبط آدم عليه الصلاة والسلام ودينه الإسلام، ودعوته إلى الإسلام، الذي هو الاستسلام لله عزّ وجل، وتوحيده، وعبادته وحده لا شريك له.

٦٠ ـ الإسلام يتضمَّن الاستسلام لله وحده، فمن استسلم له ولغيره كان

مشركًا، ومن لم يستسلم له كان مستكبرًا عن عبادته، والمشرك به والمستكبر عن عبادته كلاهما كافر، والاستسلام له وحده يتضمَّن عبادته وحده وطاعته وحده، فهذا دين الإسلام الذي لا يقبل الله غيره.

٦١ ـ أول عقيدة عُرفت في الأرض هي الإسلام القائم على توحيد الدينونة، والربوبية، والقوامة، والإقرار بها لله وحده.

٦٢ ـ إنَّ توحيدَ الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الحاكمية، وتوحيد مصدر الشريعة، وتوحيد منهج الحياة، وتوحيد الجهة التي يدين لها الناس الدينونة الشاملة: هو التوحيد الذي يستحقّ أن يُرسَل من أجله كلُّ هؤلاء الرسل، وأن تُبذَل في سبيله كل هذه الجهود، وأن تُحتمل لتحقيقه كل هذه العذابات والآلام على مرِّ الأزمان.

٦٣ ـ جعل الله عزّ وجل لكل رسول شريعة خاصّة به لقومه، شاملة وكاملة في وقتها لأهلها، وقد تختلف هذه الشرائع من نبيّ لآخر، وقد يتفق بعضها، حتى ختم الله سبحانه جميع الشرائع بما أنزل على محمد ﷺ من الشريعة الكاملة الشاملة التي كتب الله عزّ وجل لها الخلود والقيام بمصالح العباد في كل زمان ومكان.

٦٤ ـ إنّ قصةَ إبراهيم عليه السَّلام هي أطول قصة قرآنية بعد قصة سيدنا موسى عليه السَّلام ومساحتها تزيد عن الجزء، وإن آياتها نزلت مبكرة في المرحلة المكيّة، واستمر نزولها حتى أواخر المرحلة المدنيّة.

٦٥ ـ كشفت قصة إبراهيم عليه السَّلام عن ملامح الشخصية السويّة القدوة التي تَصلح أن تكون المثل الأعلى في الالتزام بالإسلام، قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧].

٦٦ ـ عمّقت القصة الصّلة بين إبراهيم عليه السَّلام أبي الأنبياء، وبين المسلمين أتباع خاتم الأنبياء سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، فذِكر إبراهيم في القرآن الكريم تكرَّر تسعًا وستين مرة في خمس وعشرين سورة مكيّة ومدنيّة، ومشاهد قصته موزعة في ثنايا القرآن الكريم على مدى سبعة عشر جزءًا.

٦٧ ـ كشفت لنا قصة الخليل إبراهيم عليه السَّلام عن بعض صفات الملائكة ووظائفهم، وهذا جزء من عقيدتنا الإسلامية «الإيمان بالملائكة».

٦٨ ـ استطاعت قصة إبراهيم عليه السَّلام أن تُزوِّدنا بتجارب قيّمة لإبراهيم في مجال الحوار، والدعوة إلى الله، والالتزام بأوامره، فهو القدوة منذ صغره وحتى الكبر، وأيضًا زوَّدتنا بتجارب قيمة لآخرين تربَّوا على يد إبراهيم عليه السَّلام كزوجه وأبنائه.

٦٩ ـ تناثُر مشاهد قصة إبراهيم في ثنايا القرآن الكريم، يُشير إلى أن إبراهيم عليه السَّلام رمزٌ من رموز دعوة التوحيد وإفراد الله بالعبادة، ومعلَمٌ من معالم الطريق الحقّ، فينبغي أن يبقى هذا الرمز الداعي إلى التوحيد، وإلى عبادة الله، ومحاربة الشرك والكفر حاضرًا في الذهن، لا ينساه المسلم أبدًا.

٧٠ ـ يتميَّز إبراهيم عليه السَّلام بمكانة كبيرة عند أهل الكتاب، سواء كانوا نصارى أو يهودًا، والذين كان لهم وجود وتأثير في الجزيرة العربية بأشكال مُتعدِّدة ومختلفة، سواء عبر وجودهم وإمكاناتهم المادية التجارية المختلفة كاليهود، أو عبر وجود كيانات ودول كبرى تدين بالنصرانية، وتجاور الجزيرة «الروم ـ الحبشة».

٧١ ـ ينسب العرب أنفسهم إلى إبراهيم عليه السَّلام عبر ابنه إسماعيل عليه السَّلام الذي شارك أباه في بناء الكعبة، مَحجّ العرب عبر التاريخ، والنسب عند العرب بالغ الأهمية، حتى إنهم كانوا يَعدُّون مَن لا نسب له ليس عربيًّا.

٧٢ ـ إنَّ قصة إبراهيم عليه السَّلام في القرآن الكريم أصيلة، ولا وجود لها في التوراة أو في الكتابات الإنجيلية، من حيث الدقة والصواب والحقيقة الكاملة البعيدة عن التحريف والتزييف، يُضاف إلى ذلك أنها ازدادت صفاءً ورسوخًا وعمقًا ضمن نسيج الخطاب القرآني المُتميِّز، فهو كتاب الله العزيز ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ .

٧٣ ـ لم تذكر سورة آل عمران مشاهد أو محطات من قصة إبراهيم عليه السَّلام، وإنما تحدثت عن حقيقة الانتساب إليه، وحقيقة الدين الذي كان عليه.

٧٤ ـ عرضت الآيات في سورة الأنعام جانبًا من الحوار بين إبراهيم عليه السَّلام وبين أبيه، وهو يُنكر على أبيه عبادة غير الله، ثم تحدثت عن مشهد الحِجاج والجدال بين إبراهيم وبين قومه، عندما أبطل لهم ـ بالمنطق الجدلي البرهاني ـ كون الكواكب آلهة، وأعلن لهم إيمانه بالله وبراءته من الشرك، ثم أشارت الآيات إلى الأنبياء من ذُريّته.

٧٥ ـ تحدّثت سورة هود عن قصة إبراهيم عليه السَّلام في آياتها (٦٩ ـ ٧٦)، وأشارت الآيات إلى قدوم الملائكة إلى إبراهيم عليه السَّلام في صورة بشر، وهو لا يعرفهم، وعدم أكلهم من عِجْله؛ الذي قدّمه لهم مشويًّا؛ لأنهم ملائكة، وبشارتهم لإبراهيم وزوجه سارة بإسحاق، وردِّهم على تعجُّب سارة واستغرابها، ثم إخبارهم إبراهيم بمهمتهم في تدمير قوم لوط الشاذّين.

٧٦ ـ تحدّثت سورة إبراهيم ـ التي تحمل اسمه عليه الصلاة والسلام ـ عن مشهد من قصته، وذلك في آياتها (٣٥ ـ ٤١)، وبيَّنت الآيات كيف ترك إبراهيم عليه السَّلام ابنه وزوجه في وادٍ غير ذي زرع في الحجاز، ثم دعا ربّه أن يجمع الناس حولهما، وأن يرزقهما من الطيبات، وأن يحفظه هو وبنيه من عبادة الأصنام.

٧٧ ـ تحدثت سورة الحجر عن قصة إبراهيم عليه السَّلام، وذلك في آياتها (٥١ ـ ٦٠)، وأشارت الآيات إلى قدوم الملائكة إليه في صورة بشر، وما بشَّروه به من الولد، وما أخبروه به من توجُّههم إلى تدمير قوم لوط.

٧٨ ـ تحدثت سورة مريم عن قصة إبراهيم عليه السَّلام، وذلك في آياتها (٤١ ـ ٥٠)، وأشارت الآيات إلى دعوته لأبيه، كي يتخلَّى عن الكفر بالله، ويدخل في دين الله، وتحدَّثت أيضًا عن رفض أبيه لهذه الدعوة، واعتزال إبراهيم عليه السَّلام لقومه، وهبة الله له إسحاق ثم يعقوب عليهما السلام.

٧٩ ـ إنَّ أول سورة سردت لنا حديثًا مُفصَّلاً عن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ هي سورة مريم، التي نزلت مبكرة بعض الشيء، ويدلّ على هذا أن جعفر بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قرأها على النجاشي، ومَن عنده من رجال الدين النصارى.

٨٠ ـ تحدثت سورة الأنبياء عن قصة إبراهيم عليه السَّلام وذلك في آياتها (٥١ ـ ٧٣)، وأشارت إلى إنكار إبراهيم عليه السَّلام على أبيه وقومه عبادة غير الله، ودعوتهم إلى الإيمان بالله، وتحطيمه أصنامهم، ومحاكمته على أعين الناس، ونجاح إبراهيم في إفحامهم، وإقامة الحجّة عليهم أثناء المحاكمة، ولجوئهم إلى إلقائه بالنار بعد هزيمتهم أمام حجّته، وإنجاء الله له من النار.

٨١ ـ تحدثت سورة الحج عن قصة إبراهيم عليه السَّلام في الآيات (٢٦ ـ ٢٩)، حيث عرضت هذه الآيات لقطة من قصته، تناسب موضوع السورة، وهو الحجّ والمناسك والهدي والبيت الحرام والنحر.

٨٢ ـ تحدثت سورة الشعراء عن قصة إبراهيم عليه السَّلام وذلك في آياتها (٦٩ ـ ٨٩)، وأشارت الآيات إلى رفض إبراهيم لكفر أبيه وقومه، ودعوته لهم إلى التخلّي عن الكفر والدخول في دين الله، وبراءته مما يعبدون من دون الله،

وتوجُّهه إلى الله، ونظرِه لليوم الآخر ودعائِهِ؛ ليكون من الناجين الفائزين في ذلك اليوم.

٨٣ ـ تحدثت سورة العنكبوت عن قصة إبراهيم عليه السَّلام وذلك في آياتها (١٦ ـ ٢٧)، وأشارت الآيات إلى دعوة إبراهيم قومه لعبادة الله وحده، وإنكاره عبادتهم لغير الله، وتعريفهم على بعض صفات الله وأفعاله، وبيّنت ردّ قومه على دعوته بتهديدهم بقتله أو حرقه، ونجاته من كيدهم، ثم هجرته مع نوح إلى فلسطين، وهبة الله إسحاق ويعقوب له.

٨٤ ـ تحدثت سورة الصافات عن قصة إبراهيم عليه السَّلام وذلك في آياتها (٨٣ ـ ١١٣)، وأشارت الآيات إلى تمتُّع إبراهيم بقلب سليم، وإلى إنكاره على قومه عبادة الأصنام، وتحطيمه لأصنامهم، ومحاولتهم إحراقه، وإنجاء الله له من النار، وولادة إسماعيل له، ورؤياه بذبح ابنه، واستسلامه مع ابنه لله، وتبشيره بابنه الأخير إسحاق نبيًّا، ومباركة الله للمحسنين الصالحين من أبناء إسحاق دون الظالمين منهم.

٨٥ ـ تحدثت سورة الذاريات عن قصة إبراهيم عليه السَّلام وذلك في آياتها (٢٤ ـ ٣٤)، وأشارت الآيات إلى قدوم الملائكة ضيوفًا عليه، وبشارته وزوجه بولادة إسحاق لهما، وردّ الملائكة على استغراب زوجه وتعجّبها، وإخبارهم لإبراهيم عن توجُّههم لتدمير قوم لوط.

٨٦ ـ تحدثت سورة الممتحنة عن قصة إبراهيم عليه السَّلام في آياتها (٤ ـ ٦)، وتحدثت الآيات عن موقف إيماني عظيم لإبراهيم وأتباعه المؤمنين، ألا وهو براءتهم من قومهم الكفار، وإعلان العداوة والبغضاء لهم، حتى يؤمنوا بالله وحده، ودعت المؤمنين إلى الاقتداء بإبراهيم واتِّباعه في هذا الموقف، وبيّنت حقيقة موقف إبراهيم عليه السَّلام من أبيه.

٨٧ ـ احتفى القرآن الكريم بإبراهيم عليه السَّلام في طفولته وشبابه ورجولته، كذلك يستمر الاحتفاء به في مرحلة شيخوخته في موطنه الجديد، وما أسبغ الله تعالى عليه من المال والإنعام والمنزلة العالية عند الله تعالى، حيث تمر به ملائكة الربِّ سبحانه مبشرة مخبرة.

٨٨ ـ إنَّ قصة إبراهيم عليه السَّلام ذُكرت متعاقبة في القرآن الكريم في مواضع عدة؛ لتكون أحداثها ومشاهدها عبرة وعظة لكل مؤمن بدءًا من سورة البقرة، ومن ثم آل عمران، والأنعام، وهود، وإبراهيم، والحجر، ومريم، والأنبياء، والحج، والشعراء، والعنكبوت، والصافات، والذاريات، وفي سورة الممتحنة وغيرها.

٨٩ ـ حازت شخصية إبراهيم الخليل عليه السَّلام مكانًا بارزًا في الخطاب القرآني؛ فهي شخصية مركزية بين جميع الرسل الذين ذُكروا في القرآن الكريم، ولعلَّ هذا الاهتمام بشخصيته يرجع إلى مكانتها لدى مختلف الطوائف والنّحَل، فالمشركون وأهل الكتاب من اليهود والنصارى يعترفون بفضله ويتشرّفون بالانتساب إليه.

٩٠ ـ إنَّ الشرك بالله تعالى هو من نقائض الإيمان به، وهو من القصور في فهم مدلول الألوهية، خاصّة أنّ المتأمل في الكون يرى فيه وحدة البناء التي تشهد لخالقه بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه.

٩١ ـ ضرورة النظر في الكون للتعرف على شيء من بديع صنع الله فيه؛ تأكيدًا على الإيمان بالخالق العظيم عن طريق الإدراك الحسيّ والوعي الملموس، وهذا الإيمان الحسّي هو دعم للإيمان الفطري الذي غرسه الله تعالى في جبلّة كل مخلوق.

٩٢ ـ العلم النظري درجة كمال، والحكمة العلمية والعملية درجتا كمال،

وفصل الخطاب وقوة العارضة في الحِجاج من درجات الكمال، والسيادة والحكم بالحق درجة كمال، والنبوَّة والرسالة أعلى من كل هذه الدرجات؛ لأنّها تشتمل عليها وتزيد عنها.

٩٣ ـ كان إبراهيم عليه السَّلام أول مهاجر في سبيل الله، ومعه لوط ابن أخيه وزوجه سارة، وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن الفرار بالدين واجب من دار الكفر إلى بلد يتمكَّن فيه الفارّ بدينه من إقامة دينه، وهذا النوع من الهجرة دواعيه باقية بلا خلاف بين العلماء في ذلك.

٩٤ ـ كانت الهجرة منطلقًا فعليًّا واقعيًّا وحقيقيًّا للنجاة والخلاص من كيد الظالمين، وتلك كانت أولى فتوحاتها وأولى رحماتها، ولذلك فإن حياة إبراهيم عليه السَّلام التي أراد قومه أن تؤول إلى الاضمحلال والفناء أصبحت حياة بناء وعطاء منذ لحظة الهجرة بالذات؛ لأنّها نجاة من القوم الظالمين، وتخليص للنفس من آفات معاشرة الكافرين، وسوف تكون كذلك نقطة التأسيس، وبداية مشروع البناء لكل الإنجازات الإبراهيمية الكبرى بعد ذلك.

٩٥ ـ من الفتوحات في هذه الهجرة توريث إبراهيم عليه السَّلام وآله من بعده الأرضَ التي بارك الله فيها للعالمين، كما أن إبراهيم عليه السَّلام بهجرته كان يتَّجه نحو القبلة الأولى التي رضيها الله سبحانه للأمة الإبراهيمية الأولى، أبناء إسرائيل يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم صلوات الله وسلامه.

٩٦ ـ إنَّ ظهور القبلة الأولى حدث كبير من أحداث الأرض في التاريخ، وهو ليس بالهين ولا البسيط إلا لأولئك الذين لا يرون شيئًا من التدبير الإلهي لتاريخ العالم ولمسيرة الإنسان بالذات فوق الأرض. وأما المؤمنون فيعلمون أن مثل هذا الحدث الجليل يُمثِّل إحدى علامات التاريخ الفارقة والفاصلة، ونقطة مُهمّة من نقاط فهم حقيقة مسيرة الإنسان وخفايا حراك الأمم فوق الأرض.

٩٧ ـ دعوات إبراهيم عليه السَّلام خالية من طلب أي عَرض من أعراض هذه الأرض، إنّه دعاء يتَّجه إلى آفاق أعلى، تُحرِّكه مشاعر أصفى، ودعاء القلب الذي عرف الله، فأصبح يحتقر ما عداه، والذي ذاق فهو يطلب المزيد، والذي يرجو ويخاف في حدود ما ذاق وما يريد.

٩٨ ـ يجب أن ندرك أمر التَّقوى، وعظيم شأنها، ورفيع منزلتها، وندرك أنّها السلاح الوحيد الذي يستطيع المؤمن به أن يُواجه العقبات، وينتصر على الأزمات، وهي ثمرة يانعة لا بُدّ لتحقيقها من خمسة أمور، وهي: الإيمان، والطاعة، وترك المعصية، والتوبة، والإخلاص.

٩٩ ـ بعد إقامة إبراهيم عليه السَّلام في الأرض المقدسة فلسطين المباركة، وبعد زمن لا يعلمه إلا الله دخل إبراهيم عليه السَّلام بتدبير منه عزّ وجل إلى أرض مصر، وبما أنه عليه السَّلام رسول يدعو إلى الله، فكل خطواته وحركاته هي في سبيل الدعوة وتبليغ الرسالة للناس.

١٠٠ ـ كان من نتيجة هذه الرحلة أن أُهديت هاجر إلى سارة زوج إبراهيم عليه السَّلام، ثم أصبحت فيما بعد زوجًا ثانية لإبراهيم، وأمًّا لابنه الكبير إسماعيل عليه السَّلام.

١٠١ ـ اسم زوج إبراهيم عليه السَّلام هو سارة كما ورد مصرَّحًا به في الحديث.

١٠٢ ـ كانت سارة رضي الله عنها من أحسن الناس وأجملهم.

١٠٣ ـ كان ذلك الملك الذي جاوره إبراهيم الخليل في مصر جبارًا من الجبابرة، وكان فاجرًا ملاحقًا للنساء، وكانت له حاشية أو عصابة، مهمتها البحث عن النساء الجميلات وإحضارهن إليه طوعًا وكرهًا؛ وتحويل مُهمّة الملك ليكون «صائد نساء» من سمات الأنظمة الجاهلية في كل زمان ومكان.

١٠٤ ـ لقد أمر إبراهيم سارة لتقول للملك أنّها أخته، ليأخذها الملك، وهناك يُقدِّم الله لذلك الملك آية ومعجزة، وليحقّ قدره سبحانه فيعصم سارة من فجوره، وتأخذ هاجر معها.

١٠٥ ـ قال إبراهيم عن سارة إنّها أخته، وكان صادقًا لأنه أراد الأُخوّة في الدين، فهو مسلم وهي مسلمة، والإسلام جمع بينهما في أُخوّة إيمانية وإن كانا زوجين، ولأن ظاهر كلامه يُفهَم منه الأخوة في النسب اعتبر كلامه كذبًا، لأنه شابه الكذب في الظاهر؛ لكنه صدق في الحقيقة.

١٠٦ ـ إنَّ إبراهيم عليه السَّلام نبيّ، وإن الله هو الذي يُوحي إليه ويُوجِّهه، فالله هو الذي أمره بإرسالها وتسليمها، وعليه أن يطمئن ولا يقلق، فستكون عند الملك في رعاية الله وحفظه، ولن ينال الملك منها شيئًا، وكان إبراهيم عليه السَّلام واثقًا بوعد الله، مُسلِّمًا أمره إليه.

١٠٧ ـ لقد عصم الله سارة من فجور الملك، وقدّم لها كرامة بارزة، وقدّم لذلك الفاجر الجبار آية على قوة الله وقدرته، وعلى عجز ذلك الجبار، فلما مدّ يده إليها أول مرة قبضها الله وعطّلها، فعجز الملك عن تحريكها أو التحكم فيها، فتعجَّب واستغرب لأنّها أول مرة يحصل معه ذلك، وطلب من سارة أن تدعو ربّها ليطلق يده ولن يؤذيها، ولمّا فعلت ذلك عاود الملك الكرّة مرة ثانية ثم مرة ثالثة، عند ذلك علم الملك أنه ممنوع من الوصول إليها، وأيقن بعجزه عن مسّها، وأن هناك قوة أخرى تحفظها وتعصمها وتحميها منه، وهذا هو المراد من الحادثة، وهذه هي الحكمة.

١٠٨ ـ أراد الملك إكرام هذه المرأة المحفوظة العفيفة، فقدَّم لها إحدى النساء؛ لتكون خادمة لها وجارية عندها وهي هاجر، وأعادها إلى إبراهيم عليه السَّلام مُعزَّزة مكرّمة عفيفة مَصونة.

١٠٩ ـ كان إبراهيم عليه السَّلام أثناء غياب امرأته عند الملك ملتجئًا إلى الله يُصلِّي له ويدعوه ويستنصره، ويطلب منه حفظ امرأته، وعادت إليه سارة وهو يصلي. وقد كان هدي محمد ﷺ إذا أحزنه أمر أو وقع في ضيق، يفزع إلى الصلاة.

١١٠ ـ كان من دعاء سارة عليها السلام وهي في طريقها إلى الجبار: اللَّهمَّ إن كنتَ تَعلمُ أنِّي آمنتُ بك وبرسولك، وأحصنتُ فَرجي إلاّ على زَوجي، فلا تُسلِّطْ عليَّ الكافرَ، فاستجاب الله لها.

١١١ ـ فرح إبراهيم عليه السَّلام بعودة سارة، وهو متلهّف متسرّع ليعرف ماذا جرى لها، ولهذا لم ينتظر حتى يفرغ من الصلاة، بل أومأ بيده أثناء الصلاة متسائلاً: مَهيا؟ ومعنى «مهيا»: ما الخبر؟ ولم يتكلَّم بلسانه لأنه كان في الصلاة، وإنما كانت إشارة يده تُوحي بهذا الاستفهام.

١١٢ ـ يتجلَّى من جواب سارة عليها السلام قوة إيمانها بالله، فقد أسندت الحفظ والرعاية إلى الله، وأعادت الفضل إلى مانحه سبحانه وتعالى، وذلك قولها: ردّ الله كيد الفاجر في نحره، وأخدمَ هاجر.

١١٣ ـ يجب الحذر وبيان بطلان ما تدعيه توراة اليهود أن سبب هجرة إبراهيم عليه السَّلام إلى مصر كان لأسباب معيشية، حيث إن أرض الشام في ذلك الوقت أصابها الجدب، والصحيح أن هجرته عليه السَّلام إلى مصر كانت لأسباب دينية كالدعوة إلى توحيد الله، وإفراده بالعبادة، كما أن الحالة الدينية في مصر في زمن هجرة الخليل عليه السَّلام كانت مهيأة لنشر دعوة إبراهيم عليه السَّلام بين الناس.

١١٤ ـ إنَّ ما ورد في أسفار اليهود حول قصة إبراهيم وسارة مع ملك مصر متناقضة مع ما ورد في الروايات الإسلامية حول تلك القصة، ويجب الحذر

مما ألصق اليهود في أسفارهم بإبراهيم عليه السَّلام من صفات قبيحة وأعمالٍ دنيئة يندى لها الجبين، ويَقشعرُّ منها البدن مثل الكذب.

١١٥ ـ كانت سارة وهاجر عليهما السلام متصافيتين، فقد أحبّت كل واحدة منهما الأخرى، وراحتا تجتهدان في عبادة الله تعالى، وحمدت هاجر الله كثيرًا أن أخرجها من الظلمات إلى النور، وجعلها من بيت مبارك قائم على الإيمان، وتوحيد الله عزّ وجل، وإفراده بالعبادة.

١١٦ ـ ينهض القرآن الكريم بمجموع آياته الواردة في هذه القصة وتسلسلها ودلالتها؛ ليكون حجّة كافية، واستدلالاً قويًا للقول بأنّ الذبيح هو إسماعيل، ويُؤيِّد ذلك الأحاديث النبوية وبعض أخبار أهل الكتاب، فهذا القدر من الأدلة يكفي للقول على سبيل القطع بأن الذبيح هو إسماعيل عليه السَّلام أو كما يقول عنه الحافظ ابن كثير هو القول الصحيح المقطوع به.

١١٧ ـ وردت كلمة إسماعيل في القرآن الكريم اثنتي عشرة مرة في ثماني سور، وهي: سورة البقرة، وآل عمران، والنساء، والأنعام، وإبراهيم، ومريم، والأنبياء، وص، ومعظم المرات التي ذُكر فيها كان يُذكر فيها اسمه فقط ضمن أسماء مجموعة من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

١١٨ ـ إسماعيل بن إبراهيم عليه السَّلام، وُلد في فلسطين حوالي عام (١٧٩٤) ق.م، في منطقة بئر السبع غالبًا، وكان عمر أبيه ستًّا وثمانين سنة، وكان قد مضى على وجوده في أرض فلسطين حوالي عشر سنوات، ولم ينجب أولادًا، فدعا ربّه أن يهبه الذُّرّية.

١١٩ ـ أنطق الله لسان إسماعيل عليه السَّلام حتى تكلّم بالعربية، وكان أول من نطق بها كذلك، ويُقال للذين تكلَّموا بلسان يعرب بن قحطان «العرب العاربة»، وهو اللسان القديم، والعرب المستعربة هم الذين تكلَّموا بلسان إسماعيل بن إبراهيم عليه السَّلام وهي لغة أهل الحجاز وما والاها.

١٢٠ ـ برع إبراهيم عليه السَّلام في حوار قومه ومناقشتهم أثناء دعوته لهم، حتى كان أسلوبه محطَّ اهتمام الدعاة والمصلحين والباحثين، وخاصّة أنَّ الله تعالى أرشدنا إلى اتّباع ملَّته وطريقته وهديه، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

١٢١ ـ كان إبراهيم عليه السَّلام وثيق الاتصال بالله عزّ وجل، عظيم الشعور بأن الله معه في كل شيء، في سرِّه وعلانيته وقوته وضعفه وحياته وموته، لاسيّما عندما يتحرك في الأعمال الدعوية التي تحتاج إلى بذل وجهد وتضحية واستشهاد.

١٢٢ ـ أعطى الله إبراهيم عليه السَّلام من العلم واليقين ما لم يُعطَ أحد من المرسلين، سوى محمد ﷺ، وهذه السمة تظهر في كل محاوراته تقريبًا، لكنها هنا برزت في دقّة اختياره الحجج، وانتقائه الأدلة القاطعة.

١٢٣ ـ انتدب الله إبراهيم الخليل عليه السَّلام لمقاومة الملك الظالم «نمرود» الذي طغى وادّعى الربوبية، فناظره وأفحمه، وألزمه الحجج، وأذهلته قدرة إبراهيم عليه السَّلام في المناظرة.

١٢٤ ـ تُمثل شخصية الملك الذي يُسمَّى في كتب التاريخ «النمرود بن كنعان» نموذجًا بارزًا في تاريخ الطغاة والملوك المتجبِّرين، حيث اتَّسع ملكه حتى شمل الشرق والغرب، وامتدَّ حكمه حتى تجاوز أربعمائة سنة كما يقول المؤرخون.

١٢٥ ـ لم يرد ذكر واقعة الحوار مع الملك في سيرة إبراهيم في العهد القديم، وإيرادها في القرآن الكريم يُعدُّ وجهًا من أوجه الإعجاز الإنبائي التاريخي؛ الذي يدحض دعوى المدّعين بأن القصص القرآني مُستمَدٌّ من بعض المصادر القديمة كالعهد القديم.

١٢٦ ـ إنَّ آية قصة إبراهيم عليه السَّلام والملك بلغت ذروة الإعجاز، على قصر إيجازها وشدته، ومع ذلك أصابت جوهر المعنى عبر كلام موجز، وإشارة دالة، يعجز عن الإتيان بمثله جميع البشر، فجمعت القصة بين فصاحة نظم ألفاظها، وحسن ترتيبها بين الآيات الكريمة، وتظهر بلاغة القرآن الكريم في عرض الأمور العجيبة معرض التقرير والاستفهام.

١٢٧ ـ يظهر من قصة إبراهيم عليه السَّلام ما يتّصف به من الهدوء والحلم، وهذا الظلّ الكريم هو الذي يُظلِّل كلَّ مشاهد قصته في القرآن، إنه حليم هادئ متسامح، لا يحتدّ ولا يغضب، ولا يسبّ ولا يشتم، هادئ حليم مع قومه، عندما أبطل كون الكواكب آلهة، كما بيَّنت آيات سورة الأنعام، وهادئ حليم في جداله مع الملك الكافر الظالم، كما ذكرت آية سورة البقرة، وهادئ حليم حتى عندما حطَّم الأصنام، فما حطَّمها عنفًا وتطرُّفًا ولكن حطمها من باب الحلم؛ لأنّه مشفق على قومه، حريص على إزالة الحواجز أمامهم، ليفتح لهم الطريق للإيمان، وهادئ حليم عندما ألقَوْه في النار، فلجأ إلى الله وأناب إليه، وهادئ حليم عندما أخذ ابنه وزوجه إلى بلاد الحجاز، ودعا الله دعاء خاشعًا منيبًا.

١٢٨ ـ كان الخليل عليه السلام نموذجًا ومثالاً للعلم والهدوء والإنابة والأناة والتسامح، وهو قدوة في هذا لمن بعده من الصالحين.

١٢٩ ـ إنَّ موطن العظمة في إبراهيم عليه السَّلام هو قلبه الكبير الذي عاش بالتوحيد وإفراد الله بالعبادة، ووَسِع قلبُه الناس، فهذه الآية ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ تُشير إلى أن إبراهيم «حليم» غير عجول في الانتقام من المسيء، وهو «أواه» كثير التأوُّه من الذنوب والتأسُّف على الناس، وهو «منيب» راجع إلى الله، وهي صفات مُنبئة عن الشفقة ورقّة القلب.

١٣٠ ـ نسب سارة عظيم وكبير، فهي ـ عليها السَّلام ـ زوجة خليل الرّحمن

إبراهيم عليه السَّلام فهي زوجة نبيٍّ ورسول، وأحد أُولي العزم من الرسل، وهو أبو الأنبياء، وأفضل الخلق على الإطلاق بعد نبينا محمد ﷺ، فهي: زوجة نبي ورسول «إبراهيم» عليه السلام، وأم نبي: أم إسحاق عليه السلام، وجدة نبي: جدة يعقوب عليه السلام، وأم جَدِّ نبي: يوسف عليه السلام، وجارة أم نبي: جارة هاجر أم إسماعيل عليهما السلام، إليها ينتهي نسب أنبياء بني إسرائيل من ناحية الأم: موسى وهارون، وداود وسليمان، وزكريا ويحيى، وعيسى وغيرهم عليهم السلام، وتذكر كتب التاريخ أنّها كانت فائقة الجمال، وكانت على نصف جمال حواء؛ الجمال الأصلي الحقيقي، لا جمال الغش والمكر وتغيير الخلقة الإلهية.

١٣١ ـ إنَّ مضمون الألوهية في مقام التوحيد قهر وقوة وغلبة، يقابلها من العباد طاعة وعبادة وخضوع، فتقديم الحكمة في هذا المقام ـ والله أعلم ـ لِيُعلم أن مسار ألوهيته ـ عزّ وجل ـ السارية على مَن في السماوات والأرض هو الحكمة، ولعلّه لما كان العلم الشامل هو رافد الحكمة، وعلى أساسه تُنزَّل الأشياء منازلها، وتُوضَع الأمور في مواضعها، أتبع اسم «الحكيم» باسم «العليم».

١٣٢ ـ من عظمة بيت الله الحرام أنه أول البيوت التي وضعها الله في الأرض لعبادته وإقامة ذكره، وأن فيه من البركات وأنواع الهدايات وتنوُّع المصالح والمنافع للعالَمين شيء كثير، وفضل غزير، وأن فيه آيات بينات تُذكِّر بمقامات إبراهيم الخليل وتنقُّلاته في الحج، ومن بعده تُذكِّر بمقامات سيد الرسل وإمامهم، وفيه من الأمن بحيث مَن دخله كان آمنًا.

١٣٣ ـ ما زالت الكعبة المشرَّفة معظّمة مكرّمة في نفوس المؤمنين فطرة وديانة، منذ بناها خليل الله إبراهيم عليه السَّلام؛ فطرةً بما أودعه الله تعالى في القلوب من حبِّ الكعبة وتعظيمها واشتياق الأرواح إليها، وديانةً لما أمر الله

تعالى به المؤمنين من تعظيمها وإجلالها، وبما ارتبط بها من شعائر تعبُّديّة من صلاة، يتَّجه فيها المسلمون بقلوبهم وأجسادهم نحوها.

١٣٤ ـ بُني الأقصى في القدس، قبل وجود بني إسرائيل وقبل دخولهم فلسطين بعد موسى عليه السلام، وقبل ملك داود وسليمان، وقبل بناء سليمان للهيكل كما يزعم اليهود، فكون القدس بلدًا إسلاميًّا هذا أمر قديم، منذ إبراهيم عليه السلام على الأقل، وبناء الأقصى مسجدًا لله تعالى قديم، قبل أن يُوجَد اليهود ويدّعوا أن لهم حقًّا في فلسطين بمئات السنين.

١٣٥ ـ أوّل ما خلق الله في الأرض: مكان الكعبة، ثم دحا الأرض من تحتها، فهي سُرّة الأرض، ووسط الدنيا، وأمُّ القرى، أوّلها الكعبة، ومكّة حول الكعبة، وحول مكة الحرم، وحول الحرم الدنيا.

١٣٦ ـ أثبتت الدراسات العلمية المعاصرة أن الكعبة والبلد الحرام يقعان في مركز اليابسة القديم «آسيا وأفريقيا وأوربا»، والجديد: الأمريكيتين وأستراليا والقارة الجنوبية المتجمدة، أي: أن اليابسة على سطح الكرة الأرضية موزّعة حول مكة المكرمة توزيعًا منتظمًا.

١٣٧ ـ إنَّ مِلّة إبراهيم عليه السَّلام هي التوحيد، والطهارة من الوثنية، وهي لبّ الدين الذي اصطفاه الله لنا، وهي الحق الذي لا ريب فيه، وهي مقياس الحق الذي يتميَّز به من الباطل، فمن آمن بها فقد اهتدى، ومن خالفها فقد ضلَّ وغوى.

١٣٨ ـ ذكر الله سبحانه وتعالى عظمة البيت الحرام وجلالته، وعظمة بانيه، وهو خليل الرحمن، فقد هيأه الله له، وأنزله إياه، وجعل قسمًا من ذُريّته من سكانه، وأمره الله ببنيانه، فبناه على تقوى الله، وأسَّسه على طاعة الله هو وابنه إسماعيل.

١٣٩ ـ إنَّ إبراهيم عليه السلام قام بواجبه في تعليم المؤمنين بالله مناسك الحج وفق ما أمره الله، وأوحى إليه من المناسك. وجدّد هذه الفريضةَ، بعدما اندثرت، وانحرفت مع مرور السنين ووسائل إبليس: نبيُّنا محمد ﷺ.

١٤٠ ـ الحج مؤتمر جامع للمسلمين قاطبة، مؤتمر يجدون فيه أصلهم العريق الضارب في أعماق الزمن منذ أبيهم إبراهيم الخليل ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨]، ويجدون محورهم الذي يشدُّهم جميعًا إليه، هذه القبلة التي يتوجَّهون إليها جميعًا، ويلتقون عليها جميعًا، ويجدون رايتهم التي يفيئون إليها، راية العقيدة الواحدة التي تتوارى في ظلِّها فوارق الأجناس والألوان والأوطان.

١٤١ ـ تنازعت الطوائف الدينية في إبراهيم عليه السلام، وكل واحدة ادّعت انتسابها إليه وسيرها على طريقته، وما ذلك إلا لمنزلة إبراهيم عليه السلام في التاريخ والدين والحياة، فهو أمة وحده، وجعله الله إمامًا، وجعل في ذُريّته النبوَّة والكتاب، وأشهر الطوائف التي ادَّعت انتسابها إليه ثلاث: اليهود، والنصارى، والعرب المشركون.

١٤٢ ـ ذكر المفسرون أن صحف إبراهيم هي صحائف أُنزلت عليه، وقال ابن عاشور بأنها الكلمات التي ابتلى الله بها إبراهيم المذكورة في قوله: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤]، ثم قال: وهي صحف سُجِّل فيها ما أوحى الله إليه، واختُلف في عددها، فقيل: هي عشر صحف، وقيل عشرون صحيفة، ويذكر ابن عاشور أنها عشر صحف، وتكون صحف إبراهيم عليه السلام أول ما نُزِّل من الكتب.

١٤٣ ـ إنّ خليل الله إبراهيم عليه السلام عَلمٌ من أعلام الدنيا، شخصية فذّة، وقامة سامقة، تجسدت في شخصه الكريم صفات عظيمة، وخصائص مُتميِّزة، وفضائل كريمة، جعله الله بها مُهيَّأً وأهلاً وناشطًا؛ ليضع أساس مِلّة

عظيمة، واضحة المعالم ومستقيمة وسمحاء، تصلح للناس جميعًا، وللأحوال كافة على مدى الدهور.

١٤٤ ـ دين إبراهيم عليه السَّلام هو الإسلام، وهذا من أعظم فضائله وصفاته، كونه في أعلى درجات الإسلام الممكنة، حيث استسلم لله وانقاد لأمره قولاً وفعلاً وعقيدة، وفوّض أمره إليه، وإبراهيم عليه السلام كان في قمة التسليم والاستسلام لأمر خالقه، وهذا واضح في سيرته أكمل وضوح.

١٤٥ ـ وصف الله تبارك وتعالى أخلاق خليله إبراهيم عليه السَّلام فقال: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾ [هود: ٧٥]، والحلم خصلة يُحبُّها الله تبارك وتعالى، وهو صفة من صفاته عزّ وجل، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لأشَجِّ عبد القيس: «**إنَّ فيكَ خَصلتَينِ يُحبّهما اللهُ: الحِلم، والأناة**».

١٤٦ ـ حاز إبراهيم عليه السَّلام صفة الصدّيق بأوسع معانيها، وأعلى مراتبها، فهو كثير الصدق، لم يقع في معصية الكذب قط، وقد صدق بقوله واعتقاده وفعله، فاستحقَّ أن يكون خليل الرحمن.

١٤٧ ـ كان إبراهيم عليه السَّلام كثير الدعاء، ودعاؤه يدلُّ على سموِّ نفسه، وحرصه على رضا خالقه وبارئه، والفوز بنعيمه ورضوانه، فهو يسأل ربّه الحكمة، والصلاح والفلاح والجنة والعزّة يوم القيامة.

١٤٨ ـ من صفات إبراهيم عليه السَّلام، التي أثنى الله عليها: سلامةُ القلب، قال الله تعالى عنه: ﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الصافات: ٨٤]، أي: أقبل على توحيده بقلب خالص من الشوائب، باقٍ على الفطرة، سليم عن النقائض والآفات.

١٤٩ ـ إبراهيم عليه السلام هو الذي بنى بيت الله، وأذَّن في الناس بحجّه،

وثوابه من الله عليه لا ينقطع ما دام البيت قائمًا يحج الناس إليه ويعتمرون، وقد أمر الله نبيّه وأمته أن يتَّخذوا من مقام إبراهيم مصلًّى تحقيقًا للاقتداء به، وإحياء آثاره.

١٥٠ ـ من أبرز صفات النُّبل والمروءة: إكرام الضيف، وقد حثَّ الإسلام على هذه الفضيلة، وقد اشتهر خليل الرحمن بالكرم حتى صار يكنى بأبي الضيفان.

١٥١ ـ امتنَّ الله سبحانه على رسوله إبراهيم عليه السلام، فجعله إمامًا للناس، به يقتدون ويهتدون، وذلك لبلوغه الذروة في الفضل والشرف، ولحيازته من مكارم الأخلاق وجميل الصفات ما يجعله أهلاً لذلك، قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤].

١٥٢ ـ إبراهيم هو أقرب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلى نبينا محمد ﷺ، ولا يخفى ما في هذا من فضل ومزية لكليهما، فهُما ـ على الرغم من البعد الزماني بينهما ـ قريبان في المحبة، وقريبان في منزلتهما عند الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [آل عمران: ٦٨].

١٥٣ ـ إن من أبرز أخلاق إبراهيم عليه السَّلام التي منحه إياها الله عزّ وجل: حِدّة العقل والفطانة، فقد استطاع بفطنته النيّرة، وذكائه المفرط أن يُفحم أعداءه، ويُقيم عليهم الحجّة والبرهان الدامغين على بطلان معبوداتهم، وضلال معتقداتهم، بحيث عجزوا عن مناظرته ومجادلته.

١٥٤ ـ ومن صفات إبراهيم عليه السلام: أنه يرى الأمور على حقيقتها بالعلم قبل فوات الأوان، يرى الشرّ من بُعدٍ، قبل أن يراه الناس.

١٥٥ ـ الدعوة إلى الله كانت منتهى طموحات إبراهيم عليه السلام، حيث

وقف حياته لها، فهي مهمته الرئيسة التي قام بها بإخلاص وعزم، واستخدم الأساليب المشروعة كافة لتبليغ رسالة الله إلى الناس، والتزم بمنهج الدعوة في شخصه، وعائلته، وأولاده.

١٥٦ ـ كان الصّبر من ملامح شخصية إبراهيم عليه السَّلام، بل من الصفات البارزة فيه؛ لأنه نفذ جميع الأوامر التي كلفه الله بها، واستحقَّ شهادة ربه ﴿وَإِبْرَاهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧].

١٥٧ ـ نجح إبراهيم عليه السَّلام في جميع الابتلاءات التي أصابته؛ ليرتقي بها إلى أعلى الدرجات عند الله تعالى، وعند الناس أجمعين.

١٥٨ ـ من ملامح شخصية إبراهيم عليه السَّلام: الشجاعة، التي كانت من ثمار إيمانه بالله وتوحيده وإفراده بالعبادة، ويقينه بأن النافع والضارّ هو الله وحده سبحانه وتعالى، والشجاعة والصبر قرينان لا ينفصلان.

١٥٩ ـ كان إبراهيم عليه السلام من أكثر الأنبياء والمرسلين تضحية في سبيل الله، بدليل أن الله قد جعله إمامًا للناس بعد أن قدّم من التضحيات ما قدّم، فما نال رتبة الإمامة للناس إلا بالجهد والعرق والتعب والمعاناة.

١٦٠ ـ أوّل من سنَّ الاختتان إبراهيم عليه السلام، ولا يخفى ما يتطلَّبه امتثال أمر ربه هذا من جرأة ورجولة، إذ ليس سهلاً على المرء، خاصّة وقد بلغ الثمانين، أن يقطع بيده جزءًا من جسمه، فينفصل منه، ويسيل دمه وهو ينظر، وقد تألَّم إبراهيم عليه السَّلام من ذلك دون شكّ، ولكنه صبر ابتغاء مرضاة الله عزّ وجل.

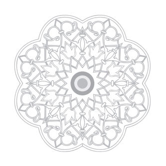
١٦١ ـ أوّل من يُكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام، وقد ورد في الحديث أنه يُكسى حُلة من الجنة، ويُؤتى بكرسي، فيُطرح عن يمين العرش، ويُؤتى بنبيِّنا محمد ﷺ، فيُكسى حلّة لا يقوم لها البشر.

١٦٢ ـ أَولى الناس بإبراهيم عليه السَّلام محمدٌ ﷺ والذين اتبعوه ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٨]. فهو ﷺ الذي أعاد لملة إبراهيم جِدّتها ونقاءها، وطهّرها من تحريف اليهودية، وانحرافها، ووثنية الجاهلية.

١٦٣ ـ توفِّي إبراهيم عليه السلام في فلسطين عن عمر يناهز (١٧٥) عامًا، حوالي (١٨٢١) ق.م وقيل غير ذلك، وتضاربت الروايات التاريخية، وقيل: دفنه ولداه إسماعيل وإسحاق عليهما السَّلام، حيث دُفنت زوجته سارة في قرية أربع في حبرون «أو جبرون»، وهي مدينة خليل الرحمن اليوم.

١٦٤ ـ تأثرت الروايات التاريخية بالإسرائيليات التي دخلت على المسلمين. ومن الحكايات الشعبية التي يتناقلها الناس جيلاً بعد جيل، ويُردِّدونها من غير وعي أو شعور: أن الباني الحقيقي لهذا السور ـ المضروب على قبر إبراهيم ـ هو شخص يُقال له «هيرودوس» الأدومي، وقد كان ملكًا على فلسطين مؤيَّدًا من قبل الرومان.

❊ ❊ ❊



المصادر والمراجع

١ ـ **القرآن الكريم**

٢ ـ **إبراهيم أبو الأنبياء**، عباس محمود العقاد، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، ط ١، ٢٠١٢م.

٣ ـ **إبراهيم أبو الأنبياء**، عبد الحميد جودة السحار، من سلسلة السيرة النبوية «محمد رسول الله والذين معه»، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٦٥م.

٤ ـ **إبراهيم عليه السلام في أسفار اليهود «عرض ونقد»**، فاطمة بنت خالد ردمان، رسالة ماجستير، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، السعودية، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م.

٥ ـ **إبراهيم عليه السلام من وحي القرآن**، عقيل حسين عقيل، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ٢٠١٠م.

٦ ـ **إبراهيم عليه السلام ودعوته في القرآن الكريم**، أحمد البراء الأميري، دار المنار، جدة، السعودية، ١٤٠٦هـ.

٧ ـ **إبراهيم عليه الصلاة والسلام في القرآن الكريم دراسة موضوعية**، محمد الأمين إسماعيل، رسالة ماجستير، كلية أصول الدين، جامعة أم درمان الإسلامية، السودان، ٢٠٠٠م.

٨ ـ **الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان**، بكر بن عبد الله أبو زيد، دار العاصمة للطباعة، الرياض، السعودية، ط١، ١٤١٧هـ.

٩ ـ **الإتيان والمجيء فقه دلالتهما، واستعمالهما في القرآن الكريم**، محمود موسى حمدان، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م.

١٠ ـ **الأحاديث الصحيحة من أخبار وقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام**، إبراهيم محمد العلي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.

١١ ـ **أحكام أهل الذِّمّة**، ابن قيّم الجوزية، تحقيق: يوسف بن أحمد البكري وشاكر بن توفِّيق العاروري، رمادي للنشر، الدمام، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

١٢ ـ **أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه**، الفاكهي، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، دار خضر للطباعة والنشر، بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

١٣ ـ **أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ**، جمال عبد الهادي ووفاء محمد رفعت، دار الوفاء للطباعة والنشر، مصر، ٢٠٠٥م.

١٤ ـ **الإخلاص في القرآن الكريم**، حمد الوهيبي، رسالة ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٤٣٣هـ.

١٥ ـ **الأداء الحركي للشخصية في قصص إبراهيم وذويه عليهم السلام في القرآن**، فاطمة مستور المسعودي، مجلة علوم اللغات وآدابها، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، السعودية، العدد (٧)، محرم ١٤٣٣هـ، يناير ٢٠١٢م.

١٦ ـ **أدب الكلام وأثره في بناء العلاقات الإنسانية في ضوء القرآن الكريم**، د.عودة عبد عودة عبد الله، دار النفائس للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط١، ٢٠٠٥م.

١٧ ـ **الأدب المفرد**، البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، ١٣٧٥هـ.

١٨ ـ **الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والرّسل**، محمد وصفي، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

١٩ ـ **إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري**، القسطلاني، تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

٢٠ ـ **أساليب المحاورة في القرآن الكريم**، طالب محمد إسماعيل، دار زهران للنشر، عمّان، ط١، ٢٠١٣م.

٢١ ـ **أسماء الله الحسنى**، ابن قيم الجوزية، المكتبة التوفيقية، د.ط، د.ت.

٢٢ ـ **الأسماء والصفات**، البيهقي، تحقيق: عبد الله بن محمد الحاشدي، مكتبة السوادي، جدة، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

٢٣ ـ **إشراقات قرآنية**، سلمان العودة، مؤسسة الإسلام اليوم للنشر، السعودية، ط١، ١٩٧٠م.

٢٤ ـ **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، محمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

٢٥ ـ **إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان**، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عزير شمس ومصطفى بن سعيد إيتيم، مجمع الفقه الإسلامي، جدة، السعودية، ط١، ١٤٣٢هـ.

٢٦ ـ **الأنبياء في القرآن**، سعد صادق محمد، دار اللواء للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

٢٧ ـ **أنوار التنزيل وأسرار التأويل** (تفسير البيضاوي)، عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.

٢٨ ـ **أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير**، أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية ط٥، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

٢٩ ـ **أيسر التفاسير**، أسعد محمود حومد، حقوق الطبع محفوظة للمؤلف، ط٤، ١٤١٩هـ ـ ٢٠٠٩م.

٣٠ ـ **الإيمان بالرسل والرسالات**، د. علي محمد محمد الصلابي، دار المعرفة للطباعة، بيروت، ط١، ٢٠١١م.

٣١ ـ **الإيمان باليوم الآخر**، د. علي محمّد محمّد الصلاّبيّ، دار المعرفة، بيروت، ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م.

٣٢ ـ **البحر المحيط في التفسير**، أبو حيّان الأندلسي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ.

٣٣ ـ **البداية والنهاية**، ابن كثير، مكتبة المعرفة، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٧٤م.

٣٤ ـ **بدائع التفسير**، ابن قيّم الجوزية، تحقيق: يسري السيد، صالح الشامي، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، د.ت.

٣٥ ـ **بدائع الفوائد**، ابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د.ت.

٣٦ ـ **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، الفيروز آبادي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٦م.

٣٧ ـ **البعد العقدي في قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام مع قومه من خلال القرآن الكريم**، فاطمة محمد أحمد علي، رسالة ماجستير، كلية أصول الدين، جامعة أم درمان الإسلامية، السودان، ٢٠١٣م.

٣٨ ـ **بلاغة الاحتجاج العقلي في القرآن الكريم**، زينب عبد اللطيف كامل الكردي، مكتبة الرشد ناشرون، الرياض، ط١، ١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م.

٣٩ ـ **بنو إسرائيل في ميزان القرآن**، البهي الخولي، دار القلم، دمشق، ط١، ٢٠٠٣م.

٤٠ ـ **البوصلة القرآنية**، أحمد خيري العمري، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق، ٢٠٠٥م.

٤١ ـ **بين إبراهيم ومحمد عليهما السلام**، عبد الوَهّاب بن ناصر الطريري، إستانبول، ٢٠٢٠م.

٤٢ ـ **تاج العروس في جواهر القاموس**، محمد مرتضى الزبيدي، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.

٤٣ ـ تاريخ أرض القرآن، سليمان الندويّ، دار القلم للطباعة والنشر، دمشق، ط١، ٢٠١٦م.

٤٤ ـ **تاريخ الطبري «تاريخ الرسل والملوك»**، الطبري، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م.

٤٥ ـ **تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية، العراق القديم**، د. صالح أحمد العلي، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ط١، ٢٠٠٠م.

٤٦ ـ **تأملات في سورة مريم**، عادل أحمد صابر الرويني، دار النوادر، دمشق، سورية، ٢٠١١م.

٤٧ ـ **تأويل مختلف الحديث**، ابن قتيبة الدِّينوري، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، ومؤسسة الإشراق، بيروت، ط٢، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.

٤٨ ـ **التحفة المهدية شرح العقيدة التدمرية**، المؤلف: فالح بن مهدي آل مهدي الدوسري، مطابع الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، السعودية، ط٣، ١٤١٣هـ.

٤٩ ـ **التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن**، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، مكتبة مشكاة الإسلامية، لبنان، ١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م.

٥٠ ـ **تفسير أبي السعود «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم»**، أبو السعود محمد العمادي الحنفي، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار المصحف ومكتبة ومطبعة عبد الرحمن محمد، القاهرة، ٢٠٠٨م.

٥١ ـ **تفسير البغوي «معالم التنزيل»**، البغوي، تح: محمد عبد الله النمر، دار طيبة، الرياض، ط٣، ١٤١٦هـ.

٥٢ ـ **تفسير التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»**، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

٥٣ ـ **التفسير التوحيدي «الجزء الأول من سورة الفاتحة إلى سورة التوبة»**، حسن الترابي، دار الساقي للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٤م.

٥٤ ـ **تفسير الخطيب الشربيني المسمى «السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير»**، الخطيب الشربيني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٤م.

٥٥ ـ **تفسير الزمخشري «الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل»**، الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ.

٥٦ ـ **تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران**، محمد صالح المنجد، دار العبيكان، الرياض، ط١، ٢٠١٦م.

٥٧ ـ **تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»**، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، دار ابن الجوزي، الدمام، المملكة العربية السعودية، ط٤، ١٤٣٥هـ.

٥٨ ـ **تفسير الشعراوي**، محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم، القاهرة، ٢٠١٣م.

٥٩ ـ **تفسير الطبري «جامع البيان في تأويل القرآن»**، الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

٦٠ ـ **تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)**، ابن كثير، تحقيق: يوسف علي بديوي، حسن سويدان، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط١، ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م.

٦١ ـ **تفسير القرآن الكريم**، محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٤هـ.

٦٢ ـ **التفسير القرآني للقرآن**، عبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي للنشر، مطبعة السنة المحمديّة، القاهـرة، ط١، ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م.

٦٣ ـ **تفسير القرطبي «الجامع لأحكام القرآن»**، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، مؤسسة الرسالة، بيروت. لبنان، ط١، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

٦٤ ـ **التفسير الكبير مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)**، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

٦٥ ـ **تفسير المراغي**، أحمد مصطفى المراغي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، مصر، ط١، ١٣٦٥هـ ـ ١٩٤٦م.

٦٦ ـ **تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم)**، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠م.

٦٧ ـ **التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم**، نخبة من كبار علماء القرآن وتفسيره بإشراف الأستاذ الدكتور مصطفى مسلم، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي، جامعة الشارقة، الإمارات العربية، ٢٠١٠م.

٦٨ ـ **تفسير النابلسي «تدبر آيات الله في النفس والكون والحياة»**، د. محمد راتب النابلسي، مؤسسة الفرسان، عمان، الأردن، ط١، ١٤٣٨هـ ـ ٢٠١٧م.

٦٩ ـ **تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن**، محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي، تحقيق: هاشم محمد علي بن حسين مهدي، دار طوق النجاة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م.

٧٠ ـ **تفسير سورة الحجر «دراسة تحليلية موضوعية»**، أحمد نوفل، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، عمّان، الأردن، ط١، ١٤٤٠هـ ـ ٢٠١٩م.

٧١ ـ **تفسير سورة هود «دراسة تحليلية موضوعية»**، أحمد نوفل، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، عمّان، الأردن، ط١، ١٤٣٩هـ ـ ٢٠١٨م.

٧٢ ـ **التناسب القرآني في آي قصة إبراهيم عليه السلام والملك نمرود**، مريم نافل الدويلة، جامعة الكويت، مجلس النشر العلمي، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، مجلد (٣٢)، العدد (١١١).

٧٣ ـ **تنوّع خطاب القرآن الكريم في العهد المكّي**، رجاء بنت صالح محمد البحر، مكتبة المتنبي، القاهرة، ط١، ٢٠١٦م.

٧٤ ـ **تهذيب تاريخ دمشق**، ابن عساكر، تحقيق: عبد القادر بدران، عمان ـ الأردن، دار المسيرة للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٧٩م.

٧٥ ـ **تهذيب مدارج السالكين**، عبد المنعم صالح العربي، دار البشير للثقافة والعلوم، مصر، ط١، ١٩٩٧م.

٧٦ ـ **التوبة في ضوء القرآن**، آمال صالح نصير، دار الأندلس الخضراء، جدة، السعودية، ط١، ١٩٩٨م.

٧٧ ـ **التوقيف على مهمات التعاريف**، محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي المناوي القاهري، عالم الكتب للطباعة، القاهرة، ط١، ١٤١٠هـ ١٩٩٠م.

٧٨ ـ **التيسير في أحاديث التفسير**، محمد المكي الناصري، دار الغرب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٧٩ ـ **ثمانون شخصية مشهورة في القرآن الكريم**، حنفي المحلاوي، دار النشر للجامعات، ٢٠١٣م.

٨٠ ـ **الثناء في القرآن الكريم**، هتون سامي عبد الرحمن فلمبان، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ٢٠١٦م.

٨١ ـ **جامع الرسائل**، ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، دار المدني للطباعة والنشر، جدة، السعودية، ط٢، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٤م.

٨٢ ـ **جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام**، ابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، دار العروبة، الكويت، ط٢، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٨٣ ـ **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**، ابن تيمية، تحقيق: علي بن حسن بن ناصر وعبد العزيز بن إبراهيم العسكر وحمدان بن محمد الحمدان، دار العاصمة للنشر، الرياض، السعودية، ط٢، ١٩٩٩م.

٨٤ ـ **حاشية السباعي على شرح الخريدة البهية في العقائد السنية**، أبو السعود السباعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

٨٥ ـ **حاشية الصّاوي على تفسير الجلالين**، أحمد الصّاوي المالكي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٥م.

٨٦ ـ **الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي**، الماوردي، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.

٨٧ ـ **حديث القرآن عن إسماعيل وإسحاق عليهما السلام**، د. سليمان إبراهيم الحصين، مجلة تبيان للدراسات القرآنية، الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه، ٢٠١٦م.

٨٨ ـ **الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها**، حسين مؤنس، طبعة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عالم المعرفة، ١ يناير، ١٩٧٠م.

٨٩ ـ **الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية**، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، دار ابن القيم للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط٢، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٩٠ ـ **حقيقة المسيح والتثليث**، منصور تميم نتشة، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، ط١.

٩١ ـ **الحكمة من إرسال الرّسل**، عبد الرازق عفيفي، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط ٢، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

٩٢ ـ **الحوار في قصة الخليل عليه السلام في القرآن دروس وعبر**، محمود سعد عبد الحميد شمس، رسالة ماجستير، كلية أصول الدين، جامعة أم درمان الإسلامية، السودان، ٢٠٠٨م.

٩٣ ـ **الحوار والاستدلال في القرآن الكريم**، خالد سليمان الياسين، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، إسطنبول، تركيا، ط١، ٢٠١٧م.

٩٤ ـ **الحياة الزوجية في القرآن الكريم**، عبد الفتاح أحمد الخطيب، دار اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

٩٥ ـ **خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم عليه السلام**، د. الشحات محمد أبو ستيت، مطبعة الأمانة، مصر، ط١، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.

٩٦ ـ **خطط الشام**، محمد كرد علي، مكتبة النوري، دمشق، ط٣، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

٩٧ ـ **الخليل إبراهيم عليه السلام في الكتاب والسنة**، عبد الله علي محمد أبو سيف، رسالة ماجستير، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الملك عبد العزيز، فرع مكة المكرمة، السعودية، ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م.

٩٨ ـ **خماسيات مختارة في تهذيب النفس الأمارة**، فضل حسن عباس، دار البشير للنشر والتوزيع، عمّان، ط١، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

٩٩ ـ **الداء والدواء**، ابن قيم الجوزية، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، السعودية، ط١، ١٤٢٩هـ.

١٠٠ ـ **دراسات تاريخية من القرآن الكريم**، محمد بيومي مهران، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

١٠١ ـ **دراسات في تاريخ العرب القديم**، محمد بيومي مهران، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط٢، ١٩٩٨م.

١٠٢ ـ **درب إبراهيم عليه السلام**، سعيد الشبلي، ام كي للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٩م.

١٠٣ ـ **درة التنزيل وغرة التأويل**، الخطيب الإسكافي، جامعة أم القرى، السعودية، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

١٠٤ ـ **دعاء الأنبياء والرسل**، محمد محمود أحمد وموسى الخطيب،

مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ط١، ١٩٩٩م.

١٠٥ ـ **دعوة الرسل إلى الله**، محمد أحمد العدوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

١٠٦ ـ **الدعوة إلى الله في سورة إبراهيم**، محمد بن سيدي بن الحبيب، دار الوفاء للطباعة والنشر، جدة، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م.

١٠٧ ـ **دليل البلاغة القرآنية**، محمد سعيد الدبل، مكتبة الملك فهد الوطنية، السعودية، ط٢، ٢٠١٠م.

١٠٨ ـ **الديانات الوضعية المنقرضة**، محمد العريبي، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٥م.

١٠٩ ـ **الرزق في القرآن الكريم**، د. سليمان الصادق البيرة، مكتبة الملك فهد الوطنية، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

١١٠ ـ **رسالات الأنبياء «دين واحد وشرائع عدة»**، عبد الرحمن حللي، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، ط١، ٢٠١٥م.

١١١ ـ **رسالة الأنبياء من شعيب إلى عيسى**، عمر أحمد عمر، دار الحكمة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٩٩٧م.

١١٢ ـ **الرّسل والرّسالات**، عمر سليمان الأشقر، مكتبة الفلاح، لبنان. دار النفائس، الكويت، ط٤، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م.

١١٣ ـ **روح البيان في تفسير القرآن**، إسماعيل حقي بن مصطفى الخلوتي البروسوري، دار الفكر، بيروت، ٢٠١٣م.

١١٤ ـ **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، الآلوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

١١٥ ـ **الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام ومعه السيرة النبوية**، ابن هشام، تحقيق: مجدي بن منصور بن سيد الشورى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٩م.

١١٦ ـ **رؤية إسلامية للنهضة بواقع الأمة**، محمد مسعد ياقوت، دار السلام للطباعة، القاهرة، ط١، ٢٠١٣م.

١١٧ ـ **رياض الصالحين من حديث سيد المرسلين**، الإمام النووي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

١١٨ ـ **زاد المسير في علم التفسير**، ابن الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط٤، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

١١٩ ـ **زاد المعاد في هدي خير العباد**، ابن قيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط ٢٨، ١٤١٥هـ.

١٢٠ ـ **زهرة التفاسير**، الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ٢٠٠٨م.

١٢١ ـ **زوجات الأنبياء**، د. مصطفى مراد، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة، د.ت.

١٢٢ ـ **سلسلة الأحاديث الصحيحة**، الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

١٢٣ ـ **سمات القيادة في القرآن الكريم من خلال قصة إبراهيم الخليل عليه السلام**، إبراهيم حسن إسماعيل رامي، مجلة القلم، جامعة القلم للعلوم الإنسانية والتطبيقية، اليمن، المجلد (٥)، العدد (١٠)، ٣١ آب ٢٠١٨م.

١٢٤ ـ **السنن الكبرى**، البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

١٢٥ ـ **سنن الله في الحضارة الإنسانية**، أحمد سريرات، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ٢٠١٣م.

١٢٦ ـ **السيرة النبويّة عرض وقائع وتحليل أحداث**، د. علي محمّد محمّد الصّلابيّ، دار المعرفة، بيروت، ط ١٢، ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م.

١٢٧ ـ **شرح صحيح مسلم (إكمال المعلم بفوائد مسلم)**، القاضي عياض، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

١٢٨ ـ **شرح صحيح مسلم**، الإمام النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ.

١٢٩ ـ **شرعة الله للأنبياء**، محمد مصطفى الزحيلي، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ٢٠١٨م.

١٣٠ ـ **صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام من خلال القرآن والسنة**، عمر عبد الوَهّاب محمود، مجلة كلية العلوم الإسلامية، العراق، المجلد (١١)، العدد (١/ ١٩)، ٢٠١٩م.

١٣١ ـ **صحيح ابن حبان**، محمد بن حبان التميمي الدارمي البُستي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

١٣٢ ـ **صحيح البخاري**، البخاري، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط ٤، ٢٠٠٢م.

١٣٣ ـ **صحيح الترغيب والترهيب**، الألباني، مكتبة المعارف للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

١٣٤ ـ **صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير**، الألباني، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

١٣٥ ـ **صحيح سنن أبي داود**، الألباني، دار المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

١٣٦ ـ **صحيح مسلم**، مسلم بن الحجاج، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٧٢م.

١٣٧ ـ **صفات الأنبياء من قصص القرآن «إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ولوط»**، عقيل حسين عقيل، سما للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ٢٠١١م.

١٣٨ ـ **صفوة البيان لمعاني القرآن**، محمد حسنين مخلوف، طبعة لجنة الاحتفالات بمقدم القرن الخامس عشر الهجري، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، ١٩٨١م.

١٣٩ ـ **الصلاة وحكم تاركها**، ابن قيم الجوزية، تحقيق: عدنان بن صفاخان البخاري، مجمع الفقه الإسلامي، جدة، السعودية، ط١، د.ت.

١٤٠ ـ **صناعة الحوار «مقاربة تداولية جمالية لحوارات سيدنا إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم»**، حمد عبد الله السيف، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١٥م.

١٤١ ـ **الصواعق المرسلة في الردِّ على الجهمية والمعطلة**، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة للطباعة، الرياض، السعودية، ط١، ١٤٠٨هـ.

١٤٢ ـ **الطبقات**، محمد بن سعد بن منيع الزهري، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي للطباعة، القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م.

١٤٣ ـ **طريق الهجرتين وباب السعادتين**، ابن قيم الجوزية، الدار السلفية، القاهرة، مصر، ط٢، ١٣٩٤هـ.

١٤٤ ـ **عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي**، ابن العربي المالكي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، صورة عن الطبعة المصرية القديمة، ٢٠٠٦م.

١٤٥ ـ **عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة**، فوزي محمد حميد، دار حطين للدراسات والترجمة، دمشق، سورية، ط١، ١٩٩٣م.

١٤٦ ـ **عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين**، ابن قيم الجوزية، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ومكتبة دار التراث، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط٣، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

١٤٧ ـ **العراق في التاريخ**، مجموعة من الباحثين، دار الحرية للطباعة والنشر، بغداد، العراق، ط١، ١٩٨٣م.

١٤٨ ـ **عصر النبي عليه السلام وبيئته قبل البعثة**، محمد عزّة دروزة، مطبعة دار اليقظة العربية، دمشق، ١٩٤٦م.

١٤٩ ـ **العقيدة الإسلامية وأسسها**، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم للطباعة والنشر، بيروت ـ دمشق، ط٢، ١٩٧٩م.

١٥٠ ـ **العقيدة الصافية للفرقة الناجية**، سيّد سعيد السيّد عبد الغني، دار طيبة الخضراء، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، ط١، ٢٠٠٦م.

١٥١ ـ **فبهداهم اقتده «قراءة تأصيلية في سير وقصص الأنبياء»**، عثمان محمد الخميس، دار إيلاف الدولية، الكويت، ط١، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م.

١٥٢ ـ **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٠هـ.

١٥٣ ـ **الفتح الربّاني والفيض الرحماني**، عبد القادر الجيلاني، تحقيق: الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح والمستشار توفِّيق علي وهبة، المكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠١٤م.

١٥٤ ـ **فتح القدير**، الشوكاني، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٤١٤هـ.

١٥٥ ـ **الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان**، ابن تيمية، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة دار البيان، دمشق، مكتبة المؤيد، الرياض، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

١٥٦ ـ **فضل الحجر الأسود ومقام إبراهيم وذكر تاريخهما وأحكامهما الفقهية وما يتعلَّق بهما**، سائد بكداش، دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٩٩٦م.

١٥٧ ـ **فقه دعوة الأنبياء في القرآن الكريم**، أحمد البراء الأميري، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠١٢م.

١٥٨ ـ **في صحبة الرسل الكرام**، السيّد عبد المقصود عسكر، دار البشير للثقافة والعلوم، القاهرة، ٢٠٠٠م.

١٥٩ ـ **في ظلال القرآن**، سيد قطب، دار الشروق للطباعة، القاهرة، ط ٣٢، ٢٠٠٣م.

١٦٠ ـ **فيض القدير شرح الجامع الصغير**، محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي المناوي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط١، ١٣٥٦هـ.

١٦١ ـ **قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم**، الحسين بن محمد الدمغاني، تحقيق: عبد العزيز سيّد الأهل، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٤، ١٩٨٣م.

١٦٢ ـ **قبر الخليل عليه السلام وبيان ما فيه من «البدع»، عرض ونقد**، حافظ محمد حيدر الجعبري، مجلة جامعة القدس المفتوحة للبحوث الإنسانية والاجتماعية، جامعة القدس المفتوحة، ع ١٢، ٢٠٠٨م.

١٦٣ ـ **قصة إبراهيم في القرآن الكريم**، إسحاق محمد حمدان البدارين،

رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٢م.

١٦٤ ـ **قصة الحضارة**، ول ديورانت، تقديم محيي الدين صابر، ترجمة زكي نجيب محمود، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، بيروت، د.ت.

١٦٥ ـ **قصة الذبيح عند أهل الكتاب والمسلمين عرض ونقد**، د. فتحي محمد الزغبي، دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١٠م.

١٦٦ ـ **قصص الأنبياء في رحاب الكون**، د. عبد الحليم محمود، دار الرشاد للنشر، القاهرة، ط ١، ٢٠١٠م.

١٦٧ ـ **قصص الأنبياء**، ابن كثير، دار الفيحاء، دمشق، ط١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م.

١٦٨ ـ **قصص الأنبياء**، مصطفى العدوي، مكتبة مكة، طنطا، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م.

١٦٩ ـ **قصص أولي العزم من الرسل**، ليلى بلخير، دار طيبة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ٢٠١٤م.

١٧٠ ـ **قصص القرآن الكريم**، فضل حسن عباس، دار النفائس للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط ٣، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠١٠ م.

١٧١ ـ **قصص القرآن**، محمد بن صالح العثيمين، دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية، ٢٠٠٤م.

١٧٢ ـ **القصص القرآني بين الآباء والأبناء**، عماد زهير حافظ، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

١٧٣ ـ **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، صلاح الخالدي،

دار القلم/ دمشق ـ الدار الشامية/ بيروت، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

١٧٤ ـ **القلوب والأفئدة والصدور في القرآن الكريم**، عبد الستار المرسومي، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، إسطنبول، تركيا، ط١، ٢٠١٣م.

١٧٥ ـ **الكامل في التاريخ**، ابن الأثير، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

١٧٦ ـ **كتاب النبوّات**، ابن تيمية، تحقيق: عبد العزيز بن صالح الطويان، أضواء السلف، الرياض، السعودية، ط١، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

١٧٧ ـ **كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم**، محمد علي التهانوي، تحقيق: رفيق العجم، علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

١٧٨ ـ **الكعبة المشرَّفة**، محمود أحمد الدوسري، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط١، ٢٠١٧م.

١٧٩ ـ **لسان العرب**، ابن منظور، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤١٤هـ.

١٨٠ ـ **الله جلَّ جلاله والأنبياء عليهم السلام في التوراة والعهد القديم (دراسة مقارنة)**، محمد علي الباز، الدار الشامية، بيروت، ٢٠٠٨م.

١٨١ ـ **مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن**، ابن الجوزي، تحقيق: مصطفى محمد حسين الذهبي، دار الحديث، القاهرة ط١، ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥م.

١٨٢ ـ **مجموع الفتاوى**، ابن تيمية، طبعة دار عالم الكتب، الرياض، ١٤١٢هـ.

١٨٣ ـ **محاسن التأويل**، محمد جمال الدين القاسمي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط٢، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

١٨٤ ـ **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير ابن عطية)**، ابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

١٨٥ ـ **مختار الصحاح**، الرازي، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية والدار النموذجية، بيروت، صيدا، ط٥، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

١٨٦ ـ **مختصر تفسير ابن كثير**، محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، ط٧، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨١م.

١٨٧ ـ **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١٢هـ.

١٨٨ ـ **مدارك التنزيل وحقائق التأويل (تفسير النسفي)**، عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، دار الكلم الطيب، دمشق، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

١٨٩ ـ **المرأة في القصص القرآني**، أحمد الشرقاوي، دار السلام للطباعة، القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م.

١٩٠ ـ **المسائل العقدية في حوارات إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم**، تهاني إبراهيم عبد الرحمن، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة النيلين، الخرطوم، السودان، ١٤٣٩هـ ـ ٢٠١٨م.

١٩١ ـ **المستدرك على الصحيحين**، الإمام أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.

١٩٢ ـ **مسند أحمد**، الإمام أحمد بن حنبل، تح: شعيب أرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ٢٠٠٨م.

١٩٣ ـ **مصر والشرق الأدنى القديم «سورية الفينيقيون والكنعانيون الإسرائيليون والفلسطينيون الآراميون»**، نجيب ميخائيل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط ٢، ١٩٦٤م.

١٩٤ ـ **مصنف بن أبي شيبة «الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار»**، ابن أبي شيبة، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٠٩هـ.

١٩٥ ـ **مع الأنبياء في الدعوة إلى الله**، محمد عبد القادر أبو فارس، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط١، ٢٠١٣م.

١٩٦ ـ **المعجم الأوسط**، الطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين للطباعة، القاهرة، ١٤١٥هـ.

١٩٧ ـ **معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م.**

١٩٨ ـ **المعجم الكبير**، الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢، د.ت.

١٩٩ ـ **معجم مقاييس اللغة**، ابن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة، القاهرة، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

٢٠٠ ـ **المعرّب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم**، أبو منصور الجواليقي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٦١هـ.

٢٠١ ـ **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، ابن هشام الأنصاري، تحقيق: مازن المبارك، محمد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق، ط٦، ١٩٨٥م.

٢٠٢ ـ **مفتاح دار السعادة**، ابن قيم الجوزية، تحقيق: عبد الرحمن بن حسن بن قائد، مجمع الفقه الإسلامي، جدة، السعودية، ط١، ١٩٩٧م.

٢٠٣ ـ **مفردات ألفاظ القرآن**، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داودي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط٤، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.

٢٠٤ ـ **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، جواد علي، دار الساقي، بيروت، ط٤، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

٢٠٥ ـ **المفصل في تاريخ العرب واليهود في التاريخ**، أحمد سوسة، دار الوراق، بيروت، ط١، ٢٠١٤م.

٢٠٦ ـ **مقارنة الأديان «اليهودية»**، د. أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٩، ١٩٩٠م.

٢٠٧ ـ **المقتطف من عيون التفاسير**، مصطفى الخيري المنصوري، تحقيق: محمد علي الصابوني، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠١١م.

٢٠٨ ـ **المقصد الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى**، الغزالي، الجفان والجابي، قبرص، ط١، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٢٠٩ ـ **مِلّة أبيكم إبراهيم**، عبد الستار كريم المرسومي، دار المعراج للنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ٢٠٢١م.

٢١٠ ـ **الملل والنحل**، الشهرستاني، مؤسسة الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٨م.

٢١١ ـ **من أنباء القرى**، أحمد عبيد الكبيسي، تحقيق: فاطمة محمد شنون، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٧م.

٢١٢ ـ **من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي**، د. زغلول النجار، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١٣م.

٢١٣ ـ **من آيات الإعجاز العلمي**، د. زغلول النجار، مكتبة الشروق، القاهرة، ط١٣، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.

٢١٤ ـ **من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين (آدم ونوح وإبراهيم)**، محمد فؤاد سندي، مكتبة الملك فهد الوطنية، السعودية، ط١، ٢٠٠٢م.

٢١٥ ـ **منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية**، ابن تيمية، محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٢١٦ ـ **منهج إبراهيم عليه السلام في تقرير العقيدة**، سعد القحطاني، رسالة ماجستير، جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، أم درمان، السودان، ٢٠١٨م.

٢١٧ ـ **منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله**، محمد سرور بن نايف زين العابدين، دار الأرقم، الكويت، ط٣، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م.

٢١٨ ـ **منهج التربية الإسلامية**، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٤، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

٢١٩ ـ **منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني**، منى عبد الله بن داود، دار ابن حزم، بيروت، ١٩٩٨م.

٢٢٠ ـ **موسوعة أخلاق القرآن**، أحمد الشرباصي، دار الرائد العربي للطباعة والنشر، بيروت، ط٣، ١٤٤١هـ.

٢٢١ ـ **موسوعة نساء الأنبياء (أمهات وزوجات وبنات الأنبياء من آدم إلى الرسول** ﷺ)، إسماعيل حامد، مكتبة النافذة، الجيزة، مصر، ط١، ٢٠١١م.

٢٢٢ ـ **النبوَّة والأنبياء**، محمد علي الصابوني، المكتبة العصرية، بيروت. صيدا، لبنان، ٢٠٠٣م.

٢٢٣ ـ **النشر في القراءات العشر**، ابن الجزري، تحقيق: علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى (تصوير دار الكتاب العلمية)، د.ت.

٢٢٤ ـ **نظرات عصرية في القرآن الكريم**، محمد لطفي جمعة، عالم الكتب للطباعة، القاهرة، ط١، ١٩٩١م.

٢٢٥ ـ **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

٢٢٦ ـ **النكت والعيون «تفسير الماوردي»**، أبو الحسن الماوردي، دار الكتب العلمية، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٨م.

٢٢٧ ـ **نوح عليه السلام والطوفان العظيم**، د. علي محمد محمد الصّلاّبي، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ٢٠٢٠م.

٢٢٨ ـ **نونية الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية**، ابن قيّم الجوزية، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، ط١، ٢٠٠٧م.

٢٢٩ ـ **هاجر المصرية أم العرب**، عبد الحميد جودة السحار، من سلسلة السيرة النبوية «محمد رسول الله والذين معه»، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٦٥م.

٢٣٠ ـ **وإبراهيم الذي وفّى**، د. فرحات بن علي الجّعبيري، المكتبة السعيدية للنشر، مسقط، سلطنة عُمان، ط٢، ٢٠١٤م.

٢٣١ ـ **وجوه البيان في دعاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام**، سميرة عدلي محمد رزق، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، العدد (١٠)، ١٤١٤هـ.

٢٣٢ ـ **الوسيط في تفسير القرآن المجيد**، الواحدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

٢٣٣ ـ **الوصف في القصة القرآنية**، أرشد يوسف العباس، دار المعتز للنشر والتوزيع، عمّان، ط١، ٢٠١٦م.

٢٣٤ ـ **وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم**، عبد العزيز ناصر الجليل، دار طيبة، الرياض، السعودية، ط٢، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

٢٣٥ ـ **وقفات في حياة الأنبياء عليهم السَّلام**، الشيخ خالد عبد العليم، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م.

٢٣٦ ـ **ولله الأسماء الحسنى**، عبد العزيز ناصر الجليل، دار طيبة، الرياض، ط٣، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.

٢٣٧ ـ **اليهود في القرآن**، عفيف عبد الفتاح طبارة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط ١٣، ٢٠٠١م.

* * *



مُحتويات الكتاب

الفصل الثاني

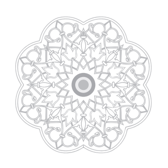
قصة إبراهيم عليه السَّلام في سور الأنعام، ومريم، والأنبياء، والشعراء، والعنكبوت، والصافات

الفصل الثالث

حوار إبراهيم عليه السَّلام مع الملِك الظالم وسؤاله لربِّه كيف تُحيي الموتى؟



* * *



كتب صدرت للمؤلف

١ ـ السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث.

٢ ـ سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه: شخصيته وعصره.

٣ ـ سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.

٤ ـ سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: شخصيته وعصره.

٥ ـ سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.

٦ ـ سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب: شخصيته وعصره.

٧ ـ الدولة العثمانية: عوامل النهوض والسقوط.

٨ ـ فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم.

٩ ـ تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا.

١٠ ـ تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي.

١١ ـ عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.

١٢ ـ الوسطية في القرآن الكريم.

١٣ ـ الدولة الأموية، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار.

١٤ ـ معاوية بن أبي سفيان، شخصيته وعصره.

١٥ ـ عمر بن عبد العزيز، شخصيته وعصره.

١٦ ـ خلافة عبد الله بن الزبير.

١٧ ـ عصر الدولة الزنكية.

١٨ ـ عماد الدين زنكي.

١٩ ـ نور الدين زنكي.

٢٠ ـ دولة السلاجقة.

٢١ ـ الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد.

٢٢ ـ الشيخ عبد القادر الجيلاني.

٢٣ ـ الشيخ عمر المختار.

٢٤ ـ عبد الملك بن مروان وبنوه.

٢٥ ـ فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة.

٢٦ ـ حقيقة الخلاف بين الصحابة.

٢٧ ـ وسطية القرآن الكريم في العقائد.

٢٨ ـ فتنة مقتل عثمان.

٢٩ ـ السلطان عبد الحميد الثاني.

٣٠ ـ دولة المرابطين.

٣١ ـ دولة الموحدين.

٣٢ ـ عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.

٣٣ ـ الدولة الفاطمية.

٣٤ ـ حركة الفتح الإسلامي في الشمال الأفريقي.

٣٥ ـ صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير البيت المقدس.

٣٦ ـ استراتيجية شاملة لمناصرة الرسول (ﷺ)، دروس مستفادة من الحروب الصليبية .

٣٧ ـ الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء .

٣٨ ـ الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين .

٣٩ ـ المشروع المغولي عوامل الانتشار وتداعيات الانكسار .

٤٠ ـ سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك .

٤١ ـ الشورى في الإسلام .

٤٢ ـ الإيمان بالله جل جلاله .

٤٣ ـ الإيمان باليوم الآخر .

٤٤ ـ الإيمان بالقدر .

٤٥ ـ الإيمان بالرسل والرسالات .

٤٦ ـ الإيمان بالملائكة .

٤٧ ـ الإيمان بالقرآن والكتب السماوية .

٤٨ ـ فاتح القسطنطينية السلطان محمد الفاتح .

٤٩ ـ المعجزة الخالدة .

٥٠ ـ الدولة الحديثة المسلمة، دعائمها ووظائفها .

٥١ ـ البرلمان في الدولة الحديثة المسلمة .

٥٢ ـ التداول على السلطة التنفيذية .

٥٣ ـ الشورى فريضة إسلامية .

٥٤ ـ الحريات من القرآن الكريم، حرية التفكير وحرية التعبير، والاعتقاد والحريات الشخصية .

٥٥ ـ العدالة والمصالحة الوطنية ضرورة دينية وإنسانية.

٥٦ ـ المواطنة والوطن في الدولة الحديثة.

٥٧ ـ العدل في التصوُّر الإسلامي.

٥٨ ـ كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.

٥٩ ـ الأمير عبد القادر الجزائري.

٦٠ ـ كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، سيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس، الجزء الثاني.

٦١ ـ سُنة الله في الأخذ بالأسباب.

٦٢ ـ كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الإمام محمد البشير الإبراهيمي.

٦٣ ـ أعلام التصوف السُّني «ثمانية أجزاء».

٦٤ ـ المشروع الوطني للسلام والمصالحة.

٦٥ ـ الجمهورية الطرابلسية (١٩١٨ ـ ١٩٢٢) أول جمهورية في تاريخ المسلمين المعاصر.

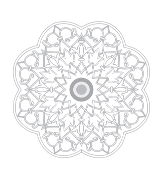
٦٦ ـ الإباضية: مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج.

٦٧ ـ المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام: الحقيقة الكاملة.

٦٨ ـ نوح عليه السلام والطوفان العظيم وميلاد الحضارة الإنسانية الثانية.

٦٩ ـ إبراهيمُ عليه السَّلام خَلِيْلُ اللهِ «دَاعِيةُ التَّوحِيدِ وَدينِ الإِسْلاَمِ وَالأُسْوَةُ الحَسَنَةُ»..

❊ ❊ ❊





المؤلف في سطور

د. علي محمَّد محمَّد الصَّلابي

مفكر ومؤرخ وفقيه

❋ ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٣م.

❋ نال درجة الإجازة العالمية (الليسانس) من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة عام ١٩٩٣م، وبالترتيب الأول.

❋ حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين في جامعة أم درمان الإسلامية عام ١٩٩٦م.

❋ نال درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية بأطروحته فقه التمكين في القرآن الكريم من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان عام ١٩٩٩م.

❋ اشتهر بمؤلفاته واهتماماته في علوم القرآن الكريم والفقه والتاريخ والفكر الإسلامي.

ـ زادت مؤلفات الدكتور الصلابي عن ستين مؤلفًا أبرزها:

❋ السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث.

❋ سير الخلفاء الراشدين.

❋ الدولة الحديثة المسلمة.

❋ الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط.

❊ فاتح القسطنطينية السلطان محمد الفاتح .

❊ وسطية القرآن الكريم في العقائد .

❊ صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي .

❊ تاريخ كفاح الشعب الجزائري .

❊ العدالة والمصالحة الوطنية .

❊ الإباضية مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج .

❊ المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام الحقيقة الكاملة .

❊ نوح عليه السلام والطوفان العظيم وميلاد الحضارة الإنسانية الثانية .

❊ قصة بدء الخلق وخلق آدم عليه السلام .

❊ إبراهيمُ عليه السَّلام خَلِيْلُ اللهِ «دَاعِيةُ التَّوحِيدِ وَدينِ الإِسْلَامِ وَالأُسْوَةُ الحَسَنَةُ» .

❊ ❊ ❊